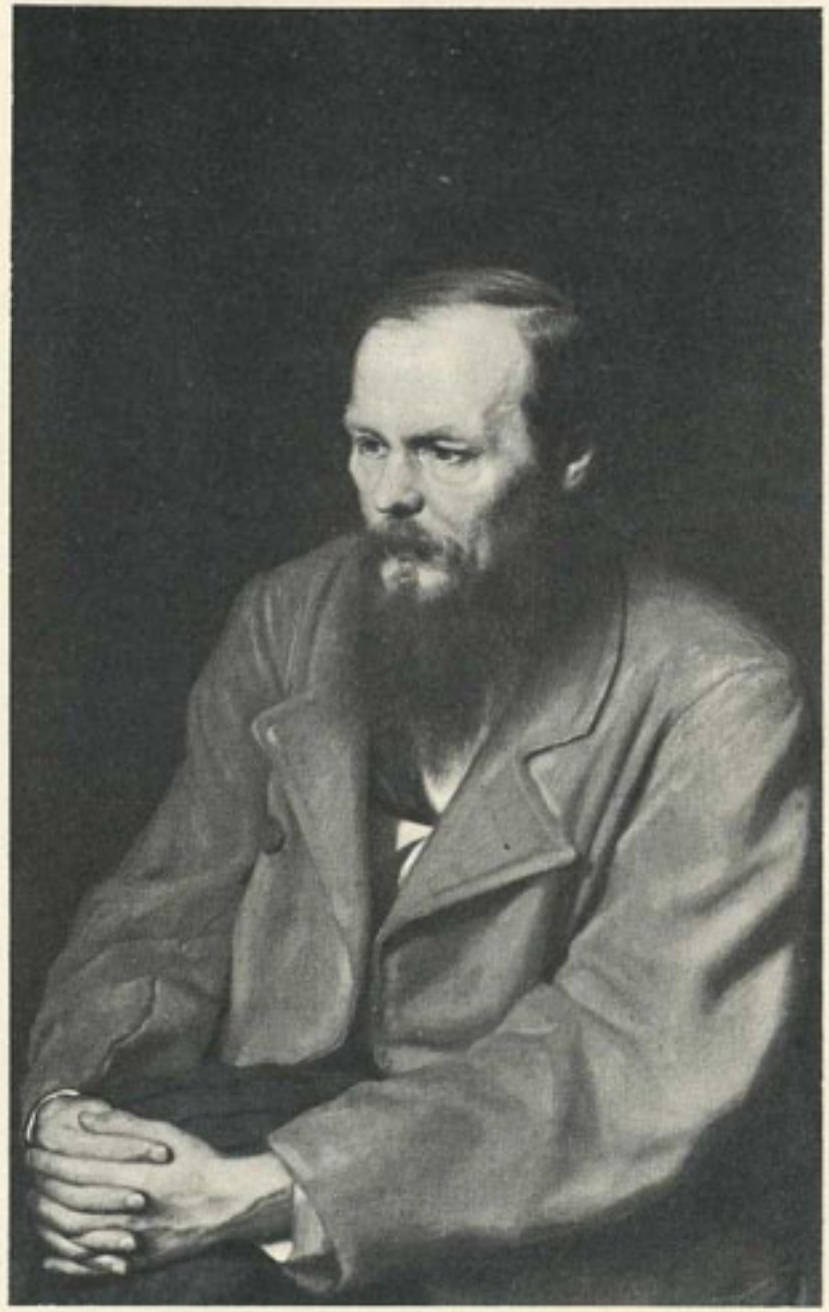


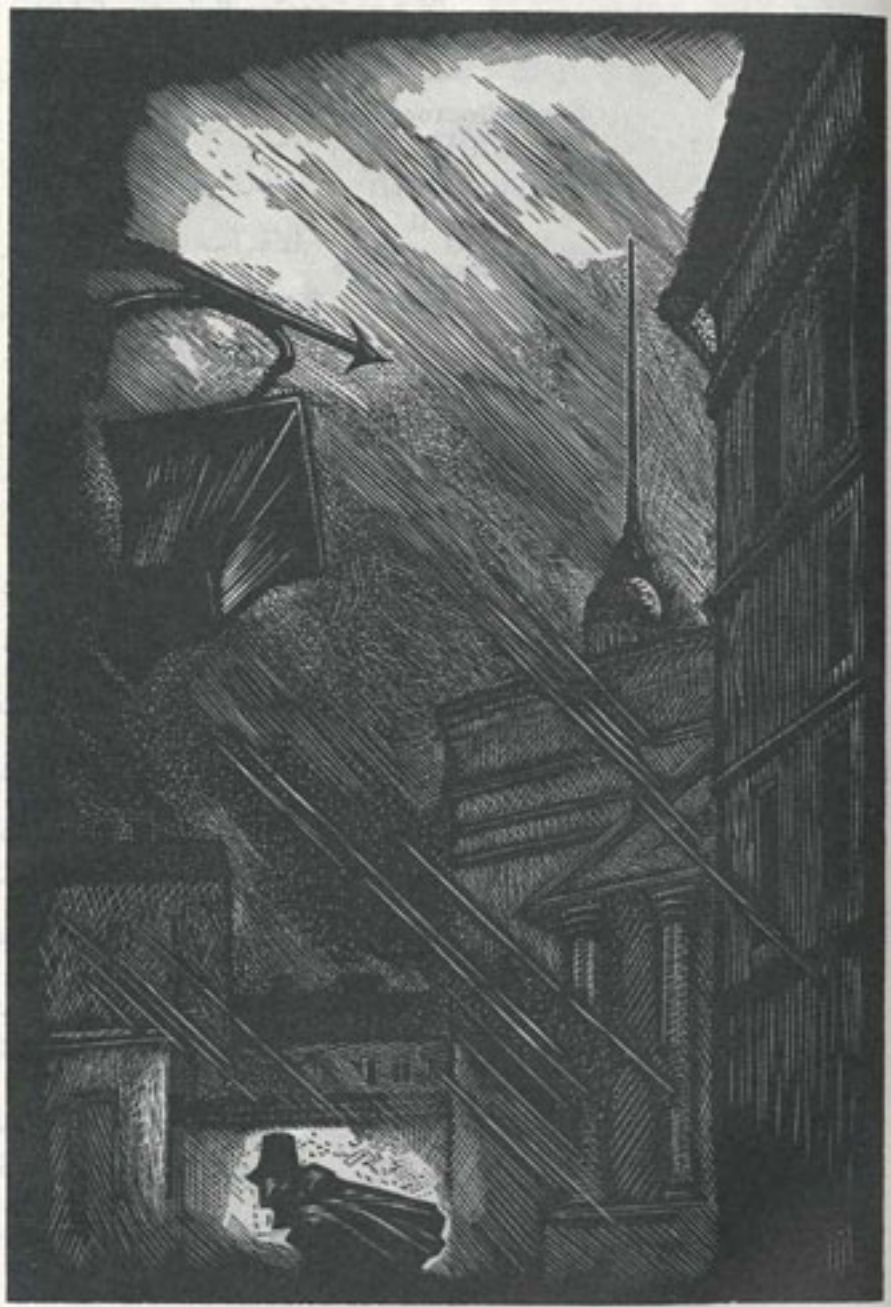


رواية فى مجلدين

المجلد الاول

دوستويفسكى

الأبله



ترجمة د . سامى الدروبى
مراجعة د . ابو بكر يوسف
رسوم أ . غونتشاروف

Федор Достоевский
ИДИОТ

Книга I
ч. I и II

На арабском языке

© المراجعة والمقدمة والرسوم — دار «رادوغا» ، ١٩٨٥
طبع فى الاتحاد السوفيتى

ISBN 5-05-000077-7
ISBN 5-05-000078-5

Д 4702010100-495 / 031(05)-85 067-85

من المراجع

عندما عهدت اليّ الدار بالاشراف على مراجعة ترجمة الدكتور سامى الدروبى لرواية «الأبله» ترددت كثيرا فى البداية . وكانت لهذا التردد بواعثه العديدة . فأنا أعلم أن الدكتور سامى الدروبى قد وقف سنوات طويلة من حياته على ترجمة أعمال دوستويفسكى (وتولستوى أيضا) ، وبذل فيها من الجهد والعناء والتدقيق والتمحيص ما يجعل الاقتراب منها بالتغيير والتعديل أمرا محفوفا بمخاطر الاساءة الى ذلك الجهد الكبير والى ذكرى صاحبه الراحل الذى ارتبطت هذه الترجمة باسمه فى أذهان المثقفين العرب على مرّ السنين . وكان من بواعث التردد كذلك . . الخوف من الانزلاق وراء اغراء التدخل — بحكم كونى مترجما — فى أسلوب الترجمة ، وتطويعه لأسلوب وذوق المراجع ، مما يفقد الترجمة الأولى اصالتها ولا يقدم ، بديلا عنها ، ثمرة ابداعية جديدة مستقلة .

ولكن عنصرا هاما فى الموضوع تغلب على بواعث التردد ، ورجّح كفة القرار . فمن المعروف أن الدكتور سامى الدروبى لم يترجم هذه الرواية — وغيرها من أعمال دوستويفسكى وتولستوى — عن اللغة الروسية مباشرة ، بل عن طريق لغة وسيطة هى الفرنسية . وفى مثل هذه الاحوال ، ومهما كانت الترجمة أمينة ودقيقة ، فلن تخلو من اختلافات عن النص الأصلى ، وذلك أمر طبيعى فى سياق الترجمة عن لغة وسيطة . وقد تاكدت من ذلك عند قيامى بالمراجعة الأولى لترجمة الرواية ، فأصبح من الضرورى حقا تدقيق ومراجعة الترجمة ، خاصة وهى تصدر هذه المرة فى الاتحاد السوفييتى ،

وعن دار نشر سوفييتية . وقد عمدنا الى تشكيل فريق مراجعة ثلاثى ، من المستعربتين تاتيانا برافدينا وفيرا كوماروفا ومنى ، وذلك حتى نضمن أولا الا ينفرد ذوق واحد أو أسلوب واحد بالتعديلات فيطغى عليها أو ربما يسرف فيها ، ولكى نضمن ثانيا اقصى قدر من الدقة بهذه المتابعة الثلاثية لما يدخل على نص الترجمة من تدقيق وتغيير .

ووضع فريق العمل هذا نصب عينيه هدفين اثنين : أولا ، اجراء التعديلات الضرورية فيما يتعلق بالاخطاء فى نقل المعانى ، بحيث تصبح الترجمة متفقة مع الأصل الروسى ، متخلصة من شوائب التصرف ما أمكن ، وثانيا : عدم التدخل فى اسلوب المترجم الا فى أضيق الحدود ، والا حينما نجد ان البديل المقترح هو أقرب الى روح الرواية وأسلوب كاتبها وطبيعة الموقف الروائى او شخصيات الأبطال ، ولا يخل بالخصائص الأسلوبية العامة للدكتور الدروبى . وفى هذا الصدد فقد اضطررنا الى حذف المترادفات التى تكرر الفكرة الواحدة ، خاصة حينما لا يكون لها وجود فى الأصل الروسى ، وذلك أمانة منا لأسلوب الاديب الكبير فيودور دوستويفسكى المتميز . وأخيرا أستطيع ان أقول اننا قد وفقنا الى اعادة صياغة الترجمة بما يحقق هذين الهدفين الرئيسيين ويمكن القارئ العربى من الاقتراب أكثر من روح دوستويفسكى وأسلوبه واجواء هذا لأثر المبدع من آثار الأديب الروسى العظيم . واذا كان هذا العمل لا يخلو من اوجه قصور فان أملنا ان تكون ملاحظات القراء والمختصين هاديا لنا نحو المزيد من الرقى فى الطبعات التالية .

الدكتور ابو بكر يوسف

مقدمة

رواية الأفكار الاخلاقية العميقة

بقلم : الأستاذ ف . كوليشوف
الدكتور فى علوم الأدب

يتمتع الكاتب الروسى العظيم فيودور ميخايلوفتش دوستويفسكى (١٨٢١ — ١٨٨١) بشهرة عالمية واسعة . وقد ترجمت أعماله الى العديد من اللغات ، واصبحت أفكارها وشخصياتها جزءا من تراث البشرية الروحى . ولا شك ان أهمية دوستويفسكى ودوره لا تحددها قوة موهبته واصالة رواياته وانسانية مضمون ابداعه وتلك الحماسة الجياشة التى كان يطرح بها أفكاره فحسب ، بل كذلك الهزّات العنيفة التى تعرضت لها البشرية فى قرننا العشرين وجعلت القراء فى العالم أجمع أكثر استجابة واحساسا بما يقص عنه دوستويفسكى . وهو يقص عن آلام البشر وعذاباتهم . . عن قسوة وعنف الأغنياء والاقوياء على البسطاء والفقراء ، وعن سعى المذلّين الى الذود عن كرامتهم الانسانية وتحدى الشر والاضطهاد السائدين فى المجتمع .

ان أقيم ما فى تراث دوستويفسكى هو رواياته . وقد اشتهرت فى العالم بصفة خاصة روايتا «الجريمة والعقاب» و«الأخوة كارامازوف» ، أقوى رواياته وأنجحها ، واللتان عبرتا بأكمل صورة عن فلسفة الكاتب . بيد ان رواياته الأخرى : «مذلّون مهانون» ، «الأبله» ، «الشياطين» ، «المراهق» ، لعلى جانب عظيم من الأهمية والطرافة . ففى كلٍ منها فكرتها الأساسية ، التى تناقشها جوقة الأبطال . وكثير من

القضايا تنتقل لدى دوستويفسكى من رواية الى أخرى ، مكوِّنة ذلك السياق المعقد الذى تتجلى من خلاله الفكرة الأساسية . لقد عانى دوستويفسكى نفسه فى حياته الكثير من المشاق ، وكان انسانا أبيًا ، عنيدا فى الدفاع عن معتقداته . . وقد ترك ذلك كله بصماته على أعماله .

ولد دوستويفسكى فى موسكو ، فى أسرة مطبب ينحدر من فئة رجال الدين ، منح لقاء استقامته فى الخدمة لقب نبيل . وكانت أمه تنتمى الى فئة التجار . وكان أبوه رجلاً صعب الطباع ، وعلاوة على ذلك كان مريضا بالصرع ، الذى انتقل بالوراثة الى ابنه . أما أمه فربت فيه المشاعر الدينية العميقة . ومنذ طفولته أولع دوستويفسكى بميول التمرد والطموحات المثالية لشيلّر . وأحب صورة دون كيشوت ، الفارس المناضل من أجل العدالة ، والتى ابدعتها ريشة سرفانتس . وفيما بعد استمالته نبرة حب البشر ، ولو كانت عاطفية بعض الشىء ، فى روايات ديكنز ، الذى كان يجيد اثارة العطف على المهانين الذين يحدق بهم الهلاك فى أكواخ المدن الحقيرة وتحيط بهم احابيل الدسائس الدنيئة والمطاردات . وكان دوستويفسكى يكن تقديرا عاليا لروايات جورج صاند ، الذائعة الصيت آنذاك ، حيث أثيرت ، فى شكل يوتوبيات اجتماعية ، قضايا تحرير المرأة والانسجام الاجتماعى . وقاد الايمان بالخير والانسان دوستويفسكى الى الاعجاب بفكتور هوجو لأن روايته «أحدب نوتردام» تتضمن فكرة العصر : «اعادة بناء الانسان الهالك ، المسحوق ظلما تحت وطأة الظروف ، وخمول القرون ، والأحكام الاجتماعية المسبقة» . وقد كتب دوستويفسكى نفسه هذه العبارة فى مقدمته للترجمة

الروسية لرواية هوجو . وكانت قريبة الى نفسه تعرية التناقضات الاجتماعية فى أعمال بلزاك ، الذى ترجم له دوستويفسكى رواية «اوجين غراندى» قبل عامين من اصداره لأول عمل أدبى له وهو رواية «المساكين» (١٨٤٦) . وكان دوستويفسكى يعيش آنذاك فى بطرسبورج ، حيث تخرج من معهد الهندسة ، ولكنه لم يلتحق بالوظيفة اذ لمس فى نفسه أنه أديب بالفطرة . وتعرف عن قرب بالناقد الروسى البارز فيسّاريون بيلينسكى الذى كان يتزعم كوكبة من الأدباء الشبان من انصار ما سمي بـ«المدرسة الطبيعية» ، وهى التسمية التى اصطلح آنذاك على اطلاقها على ادباء الاتجاه الواقعى . وأصبح دوستويفسكى مشاركا نشيطا فى أكبر حركة تقدمية فى الأدب الروسى . ثم توالت بعد «المساكين» أعمال الكاتب الأخرى : «المثْل» و«ربة البيت» ، اللتان كشفتا عن جوانب جديدة لموهبته . وقد أثنى بيلينسكى ثناء بالغاً على دوستويفسكى الذى احتل فى الأدب على الفور مكانة «غوغول الجديد» .

ثم تعرف دوستويفسكى عن قرب بالمثقف الروسى ميخائيل بتراشيفسكى الذى تجمع حوله اولئك الذين أسرتهم أفكار شارل فوريه وكونسيدران الاشتراكية الطوباوية ودعوات تغيير المجتمع . وانضم دوستويفسكى الى حلقة «البتراشيفسكيين» الذين اسسوا جماعة شبه سرية . لقد أحس بتجاوب أفكار الجماعة مع الكثير مما فى نفسه من تطلع الى «اعادة بناء الانسان» . وتمكنت الشرطة من تتبع الجماعة حتى ألقت القبض على اعضائها فى ربيع عام ١٨٤٩ . وفى تلك الفترة كانت الأحداث الخطيرة تعصف بفرنسا وألمانيا ، حيث اندلعت الثورات ، التى أرعبت بشدة القيصر نيقولاي

الأول . وأراد القيصر أن يقمع أى بوادر للسخط فى روسيا ، فحكم على كثير من «البتراشيفسكيين» بالاعدام ، ومن بينهم دوستويفسكى . وعايش دوستويفسكى ، واقفا على منصة الاعدام ، كل طقوس تنفيذ الحكم ، وقد وصف هذا المشهد فى أكثر من عمل من أعماله ، كما ورد أيضا فى رواية «الأبله» فى حديث البطل عن حادثة أخرى وشخص آخر . ولكن الحكم بالاعدام خفف فى آخر لحظة الى الأشغال الشاقة ، التى قضاها دوستويفسكى منفياً فى سيبيريا . وقد وصف حياته وهو يقضى الأشغال الشاقة فى كتابه «ذكريات من منزل الأموات» . وعلاوة على ذلك ألحق دوستويفسكى بالخدمة العسكرية جنديا فى سيبيريا . ولم يتمكن الكاتب من العودة الى الحرية وممارسة نشاطه الأدبى الا بوفاة نيقولاي الاول ، وبعد أن أمضى عشر سنوات من العقوبة .

كان دوستويفسكى ، حسب تكوينه الفكرى كله ، انسانيا وديمقراطيا ومعاديا لكل ما يرتبط بنظام القنانة . وكان يرغب فى أن ينعم الشعب فى روسيا بالحرية . ولهذا تصاعد فى ابداعه الاتجاه النقدى والتعاطف مع المذلين والمهانين . وأبطال رواياته : راسكولنيكوف فى «الجريمة والعقاب» ، وديمتري وايفان فى «الأخوة كارامازوف» ، يتوقون الى تغيير العالم حتى يُنتقم لكل المآسى والدموع ويحق القصاص . وهم يتحرقون الى هذا التغيير لا من أجل روسيا وحدها ، بل وللبشرية جمعاء . ويجد الكاتب كلمات جياشة ، مفعمة بالصدق الآسر ، تهز قلب القارئ المعاصر أيضا فى أى بقعة من العالم ، لأن القضايا التى أثارها دوستويفسكى ما زالت الى حد كبير قائمة حتى اليوم .

ولكن دوستويفسكى نفسه راودته الأوهام بأن اصلاح عام ١٨٦١ (الغاء نظام القنانة فى روسيا) قد قضى على التناقضات العدائية بين الفئات الاجتماعية فى روسيا ومهد السبيل الى تطورها المنسجم . ووضع الكاتب ، على صفحات مجلتيه «الوقت» و«العصر» نظرية كاملة عن «الترابية» ، معتقدا انه قد حل الآن أوان العمل المشترك على أرض الوطن ، على «ترابه» وانه من الممكن بتكافل الفرص المتساوية للجميع ، ودون تكرار لأخطاء الغرب وما يميزه من هزات وثورات ، بناء علاقات اجتماعية جديدة فى روسيا بالتدريج ، على أساس الوفاق الخيّر ، حسب وصايا فوريه وغيره من الاشتراكيين. لقد ظل دوستويفسكى «بتراشيفسكياً» ، ولكن أمله خاب فى الطريق الثورى . ومن هنا نشأت الازدواجية فى ابداعه : اذ نجد فيه النقد القاصم لكل دناءة العالم الاستغلالى ولأولئك الذين يريدون أن يكسبوا بصفاقة من اصلاح ١٨٦١ ، أولئك الغرباء عن «القضية المشتركة» من جهة ، ومن جهة أخرى ، طوباوية الوصفات التى يقدمها لانقاذ الوضع . ويولى الكاتب اهمية كبيرة لمواعظ المسيح ، الذى يأسره بما يمثله من قيمة انسانية عامة ، وسهولة وصوله الى وعى الملايين . وفى روايات دوستويفسكى الكثير من الصدق المرعب عن الانسان والمجتمع ، والكثير من المجادلات الجياشة المتعددة الأصوات حول ألح قضايا الاخلاق والفلسفة والسياسة . ولكن فيها أيضا الكثير من المواقف والمحاورات والحلول «المختلقة بعبقرية» والتى أثارت حولها الجدل فى الماضى وتثير اليوم اعتراضنا عليها ، لأنها تضعف وضع القضايا الملحة .

وهكذا تبدو رواية «الأبله» ممثلة لكل الجوانب المميزة لموهبة دوستويفسكى ، لقوته وضعفه ، هذه الرواية التى كتبها عام ١٨٦٨ ، بعد قضائه الاشغال الشاقة ، وفى فترة الغليان التى واكبت الغاء القنانة .

ان كلمة «أبله» لا تحمل معنى السخرية والقذف . فهى تعنى لدى دوستويفسكى ، وحسب استخدامات اللغة الروسية آنذاك ، الشخص «الغريب التصرفات» ، فهى أقرب الى كلمة «يورووديفى» (ربما يقابلها فى العربية : المجذوب أو الدرويش أو العبيط — المراجع) . وفى المعتقدات الشعبية الروسية فان «اليورووديفى» هو قديس تقريبا ، فبلسانه تنطق الحقيقة ، وهو المدافع عن بسطاء الشعب .

ويؤسس دوستويفسكى روايته على تجربة جريئة ، اذ يجعل بطلها الرئيسى الأمير ميشكين ، الذى لم يرث من الامارة سوى اللقب (ثم هبطت عليه ثروة مفاجئة) . أما فى الواقع فهو ليس الا واحداً من «الناس الصغار» ، «ذوى القلوب الضعيفة» الذين كان دوستويفسكى يهوى تصويرهم . ان الاتقياء ، بالقدوة الشخصية فى الطيبة والاذعان ، يرشدون الناس الى الطريق القويم . وفى الأدب العالمى كان الرواد السابقون للأمير ميشكين هم دون كيشوت وجان فالجان (من «بؤساء» هوجو) . ويبدو ميشكين أشبه بالمسيح ، وقد ارتدى حلة «الفراك» وانخرط فى زحام حياة البشر المعاصرة ، محاولاً أن يفهم أهواءهم ويساعد على جمع ما لا يجتمع . وهو يشبه المسيح من حيث مظهره كذلك ، فهو فى عمر المسيح ، فى السابعة والعشرين ، بوجه شاحب ، وخدين غائرين ، ولحية صغيرة مدببة ، وعيناه واسعتان ثاقبتا النظرة ،

وطهارته الخلقية وطريقة سلوكه ، وكلامه ، وطيبة روحه وتسامحه المطلق ، وفراسته الهائلة ، وخلوه من أى إغراض أو أنانية ، وعجزه عن رد الاهانة . . . كل ذلك من سمات المثالية حسب قواعد الاخلاق المسيحية .

لقد وصف دوستويفسكى واقعيته بـ«الخيالية» ولكن لا حسب المعنى المتعارف عليه للخيالية ، بل كانتقاء ، من بين المواقف الحياتية ، للحالات الخارقة للعادة ، التى تلقى الضوء الساطع على العلاقات الانسانية . ولذلك فكل رواياته تقريبا تقوم على حوادث الجرائم وأعمال العنف والحالات الجنائية . فهذه الحالات غير العادية ، التى تقف على حافة «الخيال» تتيح للكاتب ، حسب رأى دوستويفسكى ، أن يقدم النموذجى فى الحياة بأسطع صورة . وهكذا يقدم الكاتب فى «الأبله» حالة خارقة للعادة ، اذ يصل الأمير ميشكين ، «الرجل الطبيعى» بمفهوم نظرية روسو ، الى روسيا قادما من سويسرا ، حيث كان يعالج من الصرع . واذ بحالته «الشاذة» تبدو أكثر طبيعية بكثير من حياة بطرسبورج التى انخرط فيها . لقد كانت رغبة دوستويفسكى فى انتشال الناس من الوحل الذى يعيشون فيه ، وتعطشه الى المثل الأعلى رغبة وتعطشا عظيمين الى درجة انه أجاب على السؤال : هل أنت مع الحقيقة أم مع المسيح ؟ بقوله : «اننى افضل المسيح» . ولنلاحظ ان دوستويفسكى لم يهجر الحقيقة ، أى الواقع ، وككاتب وقف راسخا على أرضيتها . ولكن «وجه هذا العالم» ، كما عبر فى احدى رسائله ، لم يكن يعجبه ، ولا بد من تغيير العالم . ولهذا ثارت قضية المثل العليا . لقد أراد ان يقدم مثلاً أعلى يراه الجميع ويؤمنون به .

وكان الكاتب قد فضح الكنيسة الرسمية باعتبارها شراً كغيره من الشرور . ولهذا وجد فى المسيح ، المتطهر من ادران الكنيسة ضالته المنشودة . لقد كان دوستويفسكى يحلم بأخوة البشر . وفى هذا المثل الأعلى لم يخطئ ظنه .

لقد اهتم دوستويفسكى بألا يتحول ميشكين الى مواعظ خلقية تمشى على ساقين ، وبألا تحط سذاجته وبساطة قلبه وطيبته من قدره وتفقدنا الثقة فى واقعيته . ومن وجهة نظر الناس المبتذلين كثيرا ما يبدو الأمير مضحكا . وهو أيضا يضحك من نفسه ولا يماري أبدا فى انه شخص غريب ، أبله ، ولكن باى حقائق نطقت شفتاه ، وأى براءة طفولية كانت فى تصرفاته ! حتى أن المحيطين به كانوا هم الذين يصبحون فى خاتمة المطاف مجللين بالخزى .

وبالتدريج يكسب ميشكين ميل الناس وودهم . واذا كانت قد اختلطت بذلك لديهم اعتبارات ثروة الأمير (الذى حصل على ميراث كبير) فان ميشكين نفسه لم يتغير قط بسبب ذلك . وقد توصل بعض الأشخاص بطرقهم الخاصة الى الحقائق الاخلاقية السامية التى دفعهم ميشكين الى البحث عنها .

ويقود دوستويفسكى بطله الأمير ميشكين الورع عبر محن كثيرة . وبالتدريج تتكشف الثغرات فى وعظه المسيحى بالمحبة . ان ميشكين لا يُجارىَ عندما يتصدى للشهوات الجسدية وللحب القائم على البيع والشراء . ولكن البشرية لا تستطيع أن تحيا على الحب الافلاطونى وحده . فتهرب ناستاسيا فيليبوفنا من ميشكين الى روغوجين ، رغم أنها تلقى حتفها . وفى النهاية يعانى ميشكين من «بلوى العقل»

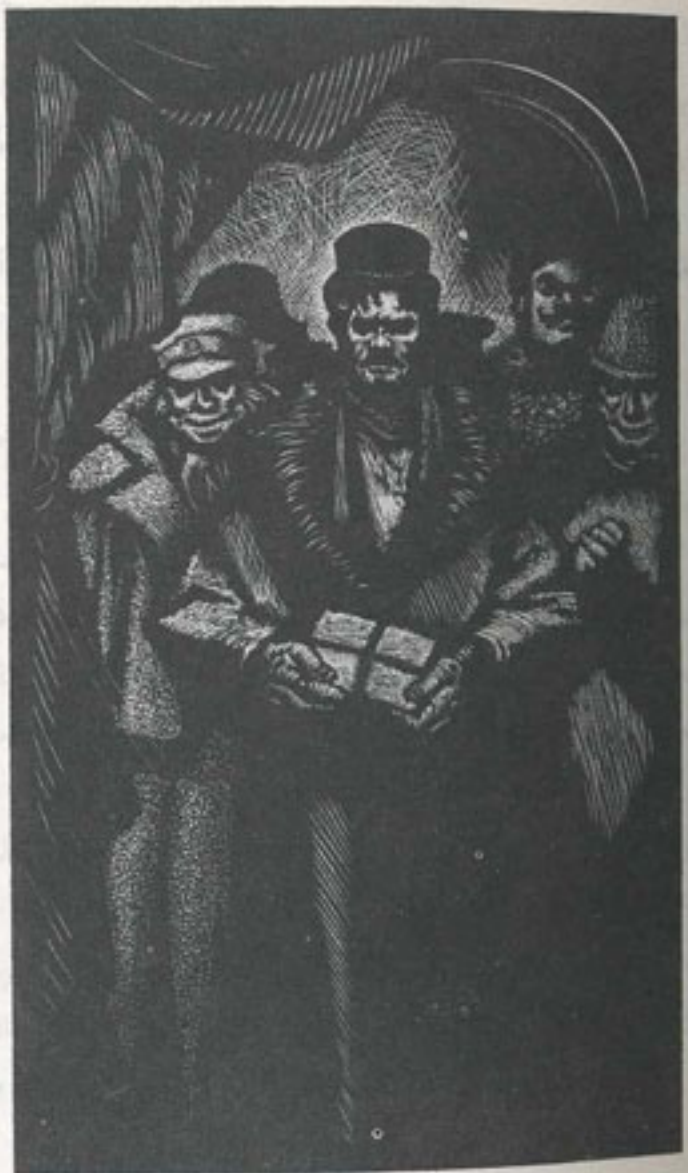
و«بلوى القلب» . ويعود المجتمع الفاسد الى وصفه بـ«الأبله» ، ولكن ليس مزاحاً هذه المرة ، فيغادر روسيا الى سويسرا ليلتحق بالمستشفى ثانية . ولا يخفى دوستويفسكى أن الشخص الورع لا يمكن ان يعيش فى المجتمع المعاصر ، وفى خاتمة المطاف يستسلم أمامه .

ومع ذلك فقد أثار ظهور ميشكين شيئا من الحيرة والارتباك فى المجتمع . وهمّت بعض القلوب الفتية بالخروج منه وقطع صلتها به . وخاب سعي الكثيرين فى محاولاتهم . ولكن الحياة الفاسدة التى يحياها الجنرالان ايبانتشين وايفولجين ، هذين الدعيين التافهين اللذين أثريا بالغش وغرقا فى الفجور والسرقة ، واللذين تتفكك اسرتاهما . . تلك ايضا ليست بالحياة .

ان قوة رواية «الأبله» تكمن فى الاستخدام الفنى للتناقض بين القيم الروحية المثالية التى توصلت اليها البشرية عبر قرون طويلة ، وتصوراتها عن الخير والجمال ، وبين العلاقات الوضيعة المستقرة بين أفراد المجتمع ، والقائمة على النقود والحسابات والتحيزات المسبقة والعنف . ولقد أعرب الكاتب الروسى الساخر سالتيكوف–شيدرين عن تقييم رائع لرواية «الأبله» اذ قال ان هذا الكاتب «من حيث عمق الفكرة واتساع المهام المطروحة لعالم الاخلاقيات يقف متفردا تماما ويستحق كل اهتمام . انه يمضى الى أبعد من تلك الاهتمامات التى تثير المجتمع المعاصر ، و«يلج مجال التنبـؤات والهواجس ، التى تشكل غاية . . . التطلعات البعيدة للبشرية» . ان أهم القضايا الاجتماعية المعاصرة لا يمكن أن يكون لها تفسيرها وحقها فى الوجود اذا لم نضع فى اعتبارنا هذه

الغاية ، غاية ايجاد الانسان المنسجم فى المجتمع المنسجم .
ونضيف نحن الى هذا الكلام قولنا بأن فكرة رواية دوستويفسكى فكرة اشتراكية . فلم يفعل دوستويفسكى سوى ان اضفى على المثال الأعلى طابع «الاشتراكية المسيحية» دون أن يلحظ أن الثوريين الذين كان يعارضهم ، هم بالذات من ناضل ببطولة من أجل تقريب هذا المثال .

لقد اصبحنا الآن نعرف أن المثال الأعلى للوجود المنسجم يمكن ان يتحقق عبر النضال الشاق الطويل ، الذى تعود الكلمة الحاسمة فيه للشعوب ، أى لأولئك الملايين من المذلين المهانين الذين كان دوستويفسكى معنيا بمصيرهم ، عاطفا عليهم بصدق ، ومؤمنا «باعادة بنائهم» فى النهاية ، وبازدهارهم وتفجر طاقاتهم .



الفصل الأول

فى صباح من أصباح نهاية شهر نوفمبر فى فترة حل فيها الدفء ، فى نحو الساعة التاسعة ، كان قطار وارسوه يقترب من بطرسبرج مسرعاً . ان الرطوبة والضباب يبلغان من الكثافة ان اشعة الشمس لا تكاد تنفذ الى الأرض ؛ فيصعب على راكب القطار ، اذا هو نظر من النافذة يمنة او يسرة ، أن يميز اى شىء على مسافة عشر خطوات . وكان من بين الركاب بعض العائدين من الخارج ؛ غير أن اقسام الدرجة الثالثة ، وهى أحفل الاقسام بالركاب ، كانت ممتلئة بأناس من متوسطى الحال ، يسافرون لقضاء أعمال ، وليسوا قادمين من بعيد . وكان الجميع متعبين طبعا ومقرورين ، قد أثقل النعاس أجفانهم ، واصطبغت وجوههم بصفرة كصفرة الضباب .

كان فى احدى عربات الدرجة الثالثة راكبان قد جلس أحدهما أمام الآخر قرب النافذة منذ الفجر . كلاهما شاب ؛ وكلاهما يلفت وجهه الانتباه ؛ وكلاهما بلا امتعة تقريبا ؛ وكلاهما يرتدى ثيابا ليس فيها كبير تأنق ، وكلاهما اخيرا راغب فى تبادل الحديث مع الآخر . ولو قد امكنهما ان يعرفا ما فى كل منهما من روعة خاصة فى هذه اللحظة ، لأدهشتهما بالطبع هذه المصادفة التى جمعتهما هذا الجمع الغريب فى عربة من الدرجة الثالثة بقطار «وارسو — بطرسبرج» . ان أحدهما ، وهو شاب قصير القامة ، أجعد الشعر ، أسوده تقريبا ، يجب أن يكون فى نحو السابعة والعشرين

من العمر . عيناه شهباوان ، صغيرتان ، لكنهما تفيضان اشتعالا واتقادا ؛ وأنفه عريض مفلطح ، وجهه بارز الوجنتين ؛ وعلى شفتيه الرقيقتين ترتسم دائما ابتسامة ساخرة ، وقحة ، تشبه أن تكون مبغضة حاقدة . غير أن جبينا عاليا مستويا يلطّف من الشعور بالنفور الذى يحسه المرء حين يرى أسفل وجهه ، الثقيل الكريه . والشىء الذى يخطف البصر فيه خاصة انما هو شحوبه الذى يشبه شحوب جثة ، وهو شحوب يضفى على هذا الشاب هيئة الارهاق والاعياء مع انه يبدو متين البنية ، ويضفى عليه كذلك معنى الحمية التى تبلغ حد العذاب ولا تنسجم مع ابتسامته الوقحة الفظة ، ونظرته الحادة المتكبرة . كان الرجل متدثرا بمعطف واسع أسود ، مبطّنٍ بفرو خروف ، فلم يحسَّ ببرد الليل . بينما اضطر صاحبه الجالس أمامه الى ان يعانى بظهره المقرور عذوبة تلك الليلة الرطبة من ليالى شهر نوفمبر الروسى ، التى كان واضحا أنه لم يتهيأ لها . كان متلففا برداء واسع سميك لا أكمام له ، يعلوه غطاء ضخم للرأس ، كالذى يلبسه المسافرون فى الشتاء بعيدا فى الخارج ، فى سويسرا أو فى شمال ايطاليا مثلا . ولكن هذا الرداء لا يصلح حتماً لسفرة طويلة طول هذه المسافة بين آيدكونن وبطرسبرج . اذ اتضح أن ما يصلح جدا لايطاليا ، لا يلائم تماما المناخ الروسى . وصاحب هذا الرداء هو أيضا شاب فى نحو السادسة والعشرين او السابعة والعشرين من العمر . قامته أطول قليلا من المتوسط ؛ خداه خاسفتان ؛ شعره كثيف أشقر ؛ له لحية صغيرة مدبَّبة تكاد تكون بيضاء اللون ؛ عيناه واسعتان زرقاوان لهما نظرة ثاقبة . ان فى هذه النظرة

شيئا من رقة وعذوبة ، ولكن فيها ثقلا وتعبيرا غريبا ، يستطيع البعض ان يخمن منه أن صاحبها رجل مريض بداء الصرع . ووجه الفتى عموما محبَّب الى القلب لطيف رقيق دقيق ، ولكنه شاحب اللون ؛ بل انه فى هذه اللحظة قد ازرقَّ من شدة البرد . كانت بين يديه صرَّة هزيلة ، ملفوفةً بمنديل حريرى عتيق حائل اللون ، وكان هذا كلَّ متاعه فيما يبدو . وكان لحذاءيه نعلان سميكان ، وكانت تغطى أعلى ظاهر الحذاءين لبادتان ؛ وذلك كله ليس مما يستعمل فى روسيا . وقد لاحظ جاره ، الشاب الاسود الشعر ذو المعطف ، جميع هذه التفاصيل ، تسريةً عن نفسه . ثم سأله اخيرا مبتسما تلك الابتسامة الخالية من اللباقة والتى يتجلى فيها احيانا ، باستهتار وعدم اكتراث ، احساس البعض باللذة وهو يرى اخفاق الآخرين :

— برد ، هه ؟

وهز منكبيه .

فأجاب الجار باستعداد فائق :

— جداً ، ولاحظ ، هذا فى فترة الدفء ، فكيف يكون البرد أثناء الصقيع ؟ لم أكن أتخيل أن البرد يبلغ هذا المبلغ من الشدة فى بلادنا . لقد فقدت عادة احتمال مثل هذا البرد !

— لا شك أنك آت من الخارج ، أليس كذلك ؟

— نعم ، من سويسرا !

اطلق ذو الشعر الاسود صفرة وقهقهة :

— ها . . مسافة !

ودار الحديث . وكان استعداد الشاب الأشقر الذى

يرتدى الرداء السويسرى للاجابة عن جميع الأسئلة التى يلقيها عليه جاره ذو الشعر الأسود ، مدهشا دون ادنى ارتياب فيما يلاحظ فى بعضها من ازدراء وتزيد وتفاهة . فروى فيما رواه أنه لم يكن فى روسيا بالفعل منذ مدة طويلة ، أكثر من أربع سنين ، فقد أُرسل الى الخارج ليعالجَ من مرض عصبى غريب ، هو نوع من الصرع ، او من داء الرِقاص ، مع ارتعاشات وتشنجات . وقد أثارت قصته تبسم جاره مرارا ، حتى لقد أخذ يضحك حين سأله : «وهل شفوك ؟» فأجاب : «لا ، لم يشفونى !» .

وأضاف ذو الشعر الاسود متهكما :

— ايه . . . ما أكثر المال الذى لا بد أنك انفقته هنالك سدى ، ونحن هنا نثق فيهم .

— عين الحقيقة ! — هتف رجل كان جالسا قربهما يرتدى ملابس رديئة ، ويدل مظهره على أنه موظف من رتبة دنيا ، يبدو فى نحو الاربعين من عمره ، متين البنية ، له أنف أحمر يتوسط وجها ذا بثور .

كرر الرجل يقول :

— عين الحقيقة . وهم يجتذبون الى بلادهم جميع قوانا الروسية !

قاطعه المريض السويسرى بصوت رقيق عذب فيه روح الملاينة والمصالحة :

— أوه ، كم انت مخطئ ، فيما يتعلق بى . بالطبع لست أستطيع ان أجادل ، لأننى لا أعرف كل ما يجرى . ولكننى أقول ، فيما يتصل بى ، ان طبيبى قد دفع نفقات سفرى من آخر ما يملك من قروش ، بعد

أن ظل يعولنى سنتين .

فسأل ذو الشعر الأسود :

— ماذا ، ألم يكن هناك اذن من يستطيع أن ينفق عليك ؟

— بلى ! ان السيد بافليشيف الذى كان يهتم بأمرى هناك قد مات منذ سنتين . فكتبتُ عندئذ الى زوجة الجنرال ايبانتشين ، وهى سيدة تمت الىَّ بقربى بعيدة ، ولكنى لم أتلق أى جواب . فهأنذا أرجع أخيرا !

— والى أين ترجع ؟

— تعنى اين سأنزل ؟ . . والله . . . لا أدرى بعد ! . .

— لم تقرر بعد ؟

وانفجر المستمعان كلاهما يقهقهان . وسأل ذو الشعر الأسود :

— وهذه الصرة الصغيرة ربما تضم كل ما تملكه ، أليس كذلك ؟

فأضاف الموظف الأحمر الأنف ، راضيا عن نفسه كل الرضى :

— أراهن على ان الأمر كذلك ! وعلى انك ليس لك شىء آخر بين الأمتعة والحقائب . على كل حال : ليس الفقر عيبا !

وصدق هذا القول أيضا ، فان الشاب الأشقر اعترف بذلك على الفور بسرعة غير عادية .

وتابع الموظف كلامه بعد أن شبع الاثنان ضحكا (العجيب فى الأمر أن صاحب الصَّرة قد بدأ يضحك هو الآخر مقتديا بهما ، فزاد ذلك ضحكهما قوة) :

— ان لصرتك مع ذلك بعض الأهمية . صحيح أن المرء يستطيع أن يراهن على أنها لا تضم لفّات اجنبية ذهبية ، فرانكات نابوليون أو طالرات فردريك او حتى روبلات ذهبية روسية ، وهو ما يبدو واضحا على الأقل من لبادتى حذاءيك المصنوعتين فى الخارج . . . ولكن اذا أضفنا الى متاعك القليل هذا احتمال أن يكون لك قريبة مثل الجنرالة ايبانشين ، فان صرّتك يصبح لها عندئذ شأن آخر ، هذا اذا صحّ أن الجنرالة ايبانتشين قريبتك حقا ، وانك لا تخطئ فى هذا الأمر ، ولو من قبيل السهو والذهول . . . وذلك يحدث فى كثير من الأحيان . . . بسبب سعة الخيال مثلا .

هتف الفتى الأشقر يقول :

— هنا ايضا أنت على صواب ! اننى مخطئ تقريبا . فالجنرالة لا تكاد تمت الىّ بقربى ، حتى اننى فى الواقع لم أدهش البتة حين لم تبعث الىّ بجواب . لقد كنت أتوقع ذلك .

— عبثاً بدّدت مالا لارسال رسالتك ، هِمْ ! . . على الأقل انك تبدو ساذجا وصادقا وهذه صفات محمودة ! هِمْ ! . . أما الجنرال ابانتشين فنحن نعرفه ، لأنه فى الواقع رجل يعرفه الناس كافة . أما المرحوم السيد بافليشيف ، الذى كان ينفق عليك فى سويسرا ، فقد عرفناه أيضا ، هذا اذا كان هو نيقولاى آندريفتش بافليشيف حقا ، لان الرجلين قريبان يحملان اسما واحدا . فأما أحدهما فما يزال يعيش فى القرم ، وأما المرحوم نيقولاى آندريفتش ، المتوفى ، فقد كان رجلا محترما له علاقات مرموقة ، وكان

يملك فى زمانه أربعة آلاف نفس من الفلاحين الاقنان . . . نعم . . .

أجاب الشاب وهو يتفرس فى السيد الذى يبدو عليه أنه يعرف كل شىء ، بنظرة طويلة متفحصة :

— هو ذاك ! كان اسمه نيقولاى آندريفتش حقا . ان هؤلاء السادة «العالمين بكل شىء» يصادفون فى بعض الأحيان بل قل فى كثير من الاحيان بين صفوف طبقة اجتماعية معينة . انهم يعرفون كل شىء ، لان فضولهم اليقظ وقدراتهم العقلية تندفع جميعا الى اتجاه واحد ، لخلو بالهم طبعاً من اهتمامات حيوية وآراء اخطر شأناً ، كما قد يقول مفكر معاصر . على أننا حين نقول «انهم يعرفون كل شىء» يجب أن نفهم من ذلك أن ميدان علمهم محدود يكاد يقتصر على امور كالتالية : أين يعمل الموظف فلان ، وما هى علاقاته ، وما مقدار ثروته ، وما هى المقاطعة التى كان حاكما فيها ، ومن هى المرأة التى تزوجها ، وكم كانت البائنة التى نالها من زوجته ، ومن هو ابن عمه ، ومن هو قريبه من الدرجة الثالثة ، الخ الخ ، وهلم جرّا . وهؤلاء السادة «العالمون بكل شىء» فى أكثر الأحيان أناس يسيرون بأكمام مثقوبة أكواعها ، ولا تتجاوز رواتبهم سبعة عشر روبلا فى الشهر ، والناس الذين يعرف هؤلاء كل شىء عنهم لا يستطيعون حتى أن يتخيلوا الدوافع التى تحركهم . ولكن كثيرا من هؤلاء «العالمين بكل شىء» يستمدون من هذه المعارف التى تساوى علما حقيقيا ، عزاء واحتراما لأنفسهم ، بل وحتى متعة روحية عظيمة ، ثم ان لهذا العلم جوانبه المغرية الجذابة . لقد عرفت علماء وأدباء

وشعراء وسياسيين سعوا الى الامجاد فى هذا العلم ووجدوا فيه سكينة الروح واهدافا سامية ، حتى انهم مدينون لذلك بما نالوا من مراكز فى مجال عملهم .

لم ينقطع ذو الشعر الأسود عن التثاؤب طوال مدة هذا الحوار وهو ينظر بلا غاية من خلال النافذة ، وكان واضحا أنه يستعجل الوصول . كان يبدو ذاهلا ، ذاهلا الى درجة شديدة ، يكاد يكون قلقا ، حتى أصبح سلوكه غريبا ، فهو تارة يصغى ولا يسمع ، وتارة ينظر ولا يرى ، ثم ينفجر ضاحكا حتى دون ان يعرف او يدرك لماذا هو يضحك .

وفجأة قال السيد ذو البثور يسأل الشاب الأشقر حامل الصرَّة :

— بالمناسبة . . هل يمكننى أن أعرف من هو السيد الذى أتشرف بمخاطبته الآن ؟ . .

فأجاب الشاب الأشقر فورا وباستعداد تام :

— أنا الأمير ليف نيقولايفتش ميشكين .

قال الموظف مفكرا حالما :

— الأمير ميشكين ، ليف نيقولايفتش ؟ لا اعرفه . . لم اسمع به يوما . لا أقصد اننى لم اسمع بهذا الاسم ، فهو اسم تاريخى ، وفى وسع المرء بل لا بد له أن يجده فى كتاب التاريخ الذى ألفه كارامزين . لا ، وانما انا أقصد شخصك . وانى لأعتقد من جهة أخرى ان المرء لا يصادف اليوم فى أى مكان أحدا من اسرة الأمراء ميشكين ، حتى ان ذكراهم قد انطفأت .

فعقب الأمير يقول بسرعة :

— طبعا ، طبعا ! لا يوجد الآن أى أمير بهذا

الاسم ، الا أنا . يبدو لى أننى آخر رجل فى السلالة . أما اسلافنا فكانوا حتى من صغار مالكى الأطيان . والحق ان ابى قد خدم فى الجيش برتبة ملازم ثان بعد ان تخرج من المدرسة الحربية . ومن المصادفات ان الجنرالة اباتشين منحدرة هى أيضا من سلالة الأمراء ميشكين ، لا أدرى كيف ! فهى الأخيرة من نوعها[1] أيضا . . .

صاح الموظف يقول مقهقها :

— هىء هىء هىء ! الأخيرة من نوعها ! هىء هىء هىء ! ان لك طريقة بارعة فى اللعب بالألفاظ .

وابتسم ذو الشعر الأسود هو أيضاً . أما الأشقر فقد بدا عليه شىء من الدهشة لأنه أفلح فى أن يلعب بالألفاظ هذا اللعب ، على رداءته .

وقال شارحا :

— تصور أننى قلت ما قلت حتى دون تفكير فيه !

فأجاب الموظف مرحا :

— طبعا ، طبعا ، لاحظنا ذلك !

وسأله ذو الشعر الأسود فجأة :

— قل لى يا أمير : لا شك أنك طلبت العلم هناك عند استاذك ، أليس كذلك ؟

— نعم . . .

— أما أنا فلم أطلب العلم يوماً . . .

فأضاف الأمير قائلا كأنما ليعتذر :

— على كل حال ، انا لم أحصِّل من العلم الا

---

[1] يوجد مرادف واحد فى الروسية لكلمتى «سلالة» و«نوع» . المراجع .

شذرات ، فقد كانوا يعدونني غير مؤهل لمتابعة دراسة منتظمة ، بسبب مرضي .

سأله ذو الشعر الاسود بغتة :

— هل تعرف آل روغوجين ؟

— لا ، لا أعرفهم على الاطلاق . على كل حال ، أنا لا أعرف الا قلة من الناس في روسيا . هل أنت روغوجين ؟

— نعم ، انا روغوجين ، بارفيون روغوجين .

تدخل الموظف يسأل مهتما اهتماما كبيرا :

— بارفيون ؟ انتظر . . . ألست واحدا من آل روغوجين هؤلاء . . .

فقاطعه ذو الشعر الأسود بسرعة ونفاد صبر غير مهذب :

— نعم ، أنا واحد منهم ، واحد منهم هم أنفسهم .

انه لم يكلمه حتى ذلك الحين ، وانما كان يقتصر على مخاطبة الأمير وحده .

أجاب الموظف مذهولا محملقا :

— ولكن . . . هل هذا ممكن ؟

وعلى الفور اكتسى وجهه تعبيرا يفيض بالتبجيل والتملق بل والخوف ، وتابع كلامه يقول :

— ألست قريب سيمون بارفيونوفتش روغوجين ذاك المواطن الفخري الوراثي الذي توفي منذ شهر مخلفا ثروة قدرها مليونان ونصف مليون ؟

فسأله ذو الشعر الأسود مستخفا ، حتى دون أن يتنازل فيشرفه بالقاء نظرة عليه هذه المرة أيضا :

— من أين تعرف انه خلف ثروة قدرها مليونان ونصف مليون ؟

ثم تابع كلامه وهو يغمز بعينه للأمير :

— عجيب أمر هؤلاء الناس ! انى لأتساءل ما هذا الذي يصيبهم فاذا هم يسرعون يحومون حولك ؟ لقد مات أبي حقا . وانا واصل من بسكوف متأخرا شهرا . انظر كيف أعود الى المنزل أكاد أكون حافي القدمين . ان أخي ، ذلك الوغد ، وكذلك أمي ، لم يرسلا اليَّ مالا ، ولا أبلغاني النبأ ! لكأنني في اعتبارهما كلب من الكلاب ! لقد بقيت طريح الفراش في بسكوف شهرا أعاني من الحمى !

صاح الموظف رافعا يديه الى السماء :

— والان ستقبض مليونا أو أكثر ، دفعة واحدة ! يا رب السماء !

قال روغوجين وهو يومئ برأسه نحو الموظف بحركة تنم على العصبية والغضب :

— ولكن ما شأنه هو يا ترى ؟ أنت تعلم أنني لن أعطيك كوبيكا واحدا ولو مشيت أمامي على يديك !

— سأفعل ذلك ، سأمشي على يدي ، حقا .

— انظر الى هذا الرجل ! قلت لك انني لن أعطيك شيئا ، لن أعطيك شيئا البتة ، ولو لبثت ترقص أمامي أسبوعا بكامله !

— لك ما تشاء ! لا تعطني شيئا ، فأنا لا أستحق أن تعطيني شيئا . لكن هذا لا يمنعني من ان ارقص لك . سأترك زوجتي ، وأولادي الصغار ، لأجيء أرقص أمامك ، دعني ارقص ، دعني !

قال ذو الشعر الأسود وهو يبصق اشمئزازا :

— شيطان يأخذك !

ثم أضاف يقول مخاطبا الأمير :

— منذ خمسة أسابيع ، كنت مثلك . تركت أبى وأنا لا أحمل الا صرَّة صغيرة . وهربت عند عمة لى بمدينة بسكوف . وهناك اصابتنى الحمى ، ومات هو أثناء ذلك ! غلبته ضربة دم . رحمة الله على ترابه ، ولكن يجب أن أقول لك انه أوشك أن يقتلنى ! صدقنى يا أمير ، أحلف لك . فلو لا اننى هربت لقتلنى حتما !

قال الأمير فى لطف وهو يتفحص بكثير من الفضول هذا المليونير الذى يرتدى ذلك المعطف الفقير :

— لا بد أنك أغضبته ، أليس كذلك ؟

رغم أن هذا الميراث وهذا المليون جديران بالاهتمام ، فان شيئا آخر هو الذى اثار دهشة الأمير واهتمامه أيضا . وكان روغوجين ، من جهته ، يبدو متلذذا أكبر التلذذ بمحادثة الأمير . ومع ذلك يشعر المرء انه كان يتكلم ارضاء لحاجة آلية أكثر مما كان يتكلم تلبية لضرورة داخلية . كان يتكلم تسرية عن نفسه لا عن بساطة قلب ؛ كان يدفعه الى الكلام نوع من القلق ، نوع من الغم ؛ كان يتكلم لينظر الى شخص ، وليحرك لسانه . لكأنه ما يزال فى الهذيان ، او على الأقل تحت سيطرة الحمى . أما الموظف فكان معلقا بشفتى روغوجين ، أسيرا لهما ، لا يجرؤ أن يحوِّل عنهما انتباهه لحظة واحدة . كان يتلقف ويزن كل كلمة من كلماته كأنها من الماس .

أجاب روغوجين عن سؤال الأمير فقال :

— أما أنه غضب فقد غضب . ولعله لم يكن على خطأ . ولكن أكثر من آذانى انما هو أخى . ولست أقول

شيئا عن أمى ، فهى امرأة عجوز ، عاكفة على قراءة حياة القديسين ، غارقة فيها . وهى تقضى النهار كله فى صحبة نساء عجائز ، وأخى سيميون هو المسيطر على المنزل صاحب الامر والنهي فيه . لماذا لم يبلغنى النبأ ، هه ؟ الأمر مفهوم ! صحيح أننى كنت عندئذ فاقدا وعيى . وهم يزعمون أيضا انهم أرسلوا الىَّ برقية . ولكن البرقية وصلت الى عمتى . وعمتى التى ترملت منذ ثلاثين عاما تقضى وقتها كله ، من الصباح الى المساء ، فى صحبة نساء معتوهات . ليست عمتى امرأة مترهبة ، ليست امرأة ممن يسمين مترهبات ، بل هى شر من ذلك . فحين رأت البرقية أصابها ذعر ، فحملتها الى الشرطة دون أن تفضها ، فلبثت البرقية عند الشرطة الى هذا الحين . كونيف فاسيلى فاسيلفتش وحده ساعدنى ، فكتب الىَّ كل شىء . أما أخى فانه لم يجد ما هو خير من قضاء الليل فى قص شراريب الذهب المصبوبة من غطاء البروكاد الذى يغطى تابوت أبى ، بحجة ان لهذه الشراريب «قيمة كبيرة» . هل تعلم أن فى وسعى أن أرسله الى سيبيريا اذا شئتُ ، لان هذا العمل خرق للمقدسات . — ثم التفت نحو الموظف ، فأضاف : — ما رأيك انت ، يا لعين ، هل هذا خرق للمقدسات فى عرف القانون ؟

فأسرع الموظف يصيح قائلا :

— هو خرق للمقدسات طبعا ، خرق للمقدسات طبعا !

— وهو يستحق النفى الى سيبيرياه ، هه ؟

— الى سيبيريا ، الى سيبيريا ، الى سيبيريا رأسا !

قال روغوجين يخاطب الأمير :

— هم جميعا يظنون اننى ما زلت مريضا ، ولكنى ، دون أن أقول كلمة لأحد ، ودون ان أطلع على شىء أحدا ، ركبت القطار رغم اننى ما زلت عليلا ، وجئت افاجئهم ! سيكون عليك ان تفتح الأبواب يا أخى العزيز سيميون سيميونوفتش ! أنا أعلم جيدا انه كان يثير أبى المرحوم علىّ ، ويحقنه ضدى ! يجب أن اعترف الآن بأننى قد أغضبت ابى فعلا بحكاية ناستاسيا فيليبوفنا تلك . هذا صحيح . فى ذلك أنا وحدى المخطئ . لقد أغوانى الشيطان الرجيم !

ردّد الموظف قول صاحبه محاولا ان يستجمع ذكرياته :

— حكاية ناستاسيا فيليبوفنا ؟

فصرخ روغوجين فى وجهه غاضبا :

— لا تعرفها حتما !

فأجاب الموظف وقد لاح فى وجهه معنى الانتصار :

— بل اعرفها !

— دعك من هذا الكلام ! فى العالم نساء كثيرات باسم ناستاسيا فيليبوفنا ! أما أنت فانك وغد وقح وقاحة فظيعة ، هذه هى الحقيقة اقولها لك . — ثم أضاف يخاطب الأمير : — آ . . . كنت أعرف ذلك سلفا ، كنت أعرف سلفا ان وغدا من هذا النوع سيلتصق بى حتما !

اسرع الموظف يكرر قوله :

— جائز جدا اننى اعرفها . ان ليبيديف أعرف . أنت يا صاحب السمو تتنازل فتوجه الىّ اللوم ، فما عساك فاعلا اذا أنا استطعت أن أبرهن لك على ان ما أقوله هو الحقيقة ؟ اسمع اذن : ان ناستاسيا فيليبوفنا هذه التى

أراد أبوك ، فى شأنها ، ان يتمّ له اقناعك بالعصا تسمى باراشكوفا . ويمكن أن يقال عنها انها سيدة ذات مزايا ، وانها فى نوعها ، هى أيضا ، أميرة ، ذلك ولها علاقة برجل اسمه توتسكى ، افاناسى ايفانوفتش ، وهو ليس الأ رجلا من كبار الملاّكين ، رأسماليا ضخما ومساهما فى عدة شركات ؛ وتربطه بالجنرال ايبانتشين صداقة قوية على هذا الاساس . . .

ذهل روغوجين فصاح مبهوتا :

— عجيب ! يبدو عليك أنك عالم حقا ! شيطان يأخذك ! انه يعرف كل شىء !

— كل شىء ! ليبيديف يعرف كل شىء ! يجب أن أقول لك يا صاحب السمو اننى قد ظللت شهرين كاملين أطوف فى كل مكان مع ليخاتشوف ، الفتى الكسندر ليخاتشوف . هو أيضا كان قد فقد أباه . واذ اننى اعرف جميع الاركان والزوايا ، فقد أصبح لا يستطيع أن يخطو خطوة دون أن يصحبه ليبيديف . انه الآن فى السجن بسبب ديون تراكمت عليه . ولكنه اثناء طوافنا ذاك قد أتيح له ان يعرف آرمانس ، وأن يعرف كورالى ، وأن يعرف الأميرة باتزكى ، وناستاسيا فيليبوفنا واشياء كثيرة اخرى .

سأله روغوجين وهو ينظر اليه نظرة شريرة ، وقد اصفرت شفتاه وأخذتا ترتجفان :

— ناستاسيا فيليبوفنا ؟ ما شأنها وليخاتشوف ؟

أسرع ليبيديف يجيب :

— لا شىء ! لا شىء البتة ! لا شىء اطلاقا !

لم يستطع ليخاتشوف ان يحظى منها بشيء في يوم من الأيام ، ورغم امواله كلها . لا ، انها ليست مثل آرمانس . هي لا علاقة لها الا بصاحبها توتسكي . وقد تُرى مساء في شرفتها بالمسرح ، «المسرح الكبير» ، أو المسرح الفرنسي» . ومهما يثرثر الضباط عنها ، فانهم عاجزون عن ان يبرهنوا على أي شيء . هم يقولون : «ها هي ذي ! انظر اليها ، ناستاسيا فيليبوفنا الشهيرة تلك !» ، ولا كلمة عدا ذلك ، اذ ليس ثمة شيء !

قال روغوجين مؤيدا ، وقد اربد وجهه وانقبضت أساريره :

— هذه هي الحقيقة . وقد روى لي زاليوجيف هذا الشيء نفسه في ذلك الأوان . في ذات يوم من تلك الأيام ، كنت أقطع شارع نفسكي راكضا ؛ وكنت أرتدي معطفا قديما لأبي ، أرتديه منذ ثلاث سنين ، فاذا أنا أراها تخرج من أحد المخازن فتركب عربتها . شعرت بنار تشب في جسمي فتحرق أحشائي حرقا . وصادفت عندئذ زاليوجيف . ان زاليوجيف ليس مثلي . كان يتنزه في الشارع متأنقا مثل تاجر خرج لتوه من صالون حلاق ، واضعا على احدى عينيه نظارة . أما نحن في منزل أبينا فاننا ننتعل أحذية مرقعة ، ونأكل حساء كرنب . قال لي زاليوجيف : «ليست هذه المرأة لأمثالك . انها أميرة» . اسمها ناستاسيا فيليبوفنا باراشكوفا . تعيش مع توتسكي . لا يعرف توتسكي هذا كيف يتخلص منها . لقد تقدم في السن . بلغ الخامسة والخمسين . يريد أن يتزوج أجمل امرأة ببطرسبرج !» . ثم أخذ زاليوجيف يغرس في ذهني أنني أستطيع أن أرى ناستاسيا فيليبوفنا مرة أخرى ، ذلك ، المساء نفسه ، في

شرفتها من «المسرح الكبير» الذي يعرض الليلة مسرحية باليه . هه ! حاولْ في بيت أبينا أن تذهب الى الباليه : لو خطر ببالك شيء من هذا لكانت عقوبتك عقوبة واحدة هي القتل ! مع ذلك استطعت ان اهرب ساعة . فرأيت ناستاسيا فيليبوفنا مرة أخرى ، ثم بتُّ ليلتي مسهَّدا لا يعرف النوم الى جفني سبيلا . وفي صباح الغد أعطاني المرحوم ابي سندين ماليين قيمة كل منهما خمسة آلاف روبل قائلا لي : «امض بِعهْما ، ثم اذهب بعد ذلك الى مكتب آندرييف لسداد حساب مقداره سبعةَ آلاف وخمسمائة روبل . أما الباقي فأعده اليَّ دون ان تتسكع في الطريق . سأبقى في الدار أنتظرك» . بعت السندين ، وقبضت المال ، ولكنني لم أذهب الى آندرييف ، وانما أسرعت أمضي قُدُما الى «المخزن الانجليزي» ، فاخترت قرطين للأذنين تزينهما ماستان يبلغ حجم كل منهما حجم بندقة . انفقت في ثمنهما العشرة آلاف روبل ، حتى لقد احتجت الى اربعمائة روبل أخرى ، ولكن حين ذكرت اسمي أولاني التاجر ثقته . وحملت القرطين ، وذهبت الى زاليوجيف فقلت له : «والآن فلنذهب الى ناستاسيا فيليبوفنا يا صاحبي !» . وصرنا في الطريق . أصبحت لا اشعر بالأرض تحت قدميَّ ، وكنت لا أرى شيئا مما يجري أمامي ولا حولي ! ودخلنا الى الصالون رأسا ! ها هي ذي تصل ! لكنني لم أجرؤ في تلك اللحظة أن أقدِّم نفسي . ان زاليوجيف هو الذي أعلن لها قائلا : «هذه هدية من بارفيون روغوجين ، ذكرى للقاء الأمس ، أرجو أن تتلطفي فتقبليها» . فتحت العلبة ، وأنعمت النظر في القرطين ، ثم قالت مبتسمة : «أشكر

عنى لصديقك السيد روغوجين لفتته اللطيفة !» . ثم حيتنا وخرجت . ليتنى مت فى مكانى ذلك اليوم ! والحق أننى ذهبت الى هناك مقدرا اننى لن أرجع حيا . وانما أغاظنى خاصة أن ذلك الحيوان زاليوجيف قد نسب الفضل لنفسه فى الأمر كله . كنت أنا بقامتى الضئيلة وملابسى التى تشبه ملابس الخدم واقفا هنالك صامتا ، محملق العينين مدمّر النفس خجلا . أما هو فكان يرتدى ملابس على أحدث زى ، وكان متطيبا بالعطر ، مجعدا شعره ، وكان زاهى اللون مشرق الوجه ، وقد عقد على عنقه ربطة ذات مربعات ، وكان لا ينفك يهز عطفيه رقة ، ويحنى ظهره احتراما . لا شك أنها اعتقدت أنه هو صاحب الهدية وقد قلت له غاضبا حين خرجنا : «أنصحك بأن لا تفكر فيها ، مفهوم ؟» . فقال ضاحكا : «وددت لو أعرف كيف ستسدد حساب سيميون بارفيونتش !» . والحق أننى كنت فى تلك اللحظة احترق رغبة فى القاء نفسى بالماء بدلا من العودة الى الدار . ثم قلت لنفسى : «الأمر سيان» . ورجعت الى الدار كالداخل الى النار .

دمدم الموظف يقول وهو يتلوى كله ويرتعش من مجرد تصور الأمر :

— الله الله . . . كان يتفق للمرحوم ان يرسل رجلا من الرجال الى العالم الآخر بسبب عشرة روبلات . . . فما بالك بعشرة آلاف روبل ؟

قال ليبيديف جملته الأخيرة هذه متجها بالكلام الى الأمير . وكان الأمير يتفرس مستطلعا فى روغوجين الذى بدا فى تلك اللحظة شاحبا شحوبا أشد .

قال روغوجين :

— العالم الآخر ؟ ماذا تعلم أنت عن هذا ؟

والتفت نحو الأمير يستأنف سرد قصته عليه فقال :

— لم يلبث أبى أن عرف كل شىء طبعا . لقد أخذ زاليوجيف يروى القصة لكل من يريد ان يسمعها . أصعدنى أبى الى غرفة ، وحبس نفسه معى فيها ، وأخذ يؤدبنى خلال ساعة كاملة . وكان يقول : «ما هذا الا لقمة أولى لتذوق الطعم ، ولكنى سأعود فى هذا المساء ، لأهيئ لك ليلة سعيدة ونوما مناسبا !» . هل تعلم ماذا فعل بعد ذلك ؟ ذهب الى ناستاسيا فيليبوفنا بنفسه ، هو الشيخ الشائب ، فانحنى لها محييا حتى بلغ بانحنائه الأرض ، وأخذ يتضرع اليها ويبكى . فاذا هى ترمى العلبة فى وجهه آخر الأمر قائلة له : «اليك القرطين فخذهما يا لحية عتيقة ! لقد أصبحا أثمن فى نظرى عشر مرات بعد ان عرفت أن بارفيون حصل عليهما بمجازفة خطيرة كهذه المجازفة ! أبلغ بارفيون سيميونيتش تحيتى وشكرى !» واقترضت بعد ذلك عشرين روبلا من سرجى بروتوشين ، وركبت القطار متجها الى بسكوف بموافقة امى ومباركتها . فما وصلت الى بسكوف حتى كنت ارتعد من الحمى . وأسرعت العجائز تعالجنى وتداوينى بتلاوة صفحات من حياة القديسين . وكنت سكران . ثم خرجت أطوف بالحوانيت ، وأنفق فيها آخر ما بقى لى من نقود . وقضيت الليلة كلها فى الشارع ، فاقد الوعى من فرط السكر . حتى اذا طلع الصباح كنت أهذى . ومما زاد الطين بلة ان الكلاب قد جاءتنى اثناء الليل تعضنى وتنهشنى فى كل موضع من جسمى .

ولم استرد صحوى الا فى كثير من العناء .

قال الموظف وهو يضحك ساخرا ، ويفرك يديه احداهما بالاخرى :

— هىء هىء ! بعد اليوم سنسمعها تغنى ، ناستاسيا فيليبوفنا هذه . ليست المسألة الآن مسألة قرطين ، يا سيدى ، فلسوف نهدى اليها بعد هذه الساعة اقراطا تبلغ من الكثرة أنها . . .

فزأر روغوجين يقول وهو يمسك ليبيديف من ذراعه بشدة :

— يميناً . . . لو قلت كلمة واحدة عن ناستاسيا فيليبوفنا ، فسأجلدك بالسوط ، مهما تكن قد تجولت مع ليخاتشوف .

— اذا جلدتنى بالسوط كان ذلك دليلا على ان فى نيتك أن تحتفظ بى قريباً منك . فاجلدنى اذن ! انك اذ تجلدنى تدع علىَّ طابعك . هه ! ها نحن أولاء وصلنا !

كان القطار يدخل المحطة فعلا . ورغم ان روغوجين قد زعم أنه غادر بسكوف خفية دون أن يذكر ذلك لأحد ، فقد كان ينتظره فى المحطة عدد من الأشخاص أخذوا يصيحون وهم يلوِّحون له بطاقياتهم .

دمدم روغوجين يقول وهو ينظر اليهم منتصرا ضاحكا ضحكة خبيثة :

— هه ! هذا زاليوجيف هنا أيضا ! — والتفت نحو الأمير فجأة فقال له : — اسمع يا أمير ، لقد شعرت نحوك بعاطفة ومودة ، لا أدرى لماذا ! ربما كان مردُّ ذلك الى اننى التقيت بك فى لحظة كهذه اللحظة . ولكننى فى

هذه اللحظة أيضا التقيت بذلك الوغد (قال ذلك مشيرا الى ليبيديف) فلم أحببه . زرنى يا أمير . سوف نخلصك من لبَّادتى حذاءيك البشعتين هاتين . وسأعطيك معطفا جميلا جدا من فراء السمور . وسأوصى لك برداء «فراك» أيضا ، «فراك» من الطراز الأول ، وبصديرة لونها أبيض او لونها هو اللون الذى تختاره ! سأملأ جيوبك مالا . . . وسنمضى نرى ناستاسيا فيليبوفنا . . . أتزورنى ام لا ؟

قال ليبيديف ملحا بلهجة فخمة تحاول الاقناع :

— فكر جيدا يا أمير . لا تفوِّت هذه الفرصة ! لا تفوِّتها !

نهض الأمير ومد يده الى روغوجين فى أدب ، واجابه بلهجة رقيقة لطيفة :

— سيسرنى جداً ان أزورك . وانى لأشكر لك عاطفتك شكرا لا نهاية له . قد أجيئك فى هذا اليوم نفسه اذا اتسع وقتى . يجب ان اعترف لك صادقا مخلصاً بأننى أعجبت بك أنا أيضا أكبر الاعجاب ، ولا سيما حين قصصت علىَّ حكاية ذينك القرطين المزدانين بالماس . وحتى قبل أن تحكى لى قصة القرطين شعرت نحوك باعجاب ، رغم تجهم وجهك . اشكرك أيضا على المعطف والثياب التى تنوى ان تهديها الىَّ . ذلك اننى سأكون فى حاجة كبيرة اليها قريبا . اما المال فأكاد لا املك منه شيئا .

— سيكون مال ، سيكون مال منذ هذا المساء . تعال زرنى !

ردَّد الموظف يقول :

— سيكون معه مال ، سيكون معه مال ، سيكون

معه مال منذ هذا المساء .

— قل لى أولا يا أمير . أأنت تحب الجنس اللطيف كثيرا ؟

— أنا ؟ لا ! يجب ان أقول لك . . . لعلك لا تعلم . . ولكننى بسبب مرضى الولادى لم أعرف النساء قط !

فهتف روغوجين يقول :

— فاذا كان الأمر كذلك يا أمير ، فانت عبيط حقا ! والله يحب أمثالك !

قال ليبيديف مؤيدا :

— نعم ، نعم ، الله يحبهم .

فقال روغوجين له آمرا :

— واتبعنى أنت يا سيد !

خرج الثلاثة من حافلة القطار . لقد بلغ ليبيديف مأربه اخيرا . ولم تلبث عصبة روغوجين الصاخبة أن ابتعدت فى اتجاه شارع فوزنسنسكى وكان على الأمير أن يدور الى جهة ليتينايا . الجو يسوده الضباب وتملؤه الرطوبة . سأل الأمير المارة . فعرف أن عليه ان يقطع ثلاثة فراسخ حتى يصل الى حيث يريد أن يصل . فقرر أن يركب عربة .

الفصل الثانى

يسكن الجنرال ايبانتشين فى منزل يبعد قليلا عن ليتينايا ، من جهة كنيسة «التجلى» . وعدا هذا المبنى الرائع الذى يؤجر خمسة أسداسه ، يملك منزلا ضخما للاستثمار المربح جدا فى شارع سادوفايا ؛ ويملك ، قرب بطرسبرج ، ضيعة كبيرة وأرضا شاسعة ذات غلال كثيرة ، كما يملك مصنعا يقع فى ولاية بطرسبرج . كان الجنرال ايبانتشين فى الماضى يزاول أعمال الالتزام ، وهو امر معروف للجميع ، اما الآن فهو مساهم خطير الشأن فى عدة شركات كبرى . فهو يُعَدُّ رجلا واسع الثراء ، يقوم بمشروعات ضخمة وله علاقات واسعة عالية . وقد استطاع ان يكون انسانا لا غنى عنه على الاطلاق فى بعض الاوساط ، ومن بينها مكان عمله . ومع ذلك كان من المعروف أيضا ان ايفان فيدوروفتش ايبانتشين لم يحصِّل أى تعليم وانه ابن جندى بسيط . ومما لا شك فيه أن هذا امر يشرِّفه ، ولكن الجنرال ، رغم ذكائه ، كان لا يخلو من بعض نقاط الضعف التى يمكن ان تغفر له على كل حال ؛ من ذلك انه كان لا يطيق أن يُشار الى ماضيه . أما أنه ذكى وحاذق ، فهذا أمر لا يسعك الا تسلِّم له به . فمن آيات ذلك مثلا أنه قد اتخذ لنفسه مبدأ يلتزمه ولا يحيد عنه ، وهو أن لا يضع نفسه فى المقدمة يوما ، وان يمحَّى متى وجب ذلك وكان كثير من الناس انما يقدرونه لهذه البساطة نفسها ، ولهذه اللباقة التى تجعله يعرف دائما أين مكانه الصحيح

فيقف فيه ، واين حدوده فلا يتعداها . ومع ذلك ليت الناس الذين يرون فيه هذا الرأى الحسن ، ويحكمون عليه هذا الحكم الطيب ، ليتهم يعرفون ما كان يجرى أحيانا فى نفس ايفان فيدوروفتش هذا الذى كان واضحا انه يحسن المحافظة على مكانه ! ان الجنرال ايبانتشين ، رغم خيرته الواسعة فى الأعمال ، ورغم مواهبه الممتازة ، كان يؤثر أن يظهر خادما متحمسا لآراء غيره على أن يظهر رجلا له افكاره الخاصة . «خادم أمين ، بغير تملق» . وكان الى ذلك — وهذه علامة من علائم العصر — يظهر نفسه رجلا ابيض القلب ، روسيا حقيقيا . فمن هذه الناحية ، اتفق أن حدثت له مغامرات أليمة مؤسفة ، ولكن الجنرال ليس من الرجال الذين تخور عزائمهم ويدب اليهم اليأس حتى ازاء أصعب الظروف الشائكة . وبالاضافة الى هذا ، كان موفقا ، وحتى فى المقامرة ، كان يلعب بمبالغ ضخمة ؛ على أنه كان لا يحاول ان يتستر على هذا العيب الطفيف أو هذه الخطيئة اليسيرة التى يدين لها فى كثير من الأحيان بأرباح طائلة . بالعكس : كان يعلنها ويذيعها . انه ينتمى الى بيئة خليطة ، ولكنها بيئة غنية طبعا ، وذات نفوذ على كل حال . ولكن كل شىء كان ينتظره فى المستقبل ، وكان الزمن متسعا ، متسعا لكل شىء ، وكان لا بد ان يأتى كل شىء بمرور الزمن وفى ساعته . ان الجنرال ايبانتشين ما يزال — كما يقال — فى سن هى سن القوة . ان عمره ستة وخمسون عاما ، وهو العمر الذى يتفتح فيه الرجل تفتحا كاملا ، العمر الذى يبدأ فيه الرجل حياته **الحقة** فعلا ! صحته الحسنة ، لونه النضر ، أسنانه القوية رغم سوادها ،

جسمه المتين الشديد ، وجهه الذى يعبر فى الصباح عن الاهتمام بالعمل ، ويعبر فى المساء عن المرح اثناء اللعب بالورق او فى منزل صاحب السمو ، ذلك كله كان يساهم فى تحقيق نجاحه حاضرا ومستقبلا ، وينثر على طريق صاحب السعادة الورود .

وكانت أسرته مزدهرة . صحيح أنها لا تضم الا الورود وحدها ، ولكن تضم كثيرا مما بدأ الجنرال منذ زمان يعلق عليه ، فى فكره وقلبه ، آماله واهدافه الرئيسية . هل هناك ، فى حقيقة الأمر ، من هدف أخطر شأنا واقدس قداسة من اهداف الوالد ؟ بم يمكن ان يتعلق المرء ان لم يتعلق بالأسرة ؟ كانت أسرة الجنرال تتألف من زوجته وبنات ثلاث كبيرات . لقد تزوج الجنرال وهو فى شرخ الشباب ، حين لم يكن الا ملازما أول ، تزوج فتاة تكاد تكون فى مثل سنه . لم تكن الفتاة متألقة لا بجمالها ولا بثقافتها . وهى عدا ذلك لم تتجاوز بائنتها التى حملتها اليه خمسين نفسا ؛ ولكن هذا كان بداية ثرائه والحق يقال . ان الجنرال لم يستنكر فى يوم من الأيام انه تزوج قبل الأوان ، لا ولا نسب هذا الزواج يوماً الى حماسة الصبا واندفاع الشباب . وكان يحترم قرينته ويهابها ، حتى لقد وصل من ذلك الى حبها . كانت الجنرالة ، زوجةُ الجنرال ، من سلالة الامراء آل ميشكين ، وهم اسرة عريقة جدا ، وان لم تكن متألقة كثيرا . وكانت الجنرالة تستمد من هذا المحتد النبيل احتراما لنفسها عظيما . ان شخصية من شخصيات ذلك الأوان التى كان لها نفوذ ، شخصية من تلك الشخصيات التى تحب أن تكون لها صفة الحماية (وهى حماية لا تكلف

صاحبها أية نفقة على كل حال) ، قد أراد أن يهتم بزواج الأميرة الشابة ، ففتح أمام الملازم الأول الشاب ابواب الارتقاء ودفعه اليها . ولم يكن ايبانتشين فى حاجة الى أن يدفع دفعا ، بل كانت تكفيه نظرة تشجيع ، ولا تغيب عنه أو تفلت منه . وعاش الزوجان سنى زواجهما الطويل فى وفاق تام ، باستثناء مصادفات طارئة قليلة . لقد استطاعت الجنرالة ، بفضل منبتها الذى يصلها بسلالة امراء ، ولانها آخر من يحمل اسم هذه السلالة ، وربما بسبب مزاياها الشخصية أيضا ، استطاعت منذ شبابها أن تجد لنفسها حاميات لهن مراكز عليا . فيما بعد ، بفضل ثراء زوجها ورتبته الرفيعة ، اصبحت لا تشعر فى المجتمع الراقى بأى حرج ، وأخذت تحس فيه بارتياح كامل وانطلاق تام .

وفى هذه السنين الاخيرة تفتحت وازدهرت بناتهما الثلاث : الكسندرا ، وآديلائيدا ، وآجلايا ، ورغم أنهن يحملن اسم ايبانتشين فحسب ، فقد دخلن الحياة بأرصدة عظيمة ، هى : محتد أمهن التى تنتمى الى سلالة أمراء ، مهرٌ ضخم محترم ، نجاح أبيهن فى المجتمع نجاحا يبيح له أن يطمح فى المستقبل الى اعلى المناصب . ومن الأمور التى لا تفسد عليهم شيئا ، انهن كن على جانب من الجمال ، حتى كبراهن ، الكسندرا ، التى بلغت من عمرها خمسة وعشرين عاما . وكان عمر الوسطى ثلاثة وعشرين ؛ أما الصغرى ، آجلايا ، فقد أتمت العشرين منذ قليل . والصغرى هذه يمكن أن يقال عنها انها بارعة الحسن فتانة الجمال حقا ، حتى لقد أخذ المجتمع يتحدث عنها كثيرا . بيد أن هذا لم يكن كل شىء . فان بنات الجنرال الثلاث

كنّ يتألقن كذلك بثقافتهن ، وذكائهن ، ومواهبهن . وكان من المعروف عنهن أيضا انهن متحابات كثيرا ، وانهن يتساندن تساندا كبيرا . حتى لقد تحدث الناس فى هذا الصدد عن تضحيات ارتضت الكبريان أن تقدماها لأختهما الصغرى ، معبودة الاسرة كلها . ولقد كن فى المجتمع يتحاشين أن يضعن انفسهن فى المقدمة ، حتى لقد كن مسرفات قليلا فى التواضع . فما من احد يستطيع أن يأخذ عليهن شيئا من عجب او عجرفة ؛ ولكن كان معروفا مع ذلك ان لهن كبرياءهن وانهن يعرفن قدرهن ويشعرن بقيمتهن . كانت الكبرى موسيقية ، وكانت الوسطى تملك موهبة عظيمة فى فن الرسم ، وهى موهبة ظلت مجهولة تقريبا للجميع سنين طويلة ، الى أن اكتشفت فى الآونة الأخيرة بمصادفة بحتة . الخلاصة ان الناس كانت تكيل لهن المديح وتغمرهن بالثناء . على أن هناك ألسنة سوء طبعا ، فمن ذلك خاصة أن بعض الناس كانوا يتحدثون مرتاعين عن قائمة الكتب التى قرأنها . لم تكن الفتيات تستعجل أمر زواجها . كن حريصات على بيئتهن الاجتماعية حرصا كافيا ، ولكن بغير غلو او مبالغة ، فكانت فى هذا روعته الخاصة لان الجميع كانوا يعرفون طبع ابيهن واتجاه افكاره واهدافه ومطامحه .

كانت الساعة قريبة من الحادية عشرة حين رن الأمير ميشكين جرس باب الجنرال . ان شقة الجنرال تقع فى الطابق الأول ، وهى على تواضعها تلبى مطالب منزلته ورتبته . فتح له الباب خادم يرتدى ثيابا مزركشة من ثياب الخدم ، واضطر الأمير الى أن يقدم شروحا طويلة لهذا الرجل الذى

تفحصه فى اول الأمر مرتابا ، ونظر اليه والى صرته شزرا . وأخيرا ، بعد أن أكدَّ له الأمير مرارا وتأكيدا قاطعا أنه هو الأمير ميشكين فعلا ، وانه فى حاجة مطلقة الى أن يرى الجنرال لشأن ضرورى ، أدخله الخادم مبهوتا الى حجرة مدخل صغيرة تلاصق قاعة الانتظار ، وتتصل بمكتب الجنرال . وهناك عهد به الى خادم آخر يتولى الخدمة فى حجرة المدخل هذه كل صباح ، ويبلغ الجنرال وصول الزوار . ان هذا الرجل الذى تجاوز الاربعين من عمره ، والذى يرتدى فراكا ، يعبر وجهه دائماً عن كثرة الهم وشدة الانشغال . ولقد كان مكلفا بخدمة مكتب صاحب السعادة خاصة ، فهو لذلك قوى الشعور بخطورة شأنه وعلو منزلته .

قال يخاطب الأمير وهو يجلس بوقار ودون عجلة على مقعده :

— انتظر فى قاعة الانتظار . اما صرَّتك هذه فاتركها هنا . — والقى نظرة قاسية مدهوشة على الأمير الذى جلس على كرسى جنبه تماما ، وبيده صرته . وقال الأمير :

— اذا سمحت ، فأنا أفضِّل ان انتظر هنا فى صحبتك على أن أبقى وحدى هناك !

— ليس لائقاً ان تبقى فى حجرة المدخل لأنك زائر . أأنت ترغب فى التحدث الى الجنرال نفسه ؟

كان واضحا ان الخادم لا يكاد يستطيع أن يسلِّم بأن عليه أن يبلغ الجنرال عن وصول زائر كهذا الزائر ، فقرر أن يعاود سؤاله .

بدأ الأمير يتكلم فقال :

— نعم ، انا آت لأمر . . .

فقال الخادم يقاطعه :

— لا أسألك ان تذكر لى الأمر الذى تريد أن تحدث الجنرال فيه . فان وظيفتى تقتصر على ادخالك اليه . ولكنى اعود فأقول لك اننى فى غيبة السكرتير لا استطيع ان ابلغ الجنرال عنك .

كان ارتياب هذا الرجل يزداد دقيقة بعد دقيقة فيما يبدو . ان مظهر الأمير يختلف اختلافا كبيرا عن مظهر الزوار المألوفين . صحيح أن الجنرال كان يستقبل فى كثير من الأحيان ، ان لم يكن كل يوم ، فى ساعة معينة ، ولا سيما من اجل امور ، افرادًا من كل نوع . ومع ذلك ، ورغم تعوده والتعليمات التى كانت تعطى له صلاحيات واسعة ، ظل الخادم حائرا . كان يبدو له ان وساطة السكرتير لا بد منها لادخال الأمير على الجنرال .

وسأله أخيرا على نحو آلى تقريبا :

— أأنت حقا . . . قادم من الخارج ؟

ثم أخذ يغمغم ، فلعله كان يريد ان يقول : «أأنت حقا أمير من اسرة ميشكين ؟»

اجاب الامير :

— نعم ، تركت القطار منذ قليل . ولكن يخيَّل الىَّ أنك أردت أن تسألنى هل أنا حقا أمير من أسرة ميشكين ، ثم لم تلق علىَّ هذا السؤال أدبا ولطفا .

همهم الخادم مدهوشا :

— هِمْ . . .

قال الأمير :

— أؤكد لك اننى لم اكذب عليك . لن تتعرض

لاى تأنيب . أما ملابسى وصرّتى فليس فى أمرها ما يبعث على الدهشة : ليست احوالى الآن بالاحوال الراقية !

— هِمْ . . . ليس هذا ما أخشاه . أنا مضطر ان ابلغ عنك الجنرال . سيجىء السكرتير حتما ليراك . . . اللهم الا أن . . . ان المزعج فى الأمر انما هو . . . اللهم الا ان . . . ألست تريد مقابلة الجنرال لطلب معونة والتماس مساعدة ؟ هل تسمح لى بأن ألقى عليك هذا السؤال ؟

— لا ، لا ، اطمئن كل الاطمئنان . . . ثق كل الثقة . . . فانما أنا آت لأمر آخر تماما .

— معذرة ، لقد سألت هذا السؤال بعد أن رأيت ثيابك . انتظر السكرتير . ان الجنرال مشغول الآن مع الكولونيل. وبعد ذلك سيجىء سكرتير . . . سكرتير الشركة .

— ما دمت سأنتظر مدة طويلة ، فاننى أود أن أرجوك ان تسمح لى بالتدخين فى مكان ما . معى غليونى ومعى تبغ .

ألقى عليه الخادم نظرة دهشة واحتقار ، كأنه لا يصدّق اذنيه :

— تدخّن ؟ تدخّن ؟ لا ، لا تستطيع أن تدخّن هنا ؛ بل ان عليك أن تخجل من خطور هذا ببالك . هِمْ . . . يا له من كلام !

— عفوك ! أنا لم يخطر ببالى أن ادخن فى هذه الحجرة . اننى افهم . وانما أردت أن أذهب الى مكان تدلنى عليه فأستطيع أن أدخن فيه . اننى متعود على التدخين ، ولم أدخن منذ ثلاث ساعات . على كل حال ، لك ما تشاء . ولا شك أنك تعرف المثل القائل : «فى دير غير ديرك . . . » .

جمجم الخادم رغم ارادته قائلا :

— ولكن كيف تريدنى أن أبلغ الجنرال وصول زائر مثلك ؟ أولا ليس مكانك هنا ، وانما ينبغى ان تكون فى قاعة الانتظار . أنت هنا بمثابة زائر ، اى بمثابة ضيف . لسوف ينالنى تأنيب . . . ولكن أتراك تريد ان تنزل وتسكن عندنا ؟

أضاف الخادم تلك الجملة الأخيرة وهو يلقى ، من جديد ، نظرة مواربة على الصرّة التى كان واضحا أنها تقلقه . قال الأمير :

— لا أظن ذلك . حتى لو دُعيت ، فلن أبقى هنا . أنا انما جئت للتعارف ، ولا شىء غير ذلك .

صاح الخادم يقول مذهولا وقد ازدادت علائم الارتياب فى وجهه :

— كيف ؟ للتعارف ؟ فلماذا قلت لى اذن انك جئت لأمر من الامور ؟

— ليس مجيئى لأمر تماماً . أقصد . . . ان مجيئى لأمر ان شئت ؛ اننى جئت اسأل نصيحة فقط . ولكننى جئت لأقدم نفسى على الاخص ، لأننى واحد من الامراء ميشكين ، والجنرالة ايبانتشين هى أيضا آخر اميرات ميشكين ، ولم يبق أحد غيرنا من سلالة الامراء ميشكين .

صاح الخادم يقول مرتاعا أشد الارتياع :

— معنى هذا أنك قريب من الاقرباء فوق ذلك ؟

— قريب ؟ لا توجد اية قرابة الا بالكاد . أقصد : يمكن أن نعد قريبين اذا نحن أردنا ذلك ، ولكن قرابتنا تبلغ من البعد ان من الصعب أن نُعدّ قريبين . لقد كتبت

الى الجنرالة فى ذات يوم ، من الخارج ، لكنها لم تبعث الىَّ بجواب . ومع ذلك رأيت ان من الضرورى ان اتصل بها عند عودتى الى البلاد . اذا كنت اشرح لك هذا كله ، فلكى انتزع من نفسك شكوكها ، لأننى ألاحظ انك ما تزال قلقا . ليس عليك الا ان تُعلم الجنرال ان الأمير ميشكين يستأذن فى الدخول ، حتى تصبح غاية مجيئى واضحة على الفور . فان استقبلت كان هذا خيرا وبركة ، وان لم أستقبل فقد يكون هذا خيرا وبركة أيضا . لكننى احسُّ انهم لا بد أن يستقبلونى . فان الجنرالة ستريد حتما ان ترى الرجل الوحيد الذى بقى من اسرة الامراء التى تنتمى هى اليها . فهى تحرص كثيرا على نسبها ، كما سمعت ذلك عنها .

كان حديث الأمير يصطبغ ببساطة مطلقة ومع ذلك كان الخادم يزداد حيرة واضطرابا على قدر ازدياد البساطة فى حديث الأمير ، فهو بحكم تجربته لا يستطيع الا ان يدرك ان هذه اللهجة التى تصلح لحديث يدور بين انسان وانسان[1] ، لا تناسب حديثا يدور بين ضيف **وانسان** . ولما كان **الناس** أذكى كثيرا مما يتصور سادتهم عادة ، فقد انتهى صاحبنا الخادم الى تصور حلين ممكنين : فاما أن هذا الأمير ليس الا متشردا أفاقا يلتمس مساعدة ، واما أنه رجل ضعيف العقل بسيط الفكر خال من العجب بنفسه . ذلك أن أميرا

---

[1] المقصود : بين خادم وخادم . ففى عهد القيصرية كانت تستعمل كلمتا «انسان» و«الناس» بهذا المعنى الذى يحمل نوعا من الازدراء . **المراجع** .

له عقل راجح وكبرياء شديدة لا يمكن أن يمكث منتظرا فى غرفة المدخل ، متحدثا عن شئونه مع خادم . وخلص الخادم الى هذه النتيجة ، وهى أنه سيكون مسئولا فى الحالتين كلتيهما .

قال للامير ملحا بأكبر شدة ممكنة :

— فلتتفضل مع ذلك بالانتقال الى قاعة الاستقبال .

فأجاب الأمير ضاحكا :

— ها قد رأيت بنفسك اننى لو انتظرت هنالك لما استطعت أن أشرح لك تلك الأمور كلها ، ولظللت قلقا من ردائى وصرَّتى . أما الآن فقد لا يكون من الضرورى أن تنتظر السكرتير . اظن انك تستطيع بنفسك الآن أن تبلغ عنى .

— لا أستطيع ان ابلغ عن زائر مثلك بدون السكرتير ؛ لا سيما وأن الجنرال قد أوصانى منذ قليل بألا ازعجه لأى سبب من الاسباب وبأى عذر من الأعذار ما ظل الكولونيل عنده . ان جافريلا آردالیونتش ، وحده يحق له ان يدخل دون ان يستأذن له .

— أهو موظف ؟

— من ؟ جافريلا آردالیونتش ؟ لا ، هو مستخدم فى الشركة وفقاً لرغبته هو . اسمع : ضع صرتك هنا على الاقل .

— خطر ببالى هذا . سوف أضع الصرَّة هنا ، ما دمت تأذن لى بذلك . على كل حال ، أحب كثيرا أن انضو عنى هذا الرداء أيضا . ما رأيك ؟

— طبعا . لا تستطيع ان تدخل على الجنرال بهذا الرداء على كل حال !

نهض الأمير ، فخلع رداءه بسرعة ، فبدا لابسا سترة لائقة المظهر حسنة التفصيل ، وان تكن مهترئة بعض الاهتراء ، ولاحت تحت السترة ، على الصديرة ، سلسلة من صلب قد علقت بها ساعة فضية من جنيف .

شعر الخادم ، رغم أنه صنّف الأمير رجلا ضعيف العقل ، شعر بأنه ليس من اللائق ان يمضى فى الحديث مع الزائر الى أبعد مما مضى اليه حتى الآن ، رغم ان الأمير نال شيئا من رضاه ، لا يدرى هو نفسه لماذا ! ولكنه قد أثار فيه من جهة اخرى شعورا واضحا بالاستياء .

سأله الأمير وهو يعود يجلس فى مكانه :

— والجنرالة متى تستقبل ؟

— ذلك ليس من شأنى أنا . والأمر مرهون بنوع الزائر . فهى مثلا تستقبل صانعة قبعاتها فى الحادية عشرة . كما ان جافريلا آرداليونتش يحق له ، هو أيضا ، ان يدخل عليها قبل غيره ، ولو فى ساعة الافطار الاول .

قال الأمير :

— البيوت هنا ادفأ فى الشتاء من البيوت فى الخارج . ولكن الجو هناك أقل برداً من الجو هنا . بيد أن شدة البرد فى بيوتهم فى الشتاء تجعل اى انسان روسى ، لا يتعود عليها ، غير قادر على العيش فيها .

— أهم لا يدفئون اذن ؟

— طبعا ، لا يدفئون . وحتى المنازل هناك مبنية بطريقة أخرى ، أقصد النوافذ والمدافئ .

— هِمْ . . . وهل تجولت هناك مدة طويلة ؟

— أربع سنين . أقصد : مكثت طول الوقت تقريبا

فى مكان واحد ، فى الريف .

— لا شك انك فقدت عادة الحياة فى بلادنا ، هه ؟

— صحيح . هل تصدّق ؟ انى لأشعر بدهشة أحيانا من أننى لم أنس اللغة الروسية نسيانا تاما . اننى اكلمك الآن فأقول لنفسى : «ان لغتى لم تسؤ كثيرا» . ولعل هذا هو السبب فى اننى ثرثار الى هذا الحد . هذه هى الحقيقة : اننى منذ الأمس اشتهى طول الوقت ان أتكلم الروسية !

— هِمْ . . . قل لى : هل كنت تسكن فى بطرسبرج من قبل ؟ — كان الخادم رغم شدة حرصه على ان يسيطر على نفسه وأن يمسك عن الكلام ، لا يستطيع ان يقطع حديثا يبلغ هذا المبلغ من اللطف والكياسة .

— فى بطرسبرج ؟ لا . . . لم أكد أقيم بها ، وانما كنت أمر بها مرورا . ثم اننى حتى فى ذلك الأوان لم اكن أعرف شيئا هنا . فما بالك الآن وقد ازدادت الأمور الجديدة ازديادا يجعل حتى العارفين مضطرين ان يتعلموا كل شىء من جديد . ان الحديث يكثر هنا عن محاكم فى هذه الايام .

— هِمْ . . . محاكم . . . نعم ، هناك محاكم ، لا شك فى هذا . ولكن قل لى : هل المحاكم هناك ، فى الخارج ، أعدل من المحاكم هنا ؟

— لا أدرى . سمعت كثيرا من الثناء على القضاء عندنا . من ذلك أن عقوبة الاعدام قد ألغيت . . . .

— وهناك ، هل يُعدمون ؟

— نعم ، رأيت اعداما فى فرنسا ، بمدينة ليون . شنايدر هو الذى قادنى الى هناك .

— يشنقون ؟

— لا . . . فى فرنسا يقطعون الرأس .

— وهل يصرخ المعدَمون عندئذ ؟

— يصرخون ؟ هه . . . ان قطع رؤوسهم يتم فى لحظة . يُضجع المحكوم عليه ، فيهوى على رأسه نصل آلة يسمونها مقصلة ، نصل ثقيل قوى . . . يفصل الرأس عن الجسم فورا . ولكن الشىء الأليم الفظيع انما هو الاعدادات : قراءة قرار الحكم بالاعدام ، الباس المحكوم عليه ، ايثاقه بالحبال ، اصعاده على الصقالة . تلك هى البرهة الرهيبة ! والجمهور يحتشد ، وحتى النساء تتوافد ، رغم أنهم لا يريدون للنساء هناك أن ترى هذا المشهد .

— فعلا ، ليس هذا مكانهن .

— طبعا ، طبعا ! كيف يشهدن تعذيبا كهذا التعذيب ؟ . . لقد كان المحكوم عليه ، فى ذلك اليوم ، رجلا يبدو عليه أنه لا يهاب ولا يخاف ، رجلا ذكيا ، قوى الجسم ، ليس شابا صغيرا بل هو ناضج السن ، اسمه ليغرو . ومع ذلك ، أؤكد لك ، ولك ان تصدقنى او لا ، أؤكد لك انه حين اعتلى الصقالة كان يبكى ، وكان شاحب اللون كورقة . أهذا ممكن ؟ أليس هذا فظيعا ؟ هل يمكن حقا أن يبكى المرء من شدة الخوف ؟ لا ، لم أكن أصدِّق ان أحدا يمكن أن يبكى هذا البكاء خوفا . . . لست أتكلم هنا عن طفل ، بل عن رجل لم يسبق له أن بكى يوما ، عن رجل فى الخامسة والأربعين من عمره . ما الذى يحدث للنفس فى تلك الدقيقة ؟ ما هذه التشنجات التى تصير اليها ؟ هذه اهانة للنفس ،

ليس إلا ! ولقد قيل مع ذلك : «لا تقتل» ! ، فما بالهم يقتلون رجلا لأنه قتل ؟ لا ، هذا شىء لا يمكن ان يقبله الانسان ! لقد شهدت ذلك المنظر منذ أكثر من شهر ، وما زال يتراءى لى حتى الآن ، كأنه امام عينى ، حتى لقد وافانى فى أحلامى خمس مرات على الأقل .

تحمس الأمير وهو يتكلم ، وتلون وجهه الشاحب بعض التلون ، الا أن لهجة صوته ظلت هادئة . وكان الخادم يصغى اليه باهتمام ومودة ، حتى لكأنه لا يستطيع أن يحول انتباهه عن القصة . لعله كان هو أيضا انسانا من اصحاب الخيال وممن يحاولون التفكير .

قال الخادم :

— من حسن الحظ ، على الأقل ، ان الانسان لا يتألم مدة طويلة حين يُقطع رأسه .

فاستأنف الأمير كلامه يقول بحرارة :

— أتدرى ، ان هذه الملاحظة التى ذكرتها أنت الآن تخطر ببال كل انسان . ولتحقيق هذه الغاية انما اخترعوا تلك الآلة ، أعنى المقصلة . أما انا فقد خطرت ببالى فى ذلك اليوم فكرة أخرى اذ تساءلت : «تُرى الا يمكن ان يكون هذا أسوأ ؟» قد تبدو لك فكرتى هذه باعثة على الضحك ، بل قد تبدو لك غريبة ، ومع ذلك فان فكرة كهذه يمكن ان تخطر ببال أى انسان اذا هو أعمل خياله قليلا . فكِّر فى الأمر : لننظر فى التعذيب مثلا . ان الآلام والجروح والوجع الجسمى ، ان هذا كله يذهل النفس عن عذابها ، فلا يتألم المرء عندئذ الا من الجروح الى أن يموت منها . والألم الرئيسى ، والألم الذى هو أشد الآلام

قوة قد لا يكون ألم الجروح ، بل الألم الذى ينشأ عن يقين المرء من أنه بعد ساعة ثم بعد عشر دقائق ثم بعد نصف دقيقة ، ثم الآن فورا ، ستترك روحه جسدها ، وانه لن يكون بعد تلك اللحظة انسانا ، وان هذا أكيد ، انه **أكيد** بصفة خاصة . فحين يضع المرء رأسه تحت المقصلة البتَّارة ، وحين يسمع انزلاقها فوقه ، فى ربع الثانية ذاك ، ذاك ، انما يشعر المرء بالخوف الاكبر . هل تعلم أن هذا الذى اقوله ليس مستمدا من خيالى بل ذكره كثيرون ؟ وانى لأبلغ من قوة الاقتناع به أننى سأقول لك رأيى فى هذا الأمر صريحا كل الصراحة . انا ارى ان قتل انسان بسبب ارتكابه جريمة قتل هو قصاص لا تناسب بينه وبين الجريمة نفسها . ان القتل بموجب الحكم افظع كثيرا من جريمة القتل التى ارتكبها ذلك القاتل . ان الانسان الذى يقتله القتلة ، اذ يذبحونه ليلا فى غابة أو غيرها ، يظل الى آخر لحظة يأمل ان ينجو . يروى الناس عن مقتولين أنهم ظلوا ، بعد حزّ رقابهم ، يأملون ويحاولون الفرار ويتضرعون سائلين الشفقة عليهم والرأفة بهم . أما هنا ، فى الاعدام ، فان الأمل الأخير ، الأمل الذى يجعل احتمال الموت اسهل عشر مرات يُنتزع منك بالتأكيد ! فالحكم **والادراك** بأنك لن تنجو حتما ، فى هذا العذاب الرهيب كله ، وليس فى الدنيا عذاب أشد هولا من هذا العذاب . لو أخذت جنديا فوضعته فى قلب المعركة امام فوهة المدفع ، ثم أطلقت عليه النار ، لظل يحتفظ بالأمل الى آخر لحظة . أما اذا قرأت لهذا الجندى نفسه قرارا يحكم عليه بموت مؤكد ، فان هذا الجندى سيفقد عقله ، أو سيجهش باكيا . من

ذا الذى قال أن الطبيعة الانسانية تستطيع أن تحتمل تعذيبا كهذا التعذيب دون أن تهوى الى الجنون ؟ فيم ايقاع أذى يبلغ هذا المبلغ من السوء والعقم ؟ ربما كان يوجد فى هذا العالم انسان حُكم عليه بالموت ، وشُرع فى تعذيبه ذلك التعذيب ، ثم قيل له أخيرا : «امض ، فقد صدر عفو عنك !» . ان فى وسع هذا الانسان ان يحكى لكم . المسيح نفسه قد تكلم أيضا عن هذا العذاب ، عن هذا الخوف ! لا ، لا يجوز أن يعامل كائن انسانى معاملة كهذه المعاملة !

لم يكن الخادم يستطيع التعبير عن كل ذلك كما عبر عنه الأمير ، ولكنه بالطبع فهم الشىء الاساسى ، وكان ذلك واضحا فيما ظهر على وجهه من علائم التأثر . وقال للأمير :

— اذا كنت ترغب فى التدخين الى هذا الحد ، ففى وسعك أن تدخّن ، ولكن افعل بسرعة ، اذ ما عساى أصنع اذا طُلبتَ فكنتَ غائبا . اسمع : هناك ، تحت السلم ، هل ترى الباب ؟ افتح الباب وادخل ، فترى على اليمين حجرة صغيرة ، ففى امكانـــك أن تدخّن هناك . ولكن لا تنس ان تفتح الطاقة ، فالتدخين هنا مخالفة . . .

ولكن الوقت لم يُتح للأمير ان يمضى الى تلك الحجرة ، فقد دخل الى الغرفة شاب يحمل بيده أوراقا ، فهبَّ الخادم يأخذ عنه قراءه . وألقى الشاب على الأمير نظرة مواربة . تكلم الخادم فقال بلهجة من يفضى بسر ، دون كلفة :

— هذا يا جافريلا آردالیونتش سيدٌ يقول انه الأمير ميشكين ، قريب الجنرالة . لقد وصل من الخارج ونزل من القطار مع هذه الصُّرة . ولكن . . .

لم يستطع الأمير ان يسمع تتمة الكلام ، لأن الخادم اخذ يهمس . وكان جافريلا آردالیونتش يصغى بانتباه ، ويلقى على ميشكين نظرات تفيض استطلاعا وفضولا . وكفَّ عن الاصغاء اخيرا ، واقترب من الأمير بسرعة ، فسأله بتحبب كبير وكياسة عظيمة :

— انت الامير ميشكين ؟

انه شاب وسيم الطلعة جدا ، فى نحو الثامنة والعشرين من العمر هو أيضاً ، أشقر اللون ، رشيق القوام ، أميل الى الطول ، له لحية صغيرة جدا على طريقة نابوليون الثالث ، وجهه يدل على ذكاء ، ويمتاز بجمال . ولكن ابتسامته مفرطة فى الرقة على كونها محبَّبة لطيفة ، وهى تكشف عن أسنان منضودة كاللؤلؤ مفرطة فى الكمال والاتساق . أما نظرته ، رغم كل ما فيها من بشاشة وبراءة ظاهرة ، فقد كانت مفرطة فى الالحاح والتقصى .

«أغلب الظن ان هذا الشاب لا تكون له هذه النظرة نفسها حين يخلو الى نفسه ، ولعله لا يضحك قط» . ذلك كان شعور الأمير .

كرر ميشكين ، بسرعة ، كلَّ ما سبق أن قاله للخادم ، وما سبق أن قصَّه على روغوجين قبل ذلك . فكان جافريلا آردالیونتش فى أثناء ذلك يبدو كمن ينبش ذكرياته . ثم سأله :

— ألست انت الذى كتبت الى اليزافيتا بروكوفيفنا فى

العام الماضى ، أو فى وقت أحدث ، من سويسرا ، فيما أظن ؟

— نعم أنا .

— اذن أنت هنا معروف ، ولا شك أنهم يتذكرونك . هل تريد أن تقابل صاحب السعادة ؟ سأبلغه وصولك . . . بعد قليل يخلو . ولكن كان ينبغى لك . . . كان يليق ان تكون فى قاعة الاستقبال . . . — وتوجه سائلا الخادم بصرامة :

— لماذا بقى السيد هنا ؟

— قلت لك . هو نفسه أراد ذلك وأصرَّ عليه !

وفى تلك اللحظة فُتح باب المكتب فجأة ، فخرج منه ضابط يتأبط حقيبة اوراق . كان الضابط يتكلم بصوت عال ، ويكثر من التحيات .

وصاح صوت من آخر المكتب ينادى :

— أأنت هنا يا جانيا ؟ تعال اذن . . .

اومأ جافريلا آردالیونتش للأمير بحركة خفيفة من رأسه ، وأسرع يدخل المكتب .

وبعد دقيقتين فتح الباب من جديد ، وسُمع صوت جافريلا آردالیونتش ، الرنان المتودد ، يقول :

— تفضل بالدخول يا أمير !

الفصل الثالث

كان الجنرال ايفان فيدوروفيتش ايبانتشين واقفا فى وسط مكتبه ينظر الى الأمير الداخل بفضول شديد ؛ حتى لقد خطا للقائه خطوتين ؛ واقترب الامير وقدَّم نفسه .

قال الجنرال :

— حسن . فى أى شىء استطيع أن أخدمك ؟

قال الأمير :

— ليس لى الآن أى أمر مستعجل . وليست غايتى من هذه الزيارة الا التعارف . لا أحب ان أزعجك . اننى لا أعرف اليوم الذى تستقبل فيه ، ولا أعرف العادات التى تأخذ نفسك بها . . . وقد جئت من محطة القطار الى هنا رأسا . . . وأنا قادم من سويسرا . . .

ابتسم الجنرال ابتسامة خفيفة ، لكنه فكَّر فأسرع يكظمها . ثم فكَّر مزيدا من التفكير فزَّر عينيه وعاد يتفحص الزائر من القدمين الى الرأس ، ثم أشار له الى كرسى يجلس عليه . وجلس هو نفسه متنحيا بعض التنحى ، والتفت نحو الأمير مستطلعا نافد الصبر . وكان جانيا واقفا فى ركن من المكتب يستل أوراقا .

أجاب ايبانتشين قائلا :

— لا يتسع وقتى عامة للتعارف مع أناس جدد ، ولكن لما كان لك هدف حتما فاننى . . .

قاطعه الأمير يقول :

— كنت أحس سلفا أنك سوف تنسب الى زيارتى

منفعة خاصة أبتغيها . لكننى أحلف لك أننى لا هدف لى الا مسرتى بمعرفتك .

— المسرة متبادلة طبعا ، ولكن المسرة ليست كل شىء دائما ، فقد يكون هنالك أعمال . . . ثم اننى لم أتوصل الى ادراك الصلة التى يمكن ان تربطنا . . . أقصد : لست ادرك السبب الذى حملك على أن . . .

— ما من سبب . . . ذلك أمر لا جدال فيه . . . وليس هناك اشياء كثيرة تجمعنا . فلأن أكون من اسرة الامراء ميشكين ولأن تنتمى قرينتكم الكريمة الى هذه الأسرة نفسها ، فليس هذا سببا كافياً بطبيعة الحال . اننى أدرك ذلك حق الادراك . ومع هذا فذلك هو السبب الوحيد الذى دفعنى الى المجىء . لقد تركت روسيا منذ أربع سنين ، او اكثر ، ومن كنت حين رحلت ؟ كنت مجنونا تقريبا ! كنت لا أعرف عن الحياة شيئا حينذاك ، والآن أعرف عنها حتى أقل . أنا فى حاجة الى معرفة أناس ذوى قلوب كريمة . على سبيل المثال : هناك الآن قضية يجب أن أحلها ، ولا أدرى من اى طرف أبدأ . قلت لنفسى منذ أن بلغت برلين : «هؤلاء اقرباء لى تقريبا ، فسأبدأ اذن بهم ، فلعلنا نستطيع ان ينفع بعضنا بعضا ؛ انفعهم وينفعوننى ان كانوا اناساً طيبين . وقد سمعت انكم اناس طيبون .

قال الجنرال مدهوشاً :

— كلام لطيف . هل أستطيع ان أعرف أين نزلت ؟

— حتى الآن لم أنزل فى مكان .

— اذن جئت الى عندى من القطار رأسا ، هه ؟ و . . . مع أمتعتك ؟

— ليس لى الا صرَّة صغيرة بها بعض الملابس ، ولا شىء غير ذلك . وأنا أحملها بيدى عادة . سأتمكن من استئجار غرفة فى فندق فى المساء .

— فى نيتك اذن أن تستأجر غرفة ؟

— نعم ، طبعاً .

— ظننت من أقوالك فى البداية أنك كنت تنوى الاقامة عندى .

— كان يمكن أن أفعل ذلك لو دعوتنى . ومع هذا اعترف لك بأننى ما كنت لابقى ولو دُعيت ، لا لسبب ما ، بل هكذا . . . بطبعى .

— اذن ، فقد أحسنت لأننى ما دعوتك ، ولا أدعوك . كلمة أخرى لو سمحت ، يا أمير ، من أجل أن نضع الأمور فى نصابها . ما دمنا قد اتفقنا على انه لا مجال للكلام عن قرابة بيننا ، رغم ان هذه القرابة كان يمكن ان تشرفنى طبعا ، فانه يترتب على هذا . . .

— يترتب على هذا انه لم يبق لى الا أن أنهض وانصرف .

قال الأمير وهو ينهض ويضحك من قلبه ، رغم كل ما فى هذا الوضع من حَرَج وارتباك . وتابع كلامه يقول :

— واؤكد لك ، يا جنرال ، اننى رغم قلة خبرتى ورغم جهلى التام بالعادات وحياة الناس هنا عموما ، كنت أعلم حق العلم ان الأمور ستجرى على هذا النحو تماما . على كل حال ، ربما كان هذا ضرورياً . . . ثم ان رسالتى آنذاك لم يُرَدَّ عليها أيضا . . . طيب . . . استودعك الله ، واغفر لى ازعاجك .

كانت نظرة الأمير فى تلك اللحظة تفيض لطفا وبشاشة ، وكانت ابتسامته خالية كل الخلو من اية عداوة ، ولو مستترة ، حتى ان الجنرال توقف ، ونظر الى ضيفه فجأة بعين جديدة . وقد تحقق كل هذا التحول فى نظرته فى طرفة عين .

قال الجنرال للأمير بصوت يوشك ان يكون قد تغير تغيرا كاملا :

— اسمع يا أمير : انا فى الواقع لا اعرفك ؛ وربما كانت اليزافيتا بروكوفيفنا قد تحب أن ترى الرجل الذى يحمل اسم الاسرة الذى تحمله هى . . . فانتظر اذا شئت واذا كان يتسع وقتك .

أجاب الأمير وهو يسرع فيضع قبعته اللينة المدورة على المائدة :

— هوه ! وقتى يتسع كل الاتساع ! وقتى كله ملكى ! اعترف لك بأننى كنت اقدِّر فعلاً ان اليزافيتا بروكوفيفنا قد تتذكر اننى كتبت اليها . منذ قليل ، اثناء انتظارى فى حجرة المدخل ، خيِّل الى خادمك اننى جئت التمس بعض المساعدات . لاحظت ذلك واضحا . ولا بد أن اوامرك شديدة فى هذا الصدد . اؤكد لك اننى ما جئت لهذا ، واننى لم آت الا للتعارف حقا . لكنى اخشى ان اكون قد ضايقتك ، وهذا يقلقنى .

قال الجنرال وهو يبتسم ابتسامة فرحة :

— طيب يا أمير ، اذا كان باطنك كظـــاهرك ، اذا كنت كما تبدو فعلا ، فربما كانت معرفتك تسر وتبهج . ولكنك ترى طبعا اننى امرؤ مشغول . سأضطر حالا الى العكوف على بعض الأوراق أدرسها وأوقِّعها ، وعلىَّ بعد ذلك

ان أذهب الى صاحب السمو ، ثم أمضى الى مكتبى . معنى ذلك اننى رغم ابتهاجى الشديد برؤية أناس لطاف محببين . . . أى . . . ولكن . . . أقصد أننى على ثقة بأن تربيتك الممتازة لا بد ان . . . ما سنُّك يا أمير ؟

— ستة وعشرون عاما .

— اوه ! كنت احسبك أصغر سنا من ذلك بكثير .

— نعم ، يقال ان وجهى يبدو فتيا . فيما يتعلق بعدم ازعاجك ، سأحاول ان اتعلم ذلك وافهمه سريعا ، لاننى أكره أن أزعج احدا . . . ويخيَّل الىَّ أخيرا أننا مختلفان فى الظاهر اختلافا شديدا . . . لاسباب كثيرة ، ولذلك ، كما يبدو ، لا يمكن ان تكون بيننا جوانب مشتركة كثيرة ؛ رغم اننى فى الواقع لا اصدق هذا من جهتى ؛ انعدام الجوانب المشتركة ظاهرى فقط ، أما فى حقيقة الأمر فهى موجودة كل الوجود . . . ان الكسل هو مصدر التصنيف التلقائى للناس فيما بينهم وفشلهم فى ايجاد هذه الجوانب . اظن اننى أصبحت مضجرا مملا ، أليس كذلك ؟ انك تبدو . . .

— كلمة اخرى : هل تملك بعض ثروة على الأقل ؟ لعلك تأمل ان تجد عملاً ؟ اغفر لى أننى أكلمك بهذه الفجاجة . . .

— أرجوك ، بالعكس . . . اننى افهم اهتمامك هذا وأقدره حق قدره . لا أملك الآن اية ثروة ، وليس لى اى مركز بعد ، لكنى سأحتاج الى هذا طبعا . ان المال الذى كان معى الى الآن ليس مالى . ان شنايدر ، الاستاذ الذى كان يعالجنى ويعلمنى بسويسرا ، هو الذى أعطانى ذلك المال . وقد أخذت منه ما يكفينى للرحلة بلا زيادة ولا

نقصان ، فلم يبق معى الآن الا بضعة كوبيكات . فى ذهنى امر من الأمور ، وأنا فى حاجة الى نصائح ، ولكن . . .

قاطعه الجنرال سائلاً :

— قل لى : ممَّ تنوى ان تعيش مؤقتاً ، وما هى مشروعاتك ؟

— أريد أن أعمل ، بطريقة او بأخرى .

— ها . . . حقا انك لفيلسوف . قل لى : هل تعرف لنفسك موهبة من المواهب ؟ هل تعرف لنفسك كفاءات يمكن ان تهيئ لك خبز يومك ؟ مرة اخرى اعتذر عن . . .

— لا تعتذر ! ما احسب ان لى موهبة او كفاءات خاصة . بالعكس : أنا رجل مريض ، ولم أتابع تحصيلى . اما عن خبز يومى ، فيخيَّل الىَّ . . .

قاطعه الجنرال مرة أخرى ليزحمه بالأسئلة . فقصَّ الأمير قصته مرة أخرى . واتفق أن كان الجنرال قد سمع عن المرحوم بافليشيف ، حتى لقد عرفه شخصيا . لم يستطع الأمير ان يشرح لماذا اهتم بافليشيف بتربيته وتعليمه ، ولم يزد على ان قال : لعل ذلك لم يكن الا تكريما لذكرى صداقته القديمة بالمرحوم ابيه . لقد تيتم الأمير منذ طفولته الغضة ، وقضى سنى حياته كلها بالريف ، لان حالته الصحية كانت تحتاج الى هواء ريفى . وعهد به بافليشيف الى قريبات له عجائز كن يعشن فى اراضيه . وكانت له فى اول الأمر مربية تشرف على تربيته ، ثم اصبح له بعد ذلك مرب يتولى تعليمه . ورغم انه يتذكر كل شىء تذكرا واضحاً قويا ، فانه لم يستطع أن يقدم تعليلات كافية وتفسيرات مقنعة ، لانه — على حد تعبيره — لم يكن فى

ذلك الاوان يدرك الاشياء ادراكا جيدا . وقد جعلته نوبات مرضه المتكررة يصير ابله تقريبا (قال الأمير كلمة «أبله» بالذات) . وروى الأمير اخيرا ان بافليشيف كان قد التقى فى برلين بالاستاذ السويسرى شنايدر ، الاخصائى فى هذا النوع من الامراض . وكان للاستاذ شنايدر فى مقاطعة فاليه بسويسرا مستوصف يداوى فيه المرضى بطريقة خاصة به ، اساسُها الرياضة البدنية وحمامات الدوش الباردة ؛ وكان أيضا يداوى البله والمجانين ، ويعنى بتعليمهم ، ويهتم بتنشئتهم الروحية عموما . وقد أرسل بافليشيف الأمير الى شنايدر منذ حوالى خمس سنين . ومات هو بعد ذلك بثلاثة اعوام ، دون ان يتخذ اى تدبير . ولكن شنايدر احتفظ بالأمير وظل يعالجه طوال هذين العامين الاخيرين . ولم يتوصل الى شفائه من مرضه ، لكن العلاج كانت له نتائج حسنة . ثم قرر شنايدر ، تلبية لرغبة الأمير نفسه ، وعلى أثر حادث جديد ، أن يعيده الى روسيا .

ابدى الجنرال دهشة كبيرة ، وسأله :

— اذن ، ليس لك فى روسيا أحد ؟ ليس لك فيها أى قريب ؟

— الآن ليس لى أحد ، ولكننى آمل . . . ثم اننى قد تلقيت رسالة . . .

قاطعه الجنرال قائلا دون ان يسمع ما قيل عن الرسالة :

— ولكن لا بد انك تعلمت شيئا ما ، على الأقل . . . ان مرضك لن يمنعك من ان يكون لك وظيفة ما . . . لا أقول وظيفة صعبة ، بل وظيفة ما فى ادارة ما .

— طبعا لا يمنعنى مرضى من ذلك . اما عن الوظيفة

فاننى أود كثيرا ان يكون لى وظيفة . اننى احب كثيرا أن أعرف ما أقدر عليه . لقد ظللت أدرس واتعلم طوال السنين الاربع الماضية . صحيح ان دراستى لم تكن صحيحة تماما اذ سارت وفقا لمنهاج استاذى الخاص ، لكننى استطعت فى الوقت نفسه أن أقرأ كتبا روسية كثيرة .

— كتبا روسية ؟ فأنت اذن تعرف قواعد الاملاء وتستطيع ان تكتب بدون أخطاء ؟

— طبعا . . . واجيد ذلك .

— عظيم . وخطك ؟

— خطى ممتاز ؛ بل استطيع ان أقول من هذه الناحية أن لى موهبة . أنا خطاط فعلا .

وأضاف الأمير يقول بحماسة :

— دعنى اكتب لك شيئا على الفور من قبيل التجربة .

— افعل ! افعل ! بل ان هذا سيكون مفيدا جدا . . . لقد أحببت فيك حسن ارادتك وهمتك يا عزيزى الأمير . حقا انك للطيف كل اللطف .

— ما أجمل أدوات مكتبك ! ما أحسن هذه الأقلام ، وهذه الريش . . . ما اروع هذا الورق ! ما احسن سمكه ! . . ويا لها من حجرة مكتب فخمة ! ها ، اننى أعرف هذا المنظر . هو مشهد من سويسرا . أنا على يقين من ان الرسام الذى صوَّر هذا المنظر قد نقله عن الطبيعة . انا واثق بأننى اعرف هذا المكان : هو فى مقاطعة أورى . . .

— جائز جدا ، رغم اننى اشتريت اللوحة من هنا . يا جانيا ، اعط الأمير ورقا . اليك ريشاً وورقا . تفضل اجلس الى المائدة الصغيرة .

والتفت الجنرال نحو جانيا فرآه يخرج من حقيبة اوراقه صورة فوتوغرافية كبيرة ويمدها الى ايبانتشين . فسأله الجنرال :

— ما هذا ؟ آ . . . هذه ناستاسيا فيليبوفنا ! أهى التى أرسلت اليك الصورة ؟ بنفسها ؟

كذلك سأله متدفقاً فى الكلام ، وقد بدا عليه حب استطلاع شديد .

أجابه جانيا :

— اعطتنيها منذ قليل ، حين ذهبتُ أقدم اليها التهانئ . لقد طلبتها منها منذ مدة طويلة . تُرى أليس فى هذا الماع منها الى اننى جئتها خالى اليدين لا احمل لها اية هدية فى مثل هذا اليوم ؟

أضاف جانيا جملته الاخيرة هذه وهو يبتسم ابتسامة كريهة . فقاطعه الجنرال بلهجة جازمة :

— لا ، لا ، حقا ان لك تفكيرا غريبا ! أهى امرأة من تلك النساء التى تلمح وتلمع ؟ . . انت تعرف حق المعرفة انها ليست امرأة تنشد منفعة . ثم ما عسى تكون الهدايا التى يمكن ان تهديها اليها ؟ لامرأة مثلها لا يقدَّم الا ما يساوى آلاف الروبلات ! كان فى وسعك طبعا ان تقدم اليها صورتك انت أيضا . بالمناسبة : ألم تطلب منك صورتك حتى الآن ؟

— لا ، لم تطلبها حتى الآن ، وقد لا تطلبها فى يوم من الأيام . أنت غير ناسٍ سهرةَ اليوم طبعا يـــا ايفان فيدوروفتش ، أليس كذلك ؟ ذلك انك واحد من ضيوف الشرف .

— طبعا طبعا ، غير ناسٍ . . . غير ناسٍ . . . سأحضر

حتما . . هو عيد ميلادها . . . عيد ميلادها الخامس والعشرين !

هِمْ . . . لا بأس يا جانيا ، سأفضى اليك بسر ، فأصغ الىّ : لقد بذلتْ لى ولافاناسى ايفانوفتش وعدا بأن تعلن قرارها هذا المساء . ستكون او لا تكون . ضع هكذا ، اذن ، لتنتظر .

اضطرب جانيا فجأة ، حتى لقد امتقع لونه قليلا . وسأل بشىء من اختلاج فى صوته :

— هل قالت هذا حقاً ؟

— قطعت على نفسها عهـــدا منـــذ ثـــلاثة ايام . لقد بلغنا كلانا من الالحاح واللجاجة انها اذعنت آخر الأمر . لكنها رجتنا الا نذكر لك شيئا من ذلك قبل ان تحين الساعة .

كان الجنرال يتفرس فى جانيا بنظرة فاحـــــصة ، وكان واضحا ان اضطراب جانيا يسوءه .

قال جانيا مضطربا مترددا :

— لاحظ يا ايفان فيدوروفتش انها تركت لى حرية اتخاذ القرار كاملةً الى ان تتخذ قرارا بنفسها ، وحتى بعده يبقى القول الفصل لى أنا . . .

صاح الجنرال يقول مروَّعا مذعوراً :

— ولكن هل تُراك . . . هل تُراك ذكرت أن . . .

— لم أقل شيئاً .

— ارجوك ، فكر ، فى اى موقف تضعنا ؟

— أنا لا ارفض . لعلنى اخطأت التعبير . . .

قال الجنرال غاضباً دون ان يحاول كظم استيائه :

— لن ينقصنا الا ان ترفض ! يا صديقى ، لم

تعد المسألة عندنا أن **لا** ترفض . وانما يجب عليك أن تظهر الغبطة والامتنان والسعادة فى اللحظة التى تعلن فيها رأيها . . . وما الذى يجرى فى بيتك ؟

— فى بيتى ؟ فى بيتى يجرى كل شىء وفق مشيتى وارادتى . ابـى وحده يجن جنونه ، على عادته . لقد اصبح فى منتهى الدناءة . واصبحت لا اكلمه . لكنى ما زلت اقسو عليه ، ولولا امى لطردته من المنزل . امى ما تنفك تبكى طبعا . واختى غاضبة غضبا شديدا ، لكننى اعلنت لهما اعلانا قاطعا اننى سيد مصيرى ، واننى لا أطلب شيئا فى البيت الا أن . . . أطاع . على كل حال ، هذا ما أبلغته أختى بحضور أمى .

قال الجنرال شارد الذهن وهو يهز منكبيه ويباعد قليلا بين ذراعيه :

— أما أنا يا عزيزى فما زلت لا أفهم ! . . لا شك أنك تتذكر أن نينا الكسندروفنا ، حين زارتنى فى الايام الاخيرة ، قد اخذت تنتحب وتئن ، فلما سألتها : «ماذا بك» ، فهمت ان الامر الذى يؤلمها هو ما يهددهم من **تلطخ الشرف** بالعار فيما يبدو . وددت لو اعرف اين تلطخ الشرف فى هذا ؟ من ذا الذى يستطيع ان يأخذ على ناستاسيا فيليبوفنا اى شىء ، او ان يروى عنها اى سوء ؟ هل يمكن ان تؤخذ على العلاقة التى كانت بينها وبين توتسكى ؟ الا ان هذا يكون سخفاً كاملاً ، لا سيما اذا نظرنا الى الظروف الخاصة التى تحيط بالأمر . قالت لى عندئذ : «هل تدع لها ان تقترب من بناتك ؟» هه ! سمعت ؟ غريب امر نينا الكسندروفنا ! ان الأمر مع ذلك واضح ، كيف لا تدرك . . .

— وضعها ؟ — أكمل جانيا جملة الجنرال ليخلصه من ارتباكه . ثم تابع كلامه فقال :

— انها تدرك وضعها حق الادراك . لا تؤاخذها ! ثم اننى قد اسرعت القنها درساً حينذاك حتى تتعلم الا تتدخل فى شئون الآخرين . على كل حال ، ما يزال يسود بيتنا شىء من الهدوء ، لان الكلمة الاخيرة ما قيلت بعد . غير ان الصاعقة ستنفجر . فاذا قيلت الكلمة الاخيرة اليوم ، انطلق كل شىء من عقاله .

سمع الأمير ذلك الحديث كله ، رغم اكبابه فى ركنه على عمله فى الكتابة بالخط الجميل . فلما انجز عمله اقترب من المائدة ، ومدّ الورقة . ودمدم يقول بعد ان انعم النظر فى الصورة بانتباه وتشوق :

— أهذه اذن ناستاسيا فيليبوفنا ؟ — ثم اضاف يقول بحرارة : — انها رائعة الجمال حقا ! — كانت الصورة الفوتوغرافية تظهر قسمات امرأة ذات جمال نادر فذ فى الواقع . والمرأة ترتدى ثوبا من حرير أسود ، ثوباً بسيط الطراز وانيقا جدا ؛ شعرها كستائى كما يبدو ، قد صفف تصفيفا بسيطا فى تسريحة منزلية ؛ عيناها دكناوان عميقتان ؛ فى جبينها امارات تفكير ؛ وجهها يعبر عن اندفاع عاطفى ، عن شىء يشبه التعالى ، وهو نحيل ، ولا بد ان يكون شاحباً . . .

دهش جانيا والجنرال من كلام الأمير ، فالتفتا نحوه . . . وسأله الجنرال :

— كيف ؟ ناستاسيا فيليبوفنا ! هل لحقت ان تعرف ناستاسيا فيليبوفنا ؟

فأجاب الأمير :

— نعم ، أنا فى روسيا منذ اربع وعشرين ساعة فقط . ومع ذلك أعرف هذه المرأة التى لا يضارع جمالها جمال . — واسرع يروى لقاءه مع روغوجين ، وحكى القصة التى سمعها منه .

قال الجنرال قلقا ، بعد ان اصغى الى الأمير بانتباه شديد ، وهو يتجه الى جانيا بنظرة مستفهمة سائلة :

— يا للنبأ !

وجمجم جانيا يقول مضطربا بعض الاضطراب هو أيضا :

— هى حكاية طيش لا اكثر ! ابن تاجر يلهو ويقصف ! سبق ان سمعت عنه .

عاد الجنرال يتكلم فقال :

— وأنا سمعت عنه أيضا يا عزيزى ! ان ناستاسيا فيليبوفنا قد روت القصة كلها بعد حكاية القرطين تلك . ولكن الامر الآن مختلف . ربما كان الامر الآن امر مليون . . . وهناك أيضا ذلك الهوى . . . هو هوى خسيس طبعا ، لكنه هوى مع ذلك . ونحن نعرف ما قد يفعله امثال هؤلاء السادة بغير حرج حين يسكرون . — وختم الجنرال كلامه مفكرا حالما يقول :

— هِمْ . . . ارجو ان لا يؤدى هذا الى حادث ما ! . .

قال جانيا وهو يضحك ضحكة ساخرة :

— هل المليون هو ما تخشاه ؟

— أما أنت فلا ، طبعاً ؟

قال جانيا فجأة يسأل الأمير :

— قل لى يا أمير : ماذا كان شعورك تجاهه ، أأحست

انه رجل جاد ام عربيد حقير لا اكثر ؟ ما رأيك الشخصى ؟

احس جانيا باحساس غريب وهو يلقى هذا السؤال ، كأن فكرة جديدة فريدة قد انارت ذهنه ، فأخذت عيناه تسطعان بومضات من نفاد الصبر . وكان قلق الجنرال صادقاً ساذجاً ، فالتفت هو أيضاً نحو الأمير ، ولكن دون ان يبدو عليه انه يتوقع من جواب الأمير اشياء كثيرة .

أجاب الأمير :

— لا أدرى ماذا أقول لك . لقد بدا لى على كل حال أنه شاب مشبوب الهوى جامح العاطفة الى حد المرض . ثم انه هو نفسه يشعر من يراه بأنه مريض . ومن الجائز جدا ان تنتكس صحته منذ ايامه الاولى ببطرسبرج ، ولا سيما اذا أخذ يشرب .

هتف الجنرال يقول متشبثاً بهذه الفكرة :

— ها . . . هذا رأيك اذن ؟

— نعم ، هذا ما خيّل الىّ .

قال جانيا وهو يضحك ساخراً :

— على كل حال ، لا تحتاج مغامرة كهذه الى بضعة ايام لكى تنفجر ، حتى لقد نسمع جديدا قبل هذا المساء .

قال الجنرال :

— هِمْ . . . طبعاً . . . هذا جائز . . . لكن كل شىء رهن اذن بما يخطر ببالها هى !

— انك لتعرف حق المعرفة كيف تكون هى فى بعض الأحيان !

صاح الجنرال من جديد وقد استولت عليه حيرة شديدة ، وبلبلة كبيرة :

— ماذا تريد أن تقول ؟ اسمع يا جانيا ، أرجوك ملحاً ألا تعارضها اليوم كثيراً . بالعكس : حاول ان تكون . . أقصد . . . كن لطيفاً . . . هِمْ . . لماذا تلوى فمك هكذا ؟ اسمع يا جافريلا آرداليونتش : فلننتهز هذه المناسبة الآن لنوضح لانفسنا ما الذى نبذل جهدنا من اجل الوصول اليه ؟ انك لتدرك حق الادراك اننى ، فيما يتعلق بمصلحتى الشخصية فى هذه القضية كلها ، مغطًّى منذ زمن طويل . ولسوف اخرج منها بما يناسبنى ويلائمنى ، بطريقة او بأخرى . لقد اتخذ توتسكى قرارا لا رجعة عنه . فأنا أيضا هادئ اذن كل الهدوء . واذا كنت ما أزال ارغب فى شىء ، فهو خيرك انت . فكِّر مليًا : ألست تثق بى ؟ لا سيما وانك رجل . . . رجل . . . رجل ذكى . ثم اننى قد وضعت أملى فيك . وفى الوضع الراهن ، فى الوضع الراهن . . .

— هذا هو الشىء الرئيسى ! — كذلك قال جانيا يساعد الجنرال فى اتمام جملته مرة اخرى ، والتوت شفتا الفتى على ابتسامة ساخرة مسمومة اصبح لا يحاول حتى اخفاءها . وكانت نظرته المحمومة تحدِّق الى عينى الجنرال ، كأنه يريد ان يقرأ الجنرال فيها كل تفكيره . فاصطبغ وجه الجنرال بحمرة شديدة ، وغضب فاستأنف كلامه وهو ينظر الى جانيا بقسوة :

— نعم ، الذكاء هو الشىء الرئيسى . الا انك لغريب الاطوار يا جافريلا آرداليونتش ! لكأنك مبتهج بوصول هذا الشاب التاجر ابتهاجك بحلٍ يهبط من السماء ! كان يجب فى هذه القضية ان تبرهن على ذكاء منذ البداية . كان لا بد فى هذا الأمر من إعمال الذكاء منذ البداية . من الفهم

فهماً سليماً و . . . والتصرف من الجهتين مع التزام الاستقامة والصراحة . . . والا فلا اقل من التنبيه والتحذير ، حتى لا يتورط الآخرون ، ولا يتعرضوا لشىء ، ولا سيما وقد كان فى الوقت متسع لهذا ، وما يزال فيه حتى الآن متسع ايضا (هنا رفع الجنرال حاجبيه رفعا ذا مغزى) ، رغم انه لم يبق الا بضع ساعات . . . هل فهمت عنى ؟ هه ؟ أتريد أم لا ؟ اذا كنت لا تريد فعليك ان تقول ذلك ، تفضل . ما من احد يريدك على غير ما تحب يا جافريلا آرداليونتش ، ما من احد يدفعك الى فخ ، اذا كان حقاً انك لا ترى فى هذا الا فخاً .

قال جانيا بصوت خافت ، ولكن بلهجة ثابتة :

— بل أريد . — وخفض عينيه ، وصمت مربد الأسارير .

رضى الجنرال وارتاح . لقد غضب منذ قليل واندفع ، أما الآن فكان واضحاً أنه نادم على غلوه فى المضى الى ذلك الحد . والتفت نحو الأمير فجأة ، وقد بدا فى وجهه قلق : لقد شهد الأمير الحديث ، وسمع كل شىء . لكن الجنرال لم يلبث ان استرد هدوءه . ان نظرة واحدة الى الأمير كانت كافية لاعادة الثقة والطمأنينة الى نفسه .

هتف الجنرال يقول وهو ينعم النظر فى نموذج الخط الذى مدَّه اليه الأمير :

— عظيم ، عظيم ! خط رائع ! آية من آيات الفن ! آية نادرة ! انظر يا جانيا ، انظر ! يا لها من موهبة !

كان الأمير قد كتب على الورقة السميكة الفاخرة ،

بأحرف روسية من القرون الوسطى ، العبارة التالية :

«ان المطران الذليل بافنوتى قد وقع هذا بخط يده» .

وقال الأمير شارحا بحماسة كبيرة ، ولذة عظيمة :

— هذا توقيع المطران بافنوتى نفسه ، نقلا عن مخطوطة يرجع عهدها الى القرن الرابع عشر . كانت لهم فى الماضى تواقيع جميلة ، مطارنتنا وبطارقتنا القدماء جميعا ! ما اعظم ما فيها من ذوق وعناية ! أليست عندك نسخة من طبعة بوجودين يا جنرال ؟ انظر : هنا قلّدت نموذجا آخر من نماذج الخط : انه نموذج الخط المدوَّر الكبير ، الذى عُرف بفرنسا فى القرن الماضى ؛ حتى ان بعض الاحرف تُكتب بأشكال مختلفة . هذه هى الكتابة العادية ، كتابة عامة الكُتّاب ، وهى مستمدة من كتابة الخطاطين الاصليين (اقتنيت نموذجا منها) . اعترفْ ان لها محاسنها . انعم النظر فى هذه «الهاء» وهذه «الطاء» المدوَّرتين . لقد قمت انا بنقل هذا الطراز الفرنسى من الخط الى الكتابة الروسية . كان ذلك عملاً صعباً جداً ، لكننى نجحت فيه . اليك نموذجا رائعا آخر من الكتابة ، نموذجاً اصيلاً جداً ، انظر فى هذه الجملة : «الاجتهاد يذلل جميع الصعاب» . هذه كتابة روسية ، كتابة حكومية ، او قل ان شئت انها كتابة حكومية عسكرية . بهذا الخط انما تكتب رسالة رسمية لشخصية خطيرة الشأن . وهو خط مدوَّر ايضاً ، على جانب عظيم من الاناقة والرشاقة ، يُطلق عليه اسم الكتابة **السوداء** . وهو خط يبدو حالك السواد فعلاً ، لكنه فى غاية الذوق . ان خطاطاً محترفاً لا يمكن ان يسمح لنفسه يوماً بهذه الزيادات الطفيفة ، هذه الذيول الصغيرة ، هل

تراها ؟ ومع ذلك تستطيع ان تلاحظ انها تضفى على الخط طابعاً خاصاً . ان المرء يقرأ فيها كل روح الكاتب العسكرى . يحس المرء ان هذا الكاتب العسكرى يود ان يرخى العنان لخياله ، وان موهبته تناديه الى ذلك ، لكن الياقة العسكرية صلبة ، فهى تقيده تقييداً شديدا . ان النظام العسكرى يعبّر عن نفسه حتى فى الخط ، يا للروعة ! لقد خطف بصرى منذ مدة قصيرة نموذج من هذا النوع . تصور اننى وقعت على ذلك النموذج فى سويسرا ! واليك الآن مثالا عاديا مألوفا للخط الانجليزى الاصيل . لا ارشق منه ولا احلى ! هو سحر كله : لؤلؤة ؛ جوهرة ! هو الكمال بعينه . واليك خطاً هو تعديل لذلك الخط الانجليزى بالطريقة الفرنسية . لقد اخذته من بائع جوّال فرنسى . هو الطراز الانجليزى نفسه ، غير ان الاحرف الملأى فيه اشد بروزا واكثر سوادا . وهذا يبدّل توازن النسب الضوئى فوراً . لاحظ هذه الصفة أيضا : ان الاحرف البيضاوية قد تبدلت هنا فصارت اكثر تدورا ، كما ان الذيول فى هذا الخط مقبولة . والذيول اشد المزالق خطرا بطبيعة الحال ، لذلك كان لا بد للخطاط ههنا من ذوق خارق يجنبه هذه المزالق ، ولكن اذا نجح الخطاط فى هذه المحاولة فوجد الابعاد السليمة والنسب الصحيحة ، حصل عندئذ على خط لا يضارع ، خط يعشقه المرء عشقا .

قال الجنرال ضاحكا :

— عظيم ، عظيم ، انك مطلع على ادق الدقائق ! لست يا صديقى خطاطا فحسب ، بل أنت أيضا فنان ، هه ؟ ما رأيك يا جانيا ؟

أجاب جانيا موافقا :

— شيء مدهش ! — ثم أضاف وهو يضحك ضحكة ساخرة : — بل ويدل على ادراكه لدوره فى الحياة .

قال الجنرال :

— اضحك ، اضحك ما شئت أن تضحك . انه يملك حقا ما يؤهله لمزاولة مهنة ممتازة . هل تعرف ، يا أمير ، الى اية شخصية سنكلفك بالكتابة ؟ ان فى الامكان ان تعطى راتباً قدره خمسة وثلاثون روبلا فى الشهر ، بلا تردد . — ثم أضاف الجنرال قائلا وهو ينظر فى ساعته : — ولكن الساعة اصبحت الثانية عشرة والنصف . اسمع يا امير ، لننتقل الى جوهر الموضوع ، فأنا فى عجلة من امرى ، وقد لا تتاح لنا فرصة اللقاء مرة اخرى اليوم . اجلس لحظة : سبق ان قلت لك اننى لن استطيع ان استقبلك فى احيان كثيرة . ولكننى ارغب صادقا فى ان ابذل لك بعض العون ، ان ابذل لك عونا ضئيلا طبعا ، ولكنه القدر اللازم الذى لا بد منه ولا غنى عنه . اما فيما عدا ذلك فدبر امرك بالطريقة التى تراها مناسبة . سأجد لك وظيفة صغيرة فى المكتب ، عملاً ليس شاقاً ، ولكن سيكون عليك ان تجدَّ وان تجتهد . واسمع الآن ما سأقوله لك : ان صديقى الشاب جافريلا آردالیونتفتش ايفولجين ، الذى تراه ، والذى اعرِّفك به الآن ، يعيش مع اسرته ؛ وقد اعدَّت امه واخته فى شقتهم غرفتين مؤثثتين او ثلاثا ، فهما تؤجِّران هذه الغرف مع الطعام والخدمة لاناس موصى بهم مشهود لهم بحسن الخلق . وانا على يقين من ان نينا الكسندروفنا ستقدر توصيتى بك . هذا كنز بالنسبة اليك يا أمير ؛ فلا تعيش

وحيداً ، بل تعيش فى حضن اسرة ان صح التعبير . وفى رأيى انا انه ليس من الخير لك ان تبقى وحيداً وانت تخطو اولى الخطوات فى عاصمة مثل بطرسبرج . ان نينا الكسندروفنا ، ام جافريلا آردالیونوفتش ، وباربارا آردالیونوفنا ، اخته ، هما سيدتان احترمهما احتراماً عظيما . ان نينا الكسندروفنا هى زوجة آردليون الكسندروفتش ، الجنرال المحال على التقاعد ، الذى كان رفيقى فى بداية خدمتى ، لكننى قطعت جميع صلاتى به لبعض الاسباب ، دون ان يمنعنى ذلك من ان اكنَّ له بعض الاعتبار . اننى اشرح لك هذا كله ياامير ، من اجل ان تفهم اننى اوصى بك واشهد لك بنفسى ، واننى اذن اتحمل التبعة . ان اجرة المسكن ، مع الطعام والخدمة ، معتدلة جدا ، وانا آمل ان يكون راتبك فى القريب كافياً للوفاء به كفاية تامة . صحيح ان المرء يحتاج ايضا الى بعض المال يضعه فى جيبه وينفق منه عند الحاجة ، لكننى الفت نظرك يا أمير ، دون ان اريد لك ان تغضب الى ان من الافضل لك الا يكون فى جيبك مال تنفق منه ، لا ولا ان تملك اى مال تضعه فى جيبك . ومع ذلك ، لما كانت حافظة نقودك خالية كل الخلو الآن ، فاسمح لى ان اقدم اليك خمسة وعشرين روبلا لنفقاتك الاولى . وستتحاسب فى المستقبل طبعاً ؛ واعتقد ان لن تكون بيننا اية صعوبة ، اذا كنتَ حقاً ذلك الرجل الصادق المخلص الودود الذى كشف عنه حديثك . ولئن كنت اهتم بك هذا الاهتمام كله ، فلأن هناك امورا سأعهد اليك بها وسأعوِّل عليك فيها ، أمورا ستعرفها فى المستقبل . هكذا ترى اننى اكلمك ببساطة تامة .

آمل يا جانيا الا ترى بأساً فى ان يسكن الأمير عندكم ، هه ؟

أجاب جانيا مؤكداً بتأدب وترحيب :

— بالعكس . ولسوف تكون امى سعيدة . . .

— اظن انكم اجرتم الى الآن غرفة واحدة فقط يسكنها ذلك الرجل الذى يسمى فرديـ . . فرديـ . . .

— فرديشنكوه .

— نعم ، فرديشينكو . انه لا يعجبنى صاحبكم فرديشينكو هذا . مهرج عفن . لا افهم لماذا تدعمه ناستاسيا فيليبوفنا دائماً . هل صحيح انه يمت اليها بقرابة ؟

— لا ، لا ! مـا هـذه الا مـزحـة ! ما من قرابة .

— طيب . . . شيطان يأخذه . . . فما رأيك اذن يا امير ؟ أأنت مسرور ام لا ؟

— شكرا يا جنرال . لقد غمرتنى بأريحيتك ، مع اننى لم اطلب منك شيئا . لا اقول هذا من باب الكبرياء . حقا كنت لا اعرف الى اين اذهب . صحيح ان روغوجين قد دعانى الى داره منذ قليل .

— روغوجين ؟ . . لا . . . كل شىء الا هذا ! انس هذا السيد روغوجين ! تلك نصيحة اب لابنه ، او قل نصيحة صديق لصديقه اذا كنت تؤثر ذلك . ومهما يكن من امر ، فاننى اوصيك عامة بالاقتصار على الاسرة التى ستعيش معها .

قال الأمير :

— ما دمت طيباً نبيلاً الى هذا الحد ، فاننى اريد ان استشيرك فى امر التمس فيه نصحك . لقد تلـقـيت

ابلاغاً . . .

قاطعه الجنرال قائلا :

— لا ، اعذرنى ، لا املك الآن دقيقـة واحـدة . سأكلم عنك اليزافيتا بروكوفيفنا حالاً . فاذا اعربت عن رغبتها فى استقبالك حالا (وهذا ما سأوصيها به) ، فاننى انصحك بأن تستغل الفرصة لتحظى برضاها . ان من الممكن ان تقدم لك خدمات عظيمة ، لانك تحمل اسم اسرتها . أما اذا لم ترغب فى ان تستقبلك ، فلا يسؤنك هذا ، وارتقب فرصة اخرى . وانت يا جانيا ، الق نظرة على هذه الحسابات اثناء ذلك . لقد كسرنا رأسينا بها أنا وفيدوسييف . ينبغى أن نفكر فى ادراجها . . .

وخرج الجنرال ، قبل أن يستطيع الأمير أن يعرض عليه الأمر رغم محاولات عدة . وأشعل جانيا سجارة ، وقدم للأمير سجارة ، فقبلها الأمير ولكنه لم يحاول ان يستمر فى الحديث مخافة أن يزعجه او أن يضايقه . واخذ يتفحص المكتب . غير أن جانيا لم يكد يلقى نظرة على الورقة الملأى بالارقام التى اشار اليها الجنرال . كان جانيا ذاهلا شارد اللب . حتى ان ابتسامته ونظرته وشروده بدت للامير اكثر تجهما حين اختليا .

واقترب جانيا من الامير فجأة بينما كان الأمير قد عاد يتأمل صورة ناستاسيا فيليبوفنا ، فسأله وهو يتفرس فيه تفرس من يخفى نية ويبيت امراً .

— اذن ، تعجبك هذه المرأة يا أمير ؟

اجاب الأمير :

— وجه مدهش ، وأنا واثق بأن القدر الذى كتب

لها قدر نادر . الوجه باش ، ولكنها قاست آلاما رهيبة ، اليس كذلك ؟ ان المرء يقرأ هذا فى نظرتها ، فى هذين التئوين ، فى هاتين النقطتين تحت العينين عند منبت الخدين . وجه فيه كبرياء ، كبرياء شديدة ! لكننى اتساءل هل هى طيبة القلب ؟ يا ليتها تكون كذلك ! فبهذا يمكن أن ينقذ كل شىء !

تابع جانيا كلامه دون ان يحوِّل عن الأمير نظرته المحمومة :

— قل لى : قد تتزوج **انت** امرأة كهذه ؟

قال الأمير :

— أنا لا أستطيع أن أتزوج أية امرأة . أنا مريض .

— وهل يمكن أن يتزوجها روغوجين ؟ ما رأيك ؟

— هو ؟ اظن انه يمكن ان يتزوجها ، حتى منذ الغد ! قد يتزوجها ثم بعد اسبوع ربما ذبحها .

حين سمع جانيا هذه الكلمات الاخيرة التى قالها الأمير ارتجف فجأة ارتجافا بلغ من القوة ان الأمير أوشك أن يصرخ . وأمسكه من ذراعه وقال له :

— ماذا بك ؟

هنا ظهر خادم فى عتبة الباب يقول :

— صاحبَ السمو ، ان صاحب السعادة يرجوك أن تذهب الى صاحبة السعادة ، الجنرالة .

وخرج الأمير يتبع الخادم .

الفصل الرابع

تمتاز كل من الآنسات الثلاث ايبانتشين بأنها قوية الجسم نضرة زاهرة ، وبأنها طويلة القامة ، على منكبين عريضين وصدر مهيب ، وذراعين لا تكادان تقلان قوة عن ذراعى رجل . وبحكم هذه الصحة وهذه القوة طبعا ، كن يقدرن قيمة كل وجبة من وجبات الطعام حق قدرها ، ولا يحاولن ان يخفين ذلك البتة . وكانت أمهن ، الجنرالة اليزافيتا بروكوفيفنا ، يسوؤها فى بعض الأحيان ان ترى هذه الصراحة فى شهوتهن للطعام واقبالهن عليه . غير أن جزءا كبيرا من آرائها قد فقد فى الواقع ما كان له من سلطان عليهن وتأثير فيهن ، رغم أنهن ما زلن يصطنعن فى قبولها مظهر الاذعان ؛ وقد أخذ التحالف بين الأخوات الثلاث يتغلب على الجنرالة فى كثير من الأحيان ، وهى امرأة تحرص على رزانتها اشد الحرص ، وترى أن الافضل ألا تناقش وتجادل ، بل أن تقبل وتسلِّم . صحيح ان المزاج كثيرا ما ينتصر ويتمرد على قرارات العقل ؛ حتى لقد أخذت اليزافيتا بروكوفيفنا تغدو ، سنة بعد سنة ، أشد نزوة وأقل صبرا ، بل وأغرب اطوارا . ولكن لما كانت ماتزال تملك زوجا أحسنت ترويضه حتى صار طوع بنانها ، فان زوجها هذا هو الذى كانت تصب عليه ما يطفح به قلبها . فكان الانسجام يعود عندئذ الى المنزل ، وكان كل شىء يجرى بعد ذلك على خير وجه .

على أن الجنرالة كانت هى نفسها لا تفقد شهوة الطعام .

وكانت فى العادة تشارك بناتها وجبة الافطار الوفيرة التى تكاد تكون من وفرتها غداء ، والتى تقدَّم بعد الظهر بنصف ساعة . وتكون البنات قبل هذه الوجبة قد تناولن فى اسرَّتهن عند استيقاظهن من النوم فنجانا من القهوة فى الساعة العاشرة تماما . فهذه عادة من العادات ألفنها وترسخت فيهن منذ زمن طويل . حتى اذا أزفت الساعة الثانية عشرة والنصف فُرشت المائدة فى غرفة الطعام الصغيرة المتاخمة للجناح الخاص الذى تحتله اليزافيتا بروكوفيفنا ؛ فاذا كان وقت الجنرال متسعا ، شارك هو نفسه فى هذه الوجبة العائلية الحميمة . وعدا الشاى والقهوة والجبن والعسل والزبدة ، والكستليتة ونوع خاص من الفطائر تحبه الجنرالة وغيرها ، كانت هذه الوجبة تضم مرقا ساخنا دسما . وفى الصباح الذى تبدأ فيه قصتنا هذه كانت الأسرة كلها مجتمعة فى غرفة الطعام تنتظر الجنرال الذى كان قد وعد بالمجىء فى الساعة الثانية عشرة والنصف . فلو أنه تأخر عن المجىء ولو دقيقة واحدة اذن لأسرعن يرسلن اليه من يبحث عنه . لكن الجنرال قد تقيد بالموعد تقيدا تاما ، فها هو ذا يدنو من زوجته ليحييها وليقبِّل يدها ، فيلاحظ على وجهها تعبيرا خاصا جدا . ورغم أنه كان فى عشية ذلك النهار قد أوجس بأن شيئا من هذا سيحدث بسبب «قصة ما» (على حد تعبيره) ، ورغم أنه حين نام فى المساء قد فكر فى هذا بكثير من القلق ، فقد استولى عليه الخوف من جديد . وجاءت بناته فقبَّلنه . كان لا يبدو عليهن أنهن غاضبات ، ومع ذلك كان ظاهرا هنا أيضا أن ثمة شيئا غير طبيعى . صحيح أن ظروفا معينة كانت قد جعلت الجنرال شديد الارتياب ، لكنه ، وهو

رب أسرة خبير حاذق ، قد أسرع يتخذ الاجراءات اللازمة . لعلنا نستطيع ، دون أن نفقد قصتنا هذه بروز معالمها ، أن نتوقف هنا قليلا ، فنقدم ببعض الشروح فكرة أقرب الى أن تكون مباشرة ودقيقة ، عن الاوضاع والظروف التى نجد فيها أسرة الجنرال ايبانتشين فى بداية هذه القصة . سبق ان أشرنا الى أن الجنرال كان شخصا غير مثقف كثيرا ، بل حتى حسب قوله عصاميا «علّم نفسه بنفسه» ، كان رغم ذلك زوجا خبيرا وأبا بارعا . ولقد قرر خاصة ألا يحث بناته كثيرا على الزواج . وكان لا يحرص على أن «يعلق نفسه فوق رؤوسهن بغير انقطاع» ، وأن يعذبهن دائما بحب أبوى يسعى الى سعادتهن ، كما يحدث هذا فى كثير من الأحيان حدوثا طبيعيا ، بغير قصد أو ارادة ، حتى فى أعقل الأسر التى عندها بنات للزواج . حتى لقد استطاع أن يقنع زوجته بهذا المذهب ، وتلك مهمة بالغة الصعوبة ، لأنها مخالفة للطبيعة . غير أن حجج الجنرال وأدلته قد أثمرت ، لأنها كانت تتناول وقائع محسوسة ملموسة . وكان أسلوبه هو التالى : ان البنات اذا تُركت لهن حرية التصرف ، فلا بد أن يصلن من تلقاء أنفسهن الى حل معقول ، فيجرى الأمر عندئذ سريعا ، لأنهن يقبلن عليه بقلوبهن ، متخلِّيات عن النزوات الطارئة ، وعن الغلو والمبالغة فى النقد ؛ ولا يكون على الأبوين بعد ذلك الا أن يراقباهن بمزيد من اليقظة والتخفى ، ليجنِّباهن اختيارا رديئا أو انحرافا سخيفا ، حتى اذا آن الأوان ساعداهن بكل ما لهما من قدرة ، ليقوداهن فى الاتجاه السليم . هذا عدا أن ثروة الأسرة ومركزها الاجتماعى يزدادان سنة بعد سنة بمتوالية هندسية ،

فكلما انقضى الزمن جنت البنات من ذلك نفعا ، حتى من جهة الخطبة . ولكن ذلك كله قد أضيفت اليه واقعة جديدة : هى أن البنت الكبرى ، الكسندرا ، قد بلغت الخامسة والعشرين فجأة ، كأنما على غير توقع (كما يحدث ذلك دائما) . وفى تلك الآونة نفسها تقريبا أعرب آفاناسى ايفانوفتش توتسكى ، وهو رجل من علية القوم له علاقات رفيعة وثروة خارقة ، أعرب مرة اخرى عن رغبته القديمة فى الزواج . انه فى الخامسة والخمسين من عمره تقريبا ، ذو طبع مرهف وذوق رقيق للغاية . كان يريد لنفسه زواجا جميلا . انه يقدر الجمال كما لا يقدره مثله أحد . واذ ربطته منذ مدة بالجنرال ايبانتشين صداقة كبيرة كانت تعززها وتقويها مصالح مشتركة فى بعض المشروعات المالية ، فقد سأله أن ينصحه كما ينصح الصديق صديقه هل يستطيع أن يخطب احدى بناته . وهكذا فان الحياة الهادئة الرائعة التى كانت تعيشها أسرة الجنرال ايبانتشين أصبحت موشكة على اضطراب يقلبها رأسا على عقب .

ان أجمل البنات الثلاث ، كما سبق أن ذكرنا ذلك ، انما هى الصغرى ، آجلايا ، بلا جدال . ولكن توتسكى نفسه ، رغم انانيته المفرطة ، قد أدرك أنه ليس له أن يعقد آمالا من هذه الناحية ، وان آجلايا ليست له . ومهما يكن من أمر ، سواء أكانت أختا آجلايا تحبانها حبا أعمى أم كانتا تحملان لها عاطفة مسرفة فى الحماسة ، فالمهم ان أسرة ايبانتشين كانت تتوقع للأخت الصغرى آجلايا ، بصدق واخلاص ، لا مصيرا عاديا بل حياة تقترب أكبر اقتراب ممكن من المثل الأعلى للفردوس الأرضى . فيجب

أن يكون زوجها المقبل رجلا يتمتع بجميع صفات الكمال ، وأن يحقق جميع أنواع النجاح ، فضلا عما يجب أن ينعم به من ثراء . حتى أن الأختين كانتا قد قررتا فيما بينهما ، دون كلام كثير لا طائل تحته ، ان تضحيا من جانبهما فى سبيل آجلايا اذا اقتضى الأمر ذلك . وقد أعدت الأسرة للفتاة آجلايا مهرا ضخما فذا . وكان الأبوان على علم بالاتفاق الذى تم بين الأختين الكبريين . ولذلك حين سأل توتسكى صاحبه الجنرال ايبانتشين أن يسدى اليه النصح ، فان الأبوين لم يشكا كثيرا فى أن احدى البنتين لن ترفض تلبية رغبتهما ، لاسيما وأن توتسكى ليس من الرجال الذين تستوقفهم مسألة المهر . والجنرال رجل صاحب خبرة وتجربة ، لذلك قدر خطوة توتسكى حق قدرها . واذ أن توتسكى نفسه قد فرض على نفسه ، بسبب بعض الظروف ، تكتما كبيرا فى المباحثات حول هذا الأمر ، فاقتصر على جس النبض ، فان الأبوين من جهتهما لم يذكرا للبنات الا افتراضات مبهمة ؛ فحصلا فى مقابل ذلك من البنات على تأكيد مبهم ايضا ، لكنه على الاقل مطمئن ، بأن الكبرى ألكسندرا قد لا ترفض . ان ألكسندرا ، على كونها ذات طبع صلب ، فتاة عاقلة دمثة سهلة المعاشرة ؛ ولقد ترتضى أن تتزوج توتسكى ، فاذا تعهدت بأن تتزوجه برّت بعهدها عن صدق . انها لا تنشد حياة براقة ، ولا خوف معها من متاعب ومن انقلاب مباغت ، بالعكس : انها تستطيع أن تجعل الحياة ناعمة يرفرف عليها الهدوء . وهى فتاة جميلة ، وان لم تكن ساطعة التألق . هل كان يمكن توتسكى أن يمنى نفسه بأكثر من هذا ؟

ومع ذلك ظلت القضية تتقدم بخطى بطيئة وتلمس متوجسٌ . فكان توتسكى والجنرال ، بفضل اتفاق ودى ، يتجنبان أن يقوما مؤقتا بأية خطوة رسمية نهائية . وكان الأبوان نفساهما ما يزالان لا يكاشفان البنات بالأمر صراحة . حتى لقد كان يمكن أن يلاحظ المرء ان هناك شيئا من الخلاف . فان الجنرالة ، بصفتها أما ، قد أخذت تظهر شيئا من عدم الرضى ، وكان ذلك أمرا على جانب كبير من خطورة الشأن . وهناك عدا ذلك ظرف معقد شائك كان يعرِّض المشروع كله للاخفاق اخفاقا حاسما .

ان أصل هذا «الظرف» المعقد الشائك (على حد تعبير توتسكى) يرجع عهده الى زمن بعيد ، الى ثمانية عشر عاما خلت . فعلى مقربة من احدى الأراضى التى يملكها آفاناسى ايفانوفتش ، وهى أراض تقع فى أحد اقاليم وسط روسيا ، كان يعيش ملاك صغير فقير جدا . وهذا الرجل ، الذى تميزت حياته بأنها سلسلة من المصائب والنوازل المتتابعة المضحكة ، هو ضابط محال على التقاعد ، سليل أُسرة عريقة النبالة ، لعلها تفوق فى رفعة المحتد أسرة توتسكى . كان اسمه فيليب ألكسندروفتش باراشكوف . وقد استطاع أخيرا ، وهو غارق فى الديون مرهق برهن عقاراته ، استطاع بالعمل الشاق والجهد المضنى ، وبشغل يشبه أن يكون فى قسوته ومشقته شغل فلاح ، أن يعود الى استثمار أرضه الصغيرة استثمارا مناسبا . وكان أيسر نجاح يحققه ، بيْد فيه شجاعة خارقة ، ويعيد اليه أملا كبيرا . وفى هذا المزاج ذهب ذات يوم الى مركز الاقليم ليقابل احد دائنيه الكبار ، وليبرم معه اتفاقا أو ينتهى معه الى تسوية فى حدود الامكان .

فلما كان اليوم الثالث من اقامته بمركز الاقليم رأى عميد قريته يصل الى المركز على حصان ، محترق الخد واللحية ، ويبلغه أن أملاكه قد شب فيها الحريق بالأمس فى وضح النهار ، فهلكت امرأته ، لكن أولاده نجوا وسلموا . لم يستطع باراشكوف أن يصمد لهذا المصاب الجديد ، رغم أنه ألف ضربات القدر ، ففقد عقله وجُنَّ ، ثم مات بحمى بعد شهر واحد . وقد بيعت أراضيه المحترقة وبيع فلاحوه المبعثرون لسداد ديونه . أما ابنتاه الصغيرتان ، وعمراهما ست سنين وسبع سنين ، فقد تكرم آفاناسى ايفانوفتش توتسكى فكفلهما . تربَّت البنتان أولا مع أولاد وكيل توتسكى ، وهو موظف محال على التقاعد ، ربُّ أسرة كبيرة العدد ، ألمانى فوق ذلك . ولم تلبث احدى الاختين ، ناستاسيا ، أن أصبحت وحيدة ، لأن أختها الصغرى ماتت بمرض السعال الديكى . أما توتسكى الذى كان يعيش فى الخارج ، فلم يلبث أن نسيهما كلتيهما . وبعد خمس سنين ، مرَّ آفاناسى افانوفتش بالمنطقة ، فخطر بباله أن يزور أراضيه هنالك ، فاذا هو يلاحظ فى منزله الريفى ، مع أسرة وكيله الألمانى ، فتاة حلوة عذبة لذيذة فى الثانية عشرة من عمرها ، فتاة فارهة ماهرة ، ذكية لطيفة ، تبشر بأنها ستكون فى المستقبل بارعة الجمال . لقد كان توتسكى فى هذا المجال رجلا ذا خبرة ، لا يخطئ ظنه . ولم يقض فى أراضيه هذه المرة الا بضعة ايام ، لكنه قد اتسع وقته مع ذلك لان يتخذ اجراءاته . فحدث تغير كبير فى تنشئة الفتاة وتعليمها : جيئ لها بمربية سويسرية هى امرأة محترمة متقدمة فى السن ، لها خبرة فى تربية الآنسات النبيلات ، مثقفة ، قادرة

على أن تعلّم ، عدا اللغة الفرنسية ، علوما شتى . سكنت المربية السويسرية فى المنزل الريفى ، واتخذ تعليم الصغيرة ناستيا ابعادا واسعة . فما انقضت اربع سنوات حتى انتهت دراسة ناستيا ، وسافرت المربية ، فجاءت عندئذ سيدة هى ملاكة أيضا لها أطيان تجاور أرضا يملكها توتسكى فى اقليم ناء آخر . جاءت هذه السيدة فأخذت ناستيا تنفيذا لأوامر آفاناسى ايفانوفتش ، وعملا بسلطات خوّلها اياها . وكان فى تلك الأرض الصغيرة التى يملكها توتسكى جناح وان يكن صغيرا فانه خشبى حديث البناء مؤثث تأثيثا جميلا فيه ذوق ، وفيه أناقة . وكان من المصادفات التى تشبه العمد ان تلك القرية نفسها كان اسمها هذا الاسم الموحى : «اوترادنوى» . اخذت السيدةُ الفتاةَ الى ذلك المسكن الهادئ رأسا ، ولما كانت دارها هى قريبة من ذلك المسكن ، وكانت أرملة لا ولد لها ، فقد أقامت مع الفتاة . وكان فى خدمة ناستيا هنالك امرأة تتولى شؤون المنزل ، وخادم شابة لكنها ذات تجربة وخبرة . وكان البيت يضم أدوات موسيقى ، ومكتبة مختارة تناسب الفتيات ، ولوحات ، وصورا محفورة على الخشب ، وأقلاما ، ومناقش ، وألوانا ؛ وكان يضم كذلك كلبة سلوقية جميلة . وبعد أسبوعين وصل آفاناسى ايفانوفتش بنفسه . . . ومنذ ذلك اليوم أصبح يؤثر تلك القرية الصغيرة المعزولة النائية فى السهوب ايثارا عظيما . فكان يأتيها كل صيف ، يقضى فيها شهرين ، أو ثلاثة أشهر فى بعض الأحيان . وانقضى على هذا النحو زمن طويل هو اربع سنين هادئة وادعة سعيدة ، فى جو من ترف البذخ وحسن الذوق .

وفى ذات يوم من مطالع الشتاء ، بعد نحو اربعة أشهر من احدى اقامات آفاناسى ايفانوفتش الصيفية فى أوترادنوى ، وهى اقامة لم تطل فى تلك المرة أكثر من أسبوعين ، جرت شائعة أو قل سمعت ناستاسيا فيليبوفنا شائعة تقول ان توتسكى على وشك أن يتزوج ببطرسبرج فتاة جميلة غنية نبيلة المحتد ، أى أن يتزوج زواجا محترما رائعا . وقد اتضح فيما بعد أن الشائعة غير صحيحة من بعض النواحى : فالزواج لم يكن الا فكرة أو مشروعا ، وما يزال كل شىء غامضا مبهما . ومع ذلك ولّد هذا الحادث اضطرابا كاملا وبلبلة تامة فى حياة ناستاسيا فيليبوفنا . وفجأة أظهرت ارادة حازمة ، وعزيمة قوية ، وصلابة لم تكن فى الحسبان ؛ فاذا هى تترك مسكنها الريفى الصغير بلا تردد ، وتسافر الى بطرسبرج ، وتمضى على الفور وحيدة الى توتسكى . ذُهل توتسكى ، وأراد أن يوضح لها الأمور وأن ينتحل لنفسه الأعذار . لكنه أدرك منذ الكلمات الأولى تقريبا أن عليه أن يغيّر تغييرا تاما ، طريقة كلامه ونبرة صوته ، وموضوعات حديثه الممتعة الأخاذة التى أصابت حتى ذلك الحين نجاحا كبيرا ، وأن يغيّر منطقه نفسه ، أن يغير كل شىء ، كل شىء ! ان امامه الآن امرأة أخرى لا تشبه المرأة التى كان قد عرفها حتى ذلك الحين والتى تركها فى شهر تموز بقرية اوترادنوى .

لقد اتضح قبل كل شىء أن هذه المرأة الجديدة تعرف وتفهم أشياء كثيرة ، أشياء تبلغ من الكثرة أن المرء يتساءل أين عساها حصّلت مثل هذه المعارف وكيف استطاعت أن تكوّن آراء واضحة هذا الوضوح كله . (هل يمكن أن

يكون ذلك قد تمَّ لها فى مكتبتها التى هى مكتبة فتيات ؟)
وكأن هذا كله لم يكن كافيا ، فهى تفهم الشئون القضائية كذلك أكمل الفهم ، وفى ذهنها تصورات واضحة وضوحا كبيرا ان لم يكن عن المجتمع كله ، فعن الطريقة التى تجرى بها بعض الأمور فى الدنيا . ثم ان طبعها الآن ليس طبعها فى الماضى . لقد زايلها ذلك النوع من الخشية ، لقد تحررت من ذلك الوجل المبهم الغامض الذى تتصف بمثله بنات المدارس الداخلية ، من تلك الاندفاعات الساذجة الحلوة التى يلطفها فى بعض الاحيان حزن وقلق ودهشة وارتياب يمضى الى حد ذرف الدموع .

لا ، ان أمام توتسكى الآن امرأة لم يسبق ان تصورها فى هذه الصورة ، امرأة غريبة عجيبة ، تضحك مقهقهة بأعلى صوتها ، وتمطره بوابل من سخريات مسمومة ، امرأة تعلن له صراحة بأنها لم تشعر نحوه فى يوم من الأيام بعاطفة غير عاطفة الاحتقار العميق الذى يبلغ مبلغ التقزز الباعث على الغثيان ، وهو تقزز ملأ نفسها بعد انقضاء شعور الدهشة الأولى فورا . ان هذه المرأة الجديدة تعلن له انها لا يهمها فى شىء ان يتزوج حالا اية امرأة ، ولكنها مع ذلك قد جاءت بدافع الشر وحده تحول بينه وبين هذا الزواج ، لا لشىء الا لأن تلك رغبتها فلا بد اذا ان تحقق . قالت له : «هب ذلك تسلية على حسابك . لقد آن لى اخيرا ان اضحك انا ايضا» .

بهذه الالفاظ انما عبرت عن نفسها على الأقل . قد لا تترجم هذه العبارات كل ما فى قرارة فكرها . ولكن بينما كانت ناستاسيا فيليبوفنا الجديدة هذه تضحك ضحكا

مجلجلا وهى تبسط حججها وتبدى أسبابها ، كان آفاناسى ايفانوفتش يدرس الموقف بينه وبين نفسه ، ويحاول ان يضع شيئا من النظام والترتيب فى افكاره المشتتة . ودامت هذه الدراسة مدة طويلة ، فقد انفق فيها آفاناسى ايفانوفتش قرابة اسبوعين ، ولكنه فى ختام هذين الاسبوعين كان قد عزم أمره واتخذ قراره . يجب ألا ننسى ان آفاناسى ايفانوفتش كان عمره فى ذلك الأوان نحو خمسين عاما ، وكان رجلا مهيبا رصينا للغاية ، وكان ذا وضع اجتماعى قوى راسخ ، وكان مركزه فى المجتمع الراقى يقوم على أسس متينة مضمونة . كان آفاناسى ايفانوفتش يحب ويقدر ، أكثر من اى شىء فى العالم ، شخصه وراحته ورخاءه ، كما يليق ذلك برجل له مثل تلك المزايا العالية ! . . فاى اضطراب يعكر الصفو ، بل أى قلق يسير يعترى مجرى الأمور ، كان شيئا لا يمكن ان يقبله أو ان يحتمله تنظيم للحياة ساهم عمر كامل فى اقامته وترسيخه .

وسرعان ما أوحت الى توتسكى تجربته الواسعة وصدق حكمه ايحاء صحيحا أنه الآن امام شخصية فريدة تماما ، قادرة على أن تحقق وعيدها وتنفذ تهديدها ، ولا تتوقف أمام أى شىء لا سيما وأنها لا تحرص على شىء فى المجتمع الراقى ، وأنها لا سبيل اذن الى اغرائها . لا ، لا ! واضح ان الأمر هنا أمر آخر تماما ! ان ههنا نوعا من اختلاط عاطفى واستياء خيالى روائى ليس له سبب واضح ولا موضوع معين ، ان ههنا رغبة فى الاحتقار لا يرتوى لها ظمأ ولا تقف عند حد ، أى . . . ان ههنا شيئا . . . مضحكا للغاية لا يمكن قبوله فى المجتمع الراقى المهذب ،

شيئا هو بالنسبة الى رجل شريف كريم بلية من عند الله . كان يمكن طبعا ان تعين توتسكى ثروته وعلاقاته ، فتتيح له بسهولة ان يقوم بعمل من تلك الأعمال الخبيثة الصغيرة ، البريئة كل البراءة ، التى يمكن ان تخلصه من الورطة . وكان واضحا من جهة أخرى أن ناستاسيا فيليبوفنا لا تقدر ان تفعل أى شىء ضده ولو من الناحية القانونية القضائية مثلا ؛ لا ولا تستطيع ان تثير فضيحة ذات بال ، لأن من السهل على آفاناسى ايفانوفتش ان يجعلها تخفق لا محالة . ولكن ذلك كله انما يصدق اذا تصرفت ناستاسيا فيليبوفنا تصرف جميع الناس فى أمور كهذه الأمور ، ولم تبتعد كثيرا عن القاعدة . ولكن حصافة الحكم انما خدمت آفاناسى ايفانوفتش فى هذا المجال : فلقد استطاع ان يحزر أن ناستاسيا فيليبوفنا تدرك هى نفسها ادراكا كاملا أنها عاجزة من الناحية القانونية القضائية ، واستطاع ان يحزر أن فى ذهنها شيئا آخر غير هذا ، وذلك ما كان يفضحه سطوع عينيها وبريق نظراتها . انها لعدم حرصها على شىء البتة ، ولعدم حرصها حتى على شخصها (لا بد لتوتسكى الربى المستخف الذى لا يصدق شيئا أن يكون على جانب كبير من الذكاء ونفاذ البصيرة ليدرك فى تلك اللحظة ان ناستاسيا اصبحت منذ مدة طويلة لا تحفل بشخصها البتة . وان عاطفة ناستاسيا تلك جد لا هزل) ، كانت ناستاسيا فيليبوفنا قادرة على الأ تحجم عن تحطيم حياتها تحطيما لا رجعة عنه وبأبشع صورة ، ولو أدى الأمر أن تذهب الى سيبيريا ، سجينة ، لا لشىء الا التلذذ باهانة وايذاء الرجل الذى تكرهه كرها يفوق طاقة الانسان على الكره . ان آفاناسى ايفانوفتش

لم يخف فى يوم من الايام انه جبان بعض الجبن ، والاصوب لو قلنا انه محافظ الى اقصى درجة . لذلك كان لا بد ان يروعه أن يتصور أن يقتل فى الكنيسة اثناء القران أو ان يقع له حادث آخر من هذا النوع على مرأى من الناس ، حادث غير مستحب وغير لائق . . . على أن اغتياله أو اصابته بجرح او تلقيه بصفة فى وجهه أمام الملأ أو وقوع أى حادث آخر له من هذا النوع لم يكن يهمه وقوعه بقدر ما كانت تهمه طريقة وقوعه وصورة حدوثه على هذا النحو الذى لا يمكن ان يعد طبيعيا ولا يمكن ان يعد لائقا مهذبا . وبهذا نفسه انما كانت تهدده ناستاسيا فيليبوفنا ، ولو تهديدا مضمرا حتى الآن . كان يعلم أنها تعرفه معرفة عميقة ، وأنها تعرف أين تهوى عليه بضربتها . واذ أن ذلك الزواج كان ما يزال فكرة ، فان آفاناسى ايفانوفتش خضع واذعن أمام ناستاسيا فيليبوفنا .

وهناك أمر آخر سهل عليه اتخاذ هذا القرار . ان من الصعب على المرء ان يتصور مدى الاختلاف بين ناستاسيا فيليبوفنا الجديدة وبين ناستاسيا فيليبوفنا القديمة ، حتى من ناحية الوجه . ان ناستاسيا لم تكن فى الماضى الا بنية حلوة جدا ، أما الآن . . . ان توتسكى قد ظل مدة طويلة لا يغفر لنفسه أنه نظر اليها أربع سنين دون أن يراها حق رؤيتها . صحيح ان انقلابا فى صلاتهما يبلغ ذلك المبلغ من المباغتة والمفاجأة لا بد أن يكون له شأن فى هذا . ولكن توتسكى قد تذكر لحظات خطرت بباله فيها أفكار غريبة حين كان ينظر الى عينيها فكأنه يوجس فى أعماقها سرا خفيا مظلما لا يدرى ما هو . كانت تلك النظرة تحدق

اليه ، وكأنها تعرض له لغزا . وكثيرا ما خطف بصره ، في اثناء السنتين الاخيرتين ، انكفاء لون ناستاسيا فيليبوفنا ؛ كانت في بعض الأحيان تشحب شحوبا رهيبا ؛ والشيء الغريب أن هذا كان يزيدها جمالا . كان توتسكي ، وهو في هذا يشبه امثاله من السادة العجائز العابثين اللاهين ، كان في الماضي ينظر نظرة ازدراء الى استيلائه السهل هذا على تلك النفس التي لم تعرف بعد طعم الحياة ؛ ولكنه كان قد ارتاب في رأيه قليلا في الآونة الاخيرة . ومهما يكن من أمر ، فانه قد قرر منذ الربيع الماضي أن يقف على ناستاسيا فيليبوفنا مهرا سخيا ، وأن يسرع في تزويجها برجل محترم واسع الصدر رحب الفكر ، له مركز في اقليم آخر (آه . . . ما أفظع استهزاء ناستاسيا فيليبوفنا الآن بتلك الفكرة ، وسخرها منها !) . أما الآن فان آفاناسي ايفانوفتش ، وقد فتنته جدة الموقف وأغوته ، قال لنفسه أن في امكانه أن يستثمر هذه المرأة الشابة من جديد ، فقرر أن يجعل اقامتها ببطرسبرج ، وأن يحيطها بالترف والرخاء والبذخ . فاذا كان مشروع قد فشل فيمكن أن ينجح آخر : كان في وسعه أن يفتخر في بعض الاوساط بامرأة كهذه المرأة ، وأن يتباهى بذلك في المجتمع . لقد كان آفاناسي ايفانوفتش يحرص كثيرا على هذا النوع من المجد .

انقضت خمس سنين على اقامة ناستاسيا فيليبوفنا ببطرسبرج ، وتوضحت في اثناء ذلك الوقت أمور كثيرة . ان وضع آفاناسي ايافانوفتش ليس فيه ما يطمئن . وأسوأ ما في الأمر انه وقد خاف مرة ، استبد به الخوف حتى اصبح لا يستطيع التخلص منه . كان خائفا ، حتى دون

ان يعرف كثيرا مم هو خائف : كل ما هنالك أنه كان يخشى ناستاسيا فيليبوفنا . وفي خلال بعض الوقت ، اثناء السنتين الأوليين ، أخذ يظن أن ناستاسيا فيليبوفنا نفسها ترغب في الزواج منه ولا تلتزم الصمت الا بسبب كبريائها الشديد ولكنها في الواقع تنتظر عرضا من جانبه نافدة الصبر . ذلك ادعاء غريب في الواقع . فكان آفاناسي ايفانوفتش اذا ساورته هذه الفكرة يتجهم وجهه ، وتأخذ تدور في رأسه خواطر ثقيلة . حتى اذا اقتنع فجأة ، في ذات يوم من الايام ، بمناسبة حادث من الحوادث ، أنه لو عرض عليها أن يتزوجها لرفضت عرضه ، دُهش دهشة شديدة ، بل شعر بشيء من الأسف والحسرة (ذلك هو قلب الانسان !) ، ولم يسلم بهذه الحقيقة الا بعد مدة طويلة . تفسير واحد بدا له معقولا : هو أن كبرياء «هذه المرأة المهانة» قد بلغ من الحدة والغلو انها تفضل أن تعبر عن احتقارها دفعة واحدة برفض ، على أن تضمن لنفسها وضعا مستقرا ببلوغ مرتبة لا تأملها . وأسوأ ما في الأمر أن ناستاسيا فيليبوفنا أصبحت تسيطر على الموقف مزيدا من السيطرة . لقد قاومت كل اغراء من نوع مادي ، مهما تكن ضخامته ، وهي رغم قبولها ما احيطت به من ترف وبذخ ، تعيش حياة متواضعة ، ولم تكد تدخر شيئا من مال خلال هذه السنوات الخمس . وقد تجرأ آفاناسي ايفانوفتش فعمد الى حيلة بارعة كل البراعة لتحطيم سلاسلها ، فحاول بمعاونات ذكية حاذقة ، على نحو خفي لبق ، أن يفتنها بمغريات مثالية . ولكن لا الامراء ، ولا الفرسان ، ولا سكرتيرو السفارات ، ولا الشعراء ، ولا الروائيون ، حتى ولا الاشتراكيون ، أمكن ان يؤثروا فيها

أى تأثير . لكأن قلبها من حجر ، ولكأن عواطفها قد جفت وماتت الى الأبد . كانت تعيش حياة أميل الى الانزواء ، تطالع وحتى تدرس وتهوى الموسيقى . كانت علاقاتها قليلة ، وكانت تنصرف بايثارها الى نساء طاعنات فى السن مضحكات من زوجات الموظفين . وكانت تعرف ممثلتين ، وتعرف عددا من عجائز طيبات . وكانت تتردد على أسرة كثيرة الأولاد هى أسرة معلم محترم من معلمى المدارس الابتدائية ، وكان أفراد هذه الأسرة يبادلونها الحب ويبتهجون بزياراتها . وكثيرا ما كان يجتمع عندها فى المساء ، خمسة أشخاص من معارفها أو ستة ، وقلما يزيد العدد عن ذلك . وكان توتسكى نفسه يحضر سهراتها حضورا مطردا . وكان الجنرال ايبانتشين قد استطاع فى الآونة الاخيرة ، بعد شىء من المشقة ، ان يظفر بزيارة بيت ناستاسيا فيليبوفنا . وفى الوقت نفسه ، تمكن موظف صغير اسمه فرديشينكو أن يتعرف عليها بدون أى عناء . انه نوع من مهرج سيئ التربية قليل الذوق يدعى خفة الظل وروح الدعابة ويميل الى الشراب والسكر . وكانت ناستاسيا تستقبل كذلك شابا غريبا اسمه بتيتسين ، هو فتى متواضع مرتب يعتنى بهندامه ، كان فقيرا بائسا فلما تخلص من الفقر والبؤس أصبح مرابيا . وأخيرا تعرف عليها جافريلا ارداليونتش أيضا . . . وانتهى الأمر بأن بدأت سمعة عجيبة تحيط بناستاسيا فيليبوفنا . ان جميع الناس يعرفون جمالها ، ولكن لا شىء غير ذلك ، وما من أحد كان يمكنه أن يتباهى بأنه حظى منها بشىء ، ولا كان هناك أحد يمكن ان يروى عنها اية قصة . فهذه السمعة وما تمتاز به ناستاسيا من ثقافة ، ومن رشاقة ، ومن عقل حاذق ،

ذلك كله قد أوحى الى آفاناسى ايفانوفتش خطة ما وفى تلك الفترة من الزمن انما يقع التدخل النشيط الفعال الذى قام به الجنرال ايبانتشين فى القصة كلها .

حين سأل توتسكى صاحبه الجنرال بكثير من اللطف والمودة ان يسدى اليه النصيحة التى يسديها صديق الى صديقه ، فى أمر زواجه باحدى بناته ، فانه قد فتح له قلبه بصدق كامل وصراحة تامة ، فقال انه عزم أمره على الا يحجم عن استعمال **اية وسيلة من الوسائل** فى سبيل الحصول على حريته ، وانه لن يعد نفسه فى أمان ولو وعدته ناستاسيا فيليبوفنا نفسها بأنها ستدعه هادئا فى المستقبل ، وان الاقوال اصبحت لا تكفيه فلا بد له من ضمانات أكيدة وكفالات تامة . وناقش الرجلان الأمر ، فقررا أن يعملا متكاتفين . اتفقا أولا على أن يستعملا ألطف الاساليب ، وأن يضربا فقط «على أنبل أوتار النفس الانسانية» كما يقال فذهبا الى ناستاسيا فيليبوفنا ، وأسرع توتسكى يتكلم عما فى موقفه من سوء لا يطاق . أقرَّ بانه آثم مذنب فى كل أمر من الأمور ، ولكنه اعترف صراحة بأنه من حيث هو رجل شديد الشبق عاجز عن السيطرة على نفسه ، لا يستطيع أن يشعر بندامة فيما يتعلق بالخطيئة الأولى التى ارتكبها معها . وقال أن فى نيته الآن أن يتزوج ، وانها تملك بين يديها مصير هذا الزواج المناسب الى أقصى حد ، وانه يستنجد بشهامتها ونبل قلبها . وتكلم الجنرال هو أيضا ، بصفته أبا ، فقال كلاما معقولا تحاشى فيه أن يستدر العطف والحنان واكتفى بأن ذكر أنه يعترف لها كل الاعتراف بحقها فى تقرير مصير آفاناسى ايفانوفتش ، ولم يفته مع ذلك ان يبرز

تذلله فى كثير من الكياسة ذاكرا أن مصير ابنته ، وربما مصير ابنتيه الأخريين ، رهن بما تتخذه هى من قرار . فلما سألت ناستاسيا فيليبوفنا مستفهمة «عما يراد منها على وجه الدقة» ، اعترف توتسكى ، صادقا ذلك الصدق نفسه ، بأنها قد بلغت من تخويفه وترويعه منذ خمس سنين أنه أصبح لا يستطيع أن يشعر بطمأنينة كاملة وأمان تام الا اذا وافقت ناستاسيا فيليبوفنا هى نفسها على الزواج بأحد ما . وأسرع يضيف الى ذلك أن طلبه هذا يكون سخيفا لو لم يكن مستندا الى أسباب قوية . فلقد لاحظ بوضوح كامل وعرف معرفة محققة أن شابا من أسرة طيبة جدا ومحترمة جدا ، شابا تعرفه وتستقبله فى دارها ، هو جافريلا آردالیونتش ايفولجين نفسه ، موله بحبها منذ مدة طويلة ، ويتمنى أن يحظى بعطفها ولو دفع نصف حياته ثمنا لذلك ؛ وهذه الاعترافات انما أسرَّ بها جافريلا آردالیونتش منذ زمن طويل اليه هو ، آفاناسى ايفانوفتش ، صادقا مخلصا ، بكل ما يحمله له من صداقة ، وبكل ما يزخر به قلبه الشاب من اندفاع وحرارة ؛ كما ان ايفان فيدوروفتش ، حامى الفتى ، يعرف الأمر منذ مدة هو أيضا ؛ ومن حق آفاناسى ايفانوفتش أن يظن ، الا اذا اخطأ ظنه ، أن عواطف الفتى لا تجهلها ناستاسيا فيليبوفنا أيضا ، حتى لقد خيَّل اليه أنها تظهر بعض الرضى عنها . وطبيعى انه يصعب عليه أن يتحدث فى هذا الأمر أكثر مما يصعب ذلك على أى انسان آخر . ولكن اذا شاءت ناستاسيا فيليبوفنا أن تصدِّق أنه ، عدا مصلحته الأنانية ورغبته فى تنظيم حياته ، قد يريد لها الخير ، فلا بد أن تدرك ان عزلتها تبدو له

منذ مدة طويلة غريبة وأليمة . وهو واثق بأن هذه العزلة ليست الا ظلمات كثيفة ، وأنها ناشئة عن الكفر بامكان تجديد حياتها التى يمكن أن تنبعث انبعاثا رائعا بالحب والأسرة اللذين سيضفيان عليها معنى جديدا . وأضاف آفاناسى ايفانوفتش يقول أن مواهب قد تكون لامعة تضيع عندها ، وأن رضاها هذا عن حزنها ويأسها ، أى هذا النوع من الرومانسية ، لا يتفق والحس السليم ولا يناسب ما تتحلى به نفس ناستاسيا فيليبوفنا من نبل . وبعد أن كرر مرة أخرى ان الكلام فى هذا الامر يشق على نفسه أكثر من أى انسان آخر ، ختم حديثه قائلا انه لا يملك الا أن يأمل الا تستقبل ناستاسيا فيليبوفنا بالاحتقار والازدراء رغبته الصادقة فى أن يكفل لها مستقبلها بأن يقدم اليها رأس مال مقداره خمسة وسبعون ألف روبل . وأضاف معلقا ان هذا المبلغ مكتوب لها فى وصية ، فلا داعى الى أن تعده تعويضا . . . أو شيئا من هذا القبيل . . . ولا داعى على كل حال الى ألا يصدِّق المرء وألا يغفر هذه الرغبة الانسانية فى تخفيف عذاب الضمير ، الخ ، الخ ، الخ . الخلاصة أن آفاناسى ايفانوفتش قال كل ما يحسن أن يقال فى مثل هذه الاحوال . ولقد تكلم آفاناسى ايفانوفتش مدة طويلة ببلاغة وفصاحة ، وأشار عرضا — وهذا أمر هام جدا — الى ان هذه هى المرة الأولى التى ذكر فيها مبلغ الخمسة وسبعين ألف روبل ، فما من احد على الاطلاق ، سمع عن هذا قبل الآن ، حتى ولا ايفان فيدوروفتش .

وتكلمت ناستاسيا فيليبوفنا فأذهل جوابها الرجلين . فلا شىء فيها الآن مما كان يسود كلامها من سخرية

وعداوة وكره ، ولا شيء من تلك الضحكة التى كانت ذكراها وحدها تجمّد توتسكى رعبا ، بالعكس : ان المرء ليحس بأنها تكاد تكون سعيدة من قدرتها أخيرا على أن تجرى مع أحد الناس حديثا فيه اخلاص وصداقة . واعترفت بأنها كانت تتمنى منذ مدة طويلة أن تحصل على نصيحة من صديق ، وأن الكبرياء وحدها هى التى منعتها من طلب النصح . أما الآن ، وقد تكسّر الجليد ، فلا شيء يمكن أن يبهجها وأن يسعدها أكثر من ذلك . لقد بدأت ناستاسيا فيليبوفنا كلامها وهى تبتسم ابتسامة حزينة ، ثم ضحكت من كل قلبها حين قالت أنها على كل حال من المستحيل أن تثير زوبعة كالزوبعة التى أثارتها فى الماضى ؛ وأنها قد غيرّت رأيها فى أمور كثيرة منذ مدة طويلة ، وأنها رغم أن قلبها لم يتغير ، لا تملك الا أن تعترف بالأمر الواقع ، فما حدث قد حدث ، وما مضى قد مضى ، حتى انها ليدهشها بقاء هذا الرعب فى نفس آفاناسى ايفانوفتش الى الآن . ثم اتجهت بالكلام الى ايفان فيدوروفتش فقالت له ، مظهرة احتراما عميقا ، انها قد سبق أن سمعت عن بناته ، وانها تمحضهن منذ مدة طويلة أصدق الاعتبار وأعمق الاحترام ، وانها لتشعر بسعادة واعتزاز متى تصورت أن فى وسعها ان تنفعهن فى شيء .

ولقد كان صحيحا كذلك أن حياتها ، فى تلك الآونة ، كانت شاقة موحشة ، موحشة الى أبعد الحدود . لقد حزّ آفاناسى ايفانوفتش أحلامها . نعم ، انها تودُّ لو تنبعث ، ان لم يكن بالحب فبالحياة فى أسرة مع الشعور بغاية جديدة . لكنها لا تكاد تستطيع مع ذلك أن تقول شيئا

بخصوص جافريلا آرداليونتش . صحيح ، يبدو لها أنه يحبها ، وتشعر من جهتها بأنها كان يمكن أن تحبه لو آمنت بمتانة تعلقه ، ولكن هبه صادقا ، فانه ما يزال شابا ، فمن الصعب اتخاذ قرار . وعلى كل حال ، فان ما يعجبها فيه اكثر من أى شيء آخر هو أنه يعمل وأنه يعول اسرة بكاملها . وقد سمعت عنه أنه شاب نشيط ، عزيز النفس ، ذو طموح ، تواق الى ارتقاء . كما سمعت أن نينا ألكسندروفنا ايفولجينا ، أمّ جافريلا آرداليونتش ، امرأة جديرة بالاعجاب ، خليقة بالاحترام من جميع النواحى ، وأن أخته باربارا آرداليونوفنا فتاة نشيطة ممتازة هى أيضا . لقد كلمها بتيتسين كثيرا عنها ؛ وهى تعرف أن الاسرة كلها تتحمل أنواع الشقاء مرحة متفائلة ؛ وهى تود أن تتعرف الى هذه الاسرة ، ولكن بقى عليها ان تعرف هل ترحب هذه الاسرة بها ؟ عموما فهى على وجه الاجمال لا تعارض فكرة هذا الزواج ، لكنها ترى أن الأمر يستحق مع ذلك تفكيرا جديا ، فهى تتمنى لهذا ألا تُستحث على الاسراع كثيرا . أما فيما يتعلق بالخمسة وسبعين ألف روبل ، فان آفاناسى ايفانوفتش قد أخطأ حين تحرج من الكلام عليها . فهى تعرف قيمة المال حق معرفتها . وهى لذلك تقبله طبعا . وشكرت لآفاناسى ايفانوفتش أيضا أنه كان رقيق الشعور فلم يقل عن هذا الأمر كلمة واحدة لا للجنرال ولا لجافريلا آرداليونتش . ولكنها تساءلت لماذا لا يُطلع جافريلا آرداليونتش على ذلك سلفا هو ايضا ؟ فانها لن تشعر بأى خجل من هذا المال حين تصبح عضوا فى الاسرة . ثم أنها لا تنتوى ان تعتذر لأى انسان عن أى شيء ، وتحرص

على أن يُعرف هذا . وهى لن تقبل أن تتزوج جافريلا آرداليونتش إلا حين تقتنع بأنه لا يضمر أية فكرة خفية عنها ، لا هو ولا أسرته . ومهما يكن من أمر ، فهى لا تشعر بأنها آثمة فى شىء ، وهى تود ان يطلع جافريلا آرداليونتش على ظروف حياتها اثناء هذه السنين الخمس بمدينة بطرسبرج ، وعلى صلاتها بآفاناسى ايفانوفتش ، وعلى الثروة التى استطاعت أن تجنيها ؛ وهى أخيرا إن قبلت هذا المال ، فلا تقبله ثمنا لعارها الذى لا تحس أنها مسئولة عنه ، وانما تقبله تعويضا عن تشويه مصيرها .

وقد بلغت من الانزعاج والحمية أثناء تدفق لسانها بهذا الكلام كله (وذلك طبيعى جدا على كل حال) أن الجنرال ايبانتشين شعر بارتياح كبير ، واعتبر القضية منتهية . أما توتسكى ، المروَّع المذعور الى الآن ، فإنه لم يصدِّق هذا الكلام تصديقا تاما ، وظل يخشى أن يكون تحت الازهار افعى . ومع ذلك فقد وُضعت بداية للمباحثات بين الطرفين . فكانت النقطة التى تعتمد عليها حيلة الصديقين ، أعنى امكان أن تتوله ناستاسيا فيليبوفنا بحب جانيا ، كانت هذه النقطة تتوضح وتتأكد شيئا بعد شىء ، حتى ان توتسكى نفسه كان يصل فى بعض الاحيان الى الاعتقاد بحظ من النجاح . وفى اثناء ذلك جرى حديث بين ناستاسيا فيليبوفنا وبين جانيا ، حديث لم يتبادلا فيه الا كلاما قليلا ، فكأن حياء ناستاسيا وخفرها كانا يصدّانها عن الكلام ؛ ومع ذلك قبلت حبه وسمحت له بأن يحبها ، لكنها أعلنت له بحزم انها لا تريد ان ترتبط بأى عهد ، وأنها الى

أن يتم الزواج (اذا هو تم) تحتفظ لنفسها بحرية أن تقول : لا ، حتى آخر لحظة ؛ ومنحت جانيا هذه الحرية نفسها على كل حال . وسرعان ما علم جانيا علم اليقين ، بفضل مصادفة مواتية ، أن اعتراض أسرته كلها على هذا الزواج ، على شخص ناستاسيا فيليبوفنا نفسها ، وهو اعتراض كانت تفضحه مشاجرات متكررة ، كانت ناستاسيا فيليبوفنا تعرفه بجميع تفاصيله . ومع ذلك لم تكلّمه عنه فى يوم من الايام ، مع أنه كان يتوقع أن تفاتحه فيه كل يوم . على أن هناك أشياء كثيرة اخرى يمكن أن نقولها عن الظروف والاحداث التى أثارها مشروع الزواج هذا ، والتى أثارتها المباحثات بين الطرفين ، ولكننا قد استبقنا أمورا كثيرة ، لا سيما وأن بعض الظروف لم تكن تبدو فى ذلك الاوان إلا شائعات غامضة جدا . من ذلك ما قيل من أن توتسكى قد علم ، من مصدر ما ، أن ناستاسيا فيليبوفنا اصبحت لها علاقات غامضة وسرية للجميع بالآنسات ايبانتشين ؛ وهى شائعة لا يمكن أن يصدقها العقل . وفى مقابل هذا صدق توتسكى رغم إرادته شائعة اخرى أخذت تسبب له كوابيس مرهقة : لقد أكد له بعضهم أن ناستاسيا فيليبوفنا كانت على علم كامل بأن جانيا لن يتزوجها الا فى سبيل المال وحده ، وأنه امرؤ أسود القلب ، شديد الطمع ، قليل الصبر ، حسود ، لا يحب الا نفسه ، ولا يسعى الا وراء مصلحته ؛ وقيل أن ناستاسيا قد علمت كذلك أن جانيا إن كان قد سعى الى الظفر بها فى الماضى عاشقا مولها ، فانه منذ اليوم الذى قرر فيه الصديقان أن يستغلا هذا الغرام لمصلحتهما بيعه ناستاسيا فيليبوفنا زوجة شرعية له ، قد أخذ يكرهها

كرها شديدا ويبغضها بغضا قويا فكأنها جاثوم او كابوس ؛ ثم اختلطت الشهوة والكراهية فى نفسه اختلاطا غريبا ، حتى اذا وافق أخيرا ، بعد تردد طويل أليم ، على ان يتزوج هذه «المرأة الفاسدة» ، كان فى قرارة نفسه قد حلف لينتقمنّ منها شر انتقام ، وليجعلنها تدفع ثمن ذلك كله غاليا . وقيل أن ناستاسيا فيليبوفنا كانت على علم بكل شىء ، وأنها كانت تدبر فى الخفاء أمرا . وقد بلغ توتسكى من الخوف أنه أصبح لا يطلع ايبانتشين على هواجسه . ومع ذلك كان فى بعض اللحظات يسترد رباطة جأشه ويستعيد تفاؤله وانتعاشه ، كما يقع هذا لكل انسان ضعيف . ذلك ما حدث له ، مثلا ، حين وعدت ناستاسيا فيليبوفنا الصديقين أخيرا بأن تعلن لهما كلمتها الاخيرة فى مساء الاحتفال بعيد ميلادها . غير أن هناك شائعة أخرى هى أغرب الشائعات وأبعدها عن أن يصدقها العقل ، شائعة تتعلق بالمحترم ايفان فيدوروفتش نفسه ، كانت تتأكد شيئا بعد شىء واسفاه !

كان ذلك كله يبدو من النظرة الاولى جنونا محضا . لقد كان من الصعب على المرء أن يصدق أن رجلا مثل ايفان فيدوروفتش ، يمكنه فى ختام حياته المشرفة الكريمة ، مع ما يملكه من رجاحة العقل وسعة التجربة وما الى ذلك ، أن يقع هو نفسه فى غرام ناستاسيا فيليبوفنا ، وأن تبلغ نزوته هذه حدا يشبه أن يكون حد الوله العنيف والهوى الجارف . ماذا كان يأمل ؟ ان من الصعب على المرء حتى تصور ذلك . ولعل ايفان فيدروفتش كان يعوّل على التواطؤ مع جانيا . ولقد كان توتسكى ، على كل حال ، يشتبه فى

وجود نوع من الاتفاق المضمر بين الجنرال وجانيا ، وهو اتفاق قائم على فهم متبادل . ومن المعروف أن الرجل الذى يستسلم لهوى جارف ، ولا سيما اذا كان متقدما فى السن ، قد يعمى عماوة كاملة ، فاذا هو يرى املا حيث لا امل ، واذا هو يفقد سداد الرأى وصدق الحكم فقدا تاما ، واذا هو يتصرف تصرف صبى غر مهما يكن عظيم الذكاء . كان معروفا أن الجنرال قد هيأ لعيد ميلاد ناستاسيا فيليبوفنا عقدا من اللؤلؤ كلفه مبلغا ضخما ، وأنه كان يعوّل على هذه الهدية كثيرا ، رغم علمه بأن ناستاسيا فيليبوفنا امرأة زاهدة فى المنفعة . وكان فى عشية عيد ميلادها محموما من شدة الاضطراب ، ولكنه استطاع أن يحسن اخفاء عواطفه بحذق وبراعة .

وقد بلغ نبأ ذلك العقد اذنى الجنرالة ايبانتشين . صحيح ان اليزافيتا بروكوفيفنا قد استطاعت منذ مدة طويلة ان تدرك خفة زوجها وطيشه ، حتى لقد ألفت فيه هذه الخفة وهذا الطيش واعتادت عليهما بعض الاعتياد . ولكن لم يكن فى وسعها طبعا أن تدع لحادث خطير كهذا الحادث ان يتم . ان حكاية اللؤلؤ هذه تهمها الى ابعد حد . وقد أدرك الجنرال الأمر فى الوقت المناسب . انه منذ الليلة البارحة قد سمع بضع كلمات ذات دلالة ، وهو يوجس ان مناقشة حاسمة ستقوم اليوم . لهذا السبب كان الجنرال ، فى هذا الصباح الذى تبدأ فيه قصتنا ، لا يشعر باى رغبة فى أن يتناول طعام الافطار مع الاسرة . ولذلك كان قد قرر ، حتى قبل وصول الأمير ، أن ينصرف من البيت

بحجة العمل .

وكانت كلمة «الانصراف» تعنى عند الجنرال فى بعض الاحيان «الفرار» . كان لا يطمع فى اكثر من أن يقضى النهار ، ولا سيما السهرة ، بدون حادث ينغّص عليه صفوه . وفجأة وصل الامير فى هذا الوقت المناسب . قال الجنرال لنفسه وهو يدخل على زوجته : «كأنما الله ارسله» !

الفصل الخامس

كانت الجنرالة شديدة الاعتزاز بنبل محتدها . ففى وسعك ان تتخيل انفعالها حين علمتْ ، دون أى تمهيد ، أن ذلك الأمير ميشكين نفسه ، الرجل الأخير من سلالة أسرتها ، الذى سبق أن سمعت عنه أشياء غامضة ، ليس الا شابا مسكينا أبله ، يكاد يكون معوزا ، ويضطره فقره الى قبول مساعدة أو معونة . وقد حرص الجنرال على أن يوقظ فى نفس زوجته انفعالا قويا وأن يبعث فيها اهتماما شديدا ، ليصرفها عن الموضوع الذى كان يشغل بالها .

حين تكون الجنرالة فى حالات قصوى ، فانها تحملق بعينيها ، وترد جسمها الى وراء ، وتأخذ تنظر الى أمام زائغة الهيئة لا تقول كلمة واحدة . هى امرأة فارعة القوام ؛ فى سن زوجها ؛ شعرها أسمر قد ملأه الشيب لكنه ما يزال كثيفا ؛ أنفها محدودب قليلا ؛ وجهها ضامر نحيل أصفر ؛ خداها خاسفتان ؛ شفتاها رقيقتان منضمتان ؛ جبينها عال لكنه ضيق ؛ عيناها شهباوان واسعتان لهما فى بعض الأحيان تعبير لا يتوقعه المرء البتة . وقد ألفت منذ القديم أن تعتقد أن لنظرتها تأثيرا كبيرا ، ثم بقيت لها هذه القناعة الى الابد .

— ان أستقبله ؟ تريد منى أن أستقبله الآن ؟ فورا ؟

كذلك قالت الجنرالة محملقة بكل ما أوتيت من قوة ، محدقة الى ايفان فيدوروفتش النشيط الذى كان يتحرك حولها .

أسرع الزوج يجيبها موضحا :

— لا حاجة بك الى كثير من التقيد بالمراسم معه ، اذا كنت تريدين أن تريه يا عزيزتى . انه لطفل حقا ، بل انه ليثير بعض الشفقة . انه مصاب بنوبات مرض لا أدرى ما هو ! لقد وصل الآن من سويسرا مرتديا ثيابا غريبة على الطراز الألمانى ، وليس معه كوبيك واحد ، حتى ليكاد يذرف دموعا . أعطيته خمسة وعشرين روبلا ، وآمل أن أجد له عملا كتابيا صغيرا ! . . وأرجوكن ، يا mesdames أن تطعمنه ، فانه ليخيل الىَّ انه فوق ذلك جائع جدا . . .

تابعت الجنرالة كلامها تقول بتلك اللهجة نفسها :

— انك لتدهشنى ! جائع وذو نوبات ؟ نوبات ماذا ؟

— أوه ! النوبات لا يصاب بها فى أحيان كثيرة ؛ ثم انه يكاد يكون طفلا ، رغم انه مثقف .

قال الجنرال ذلك ثم التفت نحو بناته مرة أخرى وأضاف :

— نويت يا mesdames أن تجرين له امتحانا صغيرا . ليس ضارا أن نعرف ما هو عليه قادر .

قالت الجنرالة متحيِّرة أعمق التحير ، وهى لا تنفك تجيل عينيها متنقلة بهما من زوجها الى بناتها ومن بناتها الى زوجها :

— ام . . . ت . . . حا . . . ن ؟

— آه . . . عزيزتى . . . لا تولى هذا الأمر شأنا كبيرا . . . الخلاصة : افعلى ما يحلو لك . لقد قام فى ذهنى أن أستقبله استقبالا لطيفا ، وأن أدخله الى الأسرة ، لأن ذلك بدا لى عملا حسنا وفعلا طيبا .

— ان تدخله الينا ؟ أت من سويسرا ؟ . .

— ما قيمة ان يكون آتيا من سويسرا ؟ على كل حال ، لن يكون الا ما تريدين . ولئن تكلمت فى هذا الامر ، فلأن الشاب يحمل اسم اسرتك ، وقد يكون قريبا لك ؛ هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فانه لا يعرف حقا أين يمكنه أن يوسِّد رأسه . حتى لقد اعتقدت ان أمره سيعنيك بعض الشىء ، لأنه واحد من سلالتنا على كل حال .

قالت البنت الكبرى ، ألكسندرا :

— طبعا يا maman ، اذا كان فى وسعنا أن نستقبله بلا كلفة ، وما دام جائعا بعد رحلة طويلة ، فلماذا لا ندعوه الى أن يطعم معنا ؟ لا سيما اذا كان لا يعرف الى أين يذهب . . .

— وهو فوق ذلك طفل حقيقى فيما يبدو ، حتى ليمكن ان نلعب معه لعبة استغماية[1] ! . .

— لعبة استغماية ؟ ما هذا الكلام ؟

قاطعتها آجلايا تقول بشىء من الزعل :

— او ! maman ! كفاك تظاهرا ، أرجوك .

فلم تستطع البنت الثانية ، ذات الطبع الضاحك آديلائيدا أن تكظم مرحها ، فاذا هى تنفجر مقهقهة .

وقالت آجلايا جازمة :

— ارسل اليه ان يجئ يا papa ، Maman تسمح به .

فرنَّ الجنرال الجرس واصدر أمره بادخال الأمير .

---

[1] لعبة يحاول فيها لاعب معصوب العينين أن يمسك بلاعب آخر ويعلن من هو . المراجع .

قالت الجنرالة بحزم :

— ولكن على شرط أن نعقد حول عنقه منشفة حين يجلس الى المائدة . نادوا فيدور أو نادوا مافرا ليكون أحد وراءه يراقبه أثناء تناوله الطعام . أهو هادئ على الاقل حين توافيه تلك النوبات ؟ ألا يُحرِّك يديه باشارات ؟

— بالعكس . . . انه مهذَّب لطيف يتقن آداب المجتمع ويتقيد بها . كل ما هنالك انه قد يكون بسيطا ساذجا فى بعض الأحيان . . . ها هو ذا بنفسه على كل حال ! أقدم اليك الأمير ميشكين ، آخر من يحمل اسم هذه السلالة ، ولعله قريب لنا ، فاستقبليه بما يجب له من عاطفة . سيهيأ الافطار يا أمير ، فشرِّفنا بأن . . . اما انا فأرجوك ان تعذرنى . . . لأننى مستعجل جدا ، حتى لقد تأخرت . . .

قالت الجنرالة بهيئة وقور :

— نعرف الى أين تستعجل !

— مستعجل جدا ، مستعجل جدا يا عزيزتى ، حتى لقد تأخرت ! ناولنه دفاتركن ، يا mesdames ، ليكتب لكن شيئا . . . انه خطاط ذو موهبة نادرة ! موهبة ! لقد خط لى منذ برهة فى مكتبى عبارة : «ان المطران بافنوتى قد مهر هذا بتوقيعه» . . . الى اللقاء ، الى اللقاء !

قالت الجنرالة :

— بافنوتى ؟ مطران ؟

وبينما كان زوجها يتقهقر الى وراء ، صرخت تقول ملحة محتدة احتدادا متزايدا يشوبه قلق :

— انتظر ! انتظر ! الى أين انت ذاهب ؟ من هو بافنوتى هذا ؟

— نعم ، نعم يا عزيزتى ، كان فى الزمان القديم مطران بهذا الاسم . . ولكن الكونت ينتظرنى منذ مدة طويلة ، وهو الذى حدد لى الساعة . . . يا أمير ، الى لقاء !

وانسحب الجنرال مسرعا أشد الاسراع .

قالت اليزفيتا بروكوفيفنا مغتاظة وهى تنقل نظرتها الحانقة نحو الأمير :

— أنا أعرف أى كونت يعنى !

ثم أضافت تقول محاولة ان تتذكر وقد لاح فى وجهها تبرم واحتقار :

— هيه ! ما هى المسألة ! آ . . . نعم . . . من هو ذلك المطران ؟

حاولت ألكسندرا أن تتدخل (بينما كانت آجلايا تخبط بقدمها الأرض نافدة الصبر) فقالت :

— Maman!

فقالت الجنرالة بحدة :

— لا تقاطعينى يا ألكسندرا ايفانوفنا ! أنا أيضا أريد أن أعرف ! اجلس هنا يا أمير ، على الكرسى الذى يقع قبالتى . . لا ، بل اجلس هنا ، فى الشمس ؛ اقترب من الضوء لأراك رؤية أوضح . طيب . . . والآن حدثنى من هو هذا المطران ؟

بدأ الأمير يتكلم وقد ظهر فى وجهه الانتباه والجد :

— هو المطران بافنوتى . . .

— بافنوتى ؟ عجيب . . . هيه . . . ثم ماذا ؟

كانت الجنرالة تلقى الاسئلة بسرعة وحدة ، نافدة الصبر دون أن تحوِّل عنه بصرها ، وكانت تصاحب كل كلمة من كلمات جواب الأمير بهزّة من رأسها .

قال الأمير :

— عاش المطران بافنوتى فى القرن الرابع عشر ، وكان يرأس صومعة للنسك على نهر الفولجا فى الاقليم الذى يسمى الآن اقليم كوستروما . وقد اشتهر بحياته التقية الورعة . وذهب مرارا الى بلاد التتار لحل امور مختلفة . ففى مناسبة من تلك المناسبات ذيَّل احدى الوثائق بتوقيعه ، وقد رأيت أنا نسخة منها ، فأعجبنى الخط ، فتعلمت محاكاته . ومنذ قليل حين أراد الجنرال أن يرى خطى ليجد لى عملا ، كتبت عدة عبارات بأحرف مختلفة ، فكانت احدى هذه العبارات : «ان المطران بافنوتى قد وقّع هذا بخط يده» ، وقد كتبتها على طريقة بافنوتى فى الخط ، فأعجب الجنرال بها كثيرا ، والى هذا انما أشار منذ هنيهة .

قالت الجنرالة :

— يا آجلايا ، تذكرى : بافنوتى ؛ بل سجلى ، فأنا أنسى كل شىء . لكنى أعترف بأننى كنت اتوقع شيئا أهم من هذا . أين ذلك التوقيع ؟

— أظن انه بقى على المنضدة فى مكتب الجنرال .

— هاتونى به حالا .

— لكننى أستطيع ان أخطه لك مرة أخرى اذا شئت .

قالت ألكسندرا :

— طبعا يا maman ؛ والأفضل ان نأكل الآن ،

فاننا جميعا جياع .

قالت الجنرالة :

— طيب . تعال يا أمير أأنت جائع جدا ؟

— نعم ، بدأت أشعر الآن بجوع ؛ وانى لأشكرك أجزل الشكر .

— حسن جدا انك مؤدب ؛ وانى لألاحظ انك لست . . . غريبا الى الحد الذى أرادوا ان يصلوا اليه فى تصوير غرابتك . تعال ، اجلس هنا ، قبالتى ، لأستطيع ان أنظر اليك (كذلك قالت له متحركة منشغلة مهتمة ، حين صاروا جميعا فى قاعة الطعام) . ألكسندرا ، آديلائيدا ، اهتما بالامير . ألا تريان انه ليس مريضا الى الحد الذى . . . ؟ ربما كنا فى غير حاجة الى المنشفة . . . قل لى يا أمير : هل كانوا يعقدون منشفة حول رقبتك ؟

— نعم ، أظن ، فى الماضى ، حين كان عمرى سبع سنين . أما الآن فقد تعودت ان أضع المنشفة على ركبتى .

— هذا ما يجب . ونوباتك ؟

قال الأمير مدهوشا بعض الدهشة :

— نوباتى ؟ أصبحت الآن نادرة . مع ذلك . . . لا أدرى ! يقال ان المناخ هنا لن يكون مناسبا لحالتى الصحية .

قالت الجنرالة مخاطبة بناتها وهى ما تزال تصاحب كل كلمة من كلمات الأمير بهزة من رأسها :

— انه يجيد الكلام . لم أكن اتوقع ذلك . اذن لم يكن كل ما قيل الا اكاذيب وترهات باطلة ، كالعادة !

كُلْ يا أمير ، وقصَّ علينا أين وُلدت وأين تربيت ؟ أريد ان أعرف كل شيء . ان أمرك يهمنى كثيرا .

شكرها الأمير ، وأخذ يكرر ما سبق أن رواه مرارا فى تلك الصبيحة من النهار . . . أخذ يكرره وهو يأكل بشهية كبيرة . ازداد ارتياح الجنرالة ورضاها شيئا بعد شيء . وكانت البنات أيضا تصغى الى حديث الأمير بانتبـــاه . واُستعرضت القرابة ، فاتضح أن الأمير يعرف شجرة النسب معرفة جيدة ، ولكنهم رغم جميع الجهود لم يتمكنوا من العثور على أى قرابة تربط الأمير بالجنرالة . كل ما هنالك أنهم يستطيعون أن يتصوروا أن قد كان بين الأسلاف الأبعدين قرابة غامضة كالقرابة التى تكون بين ابناء الأعمام . وقد سُرَّت الجنرالة كثيرا بالخوض فى هذا الموضوع الجاف ، لأنها رغم كل رغبتها ، قلَّما أتيح لها أن تتحدث عن أجدادها ، لذلك نهضت عن المائدة منتعشة انتعاشا كبيرا .

قالت :

— الأفضل أن نمضى الى قاعة الاجتماع ، فستحمل القهوة الينا هناك . — وأضافت تشرح للأمير وهى تجرُّه :

— هى غرفة مشتركة لنا جميعا ، بل قل هى صالونى الصغير الذى نجتمع فيه حين نكون وحيدات ، وتكون كل واحدة منا منصرفة الى شئونها : فابنتى الكبرى ، ألكسندرا ، تعزف على البيانوا أو تقرأ أو تخيط ؛ وابنتى آديلائيدا ترسم مناظر طبيعية أو وجوها انسانية (دون أن تنهى أى شيء فى يوم من الأيام) ؛ أما آجلايا فانها لا تعمل شيئا البتة . وأنا أيضا يسقط الشغل من بين يدى ، ولا أفلح فى انجاز شيء . ها نحن أولاء وصلنا . اجلس يا أمير ، قرب

المدفأة ، واقصص علينا . أريد ان أعرف كيف تحكى . أريد ان أتأكد من ذلك ، فاذا رأيت الأميرة العجوز بيلوكونسكايا حدثتها كل شيء عنك . أريد أن تثير اهتمام الجميع . فهيا تكلم !

قالت آديلائيدا التى كانت فى أثناء ذلك قد ركزت حاملة لوحاتها وتناولت فراشيها وصحن الوانها وأخذت تنقل عن صورة مطبوعة منظرا طبيعيا كانت قد بدأت تصويره منذ مدة طويلة ، قالت :

— Maman ، يصعب على الانسان كثيرا أن يحكى ويقص فى ظروف كهذه .

وجلست ألكسندرا وآجلايا احداهما الى جانب الأخرى على أريكة صغيرة ، وقد عقدت كل منهما يديها على صدرها ، واستعدت للاصغاء الى الحديث . ولاحظ الأمير أن انتباه الجميع منصب اليه .

قالت آجلايا :

— ما كنت لأحكى شيئا أو لأقص شيئا لو أُمرت على هذا النحو .

فقالت الجنرالة :

— لماذا ؟ أى شيء خارق فى هذا ؟ ما عسى يمنعه من الكلام ؟ ان له لسانا . أريد ان أعرف كيف يجيد الحديث . اقصص ما تشاء .قل لنا هل أعجبتك سويسرا ، صف لنا انطباعك الأول هناك . سوف ترين : انه سيبدأ ، وسيجيد الحديث ايما اجادة .

بدأ الأمير الكلام فقال :

— كان انطباعى الأول قويا جدا . . .

فقاطعته الجنرالة النافدة الصبر متلفتة الى البنات بقولها :

— هل رأيتن ؟ هل رأيتن ؟ لقد بدأ . . .

فأوقفتها ألكسندرا قائلة :

— دعيه يتكلم على الأقل ، يا maman !

وهمست تقول لأختها آجلايا :

— قد يكون هذا الأمير مكارا كبيرا ، لا أبله البتة !

فأجابتها آجلايا تقول :

— هذه حقيقة أكيدة لاحظتها منذ مدة . وانها لدناءة منه أن يمثل دور الأبله . هل يظن أنه يجنى من ذلك نفعا ما ؟

استأنف الأمير كلامه فقال :

— كان انطباعى الأول قويا جدا . حين اخذونى من روسيا واجتزنا مدنا ألمانية . ، كنت لا أزيد على أن أنظر صامتا ، وكنت لا ألقى أى سؤال (ما زلت أذكر هذا) وقد حدث ذلك فى أعقاب نوبات من مرضى عنيفة وأليمة . وقد ألفت ، فى أوان النوبات ، حين يكثر تعاقبها ، ان أصبح فى حالة انصعاق ، فأفقد ذاكرتى فقدانا تاما ، وينقطع مجرى المنطق فى أفكارى ، (رغم أن فكرى يظل يعمل) فلا يتسلسل فى ذهنى أكثر من فكرتين أو ثلاث . او ذلك هو على كل حال الانطباع الذى بقى فى نفسى . حتى اذا هدأت النوبة رجعت سليما معافى ، قويا كقوتى الآن . أذكر أننى احسست حينذاك بحزن لا يطاق ، حتى لقد استبدت بى رغبة فى البكاء . كنت لا أزيد على ان أشعر بدهشة وقلق . لقد فجأنى كثيرا أن كل شىء حولى غريب على . فهمت ذلك . ان هذا الغريب كله يهوى بى الى قاع الحزن واليأس . ثم لم أخرج من تلك الظلمات

خروجا كاملا — ما زلت أذكر هذا — الا فى المساء . بمدينة بال . عند وصولنا الى سويسرا . وان نهقة حمار فى ميدان السوق هى التى ايقظتنى من انصعاقى . لقد أثر الحمار فى نفسى تأثيرا قويا ، وأعجبنى اعجابا شديدا ، لا أدرى لماذا ، وفى الوقت نفسه صار كل شىء فى رأسى واضحا .

قالت الجنرالة :

— حمار ؟ غريب . . . ولكن لا . . . لا غرابة . ان بيننا نحن معشر النساء من يقعن فى غرام حمار . — أضافت الجنرالة هذه الجملة الاخيرة ، وهى تنظر شبه غاضبة الى الفتيات الضاحكات . وأردفت تقول : — وذلك شىء تكلمت عنه أساطير اليونان الاقدمين . اكمل كلامك يا أمير .

— ومنذ ذلك الوقت أصبحت أحب الحمير حبا عظيما . أصبح هذا عندى عاطفة حقيقية صادقة . وأخذت أجمع معلومات عن الحمير . لم أكن قد رأيت حمارا قبل ذلك اليوم ؛ وسرعان ما عرفت أن الحمار حيوان مفيد جدا ، وانه قوى نشيط صبور قنوع ذو مقاومة وجلد . وبواسطة هذا الحمار أخذت سويسرا كلها تعجبنى ، فأنهى ذلك حزنى .

— هذا كله غريب حقا ، ولكن دعنا ، ولننتقل الى موضوع آخر . ما الذى يضحكك يا آجلايا ، وانت يا آديلائيدا ؟ لقد تحدث الأمير عن الحمار فأجاد الحديث . هو رآه بنفسه ، فماذا رأيت أنت ؟ أنت لم تسافرى يوما الى الخارج .

قالت آديلائيدا :

— سبق أن رأيت حمارا يا maman !

وأضافت آجلايا :

— وأنا قد سمعت حمارا .

وأخذت البنات الثلاث تضحك من جديد . وضحك الأمير أيضا . قالت الجنرالة :

— هذا منكن شر وسوء ! اعذرهن يا أمير ، فانهن بنات طيبات القلب ، وأنى لأشاجرهن دائما ، لكننى أحبهن . هن طائشات العقل مجنونات .

قال الأمير ضاحكا :

— لماذا ؟ لو كنت فى مكانهن لما فوت الفرصة أيضا . على كل حال ، أنا أعشق الحمار : الحمار شخص طيب مفيد .

سألت الجنرالة :

— وأنت يا أمير ، هل أنت طيب ؟ أسألك عن هذا من باب حب الاطلاع .

وأخذ الجميع يضحكون من جديد .

وهتفت الجنرالة تقول :

— أنا لا أعنى ذلك الحمار اللعين ، ولم يخطر الحمار ببالى . ثق يا أمير اننى لم اقصد أى . . .

— تلميح ؟ — قال الأمير وهو ما يزال يضحك .

قالت الجنرالة :

— حسن جدا انك تضحك . اننى أدرك من هذا أنك شاب طيب جدا .

أجاب الأمير :

— يتفق لى الا أكون كذلك !

قالت الجنرالة على نحو غير متوقع :

— وأنا طيبة ؛ بل ان شئت أن تعرف ، اننى طيبة دائما ، وذلك عيبى الوحيد لأن على الانسان الا يكون طيبا على الدوام . اننى كثيرا ما أغضب منهن ، ومن ايفان فيدوروفتش خاصة ، ولكن المؤسف المحزن هو أننى لا أكون فى لحظة من اللحظات طيبة كطيبتى اثناء الغضب ! منذ برهة ، قبل وصولك ، كنت قد غضبت فتظاهرت بأننى لا أفهم شيئا ولا أستطيع ان أفهم . ذلك يحدث لى أحيانا كما يحدث للاطفال . لقد لقنتنى آجلايا درسا . شكرا لك على هذا الدرس يا آجلايا . على كل حال ، ما أسخف هذا كله ! ما أنا بالغبية الى الحد الذى يبدو على ، أو الى الحد الذى تريد أن توهم به بناتى . اننى حازمة الطبع ، ولست أتحرج كثيرا وأقول هذا بدون أى زعل . تعالى الى هنا يا آجلايا وقبلينى . . .

ثم قالت الجنرالة حين قبلتها آجلايا على شفتيها ويدها بكثير من العاطفة :

— وكفاك عواطف سخيفة ! واصل حديثك يا أمير . قد تتذكر شيئا أكثر تشويقا من ذلك الحمار !

ولاحظت آديلائيدا من جديد :

— ما زلت لا أفهم كيف يستطيع المرء أن يحكى شيئا على هذا النحو . لو طلب الىّ ما يُطلب اليه لما وجدت شيئا اقوله .

— ولكن الامير سيجد ما يقوله ، لان الامير ذكى الى ابعد حدود الذكاء ؛ هو أذكى منك عشر مرات على الاقل ، او اثنتى عشرة مرة . أرجو أن تدركى هذا بعد

حديثه . برهن لهن على صحة قولى يا امير ، وأكمل . أما الحمار فنستطيع فعلا أن ندعه الآن وشأنه . هيه ، ماذا رأيت فى الخارج ، عدا ذلك الحمار ؟

قالت الكسندرا :

— كان الحديث عن الحمار ذكيا جدا كذلك . لقد وصف لنا الأمير حالته المرضية وصفا شائقا ، وذكر لنا كيف استرد حبه للاشياء على أثر صدمة خارجية . لقد طالما أشتقت أن أعرف كيف يفقد الانسان عقله وكيف يمكن أن يسترده ، ولا سيما حين يتم ذلك على نحو مباغت !

صاحت الجنرالة تقول :

— أليس كذلك ؟ أليس كذلك ؟ أرى الآن أنه يتفق لك ايضا ان تكونى ذكية فى بعض الاحيان . والآن كفى ضحكا ! اظن يا أمير أنك توقفت عن الكلام حين وصلت الى وصف الطبيعة السويسرية ، فماذا عن الطبيعة بسويسرا ؟

قال الأمير :

— وصلنا الى لوسيرن ، وقادونى فى نزهة على البحيرة . كنت أحس أن البحيرة جميلة ، ومع ذلك كنت منقبض الصدر .

سألت الكسندرا :

— لماذا ؟

فأجاب الأمير :

— أنا نفسى لا أفهم علة ذلك . انى أشعر دائما بانقباض فى صدرى ، وتمتلئ نفسى قلقا حين أرى منظرا

من هذا النوع اول مرة ، انه يُمتعنى ويُقلقنى فى آن واحد . على كل حال ، كان هذا يحدث ايام كنت ما أزال مريضا .

قالت آديلائيدا :

— أما أنا فكان يسعدنى أن أرى ذلك كله . انى لاتساءل هل سنعزم أمرنا على السفر الى الخارج فى يوم من الايام . لقد أصبحت منذ عامين لا أجد موضوعا للوحة أرسمها :

«وصف الجنوب والمشرق منذ زمن طويل . . .» .

يا أمير ، هلا وجدت لى موضوع لوحة أرسمها !

قال الأمير :

— لست فى هذا المجال على شىء من خبرة . يخيَّل الىّ انه ليس على الرسام الا ان ينظر ويرسم .

— أنا لا أحسن النظر .

قاطعتهما الجنرالة قائلة :

— ما بالكما تتكلمان فى ألغاز ؟ لست أفهم مما تقولان شيئا ! ما هذا الذى تزعمينه ؟ «لست أحسن النظر» ! ان لك عينين فما عليك اذن الا أن تنظرى ! واذا لم تستطيعى أن تنظرى هنا ، فلن تتعلمى فى الخارج أن تنظرى . الافضل أن تقول لنا يا أمير كيف كنت تنظر انت ؟

قالت آديلائيدا :

— هذا افضل . ان الأمير قد تعلم فى الخارج كيف يحسن النظر !

— لا أدرى ، أنا لم أزد هنالك على أن أسترد صحتى . لا أدرى هل تعلمت أن أنظر . على كل حال ، كنت سعيدا طوال الوقت !

هتفت آجلايا :

— كنت سعيدا ؟ انت تعرف كيف تكون سعيدا ؟ فكيف تستطيع أن تقول اذن أنك لم تتعلم أن تنظر ؟ لا بد أن تكون قادرا على أن تعلمنا ما تعلمت !

قالت آديلائيدا وهى ما تزال تضحك :

— نعم ، علّمنا ما تعلمت !

قال الأمير وهو يشاركهن الضحك :

— لا أستطيع ان أعلم أحدا شيئا . اننى طوال الوقت الذى قضيته فى الخارج تقريبا ، قد عشت فى تلك القرية السويسرية الصغيرة ، ولم اكن أتركها الا فى القليل النادر لاقوم برحلة قصيرة . فماذا أستطيع ان اعلمكن ؟ كل ما ظفرت به فى البداية هو اننى استطعت الا أشعر بملل وسأم . وتحسنت صحتى تحسنا سريعا . وبعد ذلك أصبح كل يوم من الايام ثمينا فى نظرى ، أثمن فأثمن ، وكنت أدرك ذلك ادراكا تاما . كنت أرقد فى المساء سعيدا جدا ، وأستيقظ فى الصباح اشد سعادة ايضا . أما سبب ذلك فأمر لا أدرى كيف اعبّر عنه !

سألته الكسندرا :

— هل بلغت من السعادة انك اصبحت لا تتوق الى شىء فى غير ذلك المكان ؟

— بلى ! فى البداية شعرت بذلك النوع من النداء ، فكنت أحس من ذلك بقلق وغم . كنت أفكر فى المستقبل ، واتمنى أن أستشرف مصيرى . وكنت فى بعض اللحظات اضطرب اضطرابا كبيرا . ان هناك لحظات من هذا النوع كما تعلمين ، ولا سيما فى العزلة . كان فى تلك القرية

شلال صغير نحيل يشبه أن يكون خيطا من ماء ، يسقط من علو شاهق ، ويكاد يكون عموديا ، وهو أبيض مزبد مرغ صاخب . انه يسقط من علو شاهق جدا ، ولكن المرء لا يشعر بالارتفاع الذى يسقط منه . كان على بعد نصف فرسخ ، ولكن المرء يحسه خمسين خطوة . كنت أحب أن اسمع صوت سقوط الماء ليلا . وفى تلك اللحظات انما كان يزداد اضطرابى . وفى بعض الاحيان ايضا ، اثناء النهار ، على مكان ما من الجبل ، كنت أتوقف وحيدا بعد صعود طويل . من حولى اشجار صنوبر ضخمة قديمة تفوح منها رائحة الراتينج . وعلى صخرة فى الاعلى انقاض قصر قديم ، من القرون الوسطى . وفى بعيد ، على مستوى ادنى ، تلوح قريتنا الصغيرة التى لا تكاد تُرى . والشمس تسطع . والسماء زرقاء . والصمت مطلق . فهناك انما كنت أحس أحيانا ذلك النداء نحو المجهول ، واقدّر اننى لو مضيت الى امام قُدُما ، وأوغلت الى بعيد ، الى بعيد ، وتجاوزت ذلك الخط الذى تلتقى عنده الارض بالسماء ، فسأجد جوابا عن كل شىء ، وسرعان ما تنكشف لى حياة جديدة ، أكثف وأعنف وأحر من الحياة عندنا ألف مرة . وكنت أحلم بمدينة كبرى مثل نابولى ، ملأى بالقصور ، وبالصخب ، وبالحركة ، وبالحياة . . . ما أكثر الاشياء التى حلمت بها ! . . وبعد ذلك خيّل الىّ ان المرء يستطيع حتى فى السجن ان يجد حياة عريضة واسعة .

قالت آجلايا :

— هذه الفكرة الاخيرة المحمودة سبق ان قرأتها فى كتاب مختارات حين كنت فى الثانية عشرة من عمرى .

وقالت آديلائيدا :

— هذا كله فلسفة . انت فيلسوف جئت تعلمنا الحكمة !

قال الأمير مبتسما :

— قد تكونين على حق . ربما كنت فيلسوفا بالفعل ؛ ومن يدرى ؟ لعلنى أنوى أن اعلمكن الحكمة ايضا . . . هذا جائز ، جائز جدا .

استأنفت آجلايا كلامها فقالت :

— فلسفتك لا تختلف ، على كل حال ، عن فلسفة اولامبيا نيقولايفنا ، ارملة الموظف التى تجىء الينا من حين الى حين متطفلة . ان المشكلة الكبرى عندها هى السعر الرخيص والقدرة على العيش باقل نفقة ، فهى لا تحسن الكلام الا عن الكوبيكات . لاحظ انها تملك مالا : انها ماكرة جدا . ذلك بعينه هو شأن حياتك العريضة الواسعة فى السجن ، ولعله أيضا شأن سنى سعادتك الأربع التى قضيتها فى تلك القرية بائعا مدينة نابولى ، وربما مع تحقيق شىء من ربح ، وان لم يتجاوز الربح كوبيكات .

قال الأمير :

— أما عن الحياة فى السجن ، فمن الجائز الا أوافق على كلامك . فانما أنا سمعت حديث رجل قضى فى السجن قرابة اثنتى عشرة سنة . انه أحد المرضى الذين كان يعالجهم طبيبى . كان هذا الرجل يصاب بنوبات ، وكان كثير الاضطراب أحيانا وباكيا ، حتى لقد حاول مرة أن ينتحر . كانت حياته فى السجن حزينة ، أؤكد لكن ذلك ، ولكن لا شك أنها كانت تساوى أكثر من كوبيكات ؛

مع أنه لم يكن له علاقات الا بعنكبوتة وبشجرة صغيرة نبتت تحت نافذته . . . على اننى أفضل أن أقص عليكن قصة لقاء آخر تم لى فى العام الماضى . ان فى الأمر الذى سأحكيه لكنً الآن شيئا غريبا جدا ، غريبا بندرة حدوثه . هو رجل أقتيد مع رجال آخرين محكوم عليهم بالاعدام ، أقتيد معهم الى المكان الذى سيتم فيه تنفيذ الحكم ، وقرئ عليه قرار المحكمة باعدامه رميا بالرصاص لجريمة سياسية . وبعد نحو عشرين دقيقة تلى عليه قرار آخر يعفو عنه ، فيلغى حكم الاعدام ويبدله بحكم بعقوبة أخرى . ولكن فى الفترة التى انقضت بين تلاوة الحكم الأول وتلاوة الحكم الثانى ، أى خلال العشرين دقيقة أو ربع ساعة على الأقل ، عاش الرجل فى يقين مطلق بأنه سيموت فجأة بعد بضع لحظات . ما كان أشد رغبتى فى أن أسمعه يصف المشاعر التى أحس بها اثناء ذلك ! حتى لقد أخذت ألقى عليه الاسئلة تلو الاسئلة مرارا ! كان يتذكر كل شىء بوضوح خارق ، ويؤكد أنه لن يستطيع نسيان تلك الدقائق فى يوم من الأيام . على مسافة عشرين خطوة من صقالة الاعدام التى وقف قربها الناس والجنود ، كانت قد دقت فى الأرض أعمدة ثلاثة ، اذ كان هنالك عدة رجال محكوم عليهم بالاعدام . أقتيد الثلاثة الأول نحو تلك الاعمدة ، وشُدوا اليها ، وأُلبسوا لباس المحكوم عليهم بالاعدام (وهو نوع من جلباب طويل أبيض) ؛ ووضعت قلانيس بيضاء على اعينهم حتى لا يروا البنادق . وبعد ذلك جاءت تقف ، قبالة كل عمود ، زمرة الجنود التى ستطلق رصاص الاعدام . ان الرجل الذى أحدثكن عنه هو الثامن فى الترتيب . فكان

عليه اذن أن يذهب الى العمود فى الفوج الثالث . وجاء كاهن يبارك الرجال المحكوم عليهم بالاعدام . ولم يبق لهم من الحياة الا خمس دقائق يعيشونها . قال لى الرجل ان هذه الدقائق الخمس قد بدت له طويلة طولا لا نهاية له ، غنية غنى لا ينضب . بدا له أنه خلال هذه الدقائق الخمس سيعيش حيوات تبلغ من الكثرة انه ليس فى حاجة ، بعد ، الى التفكير فى اللحظة الأخيرة . حتى لقد رتّب أموره واتخذ اجراءاته على هذا الأساس ، فحدّد الزمان الذى سيودّع فيه رفاقه ووقف عليه دقيقتين ، وعين دقيقتين أخريين للتفكير فى نفسه مرة أخيرة ، وترك الوقت الباقى لالقاء نظرة على ما حوله . وانه ليتذكر تذكرا واضحا انه تقيد بهذا التوزيع للوقت تقيدا تاما . كان سيموت وهو فى السابعة والعشرين من عمره ، مليئا بالصحة والعافية . وانه ليتذكر أنه حين ودّع رفاقه ألقى على أحدهم سؤالا لا علاقة له بالحالة الراهنة ، حتى انه اهتم اهتماما كبيرا بسماع جوابه . حتى اذا فرغ من التوديع ، جاء دور الدقيقتين اللتين نذرهما للتفكير فى نفسه . كان يعلم سلفا ما الذى سيفكر فيه . كان يريد أن يتصور بأقصى سرعة ممكنة وبأكبر وضوح ممكن ما سيحدث : هو الآن هنا ، هو الآن حى ؛ وبعد ثلاث دقائق سيصبح **شيئا** ، سيصبح شخصا آخر أو شيئا آخر ، ولكن ماذا يصبح ؟ وأين يصبح ؟ كان يقدر أنه سيعرف ذلك كله خلال هاتين الدقيقتين ! وفى مكان غير بعيد ، كانت تقوم كنيسة تلتمع قبتها المذهبة تحت أشعة الشمس . انه يتذكر الآن شدة تحديقه الى تلك القبة والى الاشعة التى كانت تنعكس عليها حينذاك . كان لا يستطيع

أن ينتزع نفسه من تأمل تلك الأشعة : كان يتراءى له أن تلك الاشعة هى طبيعته الجديدة ، وأنه بعد ثلاث دقائق سيندمج فيها على نحو ما . . . ان تلك الحالة من عدم اليقين ومن النفرة تجاه الجديد الذى سيكون وسيحين حينه الآن كانت رهيبة فظيعة . ولكنه قال أنه لا شىء كان أشقّ على نفسه عندئذ من هذه الفكرة التى كانت تدور فى خاطره : «ليتنى أستطيع ألا أموت ! ليت الحياة تُردُّ الىَّ ! ما أعظم الأبدية التى سأنعم بها اذا أمكن ذلك ! لاحيلنّ كل دقيقة دهرا ، ولأحصينّ جميع الدقائق لا أضيع منها واحدة ، ولا أبدد منها واحدة !» . وقال أن هذه الفكرة قد صارت آخر الأمر الى نوع من حقد حتى أصبح لا يتمنى الا أن يطلق عليه الرصاص .

صمت الأمير فجأة . وكان الجميع يتوقعون أن يستمر وأن يستخرج من كلامه نتيجة يختمه بها .

سألته آجلايا :

— هل انتهيت ؟

فقال الأمير مستيقظا من تأمله لدقيقة :

— ماذا ؟ . . انتهيت !

— ولكن لماذا رويت هذا كله ؟

— هكذا . . . تذكرته . . . فى سياق الحديث . . .

قالت ألكسندرا :

— ولكنك انهيت الكلام انهاء مباغتا جدا . لعلك كنت تنوى يا أمير أن تستخرج منه نتيجة هى أنه ليس فى الحياة لحظة تقاس قيمتها بكوبيكات ، وأن خمس دقائق من الحياة أثمن من كنوز الأرض فى بعض الأحيان ؟

هذا كله كلام محمود . . . ولكن اسمح لى : ان ذلك الصديق الذى روى لك تلك الاهوال قد بدّل الحكم عليه ، أليس كذلك ؟ معنى هذا أنه قد وهبت له تلك «الحياة التى لا نهاية لها» ، فكيف استعمل ذلك الغنى كله من بعد ؟ هل عاش يحسب الدقائق فلا يضيّع منها دقيقة واحدة ؟

— لا . . . لقد ذكر لى الحقيقة هو نفسه . . لأننى سألته فى هذا الموضوع . انه لم يعش بهذه الطريقة أبدا ، بل بدّد دقائق كثيرة .

— هذه اذن تجربة قاطعة : ليس فى وسع الانسان حقا أن يعيش حياته «حاسبا» . ولا بد أن لهذا علة ولكنه مستحيل .

قال الأمير :

— طبعا ، لا بد ان يكون لهذا علة ولكنه مستحيل . اننى كنت أظن هكذا أيضا . . . لكنى لا أستطيع مع ذلك أن أصدق . . .

سألته آجلايا :

— هل معنى هذا انك تتصور ان تحيا حياة فيها من الذكاء والحكمة ما ليس فى حياة الآخرين ؟

— نعم ، خطر ببالى هذا أيضا فى بعض الأحيان .

— ولا يزال يخطر ببالك ؟

— نعم . . . لا يزال يخطر ببالى .

بهذا أجاب الأمير وهو يبتسم تلك الابتسامة الخلجى العذبة نفسها ، ناظرا الى آجلايا . ولكنه لم يلبث ان أخذ يضحك من جديد وينظر اليها مرحا .

قالت آجلايا منزعجة بعض الانزعاج :

— يا له من تواضع !

قال الأمير :

— ما أعظم شجاعتكن ! أنتن تضحكن بينما أنا قد اقلقتنى هذه القصة اقلاقا بلغ من القوة اننى حلمت بها فى نومى ، ولا سيما تلك الدقائق الخمس . . .

ونظر الأمير الى البنات مرة أخرى بانتباه وجد .

وسألهنّ مضطربا على حين فجأة ، مع أنه استمر فى التحديق الى اعينهن :

— أأنتن غاضبات منى ؟

فصاحت الفتيات الثلاث يسألنه مدهوشات :

— ولماذا نغضب ؟

— لأن طريقتى فى الكلام تشبه طريقة القاء درس . . .

فأخذن يضحكن .

قال الأمير :

— اذا كنتن قد غضبتن ، فلا تغضبن ! أنا أعرف أننى عشت أقل مما عاش الآخرون ، واننى أفهم الحياة أقل مما يفهمها الآخرون . ولا بد ان طريقتى فى الكلام غريبة أحيانا . . .

وارتبك الأمير ارتباكا تاما .

قالت آجلايا بقسوة والحاح :

— ما دمت تقول انك كنت سعيدا ، فلقد عشت أكثر من الآخرين لا أقل منهم . فعلام الاعتذار والمواربة ؟ ولا يقلقنك خاصة انك تبدو كمن يلقى درسا ؛ فان هذا لم يكن فيه أى انتصار . ان المرء يستطيع بمثل طمأنينتك

أن يملأ بالسعادة حياة طولها مائة سنة . وسواء أأروك تنفيذ حكم بالاعدام أم مدوا اليك أصبعا صغيرة ، فانك تستخرج من الأمرين كليهما فكرة محمودة وتظل راضيا سعيدا . فما أسهل الحياة هكذا !

تدخلت الجنرالة التى ظلت تدرس وجوه المتحادثين مدة طويلة فقالت :

— ما لى أراك غاضبة دائما ؟ ثم اننى لا أفهم أيضا عم تتكلمان ! أية اصبع صغيرة تقصدين ؟ ما هذا الهذر كله ؟ ان الأمير يقول كلاما حسنا ، وان يكن حزينا بعض الشيء . فلماذا تحاولين أن تثبطى همته وتدخلى اليأس الى قلبه ؟ لقد كان يضحك حين بدأ يتكلم ، ثم هاهو ذا الآن مبهوت مصعوق .

— لا بأس يا maman ! وانها لخسارة يا أمير انك لم تشهد تنفيذ حكم بالاعدام ، والا لسألتك عن بعض الأمور .

أجاب الأمير :

— شهدت تنفيذ حكم بالاعدام .

صاحت آجلايا :

— رأيت اعداما ؟ كان علىّ ان أقدر ذلك ! هذا يضع النقاط على الحروف . فما دمت قد شهدت اعداما فكيف تستطيع أن تدعى انك كنت سعيدا طوال ذلك الوقت ؟ ألم أكن على حق ؟

وسألت آديلائيدا :

— أكانت تنفذ فى قريتكم أحكام بالاعدام اذن ؟

— شهدت اعداما بمدينة ليون . كنت قد سافرت

الى ليون مع شنايدر . وتم الاعدام يوم وصولنا .

عادت آجلايا تقول مصرّة ملحة :

— فماذا ؟ هل أعجبك المشهد كثيرا ؟ هل استخرجت منه تعاليم نافعة ؟

قال الأمير :

— بل لم يعجبنى البتة ، حتى اننى مرضت بعده قليلا . لكننى أعترف بأننى كنت أنظر الى المشهد مشدودا اليه شدا قويا فكأننى لا أستطيع ان أحول بصرى عنه .

قالت آجلايا :

— أنا أيضا ما كان لى أن أستطيع ان أحول عنه بصرى لو أتيح لى ان أشهده !

— الناس هنالك لا يحبون للنساء ان تجيء لترى هذه المشاهد ، حتى انهم يتحدثون عن أمثال هاته النساء فى الجرائد .

— ذلك لأنهم يرون أن هذا ليس من شأن النساء ، فكأنهم يريدون ان يقولوا ويعنى ان يبرروا ان هذا من شأن الرجال وحدهم . يا للمنطق العجيب ! لا شك انك تشاطرهم رأيهم .

قالت آديلائيدا مقاطعة :

— اقصص علينا حادثة تنفيذ الحكم بالاعدام !

قال الأمير مضطربا :

— ما كنت لأتمنى أن أفعل هذا ، اليوم . . .

واكفهر وجهه .

فتدخلت آجلايا اللاذعة مرة اخرى تقول :

— لكأنك تبخل بحديثك .

— لا بل لأننى عن ذلك الاعدام نفسه انما تحدثت منذ هنيهة .

— الى من تحدثت عنه ؟

— الى خادمكم ، بينما كنت أنتظر أن أستقبل . . .

قالت النساء الاربع تسأله :

— أى خادم ؟

— ذلك الذى يمكث فى حجرة المدخل . . . رجل شائب أحمر الوجه ، كنت فى حجرة المدخل أنتظر أن يستقبلنى ايفان فيدوروفتش .

قالت الجنرالة :

— غريب !

وقالت آجلايا :

— الأمير رجل ديموقراطى . ولكن ما دمت قد قصصت الأمر على ألكسى ، فانك لا تستطيع أن تضنّ به علينا .

وعادت آديلائيدا تقول :

— اننى أحرص على سماع هذه القصة حرصا مطلقا !

قال الأمير وهو يلتفت اليها وينتعش قليلا (الحق ان الأمير كان يتحمس بسرعة واضحة وثقة تامة) :

— منذ قليل ، خطر ببالى فعلا ، حين سألتنى عن موضوع للوحة ترسمينها خطر ببالى فعلا أن تصورى وجه رجل محكوم عليه بالاعدام ، وذلك فى الدقيقة التى تسبق سقوط النصل القاطع على عنقه ، أى بينما هو ما يزال واقفا على المقصلة قبل ان يضطجع على اللوح .

سألت آديلائيدا :

— كيف ؟ الوجه ؟ الوجه وحده ؟ ان هذا ليكون

موضوعا غريبا شاذا ! . . أين اللوحة فى هذا ؟

قال الأمير مصرا بحرارة :

— لا أدرى ، ولكن لم لا ؟ لقد رأيت فى مدينة بال ، منذ مدة غير طويلة ، لوحة مماثلة . وددت كثيرا لو احدثك عنها . . . وسأفعل ذلك فى يوم من الأيام . . . لقد أثرت فى نفسى تأثيرا كبيرا .

قالت آديلائيدا :

— ستحدثنا حتما عن اللوحة التى رأيتها بمدينة بال ، ولكن فيما بعد . أما الآن فاشرح لى لوحة الاعدام تلك . هل تستطيع أن تصفها كما تتخيلها ؟ كيف يرسم ذلك الوجه ؟ أيرسم الوجه وحده ، هكذا ؟ وكيف هو ، ذلك الوجه ؟

بدأ الأمير يتكلم فقال بكل ما يملك من سلامة الطوية وحسن الارادة ، تقوده ذكرياته وكأنه نسى كل ما عدا ذلك فورا :

— حدث ذلك قبل الموت بدقيقة . ففى اللحظة التى وضع فيها قدمه على المقصلة بعد ان اجتاز السلّم ، فى تلك اللحظة التفت نحوى ، فرأيت وجهه وفهمت كل شىء . . . ولكن كيف السبيل الى وصف هذا بكلمات ؟ اننى لأتمنى كثيرا أن يتاح لك أنت أو أن يتاح لرسام آخر تصوير ذلك الوجه ! الأفضل ان تكونى أنت هذا الرسام ! ولقد قدرت أنا فى تلك اللحظة بالذات أن هذه اللوحة يمكن أن تكون مفيدة . ويجب على المرء أن يطلع على كل ما سبق ذلك ، كل ما سبقه ، كله ! كان الرجل يعيش فى السجن ، وكان يقدر أنه سيعيش أسبوعا آخر على الأقل ،

قبل أن ينفذ فيه الحكم : كان يعول على أن الاجراءات الشكلية طويلة ، وعلى ان الأوراق سترسل الى جهة ما فلا تعود منها قبل انقضاء أسبوع . ولكن اتفق أن اختصرت الاجراءات لسبب من الأسباب . كان نائما فى الساعة الخامسة من الصباح . الوقت نهاية أكتوبر . وفى الساعة الخامسة من الصباح يكون ظلام ويكون برد . دخل رئيس السجانين مع الحرس بغير ضجة ، ولمس كتفه لمسا خفيفا . نهض الرجل على كوعه ورأى النور ، فسأل : «ماذا جرى ؟» فقيل له : «الاعدام فى الساعة العاشرة» . كان لا يزال النوم فى عينيه ، ولم يصدق أذنيه ، وحاول ان يناقش ، فقال أن الأوراق لا يمكن أن تصل قبل أسبوع آخر . ولكنه حين استيقظ تماما كف عن النقاش وصمت . ذلك ما روى هناك . وقال الرجل : «ولكن هذه قسوة ، هكذا ، على حين فجأة . . .» ثم صمت من جديد ، وأصبح لا يريد أن يقول شيئا . انقضت ثلاث ساعات أو أربع فى الاجراءات المعهودة : الكاهن ، الافطار الذى يشتمل على خمرة ولحم وقهوة (أليس هذا استهزاء ؟ لو فكرنا فى الأمر مليا لرأينا أنه قسوة ! ومع ذلك يفعله هؤلاء لبساطة قلوبهم موقنين يقينا تاما من أنه رأفة انسانية !) . ثم بدأ تنظيف الرجل (هل تعلمين ما هو التنظيف الذى يؤخذ به رجل محكوم عليه بالاعدام ؟) ثم أقتيد خلال المدينة الى المقصلة . . . أظن أن المرء ، هناك أيضا ، حين يقتاد الى المقصلة ، لا بد أن يعتقد ان حياة لا نهاية لطولها ما تزال امامه . يخيل الىَّ أنه لا بد أن يقول لنفسه أثناء الطريق حتما : ما زال وقت طويل ، أمامى ثلاثة شوارع أعيشها . سأجتاز

هذا الشارع ، ثم الآخر ، وبعده ذلك الشارع الذى فيه دكان خبَّاز على اليمين . . . ما يزال هناك وقت قبل أن نصل الى دكان الخباز !» وفى كل جهة من حوله جمهور وصرخات وضوضاء وآلاف الوجوه وآلاف النظرات . ان عليه أن يحتمل ذلك كله ، وأن يحتمل خاصة هذه الفكرة : «هؤلاء ألوف من الناس لن يعدم منهم واحد ، أما أنا فاعدم !» . على كل حال ، هذا كله يسبق الدقيقة الفاصلة . ولكن ها هو ذا السلّم الذى يؤدى الى المقصلة ، وها هو ذا الرجل يقف أمام هذا السلّم فيأخذ يبكى فجأة ، مع أنه كان قبل ذلك رجلا يزخر فحولة وقوة . هو واحد من قطاع الطرق كما قيل . كان الكاهن يجلس قربه طوال الطريق على العربة ، ولا ينفك يكلمه . أغلب الظن أن الرجل لم يسمع من كلام الكاهن شيئا . لقد بدأ يصغى اليه فى البداية ، ولكنه منذ سمع الكلمات الأولى أصبح لا يفهم . نعم ، لا بد أن الأمور جرت على هذا النحو . وها هو ذا يصعد السلّم أخيرا (ان أرجلهم موثقة فهم لا يستطيعون أن يتقدموا الا بخطى صغيرة) . كان الكاهن ، ولعله رجل ذكى ، قد كف عن تكليمه ، وراح يمد اليه الصليب ليقبله . كان الرجل منذ وصل الى السلّم شاحبا جدا ، أما الآن على المقصلة ، فقد أصبح شحوبه كالبياض . لعل ساقيه كانتا لا تستطيعان حمله ؛ انهما متصلبتان كالخشب ؛ ولا بد أنه كان يشعر بغثيان ، كأن شيئا كان يعبث بحلقه . هل أحسست بشىء من هذا يوما حين كنت تخافين ، أو فى لحظات مرعبة يحتفظ فيها المرء بوعيه كاملا ، ولكنه يصبح بغير قدرة البتة ؟ يخيل الىَّ أن الانسان ، حين يداهمه

هلاك لا سبيل الى تحاشيه ، كانهيار منزل فوقه مثلا ، انما يشعر عندئذ برغبة لا تقاوم فى أن يقعد مغمضا عينيه ، وينتظر ، وليحدث ما يحدث ! . . فى مثل هذه اللحظات من الضعف والوهن انما كان الكاهن يبادر ، بحركة سريعة ودون كلام ، فيقرب الصليب من شفتى الرجل لتقبيله ، وهو صليب صغير من فضة ، ذو اربعة أفرع ، يقربه مرارا كثيرة ، فى كل لحظة . فمتى لامس الصليب الشفتين فتح الرجل عينيه وارتد الى الحياة لحظات قليلة واستأنفت ساقاه السير . كان يقبل الصليب فى نهم وشراهة ، بسرعة شديدة ، كأنه يستعجل التزود بشىء ما ، لحاجة ما ، ولكننى لا أصدق أن يكون قادرا فى تلك الدقيقة على أن يشعر بعاطفة دينية . وظل الحال على هذا المنوال الى أن رقد الرجل على لوح الخشب الذى تسقط عليه سكين المقصلة . . . هناك أمر غريب : ان من النادر أن يغمى على المرء اثناء هذه الثوانى الاخيرة ! بالعكس : الدماغ يحيا عندئذ حياة أشد ، وأنشط ، بل وأقوى ، كآلة مندفعة فى عملها . اننى أتخيل قرعات الخواطر المختلفة التى تقرع الرأس وتظل ناقصة ، وربما كانت غريبة بل ومضحكة : «هذا الرجل الذى ينظر الىَّ . . . ان له ثؤلولا فى جبينه . والجلاد : ان أحد أزرار سترته صدىء» . . . وفى مثل هذه اللحظات يعرف المرء كل شىء ، ويتذكر كل شىء . هناك نقطة وحيدة لا يمكن نسيانها ولا يمكن تجنبها باغماء ، وحول هذه النقطة انما يدور كل شىء . تصورى أن الأمر يظل على هذا النحو الى آخر ربع ثانية ، حين يكون الرأس قد أصبح تحت السكين ، فالرجل ينتظر . . **ويعلم** ، وفجأة يسمع انزلاق

الحديد فوقه ! ذلك انه يسمعه حتما ! لو كنت أنا الشخص الذى ينفذ فيه الاعدام لتعمدت أن أتنصت ، ولسمعت صوت انزلاق الحديد ! قد لا يدوم هذا الا معشار ثانية ، ولكن المرء يسمع الصوت حتما ! تصورى أن هناك من يدعون أن الرأس ، بعد انقطاعه وسقوطه ، ربما ظل يعلم خلال ثانية أنه انقطع وسقط ! . . يا له من احساس ! . . وماذا لو دام هذا الاحساس خمس ثوان ؟ . . ارسمى المقصلة بحيث لا يرى الناظر على المستوى الأول ، الا تلك الدرجة الاخيرة التى يضع عليها الجانى قدمه . انه يضع قدمه على هذه الدرجة ، فنرى فى اللوحة رأسه ، وجهه الأبيض كالورقة ، والصليب الذى يمده اليه الكاهن . وهو يمد شفتيه الزرقاوين بنهم وينظر ، وهو **يعرف كل شىء** . ان اللوحة هى ذلك الصليب وذلك الرأس . أما رأس الكاهن ، ورأس الجلاد ، ورأسا مساعديه ، ورؤوس بعض المشاهدين ، تحت ، وكذلك أعينهم . . . كل ذلك فيمكن أن يضاف الى اللوحة خلفية أو ملحقات أو نوعا من ضباب . . . هكذا أتخيل أنا تلك اللوحة .

صمت الأمير ، ونظر الى المستمعات .

قالت ألكسندرا وكأنها تخاطب نفسها :

— ليس فى هذا شىء من طمأنينة طبعا !

واقترحت آديلائيدا :

— والآن اقصص علينا كيف وقعت فى الغرام .

فنظر اليها الأمير مدهوشا ، فقالت آديلائيدا بنوع من التسرع :

— اسمع . يجب عليك أيضا أن تحدثنا عن لوحة

مدينة بال تلك ؛ أما الآن فأريد ان أسمعك تقص علينا حكاية وقوعك فى الغرام . لا تنكر ، فلقد وقعت فى الغرام . ثم أنك متى قصصت شيئا ، كففت عن أن تكون فيلسوفا .

وسألته آجلايا فجأة :

— انك متى فرغت من حكاية شىء تشعر فورا بالخزى مما قلته . فلماذا ؟

قالت الجنرالة مقاطعة بلهجة حازمة وهى تلقى على آجلايا نظرة استياء :

— هذا غباء منك أخيرا !

فقالت ألكسندرا مؤيدة :

— نعم ، هذا خروج على العقل .

فقالت الجنرالة ملتفتة نحو الأمير :

— لا تصدقها يا أمير . انها تفعل ذلك عامدة بدافع الخبث والمكر . ليست قليلة الأدب الى هذا الحد ! لا تذهبن بك الظنون كل مذهب اذا رأيتهن يناكدنك هذه المناكدة ! لا شك أن فى رؤوسهن أفكارا مبيتة ، ولكنهن يحببنك منذ الآن . أنا اعرف وجوههن .

قال الأمير ملحا على هذه الأقوال :

— أنا أيضا اعرف وجوههن .

قالت آديلائيدا باستطلاع وفضول :

— كيف ؟

وقالت البنتان الأخريان مشوقتين أيضا :

— ماذا تعرف عن وجوهنا ؟

لكن الأمير ظل صامتا جادا . وانتظرت البنات جميعا جوابه . ثم قال فى رفق وجد :

— سأحكى لكن هذا فيما بعد .

صاحت آجلايا :

— أنت تريد حتما أن تستثير فضولنا ! يا للتعاظم والتفاخم !

وأسرعت آديلائيدا تقول :

— طيب . ولكن ما دمت من علماء الفراسة ، فلا بد أنك كنت فى يوم من الأيام عاشقا مغرما . لم يخطئ اذن ظنى . فاقصص علينا قصة عشقك .

قال الأمير بذلك الصوت العذب الرصين نفسه :

— أنا لم أكن عاشقا . وانما . . . وانما كنت سعيدا بطريقة أخرى .

— كيف ؟ بماذا ؟

— طيب . سأحكى لكن .

بذلك تمتم الأمير وقد بدا عليه التأمل العميق .

الفصل السادس

بدأ الأمير يتكلم فقال :

— فى نظراتكن الىَّ من شدة الاستطلاع ما يدل على أنكن قد تغضبن اذا أنا لم ألب رغبتكن فى ارواء هذا الاستطلاع . — ثم أسرع يقول مبتسما : — لا ، لا ، كنت أمزح . كان هناك . . . كان هناك أطفال وكنت أقضى وقتى كله مع الأطفال ، معهم وحدهم . هم أطفال القرية ، هم كل العصبة التى تذهب الى المدرسة . ليس معنى هذا أننى عنيت بتعليمهم ، فلقد كان يعلمهم معلم هو جول تيبو . جائز اننى كنت أعلمهم قليلا ، ولكن المهم أننى كنت أقضى وقتى كله معهم ، وفى ذلك انما أنفقت السنين الأربع التى أمضيتها هناك . لم أكن فى حاجة الى أى شىء آخر . وكنت أقول لهم كل شىء ، ولا أخفى عنهم شيئا . وقد أصبح آباؤهم وأمهاتهم وأسرهم يحقدون علىَّ آخر الأمر ، لأن الأولاد أصبحوا لا يستغنون عنى ، فهم دائما حولى . أما المعلم فقد أصبح عدوى الأكبر . كان لى أعداء كثيرون ، بسبب الأطفال . حتى أن شنايدر نفسه أخذ يلومنى . فما الذى كانوا يخشونه هذه الخشية كلها ؟ ان فى وسع المرء أن يقول للطفل كل شىء ، كل شىء . لشد ما أدهشنى دائما مدى جهل الكبار بالصغار ، بل ومدى جهل الآباء بأولادهم أنفسهم . لا ينبغى أن نخفى عن الأطفال شيئا بحجة أنهم صغار ، وأنهم لم يأزف الحين الذى يجب فيه أن يعلموا . يا لها من فكرة

مؤسفة ضارة ! ان الأطفال يدركون بسهولة عظيمة أن آباءهم يرونهم أصغر سنا من أن يستطيعوا الفهم ، مع أنهم فى الواقع يفهمون كل شىء . ان الكبار يجهلون أن الطفل يستطيع حتى فى أخطر ظرف أن يسدى بنصيحة رائعة . وحين ينظر اليك هذا الطائر الصغير الجميل ، حين ينظر اليك سعيدا واثقا ، فهل تستطيع أن تغشه دون أن تشعر بالخزى ؟ اننى أسميهم طيورا صغيرة ، لأن الطيور خير ما فى العالم ! أريد أن أقول أن الناس حقدوا على فى القرية ، بسبب شىء معيَّن على وجه التخصيص . . . أما المعلم تيبو ، فقد كان حقده غيرة وحسدا . كان فى أول الأمر لا يزيد على أن يهز رأسه ويدهش حين يرى أن الأطفال يفهمون عنى فهما واضحا ذلك الوضوح كله ، مع أنهم لا يكادون يفهمون شيئا مما كان يعلمهم . ثم أخذ يسخر منى ويتهكم علىَّ ، حين قلت له أننا لا نملك ، لا أنا ولا هو ، أى شىء نعلمهم أياه ، وأنهم هم الذين يستطيعون بالأحرى أن يعلمونا شيئا ما . كيف أمكنه أن يغار منى وأن يشهِّر بى مع أنه كان يعيش هو نفسه مع الأطفال ؟ ان المرء لتبرأ نفسه وتشفى حين يعيش مع الأطفال . . . كان يوجد فى مصح شنايدر مريض من المرضى كان انسانا شقيا كل الشقاء بائسا كل البؤس . ان شقاءه يبلغ من الهول والفظاعة انه قد لا يكون له شبيه أو نظير . كان يعالج هناك معالجة مجنون . ولكننى أعتقد أنه لم يكن مجنونا ، وانما كان انسانا يتألم ألما رهيبا لا أكثر . . . فذلك هو مرضه كله . ليتكن تعلمن ماذا أصبح أطفالنا عنده آخر الأمر . . . ولكن الأفضل أن أحدثكن عن هذا المريض فيما بعد . أما

الآن فسأحكى لكن كيف بدأ هذا كله . كان الأطفال فى البداية لا يحبوننى . ذلك اننى كنت كبيرا جدا ، وكنت أخرق جدا . وأنا أعلم أننى لست وسيم الطلعة . . . وهنالك عامل آخر هو أننى أجنبى . كان الاطفال فى البداية يستهزئون بى ، بل أنهم رمونى بالحجارة حين رأونى أقبل مارى . ولم أكن قد قبلتها الا مرة واحدة على كل حال . . . — وهنا لاحظ الأمير ابتسامات تلم بأفواه مستمعاته ، فأسرع يوقف التبسم قائلا : — لا ، لا تضحكن . لم يكن ذلك حبا . ليتكن تعرفن مدى تعاسة تلك المخلوقة ، اذن لرثيتن لحالها مثلى . كانت من قريتنا . وكانت أمها امرأة عجوزا دبت فيها الشيخوخة . وقد أذن لها عمدة القرية بأن تحول احدى نافذتى كوخها الحقير الى بسطة تعرض عليها ما تبيعه من بريم وخيط وتبغ وصابون بقروش قليلة تكاد تقيم بها أودها . كانت الأم مريضة متورمة الساقين دائما ، فهى تظل قابعة وراء النافذة طول الوقت . وكانت ابنتها مارى ، وهى فى نحو العشرين من عمرها ، ضعيفة نحيلة . لقد أضواها مرض السل منذ مدة طويلة ، ولكن ذلك لم يكن يمنعها من القيام بأعمال الخدمة المضنية طوال اليوم فى دور مختلفة . كانت تغسل الأرض والملابس وتكنس الاحواش ، وتعتنى بالبهائم فى الحظائر . وقد أغواها فرنسى هو بائع جوال فأخذها معه ثم لم يلبث ان تركها فى عرض الطريق بعد أسبوع واحد ، ومضى فى سبيله . فعادت الى البيت ، بعد ان تسولت واستجدت طوال الطريق ، عادت رثة الأسمال ، قذرة الهيئة ، مثقبة الحذائين . لقد ظلت تسير على قدميها أسبوعا كاملا ، وتنام فى الخلاء ،

فأصابها أثناء ذلك برد ، كانت قدماها مجرحتين مقرحتين ، وكانت يداها متورمتين متشققتين . ثم أنها لم تكن جميلة فى يوم من الأيام ، باستثناء عينيها الطيبتين العذبتين البريئتين . وكانت تصمت صمتا عميقا . ذات مرة ، فى الماضى ، أخذت تغنى فجأة أثناء عملها . انى لأتذكر الآن أن جميع الناس قد دهشوا عندئذ وسخروا منها : «هه ! مارى تغنى ؟» فخجلت خجلا شديدا ، ومنذ ذلك اليوم صمتت الى الأبد . فى ذلك الأوان كان الناس ما يزالون يعاملونها معاملة لطيفة ، ولكنها حين عادت مريضة ممزقة لم يشعر أحد نحوها بأى عطف أو شفقة . ما أقساهم فى مثل هذه الظروف ! ما أفظع ما تتصف به مفاهيمهم من عنف لا رحمة فيه ولا رأفة ! أمها نفسها كانت أول من استقبلها بغضب واحتقار . قالت لها : «لقد لطخت شرفى بالعار !» كانت الأم أول من أسلمها للناس يعيرونها ويخزونها . فحين عرف سكان القرية أن مارى رجعت ، تواعدوا جميعهم تقريبا على أن يلتقوا فى البيت الحقير الذى تسكنه العجوز : شيوخ وأطفال ونساء وفتيات : جمهور كبير شره متعجل ! كانت مارى مستلقية على الأرض ، عند قدمى العجوز ، جاثعة ، رثة الثياب . وكانت تبكى . فلما رأت جميع هؤلاء الناس أخفت وجهها فى شعرها المنفوش وتسطحت مزيدا من التسطح . كان الجميع ينظرون اليها نظرتهم الى أفعى . العجائز يقرعونها ويشتمونها ، والشباب يسخرون منها ، والنساء يحقرنها ويؤنبنها وينظرن اليها باشمئزاز وتقزز نظرتهن الى عنكبوت . لقد سمحت الأم بهذا كله ، وكانت تهز رأسها مؤيدة محبذة . كان فى ذلك الحين قد تفاقم مرضها تفاقما

شديدا حتى لكأنها تحتضر . وقد ماتت فعلا بعد شهرين . كانت تعلم أنها ستموت قريبا ، ولكنها الى أن ماتت لم تفكر فى أن تصالح ابنتها . حتى أنها اصبحت لا تكلمها ، وصارت تجبرها على أن تبيت عند المدخل ، ولا تكاد تطعمها . وكانت الأم فى حاجة دائمة الى وضع قدميها المريضتين فى ماء ساخن ، فكانت مارى تهيئ لها ذلك كل يوم ، وتعتنى بها ، والعجوز تقبل هذه العناية صامتة ، فلم تقل لمارى كلمة لطيفة فى لحظة من اللحظات . لكن مارى كانت تتحمل كل شىء . وبعد ذلك ، حين تعرفت الى مارى ، لاحظت أنها هى نفسها كانت تؤيد وتحبذ المعاملة التى عوملت بها ، وتعد نفسها أحقر الناس طرا . وحين أصبحت الأم لا تستطيع أن تنهض ، أصبحت عجائز القرية تأتى اليها لتعتنى بها واحدة بعد واحدة ، كما جرت العادة بذلك . ومنذ ذلك الوقت أصبح لا يطعم أحد مارى قط ، وأصبح الناس فى القرية يطردونها ، وأصبح الجميع يرفضون أن يعهدوا اليها بعمل ، حتى لكأنهم يبصقون عليها ، وصار الرجال كأنهم لا يعدونها امرأة فهم يوجهون لها كلمات بذيئة فاحشة . ولكنهم فى بعض الاحيان ، فى القليل النادر ، حين يكونون سكارى يوم الأحد ، يرمون لها على الارض نقودا قليلة ليضحكوا ، فتجمعها مارى صامتة . وكانت منذ ذلك الحين قد أخذت تبصق دما . وصارت أسمالها آخر الأمر قطعا ممزقة ، حتى أصبحت تستحى أن تظهر للناس فى القرية . وكانت منذ عودتها قد أخذت تمشى حافية القدمين . وفى ذلك الأوان خاصة انما اندفع الأطفال — وهم عصبة يبلغ عددهم قرابة

أربعين تلميذا — اندفعوا يهاجمونها بضراوة ، حتى ليرمونها بالوحل . طلبت مارى من الراعى أن يسمح لها بحراسة الأبقار ، ولكن الراعى طردها . ومع ذلك أخذت تتبع القطيع الى المرعى كل صباح ، من تلقاء نفسها دون أن يأذن لها الراعى بذلك . واذ لاحظ الراعى أنها تنفعه فى عمله كثيرا ، أصبح لا يطردها . حتى أنه أصبح يعطيها بقايا غدائه من الجبن والخبز أحيانا . وكان يعد ذلك احسانا منه ونعمة كبرى يمن بها عليها . وحين ماتت أمها لم يخجل القس من أن يذل مارى وأن يهينها على مسمع ومرأى من جميع الناس . كانت مارى واقفة وراء التابوت بأطمارها البالية تبكى . وكان الناس قد توافدوا ذرافات لينظروا اليها سائرة وراء النعش ، باكية . ففى تلك اللحظة قال القس ، وهو رجل ما يزال شابا ولا يطمح الى شىء الا أن يكون واعظا كبيرا ، قال وهو يومئ الى مارى : «هذه هى التى كانت سبب وفاة تلك المرأة المحترمة (وهذا خطأ ، فالعجوز كانت مريضة منذ سنتين) . «ها هى ذى أمامكم لا تجرؤ أن ترفع عينيها لأن الله قد دمغها الى الأبد ، ها هى ذى حافية القدمين ممزقة الأسمال ، عبرة لجميع اولئك الذين يفقدون الفضيلة ! ومن هى ؟ هى ابنتها نفسها !» ، وهلم جرا وهلم جرا . . . تصورن أن هذه الدناوة من جهة القس قد أرضت جميع الناس تقريبا . الا أن شيئا قد حدث فى تلك اللحظة . . . هو أن الأطفال قد تحزبوا لمارى ، لانهم فى ذلك الأوان كانوا قد انحازوا جميعا الى صفى وأخذوا يحبون مارى . اليكن تفصيل ما حدث . كنت قد أردت أن أصنع شيئا لمارى . كانت

مارى فى حاجة ماسة الى شىء من مال ، ولكننى لم أكن أملك هنالك قرشا واحدا . لم أكن أملك الا دبوسا له فص من ماس . فلما مر بالقرية بائع مقايض يتنقل من قرية الى قرية ، بعته الدبوس بثمانية فرنكات . لا شك أن الدبوس تساوى قيمته اربعين فرنكا . وأخذت أبحث عن مارى ، وحدى ، مدة طويلة . فالتقيت بها أخيرا وراء سور القرية فى ممر بين الجبال قرب شجرة . فأعطيتها الثمانية فرنكات ، وأوصيتها بان تحرص عليها لأننى لن أملك غيرها . ثم قبلتها وطلبت منها الا يذهب بها الظن الى أننى أطمع منها فى سوء ، ولم أقبلها لأننى مغرم بها ، بل لأننى أرثى لحالها وأرأف بها كثيرا ، وقلت لها أننى لم أعدها فى يوم من الأيام آثمة بل تعيسة . كنت أرغب رغبة قوية فى مواساتها وتعزيتها ، وفى اقناعها بأنها يجب عليها ألا تشعر بالمذلة تجاه الآخرين ، ولكنها لم تفهم عنى حتما ؛ وقد أحسست أنا بذلك على الفور ، رغم أنها ظلت صامتة طول الوقت تقريبا ، مطرقة الى الارض ، خافضة عينيها ، خجلى الى أبعد حدود الخجل . فلما فرغت من كلامى قبلت يدى ، فأردت أن أقبل يدها توا ، لكنها انتزعت يدها بسرعة . وفى تلك اللحظة انما فاجأتنا عصبة الأطفال . وقد علمت فيما بعد أنهم كانوا يراقبوننى منذ مدة طويلة . أخذ الأطفال يصفرون ، ويصفقون بأيديهم ، ويضحكون ، بينما كانت مارى تهرب راكضة . حاولت أن أكلمهم ، لكنهم رمونى بالحجارة . وفى ذلك اليوم نفسه علم جميع الناس بالنبأ ، علمت به القرية كلها . وسقط هذا كله مرة أخرى على رأس مارى . فأخذوا يحتقرونها

مزيدا من الاحتقار ؛ حتى لقد سمعت أنهم يريدون معاقبتها ، ولكن الأمر لم يتجاوز حدود الكلام ولله الحمد ! غير أن الأولاد لم يتركوا لها بعد ذلك اليوم راحة . أصبحوا يتحرشون بها أكثر مما فى الماضى ، وأخذوا يرمونها بالوحل . وصارت حين يلاحقونها تحاول أن تهرب منهم ، ولكن سرعان ما كانت أنفاسها تنقطع بسبب مرض صدرها . صاروا لا يتركونها ، وأخذوا يقذفونها بأنواع السباب والشتائم . حتى لقد أضطررت مرة أن أقتتل معهم . وحاولت بعد ذلك ان أكلمهم . وصرت أحدثهم كل يوم ، فى كل مناسبة . فكانوا يقفون ليصغوا الى كلامى مع استمرارهم فى اطلاق الشتائم صراخا عاليا . حدثتهم عن مدى الشقاء الذى تعانيه مارى . فما هى الا فترة قصيرة حتى اخذوا يكفون عن اهانتى ، وتعودوا أن ينصرفوا صامتين . وتوصلنا أخيرا الى أن نبادل الحديث . لم أخف عنهم شيئا ، بل حكيت لهم كل شىء . فكانوا ينصتون الىَّ بكثير من الاهتمام ، وسرعان ما أخذوا يرثون لحال مارى ، ويشفقون عليها . حتى لقد صار بعضهم يحيونها تحية لطيفة اذا التقوا بها عابرين . تلكنَّ عادة هناك : يحيى الناس بعضهم بعضا اذا تلاقوا ، سواء أكانوا متعارفين أم غير متعارفين . تخيلن دهشة مارى . فى ذات يوم حملت اليها طفلتان طعاما ، ثم جاءتا تروبان لى ذلك . قالتا أن مارى أخذت تبكى ، وأنهما تحبانها كثيرا . ولم تنقض مدة طويلة حتى أخذ جميع الأطفال يحبونها وحتى أخذوا يحبوننى أنا أيضا فى الوقت نفسه . أصبحوا يجيئون الى أحيانا كثيرة ، ويطلبون منى دائما أن أحكى لهم شيئا ما . أظن أننى كنت أجيد الحكى ،

لانهم كانوا يحبون كثيرا أن يستمعوا لى . ثم أصبحت لا أدرس ولا أقرأ الا لأستطيع أن أحكى لهم بعد ذلك ما درست وما قرأت . وعلى هذا النحو انما انقضت السنون الثلاث الأخيرة من حياتى هناك . وفيما بعد ، حين أخذ علىَّ الناس — ومنهم شنايدر — اننى أكلم الأطفال الصغار كما لو كانوا أشخاصا كبارا ، دون أن أخفى عنهم شيئا ، كنت أجيبهم جميعا بأن من العار أن نكذب على الأطفال ، وبأن الأطفال يعرفون كل شىء حتى دون أن نحدثهم عنه ، مهما نحاول اخفاءه عنهم ، وبأن ما نخفيه عنهم قد يتعلمونه تعلما فاسدا ، أما أنا فأطلعهم عليه بطريقة مناسبة . وحسب الانسان أن يتذكر طفولته هو حتى يدرك صحة ما أقول . لكننى لم أفلح فى اقناعهم . . . كنت قد قبلت مارى قبل موت أمها بنحو اسبوعين . ولذلك حين ألقى القس خطبته ، كان جميع الأطفال قد انحازوا الى صفى . وأسرعت أقص عليهم وأشرح لهم ما فعله القس . فغضبوا جميعا عليه ، حتى أن بعضهم بلغوا من غضبهم عليه أنهم كسروا له زجاج بيته بالحجارة وقد أوقفتهم عن ذلك ، مبرهنا لهم على أن عملهم هذا شر . ولكن أهل القرية كانوا قد علموا بكل شىء ، وعندئذ انما أخذوا يتهمونى بأننى أضل الأولاد عن الطريق القويم ؛ وعلموا بعد ذلك أن الأولاد أصبحوا يحبون مارى ، فقلقوا قلقا شديدا . ولكن مارى كانت قد سعدت كثيرا . وبلغ أهل القرية من القلق أنهم حظروا على أولادهم أن يقابلوا مارى ، ولكن الأولاد كانوا يلحقون بها خفية الى حيث توجد مع القطيع فى مكان بعيد يقع على مسافة نصف فرسخ من القرية

تقريبا ، فبعضهم يحمل اليها حلوى ، وبعضهم يجىء لا لشىء الا أن يعانقها ويقول لها : "Je vous aime, Marie!" [1] ، ثم يعـــودون الى القريـــة راكضين ركضا سريعا . غير أن مارى أوشكت أن تصبح مجنونة من هذه السعادة المباغتة . فأنها ما كانت لتجرؤ أن تحلم بمثل هذا الانقلاب فى يوم من الأيام . والحق أنها أصبحت مضطربة فرحة فى آن واحد . أما الأطفال ، ولا سيما البنات ، فقد كانوا يحبون خاصة أن يذهبوا اليها ليقولوا لها أننى أحبها ، وأننى أحدثهم عنها كثيرا . وحكوا لها أنهم منى بالذات علموا كل شىء عنها ، وأنهم الآن يحبونها ويشفقون عليها ، وأنهم سيظلون كذلك دائما ؛ وكانوا بعد ذلك يجيئون الىَّ بوجوه فرحة وهيئات منهمكة ليقولوا لى أنهم رأوا مارى وأن مارى تسلم علىَّ . وكنت أذهب فى المساء الى الشلال . ان هناك ركنا تخفيه أشجار الحور عن القرية اخفاء تاما . فالى هناك كان يجىء الأطفال فى المساء ليلتقوا بى ، حتى أن بعضهم كان يجىء خفية وسرا . أعتقد أن حبى لمارى كان يسعدهم أكبر السعادة ؛ وكان هذا فى الواقع هو الأمر الوحيد الذى كذبت عليهم فيه طول مدة اقامتى هناك . فاننى لم أحاول أن أبدد أوهامهم شارحا لهم أننى لا أحب مارى ، أى أننى لست مغرما بها ، وانما أنا أرثى لحالها . كنت الاحظ أنهم يفضلون أن يكون الأمر على نحو ما تصوروا وقرروا . كذلك سكتُّ وتركت لهم أن يظنوا أنهم حزروا الحقيقة . وكانت قلوب هؤلاء الصغار تبلغ من رقة العاطفة والحنان أنهم بدا لهم ، فيما بدا لهم من أمور ، أنه

[1] «أحبك يا مارى» . (بالفرنسية فى الاصل) .

اذا كان صديقهم Léon يحب مارى هذا الحب كله ، فلا يجوز أن تظل مارى رثة الثياب الى هذا الحد ، ولا أن تمشى حافية القدمين . تصورْنَ أنهم جاؤوها بحذاءين وجوربين وملابس ، بل جاءوها أيضا بثوب . أما كيف استطاعوا ذلك ، فهذا ما لا أفهمه . لقد تكاتفت العصبة كلها على انفاذ الأمر . فاذا سألتهم لم يزيدوا على أن يضحكوا ، وكانت البنات تصفّق بأيديها وتقبّلنى . وكان يتفق لى فى بعض الأحيان أيضا أن أرى مارى خفية . لقد تفاقم مرضها تفاقما شديدا ، فلا تكاد تستطيع أن تمشى . ثم أصبحت أخيرا لا تنفع الراعى فى شىء ، لكنها ظلت تتبع القطيع كل صباح ، وتجلس منتحية منزوية . كان هنالك صخرة تهبط هبوطا عموديا وفيها ما يشبه أن يكون مصطبة ناتئة ، فكانت مارى تجلس فى القاع على الصخرة مختفية من جميع الجهات ، وتلبث على هذه الحال لا تكاد تتحرك ، من الصباح حتى ساعة عودة القطيع الى القرية . لقد أوهنها السلُّ حتى صارت فى أغلب الأحيان تغمض عينيها وتستند الى الصخرة وتغفو غفوا ضعيفا وهى تتنفس بكثير من العناء . وقد بلغ وجهها من الهزال أنه أصبح أشبه بهيكل عظم ؛ وكان العرق يتصبب على جبينها وصدغيها . على هذه الحال كنت أجدها دائما . وكنت لا أجيئها الا للحظة قصيرة ، فقد كنت أنا أيضا أحرص على أن لا يرانى أحد . فما ان أظهر لها حتى تنتفض وتفتح عينيها وتهرع تقبّل يدىَّ . أصبحت لا أسحب يدىَّ حين تقبلهما ، فقد لاحظت أن تقبيل يدى يسعدها . وكانت ترتجف وترتعش وتبكى ما ظللت قريبا منها هناك . صحيح أنها حاولت أحيانا أن تتكلم ،

ولكن كان يصعب على المرء أن يفهم عنها . كانت فى بعض الأوقات كالمجنونة ، من فرط انفعالها الرهيب وانشداهها المذهل . وكان الأطفال يصحبوننى أحيانا . وقد ألفوا فى مثل تلك الأحوال أن يقفوا غير بعيد ، ليقوموا بمهمة الحراسة ويحمونا مما لا أدرى . كان ذلك يبهجهم كثيرا . حتى اذا انصرفنا بقيت مارى وحيدة من جديد ، لا تتحرك ، مغمضة العينين ، مسندة رأسها الى الصخرة . لعلها كانت تحلم . وفى ذات صباح لم تقو على أن تتبع القطيع ، ولبثت فى بيتها الصغير الخالى . وسرعان ما علم الأطفال بذلك ، فجاؤوا يزورونها فى النهار ، كلهم تقريبا . كانت مستلقية على سريرها وحيدة تماما . وانقضى يومان لا يعتنى بها اثناءهما الا الأطفال مناوبة . حتى اذا عرف أهل القرية بعد ذلك أن مارى تحتضر فعلا ، جاءت عجائز تسهر عليها . يبدو أن الناس فى القرية قد أخذوا يشفقون على مارى آخر الأمر . فقد أصبحوا ، على الأقل ، لا يحرّمون على أولادهم أن يروها ، ولا يؤنبونهم اذا هم رأوها . وكانت مارى طوال الوقت فى حالة غفو ، الا أن نومها كان مضطربا ، وكان يمزّق صدرَها سعال رهيب . وكانت العجائز تطرد الأولاد ، الا أن الأولاد يهرعون الى النافذة ولو لحظة قصيرة ليقولوا : "Bon jour, notre bonne Marie"[1] فكانت مارى ما ان تراهم أو تسمعهم حتى تنتعش ، فاذا هى تحاول أن تنهض على كوعها دون أن تستجيب لنهى العجائز ،

---

[1] «صباح الخير يا صديقتنا الطيبة مارى» . (بالفرنسية فى الاصل) .

واذا هى تحييهم بهزّ رأسها وتشكرهم . واستمر الأولاد على أن يأتوها بحلوى ، لكنها أصبحت لا تكاد تأكل من حلواهم شيئا . أؤكد لكنّ أنها بفضل الأولاد انما ماتت سعيدة . وبفضل الأولاد انما نسيت شقاءها الأسود ، كأنها حصلت على غفران خطاياها ، ذلك أنها ظلت الى النهاية تعتقد أنها آثمة كبيرة . كان الأولاد يتدافعون على نافذتها تدافع العصافير تلطم الزجاج بأجنحتها ، ويصيحون قائلين لها كل صباح : "Nous t'aimons, Marie" [1] وماتت مارى بسرعة . وكنت اظن أنها ستعيش زمنا أطول من ذلك كثيرا . عشية موتها ، عند غروب الشمس ، ذهبت أعودها . لا بد أنها تعرفتنى . صافحتها مرة أخيرة . ما كان أشد يبوسة يدها ! وفى الغداة جاء من يقول لى ان مارى ماتت ! أصبح يستحيل عندئذ ضبط الأطفال . غمروا تابوتها بالأزهار ، ووضعوا على رأسها اكليلا . وفى الكنيسة ، امتنع القس فى هذه المرة عن ذكر سوءاتها . ومهما يكن أمر ، فان الذين حضروا الدفن كانوا قلة قليلة هم عدد من الفضوليين . ولكن الأطفال هرعوا جميعا حين وجب حمل النعش . واذ كانوا لا يقوون على حمله فقد حاولوا أن يساعدوا وأن يعاونوا . وركضوا وراء النعش ، وكانوا جميعا يبكون . ومنذ ذلك الحين أصبح قبر مارى مزارا يحج اليه الأطفال . فهم فى كل سنة يغمرونه بالأزهار ، وقد زرعوا حوله أشجار ورد . ولكن منذ دُفنت مارى أخذ أهل القرية يضطهدوننى فى أمر الأولاد . وكان القس والمعلم أكبر المحرّضين على

---

[1] «نحن نحبك يا مارى» . (بالفرنسية فى الاصل) .

اضطهادى . حرّموا على الأولاد أن يرونى ، وحتى شنايدر وعد بأن يسهر على تنفيذ ذلك . لكننا كنا نستطيع أن يرى بعضنا بعضا ، فنتخاطب بالاشارات من بعيد . وحصلت على رسائلهم الصغيرة . ثم سوّيت الأمور من بعد ، غير أن ما حدث كان حسنا جدا : فبفضل تلك الاضطهادات ، اقتربت من الأطفال مزيدا من الاقتراب . حتى اننى فى السنة الأخيرة تصالحت تقريبا مع المعلم والقس . أما شنايدر ، فكان يكلمنى كثيرا ، ويناقش «مذهبى» المشئوم فى معاملة الأولاد . أى مذهب ؟ لقد أطلعنى شنايدر أخيرا على فكرة غريبة جدا كانت قد خطرت بباله — حدث هذا قبيل سفرى مباشرة — فقال لى انه مقتنع اقتناعا تاما بأننى أنا نفسى طفل حقا ، طفل من جميع النواحى ، واننى ليس لى من صفات الرجل البالغ الراشد الا القامة والوجه ، أما من ناحية النفس والطبع والتكوين وربما الذكاء ، فما أنا بالرجل الراشد ، واننى قد أظل على هذه الحال ولو عشت ستين عاما . ضحكتُ من كلامه ذاك . فلا شك أنه لم يكن على حق . والا ففى أى شىء يمكن أن أُعدَّ طفلا ؟ هناك شىء واحد صحيح ، هو اننى لا أحب صحبة الكبار فعلا ؛ لقد لاحظت هذا فى نفسى منذ مدة طويلة . وما زلت لا أحب صحبة الكبار ، وذلك لاننى لا أحسن أن أكون معهم . ومهما يظهروا لى من طيب ونبل ، فاننى أظل أشعر بضيق ما بقيت معهم ، حتى اذا استطعت أن أتركهم وأن أمضى الى رفاقى أحسست بارتياح وغبطة ؛ ورفاقى هم دائما أطفال ، لا لأننى أنا نفسى طفل ، بل لأنهم يجتذبوننى لا أكثر . اننى منذ

بداية اقامتى فى تلك القرية ، أثناء نزهاتى التى أقوم بها فى الجبل وحيدا حزينا ، كنت اذا التقيت أحيانا ، ولا سيما عند الظهر ، ساعة الخروج من المدرسة ، بتلك العصبة الصاخبة من الأطفال الذين يركضون حاملين حقائبهم وألواحهم ، صارخين ، ضاحكين ، لاعبين ، كنت أشعر بنفسى كلها تتجه اليهم وتندفع نحوهم على حين فجأة . لا أدرى كيف أفسِّر هذا وكيف اعلله ، ولكننى ما التقيت بهم مرة الا شعرت بسعادة قوية تملأ قلبى وتغمر نفسى . كنت أتوقف وأضحك سعادة حين أرى الى سيقانهم الصغيرة المتحركة النشيطة المتواثبة دائما ، وحين أرى هؤلاء الصبية والبنات يركضون معا ، وحين أراهم يضحكون أو يبكون (ذلك أن بعضهم يكونون قد اتسع وقتهم أثناء الطريق من المدرسة الى المنزل ، لأن يتضاربوا ويبكوا ، ثم يتصالحوا ويستأنفوا لعبهم) . كنت عندئذ أنسى حزنى كله . وبعد ذلك ، طوال تلك السنين الثلاث ، أصبحت لا أستطيع حتى أن أفهم كيف ولماذا يمكن أن يشعر البشر بالضجر والسأم ؟ لقد كان مصيرى كله ملك الأطفال . لم أفكر يوما فى أن أترك تلك القرية ، ولا خطر ببالى ساعة اننى أستطيع أن أعود الى روسيا فى يوم من الأيام . كان يخيَّل الىَّ أننى مقيم هناك الى الأبد ، لكننى فهمت أخيرا أننى لا أستطيع أن أكون عالة على شنايدر ؛ وفى ذلك الأوان انما حدث أمر يبلغ من خطورة الشأن ، فيما يظهر ، أن شنايدر نفسه استحثنى على الرحيل ، وكتب الى هنا باسمى . سوف أرى ما هو الأمر ، وسوف أطلب النصح . ولعل مصيرى يتغير بذلك تغيرا تاما ، ولكن المسألة ليست هنا ،

وليس هذا أهم شىء . فانما الشىء الهام أن حياتى قد تغيرت تغيرا كاملا منذ الآن . لقد تركت هناك أشياء كثيرة ، أشياء كثيرة جدا لقد زال كل شىء . قلت لنفسى وأنا فى القطار : «أنا الآن ذاهب الى الناس . وربما كنت لا أعرف شيئا . غير أن حياة جديدة قد بدأت» . قررت أن أنفذ مهمتى بشرف ، وثبات . اننى أقدِّر أن حياتى مع الناس ستكون شاقة ومملة . فقررت أن أكون مهذبا مع الجميع ، وأن أكون صريحا . لا شك فى أنهم لن يطالبونى بأكثر من ذلك . وربما عدُّونى طفلا هنا أيضا . لا بأس ! ثم ان جميع الملأ يعدوننى أبله . انى لأتساءل لماذا يعدوننى كذلك ؟ صحيح اننى مرضت فى الماضى حتى صرت أشبه بأبله . ولكن فى أى شىء أنا الآن أبله ، ما دمت أدرك أنهم يعدوننى أبله ؟ حين أدخل الى مكان ما ، أحدث نفسى قائلا : «انهم يعدوننى أبله ، وأنا مع ذلك ذكى ، ثم هم لا يخطر لهم هذا على بال . . .» كثيرا ما تدور هذه الفكرة فى رأسى . حين تلقيت بمدينة برلين الرسائل الصغيرة التى استطاعوا أن يرسلوها الىَّ من هناك ، أدركت أخيرا مدى ما أحمله لهم من حب . ان الرسالة الأولى تثير كثيرا من الألم دائما ! ما كان أشد حزنهم حين صحبونى الى محطة القطار . كانوا قد بدأوا يستعدون لرحيلى منذ شهر قائلين :

"Léon s'en va, Léon s'en va pour toujours!" [1]

أصبحنا نلتقى قرب الشلال فى كل مساء ، ونأخذ نتحدث

---

[1] «ليون مسافر ، ليون مسافر الى الابد !» (بالفرنسية فى الاصل) .

عن فراقنا المرتقب ، ونكون أحيانا مرحين كمرحنا فى السابق ، لكنهم تعودوا حين يتركوننى ليذهبوا الى النوم ، أن يضمونى بأذرعهم ضما قويا فيه كثير من المحبة والحنان ، وذلك أمر لم يكونوا يفعلونه من قبل . وكان بعضهم يجيئون فرادى ، خفية عن الآخرين ، ليعانقونى ويقبلونى على مهلهم دون رقيب . وفى يوم رحيلى ، جاءوا جمهرة واحدة ليصحبونى الى المحطة . ان المحطة تبعد عن القرية مسافة فرسخ . كانوا يكبحون شعورهم فيمسكون عن البكاء ، غير أن بينهم من كانوا لا يفلحون فى ذلك فاذا هم ينشجون بأصوات عالية ، ولا سيما البنات . سرنا بخطى سريعة حتى لا نصل متأخرين ، لكن واحدا منهم انفصل عن الآخرين فجأة ، وارتمى علىَّ فى منتصف الطريق ، وطوقنى بذراعيه الصغيرتين ، وأخذ يقبلنى ، فاستوقف لذلك وحده موكبنا كله . ورغم استعجالنا توقفنا جميعا وانتظرناه حتى يودعنى . وحين ركبت وتحرك القطار صاحوا «هوراه !» لى بصوت واحد ، ولبثوا فى أماكنهم الى أن اختفى القطار عن أبصارهم اختفاء تاما . وكنت أنا أيضا أنظر اليهم . . . اسمعنى . . . حين دخلت الى هنا منذ قليل ، فرأيت وجوهكن اللطيفة — أنا الآن أنعم النظر فى الوجوه كثيرا — وسمعت كلماتكن الأولى ، شعرت بفرح فى قلبى لأول مرة . ولا أكتمكن اننى قلت لنفسى منذ برهة : لعلنى خُلقت انسانا محظوظا بالفعل . اننى أعرف أن المرء لا يلتقى كثيرا بأناس يمكن أن يحبهم من أول وهلة . ومع ذلك ما كدت أترك القطار حتى التقيت بكن . أنا أعلم أن على الانسان أن يخجل من التحدث عن عواطفه الى جميع الناس ؛ ومع ذلك

أرانى أحدثكن عن عواطفى ولا أحس تجاهكن أى شعور بالخجل أو العار . اننى غير اجتماعى ، وقد لا أزوركن مرة أخرى الا بعد مدة طويلة . فلا تسئن تفسير ذلك ، ولا يذهبن بكن الظن خاصة الى اننى لا أحرص عليكن ، أو أن شيئا قد صدر عنكن فآذانى . لقد طلبتن منى أن أصف لكن ما رأيته فى وجوهكن . يسرنى أن أفعل هذا . فأما أنت يا آديلائيدا ايفانوفنا ، فان لك وجها سعيدا هو أقرب وجوهكن أنتن الثلاث الى القلب . وعدا أنك جميلة جدا ، فان المرء يقول لنفسه حين ينظر اليك : «ان لها وجه أخت طيبة» . انك تواجهين الناس ببساطة ومرح ، لكنك تُحسنين أيضا سبر القلوب . ذلك ما يوحيه الىَّ وجهك . وأما وجهك أنت يا ألكسندرا ايفانوفنا ، فانه هو أيضا جميل محبب الى القلب ، ولكن ربما كنت تخفين حزنا مستترا . ليس هناك أى شك فى أنك طيبة القلب ، لكنك لست فرحة . ان فى وجهك شيئا يذكِّر بوجه «مادونا» هولباين بمدينة درسدن . هذا عنك أنت . تُرى هل حزرت ؟ أنت التى تعتقدين اننى أحزر . وأما أنت يا اليزافيتا بروكوفيفنا (قال ذلك وهو يلتفت فجأة نحو الجنرالة) ، فاننى لا أحس احساسا بل أوقن يقينا أنك طفلة حقيقية ، طفلة فى كل شىء ، طفلة فى الخير وفى الشر على السواء ، وذلك رغم كل سنك . . هل غضبت لأننى أقول لك هذا ؟ انك لتعرفين رأيى فى الأطفال وشعورى نحوهم . ولا يذهبن بكن الظن الى اننى حدثتكن عن وجوهكن بمثل هذه الصراحة لأننى بسيط ساذج فحسب ، فربما كانت لى فكرة أبيِّتها .

الفصل السابع

حين صمت الأمير ، كان الجميع ينظرون اليه فرحين ، حتى آجلايا ، ولكن الفرح كان واضحا فى وجه اليزافيتا بروكوفيفنا خاصة .

هتفت تقول :

— هذا هو الامتحان ! فيا أيتها الآنسات ، أنتن اللواتى كنتن تقدّرن أن تحمينه حمايتكن لفتى مسكين ، ها هو ذا قد تكرَّم عليكن فأبهجكن ، ثم تحفّظ فلم يعد بالمجىء اليكن الا نادرا . ها نحن أولاء جميعا غبيات . وانه ليسعدنى ذلك . لكن أغبانا وأدعانا الى الضحك منه انما هو ايفان فيدوروفيتش . مرحى يا أمير ! منذ حين ، كان قد صدر أمر بامتحانك . . . أما ما قلته عنى من النظر فى وجهى ، فهو الحقيقة بعينها . أنا طفلة . وأنا أعرف ذلك . وكنت أعرف ذلك قبل أن تعرفه أنت . لقد أحسنت الافصاح عن رأيى بكلمة واحدة . اننى أجد طبعك شبيها بطبعى من جميع النواحى ، وانى لسعيدة بهذا . نحن كقطرتى ماء تشابها ، مع فرق واحد هو أنك رجل وأننى امرأة ، وأننى لم أكن بسويسرا يوما . ذلك هو الفرق كله .

هتفت آجلايا تقول :

— لا تتعجلى كثيرا يا maman لقد قال الأمير منذ هنيهة انه فى جميع ما أسرَّ به الينا كان يبيِّت فكرة ، وانه لم يتكلم عبثا !

وقالت الأختان ضاحكتين :

— نعم ، نعم .

— لا تسخرن يا عزيزاتى . قد يكون أمكر منكنَّ أنتن الثلاث مجتمعات . لسوف ترين . ولكن لماذا لم تقل شيئا عن آجلايا يا أمير ؟ ان آجلايا تنتظر ، وانا أيضا أنتظر .

— لا استطيع أن أقول شيئا الآن . سأقول فيما بعد .

— لماذا ؟ الا تبدو ملفتة ؟

— آ . . . نعم نعم . . . ملفتة . أنت آية من آيات الجمال يا أجلايا ايفانوفنا . انك تبلغين من الجمال أن المرء لا يجرؤ أن ينظر اليك .

قالت الجنرالة ملحة :

— أهذا كل شىء ؟ وطبيعتها ؟

— يصعب على المرء أن يقضى فى الجمال برأى . لم أتهيأ لهذا بعد . الجمال لغز .

تدخلت آديلائيدا قائلة :

— معنى هذا أنك تلقى على آجلايا لغزا . حاولى أن تحزرى يا آجلايا . ولكن أليست جميلة يا أمير ؟

أجاب الأمير بحرارة وهو ينظر الى آجلايا معجبا :

— جميلة جمالا خارقا ! تكاد تكون فى مثل جمال ناستاسيا فيليبوفنا ، رغم أن وجهها مختلف جدا . . .

نظرت النساء الأربع بعضهن الى بعض مدهوشات . وسألته الجنرالة :

— مَنْ ؟ ناستاسيا فيليبوفنا ؟ أين رأيت ناستاسيا فيليبوفنا ؟ أية ناستاسيا فيليبوفنا ؟

— منذ قليل كان جافريلا آردالیونتش يُرى ايفان فيدوروفتش صورتها .

— كيف ؟ حمل الى ايفان فيدوروفتش صورتها ؟

— ليريه الصورة . ان ناستاسيا فيليبوفنا قد أهدت اليوم صورتها الى جافريلا آردالیونتش ، فجاء بها هذا الى الجنرال ليريه اياها .

صاحت الجنرالة تقول :

— أريد أن أرى الصورة ! أين هى تلك الصورة ؟ اذا كانت قد أهدتها اليه هو ، فلا بد أنه محتفظ هو بها ، ولا بد أنه الآن فى حجرة المكتب . انه يأتى للعمل هنا فى جميع أيام الأربعاء ولا ينصرف قبل الساعة الرابعة . احضروا جافريلا آردالیونتش حالا ! بل لا تحضروه ! فلست أموت شوقاً الى رؤيته ! يا أمير ، يا صديقى ، هلا تلطفت فذهبت الى حجرة المكتب ، فاخذت تلك الصورة منه ، ثم جئتنى بها الى هنا . قل له ، من فضلك ، اننى أريد أن أرى الصورة !

قالت آديلائيدا بعد أن خرج الأمير :

— لا بأس به ! لكنه بسيط مسرف فى البساطة !

فقالت ألكسندرا مؤيدة :

— نعم ، مسرف فى البساطة ، حتى ليصبح من ذلك مضحكاً بعض الشىء !

لا الأولى ولا الثانية كان يبدو عليها أنها تفصح عن كل رأيها ، وتعبّر عن كل ما يخالج نفسها .

قالت آجلايا :

— ومع ذلك عرف كيف يحسن التصرف حين تحدث عن وجوهنا . مدحنا جميعا وسرّنا جميعا . حتى Maman

صاحت الجنرالة تقول :

— لا تتخابثى ! هو لم يمدحنى . ولكن أنا التى شعرت بأننى مُدحت .

سألت آديلائيدا :

— هل تظنين أنه كان يحاول أن يحسن التصرف ويصل الى الهدف ؟

— يخيَّل الىَّ أنه ليس بسيطا الى الحد الذى يُظن فيه .

قالت الجنرالة غاضبة :

— ها هى ذى تعيد الكرة ! فى رأيى أنا أنكن أدعى منه الى الضحك عليكن ! صحيح أنه ساذج قليلا ، لكنه يعرف ماذا يريد — أقول هذا بأنبل معانى هذا التعبير . هو مثلى تماما .

قال الأمير يحدث نفسه نادما وهو ذاهب الى حجرة المكتب : «لاشك أننى أخطأت اذ جئت على ذكر تلك الصورة . ولكن لعلنى أحسنت اذ تكلمت عنها مع ذلك . . .» . ان فكرة غريبة قد أخذت تومض فى ذهنه ، وان لم تكن بعدُ واضحة كل الوضوح .

ان جافريلا آردالیونتش ما يزال فى حجرة المكتب ، غارقا فى أوراقه . كان يبدو عليه أنه يستحق فعلا الرواتب التى كان يتقاضاها من شركة الأسهم . واضطرب الى أقصى حدود الاضطراب حين طلب منه الأمير الصورة ، وروى له كيف علموا هناك بوجودها . فصاح يقول غاضبا حانقا :

— آه . . . آه . . . ما كانت حاجتك الى تلك الثرثرة كلها ؟ أنت لا تعرف شيئا . . .

ثم تمتم يقول من بين أسنانه :

— يا له من أبله !

قال الأمير :

— متأسف . قلت ما قلته دون تفكير ، أثناء الحديث . قلت ان آجلايا تكاد تكون فى مثل جمال ناستاسيا فيليبوفنا .

سأله جانيا أن يقصّ عليه الأمر بالتفصيل ، ففعل الأمير . فألقى عليه جانيا نظرة ساخرة . ودمدم يقول :

— ما شأنك بناستاسيا فيليبوفنا . . .

ولكنه لم يكمل كلامه ، واستغرق مفكرا .

كان واضحا أنه قلق . وذكّره الأمير بأن الجنرالة تطلب منه الصورة .

قال جانيا فجأة ، كأن فكرة مباغتة قد وافته :

— اسمع يا أمير . هناك معونة ضخمة أحب أن أطلبها منك . . . ولكننى . . . حقا . . . لا أدرى . . .

اضطرب جانيا ولم يكمل كلامه . كان يبدو نهبا لصراع داخلى ، وكان يلوح عليه التردد فى اتخاذ قرار . انتظر الأمير صامتا . وعاد جانيا يروز الأمير بنظرة ثابتة فاحصة متفرسة . ثم بدأ يتكلم ثانية فقال :

— يا أمير . . . اننى الآن . . . لسبب من الأسباب . . . سبب غريب كل الغرابة . . . بل سبب مضحك . . . لست مسئولا عنه . . . وهذا على هامش المسألة على كل حال . . . أقول اننى الآن . . فيما أظن . . مؤاخذ قليلا هناك . . . لذلك قررت أن أغيب مدة من الوقت الا اذا دُعيت . لكننى مع ذلك فى حاجة قصوى الى أن أكلّم آجلايا ايفانوفنا . لقد كتبت بضعة أسطر (كان جانيا يحمل بيده ورقة مطوية) ، ولكنى لا أدرى كيف أوصلها اليها . فهل

لك يا أمير أن تحمل هذه الورقة الى آجلايا ايفانوفنا فورا ، ولكن الى آجلايا ايفانوفنا وحدها ، أى دون أن يرى أحد ذلك ؟ هل تفهمنى ؟ ليس فى الأمر سر كبير . . . ليس هناك أى شىء يمكن أن . . . ولكن هل تصنع لى هذا ؟

أجاب الأمير :

— لا يسرنى هذا كثيرا . . .

فألحّ جانيا متوسلا :

— آه . . . أمير . . . المسألة بالغة الخطورة بالنسبة الىّ ! وقد تجيبنى آجلايا . . . صدّقنى ، اذا كنتُ أتجه اليك واستعين بك فلأن المسألة بالغة الخطورة . . . من ذا الذى يمكننى أن أكلفه بايصال الرسالة اليها سواك ؟ ان المسألة ذات أهمية . . . أهمية كبيرة ، بالنسبة الىّ .

كان جانيا يخشى بشدة ان يرفض الأمير ، فراح ينظر اليه نظرة توسل ذليل .

— طيب . . . سأنقلها .

فقال جانيا ضارعا وقد اطمأن روعه :

— ولكن يجب ألا يلاحظ أحد . . . وانى لأعتمد على عهد الشرف من جهتك يا أمير ، أليس كذلك ؟

قال الأمير :

— لن أرى الرسالة أحدا .

أفلت من جانيا لفرط تعجله قولُه :

— ليست الرسالة مغلقة ، ولكن . . . . — ثم أمسك عن اتمام كلامه خجلا مضطربا .

فأجابه الأمير ببساطة :

— لن أقرأها . — وأخذ الصورة ، وخرج من حجرة المكتب .

فلما أصبح جانيا وحيدا ، أمسك رأسه بيديه ، وقال يحدث نفسه :

— كلمة واحدة منها تكفى . . . فربما أقطع عندئذ صلتى بـ . . .

كان من شدة انفعاله أثناء الانتظار ، لا يستطيع أن يعود الى أوراقه ، وأخذ يذرع الغرفة من ركن الى ركن .

وكان الأمير يمشى مغموما شارد اللب . لقد أدهشه ادهاشاً مزعجا أن يكلف بهذه المهمة . كما ادهشته ادهاشاً مزعجا مجرد فكرة ان يبعث جانيا برسالة الى آجلايا . لكنه قبل أن يصل الى غرفة الجلوس قاطعا اليها حجرتين ، توقف فجأة كمن تذكر شيئا ما ، وألقى نظرة على ما حوله ، ثم اقترب من النافذة التماسا لمزيد من الضوء ، وأخذ ينعم النظر فى صورة ناستاسيا فيليبوفنا .

كان كمن يحاول أن يحزر شيئاً يختبئ فى هذا الوجه وقد خطف انتباهه منذ قليل . لم يتركه ذلك الشعور الذى قام فى نفسه حينئذ ، ولكنه يحاول الآن أن يتثبت منه من جديد ، فيما يظهر . ان هذا الوجه الخارق بجماله وبشىء آخر ، يخطف الآن انتباهه بمزيد من القوة . ان فيه كبرياء واحتقارا ، بل يكاد يكون فيه كره وبغض ، غير أنه يعبر فى الوقت نفسه عن ثقة وبراءة غريبة . حتى ان هذا التضاد نفسه يوقظ فى النفس شيئا من العطف والشفقة . ثم ان هذا الجمال الذى يبهر الأبصار لا يكاد يطاق : جمال الوجه الشاحب ذى الخدين الخاسفين قليلا ، والعينين

الساطعتين . . انه جمال غريب ! تأملها الأمير لحظة ، ثم ثاب الى نفسه ، فألقى نظرة حواليه ؛ وها هو ذا يقرب الصورة من شفتيه بحركة سريعة فيقبّلها . حين دخل الأمير غرفة الجلوس بعد قليل كان وجهه هادئا كل الهدوء .

ولكنه قبل ذلك ما ان صار فى قاعة الطعام (قبل غرفة الجلوس بحجرتين) حتى كاد يصطدم عند الباب بآجلايا ، داخلة . لقد كانت وحيدة .

قال لها وهو يمد اليها الرسالة :

— رجانى جافريلا آرداليونتش أن أنقل اليك هذا .

فتوقفت آجلايا ، وتناولت الورقة ، وألقت على الأمير نظرة غريبة . لم يكن فى هذه النظرة أى اضطراب أو خجل . كل ما هنالك شىء قليل من دهشة ؛ حتى ان هذه الدهشة هى دهشة من الأمير وحده . فكأن آجلايا كانت بهذه النظرة تطالب الأمير بأن يشرح لها كيف وجد نفسه مُقحما فى هذه القضية مع جانيا ، وتطالبه بذلك فى هدوء وتعال . ظلا واقفين احدهما قبالة الآخر لحظتين او ثلاثا ، ثم ارتسم على وجهها أخيرا شىء من سخرية ، وابتسمت ابتسامة خفيفة ومرّت .

تأملت الجنرالة صورة ناستاسيا فيليبوفنا خلال مدة من الوقت صامتة ، مع شىء من الاحتقار ؛ وكانت ممسكة بالصورة أمامها مادة ذراعها الى مسافة بعيدة مسرفة فى البعد .

ودمدمت تقول أخيرا :

— نعم ، هى جميلة ، بل هى جميلة جدا . لقد رأيتها مرتين ، ولكن من بعيد .

ثم اتجهت الى الأمير فجأة فقالت له :

— اذن هذا هو نوع الجمال الذى يعجبك ؟

فأجاب الأمير بشىء من الجهد :

— نعم . . . هذا هو . . .

— أقصد . . . هل هو هذا بعينه ؟

— نعم . . . هو بعينه .

— لأى سبب ؟

دمدم الأمير يقول رغم ارادته تقريبا ، كأنه يكلم نفسه ولا يجيب أحدا :

— فى هذا الوجه . . . ألم كبير وعذاب عظيم . . .

قالت الجنرالة :

— على كل حال قد لا يكون هذا عندك الا هذيانا . . .

ورمت الصورة على المائدة بحركة كبيرة متعالية . فتناولت ألكسندرا الصورة ، واقتربت منها آديلائيدا ، وأخذت البنتان تنعمان النظر فيها معا . وفى تلك اللحظة عادت آجلايا .

هتفت آديلائيدا تقول فجأة وهى تنظر الى الصورة بشراهة من فوق كتف أختها :

— يا لها من قوة !

فسألتها اليزافيتا بروكوفييفنا بخشونة :

— أين ؟ أية قوة ؟

فقالت آديلائيدا بحرارة :

— ان جمالا كهذا الجمال لهو قوة . ان جمالا كهذا الجمال يمكن أن يقلب العالم !

وعادت الى مسند لوحتها مستغرقة فى التفكير . لم تُلق آجلايا على الصورة الا نظرة عابرة ، زارة عينيها ،

وماطة شفتها السفلى ، ومضت تجلس منزوية عاقدةً ذراعيها على صدرها .

دقت الجنرالة الجرس ، فدخل خادم فقالت له :

— ادع جافريلا آرداليونتش . هو فى حجرة المكتب .

فهتفت ألكسندرا تقول :

— Maman ! —

فقالت الجنرالة حاسمة ، مانعة كل اعتراض :

— أريد أن اقول له كلمة ! كفى !

كان واضحا أنها مهتاجة . والتفتت الى الأمير فقالت له :

— هل ترى يا أمير ؟ لم يبق عندنا هنا الا أسرار ، لا شىء الا الأسرار ! يظهر أن هذا لا غنى له . . . آداب السلوك . . يا للغباوة ! وذلك فى أمر يقتضى منتهى الصراحة والوضوح والاستقامة ! هناك مشروعات زواج . . . وليست تعجبنى هذه المشروعات . . .

أسرعت ألكسندرا توقفها عن الكلام من جديد قائلة :

— Maman ! ماذا جرى لك ؟ —

— ماذا تريدين يا ابنتى العزيزة ؟ أهى ترضيك أنت ، هذه المشروعات ؟ لا مانع أن يسمع الأمير . . . فنحن أصدقاء . . . أنا وهو ، على الأقل صديقان . . . ان الله يبحث عن الأخيار أما الأشرار وأصحاب النزوات ، فلا يحتاج اليهم . ولا سيما أصحاب النزوات أولئك الذين يقررون اليوم شيئا ويفعلون فى الغد شيئا آخر . هل تفهمين عنى يا ألكسندرا ايفانوفنا ؟ هنَّ يقلن ، يا أمير ، اننى غريبة الأطوار ، فى حين أننى أستطيع أن أميِّز الأمور .

ذلك أن العبرة بالقلب ، أما ما عدا ذلك فسفاسف ! صحيح أن الذكاء لازم أيضا ، بل قد يكون الذكاء أهمّ شيء . لا تضحكى ساخرة يا آجلايا ، فأنا لا أتناقض فان الحمقاء التى لها قلب وليس لها ذكاء ، لا تقلّ شقاء عن حمقاء لها ذكاء وليس لها قلب . هذه حقيقة قديمة . فأنا الحمقاء التى لها قلب وليس لها ذكاء ، وأنت الحمقاء التى لها ذكاء وليس لها قلب ؛ وذلك هو السبب فى أننا كلتينا شقيتان ، وفى أننا كلتينا نتألم ونتعذب .

لم تستطع آديلائيدا أن تكبح جماح نفسها ، بعد أن كانت بين جميع الحاضرات أكثرهن احتفاظا بمزاجها المرح الفرح ، فقالت :

— ما الذى يشقيك يا maman ؟

فقالت الجزالة حاسمة :

— يشقينى أولا أن لى بنات متفيهقات كثيرا . . . ولما كان هذا كافيا فلا داعى الى أن أفيض فى الكلام على ما عداه ! كفى ثرثرة ! سنرى كيف تحسنان التصرف كلتاكما (ولست أعد آجلايا) بما تملكان من قوة فكر وسنرى هل ستستطيعين ، أنت يا ألكسندرا ايفانوفنا المدهشة ، أن تكونى سعيدة مع صاحبك السيد النبيل ! . . .

واذ رأت جانيا داخلا ، صاحت تقول :

— آ . . . وهذا عرس آخر . . .

وحيّا جانيا ، فأجابته دون أن تدعوه الى الجلوس :

— صباح الخير . هيه . . . اذن سترف ؟

فتمتم جافريلا آرداليونتش يقول مبهوتا مصعوقا :

— أزف ؟ كيف هذا ؟ . . . كيف أزف ؟

لقد اضطرب اضطرابا فظيعا .

— أقصد ستتزوج ؟ ذلك ما أسألك عنه ، اذا كان هذا التعبير يرضيك أكثر !

فكذب جافريلا آرداليونتش قائلا وقد احمرّ وجهه من الخجل :

— لـ . . . لـ . . . لا . . . لن . . . لن . .

وألقى نظرة سريعة على آجلايا التى كانت ما تزال منتحية ، ثم أشاح وجهه بسرعة . كانت آجلايا تنظر اليه بهدوء وبرود ، دون أن تحوّل عنه بصرها ، وكانت تراقب اضطرابه .

ألحت اليزافيتا بروكوفيفنا اللجوج تسأله :

— لا ؟ تقول لا ؟ يكفى . سأتذكر أنك فى صباح يوم الأربعاء قد أجبت عن سؤالى بقولك : «لا» . فى أى يوم نحن ؟ ألسنا فى يوم الأربعاء ؟

أجابت آديلائيدا :

— أظن أنه يوم الأربعاء يا maman .

— لا أحد يعرف الأيام والتواريخ . فى أى يوم من أيام الشهر نحن ؟

قال جانيا :

— فى اليوم السابع والعشرين .

— فى السابع والعشرين ؟ هذا تاريخ مناسب من بعض النواحى . طيب . استودعك الله ! عندك أعمال كثيرة فيما أظن ، وأنا يجب علىّ أن أرتدى ثيابى لأخرج . خذ صورتك . وانقل تحيتى الى أمك المسكينة نينا ألكسندروفنا ! الى اللقاء يا أمير ، يا صديقى العزيز ! زرنى كثيراً . أما

انا فسازور العجوز بيلوكونسكايا خصيصاً لأكلمها عنك . واسمع يا عزيزى : اننى أومن صادقة بان الله انما أرسلك من سويسرا الى بطرسبرج من أجلى أنا . قد تعمل شيئاً آخر ، ولكنك بعثت الى هنا من أجلى أنا خاصة . الله هو الذى شاء ذلك . الى اللقاء يا عزيزاتى . ألكسندرا ، تعالى الىّ ياصديقتى .

وخرجت الجنرالة . وتناول جانيا الصورة من على المائدة مضطربا طائش العقل ممتلئ النفس حقدا ، ثم التفت نحو الأمير وهو يبتسم ابتسامة مصطنعة :

— أنا عائد الى بيتى يا أمير . فاذا كنت ما تزال تنوى أن تقيم عندنا ، فسأقودك الى هناك ، فانك لا تعرف العنوان .

قالت آجلايا وهى تنهض عن مقعدها :

— لحظة يا أمير . عليك أن تكتب شيئا فى دفترى . بابا يدعى أنك خطاط . سأجيئك بالدفتر . . .

قالت آديلائيدا :

— الى اللقاء يا أمير . أنا أيضا منصرفة .

وصافحت الأمير مصافحة قوية ، وابتسمت له ابتسامة فيها لطف ومودة ، وخرجت دون أن تلقى على جانيا نظرة واحدة .

قال جانيا وهو يصرف بأسنانه ويهرع نحو الأمير فجأة :

— أنت الذى ثرثرت فجئت على ذكر زواجى . . . يا لك من ثرثار وقح !

بهذا جمجم جانيا متعجلا بصوت خافت ، وقد استعر وجهه سخطا وحنقا ، والتمعت عيناه خبثا وشرا .

أجابه الأمير بأدب هادئ :

— أؤكد لك أنك مخطئ . لقد كنت أجهل كل الجهل أنك ستتزوج .

— لقد سمعتَ ايفان فيدوروفتش يقول منذ قليل ان كل شىء سيتقرر هذا المساء فى منزل ناستاسيا فيليبوفنا ، وهذا ما نقلته اليهن . أنت كاذب ! أنىّ لهنّ أن يعلمن النبأ بغير ذلك ؟ من ذا الذى كان يمكن أن يبلغهن النبأ سواك ؟ ألم تشر العجوز الى هذا اشارة مباشرة ؟

— أنت أقدر منى على أن تعرف من غساه أطلعهن على النبأ ، اذا كنت تحس حقاً أن قد كان ثمة اشارة . أما أنا فلم أقل كلمة واحدة .

قاطعه جانيا يسأل محموما :

— هل نقلت رسالتى ؟ ماذا كان الجواب ؟

ولكن آجلايا دخلت فى تلك اللحظة نفسها ، فلم يتسع وقت الأمير لأن يجيب .

قالت آجلايا وهى تضع دفترها على المائدة :

— اليك الدفتر يا أمير . فاختر منه صفحة واكتب لى شيئا . هذه ريشة جديدة كل الجدة . لا ضير فى أن تكون من معدن ؟ لقد سمعت أن الخطاطين لا يستعملون ريشة من معدن .

كانت وهى تكلم الأمير كأنما لا تلاحظ حتى وجود جانيا . ولكن بينما كان الأمير يهيئ الريشة ويختار صفحة ويستعد للكتابة ، دنا جانيا من المدفأة التى كانت تقف آجلايا قربها على يمين الأمير ، وتمتم يقول فى أذنها تقريباً ، بصوت مختلج متقطع :

— كلمة ، كلمة واحدة منك ، فأنجو !

التفت الأمير بحركة سريعة ونظر اليهما كليهما . كان يُقرأ فى وجه جانيا يأس حقيقى . لكأنه نطق بتلك الكلمات دون تفكير ، كمن يلقى بنفسه فى الماء . تأملته آجلايا بضع لحظات بتلك الدهشة الهادئة نفسها التى ظهرت عليها منذ قليل أمام الأمير ؛ فكانت هذه الدهشة ، وهذه البلبلة اللتان يبدو أنهما ناشئتان عن أن الفتاة لا تفهم شيئا البتة مما يقال لها ، كانتا أشد هولا وأفظع وقعا فى نفس جانيا من أعمق احتقار وأكبر ازدراء .

سأل الأمير :

— ماذا يجب أن أكتب ؟

فقالت آجلايا وهى تلتفت اليه :

— سأملى عليك . أأنت مستعد ؟ اكتب : «أنا لا أصلح للمساومات» . والآن ضع التأريخ ، وأرنى الكتابة .

مدَّ الأمير اليها الدفتر . فنظرت فيه وقالت :

— عظيم ! ان لك خطا رائعا . هذا جميل حقا ! شكرا . الى اللقاء يا أمير . . . — ثم أضافت وقد تذكرت شيئا ما : — لحظة أخرى . تعال . سأهدى اليك تذكارا .

فتبعها الأمير ، ولكن آجلايا وقفت منذ صارت فى حجرة الطعام ، فمدت اليه رسالة جانيا وقالت له :

— اقرأ هذا .

تناول الأمير الرسالة ، ونظر الى آجلايا متحيرا . فقالت آجلايا :

— أنا أعرف على وجه اليقين أنك لم تقرأها ، وانك لا يمكن أن تكون نجيَّ هذا الرجل وحامل أسراره . اقرأ .

انى أصر على أن تقرأ .

كان يبدو أن الرسالة كُتبت على عجل . قرأ الأمير :

«اليوم يتقرر مصيرى ، تعلمين كيف . اليوم سأُضطر أن أقطع على نفسى وعدا لا نكوص عنه . ليس لى أى حق فى اهتمامك بـى ، ولست أجرؤ ان آمل . غير أنك نطقت كلمة فى ذات يوم ، كلمة واحدة ، فأنارت تلك الكلمة ظلام حياتى الحالك ، وأمست منارة لى . قولى لى كلمة أخرى كتلك الكلمة ، فتنقذينى من الضياع ! قولى فقط : **اقطع كل صلة** ، فأفعل ذلك فى هذا اليوم نفسه . آه . . . هل يكلفك باهظا أن تقولى لى ذلك ؟ انى اذ أطلب منك هذه الكلمة لا ألتمس الا علامة اكتراث وشفقة ، لا شىء غير ذلك ، لا شىء ، **لا شىء** ! انى لا أجرؤ أن اسمح لنفسى بأى أمل ، لأننى لا أستحقه . لكننى بعد كلمة واحدة منك سأرتضى فقرى من جديد ، وسأحتمل حالتى اليائسة فرحا . سأستأنف الكفاح ، وسيسعدنى أن أكافح ، وسأبعث بالكفاح بعثا اخر ، فأزخر بقوى جديدة .

ابعثى الىَّ بكلمة الشفقة تلك وحدها (**لا شىء الا الشفقة** ، أحلف لك !) . ولا يغضبنَّك تهور رجل يائس ، رجل يغرق فيتجرأ أن يقوم بجهد أخير ليتقى الهلاك .

ج . اى .»

فلما فرغ الأمير من القراءة قالت آجلايا بلهجة قاسية :

— يزعم هذا الرجل أن كلمة «**اقطع كل صلة**» لا يمكن أن تعرضنى لشىء ولا يمكن أن تلزمنى بشىء ؛

وما هذه الرسالة ، كما رأيت ، الا نوع من تأكيد مكتوب . لاحظ مدى سذاجته فى الاسراع الى وضع خط تحت بعض الكلمات ، ومدى الغلظة فى ظهور فكرته المبتة . وهو يعلم على كل حال أنه لو قطع كل صلة من تلقاء نفسه ، بمحض ارادته ، دون أن يكلمنى فى هذا الأمر ، ودون أن يستطيع أن يعقد علىَّ أىّ أمل ، لكان من الممكن أن تتحسن عواطفى نحوه ، ولكان من الممكن أن أغدو صديقة له . وهو يعلم ذلك حق العلم ! لكنه رجل دنس النفس . هو يعلم ذلك لكنه لا يتجرأ ، هو يعلم ذلك لكنه يطلب ضمانا . انه لا يستطيع أن يبنى عمله على الثقة انه يريد أن أعطيه أملا ، فى مقابل المائة ألف روبل ! أما عن الكلمة التى يزعم فى رسالته أننى نطقت بها فأنارت حياته ، فذلك كله كذب واختلاق وقح . كل ما هنالك أننى شعرت نحوه بشىء من الشفقة فى يوم من الأيام . لكنه رجل وقح لا حياء فيه ، ففى اللحظة ذاتها قدَّر أن فى وسعه أن يعقد أملا . لقد فهمت أنا ذلك فورا . وهو منذ ذلك اليوم يحاول ان يوقعنى فى الفخ ، وهذا بعينه ما حاوله الآن أيضا . ولكن كفى ! خذ رسالته هذه ، وأعدها اليه متى خرجتما من الدار ، لا قبل ذلك طبعا .

— وما هو الجواب الذى ينبغى أن أحمله اليه ؟

— لا جواب ، طبعا ! ذلك خير جواب . اذن أنت تنوى أن تقيم فى بيته ؟

قال الأمير :

— ان ايفان فيدوروفتش نفسه هو الذى نصحنى بهذا منذ قليل .

— فكن منه اذن على حذر ! اننى أنبهك . لن يغفر لك ارجاع هذه الرسالة اليه .

صافحت آجلايا يد الأمير مصافحة خفيفة ، وخرجت . كان وجهها مقطبا مكفهرا . حتى انها لم تبتسم له وهى تحييه برأسها مودِّعة .

قال الأمير يخاطب جانيا :

— لحظة ، آخذ صرتى فوراً ثم ننصرف .

قرع جانيا الأرض بقدمه من نفاد الصبر . لقد اسودّ وجهه حنقا . وأخيرا خرج الاثنان الى الشارع ، والأمير يحمل بيده صرَّته .

سأله جانيا وهو يكاد يرتمى عليه :

— هيه ، الجواب ؟ ماذا قالت لك ؟ هل أعطيتها رسالتى ؟

فمدَّ اليه الأمير الرسالة صامتا . فتصلب جانيا كالمتجمد ، وهتف يسأل :

— كيف ؟ رسالتى ؟ آه . . . لم يعطها الرسالة ! كان علىَّ أن أقدِّر ذلك ! آه . . . لعنة الله عليه . . . الآن يتضح لى كيف أنها لم تفهم اذن شيئا منذ قليل ! ولكن كيف ، كيف أمكنك ألا تعطها الرسالة ؟ آه . . . لعنة الله على . . .

— عفوك . ان ما حدث هو عكس هذا تماما . لقد سهَّلت لى الظروف أن أعطيها رسالتك بعد أن أعطيتنيها أنت بلحظة واحدة ، مع أدق الالتزام بما أوصيتنى به . واذا كانت الرسالة بين يدىَّ الان ، فلأن آجلايا قد ردَّتها الىَّ منذ هنيهة .

— متى ؟ متى ردَّتها اليك ؟

— منذ أنهيت الكتابة فى دفترها فدعتنى الى أن أتبعها (هل سمعتها ؟) . فلما صرنا فى غرفة الطعام مدّت الىّ هذه الرسالة وطلبت منى أن أقرأها ثم أرجعها اليك .

زأر جانيا قائلا :

— أن تقرأها ؟ أن تقرأها ؟ وقرأتها ؟

تجمَّد جانيا فى وسط الرصيف وقد بلغ من الذهول أن فمه ظل فاغرا .

— نعم ، قرأتها .

— وهى التى أقرأتك الرسالة ، هى نفسها ؟ هى نفسها ؟

— نعم ، هى نفسها . صدِّقنى : ما كان أن أقرأها قط لولا أننى أُمرت بذلك .

لبث جانيا صامتا خلال لحظة ، يبذل جهودا كبيرة من أجل أن يفهم شيئا ، ولكنه صاح يقول فجأة :

— مستحيل ! لا يمكن أن تكون قد طلبت منك قراءة الرسالة . أنت تكذب ! أنت قرأت الرسالة من تلقاء نفسك !

قال الأمير بتلك اللهجة الهادئة نفسها :

— لقد قلت لك الحقيقة . صدِّق أننى آسف أشد الأسف لما أحدث هذا الأمر فى نفسك من انزعاج وضيق .

— ولكن ، أيها الشقى ، لابد أنها قالت لك شيئا على الأقل ، حين أعادت اليك الرسالة ؟ فهل حمَّلتك جوابا ما ؟

— نعم ، طبعا .

— فما بالك لا تتكلم اذن ! ما بالك لا تتكلم !

وقرع جانيا أرض الرصيف مرتين بقدمه اليمنى المنتعلة جرموقا من مطاط فوق الحذاء .

— ما ان أنهيت قراءة الرسالة حتى قالت لى انك تحاول أن توقعها فى الفخ ؛ فأنت تريد أن تحصل منها على وعد بأمل ، فاذا قويت بهذا الوعد ، أمكنك أن تقطع الصلة بامل مقداره مائة الف روبل دون خسران ، وأضافت أنك لو فعلت دون أن تساومها ، أى لو قطعت تلك الصلة من تلقاء نفسك بمحض ارادتك دون أن تطلب منها أية ضمانة سلفا ، لكان من الجائز أن تفوز بصداقتها لك . أظن أن هذا هو كل ما قالته . آ . . . نعم . . . هناك شىء آخر : فحين سألتها بعد استرداد رسالتك ما جوابها ، قالت ان خير جواب هو ألا تعطى جوابا . أظن أن هذا هو ما قالته . سامحنى اذا نسيت الألفاظ التى استعملتها هى نفسها نصا ، فأنا أنقل اليك ما أظن أننى فهمته .

استولى على جانيا غضب لا حدود له ، وانفجر حنقه دون أى سيطرة على نفسه ، فقال وهو يصرف بأسنانه :

— ها . . . هكذا ! تُرمى رسائلى من النافذة ! آ . . . هى لا تصلح للمساومات ! طيب . . . ولكننى سأصلح لها أنا . . ولسوف نرى ! . . أنا لم أقل بعد كل شىء . . . لسوف نرى ! . . لتصلنَّها أخبارى ! . .

كان يصعِّر وجهه ، ويشحب لونه ، ويرغى ويزبد ، ويهدد بقبضة يده . وسارا بضع خطوات وهما على هذه الحال . لم يتحرج جانيا أمام الأمير أى تحرج ، حتى

لكأنه خال الى نفسه فى غرفته ، لأنه لم يكن يعده شيئا مذكورا . ثم توقف وقد فجأته فكرة مباغتة ، فقال يسأل الأمير فجأة :

— ولكن كيف أمكنك (وأضاف جانيا يقول بينه وبين نفسه : كيف أمكن هذا الأبله) . . . كيف أمكنك أن تدخل فورا الى خفايا أمورهن وأن تصبح محل سرهن ولمّا ينقض على معرفتك بهن أكثر من ساعتين ؟ كيف هذا ؟ لم يكن ينقصه لاكتمال أنواع عذابه الا أن تضاف اليها الغيرة . وها هى ذى الغيرة تعض الآن قلبه على حين فجأة .

أجابه الأمير قائلا :

— هذا لا أستطيع أن أعلّله لك .

فرشقه جانيا بنظرة خبيثة شريرة ؛ وقال له :

— أمن أجل أن تهدى اليك ثقتها انما دعتك اذن الى غرفة الطعام ؟ لقد قالت انها تريد أن تهدى اليك شيئاً ، أليس كذلك ؟

— لا أفهم الأمر على غير هذا الوجه .

— ولكن لماذا ؟ حقا انه لأمر عجيب ! ماذا فعلت هناك ؟ كيف استطعت أن تحظى باعجابهن ؟ اسمع . . . — كان جانيا يضطرب بكل قواه . (وكان كل شىء فى نفسه مشوشا يغلى ويفور ، فهو لا يستطيع أن يفلح فى جمع شتات أفكاره) . — اسمع . . . ألا تستطيع أن تحاول أن تتذكر كل ما تحدثت فيه وأن تعيده مرتبا ، وأن تذكر كل ما قيل من البداية الى النهاية ؟ ألم تلاحظ شيئا يمكنك أن تتذكره ؟

أجاب الأمير :

— أوه . . . هذا سهل ! منذ البداية ، منذ دخلت وتم التعارف ، تحدثنا عن سويسرا .

— دعنا من سويسرا !

— ثم تحدثنا عن عقوبة الاعدام . . .

— عن عقوبة الاعدام ؟

— نعم ، عرضا . . . ثم وصفت لهن السنين الثلاث التى عشتها هناك ، وقصصت عليهن قصة القروية المسكينة . . .

— فلتذهب القروية المسكينة الى جهنم ! أكمل . . .

كان جانيا يدبدب بقدميه من نفاد الصبر وشدة التململ .

— ثم ذكرت لهن كيف أن شنايدر أطلعنى على رأيه فى طبعى ، ودفعنى الى . . .

— فليذهب شنايدر الى جهنم ! لاتهمنى آراؤه ! وبعد ذلك ؟

— بعد ذلك بالمناسبة أخذت أتكلم عن الوجوه ، أقصد عن تعبير الوجوه ، فقلت لآجلايا ايفانوفنا انها فى مثل جمال ناستاسيا فيليبوفنا تقريبا . وعندئذ انما أفلتت من لسانى كلمات عن الصورة . . .

— لكنك لم تنقل اليهن ما كنت قد سمعته فى حجرة المكتب ، أليس كذلك ؟ لم تنقله ؟ لم تنقله ؟

— أكرر لك أننى لم أنقله اليهن .

— ولكن . . . عجيب . . . ألم تطلع أجلايا أمها على الرسالة ؟

— استطيع أن أضمن لك أنها لم تطلعها عليها . اننى لم أتركهن لحظة . ثم انها لو أرادت أن تطلعها عليها

لما اتسع الوقت لهذا .

— ولكن لعل شيئا حدث ولم تلاحظه . . . — صاح جانيا يقول وقد خرج عن طوره تماما ، — يا لأبله النحس ! . . . انه عاجز حتى عن أن يروى الأمور على نحو مناسب !

واذ شتم مرة فلم يلق مقاومة ، أخذ يفقد كل تحفظ شيئاً بعد شيء ، كما يحدث ذلك دائما لبعض الاشخاص . حتى لقد كان من الممكن وقد بلغ ذروة حنقه أن يمضى الى حد البصق . لكن هذا الحنق نفسه قد أعماه . والا لكان قد لاحظ منذ مدة طويلة أن هذا «الأبله» الذى يعامله هو هذه المعاملة يفهم فى بعض الأحيان كل شيء بسرعة عظيمة ، ودقة شديدة ، ويجيد الرواية اجادة تامة . غير أن شيئا لم يكن فى الحسبان قد حدث على حين فجأة .

قال الأمير بغتة :

— يجب أن ألفت نظرك يا جافريلا آرداليونتش أننى فى الماضى كنت مريضا بالفعل ، حتى لقد أصبحت كالأبله ، ولكننى شُفيت منذ مدة طويلة ، وانه ليؤلمنى بعض الشيء أن أسمع أحدا يصفنى بأننى أبله . ورغم أن المرء قد يعذرك بسبب ما أنت فيه من خيبة الآمال ، فقد شتمتنى حتى الآن مرتين ، وهذا ما لا أرضى عنه البتة ، لا سيما انك تندفع فيه اندفاعا منذ أول لقاء بيننا . أفلا ترى انه من الافضل ، والحالة هذه ، ما دمنا الآن عند مفترق طرق ، أن نفترق هنا ، فتذهب يمنة وأذهب يسرة ؟ ان معى خمسة وعشرين روبلا ، ولا شك أننى واجد فندقا أبيت فيه .

أحس جانيا بخجل شديد ، حتى لقد احمر وجهه من شعوره بالعار . فقال معتذرا بحرارة ، منتقلا من الشتم المقذع الى التهذيب الرقيق :

— سامحنى يا أمير ، ناشدتك الله . . . انك لترى ما أنا فيه من شقاء ! أنت لا تعرف بعد شيئا ، فلو عرفت كل شيء لغفرت لى بعض الغفران حتما ، وان يكن سلوكى هذا لا يغتفر طبعا . . .

أسرع الأمير يجيب قائلا :

— لا أطلب كل هذه الاعتذارات . انى لأدرك أنك قلق مضطرب ، وأن هذا هو السبب فى شتمى . طيب . فلنذهب الى بيتك . أنا من جهتى يسرنى هذا . . .

كان جانيا يقول لنفسه أثناء السير وهو يلقى على الأمير نظرات كره وبغض : «لا ، يستحيل أن أتركه الآن . لقد أخذ منى هذا المكّار كل ما كان يريد ، وها هو ذا يرمى عن وجهه القناع . . . ان فى الأمر شيئا مختفيا . سوف نرى ! سوف يتقرر كل شيء ، كل شيء ، فى هذا اليوم نفسه !»

وكانا قد وصلا الى الدار .

الفصل الثامن

تقع شقة جانيا فى الطابق الثانى ، ويوصل اليها سلّم نظيف فسيح نيِّر ، وتتألف من ست غرف أو سبع تتفاوت سعة ؛ واذا كانت هذه الشقة عادية فى الواقع ، فلا شك أن أجرتها فوق طاقة موظف متواضع يقع على كاهله عبء أسرة ، ولو بلغ مرتبه ألفى روبل . لكن هذه الشقة كانت مهيئة كذلك لتأجير بعض غرفها مع الطعام والخدمة ، ولم يسكنها جانيا وأسرته الا منذ شهرين فى أكثر تقدير ، على استياء من جانيا نفسه ، وبالحاح من نينا ألكسندروفنا وباربارا آرداليونوفنا اللتين كانتا ترغبان فى أن تكونا نافعتين هما أيضا ، وأن تساهما فى زيادة دخل العائلة ولو قليلاً . كان جانيا يظهر امتعاضه وبعدُ هذا التدبير سقوطاً . وهو منذ اقامة المستأجرين يشعر بحرج فى المجتمع ، حيث ألف حتى ذلك الحين أن يظهر فتى لامعا يبشر بأن يكون له مستقبل فكانت هذه التنازلات كلها وهذا الشيوع المزعج كله بمثابة جروح عميقة فى نفسه . حتى أصبح منذ بعض الوقت يثيره أبسط أمر من الأمور اثارة شديدة تخرجه عن طوره ؛ واذا كان لا يزال يرتضى أن يرضخ وأن يصبر ، فما ذلك الا لأنه عقد النية على أن يغير هذا الوضع كله فى أقصر مدة . ومع ذلك فان هذا التغيير نفسه ، والحلّ الذى انتهى الفتى اليه وعزم أمره عليه ، قد أصبحا مسألة خطيرة ، مسألة يهدد حلُّها بأن تكون متاعبه وهمومه أوفر عددا وأشد ايلاما مما سبق .

كانت الشقة مشطورة شطرين بدهليز يبدأ من المدخل . ففى احدى الجهتين تقع الغرف الثلاث الموقوفة على المستأجرين «الموصى بهم توصية خاصة» ؛ وفى تلك الجهة نفسها ، عند آخر الدهليز ، قرب المطبخ ، توجد حجرة رابعة هى أضيق الحجرات ، يعيش فيها وينام فيها ، على ديوان عريض ، ربُّ الأسرة نفسه ، الجنرالُ المتقاعد ايفولجين ، الذى كانوا يضطرونه أن يكون خروجه ورجوعه من المطبخ وسلّم الخدم . وفى تلك الغرفة الصغيرة نفسها يسكن أيضا الفتى الصغير كوليا* ، أخو جافريلا آرداليونتش ، وهو تلميذ فى المدرسة الثانوية عمره ثلاثة عشر عاما . كان هذا الفتى الصغير مضطرا هو أيضا الى أن يعيش فى ضيق هذه الغرفة وأن يطالع دروسه فيها ، وينام على ديوان ثان ، متداع ، ضيق ، قصير ، على شرشف مثقب . وكان عليه عدا ذلك أن يعتنى بالجنرال وأن **يسهر عليه** ، لأن الجنرال كانت تزداد حاجته اليه يوما بعد يوم . أُعطى الأمير غرفة الوسط ، فأما التى على يمينها فكان يسكنها فردشينكو ؛ وأما التى على شمالها فما تزال خالية لم يقطنها أحد . ولكن جانيا قاد الأمير فى أول الأمر الى ذلك الجزء من الشقة ، الذى تقيم فيه الأسرة . ان هذا الجزء يتألف من قاعة يحيلونها عند الحاجة الى غرفة طعام ، ومن صالون ليس فى الحقيقة صالونا الا فى الصباح حتى اذا حلَّ المساء أمسى حجرة مكتب وغرفة نوم لجانيا ؛ وهناك أخيرا غرفة ثالثة ، صغيرة مقفلة الباب دائما ، هى غرفة نوم نينا ألكسندروفنا وباربارا آرداليونوفنا . الخلاصة أن جميع الأشياء وجميع الأشخاص كانت فى هذه الشقة محشورة متراصة تعيش فى مكان أضيق

من أن يتسع لها . فكان جانيا لا يكف عن الصريف بأسنانه غيظا ، وكان لا يفوت من يراه منذ أول نظرة أنه فى هذه الأسرة طاغية مستبد ، رغم حرصه على أن يظهر بمظهر من يحترم أمه ويوقرها .

لم تكن نينا ألكسندروفنا وحيدة فى الصالون ، بل كانت تجالسها باربارا آرداليونوفنا . وكانتا كلتاهما منهمكتين فى النسج بالابرة ، على تحدثهما مع زائر كان معهما هو ايفان بتيتسين . ان نينا ألكسندروفنا تبدو فى الخمسين من العمر . وجهها نحيل شاحب اللون ؛ وتحت عينيها هالتان زرقاوان . مظهرها كله يدل على المرض ، ويدل على شىء من الألم ، غير أن فى وجهها ونظرتها شيئا من جاذبية . والمرء يدرك من أولى كلماتها أن لها طبعا جادا وخلقا رصينا ووقارا صادقا ؛ وأنها رغم الألم الذى يعبر عنه وجهها ، تملك جنانا ثابتا ، بل وعزيمة قوية . ثيابها متواضعة جدا ، فهى سوداء ، وهى على الزىّ الذى ترتديه العجائز ؛ ولكن حركاتها وآدابها وحديثها وسلوكها كله يدل على أنها انسانة عرفت كذلك بيئة أرفع من هذه البيئة وأرقى .

أما باربارا آرداليونوفنا فهى فتاة فى الثالثة والعشرين من العمر ، متوسطة القامة ، نحيلة الجسم ، ان لم يكن وجهها جميلا جدا ، فان فيه سرَّ الفتنة بغير جمال ، وآية الجذب الى درجة الهوى . انها تشبه أمها كثيرا ، وتكاد ترتدى ما ترتديه أمها ، فلا أثر فى ثيابها لتبهرج أو تغندر . نظرة عينيها الشهباوين يمكن أن تكون فى بعض الأحيان مرحة كل المرح ، ملاطفة كل الملاطفة ، لكن هذه النظرة هى فى الغالب الأعم رصينة مفكّرة ، مفرطة فى ذلك أحيانا ،

ولا سيما فى هذه الآونة الأخيرة . ومن يرها يقرأ فى وجهها ثبات الجنان وقوة العزيمة أيضا ، ولكنه يحس أن هذا الثبات وهذه العزيمة يمكن أن يتجليا عندها بأكثر مما يتجليان عند أمها طاقة دفاقة ومبادهة أصيلة أيضا . ان لباربارا آرداليونوفنا طبيعة مندفعة ، حتى لقد كان أخوها يخاف اندفاعاتها بعض الخوف أحيانا . وكان الزائر الذى تحدثانه الآن وهو ايفان بتروفيتش بتيتسين ، يخاف اندفاعاتها بعض الخوف هو أيضا . انه رجل ما يزال شابا ، فى نحو الثلاثين من عمره ، يرتدى ثيابا متواضعة لكنها أنيقة ، حركاته لطيفة ولكنها مفرطة فى الرصانة . تدل لحيته الصغيرة القاتمة الشقرة على أنه رجل غير مقتصر على حياة الوظيفة ، أو قانع بها* . اذا تحدث كان حديثه ذكيا شائقا ، لكنه فى أكثر الأحيان صموت . وهو على وجه الاجمال يُحدث فى النفس شعورا بالارتياح . كان واضحا أن باربارا آرداليونوفنا تهمه وتعنيه ، وهو لا يحاول أن يخفى عواطفه . وكانت هى تعامله بمودة وصداقة ، لكنها ما تزال تتأخر فى الاجابة عن عدد من أسئلة كان يظهر على باربارا أنها لا تعجبها . ولكن بتيتسين لا تتثبط من ذلك عزيمته ولا ييأس . وكانت نينا ألكسندروفنا تظهر له حفاوة وبشاشة ، حتى لقد تعودت فى الآونة الأخيرة أن تسرَّ اليه بما فى نفسها . وكان معروفا من جهة أخرى أن بتيتسين قد وجد لنفسه اختصاصا هو أن يقرض مالا بفوائد ، لآجال قصيرة ، على رهون مضمونة . وكانت تربطه بجانيا صداقة قوية .

بعد التعريف المفصل بالأمير ، وان كان بجمل مقتضبة ، من جانب جانيا (الذى حيأ أمه بكثير من الخشونة ، ولم

يسلّم على أخته ، ثم سرعان ما خرج مقتادا بتيتسين) ، وجّهت نينا ألكسندروفنا الى الأمير بضع كلمات ترحيب ، ثم أمرت كوليا ، الذى ظهر فى العتبة ، بأن يقود الأمير الى الغرفة الوسط . ان كوليا فتى مرح بشوش ، فى طبيعته ثقة وبساطة .

سأل كوليا الأميرَ وهو يدخله غرفته :

— أين أمتعتك ؟

— لى صرة وضعتها فى حجرة المدخل .

— سأجيئك بها حالا . ليس عندنا خدم الا الطباخة وماتريونا ، لذلك ترانى أساعد فى العمل . ان فاريا° تراقب كل شىء وتغضب . قال جانيا انك وصلت اليوم من سويسرا ، هه ؟

— نعم .

— هل سويسرا جميلة ؟

— جدا .

— فيها جبال ؟

— نعم .

— طيب . سأجيئك بصرتك حالا .

دخلت باربارا آرداليونوفنا . وقالت :

— ستهيئ لك ماتريونا سريرك . هل معك حقيبة ؟

— لا شىء الا صرّة . ذهب أخوك ليجيئنى بها . لقد تركتها فى حجرة المدخل .

عاد كوليا الى الغرفة وقال يسأل :

— لم أجد شيئاً الا هذه الصرة الصغيرة ، فأين وضعت الأخرى ؟

فأجابه الأمير وهو يتناول منه الصرة :

— ليس لى صرَّة أخرى .

— ها . . . خشيت أن يكون فردشينكو قد استولى عليها .

قالت له أخته بقسوة :

— لا تقل سخافات !

كانت باربارا تكلم حتى الأمير بلهجة خشنة وان لم تكن تخلو من تهذيب .

قال لها أخوها :

— [1] Chère Babete ! يمكنك أن تكلمينى بلهجة أرق . أنا لست بتيتسين !

— بل يمكننى أن أجلدك يا كوليا ؛ انك غبى جداً . — قالت مخاطبة الامير — فى كل ما قد تحتاج اليه تستطيع أن تتجه الى ماتريونا . نحن نتغدى فى الساعة الرابعة والنصف . ولك أن تختار : تأكل معنا ، أو يُحمل اليك الطعام فى غرفتك . تعال يا كوليا ، لا تزعج السيد !

— هلمى بنا يا شديدة البأس !

وفيما كانا يخرجان اصطدما بجانيا .

قال جانيا يسأل كوليا :

— هل بابا هنا ؟

فلما أجابه كوليا بأن بابا هنا ، همس فى أذنه ببضع كلمات . فهزَّ كوليا رأسه ملبيا ، وخرج يتبع باربارا آرداليونوفنا .

— كلمة أخرى يا أمير . . . نسيت أن أقولها لك فى

---

[1] يا بابيت العزيزة ! (بالفرنسية فى الاصل) .

زحمة هذه . . القصص كلها ! لى رجاء أتوجه به اليك : قدِّم لى هذه الخدمة — اذا كان ذلك لا يكلفك جهدا كبيرا — وهى ألا تثرثر هنا عمّا جرى بينى وبين آجلايا ، ولا أن تثرثر **هناك** عما ستراه هنا . ذلك أن الأمور هنا أيضا ليست جميلة كلها ، وان يكن هذا كله لا يعنينى . . حاول على الأقل أن تحفظ لسانك اليوم .

أجاب الأمير متضايقا من ملامات جانيا هذه :

— أؤكد لك أنى ثرثرت أقلّ كثيرا مما تظن .

كان واضحا أن العلاقات بينهما تزداد سوءا .

— على كل حال . . . لقد تحملت اليوم بسببك ما فيه الكفاية ! الخلاصة : ذلك هو الرجاء الذى اتوجه به اليك .

— لاحظ أيضا يا جافريلا آرداليونتش أننى لم أكن مرتبطاً بشىء هناك ، لم أكن قد بذلت لك أى وعد ، لم تكن قد طلبت منى أى أمر : ما الذى كان ينبغى أن يمنعنى عن الاتيان على ذكر تلك الصورة ؟ انك لم تسألنى هذا .

قال جانيا وهو يلقى على ما حوله نظرة احتقار :

— اف . يا لها من غرفة حقيرة ! مظلمة ، ونوافذها تطل على الفناء ، جئنا فى وقت غير مناسب من جميع النواحى . . . على كل حال ، ذلك أمر لا شأن لى به ، لست أنا الذى أتولى هذه التأجيرات !

ظهر بتيتسين فى الباب ونادى جانيا . فأسرع جانيا يودّع الأمير وخرج ، رغم ما يبدو عليه من أن هناك أشياء أخرى كان لا يزال يريد أن يقولها . ولكن كان واضحا

أنه لا يعرف من أين يبدأ ، وأنه متحرج مرتبك ؛ حتى ان انتقاده للغرفة كان ايضا بسبب اضطرابه وخجله .

ما ان فرغ الأمير من غسل وجهه ويديه ، ومن ترتيب زينته بعض الشىء ، حتى فتح الباب مرة أخرى ، فدخل عليه قادم جديد .

هو رجل فى نحو الثلاثين من العمر ، طويل القامة ، عريض المنكبين ، يغطى رأسَه الضخم شعرٌ أحمر مجعَّد ، وجهه سمين زاهر اللون ، شفتاه سميكتان ، أنفه قصير عريض ، عيناه صغيرتان غائرتان فى الشحم تعبّران عن سخرية وكأنهما تطرفان بغير انقطاع . فى جملة شخصه شىء من وقاحة . ملابسه أدنى الى الاهمال .

لقد فتح الباب فى أول الأمر الى الحد الذى يتيح له أن يطل برأسه فحسب ؛ وأخذ هذا الرأس يفحص الغرفة خلال بضع ثوان ، ثم أخذ الباب ينفتح ببطء الى أن ظهرت قامة الشخص كلها فى العتبة ، ولكن الزائر لم يدخل مع ذلك ، فانما هو يكتفى الآن بالتفرس فى الأمير طارفا بعينيه ، الى أن أغلق الباب وراءه آخر الأمر ، واقترب ، فتناول كرسيا ، وأمسك يد الأمير امساكا قويا فأجلسه على الديوان قبالته .

قال وهو ينظر الى الأمير بهيئة انتباه واستفهام :

— أنا فردشينكو . . .

فقال الأمير وهو يوشك أن ينفجر ضاحكا :

— طيب ، ثم ماذا ؟

دمدم فردشينكو وهو ما يزال ينظر تلك النظرة نفسها :

— مستأجر هنا .

— تريد أن نتعارف ؟

— هيه ! . . .

بهذا نطق الزائر وهو يشعّث شعره ، ثم أخذ يحدق بنظره الى الزاوية المقابلة من الغرفة وهو يتنهد ؛ ثم عاد يلتفت نحو الأمير ويسأله فجأة :

— هل معك شيء من مال ؟

— قليل .

— كم بالضبط ؟

— خمسة وعشرون روبلا .

— أرنيها .

أخرج الأمير من جيب صديرته ورقة مالية بخمسة وعشرين روبلا ، ومدّها الى فردشينكو . ففضّها هذا ، وفحصها ، وقلبها ، ثم نظر اليها من جهة الشفافية ، ثم قال مفكّرا :

— غريب ! لماذا يقتم لونها هكذا ؟ ان أوراق الخمسة والعشرين روبلا يقتم لون بعضها كثيرا ، على حين أن بعضها الآخر يحول لونها تماما . خذها .

استرد الأمير ورقته المالية . ونهض فردشينكو عن كرسيه . وقال للأمير :

— جئت لأحذّرك أولا من اقراضي مالا ، لأنني سوف أطلب منك أن تقرضني ، فاياك أن تلبي طلبي .

— طيب .

— هل تنوى أن تدفع هنا أجراً ؟

— نعم ، أنوى ذلك .

— أما أنا فلا . شكراً . غرفتي الى جانب غرفتك

هي الأولى على اليمين . هل رأيتها ؟ حاول ألا تجيء اليّ كثيراً . ولكن اطمئن : سأزورك أنا . هل رأيت الجنرال ؟

— لا .

— ولا سمعته ؟

— ولا سمعته طبعاً .

— فسوف تراه اذن وسوف تسمعه . ثم انه يطلب حتى منى أنا أن أقرضه بعض المال ! Avis au lecteur[1] استودعك الله . هل يستطيع المرء أن يحيا اذا كان يسمى فردشينكو ؟ هه ؟

— لم لا ؟

— استودعك الله .

واتجه الزائر الى الباب .

لقد علم الأمير ، فيما بعد ، أن هذا السيد قد أخذ على عاتقه أن يذهل الناس بمرحه وغرابته وشذوذه ، ولكنه لم يفلح فى ذلك ابدا ، حتى ان بعض الناس كانوا يضيقون به وينزعجون منه ، فكان يتألم من ذلك صادقا ، ولكن دون أن يكف عن القيام بمهمته . عند عتبة الباب ، استطاع فردشينكو أن يضفى على نفسه شيئا من خطورة الشأن ، حين اصطدم بقادم جديد : فانه اذ تنحى أمام هذا الزائر الجديد الذى يجهله الأمير ، ليفسح له مجال المرور ، قد غمز بعينه عدة مرات مومئا اليه ، فأتاح له ذلك أن يخرج محتفظا بشيء من الكبرياء .

القادم الجديد رجل طويل القامة ؛ يبدو فى الخامسة

---

[1] تنبيه للقارئ . (بالفرنسية فى الاصل) .

والخمسين من عمره أو يزيد ؛ بدين بعض البدانة ، وجهه محمر سمين مسطح قليلا يحيط بعارضيه سالفان كثيفان اشهبان ؛ له شاربان ؛ عيناه واسعتان جاحظتان بعض الجحوظ . كان يمكن أن يكون لمنظره كله مهابة ، لو لا أن فيه شيئا من سقوط واهتراء بل ومن اتساخ . انه يرتدى ردنجوتا عتيقا يكاد يكون مثقوبا عند الكوعين ، وفى قميصه اهمال وبقع ؛ ومن فمه تفوح رائحة فودكا خفيفة تشمها من قرب . ومع ذلك لا تعدم أوضاعه وحركاته أن تحدث فى النفس بعض التأثير ، رغم أنها محسوبة مدروسة ، فهى تدل على رغبة واضحة عنده فى أن يخطف البصر بوقاره . اقترب الشخص من الأمير بغير تعجل ، وهو يبتسم ابتسامة باشة ، وتناول يده صامتا ، وظل ممسكا بها يتأمل وجهه فى انتباه كأنه يتعرف ملامح لا يجهلها .

ودمدم يقول برفق ولكن بوقار :

— انه هو ، هو ! هو كما لو كان حيا ! لقد سمعتهم ينطقون هذا الاسم المعروف العزيز ، فاستيقظ فى نفسى ماض لن يعود . . . أنت الأمير ميشكين ؟

— نعم .

— أنا الجنرال ايفولجين ، متقاعد بائس . هل يمكننى أن أسألك عن اسمك واسم ابيك ؟

— ليف نيقولايفتش .

— نعم ، نعم ، هو بنفسه ! انت ابن صديقى ، بل استطيع أن أقول انك ابن صديق طفولتى ، نيقولاى بتروفتش !

— كان اسم أبــى نيقولاى لفوفتش .

— لفوفتش ، نعم ، لفوفتش . . .

كذلك صحَّح الجنرال ، ولكن دون تعجل ، بل بثقة تامة ، كأنه لم ينس قط ، وانما زل لسانه بغلطة . وجلس ، وأمسك الأمير بيده ، وأجلسه هو أيضا قربه .

— لقد حملتك بذراعىَّ !

قال الأمير :

— أهذا ممكن ؟ لقد انقضى على موت أبــى عشرون عاما .

— نعم ، عشرون عاما ، عشرون عاما وثلاثة أشهر . لقد كنا فى المدرسة معا ، وما لبثت أن التحقت أنا بالسلك العسكرى .

— أبــى أيضا خدم فى الجيش ، كان ملازما ثانيا فى لواء فاسيليفسكى .

— بل فى لواء بيلوميرسكى . لقد نقل الى لواء بيلوميرسكى عشية وفاته تقريبا . وكنت أنا هنا ، وباركته الى الأبد . وأمك . . .

هنا صمت الجنرال برهة قصيرة كأنما أوقفته عن الكلام ذكرى حزينة .

فقال الأمير :

— ماتت هى أيضا بعد ستة أشهر ، من اصابة ببرد .

— لا ، لم تمت من اصابة ببرد ، أبدا ، صدِّق كلام رجل عجوز . كنت أنا هنا . وقد شهدت جنازتها هى أيضا . لقد ماتت من حزنها على فقد أميرها ، لا من اصابتها ببرد . نعم ، اننى أتذكرها هى أيضا ، الأميرة ! آه . . . يا لعهد الشباب ! بسببها انما أوشكنا ، أنا والأمير ،

مع أننا صديقا طفولة ، أوشكنا أن يقتل كل منا صاحبه .

أخذ الأمير يصغى الى الجنرال بشىء من الشك والارتياب .

— كنت مولّها بحب أمك منذ أن كانت خطيبة ، منذ أن كانت خطيبة صديقى . ولاحظ الأمير ذلك ، فصعق ، وجاءنى ذات صباح فى الساعة السابعة ، فأيقظنى من نومى . ارتديت ثيابى مذهولا ، وساد صمت . . . صمت منه وصمت منى ! . أدركت كل شىء . أخرج أبوك من جيبه مسدسين . مبارزة من خلال منديل . دون شهود . فيم الشهود ما دام كل منا سيرسل صاحبه الى الآخرة بعد قليل ؟ حشونا المسدسين . نشرنا المنديل . اتخذنا مكانينا . أطبق كل منا بفوهة مسدسه على قلب صاحبه ، وأخذ ينظر اليه محدقًا فى عينيه . وفجأة انبجست الدموع من العينين ، وارتجفت اليد : انبجست الدموع من عينيه وعينىَّ فى آن واحد ، وارتجفت يده ويدى معا ! ثم اذا كل منا يرتمى بين ذراعى صاحبه طبعا ، واذا نحن نتبارى فى الكرم ، فالأمير يصرخ قائلا : «هى لك !» ، وأنا أصرخ : «بل هى لك !» الخلاصة . . . الخلاصة . . . سوف تسكن معنا ، أليس كذلك ؟

قال الأمير مدمدما بشىء من السرعة :

— نعم ، ربما بعض الوقت . . .

صاح كوليا يقول وقد ألقى نظرة من الباب :

— ترجوك ماما يا أمير أن تجىء اليها .

فهمَّ الأمير أن ينهض ، ولكن الجنرال وضع يده اليمنى على كتفه ، وعاد يجلسه على الديوان بحركة صداقة ، وقال له :

— لما كنت صديقا وفيا لأبيك فاننى أحرص على أن أنبّهك : أنا كما ترى قد سقطتُ ضحية لظروف فاجعة ، ولكن دون أن يصدر علىّ حكم . دون حكم ! ان نينا ألكسندروفنا امرأة نادرة . وان باربارا آردالیونوفنا ، ابنتى ، فتاة نادرة ! والظروف تجبرنا على أن نؤجر غرفا مفروشة ، وهذا سقوط لا أعرف كيف أسميه . . . سقوط يصيبنى أنا ، أنا الذى كنت أوشك أن أعيّن حاكما عاما ! . . وسنكون سعداء باستقبالك على كل حال ، بينما فى بيتى مأساة !

ألقى عليه الأمير نظرة استفهام فى كثير من الاستطلاع .

— يُدبَّر هنا زواج ، زواج نادر . زواج بين امرأة مشبوهة وشاب يمكن أن يصبح فتى مرموقا فى البلاط الامبراطورى . يريدون أن يدخلوا تلك المرأة الى بيتى ، قرب ابنتى وزوجتى ! ولكننى لن أدع لها أن تدخل الى هذا البيت ما ظللت أتنفس ! سوف أتمدد على عتبة الباب ، فلا تستطيع أن تدخل الا اذا مرّت فوق جسدى ! . . أصبحت لا أكلم جانيا ، بل صرت أتحاشى أن ألقاه . اننى أنبّهك الى هذا عامدا ، لأنك لا بد أن تلاحظه على كل حال ، ما دمت ستقيم معنا . ولكنك ابن صديقى ، ومن حقى أن آمل . . .

قالت نينا ألكسندروفنا منادية ، وقد جاءت الى الباب بنفسها هذه المرة :

— هلاّ تفضلت يا أمير فأدركتنى فى الصالون .

هتف الجنرال يقول :

— تصورى يا عزيزتى . لقد اتضح أننى قد هدهدت الأمير بذراعىَّ !

ألقت نينا ألكسندروفنا على الجنرال نظرة لوم ، ثم ألقت على الأمير نظرة استفهام ؛ لكنها لم تقل شيئا . وتبعها الأمير . فما ان وصلا الى الصالون وجلسا ، وما ان أخذت نينا ألكسندروفنا تقول للأمير شيئا بصوت خافت وعلى عجل ، حتى دخل الجنرال نفسه الى الصالون فجأة . فصمتت نينا ألكسندروفنا فورا ، وعكفت على حياكتها متضايقة تضايقا واضحا ، ولعل الجنرال قد لاحظ تضايقها ، لكن ذلك لم يمنعه من الاستمرار فى اظهار مرح مزاجه . وهتف يقول مخاطبا نينا ألكسندروفنا :

— ابن صديقى ! وعلى نحو لم أكن أتوقعه ! لقد كففت حتى عن أن أحلم بهذا الأمر منذ مدة طويلة ! ولكن هل من الممكن ، يا عزيزتى ، أنك أصبحت لا تتذكرين المرحوم نيقولاى لفوفتش ؟ انك قد عرفته مع ذلك . . . بمدينة تفير !

قالت نينا الكسندروفنا :

— لا أتذكر نيقولاى لفوفتش .

ثم التفتت الى الأمير تسأله :

— أهو أبوك ؟

قال الأمير :

— نعم ، هو أبى .

ثم أضاف يقول للجنرال مصححاً على خجل :

— لكن يخيّل الىّ أنه لم يمت بمدينة تفير ، بل بمدينة اليزافتجراد . لقد قال لى بافليشيف . . .

قال الجنرال مصرا :

— بل مات بمدينة تفير . فانه قد نقل الى تفير

قبيل وفاته بقليل ، بل حتى قبل أن يتطور مرضه ذلك التطور المشئوم . كنت أنت صغيرا جدا فى ذلك الوقت ، فلا تستطيع أن تتذكر النقل ولا السفر . أما بافليشيف فمن الجائز جدا أنه أخطأ ، رغم أنه كان رجلاً ممتازاً .

— هل عرفت بافليشيف أيضا ؟

— كان انسانا نادر المثال . لكننى أنا كنت شاهد عيان ، باركت أباك وهو على فراش الموت .

قال الأمير مرة أخرى :

— لكن أبى مات متهما ، وان كنت لم أستطع أن أعرف السبب فى يوم من الأيام . لقد مات فى المستشفى .

— أوه ! السبب هو قضية الجندى كولباكوف ، وليس هناك أى شك فى أن الأمير كان سيخرج من المحاكمة بريئا .

سأله الأمير بشوق شديد واستطلاع قوى :

— صحيح ؟ أأنت متأكد ؟

هتف الجنرال يقول :

— طبعا طبعا ! لقد انفضت المحكمة دون أن تصدر حكما . قضية مستحيلة ! بل يمكن أن يقال انها قضية محفوفة بالسر . مات قائد سريتنا ، النقيب لاريونوف ، فكُلّف الأمير بان يكون قائدا للسرية موقتا بالنيابة . وفى ذلك الحين ارتكب الجندى كولباكوف عمل سرقة ، اذ سطا على مواد حذائية لرفيق من رفاقه ، ثم باع المسروقات وشرب بثمنها خمرة . طيب . هنا قرّعه الأمير وهدّده بالجلد ، وذلك بحضور الرقيب والعريف . طيب . عاد كولباكوف الى الثكنة ، واستلقى على مضجعه ، فما انقضى ربع ساعة

حتى كان ميتا . طيب . ولكن هذه الحالة لا يتوقعها أحد . وتكاد تكون مستحيلة . ودُفن كولباكوف على كل حال . وكتب الأمير تقريرا بالواقعة ، فشطب اسم كولباكوف من قائمة الجنود . هل هناك ما هو خير من هذا ؟ ولكن ما ان انقضت على هذا الحادث ستة أشهر ، وفى اثناء استعراض جنود اللواء كله رئى الجندى كولباكوف من جديد فى السرية الثالثة من الكتيبة الثانية من فوج مدفعية نوفوزمليانسك* ، وهو الفوج الذى ينتمى الى ذلك اللواء نفسه والى تلك الفرقة نفسها !

هتف الأمير متعجبا وقد بلغ ذروة الدهشة :

— كيف هذا ؟

فتدخلت نينا ألكسندروفنا فجأة فقالت وهى تنظر الى الأمير نظرة حزن تقريباً :

— لا ، ليس الأمر كذلك ! هذا خطأ !

١) Mon mari se trompe

— se trompe? هذا تسرع فى الحكم ! اجهدى أن تحلى بنفسك سراً كهذا السر ! لم يفهم أحد من الأمر شيئا . لقـــد كان يمكن أن أكون أول القائليـن : ٢) qu'on so trompe . ولكننى شهدت الأمر بام عينى ، وعُينت عضوا فى اللجنة . فدلّت جميع المواجهات على أن الرجل هو ذلك الجندى نفسه كولباكوف الذى دُفن قبل ستة أشهر على النحو الذى توجبه الأنظمة العسكرية ، من قرع الطبول

---

١) زوجى مخطئ (بالفرنسية فى الاصل) .

٢) انهم مخطئون (بالفرنسية فى الاصل) .

وما الى ذلك . أنا أسلّم بأن هذه الحالة نادرة جدا ، حتى لتكاد تكون مستحيلة ، ولكن . . .

هنا دخلت باربارا آردالیونوفنا ، فقالت تعلن لأبيها :

— غداؤك مجهز يا بابا .

— آ . . . عظيم . . . لقد أخذت أشعر بالجوع حقا . . . ولكن يمكن أن يقال ان هذه الحالة سيكولوجية . . .

قالت فاريا متململة :

— حساؤك سيبرد !

فجمجم الجنرال يقول وهو يترك الغرفة :

— حالا ، حالا . . .

وسُمع يتم كلامه وهو فى الدهليز : «وذلك رغم جميع التحريات !»

قالت نينا ألكسندروفنا للأمير :

— سيكون عليك أن تغض الطرف عن أمور كثيرة فى آردالیون الكسندروفتش اذا بقيت عندنا . ومع ذلك آمل أنه لن يزعجك كثيرا . انه يتناول وجبات طعامه وحيدا . أظن أنك تسلّم معى بأن لنا جميعا عيوبنا و . . . خصالنا التى قد تكون غريبة شاذة ، حتى أن لبعض الناس من هذه العيوب وهذه الخصال أكثر مما لأولئك الذين يشار اليهم بالاصبع . أريد أن أطلب منك هذا الطلب ملحة : اذا اتفق أن كلمك زوجى عن أجرة الغرفة فقل له انك دفعتها لى . اذا دفعت له مبلغا فسيحسب طبعا ، ولكننى أرجوك أن تتقيد بهذه القاعدة لتسير الأمور بدقة . ماذا يا فاريا ؟

كانت فاريا قد دخلت الغرفة ، ومدت الى أمها صورة

ناستاسيا فيليبوفنا دون أن تقول شيئا . فارتعشت نينا ألكسندروفنا أول الأمر بنوع من الرعب ، ثم أخذت تنعم النظر فى الصورة خلال بعض الوقت وقد ظهر على وجهها شىء من مرارة . وأخيرا ألقت على فاريا نظرة استفهام فقالت فاريا :

— هذه هدية أرسلتها بنفسها اليه اليوم . وسيتقرر كل شىء فى هذا المساء .

قالت نينا ألكسندروفنا مكررة جملة ابنتها بصوت خافت ولهجة يائسة :

— هذا المساء ! اذن لم يبق مجال لأى شك ، ولا محل لأى رجاء . انها باهداء هذه الصورة اليه قد أعلنت كل شىء . . . ولكن أهو الذى أراك الصورة ؟

أضافت نينا ألكسندروفنا هذه الجملة الأخيرة مدهوشة .

— تعلمين أننا أصبحنا منذ شهر لا نكاد نتخاطب . ان بتيتسين هو الذى روى لى كل شىء . أما الصورة فقد رأيتها ملقاة على الأرض قرب المائدة فلممتها .

قالت نينا ألكسندروفنا للأمير وهى تلتفت اليه فجأة :

— كنت أريد أن أسألك يا أمير (والحق اننى من أجل هذا انما رجوتك أن تأتى الى هنا) أأنت تعرف ابنى منذ مدة طويلة ؟ يخيَّل الىَّ أنه قال انك اليوم وصلت من مكان ما ، أليس كذلك ؟

قدّم الأمير شروحا موجزة ، مسقطا أكثر من نصف الوقائع ، فكانت نينا ألكسندروفنا وفاريا تصغيان اليه بانتباه .

قالت نينا ألكسندروفنا :

— أنا لا أحاول أن أعرف شيئا عن جافريلا آردالیونتش حين ألقى عليك هذه الأسئلة . فما ينبغى أن تخطئ الظن

فى هذا المجال . واذا كان هناك ما لا يريد ابنى أن يعترف لى به من تلقاء نفسه ، فاننى لا أحرص على أن أعرفه من غيره . واذا كنت أكلمك فى هذا الموضوع فلأنه قال منذ قليل ، بحضورك ، ثم قال بعد انصرافك : «انه مطلع على كل شىء ، فلا داعى الى التكلف !» . فما معنى هذا ؟ أى . . . أود لو أعرف مدى . . .

فى تلك اللحظة دخل جانيا وبتيتسين . فصمتت نينا ألكسندروفنا حالا . وظل الأمير جالساً الى جانبها ، بينما ابتعدت فاريا قليلا . وكانت صورة ناستاسيا فيليبوفنا ما تزال ظاهرة على منضدة نينا ألكسندروفنا ، أمامها تماما . فلما لمح جانيا الصورة قطب حاجبيه ، واكفهر وجهه ، وتناولها غاضبا ، فرماها على مكتبه الذى يوجد فى أقصى الغرفة .

سألته نينا ألكسندروفنا فجأة :

— هل فى هذا اليوم يا جانيا ؟

— ماذا فى هذا اليوم ؟

بهذا أجاب جانيا منتفضا ، ثم هجم على الأمير فجأة يقول :

— آ . . . فهمت . . . عدت تثرثر ! أهذا مرض فيك ؟ ألا تستطيع ان تكبح نفسك ؟ عليك ان تفهم اخيرا يا صاحب السمو . . .

قاطعه بتيتسين يقول :

— أنا المذنب يا جانيا ، أنا وحدى دون غيرى .

فألقى عليه جانيا نظرة استفهام . فجمجم بتيتسين يقول :

— هذا أفضل يا جانيا ، لا سيما وأن القضية قد

سويت ، بمعنى من المعانى .

قال هذا ثم ابتعد ، وجلس قرب المائدة ، وأخرج من جيبه ورقة ملأى كتابة بالقلم الرصاص ، وأخذ يدرسها . ظل جانيا واقفاً ، مكفهر الهيئة مربد الوجه ، ينتظر انفجار مشكلة عائلية ، بكثير من القلق . حتى انه لم يخطر بباله أن يعتذر للأمير .

قالت نينا ألكسندروفنا :

— ما دام كل شيء قد سوِّى ، فان ايفان بتروفتش على حق طبعا . أرجوك أن لا تقطّب يا جانيا وألا تهتاج . لن أسألك عمّا لا تريد أن تقوله من تلقاء نفسك ، وأؤكد لك أننى مذعنة كل الاذعان . فلا تقلق .

قالت ذلك دون أن تترك حياكتها وبدا وكأنها قالته بهدوء حقا . فدهش جانيا ، لكنه صمت حذرا ، وأخذ ينظر الى أمه منتظرا أن تفصح بمزيد من الوضوح . ان المشاجرات العائلية كلفته حتى الآن ثمنا غاليا . ولاحظت نينا ألكسندروفنا هذا الحذر من جانبه ، فأضافت تقول وهى تبتسم ابتسامة مرة :

— ما زلت تشك ، فلا تصدقنى . اهدأ بالاً . لن ترى دموعا ولا ضراعات رأيتها قبلا ، منى على الأقل . ان رغبتى الوحيدة هى أن تكون سعيداً . أنت تعرف ذلك جيدا . اننى مذعنة لقدرى ، لكن قلبى سيظل معك دائما ، سواء أبقينا معا أم افترقنا . وأنا مسئولة عن نفسى وحدها فأتحدث بلسانى وحده ، أما أختك فلا تستطيع أن تطالبها بمثل هذا . . .

هتف جانيا يقول راشقا أخته بنظرة سخر وكره :

— آه . . . مرة اخرى هى ! أماه : اننى أكرر على مسامعك اليمين التى سبق أن حلفتها لك : ما دمت حيا فلن يجرؤ أحد فى يوم من الأيام أن ينتقص من احترامك . أيا كان الشخص المقصود ، أية كانت الانسانة التى ستجتاز عتبة بابنا ، فاننى سأعرف كيف أفرض عليها توقيرا كاملا وكيف ألزمها باحترام مطلق . . .

لقد بلغ جانيا غاية السرور حتى انه كان ينظر الى أمه بهيئة تعبر عن المصالحة ، وتكاد تزخر رقة وحنانا .

— ما كنت أخشى على نفسى من شيء يا جانيا ، فأنت تعرف ذلك حق المعرفة . وما من أجل نفسى قلقت وتعذبت طوال هذه المدة . يقال ان كل شيء سيسوَّى بينكما هذا المساء ؟ فما الذى سيسوَّى ؟

أجاب جانيا :

— لقد وعدت بأنها ستعلن رأيها هذا المساء فى بيتها . فاما أن توافق واما أن ترفض .

— لقد تحاشينا أن نتكلم فى هذا الأمر منذ ما يقرب من ثلاثة أسابيع ، وحسنا فعلنا . أما الآن وقد تقرر كل شيء ، فاننى لا أجد بدا من أن ألقى عليك هذا السؤال وحده : كيف أمكنها أن تعلن لك موافقتها بل وأن تهدى اليك صورتها بينما أنت لا تحبها ؟ هل يمكن لامرأة لها مثل هذه . . هذه ال . . .

— هذه التجربة ؟ . . .

— ليس هذا ما كنت أريد أن أقوله . هل يمكن أن تكون قد استطعت أنت أن تخدعها الى هذا الحد ؟ ان انزعاجا شديدا قد داخل هذا السؤال بغتة .

فظل جانيا صامتا ، وفكّر لحظة ، ثم أجاب دون أن يحاول اخفاء سخريته :

— ها قد انقدت للاندفاع من جديد يا ماما ! ولم تستطيعى أن تسيطرى على نفسك ؛ وعلى هذا النحو انما كانت تبدأ الأمور عندنا دائما ، فتشب النار فى البارود . لقد قلت انك لن تلقى لا أسئلة ولا ملامات ، وها هى ذى تستأنف ! لندع هذا الأمر ، فذلك خير ، لندعه . . . أؤكد لك ! حسبك أنك أظهرت حسن النية . . . لن أتركك فى يوم من الأيام ، بأى حال من الأحوال ! غيرى كان يفرّ من أخت كهذه الأخت . انظرى كيف تحدجنى ببصرها ! حسبنا هذا ! لقد كنت مبتهجا أشد الابتهاج . . ولكن كيف عرفت اننى أحاول خداع ناستاسيا فيليبوفنا ؟ أما فاريا ، فلتظن ما تشاء . وكفانا هذا الآن !

كان جانيا يزداد حرارة وحماسة عند كل كلمة جديدة ، وكان يسير فى الغرفة بلا هدف . ان أمثال هذه المحادثات تصبح بغتة هى النقطة الحساسة لدى جميع أفراد الأسرة .

قالت فاريا :

— قلت اننى سأترك هذا البيت اذا دخلت هى ، هذا عهد أقطعه على نفسى ولن أخلفه .

هتف جانيا يجيبها :

— عنادا ! وعنادا انما ترفضين زواجك أيضا ! لماذا تهبين فى وجهى ؟ لست أعبأ بشىء يا باربارا آرداليونوفنا . . . فى وسعك أن تنفذى قرارك منذ الآن . لقد ضقت بك ذرعا !

واذ لاحظ جانيا أن الأمير ينهض صاح يقول له :

— كيف تقرر أخيرا أن تتركنا يا أمير ؟

كانت تداخل صوت جانيا منذئذ ، تلك الدرجة من الاهتياج التى يكاد يكون الانسان فيها مسرورا من غضبه ، فهو ينقاد له بدون أى تحفظ ، بل يسترسل فيه بتلذذ متزايد ، وليكن ما يكون ! وكان الأمير قد التفت ليردّ عليه ، لكنه اذ أدرك فى تعبير وجهه المتشنج أنه لم يبق ثمة الا القطرة التى يطفح بها الكيل ، أشاح وجهه وخرج دون أن يقول كلمة واحدة . وفهم بعد لحظات ، من الأصداء التى كانت تصل اليه من الصالون ، أن الحديث قد أصبح منذ انصرافه أشد صخبا وأكثر انفلاتا .

اجتاز القاعة حتى حجرة المدخل ليصل الى الدهليز فالى غرفته . فلما بلغ الباب المفضى الى فسحة السلم سمع أحدا وراء الباب يحاول أن يشدّ حبل الجرس . ولكن الجرس كان معطلا فيما يظهر ، فهو لا يزيد على أن يتحرك تحركا ضعيفا دون أن يسمع له أى صوت . فسحب الأمير المزلاج ، وفتح الباب ، فاذا هو يتقهقر مذهولا مرتعشا بجسمه كله : كانت ناستاسيا فيليبوفنا واقفة أمامه . عرفها رأسا من واقع صورتها . فلما لمحته ومضت عيناها بمعنى الضيق والانزعاج ، وأسرعت تلج حجرة المدخل ، فتصدم الأمير بكتفها عند دخولها ، وتقول له بلهجة حانقة وهى تنضو عنها معطفها :

— اذا كنتَ من الكسل بحيث لا تحمّل نفسك عناء اصلاح الجرس ، فلا أقل من أن توجد فى حجرة المدخل حين يقرع الباب قارع ! ها هو ذا يُسقط معطفى ، الاحمق !

كان المعطف ملقى على الأرض فعلا . فان ناستاسيا فيليبوفنا لم تنتظر أن يساعدها الأمير فى خلع المعطف ، فرمته على ذراعيه بحركة من كتفها دون أن تنظر اليه ، ولم يتسع وقت الأمير لأن يتلقاه .

— كان عليهم أن يطردوك من الخدمة . أبلغهم وصولى .

أراد الأمير أن يقول شيئا ، لكنه كان قد بلغ من الاضطراب أنه لم يستطع أن ينطق بكلمة واحدة ؛ وها هو ذا يتجه نحو الصالون وعلى ذراعه المعطف الذى رفعه من الأرض .

— الآن يحمل معطفى ! ما بالك تأخذ المعطف ؟ هأ هأ هأ ! ألست مجنونا بعض الشىء ؟

قفل الأمير راجعا ، وحدّق اليها كالمتجمد . فلما ضحكت ابتسم هو أيضا ، ولكنه ما يزال عاجزا عن تحريك لسانه بكلمة . فى اللحظة الأولى ، حين فتح لها الباب ، شحب كثيرا . أما الآن فقد تضرج وجهه بالدم .

هتفت ناستاسيا فيليبوفنا ممتعضة وهى تقرع الأرض بقدمها :

— ما هذا الأبله ؟ الى أين تذهب هكذا ؟ ستبلغ عن وصول من ؟

تمتم الأمير :

— عن وصول ناستاسيا فيليبوفنا .

فسألته بسرعة :

— لماذا تعرفنى ؟ أنا لم أرك يوما ! هيّا أبلغ عن وصولى . . . ما هذه الصرخات ؟

أجاب الأمير وهو يتجه نحو الصالون :

— يتشاجرون .

ودخل عليهم الأمير فى لحظة حاسمة : كانت نينا ألكسندروفنا متأهبة لأن تنسى نسيانا كاملا أنها «مذعنة لكل شىء» . كانت تدافع عن فاريا . والى جانب فاريا يقف بتيتسين الذى كان قد ترك ورقته المطروسة كتابة . أما فاريا فلم يكن يبدو عليها كثيرا أنها ارتعبت . ليست هذه الآنسة من النوع الخواف . ومع ذلك كانت فظاظات أخيها تصبح مع كل كلمة أشد غلظة وأثقل وطأة . ولقد اعتادت الفتاة فى مثل هذه الأحوال أن تكف عن المناقشة ، فهى لا تريد على أن تنظر الى أخيها صامتة معبرة بوجهها عن السخرية ، دون أن تحول بصرها عنه . كانت تعرف ان هذا التكتيك قد يوصل اخاها الى أقصى حدوده .

فى تلك اللحظة بالذات دخل الأمير الى الغرفة معلنا :

— ناستاسيا فيليبوفنا !

الفصل التاسع

خيّم صمت شامل . نظر الجميع الى الأمير كأنهم لا يفهمونه ، ولا يريدون أن يفهموا . تجمّد جانيا رعباً .

ان زيارة ناستاسيا فيليبوفنا ، ولا سيما فى مثل هذه اللحظة ، هى فى نظر كل واحد منهم حدث مفاجئ غريب ومقلق ، على الأقل لأن ناستاسيا فيليبوفنا تجىء أول مرة . لقد ظلت حتى الآن متكبرة متعالية ، فلم تعرب فى أحاديثها مع جانيا عن أية رغبة فى معرفة أسرته ، بل لقد أصبحت فى الوقت الاخير حتى لا تجىء على ذكرها كأنها لا وجود لها . ورغم أن جانيا قد سرَّه بمعنى من المعانى ارجاء مثل هذا الحديث الذى يزعجه ويحرجه كثيراً ، فانه فى قرارة نفسه قد حقد على ناستاسيا فيليبوفنا وما نسى تكبرّها هذا . ولقد كان على كل حال يتوقع منها وخزات وسخريات فى حق أهله أكثر مما كان يتوقع منها زيارة . كان يعلم علم اليقين أنها مطلعة على كل ما كان يجرى فى بيته بصدد خطوبته لها ، وعلى كل ما كان يراه ذووه من رأى فيها . فقيامها بهذه الزيارة **الآن** ، بعد اهداء الصورة ، فى يوم عيد ميلادها ، فى اليوم الذى سبق أن وعدت بأنها ستقرر فيه مصيره ، ان قيامها بهذه الزيارة الآن يشير الى قرارها ويدل عليه .

لم تطل البلبلة التى أحدثها دخول الأمير : فها هى ذى ناستاسيا فيليبوفنا بشخصها تظهر فى اطار الباب ، ثم تدخل الغرفة فتصدم الأمير مرة أخرى صدمة خفيفة .

— أخيرا ظفرت بأن أدخل . . . لماذا تربطون جرسكم ؟

كذلك قالت ناستاسيا فيليبوفنا مرحة وهى تمد يدها الى جانيا الذى صار الى جانبها بوثبة واحدة .

وأردفت تسأله :

— مالى أرى وجهك منقلبا ؟ قدّمنى الى الحضور من فضلك . . .

كان جانيا فى غاية الارتباك ، فقدمها الى أخته فاريا ، فتبادلت المرأتان نظرة غريبة قبل أن تمد كل منها يدها الى الأخرى . كانت ناستاسيا فيليبوفنا تضحك وتختبئ وراء قناع من المرح المصطنع ، أما فاريا فلم تحاول أن تخفى شيئا ، فنظرتها ظلت مظلمة ثابتة ولم يظهر فى وجهها حتى طيف ابتسامة مما توجبه أبسط مبادئ الأدب والتهذيب . فتجمد جانيا مذهولا من ذلك حتى كادت تنقطع أنفاسه . ولكن أوان ردّها الى الصواب قد فات ؛ لذلك اقتصر على أن رشقها بنظرة تبلغ من امتلائها بالتهديد والوعيد أنها قرأت فيها عنفا شديدا فأدركت قيمة هذه اللحظة عند أخيها ، فبدا عليها أنها أرادت أن تتساهل فاصطنعت لناستاسيا فيليبوفنا ما يشبه أن يكون ابتسامة (ما يزال أهل هذا البيت يسرفون فى حب بعضهم بعضا) . وجاء دور نينا ألكسندروفنا فأصلحت الحال بعض الاصلاح ، رغم أن جانيا ، من فرط اضطرابه ، قد قدّم ناستاسيا فيليبوفنا اليها بعد تقديمها الى اخته ، ثم زاد على ذلك فذكر اسم امه قبل أن يذكر اسم ناستاسيا فيليبوفنا . ولكن ما ان بدأت نينا ألكسندروفنا كلامها فقالت : «يسرنى جدا أن . . .» حتى التفتت ناستاسيا فيليبوفنا نحو جانيا بحركة سريعة دون أن تدع للأم أن تكمل جملتها ، وصرخت تقول

له بعد أن استقرت على كنبة صغيرة قرب النافذة ، دون أن تُدعى الى الجلوس :

— أين حجرة مكتبك ؟ و . . . وأين السكان الذين يستأجرون عندكم غرفا مع الطعام والخدمة ؟ عندكم مستأجرون ، أليس كذلك ؟

احمر وجه جانيا بشدة ، وهمّ أن يثأثئ بجواب ، لكن ناستاسيا فيليبوفنا كانت قد تابعت كلامها تقول :

— أين يمكنكم أن تسكنوا مستأجرين ؟ ليس لك حتى حجرة مكتب !

ثم التفتت فجأة نحو نينا ألكسندروفنا فقالت لها :

— هل التأجير يدر ربحا ؟

حاولت نينا ألكسندروفنا أن تجيب فقالت :

— التأجير يورث متاعب كثيرة . لا بدّ أن يدر ربحاً بطبيعة الحال ، غير اننا لم نبدأ الا . . .

ولكن ناستاسيا فيليبوفنا كانت قد انقطعت عن الاصغاء اليها ، لأنها التفتت الى جانيا وصاحت تقول له :

— ما لى أرى وجهك منقلباً هذا الانقلاب ! رباه ! ما هذا الوجه الذى له الآن ؟

كان وجه جانيا قد تشوه فعلا بعد بضع لحظات من ذلك الضحك . لقد بارحه فجأة ما أحسه فى أول الأمر من ذهول ، وارتباك مضحك ولكنه شحب شحوبا شديدا ، ان شفتيه الآن متعقفتان متشنجتان ، وقد أخذ يحدّق بنظرة ثابتة خبيثة ، دون ان ينطق بكلمة واحدة ، ودون أن يحول بصره لحظة واحدة ، أخذ يحدّق الى وجه زائره التى ما تزال تضحك .

غير أن ملاحظا آخر كان موجودا هناك ، ملاحظا لم يكن هو أيضا قد استطاع أن يتحرر من حالة البكم التى أغرقته فيها رؤية ناستاسيا فيليبوفنا . لكنه رغم أنه بقى مغروسا فى مكانه من اطار الباب كأنه «وتد» ، قد استطاع أن يلاحظ شحوب جانيا وأن يرى ما طرأ على وجهه من تغير خبيث . ان ذلك الملاحظ هو الأمير . وها هو ذا يتقدم الى الأمام خطوة على غير ارادة منه ، حتى لكأنه آلة ، وكان مروّعا بعض الروع ، وقال لجانيا :

— اشرب قليلا من ماء ، واكفف عن النظر هكذا . . .

كان واضحا أنه قال ذلك دون أى حساب ، بل ودون أية نية خاصة ، وانما هو انقاد لاندفاعة أولى . لكن أقواله هذه كان لها أثر خارق ، فكأن كل ما كان يعتمل فى نفس جانيا من حنق قد انصب على الأمير دفعة واحدة ، فها هو ذا يمسكه من كتفه ، ويحدق اليه بنظرة فيها انتقام وكره ، صامتا كأنه عاجز عن أن ينطق بكلمة . فسرى فى الجمع كله انفعال شامل ، حتى ان نينا ألكسندروفنا اطلقت صرخة صغيرة . وقلق بتيتسين فتقدم خطوة الى أمام . وكان كوليا وفردشينكو قد ظهرا فى الباب فوقفا مذهولين مشدوهين ؛ وظلت فاريا وحدها خافضة رأسها ، ولكنها تراقب الأحداث بانتباه . كانت قد لبثت واقفة الى جانب أمها ، عاقدة ذراعيها على صدرها .

لكن جانيا لم يلبث أن عاد الى صوابه على الفور فى اللحظة الاولى تقريبا ، فأطلق ضحكة عصبية ، ثم استرد وعيه كاملا ، وصاح يقول بصوت حاول أن يجعله مرحا طبيعيا :

— ماذا دهاك يا أمير ؟ أتراك طبيبا ؟ لقد كدت تخيفني . ناستاسيا فيليبوفنا ، اسمحي لي أن أقدّمه ، هو من أثمن الناس ، وان كنت لا أعرفه أنا نفسي الا منذ هذا الصباح .

نظرت ناستاسيا فيليبوفنا الى الأمير محتارة .

— أمير ؟ أهو أمير ؟ تصوروا انني منذ قليل ، حين رأيته في حجرة المدخل ، قد ظننته خادما ، فأرسلته الى هنا ليبلغ عن وصولي ! هاْ هاْ هاْ ! .

قال فردشينكو وقد اقترب مسرعا ، مبتهجا بأن الضحك قد استؤنف :

— لا بأس ! لا بأس ! لا بأس . . . se non è vero (١)

— كدت أُسيء معاملتك يا أمير ، فاغفر لي ، أرجوك ! . . فردشينكو ، ماذا تفعل هنا في مثل هذه الساعة ؟ كنت آمل على الأقل ألا أصادفك أنت هنا .

قالت ناستاسيا فيليبوفنا ذلك ، ثم سألت جانيا ثانية ، وهو ما يزال ممسكاً كتف الأمير يقدّمه اليها :

— مَنْ ؟ أي أمير ؟ ميشكين ؟

فقال جانيا :

— هو مستأجر عندنا .

واضح أن الأمير قد قُدّم على أنه شخص طريف نادر (جاء في الوقت المناسب جدا ليخرجهم من الوضع الزائف) ،

---

(١) ان لم يكن صحيحا . . . (بالايطالية في الاصل) . بداية العبارة الايطالية الشائعة (ان لم يكن هذا صحيحا فهو مدبر جيدا) . **المراجع** .

حتى لقد كاد يُدفع نحو ناستاسيا فيليبوفنا دفعا ؛ بل ان الأمير سمع كلمة «أبله» سمعا واضحا يدمدم بها فردشينكو . كما يبدو . وراءه على سبيل الشرح لناستاسيا فيليبوفنا .

تابعت ناستاسيا فيليبوفنا كلامها وهي تفحص الأمير من قمة الرأس الى أخمص القدمين بدون اي تحرج :

— قل لي : لماذا لم تصحح لي خطئي منذ قليل ، حين ارتكبت في حقك . . . تلك الغلطة الرهيبة ؟

كان يبدو على ناستاسيا فيليبوفنا توق شديد الى سماع جوابه ، لاقتناعها سلفا بأن هذا الجواب سيبلغ من الحماقة أنها لن تستطيع الا أن تضحك منه .

تمتم الأمير يقول :

— لقد دُهشت من رؤيتك فجأة أمامي . . .

— وكيف عرفتَ أنني أنا ؟ أين التقيت بي قبل اليوم ؟ عجيب . . . يخيَّل اليَّ حقا أنني سبق أن رأيته في مكان ما ! واسمح لي أن أسألك أيضا لماذا جمدت في مكانك لا تتحرك ؟ ماذا وجدت فيَّ من شيء يثير جمودا لهذه الدرجة ؟

قال فردشينكو مجعِّدا وجهه :

— هيَّا . . . أجب ! آه . . . حين أفكّر فيما كان يمكن أن أجيب به على مثل هذا السؤال لو كنت في مكانك ! هيَّا يا أمير . . . انك اخرق في الحقيقة !

قال الأمير لفردشينكو ضاحكا كذلك :

— ولكن أنا أيضا كان يمكنني أن أقول أشياء كثيرة لو كنت في مكانك . — ثم تابع كلامه مخاطبا ناستاسيا فيليبوفنا : — في هذا الصباح خطفت صورتك بصري .

وبعد ذلك تحدثت عنك مع آل ايبانتشين ، و . . . فى ساعة مبكّرة من هذا الصباح ، حين كنت بالقطار ، حتى قبل وصولى الى بطرسبرج ، حدثنى عنك بارفيون روغوجين كثيرا . . . وفى اللحظة التى فتحت لك فيها الباب ، فى تلك اللحظة نفسها كنتِ بخاطرى ، فاذا أنا أراك أمامى .

— ولكن كيف عرفت أننى أنا ؟

— عرفت ذلك من رؤيتى للصورة ، و . . .

— وماذا ؟

— ولأننى انما كنت أتخيّلك هكذا ، وكأننى قد رأيتك ايضاً فى مكان ما .

— ولكن أين ؟ أين ؟

— يخيَّل الىَّ أننى سبق أن رأيت عينيك . . . ولكن هذا مستحيل ! لم يكن ذلك الا . . . أنا لم أعش هنا قط . لعل ذلك حدث فى حلم . . .

هتف فردشينكو قائلا :

— مرحى أمير ! لا ، لا ، اننى أسحب جملتى se non è vero أسحبها ! ولكن . . .

ثم أضاف بالأسف :

— ولكن هذا كله بسبب سذاجته وبراءته !

كان الأمير قد نطق تلك العبارات القليلة بصوت مختلج متقطع ، حتى لقد كان يتوقف عن الكلام فى كثير من الأحيان ليسترد أنفاسه . كان كل شىء فيه يدل على انفعال شديد . وكانت ناستاسيا فيليبوفنا تتأمله باستطلاع قوى ، لكنها كفّت عن الضحك .

وفى تلك اللحظة نفسها جلجل صوت قادم جديد

من وراء الجمهور الكثيف الذى كان يحتشد حول الأمير وناستاسيا فيليبوفنا ، فشطر الجمهور شطرين ان صح التعبير . انه رب الأسرة ، الجنرال ايفولجين بشخصه ، يقف الآن أمام ناستاسيا فيليبوفنا . كان يرتدى بدلة «فراك» تحتها قميص نظيف ، وكان شارباه مدهّنين . . .

كان هذا فوق ما يستطيع جانيا أن يطيق .

ان جانيا شاب مغرور ممتلئ حبا لنفسه الى درجة الهوس . وقد كان يبحث خلال هذين الشهرين الأخيرين عن نقطة ما من اللائق الاعتماد عليها ليضفى على شخصه شأنا أنبل . واذ شعر أنه ما يزال مبتدئا فى الطريق الذى رسمه لنفسه ، واذ كان غير واثق من قدرته على المضى الى آخر الشوط ، فقد قرر مستميتاً أن يتصف سلوكه فى بيته بأكبر الوقاحة ، فكان فى بيته طاغية مستبدا ، ولكنه لا يجرؤ أن يفعل هذا أمام ناستاسيا فيليبوفنا التى تركته فى بحران الشك الى آخر دقيقة ، وكانت تسيطر عليه بلا رحمة ، حتى لقد خلعت عليه لقب «الشحاذ النافد الصبر» ، وهو لقب نُقل اليه أنها وصفته به ، فآلى على نفسه ليجعلنها تدفع ثمن ذلك فى المستقبل غاليا ، مع احتفاظه بذلك الأمل الصبيانى وهو أن يحل كل المشكلات وأن يصالح جميع المتناقضات . وهو الآن كان مضطرا أن يشرب هذه الكأس المرة حتى الثمالة وفى مثل هذه اللحظة ! والأنكى من ذلك أن عليه أن يتحمل تعذيبا يُعدّ أقسى أنواع التعذيب عند انسان مغرور ، ألا وهو أن يحمر خجلا ومذلة بسبب أهله فى بيته . ففى هذه اللحظة بالذات خطر بباله هذا الخاطر : «هل يستحق الثوابُ كلّ هذا العذاب فى آخر

حساب ؟»

ان ما يحدث الآن أمام عينيه لم يكن قد تخيله أثناء هذين الشهرين الأخيرين الا ليلا ، وكان ذلك كابوسا يجمّده رعبا ويحرقه خجلا ! ان اللقاء فى داخل أسرته بين أبيه وناستاسيا فيليبوفنا يتم الآن أخيراً . لقد كان يحاول فى بعض الأحيان ، ليزعج نفسه ، ويعذبها ، أن يتخيّل الجنرال أثناء حفلة العرس ، ولكنه لم يستطع فى يوم من الأيام أن يكمل رسم هذه اللوحة الأليمة ، فكان يتركها سريعا . لعله كان يضخّم هذه البلية تضخيماً كبيرا ، ولكن هذا ما يحدث دائماً للأشخاص المغرورين . لقد اتسع وقته خلال هذين الشهرين لأن يفكر ولأن يتخذ قرارا ، وآلى على نفسه ليضيقن على خناق ابيه مهما كلف الأمر ، ولو الى حين ، ويخفيه حتى لقد يبعده عن بطرسبرج اذا أمكن ذلك ، سواء أ وافقت أمه أم رفضت . وهو قبل هذه اللحظة بعشر دقائق ، أى عندما دخلت ناستاسيا فيليبوفنا ، قد بلغ من البهت والشدّه أنه نسى نسيانا تاما احتمال ظهور آرداليون ألكسندروفتش ، فلم يحتط للأمر أى احتياط ، ولم يتخذ أى تدبير ! وها هو ذا الجنرال يظهر الآن أمام جميع الناس ؛ وأكثر من ذلك أنه يجيء كالمتهيئ لاحتفال فخم فهو يرتدى بدلة «فراك» ، وذلك كله فى اللحظة التى لا تحاول فيها ناستاسيا فيليبوفنا الا أن «تتحين فرصة للاستهزاء به والتهكم على أسرته» (كان هو من هذا على يقين تام) . والا فما عسى أن يكون مغزى زيارتها ؟ أجاءت تلتمس صداقة أمه وأخته ، أم جاءت لتهينهما فى عقر داره ؟ ثم ان الشك ينتفى

تاما متى رأى المرء موقف كل من المعسكرين . فأما أمه وأخته فقد جلستا متنحيتين كمن أدركهما اذلال ، وأما ناستاسيا فيليبوفنا فقد كان يبدو عليها أنها نسيت حتى وجودهما فى الغرفة . . . ولئن استمرت فى اتخاذ هذا الموقف ، فذلك يدل حتما على أنها تبيت نية !

استولى فردشينكو على الجنرال ليقدّمه فقال الجنرال وهو ينحنى بوقار ويبتسم برصانة :

— آرداليون الكسندروفتش ايفولجين . جندى قديم جار عليه الدهر ، أب لأسرة يسعدها أن تأمل أن تدخل فى عدادها سيدة تبلغ هذا المبلغ من الروعة . . .

ولم يكمل كلامه . فان فردشينكو قد أسرع يدس تحته كرسيا ؛ واذ أن الجنرال يكون ضعيفا على ساقيه بعد وجبات الطعام فى العادة ، فقد تهالك على الكرسى ، بل قل انه انهار عليه انهيارا ، ولكن دون أن يشعر من ذلك بأى اضطراب أو خجل . جلس أمام ناستاسيا فيليبوفنا تماما ، وتناول يدها ، ثم حمل أصابعها الى شفتيه بحركة بطيئة مدروسة مؤثرة . كان الجنرال ، بوجه عام ، امرأ يصعب احراجه . ولا يزال مظهره الخارجى ، اذا استثنينا شيئا من الاهمال في ملبسه لا يخلو من مهابة ، وكان هو لا يجهل ذلك . حتى لقد استطاع فى الماضى أن يُستقبل فى أرقى مجتمع ، ثم لم يطرد منه طردا نهائيا الا منذ سنتين أو ثلاث سنين . ومنذ ذلك الحين انما أخذ ينقاد لبعض مواطن الضعف فيه بدون اى تحفظ . ولكن شيئا من اللباقة لم يزل فى حركاته حتى الآن . بدا على ناستاسيا فيليبوفنا سرور عظيم بظهور آرداليون ألكسندروفتش الذى كان واضحا

أنها سبق أن سمعت عنه .

وأراد آردالیون الکسندروفتش أن يتكلم فقال :

— علمت أن ابنى . . .

— آ . . . نعم ، ابنك ! . . . أنت أيضا ظريف لطيف ! لماذا لا تجىء الىَّ أبدا ؟ أأنت الذي تختبئ أم أن ابنك هو الذى يخبئك ؟ أنت على الأقل تستطيع أن تزورنى دون أن تعرض سمعة أحد لخطر .

استأنف الجنرال الكلام فقال :

— أبناء القرن التاسع عشر وآباؤهم . . .

وصاحت نينا ألكسندروفنا تقول بصوت عال :

— ناستاسيا فيليبوفنا ، تفضلى فأذنى لآردالیون ألكسندروفتش بالانصراف لحظة ، فانهم يطلبونه .

— آذن له ؟ أرجوك . لقد سمعت عنه كثيرا فأنا أرغب فى معرفته منذ مدة طويلة ! ما هى الأعمال التى تناديه ؟ أليس محالا على التقاعد ؟ لن تتركنى يا جنرال ، لن تنصرف ، أليس كذلك ؟

— أتعهد لك بأن يزورك شخصيا ، أما الآن فهو فى حاجة الى شىء من الراحة .

هتفت ناستاسيا فيليبوفنا تسأله وهى تلوى شفتها استياء كطفلة مغناج انتُزعت منها لعبتها :

— آردالیون ألكسندروفتش ، يزعمون أنك فى حاجة الى راحة !

فأسرع الجنرال يتكفل بجعل وضعه أدعى الى الاضحاك أيضا ، اذ قال يخاطب زوجته بلهجة متفخمة ونبرة لائمة ، وهو يحمل احدى يديه الى موضع القلب من صدره :

— عزيزتى ، عزيزتى . . .

فسألت فاريا أمها بصوت عال :

— ألا تريدين أن تخرجى يا ماما ؟

— لا يا فاريا ، سأبقى الى النهاية .

لا يمكن الا أن تكون ناستاسيا فيليبوفنا قد سمعت السؤال والجواب ، ولكن مرحها لم يزدد من ذلك الا شدة وقوة . وأخذت تمطر الجنرال بالأسئلة ، فما انقضت خمس دقائق حتى كان الجنرال فى اقصى حالات المهابة وراح يخطب وسط ضحكات الحفل كله .

شدَّ كوليا حافة سترة الأمير ، وقال له :

— أنت على الأقل اخرجه من هنا بأى وسيلة ! ألا تستطيع أن تفعل ذلك ؟ أرجوك !

وكانت تلمع فى عينى الصبى المسكين دموع غضب .

وأضاف يقول بينه وبين نفسه :

— لعنك الله يا جانيا !

استرسل الجنرال فى الاجابة عن أسئلة ناستاسيا فيليبوفنا ، فقال :

— نعم ، كنت صديقا حميما لايفان فيدوروفتش ايبانتشين فى الواقع . فأنا وهو والمرحوم الأمير ليف نيقولايفتش ميشكين الذى أتيح لى اليوم أن أفرح بضمّ ابنه الى صدرى بعد فراق عشرين عاما ، كنا لا نفترق ، كنا أشبه بالفرسان الثلاثة : آتوس ، وبورتوس ، وآراميس . ولكن . . . واحزناه ! . . واحد منا هو الآن فى القبر ، مضى ضحية النميمة ورصاصة لئيمة ؛ والثاني يمثل أمامك وما يزال يصارع النمائم والرصاصات . . .

هتفت ناستاسيا فيليبوفنا تسأله متعجبة :

— الرصاصات ؟

— هى هنا ، فى صدرى ، أصابتنى أثناء حصار كارس* ، وما زلت أحسها حين يسوء الجو . ثم اننى أحيا كما يحيا فيلسوف : أتجول ، أتنزه ، ألعب «الضاما» بمقهى كبورجوازى اعتزل العمل ، وأقرأ جريدة[1] "Indépendance" . ولكننى قطعت صلتى بصاحبنا بورتوس — ايبانتشين قطعاً تماماً ، منذ ثلاث سنين ، فى أعقاب حادث وقع فى القطار بصدد كلب صغير .

سألته ناستاسيا فيليبوفنا باستطلاع شديد :

— كلب صغير ؟ ما تلك القصة ؟ كلب صغير ؟ فى القطار ؟ . .

وكانت كأنها تحاول أن تتذكر شيئا ما .

— أوه ! هى قصة سخيفة لا تستحق أن تُروى ، حدثت لى مع مسز سميث ، صاحبة الأميرة بيلوكونسكايا . . . لا تستحق أن تُحكى .

هتفت ناستاسيا فيليبوفنا تقول فرحة :

— بل اقصصها علىَّ ، يجب أن تقصها علىَّ حتما !

قال فردشينكو :

— أنا أيضا لا أعرفها بعد[2] C'est du nouveau

قالت نينا ألكسندروفنا بصوتها الضارع مرة أخرى :

— آردالیون ألكسندروفتش !

---

[1] «الاستقلال» (بالفرنسية فى النص الاصلى) .

[2] هذا امر جديد (بالفرنسية فى النص الاصلى) .

وصرخ كوليا يقول :

— بابا ، انهم يطلبونك !

بدأ الجنرال يحكى القصة بشعور الراضى عن نفسه فقال :

— قصة سخيفة تُحكى بكلمتين . منذ سنتين تقريبا ، بعد تدشين خط السكة الحديدية بين . . . ، كنت مسافرا بالقطار لأعمال هامة جدا تتعلق بتسليم منصبى (وكنت قد ارتديت الثياب المدنية منذ ذلك الحين) . قطعت تذكرة سفر بالدرجة الأولى ، فلما صرت فى حجرة القطار جلست أدخن ، بل قولى اننى استمررت أدخن ، لأننى كنت قد بدأت أدخن قبل ركوب القطار ؛ وكنت وحيدا فى الحجرة . ولئن لم يكن التدخين ممنوعا ، فانه ليس مباحا على كل حال . وانما جرى العرف بالتسامح فى أمره ، وذلك يختلف باختلاف الأشخاص . وكان زجاج النافذة مخفوضا . وفجأة ، قبل انطلاق رنة الايذان بتحرك القطار ، دخلت الحجرة سيدتان وصلتا فى أخر لحظة ، ومعهما كلب صغير ، وجلستا قبالتى . كانت احداهن ترتدى ثيابا تبلغ غاية الفخامة ، لونها أزرق سماوى . والثانية اكثر تواضعا من الأولى ترتدى ثوباً من حرير أسود فوقه كاب . والسيدتان كلتاهما على شىء من الجمال ، ولكنهما متعاليتان ، تتحدثان باللغة الانجليزية . استمررت أنا فى التدخين . ولقد فكرت فى الأمر طبعا ، لكننى قررت مع ذلك ألا أكف عن التدخين ، على أن أدير وجهى نحو زجاج النافذة الذى ظل مفتوحا . كان الكلب الصغير فوق ركبتى السيدة التى ترتدى ثوبا أزرق ، وهو كلب صغير جدا جدا ، لا

يزيد عن قبضة يدى ، جسمه أسود ، وقوائمه بيضاء . . .
كلب نادر كل الندرة . وكان فى رقبته طوق من فضة عليه نقوش . بقيت أنا ساكنا صامتا . لكننى لاحظت أن السيدتين تبدوان مستاءتين ، بسبب السيجار طبعا . فاحداهما تتفرس فى وجهى من خلال نظارة ذات اطار من عظم سلحفاة تمسكها بيدها . ظللت لا أردّ بشىء ، ما دامتا لا تقولان لى شيئا ! لو كلّمتانى على الأقل ، لو طلبتا منى ألا أدخّن ، اذن لكان يمكن أن ألام . . . ان للبشر لغة يتخاطبون بها ! لكن السيدتين لبثتا صامتتين . . . وفجأة . . . بدون أى انذار ، أؤكد لك أن ذلك تمّ بدون أى انذار . . . كأن السيدة قد فقدت عقلها . . . انتزعت السيدة ذات الثوب الأزرق . . . انتزعت من يدى السيجار ، ورمته من النافذة . واستمر القطار يسير ، بينما أنا أنظر اليها مبهوتا مصعوقا . انها امرأة وحشية ، وحشية فعلا ، وحشية تماما ، رغم أنها جميلة ، بضة ، طويلة ، شقراء ، زاهية اللون ، (بل زاهية اللون كثيرا) . صعقتنى بنظرتها صعقا . وهأنا ذا ، دون أن أقول كلمة واحدة ، بأدب كامل ، بل بادب يبلغ غاية الرقة ، أمدّ اصبعىّ الى الكلب ، فاحمله بهما من جلد رقبته حملا لطيفا وأرميه من النافذة ليلحق بسيجارى ! لم يكد يتسع وقته لأن يعول اعوالة صغيرة ! واستمر القطار يسير . . .

هتفت ناستاسيا فيليبوفنا تقول وهى تنفجر ضاحكة وتصفق بيديها كصبية صغيرة :

— أنت شيطان !

وزأر فردشينكو يقول :

— مرحى ! مرحى !

وابتسم بتيتسين هو أيضا ، رغم أنه كان هو أيضاً قد دُهش واستاء من دخول الجنرال . وحتى كوليا أخذ يضحك ، حتى لقد صرخ يقول «مرحى !»

واصل الجنرال كلامه يقول متحمساً ، ظافراً :

— كنت على حق ، كنت على حق جداً . فاذا كان السيجار ممنوعاً فى حجرة القطار ، فالكلاب أوْلى أن تكون ممنوعة أيضا .

صرخ كوليا يقول متحمسا :

— مرحى ، بابا ! عظيم ، رائع ! لو كنت فى مكانك لفعلت مثل الذى فعلت أنت حتما !

سألت ناستاسيا فيليبوفنا نافدة الصبر :

— وماذا فعلت تلك السيدة ؟

أظلم وجه الجنرال ، ثم قال :

— هى ؟ هنا جرت الأمور مجرى سيئا : فبدون أن تقول كلمة واحدة ، بدون أى تمهيد ، صفعتنى ! قلت لك : انها امرأة وحشية ، وحشية تماماً !

— وأنت ؟

خفض الجنرال عينيه ، ورفع حاجبيه ، وأعلى كتفيه ، وزمّ شفتيه ، وباعد ذراعيه ، وقال أخيراً بعد صمت :

— لم أستطع أن أكبح جماح نفسى .

— هل ضربتها بشدة ؟

— لا ، أحلف لك ! لقد أحدث الأمر يومئذ فضيحة ، لكننى لم أضربها بشدة . لم يكن ذلك منى الا ردّ فعل ، لا لشىء الا أن أبعدها . غير أن الشيطان دبّر لى هنا «مقلبا» لعينا ! فالسيدة التى تلبس ثوبا أزرق اتضح انها

انجليزية ، وأنها مرافقة الأميرة بيلوكونسكايا ، بل وتكاد تكون صديقتها . اما التى فى ثوب اسود فهى كبرى اميرات بيلوكونسكى ، عانس عمرها حوالى خمس وثلاثين عاما . ومن المعروف ما هى العلاقات بين جنرالة ايبانتشينا وآل بيلوكونسكى . تخيّلى الدراما : اغماءات ، دموع ، حداد (كان الكلب الصغير أثيرهما) ، صيحات الأميرات الست والسيدة الانجليزية ! ولقد ذهبت أعرب عن أسفى وأقدم اعتذارى طبعا ، حتى لقد كتبت رسالة ، غير أنى لم أُستقبل ، لا أنا ولا الرسالة ، ونشأ عن ذلك شقاق بينى وبين ايبانتشين بطبيعة الحال . فهأنا ذا الآن مشنَّع علىَّ ، منفىٌّ عنهم ، مبعد من صحبتهم !

سألت ناستاسيا فيليبوفنا فجأة :

— ولكن اسمح لى ، كيف يمكن هذا ؟ لقد قرأت منذ خمسة أيام أو ستة ، فى "Indépendance" * (وأنا أقرؤها بانتظام) ، قرأت هذه القصة نفسها تماما ! بل وحتما نفسها تماما ! حدث هذا على خط السكة الحديدية الذى يحاذى شاطئ نهر الراين ، بين رجل فرنسى وامرأة انجليزية : هى انتزعت منه سيجاره على النحو الذى وصفت ، وهو رمى كلبها الصغير من النافذة بالطريقة التى ذكرت ؛ وكل شىء جرى على نحو ما جرى لك دون أى اختلاف ، فحتى ثوب السيدة كان أزرق بلون السماء !

احمر وجه الجنرال احمرارا شديدا . واحمر وجه كوليا أيضا ، وأمسك رأسه بيديه . وأسرع بتيتسين يشيح بوجهه . فكان فردشينكو وحده مـــا يزال يضحك ملء حلقه . أما جانيا ، فالأفضل ألا نتكلم عنه . لقـد

ظل هنالك يعانى ألما أخرس لا يطاق .

تمتم الجنرال يقول :

— أؤكد لك أن هذا الشىء نفسه قد حدث لى . . .

وصاح كوليا :

— فعلا وقع لأبـى حادث مزعج مع مسز سميث ، صاحبة بيلوكونسكايا . أنا أتذكر هذا .

عادت ناستاسيا فيليبوفنا تلح مصرة فى غير رحمة ولا شفقة :

— كيف يحدث لك هذا الشىء نفسه ؟ أتتكرر قصة واحدة فى طرفى أوروبا ، بجميع تفاصيلها ، حتى الثوب الأزرق الذى لونه كلون السماء ؟ سوف أرسل اليك "Indépendance Belge"

وتابع الجنرال كلامه ملحا :

— لاحظى مع ذلك ان حادثى وقع منذ سنتين . . .

— آ . . . اذا كان الأمر كذلك ، فـ . . . طبعا !

قالت ناستاسيا فيليبوفنا هذا وهى تضحك كأنما قد اعترتها نوبة هستيرية .

قال جانيا بصوت مرهق مرتجف ، وهو يمسك أباه من كتفه :

— بابا ، أرجوك أن تخرج معى قليلا . . . أريد أن أقول لك كلمتين .

كان كره لا نهاية له يسطع فى نظرته .

وفى تلك اللحظة دوى فى المدخل صوت الجرس قويا عنيفا يكاد ينخلع له الجرس انخلاعا ، فكان يدل على زيارة غير عادية . فأسرع كوليا يفتح الباب .

الفصل العاشر

سُمعت فجأة ضوضاء جمهور آتية من حجرة المدخل . ان من كان فى الصالون يدرك أن عدة أشخاص قد دخلوا ، وأن آخرين ما يزالون يدخلون . كانت عدة أصوات تتكلم فى آن واحد ، وتصرخ عند المدخل وعند السلّم الذى ظل بابه مفتوحا . واضح أنهم زوار غريبون جدا . أخذ الجميع ينظر بعضهم الى بعض متحيرا . واندفع جانيا الى القاعة الكبيرة ، غير أن عددا من الأشخاص كانوا قد دخلوا الى هناك .

صاح صوت يعرفه الأمير :

— آ . . . هأنت ذا يا يهوذا ، يا خائن ! سلام جانيا ، يا وغدا عريقا !

وصاح صوت آخر يقول مؤيدا :

— نعم ، انه هو ، هو نفسه !

لم يبق لدى الأمير أى شك . ان أحد الصوتين هو صوت روغوجين ، وان الصوت الآخر هو صوت ليبيديف .

تجمّد جانيا على العتبة متبلدا ، وأخذ ينظر صامتاً ، دون أن يحاول اعتراض دخول هؤلاء الاشخاص العشرة أو الاثنى عشر الذين كانوا يجتاحون الغرفة وراء بارفيون روغوجين . كانت هذه الجماعة متنوعة جدا ، يتميز أفرادها لا بتنوع هيئاتهم فحسب ، بل بتنوع وقاحتهم . ان بعضهم دخلوا كما هم ، بفرواتهم ومعاطفهم وكانوا يبدون جميعا سكارى بعض الشىء ، رغم أن أحدا منهم لم يكن سكران جدا . وكان يظهر عليهم جميعا أن كلا منهم فى حاجة الى الآخرين

لكى يدخل . فما كان لواحد منهم أن يجرؤ على أن يدخل لو كان وحيدا ، ولكنهم كانوا كمن يدفع بعضهم بعضا الى الدخول دفعا . حتى روغوجين الذى كان على رأسهم ، انما كان يدخل محاذرا ؛ فكان يبدو مظلم الوجه مهموم النفس الى درجة الهياج . أما الآخرون فلم يكونوا الا جوقة أو قل لم يكونوا الا عصبة عليها أن تساعده . كانت العصبة تضم ، عدا ليبيديف ، زاليوجيف الذى عنى بتجعيد شعره عناية كبيرة ، وترك فروته فى حجرة المدخل ، ودخل طلقا متبخترا ، ووراءه شخصان أو ثلاثة أشخاص من هذا الطراز نفسه كان واضحا أنهم أبناء تجار ؛ وكان فى العصبة كذلك رجل يرتدى معطفا على الزى العسكرى ، ورجل قصير سمين جدا ما ينفك يضحك بغير انقطاع ؛ ورجل ضخم ، بدين هو أيضا ، بدانة غير عادية ، يكاد يبلغ طوله مترين ، متجهم الوجه شديد الصمت ، لابد أنه كان يعوّل على قبضتى يديه كثيرا ؛ وطالب من طلاب الطب ؛ وبولندى متملق يلازمهم . وعلى فسحة السلّم سيدتان تنظران الى حجرة المدخل ولا تجرؤان أن تدخلا . فأغلق كوليا الباب أمامهما وشدّ المزلاج .

— سلام جانيا الوغد ! انك لم تكن تتوقع أن ترى بارفيون روغوجين ، أليس كذلك ؟

هكذا ردّد بارفيون روغوجين حين وصل الى باب الصالون فوقف أمام جانيا . ولكنه فى تلك اللحظة نفسها ، لمح فى الغرفة ، قبالته تماما ، على حين فجأة ، ناستاسيا فيليبوفنا . واضح أنه كان أبعد ما يكون عن تخيل التقاءها هنا لأنّ رؤيتها أحدثت فى نفسه تأثيرا خارقا ، فاذا هو

يبلغ من الشحوب وانكفاء اللون أن شفتيه أصبحتا زرقاوين .
قال في رفق بصوت خافت ، كأنما هو يحدث نفسه ، وقد شُلَّ فلا يدرى ماذا يفعل :

— ما يقال صحيح اذن . انتهى الأمر ! . .

ثم قال من بين أسنانه ، وهو ينظر الى جانيا نظرة تفيض بغضب حانق لا يُغالب :

— طيب . . . ستحاسب ! اه . . . يا لك . . .

لقد انحبست أنفاس روغوجين ، فلم يكد يستطيع أن ينطق الا بكثير من العناء . وتقدم فى الصالون ، ولكنه حين أبصر نينا ألكسندروفنا وفاريا على حين فجأة ، توقف شاعرا ببعض الخجل رغم كل انفعاله . ودخل ليبيديف وراءه ، يتبعه كظله ، وهو سكران جدا . ثم دخل الطالب ، فالعملاق ذو القبضتين الهائلتين ؛ ودخل وراءهما زاليوجيف يحيى ذات اليمين وذات الشمال ؛ ثم دخل الرجل القصير السمين يحاول أن يشق لنفسه طريقا . ان وجود السيدات قد كبحهم قليلا ، وكان واضحا أنه يربكهم ارباكا كبيرا ، ولكن المرء يحس أن هذا الارباك سيزول متى حانت لحظة البدء . . . فان وجود السيدات لن يحول دون الفضيحة متى تُطلق اشارة البدء .

قال روغوجين فى ذهول ، ولكن مع شىء من الدهشة :

— كيف ؟ أأنت أيضا هنا يا أمير ؟ وما تزال اللبادتان على حذاءيك ؟

وتنهَّد . لكنه كان قد نسى الأمير وعاد ينقل بصره الى ناستاسيا فيليبوفنا ، وهو يقترب منها مزيدا من الاقتراب ، كأنما يجذبه اليها مغناطيس .

وكانت ناستاسيا فيليبوفنا ، هى أيضاً ، تتفرس فى الدخلاء قلقة مستطلعة .

وأخيرا ثاب الى جانيا صوابه . فقال بصوت عال وهو يلقى على الدخلاء نظرة قاسية ، مخاطباً روغوجين بخاصة :

— اسمحوا لى ! ما معنى هذا ؟ أأنتم هنا فى اسطبل أيها السادة ؟ ! أمامكم هنا أمى وأختى . . .

قال روغوجين من بين أسنانه :

— نرى أنهما أمك وأختك .

وزاد ليبيديف يقول متضامنا مع روغوجين :

— واضح أنهما أمك وأختك .

وأغلب الظن أن صاحب القبضتين القويتين قدَّر أن الحين قد حان ، فاذا هو يهمهم .

فصاح جانيا فجأة ورافعا لهجته الى درجة الانفجار ، قائلاً :

— كفى ! أرجوكم أولا أن تنتقلوا الى القاعة ، واسمحوا لى بعد ذلك أن أتعرف بـ . . .

ضحك روغوجين ضحكة شريرة ساخرة دون أن يتحرك من مكانه وقال :

— عجيب ! لم يتعرفنى ! ألم تتعرف روغوجين ؟

— هبنى التقيت بك فى مكان ما ، فاننى . . .

— هه ! التقيت بى فى مكان ما ! أنسيت اذن أنك منذ أقل من ثلاثة أشهر قد سلبتنى بالقمار مائتى روبل هى ملك أبى ؟ لقد مات الشيخ المسكين قبل أن يتسع وقته لمعرفة ذلك . أنت جررتنى الى اللعب ، وصاحبك

كنيف تولى الغش . أفلا تتعرفنى اذن ؟ فى وسع بتيتسين أن يشهد . على كل حال ، يكفى أن أخرج من جيبى ثلاثة روبلات ، وأن أريكها حتى تركع وتسير على أربع الى فاسيلفسكى [1] أملا فى الحصول عليها . هذا أنت ! تلك هى نفسك الخسيسة ! وانما جئتُ الآن أيضا لأشتريك كذلك بالمال ! لا تنظر الى حذاءىَّ فأنا أملك يا صاحبى مالا كثيرا ، وفى وسعى أن أشتريك أنت وجميع ذويك . . . لو شئت اشتريتكم جميعا ، جميعا !

كان روغوجين يزداد اندفاعا ، ويبدو أشد سكرا لحظة بعد لحظة . وهتف يقول :

— آه ! لا تطردينى يا ناستاسيا فيليبوفنا ! قولى لى كلمة واحدة لا أكثر : أأنت مقبلة على الزواج به أم لا ؟

ألقى روغوجين هذا السؤال كما يلقيه انسان يشعر بأنه هالك ، وخاطب ناستاسيا فيليبوفنا كما يخاطب انسان الهه المعبود ، ومع ذلك كان فى لهجته جرأة هى جرأة من حُكم عليه بالاعدام فلم يبق هنالك ما يخاف أن يفقده . وراح ينتظر الجواب بقلق قاتل .

شملته ناستاسيا فيليبوفنا بنظرة ساخرة متعالية . ولكنها حين ألقت بصرها على فاريا ونينا الكسندروفنا ثم على جانيا ، غيَّرت موقفها ، وقالت تجيبه فى رفق وجد ، بصوت تلوح فيه الدهشة :

— لا ، أبدا ، ماذا دهاك ؟ ثم كيف خطر ببالك أن تلقى علىَّ هذا السؤال ؟

---

[1] جزيرة فاسيلفسكى — حىّ ناء من احياء بطرسبرج . المراجع

هتف روغوجين يقول كمن جُنَّ فرحاً :

— لا ؟ لا ؟ أصحيح هذا ؟! لقد زعموا لى أنك . . . آه . . . طيب . يا ناستاسيا فيليبوفنا ! هم يدعون أنك وعدت جانيا بأن تتزوجيه ! كيف تتزوجين هذا ؟ هذا الـ . . . ؟ أذلك ممكن ؟ (لقد قلت لهم هذا !) ان فى وسعى أن اشتريه كله بمائة روبل ، فاذا أعطيته ألف روبل أو قولى ثلاثة آلاف روبل فى سبيل أن يعدل عن الزواج ، لهرب عشية الزواج تاركاً خطيبته لي . أليس هذا صحيحا يا جانيا ، يا وغد ؟ ألن تقبل الثلاثة آلاف روبل ؟ خذ ! اليك هى ! من أجل هذا انما جئت اليوم ! لقد جئت لأحصل على توقيع منك بالعدول عن الزواج . قلت سأشتريك ، ولسوف اشتريك فعلاً !

صرخ جانيا يقول وهو يحمرّ تارة ثم يشحب تارة اخرى :

— اذهب من هنا ! أنت سكران !

أحدثت هذه الصرخة انفجارات أصوات . كانت عصبة روغوجين لا تنتظر منذ مدة طويلة الا أول استفزاز . وها هو ذا ليبيديف يهمس فى أذن روغوجين ببعض الكلام مهتما أشد الاهتمام .

أجاب روغوجين :

— أصبتَ يا سيادة الموظف ! أصبتَ يا أيها السكّير ! ولمَ لا ، أخيرا ؟

ثم هتف يقول وهو ينظر الى ناستاسيا فيليبوفنا كالمجنون ، فتارة برعب وتارة بجرأة تشبه أن تكون وقاحة :

— ناستاسيا فيليبوفنا ! اليك ثمانية عشر ألف روبل ! . . . وهناك مبالغ أخرى ! . . .

قال ذلك ووضع أمامها ، على منضدة صغيرة ، حزمة ملفوفة بورق أبيض ، ومربوطة بخيط .

ولم يجرؤ أن يتمّ ما كان يريد أن يقوله .

همس ليبيديف فى أذنه مرة أخرى يقول مرتاعاً :

— لا ، لا هذا ! . .

كان واضحاً أن ضخامة المبلغ قد روّعته ، وأنه يقترح البدء بمبلغ اقل كثيراً . فأجابه روغوجين :

— لا يا صاحبى ، هنا أخطأت . . . هنا أنت غبى . .

واذ رأى شررا يقدح فى نظرة ناستاسيا فيليبوفنا ، عاد الى فكرته ، وأخذ يرتجف ، وأضاف يقول :

— بل نحن كلانا غبيان ، أنت وأنا . . . آه . . . ما كان أشد حماقتى حين سمعت لك وكذبت .

أضاف روغوجين هذه الجملة الأخيرة بلهجة فيها ندم عميق .

فبعد أن لاحظت ناستاسيا فيليبوفنا بكثير من الانتباه كيف انقلب وجه روغوجين وتشوّه ، انفجرت تضحك فجأة ، ثم أضافت تقول بلهجة خالية من الكلفة ، طافحة بالوقاحة ، وهى تنهض عن الكنبة كأنما لتنصرف :

— ثمانية عشر ألف روبل ، لى أنا ؟ ها هى طبيعة الفلاح تنكشف !

وكان جانيا يراقب المشهد منقبض القلب .

صاح روغوجين يقول :

— بل أربعون ألفا ، أربعون ألفا ، لا ثمانية عشر ! لقد وعدنى بتيتسين وبسكوب بأن يدفعا لى أربعين ألف روبل فى الساعة السابعة ! أربعون ألف روبل عدا ونقدا .

أصبح المشهد دنيئا حقا ، ولكن ناستاسيا فيليبوفنا ظلت تضحك ، ولم تعزم أمرها على الانصراف ، كأنها تتعمد أن يطول المشهد . وقد نهضت نينا ألكسندروفنا وفاريا ، هما أيضاً ، ووقفتا تنتظران صامتتين مروَّعتين ما عسى أن ينتهى اليه الأمر . فأما فاريا فعيناها تلتمعان ؛ وأما نينا ألكسندروفنا فقد هزّها تعاقب الأحداث هذا هزاً قويًّا فهى ترتجف حتى لتكاد تسقط مغشياً عليها .

— اذا كان الأمر كذلك ، فاننى أرفع المبلغ الى مائة ألف ! نعم ، فى هذا اليوم نفسه ساقدم مائة ألف روبل ! بتيتسين ، ساعدنى فى جمع هذا المبلغ ، ولك حسابك !

همس بتيتسين فجأة وهو يقترب منه بحركة نشيطة ويمسك ذراعه :

— هل جننت ؟ أنت سكران ، سوف يستدعون الشرطة ! أين تظن نفسك ؟

قالت ناستاسيا فيليبوفنا كأنما تثيره وتحرّضه :

— الخمرة هى التى تكذب !

فأخذ روغوجين يصرخ قائلاً وقد ازدادت حماسته ازدياداً كبيراً :

— لا ، أنا لا أكذب ! سوف تقبضين مائة ألف روبل ! هذا المساء ! نجّنى يا بتيتسين ، خذ ما تريده يا روحاً مرابية . واحصل لى على مئة ألف حتى المساء ! سوف أبرهن على أننى لا أتباخل !

هنا أرعد صوت آرداليون ألكسندروفتش على حين فجأة يقول غاضبا مهدِّداً وهو يتقدم نحو روغوجين :

— ما معنى هذا كله أخيرا ؟

ان هذه الاندفاعة المباغتة التى لم يكن يتوقعها أحد من العجوز بعد أن ظل صامتا حتى ذلك الحين . قد أحدثت أثرا مضحكا ، فانطلقت ضحكات هنا وهناك .

قال روغوجين وهو يضحك ساخراً :

— من أين خرج لنا هذا ؟ تعال معنا أيها العجوز فتشرب حتى تسكر !

فصرخ كوليا الذى كان يبكى عارا وأسى :

— هذا دناءة !

وصاحت فاريا فجأة وهى ترتعش غضبا من قمة رأسها الى أخمص قدميها :

— هل يعقل ألا يكون بينكم واحد يخرج هذه الوقحة من هنا ؟

فأجابت ناستاسيا فيليبوفنا تقول بمرح فيه احتقار :

— أأنا أوصف بأننى وقحة ! ما كان أغبانى حين جئت لأدعوهم الى سهرتى ! انظر كيف تعاملنى أختك يا جافريلا آرداليونتش !

ظل جانيا بضع لحظات كالمصعوق من اندفاعة أخته . ولكنه حين لاحظ أن ناستاسيا فيليبوفنا عازمة فى هذه المرة فعلاً على أن تتصرف . هجم على فاريا كالمجنون فأمسك يدها بحنق شديد .

وهتف يسألها وهو ينظر اليها كمن يريد أن يحيلها الى رماد على الفور :

— ماذا فعلت ؟

كان قد خرج عن طوره . وأصبح لا يدرى ماذا يصنع .

صرخت فاريا تقول وهى ترشق أخاها بنظرة انتصار وتحد :

— ماذا فعلت ؟ وأنت الى أين تجرنى ؟ أتراك تريد منى ، أيها الدنىء ، أن أقدّم اليها اعتذارى هى التى أهانت أمك ، وغطّت بيتك كله بالعار ؟

ولبثا على هذه الحال بضع لحظات ، وجها لوجه . كان جانيا ما يزال ممسكاً يد أخته بيده . وحاولت فاريا ان تخلّص يدها مرة أو مرتين بكل ما تملك من قوة ، لكنها لم تتمالك نفسها ، فاذا هى بغتة تخرج عن طورها فتبصق فى وجه أخيها .

صرخت ناستاسيا فيليبوفنا تقول :

— يا لها من فتاة ! يا بتيتسين ! أهنئك !

زاغ بصر جانيا ، ونسى نفسه تماما ، فرفع يده يريد أن يضرب أخته بكل قواه . وكان لا بد أن تسقط يده على وجهها ، لو لا أن يدا أمسكت فجأة ذراع جانيا بانطلاقة سريعة فأوقفتها .

لقد وقف الأمير بينه وبين أخته .

قال الأمير حازما ، ولكنه كان يرتعش بجميع أعضائه هو أيضا ، كما يحدث فى اثر اضطراب شديد :

— طيب ، كفاكم ! كفاكم ، اذا !

فزأر جانيا قائلا وهو يترك يد فاريا :

— أأظل أجدك دائما فى طريقى ؟

وكانت يد جانيا قد أصبحت طليقة . وكان قد بلغ ذروة السخط . فاذا هو ينزل بيده على وجه الأمير صفعة قوية .

— صاح كوليا يقول وهو يرفع ذراعيه :

— آه . . . رباه !

وانطلقت الهتافات من كل جهة . كان الأمير شاحبا ، يحدّق الى عينى جانيا بنظرة غريبة مثقلة لوما ، وكانت شفتاه المختلجتان تحاولان أن تنطقا بشيء ما ، وكانت ابتسامة غريبة غير مناسبة أبدا تشنّجهما . واستطاع أخيرا أن يتلفظ فقال :

— طيب ، هذا يخصنى . . . أما هى . . . فلن أسمح لك بأن تمسها ! . .

ولكنه فقد سيطرته على نفسه فجأة ، فترك جانيا ، وستر وجهه بيديه ، وابتعد الى الركن ووقف مواجهة الحائط ، وقال بصوت متقطع :

— آه . . . لشد ما ستشعر بالخزى والعار من فعلتك !

وكان جانيا كالمسحوق فعلا . هرع كوليا الى الأمير يعانقه ويقبّله ، وتبعه روغوجين وفاريا وبتيتسين ونينا ألكسندروفنا ، تبعه الجميع ، حتى الشيخ آرداليون ألكسندروفتش .

تمتم الأمير قائلا وهو ما يزال يبتسم تلك الابتسامة غير المناسبة :

— لا بأس !

وصرخ روغوجين :

— لسوف يندم على ما فعل ! لسوف تخجل يا جانيا من أنك أسأت الى مثل . . . هذه النعجة (لم يجد كلمة أخرى) ! دعهم يا أمير ، يا صديقى لا تعرهم اهتماما ؛ فسوف ترى كيف يعرف روغوجين أن يحب !

تأثرت ناستاسيا فيليبوفنا ، هى أيضا ، أشد التأثر

من فعلة جانيا وموقف الأمير . ان وجهها الذى يكون فى العادة شاحب اللون والذى يعبر فى العادة عن شرود الذهن ، وذلك ما لا يتفق كثيرا مع ضحكها الذى كانت تصطنعه اصطناعا منذ قليل ، قد غيّرته الآن عاطفة جديدة . هذا واضح كل الوضوح . ومع هذا كان يبدو انها لم ترغب فى اظهار ذلك ، فهى تحاول أن تحافظ على ما كان يعبّر عنه وجهها من سخرية .

وفجأة تذكرت السؤال الذى أثارته منذ قليل ، فدمدمت تقول بشيء من الجد بغتة :

— حتما ، سبق أن رأيت هذا الوجه فى مكان ما !

فهتف الأمير فجأة يقول بلهجة عتاب عميق ، لكنه عتاب فيه مودة وصداقة :

— وأنت ، حتى لا تشعرين بخجل ! أنت لست تلك المرأة التى حاولت الآن ان تقدميها لنا . هل يمكن ان يكون كذلك ؟

دُهشت ناستاسيا فيليبوفنا ، وحاولت أن تبتسم كأنما لتخفى شيئا ما . وبعد أن ألقت نظرة على جانيا اتجهت نحو باب الغرفة مضطربة . لكنها حتى قبل أن تصل الى حجرة المدخل ، عادت أدراجها فجأة ، فاقتربت من نينا ألكسندروفنا فتناولت يدها وحملتها الى شفتيها . ودمدمت تقول بصوت سريع ، وبحرارة ، وقد اشتعل وجهها واحمرّ :

— لقد حزر . صحيح أننى لست هكذا . . .

ثم استدارت وخرجت ، فى هذه المرة بسرعة حتى أن أحدا لم يتسع وقته لأن يعرف لماذا هى رجعت أدراجها ؛ كل ما هنالك أنهم رأوها تكلّم نينا ألكسندروفنا ببضع كلمات

همسا ، ولعلهم رأوها تقبّل يدها . غير أن فاريا رأت كل شيء ، وسمعت كل شيء ، وتابعتها بنظراتها مدهوشة .

عاد الى جانيا رشده ، فاندفع ليصحب ناستاسيا فيليبوفنا ، لكنها كانت قد خرجت ، فأدركها فى السلّم .

صرخت تقول له :

— لا تصحبنى ! الى اللقاء فى هذا المساء ! لا تتخلف ! هل سمعت ؟

فعاد جانيا مضطربا ، مفكرا . ان لغزا ثقيلا يجثم الآن على قلبه ، بل هو الآن أثقل مما كان . وطافت صورة الأمير أيضا بخاطره . . . وقد بلغ من عمق الاستغراق أنه لم يكن يرى انسحاب عصبة روغوجين التى كان أفرادها يصدمونه فى المدخل متدافعين متعجلين ترك المنزل فى اثر رئيسهم . كانوا جميعا يتناقشون بصوت عال . وكان روغوجين نفسه يمشى الى جانب بتيتسين ، ويكلمه ملحا فى شيء لا بد أنه خطير ولا يحتمل أى تأخير .

حتى اذا مرّ أمام جانيا قال له :

— خسرت يا جانيا !

فتابعهم جانيا بنظرة قلقة .

الفصل الحادى عشر

ترك الأمير الصالون وحبس نفسه فى غرفته . فسرعان ما أسرع اليه كوليا ليواسيه . كان يبدو على الصبى المسكين أنه أصبح لا يستطيع الانفصال عنه . قال له :

— احسنت اذ انصرفت . ستسوء الأمور مزيدا من السوء هناك . يحدث هذا فى جميع الأيام . كل ذلك بسبب ناستاسيا فيليبوفنا تلك .

قال الأمير :

— عندكم ، يا كوليا ، آلام كثيرة متراكمة .

— نعم ، هذا صحيح . لا داعى للحديث عنا . فالذنب كله ذنبنا . ولكن لى صديقا هو اشقى منا بكثير . هل تريد أن أعرّفك به ؟

— بسرور كبير . أهو رفيقك ؟

— نعم ، تقريبا . سأشرح لك الأمر فيما بعد . . . ما رأيك أليست ناستاسيا فيليبوفنا جميلة ؟ لم يسبق لى أن رأيتها حتى الآن ، رغم كل ما بذلت فى سبيل ذلك من جهود . كانت اليوم باهرة حقا ، باهرة ! كان يمكننى أن أغفر لجانيا كل شيء لو كان يتزوجها عن حب . أما أن يأخذ مالا فهذا هو العيب !

— نعم ، أخوك لا يعجبنى كثيرا .

— أفهم ذلك جيدا ، ولا سيما بعد ما . . . هل تريد أن أقول لك رأيى ؟ هناك أحكام شائعة لا أطيقها البتة . يكفى أن يقوم مجنون أو معتوه أو حتى وغد مجرم ،

وهو فى حالة هذيان بصفع احد الناس حتى يتلطخ شرف الرجل ، الى الابد ، فاذا هو لا يستطيع أن يغسل الاهانة الا بالدم ! اللهم الا ان يمشوا أمامه ركّعا ضارعين اليه أن يصفح ويغفر . فى رأيى أن هذا طغيان واستبداد وأنه سخف وذلك هو موضوع الدراما التى كتبها ليرمونتوف بعنوان : «الحفلة التنكرية» ، والتى أجد أنها بلهاء ، بل وأنها مخالفة للطبيعة . يجب أن نذكر على كل حال أن تلك الدراما هى التى كتبها ليرمونتوف فى طفولته تقريبا .

— أعجبتنى أختك كثيرا .

— أرأيت كيف بصقت فى وجه جانيا ؟ شجاعة فاريا ! ومع هذا فانك أنت لم تبصق . وما أظن ان مردّ ذلك الى نقص شجاعتك . ها هى ذى بنفسها . صدق المثل : اذكر الذيب وحضّر القضيب . كنت أعلم أنها لا بد أن تجىء ! انها نبيلة ، وان تكن لها نواقص أيضا .

كانت أول حركة من فاريا أنها قالت :

— أنت لا عمل لك هنا ولا شأن . اذهب الى أبيك . لا بد أنه يُضجرك يا أمير ؟

— لا ، بالعكس .

— ها هى ذى الأخت الكبرى تندفع وتثور ! ذلك هو عيبها . ولكن ، بالمناسبة ، لقد ظننت أن أبانا سيتبع روغوجين . لا بد أنه نادم الآن على أنه لم يفعل .

وأضاف كوليا يقول وهو يخرج :

— يستحسن فعلا أن أذهب اليه فأرى ما هنالك !

— الحمد لله ! استطعت أن أقود ماما وأن أرقدها ، ولم يحدث انفجار جديد . جانيا غارق فى خجله وهمومه

هناك ما يدعوه الى ذلك على كل حال . يا له من درس ! . . لقد جئت لأشكرك ، ولأسألك أيضا ألم تكن تعرف ناستاسيا فيليبوفنا قبل اليوم ؟

— لا ، لم أكن أعرفها .

— فلماذا قلت لها اذن ، وجها لوجه ، أنها ليست «تلك» المرأة ؟ ويبدو انك حزرت الواقع . من الجائز فعلا أنها ليست تلك المرأة . على كل حال ، طاش عقلى ، فأصبحت لا أفهم من الأمر شيئا ! لا شك فى أنها كانت تنوى أن تهيننا . ذلك واضح . وقد سبق أن سمعت عنها أشياء كثيرة غريبة . ولكن اذا صدق أنها جاءت لتدعونا أنا وماما ، فكيف نفسر أنها بدأت بمعاملة ماما تلك المعاملة ؟ ان بتيتسين يعرفها جيدا . وقد قال انه لم يستطع ان يعلل سلوكها . وموقفها ذاك من روغوجين ؟ لو كانت تحترم نفسها لما تكلمت بمثل هذه اللغة ، فى منزل خطيبها . . . وأمى قلقة عليك كل القلق أيضا .

قال الأمير وهو يحرك يده بحركة عدم الاكتراث :

— ما هذا بشىء !

— انه لغريب مع ذلك أنها أطاعتك . . .

— كيف . . . أطاعتنى ؟

— حين قلت لها أن عليها أن تشعر بالخجل ، فاذا هى تتغير دفعةً واحدة .

ثم أضافت فاريا وهى تبتسم ابتسامة خفيفة :

— ان لك عليها نفوذا يا أمير !

وفُتح الباب ، ودخل جانيا من حيث لم يكن يُتوقع دخوله البتة .

وحتى رؤية فاريا لم تحمله على التردد . تلبث عند العتبة لحظة ، ثم دنا من الأمير وقد بدا فى وجهه الحزم والثبات ، وقال فجأة بانفعال قوى :

— يا أمير ، لقد كنت انا دنيئا ، فاغفر لى يا عزيزى .

كانت قسمات وجهه تعبر عن ألم كبير . فتأمله الأمير مشدوها ولم يجب فورا . فأسرع جانيا يكرر قوله نافد الصبر :

— اغفر لى ، أرجوك ، اغفر لى ! هل تريد ان اقبِّل يدك ؟

كان الأمير مصعوقا ، وعانق جانيا بذراعيه دون ان يقول كلمة واحدة . تبادلا القبلات صادقة .

قال الأمير أخيرا وهو يسترد انفاسه بكثير من العناء :

— ما كان ليخطر ببالى أنك قادر على هذا . . . كنت أظن أنك . . . غير قادر عليه .

— على الاعتراف بأخطائى ؟ . . انى لأتساءل كيف أمكننى أن أعدَّك أبله ! انت الذى ترى ما لا يستطيع الآخرون ان يلاحظوه فى يوم من الأيام . انه ليكون مفيدا أن أجرى معك حديثا ، ولكن . . . ربما كان السكوت أفضل !

قال الأمير وهو يومئ الى فاريا :

— وهذه انسان آخر يجب عليك ان تستغفره .

فصاح جانيا قائلا وهو يشيح بوجهه عن فاريا :

— لا ، لا ، هؤلاء جميعا أعداء لى . تأكد يا أمير أننى قمت بمحاولات كثيرة . لا ، هنا لا يغفرون غفرانا صادقا قط !

فقالت فاريا فجأة :

— بل سأغفر لك !

— وستذهبين هذا المساء الى بيت ناستاسيا فيليبوفنا ؟

— أذهب ، اذا أمرتنى بأن اذهب . ولكن احكم فى الأمر بنفسك : هل يمكننى الآن ان أذهب الى هناك ؟

— ما دامت ليست «تلك» . انك ترين الألغاز التى تلقيها علينا ! ألعاب سحرية !

قال جانيا ذلك وضحك ضحكة خبيثة .

— أنا أدرك أنها ليست ما يتراءى لنا ، وأن فى جعبتها ألاعيب . ولكن ما هى ؟ ثم انتبه يا جانيا ! أأنت تعرف رأيها فيك على الأقل ؟ صحيح أنها قبَّلت يد ماما ، ولنفرض أن ذلك من الألاعيب ، ولكنها مع ذلك قد سخرت منك وتهكمت عليك ! هذه مذلات لا تساويها خمسة وسبعون ألف روبل ! لا يا أخى ! عهدى فيك أنك قادر على الشعور بعواطف نبيلة ، لذلك ترانى أقول لك هذا الكلام . صدِّقنى . أنت نفسك لا تذهب اليها هذه الليلة ! حذار أن تذهب ! لا يمكن أن ينتهى الأمر بخير !

قالت فاريا ذلك ، وأسرعت تخرج من الغرفة منفعلة أشد الانفعال .

قال جانيا وهو يضحك مستهزئا :

— كذلك هنَّ جميعا ! هل يتخيَّلن أننى أنا نفسى لا أعرف ذلك ؟ لا شك أننى أعرف أكثر مما يعرفون !

وهنا جلس جانيا على الديوان ، فكان واضحا أنه ينوى اطالة زيارته .

تجاسر الأمير فقال وجلاً :

— اذا كنت تعرف ، فلماذا اخترت اذن هذا التعذيب عالما أن خمسة وسبعين الف روبل لا تساويه ؟

فدمدم جانيا يقول :

— ليس هذا هو الأمر . ولكن قل بالمناسبة ، فأنا أحرص على أن أعرف رأيك : هل هذا «التعذيب» تساويه خمسة وسبعون ألف روبل ام لا تساويه ؟

— أعتقد أنها لا تساويه .

— مفهوم . هل هو عار ان يتزوج الرجل على هذه الشروط ؟

— عار جدا !

— طيب ، فاعلم أننى سأتزوج ، والآن سأتزوج حتما . فمنذ قليل ، كنت ما أزال مترددا ، أما الآن فقد انتهى الامر ! لا تقل شيئا ! أنا أعرف ماذا تريد ان تقول . . .

— لا أريد أن أتكلم عمَّا ظننت . كل ما هنالك أننى مدهوش من ثقتك البالغة . . .

— مِمَّ ؟ اية ثقة ؟

— من ثقتك أولا بأن ناستاسيا فيليبوفنا ستتزوجك حتما ، وأن هذا أمر مفروغ منه ؛ ومن ثقتك ثانيا ، اذا تزوجتك فعلا ، بأن هذه الخمسة وسبعين ألف روبل ستلقى فى جيبك رأسا . وعموما فأنا أجهل أشياء كثيرة ، طبعا .

اقترب جانيا من الأمير بحركة نشيطة . وقال :

— طبعا ، أنت لا تعرف كل شىء . والا فلماذا كان يمكن أن أقبل احتمال هذا الثقل كله ؟

— يخيَّل الىَّ أن ذلك يحدث فى كثير من الأحيان :

يتزوج الرجل طمعا فى مال ، ولكن المرأة هى التى تستولى على المال .

دمدم جانيا يقول واجما مفكرا قلقا :

— لـ . . . لا ! لن تجرى الأمور هذا المجرى فى زواجنا . . . هناك . . . هناك ظروف معينة . . .

ثم أسرع يضيف :

— أما عن جوابها فلم يبق ثمة اى شك فيه . ما الذى يدعوك الى افتراض أنها قد ترفضنى ؟

— لا أعرف اكثر مما رأيت . وقد قالت باربارا آردالیونوفنا ، هى أيضا ، منذ قليل . . .

— هيه ! هنَّ يقلن هذا الكلام ، لأنهن لم يبق لهنَّ ما يقلنه ! أما روغوجين فقد كانت تسخر منه . ثق بهذا . ذلك شىء رأيته واضحا ، كان جليا كل الجلاء . كنت خائفا منذ قليل ، لكننى أرى الآن رؤية واضحة . اللهم الا ان يكون حكمك مبنيا على سلوكها مع امى وابى وفاريا ؟

— وعلى سلوكها معك .

— هب ملاحظتك صحيحة . ولكن هذا ليس الا روح الانتقام الابدية لدى النساء . ان ناستاسيا فيليبوفنا امرأة سريعة الاهتياج ، شديدة التأذى ، كثيرة الانانية : لكأنها موظف من الموظفين المنسيين فى كشوف الترقيات ! لقد حرصت على أن تثبت لهم قوة شخصيتها ، وعلى أن تظهر لهم احتقارها لهم . . . ولى انا ايضا . هذا صحيح ، لست انكره . . . لكنها ستتزوجنى مع ذلك . انك لا تستطيع أن تتخيل الألاعيب التى يمكن ان تدفع اليها الكبرياء .

ان هذه المرأة تعدنى وغداً ، لأننى على علمى بأنها خليلة رجل آخر ، أرضى أن اتزوجها فى سبيل المال صراحة . ولكنها لا يخطر ببالها ان شخصا آخر كان يمكن أن يخدعها بطريقة أدنأ ، كأن يأخذ يحدثها مفيضا عن الافكار الليبرالية والآراء التقدمية وتحرير المرأة وما الى ذلك ، ليجرَّها بعد ذلك كالخيط عبر ثقب الابرة . ان فى وسعه بمثل هذه الاساليب أن يقنع هذه الحمقاء المغرورة (وبكل سهولة !) بأنه لا يختارها الا «لنبل قلبها ، وكثرة محنها» ، مع انه فى حقيقة الأمر لا يفكر الا فى مالها . أما أنا فلا احظى بالقبول والرضى ، لأننى أكره المواربة ، ولكن كان علىَّ فى الواقع أن ألجأ الى ذلك الاسلوب . ثم قل لى : ما الذى تفعله هى ؟ ألا تفعل هذا الشىء نفسه ؟ فلماذا اذن تحتقرنى ، وتمثِّل هذا التمثيل كله ؟ السبب بسيط : هو أننى أرفض أن أرضخ ، وأظهر العزة والكبرياء أنا أيضا ! على كل حال ، سوف نرى !

— أتراك أحببتها من قبل ؟

— نعم ، فى بداية الأمر . ولكن كفى . . . هناك نساء لا يصلحن لأن يُتخذن الا خليلات . لا أدعى بهذا القول أنها كانت خليلتى . فاذا رضيت ان تكون عاقلة وأن تعيش هادئة ، رضيتُ بذلك أنا أيضا ، أما اذا أخذت تتمرد ، فسرعان ما سأتركها وآخذ المال معى . لا أريد ان أكون اضحوكة ، ذلك أهم شىء عندى .

قال الأمير بحذر :

— يخيَّل الىَّ ان ناستاسيا فيليبوفنا ذكية ، فكيف تقع فى الفخ اذا كانت توجس هذا الشقاء كله سلفا ؟

فى وسعها أن تتزوج رجلا آخر . ذلك ما يثير دهشتى .

— هنا يكمن الحساب كله ! انك لا تعرف كل شىء يا أمير . . ان ههنا . . ثم انها مقتنعة على كل حال بأننى أحبها حبا يبلغ الجنون . . أؤكد لك ذلك ، وأغلب الظن عندى أنها هى أيضا تحبنى على طريقتها ، فكما يقول المثل : «من يحب حبا قويا يعاقب عقابا شديدا» . طوال حياتها ستظل تعدنى ولدا ديناريا[1] (ولعل ذلك هو ما تحتاج اليه) ، مع حبها اياى على طريقتها فى الوقت نفسه . أنها تهيئ نفسها لهذا ، فذلك هو طبعها . انها امرأة روسية الى أقصى حد ، أؤكد لك هذا . أما أنا فاننى أحبئ لها أيضا مفاجأة . ان ما حدث بينى وبين فاريا منذ قليل كان طارئا عرضيا ، لكنه يفيدنى : لقد استطاعت أن تتأكد من تعلقى بها ، ومن أننى سأقطع جميع الصلات فى سبيلها . هأنت ذا ترى أننى أنا أيضا لست غبيا الى ذلك الحد . لا شك أنك تجدنى كثير الثرثرة . جائز جدا يا أمير أننى أخطئ اذ افضى اليك بهذه المسارَّات كلها . ولكنى ما هجمت عليك هذا الهجوم الا لأنك أول انسان نبيل ألقاه فى حياتى . لا تأخذ كلمة هجمت هذه بمعنيين : لستَ حاقدا علىَّ لما حدث منذ قليل ، أليس كذلك ؟ لعل هذه اول مرة أتكلم فيها مفتوح القلب منذ سنتين . الشرفاء هنا قليل : أشرفهم بتيتسين . ولكن يخيَّل

---

[1] ولد ديناري — تعبير ازدراء مأخوذ من ترجمة حرفية للعبارة الفرنسية القديمة "vallet de carreau" (سافل ، محتال ، حقير) . المراجع .

الىَّ أنك تضحك ؟ ألا تضحك ؟ ان السفلة يحبون الشرفاء كثيرا . ألم تكن تعرف هذه الحقيقة ؟ واذ انني . . . ولكن قل لى حقا : فيم أنا سافل ؟ هلاَّ قلت لى هذا صريحا صادقا ! لماذا يقلدونها جميعا فيعدوننى سافلا ؟ تصوَّر فوق ذلك انني حين أسمع كلامها وأسمع كلامهم آخذ أعدُّ نفسى سافلا مثلما يعدوننى ! تلك هى السفالة فى الواقع !

قال الأمير :

— أما أنا فلن أعدك بعد اليوم سافلا . الحق أننى منذ قليل كنت على وشك أن اعدك وغدا بالفعل . ولكنك افرحتنى الآن كثيرا ! هذا درس سأنتفع به فى المستقبل ، وهو ألا أحكم على الناس قبل أن تكون لى خبرة بهم . أنا الآن أرى أنه لا يمكن أن تُعدّ لا وغدا وحسب بل حتى رجلا فاسدا . فى رأيى انك انسان عادى جدا ، ربما على شىء من ضعف الارادة وقلة الاصالة .

ضحك جانيا ضحكة ساخرة فى دخيلته ، ولكنه لزم الصمت . ولاحظ الأمير أن رأيه لم يحظ برضى جانيا . فخجل من ذلك ، وصمت هو أيضا .

سأله جانيا فجأة :

— هل طلب منك ابى مالا ؟

— لا .

— سيطلب ، فلا تعطه . أما أنه كان انسانا لائقا جدا ، فهذا أمر أتذكره . لقد كان يُستقبل فى ارقى مجتمع . ما أسرع ما ينتهون ، هؤلاء الناس اللائقون جميعا ! أمر غريب ! يكفى أيسر تغير فى ظروف حياتهم حتى لا يبقى منهم شىء ، فكأنهم بارود اشتعل . أؤكد لك أنه كان فى الماضى لا

يكذب أبدا كما يكذب الآن ! كل ما هنالك أنه كان شديد التحمس ، فانظر كيف صار الآن ! هذا ذنب الشراب طبعا . هل تعلم أنه يعول خليلة ؟ ثم انه الآن ليس كذابا بغير أذى . اننى لا أفهم كيف تصبر عليه ماما هذا الصبر كله . هل روى لك قصة حصار «كارس» ؟ أو قصة حصانه الأبلق الذى طفق يتكلم ؟ انه يصل الى هذا الحد أحيانا .

قال جانيا ذلك وانفجر يضحك ضحكا مجلجلا .

ثم سأل الأمير :

— ما بالك تنظر الىَّ هكذا ؟

— أدهشنى ما فى هذا الضحك من صراحة وصدق . أرى أنك ما تزال قادرا على أن تضحك كما يضحك طفل . ومنذ قليل ، حين دخلت لتصالحنى ، سألتنى : «هل تريد أن أقبل يدك ؟» هذا بعينه هو ما يفعله طفل حين يستغفر من ذنب . ما زلتَ قادرا اذن على هذا النوع من الكلام والاندفاع . فما بالك تنساق هذا الانسياق فى تلك القصة المشبوهة ، قصة الخمسة وسبعين ألف روبل . حقا ان ذلك ليبدو لى ترهة لا يمكن وقوعها .

— فما هى النتيجة التى تستخرجها من هذا كله ؟

— اننى أتساءل ألستَ تتسرع فى سلوكك كثيرا ؟ أليس الأفضل ان تفكر اولا ؟ قد تكون باربارا آرداليونوفنا على حق .

قاطعه جانيا قائلا بحرارة :

— ها . . . درس فى الأخلاق ! أما أننى ما زلت صبيا فذلك امر أعرفه أنا نفسى . وأكبر دليل على ذلك أننى اثرت معك مثل هذا الحديث .

وتابع جانيا حديثه فاضحا نفسه كفتى جُرحت كبرياؤه :

— لكننى لا أرتضى هذا الزواج بدافع الحساب يا أمير . والا لكان من الممكن أن تخطئ حساباتى ، فما زلت لا أملك لهذا الأمر كل عدته من دماغ قوى وعزيمة صلبة . وانما أنا أقبل هذا الزواج مدفوعا بهوى عنيف جامح ، لأن لى هدفا رئيسيا . لعلك تظن أننى متى قبضت هذه الخمسة وسبعين ألف روبل ، فسأشترى لنفسى مركبة فخمة . فاعلم اذن أن الأمر ليس كذلك . لسوف آخذ عندئذ فى ابلاء سترة عتيقة عمرها ثلاث سنين ، ولسوف أعدل عندئذ عن جميع علاقاتى بالنادى . ما أقل القادرين على الصمود عندنا ، وان تكن نفوسهم جميعا نفوس مرابين . أما أنا فأريد أن اصمد . فانما المهم أن يسير المرء الى النهاية ، تلك هى المشكلة ! كان بتيتسين ، فى السابعة عشرة من عمره ، يبيت فى الشارع ويبيع سكاكين . بدأ كفاحه ببضعة كوبيكات . وهو يملك الآن ستين ألف روبل . ولكن بعد أية تمارين ! أما أنا فسوف اتخطى جميع تلك التمارين فأبدأ برأس مال كبير على الفور . فما ان تمضى خمس عشرة سنة حتى يشير الىَّ الناس قائلين : «هذا ايفولجين ، ملك اليهود»[1] . أنت تصفنى بانننى خالٍ من الاصالة . فاعلم يا عزيزى الأمير أن أكبر اهانة يمكن أن تلحقها بانسان فى عصرنا ومن جنسنا هى أن تنعته بأنه محروم من الاصالة والارادة والمواهب الخاصة ، وأن تقول عنه انه رجل عادى . انك لم ترض حتى أن تعدَّنى سافلا ذا

[1] يقصد جانيا بهذه التسمية لنفسه معنى «ملك البورصة» او «روتشيلد» . المراجع .

قيمة ، وانى لأعترف لك بأننى اوشكت منذ قليل أن التهمك التهاما بسبب ما قلته فى حقى ! لقد آلمتنى أكثر مما آلمنى ايبانتشين ذاك الذى يظن أننى (وهذا بدون أية احاديث او عروض مغرية ، وبكل سذاجة نفسه) لن أتورع عن أن أبيعه امرأتى ! هذا كله يثيرنى منذ مدة طويلة يا صديقى ، وعدا ذلك فأنا محتاج الى مال . فمتى حصلت على المال ، أصبحت على جانب كبير من الاصالة ، ثق بهذا . ان من أحقر وأبغض صفات المال انه يضفى على صاحبه حتى الموهبة . وسيستمر الحال على هذا المنوال الى نهاية العالم . قد تقول لى أن هذا الكلام كله صبيانى ، أو لعله شعر . لا ضير . . . ليزدد فرحى ، ولكن الأمر سيتحقق . سأسير الى نهاية الشوط ، وسأصمد . Rira bien qui rira le dernier [1] لماذا يعاملنى ايبانتشين هذه المعاملة ؟ أعن خبث وشر ؟ لا ، ابدا . هذا لاننى شخص حقير للغاية . اما حين أصبح . . . على كل حال ، كفى الآن كلاما . لقد ازف الوقت . . . ثم ان كوليا قد أطلَّ بأنفه مرتين ، ليناديك الى الغداء . أما أنا فأخرج . . سآتى اليك احيانا . لن تتضايق كثيرا عندنا ، فلسوف يتبنونك الآن جميعا . حذار ان تفضحنى . يخَّيل الىَّ أننا لا نستطيع أن نكون الا أصدقاء أو أعداء . قل لى يا أمير : لو أننى قبَّلت يدك منذ قليل (كما اقترحتُ ذلك صادقا) أكنت أصبح بعد ذلك عدوَّك لهذا السبب ؟

قال الأمير وهو يضحك بعد لحظة من تفكير :

— حتما ! ولكن لا الى الأبد ، بل الى حين ،

[1] يضحك كثيرا من يضحك اخيرا . (بالفرنسية فى الاصل) .

فانك ما كنت لتستطيع أن تصمد طويلا ، فلا بد أن تغفر لى أخيرا .

— هيه ! أرى أن على المرء أن يكون حذرا كل الحذر معك . انك حتى فى هذا الجواب قد استطعت أن تدسَّ شيئا من سم . من يدرى ، لعلك عدو لى ؟ بالمناسبة : هأ هأ هأ ! لقد نسيت : خيِّل الىَّ ان ناستاسيا فيليبوفنا أعجبتك كثيرا ، هل هذا صحيح ؟

— نعم . . . تعجبنى .

— أأنت مغرم بها ؟

— لـ . . لا .

— ومع ذلك احمرَّ وجهك ، وظهر العذاب فيه . طيب ليس هذا بشىء . لن أسخر منك . الى اللقاء . هل تعلم أنها امرأة متمسكة بالفضيلة ؟ هل تستطيع ان تصدق ذلك ؟ لعلك تظن أنها خليلة ذلك الرجل ، توتسكى ؟ اخطأ اذن ظنك ! كلا ، منذ زمن طويل . هل لاحظت خراقتها وخجلها فى بعض اللحظات ؟ تلك هى الحقيقة . ان أصحاب امثال هذه الطباع هم الذين يحبون أن يسيطروا . طيب . استودعك الله !

انسحب جانيا بكثير من اليسر والطلاقة ، فكان عند خروجه اصفى مزاجا منه عند دخوله . أما الأمير فقد لبث جامدا نحو عشر دقائق ، مستغرقا فى التفكير .

وأطل كوليا برأسه من الباب من جديد .

— لن أتغدى يا كوليا ، فقد أفطرت جيدا عند آل ايبانتشين منذ قليل .

فدخل كوليا ، ومدَّ الى الامير رسالة . انها ورقة مطوية

ممهورة بتوقيع الجنرال . يستطيع من ينظر الى كوليا ان يقرأ فى وجهه مدى الألم الذى يشعر به وهو يناول الأمير الرسالة . وقرأ الأمير الرسالة ، فنهض وتناول قبعته .

قال كوليا خجلان :

— ليس المكان بعيدا ، على مسافة خطوتين من هنا ، انه جالس هناك الى مائدة أمام زجاجة . انى لاتساءل كيف استطاع ان يقنعهم بأن يسقوه دينا . أرجوك يا عزيزى الأمير ألا تذكر لأحد اننى نقلت اليك هذه الرسالة ! لقد حلفت ألف مرة الا أعود الى فعل هذا ابدا ، ولكننى أشعر بشفقة عليه . ثم أرجوك أن لا تجامله ، اعطه بضعة نقود واكتف بهذا .

— كنت أنوى أنا نفسى يا كوليا أن . . . اننى فى حاجة الى أن أرى اباك . . . لسبب ما . . . هيَّا بنا . . .

الفصل الثانى عشر

قاد كوليا الأمير الى «مقهى-بلياردو» قريب من المنزل ، قبل شارع ليتينايا ، يقع فى قبو على الطريق . فالى اليمين ، فى حجرة صغيرة خاصة ، كان آردالیون ألكسندروفتش جالسا الى مائدة كما يجلس زبون قديم ، وقد وضعت أمامه زجاجة ، وكانت فى يديه جريدة "Indépendance Belge" فعلا . كان ينتظر الأمير . فما ان أبصره حتى ترك جريدته وشرع يفيض فى شرح طويل حار لم يفهم الأمير منه شيئا كثيرا على كل حال ، لأن الجنرال كان فى الواقع قد ثمل . وقاطعه الأمير يقول :

— ليس معى ورقة عشرة روبلات ، ولكن اليك ورقة خمسة وعشرين روبلا ، فبدِّلها وردَّ الىَّ خمسة عشر روبلا ، والا بقيت بغير كوبيك واحد !

— آ . . . طبعا . . . طبعا . . تأكد أن هذا سيتم فورا . . فورا ! . .

— ثم ان هناك شيئا أريد أن أسألك عنه يا جنرال : ألم تزر ناستاسيا فيليبوفنا فى يوم من الأيام ؟

صاح الجنرال يقول فى نوبة اختيال وغطرسة وسخرية :

— أنا ؟ لم أزرها فى يوم من الأيام ؟ أتسألنى أنا هذا السؤال ؟ مرارا يا عزيزى مرارا ! . . . لكننى انقطعت عن زيارتها آخرَ الأمر حتى لا يكون فى ذهابى اليها تشجيع على مصاهرة غير لائقة . لقد رأيت بعينيك وكنت شاهدا على ما حدث صباح اليوم : انى فعلت كل ما يستطيع أن

يفعله أب لئن متسامح . لكن أبا من نوع آخر سيدخل المشهد بعد الآن ، ولسوف نرى عندئذ : هل المحارب القديم هو الذى سينتصر على المؤامرة ، أم أن «غادة كاميليا» وقحة هى التى ستستطيع أن تدخل أسرة نبيلة كريمة المحتد .

— انما أردت أن أسألك ألا تستطيع ، بصفتك من رواد منزلها ، أن تدخلنى هذا المساء الى بيت ناستاسيا فيليبوفنا ؟ ولا غنى لى عن أن يتم هذا اليوم بالذات . أنا فى حاجة الى أن أراها ، لكننى لا أعرف كيف أدخل عليها . صحيح أننى قدّمت اليها منذ قليل ، ولكننى غير مدعو . هى تقيم فى هذه الليلة حفلة . على اننى مستعد أن أخالف بعض الأصول ، ولو تعرضت لأن أكون أضحوكة ، فى سبيل أن أدخل اليها بطريقة أو بأخرى .

هتف الجنرال يقول بحماسة :

— ذلك يطابق فكرتى كل المطابقة يا صديقى الشاب .

ثم أردف يقول :

— أنا لم أزعجك بالمجىء الى هنا من أجل هذا الأمر التافه ! — بينما كان يأخذ المال ويضعه فى جيبه ، — وانما استدعيتك لاقترح عليك أن تصحبنى فى زيارة ناستاسيا فيليبوفنا ، او لنقل افضل : فى هجوم على ناستاسيا فيليبوفنا ! الجنرال ايفولجين والأمير ميشكين ! ما أقوى الوقع الذى سيحدثه هذا التحالف فى نفسها ! سأتظاهر بأننى أزورها مهنئا بعيد ميلادها ، فأعرف عندئذ كيف أفرض ارادتى أخيرا ، لا بطريقة مباشرة ، بل بطريقة غير مباشرة ، ولكن لتكن كأنما مباشرة . وسيعرف جانيا عندئذ ما الذى يجب عليه أن يعمله : فاما أن يختار أبا أحقّ بالاعتبار وأجدر

بالاحترام واما . . ان صح التعبير . . . الى آخره . . . وليكن ما يكون ! ان فكرتك خصبة جدا . سنتحرك فى الساعة التاسعة ، ما يزال فى الوقت متسع .

— أين تقيم ناستاسيا فيليبوفنا ؟

— فى مكان بعيد عن هنا ، قرب «المسرح الكبير» ، فى عمارة ميتوفتسوفا ، المطلة على الميدان تقريبا ، بالطابق الأول . . . ولن يكون عندها ناس كثير ، رغم أن الليلة عيد ميلادها ، وسيتفرق الحفل فى ساعة مبكرة . . .

تقدم المساء كثيرا ، وما يزال الأمير جالسا يصغى الى الجنرال وينتظره ، والجنرال ما ينفك يشرع فى سرد حكايات جديدة لا ينهى أية واحدة منها . كان ، حين وصل الأمير ، قد أمر بزجاجة جديدة لم ينته من شربها الا بعد ساعة . . ثم طلب زجاجة أخرى ، فكان مصيرها مصير سابقتها . ومن حقنا أن نفترض أن الجنرال قد اتسع وقته لأن يقص على الأمير سيرة حياته كلها تقريبا . ونهض الأمير أخيرا ، وأعلن أنه لا يستطيع أن ينتظر أكثر مما انتظر . فسكب الجنرال لنفسه آخر قطرات الزجاجة ، ونهض متجها نحو باب الخروج مترنح الخطو بشدة . كان الأمير فى غاية اليأس . لم يستطع أن يشرح لنفسه كيف أمكنه أن يعتمد على الجنرال بمثل هذه الغباوة . والحق أنه لم يكن قد اعتمد عليه قط ، وانما هو عوّل عليه ليستطيع الدخول الى بيت ناستاسيا فيليبوفنا ، ولو دفع ثمن ذلك فضيحة صغيرة . غير أنه لم يتصور أن تقع فضيحة ضخمة . كان الجنرال قد أخذ منه السكر كل مأخذ ، فانطلق لسانه فصيحا فصاحة متدفقة لا ينضب معينها ، فهو لا ينفك

يتكلم بغير انقطاع أو مهادنة ، وهو لا ينى يتحدث بانفعال وقد «امتلأ قلبه دموعا» . وكان مدار حديثه على ما أصاب أسرته من انهيار ودمار نتيجة لسوء سلوك أفرادها ، وعلى أنه قد آن الأوان لأن يضع لهذا التدهور حدا آخر الأمر . ووصل الرجلان الى شارع ليتينايا . كان الدفء المؤقت ما يزال مستمرا . وهذه ريح كئيبة دافئة عفنة تصفر فى خلال الشوارع . العربات تهدر فى الوحل ، والخيول المترفة والأفراس الخسيسة تضرب الأرض بحوافرها المنغّلة . والمشاة يطوّفون على طول الأرصفة جمهورا كئيبا مبتلا ، بينه سُكارى .

قال الجنرال :

— هل ترى الطوابق الأولى المضيئة من هذه العمارات ؟ انها جميعا يسكنها رفاقى ، وأنا . . . أنا الذى خدمت أكثر منهم وتألمت أكثر منهم ، أمشى على قدمىّ فى اتجاه «المسرح الكبير» ، الى بيت امرأة مشبوهة الأخلاق ! رجل فى صدره ثلاث عشرة رصاصة . . . ألا تصدقنى ؟ ومع ذلك فمن أجلى وحدى انما ارسل بيروجوف برقية الى باريس ، وترك سيباستوبول المحاصرة الى حين ، ثم حصل نيلاتون ، كبير أطباء البلاط بباريس ، باسم العلم ، اذنا بالمرور الى سيباستوبول المحاصرة ليفحصنى . والقيادة العليا على علم بهذا الحدث . «آه ، ان ايفولجين هو الذى أصيب بثلاث عشرة رصاصة ! . .» كذلك يتحدثون عنى . هل ترى ، يا أمير ، ذلك المنزل ، هناك ؟ فى ذلك الطابق الأول يسكن رفيقى القديم الجنرال سوكولوفتش مع ذريته النبيلة ، الغفيرة العدد . ان ذلك المنزل ، وثلاثة منازل أخرى فى شارع نفسكى ومنزلين آخرين بشارع مورسكايا ، هى الآن كل

حلقة علاقاتى ، أقصد علاقاتى الشخصية . لقد أذعنت نينا ألكسندروفنا للظروف منذ مدة طويلة . أما أنا فما أزال أتذكر . . . بل أتجرأ فأقول ما أزال أذوق بعض الراحة فى صحبة رفاقى القدامى المثقفين ومرؤوسىَّ الذين ما يزالون يعبدوننى عبادةً . ذلك الجنرال سوكولوفتش مثلا (على اننى منذ مدة طويلة لم أزره ولا رأيت آنا فيدوروفنا) . . . أنت تعلم يا أمير : حين يصبح المرء عاجزا عن استقبال أحد فى بيته ، فانه يُضطر أخيرا الى الانقطاع عن زيارة الآخرين . ومع ذلك . . . همْ ! . . . يخيَّل الىَّ أنك لا تصدقنى . . . ولكن ، بالمناسبة ، لماذا لا أُدخل على هذه الأسرة اللطيفة ابن خير اصدقاء طفولتى ؟ الجنرال ايفولجين والأمير ميشكين ! سوف ترى هنالك فتاة رائعة ، ماذا ! بل فتاتين ، بل ثلاث فتيات ، هن زينة المجتمع وزينة عاصمتنا : جمال ، ثقافة ، فكر . قضية المرأة ، قصائد ، ذلك كله قد انصهر فى تنوع موفق منسجم ! ناهيك عن أن كل واحدة منهن تملك مهرا مقداره ثمانون الف روبل عدا ونقدا ، على الأقل ، وهذا لا يفسد شيئا بطبيعة الحال ، رغم جميع قضايا المرأة والقضايا الاجتماعية . . . الخلاصة : يجب علىَّ حتما أن أدخلك الى هذه الأسرة ، يجب علىَّ ذلك حتما ، هذا واجب يقع على عاتقى ! الجنرال ايفولجين والأمير ميشكين !

قال الأمير يسأله :

— الآن ؟ حالا ؟ فهل نسيت اذن أن . . .

— لم أنس شيئا البتة ! ادخل من هنا . اصعد هذا السلَّم الرائع . يدهشنى أن البواب غائب . ولكن . . .

هذا اليوم عطلة ، البواب يغيب فى يوم العطلة . لم يطردوا ذلك السكّير حتى الآن . ان سوكولوفتش هذا مدين لى بكل سعادة حياته ، وبكل نجاحه وارتقائه فى خدمته ، مدين بذلك لى وحدى دون غيرى . ولكن . . . ها نحن وصلنا .

كفَّ الأمير عن الاعتراض على هذه الزيارة ، فكان يتبع الجنرال طائعا حتى لايثير حنقه ، وهو يأمل أن يتبدد الجنرال سوكولوفتش وأسرته كلها رويدا رويدا كما يتبدد سراب ، وأن يتضح أن هذا الجنرال لم يوجد فى يوم من الأيام ، فيعودا يهبطان السلم بهدوء . فما كان أشد ذعر الأمير حين أخذ يفقد ذلك الأمل : ذلك أن الجنرال كان يقوده على السلَّم قيادة رجل واثق بأنه سيجد أصدقاءه ، وهو ما ينفك يذكر للأمير مزيدا من التفاصيل عن سيرة حياتهم وأوصاف شقتهم بوضوح شديد ودقة رياضية . حتى اذا بلغا الطابق الأول ، توقفا يمنة ، أمام باب شقة غنية ، فأمسك الجنرال قبضة الجرس ، فهمَّ الأمير أن يهرب ، ولكن ظرفا خاصا أوقفه عن الهرب لحظة . قال الأمير :

— لقد أخطأتَ يا جنرال ، فاننى أرى على الباب صفيحة كتب عليها اسم كولاكوف ، وأنت تريد أن تقرع جرس سوكولوفتش .

قال الجنرال :

— كولاكوف . . . كولاكوف لا يدل على شىء . البيت بيت سوكولوفتش ، وأنا أقرع جرس بيت سوكولوفتش . لا يهمنى كولاكوف . . . ثم ها هم يفتحون الباب .

فُتح الباب فعلا ، وظهر خادم أعلن أن «سادته قد خرجوا» .

أخذ آردالیون ألكسندروفتش يكرر بصوت فيه حزن عميق :

— خسارة ، خسارة حقا أن يخرجوا فى هذا اليوم بعينه .

ثم قال يخاطب الخادم :

— قل لهم اذن يا صاحبى ان الجنرال ايفولجين والأمير ميشكين قد جاءا يؤكدان لهم احترامهما ، ويعبران لهم عن شديد أسفهما . . .

وفى تلك اللحظة ، ظهر وراء الباب المفتوح شخص آخر لعله الناظرة أو المربية . انها سيدة فى نحو الأربعين من العمر ، ترتدى ثوبا قاتم اللون ، اقتربت مستطلعةً محاذرة ، حين سمعت اسمى الجنرال ايفولجين والأمير ميشكين .

قالت وهى تتفرس فى الجنرال بانتباه :

— ان ماريا ألكسندروفنا ليست فى البيت . لقد ذهبت مع الآنسة ألكسندرا ميخائيلوفنا الى منزل جدتها .

— ألكسندرا ميخائيلوفنا أيضا ؟ يا لسوء الحظ ! تصورى ، اعانى على الدوام من سوء حظى . أرجوك أن تتفضلى فتنقلى الى ألكسندرا ميخائيلوفنا تحيتى واحترامى ، آملا أن تتذكرنى . . الخلاصة : أبلغيها أننى أرجو لها من كل قلبى أن تتحقق تمنياتها التى أعربت عنها مساء يوم الخميس أثناء سماعها موسيقى شوبان . سوف تتذكر . . . انقلى اليها أصدق أمانىَّ ! الجنرال ايفولجين والأمير ميشكين !

قالت السيدة وقد اطمأنت :

— لن أنسى .

وبينما كانا يهبطان السلَّم استمر الجنرال يعبِّر بحماسة لم تفتر عن أسفه لأنهما لم يجدا أحدا فى المنزل ، فحُرم الأمير بذلك من عقد صلة جميلة رائعة .

— هل تعلم يا عزيزى ؟ اننى لأكاد أكون شاعرا ؟ هل لاحظت ذلك ؟

ثم ختم كلامه يقول فجأة على نحو لا يمكن توقعه :

— ولكن . . . ولكن يخيَّل الىَّ أننا أخطأنا قليلا . لقد تذكرت الآن أن آل سوكولوفتش يسكنون فى عمارة أخرى ، وأعتقد أنهم الآن بموسكو . نعم ، لقد أخطأت بعض الخطأ ، ولكن . . . لا قيمة لهذا .

قال الأمير مبهوتا :

— أودُّ أن أعرف شيئا واحدا . هل يجب أن أعدل عدولا تاما عن الاعتماد عليك ؟ أليس الأفضل أن أذهب اليها وحدى ؟

— تعدل ؟ تعتمد ؟ وحدك ؟ ولكن لماذا ؟ لماذا والامر عندى أمر رئيسى تتوقف عليه أشياء كثيرة ، ويرتبط به مصير أسرتى ؟ لا يا صديقى ! انك لا تعرف ايفولجين حق معرفته . من قال «ايفولجين» فقد قال «صخرة» . «اعتمد على ايفولجين اعتمادك على صخرة» . ذلك ما كان يُقال عني منذ أن كنت فى فصيلة الفرسان أولَ عهدى بالجيش . وانما ينبغى لى ، قبل أن نذهب الى هناك ، أن أمر مرورا عابرا بمنزل ألفت منذ بضع سنين أن أريح فيه نفسى قليلا بعد الشدائد والمحن . . .

— أتريد أن تمر اذن بمنزلك ؟

— لا بل أريد أن أذهب الى الكابتينة تيرنتيف ،

الى أرملة الكابتن تيرنتيف ، مرؤوسى القديم . . . بل وصديقى . . . فعند الكابتينة انما تنبعث نفسى ، وهناك انما أرمى نوائبى وأحزانى العائلية . . واذ كنت أجد نفسى اليوم أرزح تحت وطأة عبء روحى ثقيل ، فاننى . . .

دمدم الأمير يقول :

— أظن اننى قد ارتكبت حماقة كبرى حين أزعجتك . . . ثم انك الآن . . . استودعك اللّه !

صاح الجنرال يقول :

— مستحيل ، لا يمكننى أن أدعك تمضى هكذا يا صديقى الشاب ! هى أرملة ، هى ربة أسرة تعرف كيف تجد فى نفسها أوتارا تهز كيانى كله . لن تطول زيارتى لها أكثر من خمس دقائق . أنا أستقبل فى هذا البيت بغير كلفة أو حرج ، حتى لكأننى فى بيتى . سأغسل وجهى ، وسأرتب زينتى قليلا ، ثم نمضى بعربة الى ميدان «المسرح الكبير» . ثق بأننى فى حاجة اليك طوال السهرة . . . انظر . هذا هو المنزل . لقد وصلنا . آه ، كوليا . . . أوصلت منذ الآن ؟ هل مارفا بوريسوفنا فى البيت ، أم أنت وصلت للتو ؟

أجاب كوليا وقد اصطدم بهما عند باب الفناء :

— كلا ، أنا هنا منذ مدة طويلة ، عند ايبوليت . لقد ساءت صحته كثيرا ، واضطر أن يرقد فى الفراش هذا الصباح . كنت قد نزلت لأشترى أوراق لعب . ان مارفا بوريسوفنا فى انتظارك .

واذ لاحظ كوليا حالة أبيه ، قال وهو يتفحص وضعه ومشيته :

— ولكن ما هذا يا بابا ! اللّه اللّه ! ما العمل . . . هلمّ نصعد !

ان لقاء كوليا هذا دفع الأمير الى أن يتبع الجنرال فى دخوله الى بيت مارفا بوريسوفنا ، على ألا يمكث هنالك الا دقيقة واحدة . لقد كان الأمير فى حاجة الى كوليا . أما عن الجنرال فقد قرر الأمير أن يتركه على كل حال ، وأصبح لا يغفر لنفسه أنه فكّر فى الاعتماد عليه . وطال الصعود حتى الطابق الثالث على سلم الخدم .

سأل كوليا أباه أثناء صعود السلّم :

— هل تنوى أن تعرّف بالأمير ؟

— نعم يا عزيزى ، سوف أعرّف به : الجنرال ايفولجين والأمير ميشكين . . . ولكن . . . كيف . . . هى مارفا بوريسوفنا ؟

— هل تعلم يا بابا ؟ الأفضل ألا تذهب اليها ! لسوف تلتهمك التهاما ! انقضت على غيابك ثلاثة أيام ، وهى تنتظر أن تحمل اليها مالا . لماذا وعدتها بذلك ؟ هكذا أنت دائما ، دبّر أمرك الآن .

وقفوا فى الطابق الثالث أمام باب واطئ . كان الجنرال قد خارت عزيمته ، فهو يدفع الأمير الى أمام . دمدم يقول له :

— أنا سأبقى وراء الباب . أحب أن أحدث لها مفاجأة !

دخل كوليا أول الداخلين . وظهرت على الباب سيدة مثقلة الوجه بالخضاب ، ترتدى نعلين وقميصا قصيرا فضفاضا ، قد ضفرت شعرها غدائر صغيرة ، وهى فى نحو الأربعين

من العمر ، فما ان ظهرت حتى انعدمت المفاجأة التى أرادها الجنرال انعداما . فانها ما كادت تلمحه حتى طفقت تشتم وتلعن قائلة :

— هذا هو ! هذا هو الوغد النجس الوقح !. هكذا حدثنى قلبى !

تمتم الجنرال قائلا وهو يصطنع ابتسامة بريئة :

— فلندخل ، لا قيمة لهذا .

ولكن هذا لم يكن غير ذى قيمة . فما ان قطعوا حجرة المدخل المظلمة الواطئ سقفها ، فصاروا فى غرفة ضيقة أثاثها نصف دستة من كراسى القش ، ومائدتان للعب ، حتى استأنفت ربة البيت بكاءها تقول بلهجة دامعة مدروسة يبدو أنها مألوفة لها :

— ألا تخجل أيها الهمجى ، أيها الطاغية المستبد الذى يسوم أسرتى سوء العذاب ، ايها الشرير الزنديق ؟ لقد نهبتنى ومصصت دمى ، أفلا يكفيك هذا ؟ الى متى أظل أتحملك ، يا رجلا بلا حياء ولا شرف ؟

جمجم الجنرال يقول مرتعشا محتارا :

— مارفا بوريسوفنا ، مارفا بوريسوفنا ! هذا . . . هذا هو الأمير ميشكين . الجنرال ايفولجين والأمير ميشكين .

قالت الكابتينة فجأة تخاطب الأمير :

— هل تصدقنى اذا قلت لك ان هذا الرجل الوقح لم يرحم أولادى اليتامى ؟ لقد سلب كل شىء ، أخذ كل شىء ، باعه أو رهنه ، ولم يترك لى شيئا . ما عساى صانعة بايصالات الدين هذه كلها أيها المحتال الذى لا ضمير له ؟ أجبنى أيها الوغد ، أجبنى أيها الجشع : بم أطعم

أولادى اليتامى ؟ هكذا يجىء دائما : سكران ، عاجزا عن الوقوف على ساقيه . . . ماذا فعلتُ أنا حتى استحققت غضب الله ، أيها اللص الدنىء السافل ! أجبنى !

ولكن الجنرال كان عاجزا عن ان يلقى بالا الى كل هذا . قال :

— مارفا بوريسوفنا ، خذى . . . هذه خمسة وعشرون روبلا . . هى كل ما أستطيعه الآن بفضل صديقى النبيل جدا ! يا أمير ! لقد أخطأ ظنى خطأ قاسيا ! هذه هى الحياة . . .

ثم ثأثأ يقول بمشقة ، واقفا فى وسط الغرفة ، مترنحا الى جميع الجهات :

— ولكن . . . اعذرنى الآن . . . اننى أشعر بضعف . . . أرجو أن تعذرنى ! لينوتشكا ، عزيزتى . . . الىَّ بوسادة !

أسرعت لينوتشكا ، وهى صبية فى الثامنة من عمرها ، فجاءت بوسادة وضعتها على الديوان المهترئ القاسى المنجَّد بقماش مشمَّع ممزق . فجلس الجنرال ، وكان واضحا أن هناك أشياء كثيرة ما يزال يريد أن يقولها . لكنه ما ان مس الديوان حتى مال الى جانب والتفت نحو الحائط ونام نوم الأبرياء . وبحركة فيها كثير من الاحتفال والتألم أشارت مارفا بوريسوفنا للأمير الى كرسى قرب مائدة اللعب ، فجلس الأمير عليه ، وجلست هى قبالته ، وأسندت خدها الأيمن الى يدها ، وأخذت تتنهد وهى تتأمل الأمير صامتة . واقترب من المائدة ثلاثة أولاد ، بنتان وصبى ، كبراهم لينوتشكا ، فوضعوا أيديهم على المائدة جميعا ، وأخذوا يلاحظون الأمير بانتباه هم أيضا . وظهر كوليا ، خارجا من الغرفة المجاورة .

قال له الأمير :

— يسعدنى جدا أننى وجدتك هنا يا كوليا . فلعلك تستطيع أن تساعدنى . اننى فى حاجة الى أن أذهب الى ناستاسيا فيليبوفنا حتما . وقد طلبت من آردالیون ألكسندروفتش منذ حين أن يقودنى الى بيتها ، ولكن ها هو ذا قد نام . فهل لك أن تصحبنى الى هناك ، لأننى لا أعرف الشوارع ولا الاتجاه . لكننى أعرف العنوان : ميدان «المسرح الكبير» ، عمارة ميتوفتسوفا .

— ناستاسيا فيليبوفنا ؟ انها لم تقطن ميدان «المسرح الكبير» فى يوم من الأيام . ثم ان أبـى لم يضع قدمه فى بيتها قط ، اذا أردت أن تعرف الحقيقة . غريب أنك ظننت أن فى وسعك أن تعتمد عليه . انها تسكن غير بعيد عن شارع فلادميرسكايا ، بميدان «الأركان الخمسة» . ان بيتها أقرب كثيرا من ميدان «المسرح الكبير» . هل تريد ان تذهب حالا ؟ الساعة الآن هى التاسعة والنصف . وانه ليسرنى أن أقودك الى مسكنها .

وفورا خرج كوليا والأمير . واضطرا أن يمضيا سيرا على الأقدام ، لأن الأمير لم يكن قد بقى معه ما يدفع منه كراء عربة ، مع الأسف !

— كنت أود لو أعرّفك بايبوليت . انه الابن الأكبر لهذه الكابتينة المهلهلة . لقد كان فى الغرفة المجاورة . انه مريض ، وقد ظل راقدا طوال هذا اليوم . لكنه فتى غريب الأطوار . هو سريع التأذى . وقد خيّل الىّ أنه قد يخجل اذا أنت جئت فى مثل هذا الوقت . . . أنا أقل شعورا بالحرج منه ، لأن الرجل أبـى ، على حين أن

المرأة أمه ، ولا عار يلحق بالذكر كالعار الذى يلحق بالأنثى . قد يكون هذا خطأ من الأخطاء التى يرتكبها المجتمع فى أحكامه ، اذ يجعل لأحد الجنسين غلبةً على الجنس الآخر فى مثل هذه الاحوال . ان ايبوليت فتى رائع ، لكنه عبد لبعض الآراء الاجتماعية السائدة .

— قلتَ انه مريض بالسل ؟

— نعم ، وأعتقد أن من الخير له أن يموت بسرعة . لو كنت فى مكانه لتمنيت أن أموت حتما . انه يرثى لحال أخيه وأختيه الصغار هؤلاء . لو كان فى وسعنا أن نستأجر شقة مستقلة ، لو كنا نملك مالا ندفعه أجرا ، لتركنا أسرتينا وعشنا معا . هذا حلم لنا . هل تعلم انه غضب غضبا شديدا حين قصصتُ عليه ما حدث لك ؟ هو يزعم أن من الحقارة أن يتلقى المرء صفعة ثم لا يدعو خصمه الى مبارزة . يجب أن نذكر أنه فى درجة من الحنق كان لا بد لى معها من الانقطاع عن مجادلته . اذن دعتك ناستاسيا فيليبوفنا الى بيتها أنت أيضا على الفور ؟

— لا ، لم تدعنى . تلك هى المسألة .

فصاح كوليا قائلا ولقد وقف فى وسط الرصيف :

— فكيف تستطيع اذن أن تذهب اليها ؟ لا سيما و . . . أنت . . . ترتدى مثل هذا اللباس ، بينما هى تقيم حفلة فخمة ؟

— حقا لا أدرى كيف سأستطيع أن أدخل . ان أُستقبلت كان بها ، والا فلا . أما عن ملابسى ، فليس فى يدى حيلة .

— ولكن هناك سبب يدعوك الى الذهاب ؟ أم تراك

لا تبغى الا pour passer le temps [1] فى «المجتمع الراقى» ؟

— لا . . . الواقع أن . . . أعنى . . . ذاهب لأمر . . . يصعب علىَّ أن أوضح هذا ، ولكن . . .

— أما ما هو ذلك الأمر ، فهذا يخصك أنت . غير أن الشىء الذى يهمنى هو ألا تدعو نفسك ، بغير سبب ، الى سهرة تضم هذه النخبة الفتانة من «غادات الكاميليا» ، والجنرالات ، والمرابين . فلو لا أن هناك أمرا يدعوك الى الذهاب ، اذن لسخرت منك واحتقرتك يا أمير . معذرة ! ليس ثمة الا قلة من أناس شرفاء ، ولا يكاد يوجد أحد يستحق الاحترام . ان المرء مضطر أن ينظر اليهم من فوق ، ومع ذلك تراهم جميعا يطالبون بالاحترام . وفى طليعتهم فاريا . هل لاحظت يا أمير أن جميع الناس فى عصرنا هذا مغامرون ؟ ولا سيما عندنا ، فى روسيا ، فى وطننا الحبيب ! أما كيف أمكن أن يحدث هذا كله ، فذلك ما لا أفهمه ! لقد كان كل شىء يبدو راسخ الأسس ، والآن ؟! ان جميع الناس يقولون هذا الكلام ويكتبونه فى كل مكان ، ويتهمون . ان جميع الناس عندنا يتهمون . والآباء يتراجعون أول المتراجعين ، ويحمرون خجلا من أخلاقهم الماضية . اليك هذا المثال : أب بمدينة موسكو يوصى ابنه بأن **لا يصدَّه شىء** فى سبيل الحصول على مال» . تحدثوا عن هذا فى الجرائد . انظر الى أبى الجنرال ! انظر الى أين وصل ! ولكن هل تعلم ؟ يخيَّل الىَّ أن الجنرال رجل

[1] ان تقضى بعض الوقت (بالفرنسية فى الاصل) .

شريف مع ذلك . أحلف لك ! الفوضى والشراب هما وحدهما أفساداه ! الأمر كذلك ، أؤكد لك ! خسارة ! انى أخاف أن أعلن هذا الرأى ، لأن الجميع يضحكون منه . شىء مؤسف حقا ! وبماذا يفضله أولئك الأذكياء ؟ هم جميعا مرابون ، جميعا بغير استثناء ! ان ايبوليت لا يؤاخذ المرابين ، يقول أن الربا ضرورة ، ويتكلم عن ايقاع اقتصادى ، وعن مد وجزر ، وما لا أدرى أيضا ! شيطان يأخذهم ! هذا يضايقنى كثيرا من ايبوليت ، ولكنه حانق . تصور ان أمه الكابتينه تأخذ مالا من الجنرال ، ثم تقرضه من هذا المال نفسه بالربا لمدة قصيرة . يا للعار ! وهل تعلم أن أمى ، أمى أنا ، أقصد نينا ألكسندروفنا ، الجنرالة ، ترسل الى ايبوليت أمتعة ومالا وغيرها ، بل وتساعد بواسطته اخوته الصغار لأن أمهم تهملهم ؟ وكذلك تفعل فاريا أيضا .

— هأنت ذا ترى بعينيك اذن يا كوليا ! أنت تزعم أن لم يبق هناك أناس شرفاء أقوياء ، وأن لم يبق هناك الا مرابون . فما قولك بأمك وفاريا ؟ أليستا قويتين ؟ أليس دليلا على قوة الخلق عند الانسان أن يساعد الناس فى مثل هذه الظروف ؟

— ان فاريا تفعل ما تفعله حبا للظهور وميلا الى التفاخر ، حتى لا تكون دون أمها . أما أمى . . . فقولك عنها صحيح . . . انى احترمها . نعم اننى احترمها وأبرر سلوكها . حتى ان ايبوليت نفسه يشعر شعورى ، رغم أن عواطفه قد قست قسوة تامة . كان فى أول الأمر يسخر من أمى ويعد ذلك منها حطة ، أما الآن فقد أخذ يتأثر

بعض التأثر أحيانا . همْ . . . أنت تعد ذلك اذن قوة . سأسجل هذا . ان جانيا يجهله . ولو عرف لوصفه بأنه تشجيع على الرذيلة .

أفلت من الأمير قوله رغم ارادته ، بينما كان غارقا فى أفكاره :

— ها . . . جانيا يجهله ؟ يخيَّل الىَّ أن جانيا يجهل أشياء كثيرة أخرى .

— هل تعرف أنك تعجبنى كثيرا يا أمير ؟ ان الحادث الذى وقع منذ ذلك الحين لا يبارح ذهنى .

— أنت أيضا تعجبنى كثيرا يا كوليا .

— اسمع : على أى نحو تقدِّر أن تعيش هنا ؟ أنا سوف أجد لنفسى عملا بعد حين ، فاكسب بعض المال ، فاذا عشنا معا ، أنت وايبوليت وأنا ، كان فى وسعنا أن نكترى شقة وأن نستقبل الجنرال فى بيتنا ، فما رأيك ؟

— أقبل ذلك بسرور عظيم . على كل حال سوف نرى فى المستقبل . أما الآن فأنا مضطرب . . . مضطرب جدا . ماذا ؟ وصلنا ؟ فى هذا المنزل . . . ما أفخمه مدخلا ! حتى أن هناك بوابا . طيب ! . . . لا أدرى يا كوليا كيف ينتهى كل هذا .

وقف الأمير مضطربا حائرا .

— سوف تقص علىَّ كل شىء غدا ! لا تتهيَّب كثيرا . اسأل الله أن يمدك بعونه ، لأننى أشاركك جميع آرائك ! استودعك الله . أنا عائد الى هناك ، وسأروى هذا كله لايبوليت . أما أنهم سيستقبلونك ، فكن من ذلك على يقين ، لا تخش شيئا ! انها امرأة غريبة الطبع متفردة ! اصعد هذا السلم . الشقة فى الطابق الأول . سيدلك عليها البواب .

الفصل الثالث عشر

كان الأمير أثناء صعوده السلم يشعر بقلق شديد ، ويحاول أن يستجمع شجاعته بكل ما يملك من قوة . وكان يحدث نفسه قائلا : «اسوأ الاحتمالات ألا أستقبل ، وأن يأخذوا عنى فكرة سيئة ، أو أن يستقبلونى ليستهزئوا بى . . . طيب . . . لا بأس !» . والواقع أن ذلك ليس ما كان يخشاه أكثر من أى شىء آخر . غير أنه لم يكن يجد جوابا مطمئنا عن هذا السؤال : «ماذا جاء يعمل هنا ، ولماذا جاء ؟» ذلك أنه حتى لو أتيح له أن يقول لناستاسيا فيليبوفنا : «لا تتزوجى هذا الرجل ، لا تضيِّعى نفسك ، فهو لا يحبك ، وانما يحب مالك وحده ، وانه قال لى ذلك هو نفسه ، وان آجلايا ايبانتشينا قالته لى كذلك ، واننى جئت لأنقل اليك هذه الحقيقة» ، فان من المشكوك فيه أن يكون هذا صحيحا من جميع الوجوه . وكان الأمير يلقى على نفسه سؤالا آخر لا سبيل الى حله ، سؤالا يبلغ من الخطورة أنه كان لا يجرؤ حتى على أن يفكر فيه ، ولا يستطيع أن يسلِّم به ، ولا يعرف كيف يصوغه . وكان يحمر ويرتعش حتى من مجرد التفكير فيه . ولكن أيةً كانت شكوكه وأنواع قلقه ، فقد دخل أخيراً ، وطلب ناستاسيا فيليبوفنا .

ان ناستاسيا فيليبوفنا تشغل شقةً ان لم تكن واسعة جدا فهى مجهزة أحسن تجهيز . انها أثناء اقامتها ببطرسبرج مدة هذه السنين الخمس ، قد أغدق عليها آفاناسى ايفانوفتش

اغداقا كبيرا خلال فترة معينة فى أول الأمر . كان لا يزال يأمل أن يكسب حبها ، وكان لا يزال يعول على أن يفتنها خاصة بالرخاء والترف ، لعلمه بأن الانسان يألف الترف بسهولة كبيرة ، فيصعب عليه بعد ذلك أن يستغنى عنه متى اصبح الترف ضرورة من الضروريات شيئا بعد شيء . ولقد كان توتسكى وفيا للعادات القديمة لا يغير منها شيئا ، وظل يؤمن بأن للحواس سلطانا لا يُقهر ، فهو لذلك يحترم هذا السلطان احتراما لا حدود له . وكانت ناستاسيا فيليبوفنا لا تكره الترف بل وتحبه ، لكنها — وهذا هو الشيء الغريب — لم تستعبد له ، حتى لكأنها قادرة على أن تستغنى عنه فى كل لحظة ؛ بل انها حاولت عدة مرات أن تعلن ذلك ، فدُهش توتسكى وانزعج . على أن هناك أشياء كثيرة فى ناستاسيا فيليبوفنا كانت تدهشه وتسوؤه (حتى لقد بلغ بعد ذلك حدَّ احتقارها) . فالى جانب عامية الناس الذين كانت تحيط نفسها بهم أحيانا ، وهذا يكشف عن ميل طبيعى فيها ، أخذت تظهر لديها ميول أخرى غريبة كل الغرابة ، هى خليط وحشى عجيب من أذواق شتى تجعلها قادرة على أن تستعمل وتكتفى بأشياء أو وسائل لا يمكن أن يقبل استعمالها انسان قويم مرهف الثقافة . لعل آفاناسى ايفانوفتش كان يمكن أن يفتنه جدا مثلا أن يراها تظهر أحيانا جهلا ساذجا أنيقا بأن الفلاحات الروسيات لا يلبسن ملابس داخلية من قماش الباتيستا مثلما تلبس هى . ان جميع الجهود التى بذلها آفاناسى ايفانوفتش فى المرحلة الأولى من تربيتها وتعليمها انما كانت تهدف الى بلوغ مثل هذه النتيجة ، وفقا للبرنامج الذى وضعه على أساس خبرته الواسعة فى هذه

المسألة . لكن ثمرات جهوده كانت غريبة وأسفاه ! ومع ذلك فقد كان وبقى فى ناستاسيا فيليبوفنا شيء يدهش حتى افاناسى ايفانوفتش نفسه ، هو تفرد نادر فاتن وقوة غريبة ؛ ما يزال يغريه احيانا حتى الآن ، بعد أن تداعت جميع آماله السابقة التى عقدها على ناستاسيا فيليبوفنا .

استقبلت الأميرَ خادمة (كانت ناستاسيا فيليبوفنا دائما لا تستخدم الا نساء) فأصغت الى كلامه وهو يطلب منها أن تبلغ عنه ناستاسيا فيليبوفنا ، دون أن تظهر عليها أية حيرة ، فدُهش الأمير من ذلك دهشة كبيرة . فلا حذاءاه المتسخان ، ولا قبعته العريضة حوافها ، ولا معطفه الذى ليس له أكمام ، ولا هيئته المرتبكة ، لا شيء من ذلك كله أحدث فى نفسها أى تردد . وقد ساعدته فى خلع معطفه ، ورجته أن ينتظر فى حجرة المدخل ، وأسرعت تبلغ عنه فورا .

كان المدعوون عند ناستاسيا فيليبوفنا هم أصحابها المألوفون . حتى لقد كان عدد الناس فى عيد ميلادها هذا أقل مما كان فى أعياد ميلادها السابقة . فمنهم أولا وعلى رأسهم آفاناسى ايفانوفتش توتسكى ، وايفان فيدوروفتش ايبانتشين ، وكانا يُظهران كلاهما كثيرا من التودد واللباقة ، ولكن كان يبدو عليهما مع ذلك نوع من قلق مكتوم سببُه توقعهما الواضح الى أن يسمعا اعلانا بما وعدت به ناستاسيا فيليبوفنا فى موضوع جانيا . وكان هناك جانيا بطبيعة الحال . كان يبدو هو أيضا قاتم المزاج كثير التفكير ، حتى انه من فرط ذلك يوشك أن يكون «قليل الأدب» ، فهو فى أكثر

الأحيان معتزل متزو صامت . وهو لم يجرؤ أن يصطحب فاريا ، ولكن ناستاسيا فيليبوفنا لم تلمح الى ذلك ، بينما هى ، فى المقابل ، ما ان سلّمت عليه حتى ذكّرته بالحادثة التى وقعت له مع الأمير . ولم يكن الجنرال ايبانتشين قد علم بالأمر بعد ، لذلك أظهر اهتماما . فطفق جانيا عندئذ يقص ، بلهجة جافة وأسلوب متحفظ ولكن بصراحة مطلقة ، ما قد جرى بعد الظهر ، واضاف الى ذلك أنه قد مضى الى الأمير يستغفره . وبهذه المناسبة اعرب بحرارة عن رأيه بأنهم قد سموا الامير ، بسبب لا يعرفه الا الله ، تسمية غريبة هى «الأبله» وانه ، جانيا ، يؤمن بنقيض هذا تماما ، ويعتقد أعتقادا جازما بأن الأمير رجل يعرف ماذا يريد» . وقد أصغت ناستاسيا فيليبوفنا الى هذا الرأى بكثير من الانتباه ، وكانت تلاحظ جانيا مستطلعة . لكن الحديث انحرف فورا نحو روغوجين الذى شارك فى الحادث مشاركة رئيسية ، وأثار هو أيضا اهتمام آفاناسى ايفانوفتش وايفان فيدوروفتش اثارة كبيرة . وقد اتفق أن استطاع بتيتسين أن ينقل بعض المعلومات الخاصة عن روغوجين الذى ظل حتى الساعة التاسعة من المساء تقريبا يسعى هنا وهناك لتنفيذ غرضه وتحقيق مأربه . لقد كان روغوجين يصر اصرارا شديدا على أن تُجمع له المائة ألف روبل فى ذلك المساء نفسه . قال بتيتسين أثناء حديثه : — صحيح أنه كان سكران ، ولكن يبدو أن المائة ألف روبل ستُجمع له أخيرا ، مهما تكن المصاعب . كل ما هنالك اننى لا أدرى هل يتم ذلك فى هذا اليوم نفسه ، ولا أدرى هل يكون المبلغ كاملا . غير أن الذين يعملون فى الأمر كثيرون ، فهناك

كيندر ، تريبالوف ، وبيسكوب . — وختم بتيتسين كلامه قائلا : — ان روغوجين مستعد لدفع أية فائدة عن هذه القروض ، وذلك لأنه فى سكرين ، سكر الخمرة وسكر فرحته الأولى . . . — هذه الانباء كلها قد استقبلها الحضور باهتمام مكفهر بعض الشىء . وكانت ناستاسيا فيليبوفنا صامتة ، وكان واضحا أنها لا تريد أن تفصح عن رأيها ؛ وكذلك جانيا . ولعل الجنرال ايبانتشين كان فى قرارة نفسه أشد قلقا من أى شخص آخر : ان اللآلئ التى قدّمها فى الصباح قد استُقبلت بأدب فاتر وكياسة جامدة حتى لكأن شيئا من سخرية كان يخالط ذلك الأدب وتلك الكياسة . وبين جميع المدعوين كان فردشينكو مشرق المزاج مرحا ، فكان يضحك ضحكا مجلجلا ، كما يحسن ذلك فى يوم عيد ، وكان ضحكه فى بعض الأحيان بغير مناسبة يدعو الى الضحك ، لا لشىء الا لأنه قد فرض على نفسه هذا الدور ، دور المهرّج . أما آفاناسى ايفانوفتش نفسه الذى اشتُهر هو بأنه محدث بارع لبق ، والذى كان فى السهرات الماضية هو الذى يمسك زمام الحديث ويوجه دفته ، فقد كان معتل المزاج وفى حالة اضطراب ليست معهودة فيه . وأما الضيوف الآخرون ، وعددهم قليل على كل حال ، (معلم مدرسة عجوز يرثى المرء لحاله ، ولا يدرى الا الله لماذا دُعى الى هذه الحفلة ؛ وشاب فى ريعان الصبا لا يعرفه أحد من الحضور ، خجول خجلا كبيرا ، صموت صمتا عنيدا ؛ وسيدة جريئة فى نحو الأربعين من عمرها ، ممثلة ؛ وسيدة شابة جميلة جمالا رائعا ، ترتدى ثيابا أنيقة غنية ، لكنها قليلة الكلام جدا) ، كان هؤلاء جميعا لا عاجزين عن

تنشيط الحفلة فحسب ، بل كانوا عاجزين حتى عن العثور على موضوع لحديث .

لذلك كان ظهور الأمير فى هذه الظروف أمرا مناسبا وفى أوانه . ولئن أحدث الابلاغ عن وصوله شيئا من الحيرة ، ورسم على الشفاه ابتسامات دهشة ، لا سيما وأن الحضور قد أدركوا من امارات الاستغراب التى لاحت فى وجه ناستاسيا فيليبوفنا أنها لم تكن قد خطر ببالها أن تدعوه قط ، فان ناستاسيا فيليبوفنا ما لبثت بعد بادرة الاستغراب الأولى هذه أن أظهرت على الفور رضى وارتياحا بلغا من القوة أن أكثر المدعوين أسرعوا يتهيأون لاستقبال الزائر الذى قادته المصادفة استقبالا فرحا مرحا .

افصح ايفان فيدوروفتش ايبانتشين عن رأيه قائلا :

— رغم أن براءته الساذجة هى التى تتحمل تبعة ذلك ، ورغم أن تشجيع ميول من هذا النوع أمر خطر على كل حال ، فليس سيئا أن خطرت بباله فكرة المجىء الآن ، وان يكن ذلك شذوذا ؛ حتى فقد يحمل الينا شيئا من مرح ، اذا صدق ما أعرفه عنه .

وأسرع فردشينكو يقول :

— ولا سيما أنه دعا نفسه بنفسه !

قال الجنرال يسأل بخشونة ، لأنه يكره فردشينكو :

— أى ضير فى هذا ؟

— عليه أن يدفع رسم الدخول !

— ما أمير اسمه ميشكين كرجل اسمه فردشينكو !

قال الجنرال مندفعا ، ولم يكن قد استطاع أن يعتاد أن تضمه هو وفردشينكو سهرة واحدة يكونان فيها ندّين .

أجاب فردشينكو وهو يضحك ضحكة ساخرة :

— على مهلك يا جنرال ! عليك أن تراعى فردشينكو . ان لى هنا حقوقا خاصة .

— ما هى هذه الحقوق الخاصة ؟

— اتيح لى فى المرة الماضية شرف شرحها للحفل . ومع ذلك يسرنى أن أكرر لسعادتك ما سبق أن شرحته . ان جميع الناس هنا يا صاحب السعادة ، كما تستطيع أن تلاحظ ذلك ، يملكون ظرافة ، أما أنا فمحروم منها . ومن باب التعويض عن ذلك حصلت على اذن بأن أقول الحقيقة ، لأن كل انسان يعلم أن الحقيقة لا تنتمى الا الى المحرومين من الظرافة . أضف الى ذلك اننى منتقم ، ومرد هذا أيضا الى اننى محروم من الظرافة . فأنا أحتمل الاساءات مذعنا ، ما ظل الرجل الذى أساء الىّ محتفظا بما له من حظوة ، حتى اذا بدت أولى علائم فشله ، تذكرت الاساءة التى ألحقها بى ، فثأرت لنفسى ، فرفست ولبطت ، على حد التعبير الذى استعمله فى وصفى ايفان بتروفتش بتيتسين ذات يوم ، وهو رجل لا يرفس أحدا ولا يلبط أحدا قط . هل تعرف حكاية «الأسد والحمار» لكريلوف ، يا صاحب السعادة ؟ هما نحن ، أنت وأنا ، يا صاحب السعادة ! لقد كتبت الحكاية عنا نحن .

قال الجنرال غاضبا :

— أراك تفرط مرة أخرى يا فردشينكو !

وكان فردشينكو لا ينتظر الا هذا ليستمر فى كلامه ، وليمضى الى أبعد من ذلك ، فاستأنف كلامه يقول :

— ما بك يا صاحب السعادة ؟ لا تقلق ! أنا

أعرف مكانى يا صاحب السعادة . فاذا قلت اننا ، أنت وأنا ، الأسد والحمار اللذان تحدثت عنهما الحكاية ، فمن المفهوم اننى أحتفظ لنفسى بدور الحمار ، بينما أنت الأسد يا صاحب السعادة ، كما ورد فى حكاية كريلوف :

أسد قوى يرهب الغابات
فقدَ القوى اذ دب فيه الهرم

فانا الحمار يا صاحب السعادة .

أفلت من لسان الجنرال قوله بغير ترو ولا تبصر :

— فى هذه النقطة أوافقك على رأيك !

ذلك كله كان فظاظة وغلظة طبعا ؛ وكان واضحا أنه مبيَّت ومقصود . غير أن فردشينكو كان قد ملك حقّ أن يكون مهرجا عادة .

حتى لقد صاح يقول فى ذات يوم :

— ثم اننى انما أُستقبل هنا لهذا الغرض ، وانما يُحتفظ بى هنا لهذا الغرض ، أعنى من أجل أن أتكلم بهذه الطريقة . والا فهل يمكن أن يُستقبل رجل مثلى ؟ أنا أفهم ذلك تماما . هل من المعقول أن أوضع ، أنا فردشينكو ، جنبا الى جنب مع سيد نبيل مرهف الفكر والشعور مثل آفاناسى ايفانوفتش ؟ لا بد لى اذن أن أخلص من ذلك الى هذه النتيجة ، وهى أننى لا يتيسر لى هذا الا لأنه غير مقبول وغير معقول .

ولكن فردشينكو كان رغم عاميته وابتذاله يفلح أحيانا فى أن يكون لاذعا جدا واعجب هذا بالذات ناستاسيا فيليبوفنا ، كما يبدو ؛ فكان ينبغى للذين يريدون أن يُستقبلوا

فى دارها أن يتحملوا فردشينكو . ولعل فردشينكو قد أدرك منذ البداية أن ناستاسيا فيليبوفنا اخذت تستقبله لأنه استطاع أن يزعج توتسكى منذ أول يوم . كما أن جانيا قد تحمَّل منه عذابا لا نهاية له . فبهذا المعنى عرف فردشينكو أن يكون ذا نفع كبير وفائدة عظيمة لناستاسيا فيليبوفنا .

قال فردشينكو وهو يراقب بطرف عينه أثر كلامه فى ناستاسيا فيليبوفنا :

— أما الأمير فسيأخذ يغنى لنا أغنية على الموضة .

فقالت ناستاسيا فيليبوفنا بخشونة :

— لا أظن ذلك يا فردشينكو ، وأنا أنصحك بأن لا تندفع كثيرا .

— آ . . . اذا كان ينعم بحماية خاصة ، فلم يبق علىَّ الا ان اكون رقيقا ايضا ، وان . . .

لكن ناستاسيا فيليبوفنا كانت قد نهضت دون أن تصغى الى كلامه ، ومضت تستقبل الامير .

قالت وهى تظهر أمام الأمير فجأة :

— يؤسفنى أننى نسيت من تعجلى أن أدعوك آنذاك . واننى ليسرنى جدا أن تهيئ لى بنفسك فرصة شكرك والثناء عليك على ما تملك من روح التصميم .

كانت وهى تتكلم تنظر الى الأمير بانتباه ، محاولة ان تفسر لنفسها سبب مجيئه .

ولقد كان يمكن أن يرد الأمير على كلماتها اللطيفة ، لكنه كان مبهورا مبهوتا فلم يستطع أن ينطق بكلمة واحدة . وقد لاحظت ناستاسيا فيليبوفنا ذلك مسرورةً . لقد كانت فى ذلك المساء فى أبهى حلة وأجمل زينة ، وكان منظرها

يحدث فى النفس أثرا قويا . أمسكت الأمير من يده ، وقادته الى حيث كان الضيوف . وقد توقف الأمير على حين فجأة قبيل دخول الصالون وأسرع يهمس فى اذنها منفعلا انفعالا شديدا :

— كل شىء فيك رائع كامل . . حتى تحولك وشحوبك . . لا يمكن للمرء أن يتصورك غير هذه . . . لقد بلغت من قوة الرغبة فى المجىء اليك أننى . . . معذرة . . . سامحينى . . .

قالت ناستاسيا فيليبوفنا ضاحكة :

— لا تعتذر ، والا افقدت بادرتك غرابتها وطرافتها . كانوا على صواب حين قالوا أن فيك غرابة . اذن أنت تعدنى رائعة كاملة ؟

— نعم .

— ها أنت تخطئ ، رغم أنك تعدُّ أستاذا فى فن الحزر . سأذكرك بذلك فى هذا المساء نفسه . . .

وقدَّمت الأمير الى ضيوفها الذين كان أكثر من نصفهم قد عرفه من قبل . وسرعان ما وجد توتسكى شيئا لطيفا يقوله . وبدا على الحفل شىء من الانتعاش ، واخذوا جميعا يتكلمون ويضحكون . وأجلست ناستاسيا فيليبوفنا الأمير الى جانبها .

صرخ فردشينكو يقول وقد طغا صوته على جميع الاصوات :

— أى غرابة حقا فى مجىء الأمير ؟ ان المسألة واضحة جلية !

فقال جانيا فجأة بعد ان ظل أخرس حتى ذلك الحين :

— بل المسألة واضحة كل الوضوح ، جلية كل الجلاء .

لقد ظللت اراقب الأمير هذا اليوم بلا انقطاع تقريبا ، منذ اللحظة التى رأى فيها صورة ناستاسيا فيليبوفنا على مكتب ايفان فيدوروفتش . وانى لأتذكر جيدا أن فكرة قد قامت فى ذهنى حينذاك ، وترسخت الآن فى نفسى قوية ، حتى أن الأمير نفسه قد اسرَّ الىَّ باعترافات عنها ، أقول هذا عابرا .

نطق جانيا تلك العبارة كلها بجد كبير لا يخالطه أى مزاح ، حتى أن وجهه كان مكفهرا ، فأثار ذلك شيئا من الدهشة .

أجاب الأمير يقول وقد احمر وجهه :

— أنا ما أسررت اليك باى اعتراف ، ولم ازد على ان اجبتُ عن سؤال القيته انت علىَّ .

أعول فردشينكو يقول :

— مرحى ! مرحى ! هذا كلام فيه صدق على الاقل ، فيه صدق وحذق !

وضحك الجميع مقهقهين . فقال بتيتسين بصوت خافت فيه اشمئزاز :

— لا تصرخ هذا الصراخ يا فردشينكو !

وقال ايفان فيدوروفتش :

— لم اكن اتوقع منك ، يا أمير ، «برويس»[1] من هذا النوع ، لا يجيد مثلها الا . . . الا . . . لقد كنت أتصورك فيلسوفا لا اكثر ! الا ان على المرء ان يخشى الماء الساكن !

---

[1] مآثر (prouesse بالفرنسية) .

— حين رأيت كيف يحمر الأمير احمرار فتاة بريئة لمزاحة بريئة ، أيقنت أنه بوصفه شابا نبيلا يضمر قلبه اشرف النيات . — كذلك قال بل زاڤاً يقول على دهشة من الحضور كافة ، معلمُ المدرسة الاهتم الذى يبلغ من العمر نحو سبعين عاما ، والذى لبث صامتا خلال ذلك الوقت ، وكان لا يتوقع احد منه ان ينطق بكلمة واحدة طوال السهرة . فانطلقت الضحكات مجلجلة مزيدا من الجلجلة . وظن العجوز المسكين ان الناس يضحكـــون لنكتته الفكهة فأخذ يشاركهم الضحك وهو ينظر اليهم ، حتى ألمت به نوبة سعال شديد . وكانت ناستاسيا فيليبوفنا تحب هذا النوع من الرجال الشيوخ والنساء العجائز الذين يتصفون بشيء من التفرد ، بل كانت تحب حتى العبطاء ، فأخذت تلاطفه حتى لقد قبلته ، ثم أمرت بأن يُصبَّ له فنجان آخر من الشاى . وطلبت من الخادمة ان تجيئها بخمارها فدثرت نفسها به وامرت باضافة حطب الى الموقد . وحين سألت الخادمة عن الساعة ، اجابتها الخادمة بان الساعة هى العاشرة والنصف . فقالت ناستاسيا فيليبوفنا فجأة تخاطب الحفل :

— الا تشربون شمبانيا ايها السادة ؟ لقد حضَّرت الشمبانيا ، فعسى ان تجعلكم اكثر مرحا ؛ فارفعوا التكليف ، ارجوكم .

ان هذه الدعوة الى الشراب ، ولا سيما بعبارات تبلغ هذا المبلغ من السذاجة ، قد بدا صدورها عن ناستاسيا فيليبوفنا غريبا كل الغرابة . ان الجميع يعرفون التقيد بالقواعد الصارمة التى كانت تسود حفلاتها السابقة . لقد اخذت السهرة

تتعثر ولكنها فاقت فى انتعاشها المألوفَ فى امثالها . لم يرفض احد الشمبانيا : قبلها الجنرال اولا ، ثم السيدة الجريئة ، فالشيخ المسكين ، ثم فردشينكو ، ثم قبلها الجميع آخر الامر . لقد قبل توتسكى ، هو ايضا ، كأسا من الشمبانيا ، بغية ان يسبغ شيئا من روح الدعابة اللطيفة على المجرى الجديد الذى جرت فيه السهرة . لكن جانيا وحده لم يشرب شيئا . أما ناستاسيا فيليبوفنا التى تناولت كأسا كذلك ، واعلنت انها ستشرب اثناء السهرة ثلاث كئوس ، فقد كان من الصعب على المرء ان يفهم شيئا من حركاتها المفاجئة العنيفة ، وضحكها العصبى الذى لا موضوع له ، والذى تتخلله فترات تفكير متجهم صامت . قدَّر بعضهم انها تعانى من حمى . وبدءوا يلاحظون اخيرا انها تنتظر هى نفسها شيئا ما ، فهى تلقى نظرات كثيرة متكررة على ساعة الجدار ، وهى قد أخذ يظهر عليها نفاد الصبر وشرود الفكر .

سألتها السيدة الجريئة قائلة :

— هل تعانين شيئا من حمى ؟

فأجابتها ناستاسيا فيليبوفنا ، شاحبة الوجه فعلا ، جاهدة ان تكبح ارتعادها :

— بل اننى اعانى حمى شديدة ، لذلك تدثرت بخمارى .

فقامت من حولها حركة اضطراب وقلق .

اقترح توتسكى قائلا وهو ينظر الى ايفان فيدوروفتش :

— ماذا لو تركنا مضيفتنا ترتاح ؟

فهتفت ناستاسيا فيليبوفنا تقول بالحاح ذى دلالة :

— لا ، ابدا ايها السادة ! انا اصر على ان تبقوا .

اننى لا استطيع الاستغناء عن وجودكم هذا المساء بالذات . — واذ كان جميع الضيوف تقريبا يعلمون سلفا ان قرارا يبلغ مبلغا كبيرا من خطورة الشأن سيُتَّخذ هذا المساء ، فقد بدت لهم هذه الكلمات مثقلة بالمعانى . وتبادل الجنرال وتوتسكى نظرة جديدة . وسرت فى جانيا رعشة .

قالت السيدة الجريئة :

— يستحسن ان ننظم «بتى جيو»[1] .

فصاح فردشينكو يقول متحمسا :

— انا اعرف لعبة جديدة رائعة . هى على كل حال لعبة لم تُجَرَّب الا مرة واحدة ، ثم لم تنجح !

سألته السيدة الجريئة :

— ما هى هذه اللعبة ؟

— اجتمعنا فى ذات يوم لفيفا من الأصحاب . فلما شربنا قليلا — والحق يقال — اقترح أحدهم أن يقصَّ كل واحد منا ، دون أن ينهض عن المائدة ، قصة عن نفسه ، على شرط أن يكون فى قرارة ضميره مقتنعا بأن القصة التى سيرويها هى أسوأ فعل ارتكبه فى حياته ، وعلى شرط أن يكون صادقا كل الصدق ، خاصة أن يكون صادقا كل الصدق فلا يكذب البتة !

قال الجنرال :

— فكرة غريبة !

— ليس هناك فكرة اغرب منها يا صاحب السعادة ، ولكن هذا نفسه سر حسنها .

[1] petit jeu (بالفرنسية) ، حرفيا : «لعبة صغيرة» وهى لعبة تدفع فيها غرامات . المراجع .

قال توتسكى :

— شىء مضحك ! لكنه مفهوم ! نوع مقلوب من التباهى والمفاخرة !

— لعل هذا بعينه هو ما كانوا ينشدونه يا آفاناسى ايفانوفتش .

قالت السيدة الجريئة :

— امثال هذه اللعب تبكى اكثر مما تضحك !

قال بتيتسين :

— امر مستحيل وسخيف تماما .

سألت ناستاسيا فيليبوفنا :

— وهل نجحت اللعبة ؟

— لم تنجح ! جرت الامور مجرى سيئا ! صحيح أن كل واحد روى حكاية ، وذكر امورا صادقة كثيرة ، حتى أن بعضهم كان يجد فى رواية قصته لذة — تصوروا ! — ولكنهم جميعا شعروا بالخزى آخر الامر ، ولم يقووا على متابعة اللعبة الى نهايتها ! يمكن أن نقول بوجه عام ان اللعبة كانت مسلِّية ، ولكن فى بابها طبعا .

قالت ناستاسيا فيليبوفنا وقد تحمست فجأة :

— يحسن حقا أن نجرب ! حقا يجب علينا أن نجرِّب هذه اللعبة ايها السادة ! اننى ألاحظ أننا لم نستطع حتى الآن أن نخلق جوا مرحا فى هذا المساء ، ليت كل واحد منا يقبل أن يقصَّ شيئا ما . . . من هذا النوع . . . اذا هو اراد طبعا . . . فكل واحد حر ، هه ؟ ولعلنا نستطيع أن نمضى فى هذا الى آخر الشوط . على كل حال ، اللعبة طريفة جدا .

أيدها فردشينكو قائلا :

— فكرة عبقرية ! غير أن السيدات معفيات ، السادة وحدهم هم الذين سيقصون . وسنحدد دور كل واحد بالقرعة ، كما فعلنا فى المرة السابقة ، هذا لا بد منه ! والذى لا يريد أن يروى حكاية ، له أن يمتنع طبعا ، ولكن لا بد انكم توافقون على أن هذا لن يكون لطيفا منه ! ليكتب كل واحد اسمه على ورقة ايها السادة ، ولنضع الاوراق كلها فى قبعة ، هنا ! وسيتولى الأمير سحب الأوراق واحدة بعد واحدة . مهمتكم بسيطة جدا . على كل واحد منكم ان يقصَّ قصة اسوأ فعل ارتكبه فى حياته . وهذا سهل جدا ايها السادة ! سوف ترون ! حتى اذا لاحظت فى ذاكرة احدكم توانيا ، توليت أنا تنشيطها !

لم ترض الفكرة احدا . فبعضهم تقطبت حواجبهم ، وبعضهم رسموا على شفاههم ابتسامات ساخرة . واحتج بعضُ آخر ، ولكن دون الحاح شديد ، مثل ايفان فيدوروفتش الذى كان لا يريد ان يُسخط ناستاسيا فيليبوفنا والذى كان قد لاحظ مدى افتتانها بهذه الفكرة الغريبة . ولقد كانت ناستاسيا فيليبوفنا امرأة لا يثنى عزمها ولا تتراجع عن رغباتها متى قررت ان تظهر هذه الرغبات ، ولو كانت نزوات شاذة وبدوات لا تجديها نفعا . وانها الآن لفى حالة تكاد تكون هستيرية ، فهى تتحرك كثيرا وتضحك ضحكا تشنجيا ، ولا سيما فى الرد على ما كان يبديه توتسكى من احتجاج قلق . كانت عيناها القاتمتان تسطعان ، وقد ظهرت على خديها الشاحبين بقعتان حمراوان . ولعل ما فى وجوه بعض المدعوين من تجهم واشمئزاز كان يزيد ضرام رغبتها الساخرة

فى ازعاجهم ؛ ولعل ما كان يرضيها فى تلك الفكرة انما هو استهتارها وقسوتها . حتى لقد ايقن بعضهم أن ناستاسيا فيليبوفنا تبيِّت نية ما . على أن الحضور قد قبلوا الاقتراح أخيرا ، فالفكرة طريفة شائقة على كل حال ، وهى بالنسبة الى بعضهم مغرية أشد الاغراء . وكان فردشينكو اكثر الحضور نشاطا .

قال الشاب الصموت سائلا فى خجل :

— فماذا لو كانت القصة يستحيل على المرء ان يرويها . . . بحضور سيدات ؟

فأجابه فردشينكو قائلا :

— ما عليك فى هذه الحالة الا أن تمتنع عن روايتها . يا للشباب الساذج ! لكأنه لا يوجد أفعال اخرى سيئة كثيرة !

قالت السيدة الجريئة صائحة :

— أما أنا فلا أدرى ماذا أختار من بين أفعالى السيئة !

فعاد فردشينكو يكرر :

— السيدات معفيات من ضرورة رواية شىء . لكنهن معفيات فحسب . اما من شاءت منهن ان تذكر شيئا من وحى ذاتها ، فلها أن تفعل ذلك مشكورة . والرجال أيضا معفون اذا أزعجتهم هذه اللعبة كثيرا .

سأل جانيا :

— ولكن كيف أبرهن على اننى لا اكذب ؟ اذا كذبت فقدت اللعبة كل معناها . ومن ذا الذى يمكن ألا يكذب ؟ ان كل واحد لا بد له ان يكذب .

صاح فردشينكو يقول فى نوبة من حماسة شديدة :

— يكفى أن نرى كيف يحسن المرء الكذب ، فهذا وحده من المغريات . اما انت يا جانيتشكا فليس لك أن تخشى الكذب حقا ، لأن الفعل الذى هو أسوأ ما ارتكبت فى حياتك من افعال سيئة يعرفه الجميع . تصوروا كذلك ايها السادة ، تصوروا بأى عين سينظر كل منا الى الآخر غداً بعد جميع القصص التى سنرويها !

سأل توتسكى بوقار ورصانة :

— أهذا ممكن ؟ أهذا جدّ حقا يا ناستاسيا فيليبوفنا ؟

قالت ناستاسيا فيليبوفنا ساخرة :

— من يخشى الذئب لا يذهب الى الغابة !

وعاد توتسكى يقول ملحا ، بينما كان قلقه يزداد ويشتد شيئا بعد شيء :

— لكن اسمح لى يا سيد فردشينكو : كيف يمكن ان تجعل من هذه اللعبة «بتى جيو» ؟ أؤكد لك ان الالعاب من هذا النوع لا تنجح أبدا . ولقد قلت أنت نفسك ان هذه اللعبة لم تنجح مرة .

— كيف لم تنجح ؟ ألم اقصص فى المرة الاخيرة كيف اتفق لى ان سرقت ثلاثة روبلات ؟ ألم أقصص ذلك ؟

— صحيح . ولكن لم يكن فى وسعك ان تقص القصة على نحو يظهرها صادقة ، فيصدقك المستمعون ، أليس كذلك ؟ لقد ذكر جافريلا آرداليونتش منذ هنيهة — وهو فى ذلك على صواب — أنه يكفى أن يشم المستمع رائحة كذب فى القصة حتى تفقد اللعبة معناها . ان الحقيقة غير ممكنة هنا الا بالمصادفة ، اى بنوع فاسد من حب

الظهور لا يمكن قبوله ولا يمكن تصوره فى هذا المكان .

صاح فردشينكو قائلا :

— يا لك من رجل مرهف الفكر حقا ! انك لتثير دهشتى يا آفاناسى ايفانوفتش . انظروا ايها السادة : انه حين نبّه الى اننى لم استطع أن أتحدث عن سرقتى على النحو الذى يجعلها تشبه الحقيقة قد أفهمنا بانعم طريقة أننى فى الواقع لم يكن فى امكانى أن أرتكب جريمة السرقة (اذ ليس من اللائق أن يتحدث المرء عن مثل هذه الامور) ، رغم أنه ربما كان فى قرارة نفسه مقتنعا كل الاقتناع بأن فردشينكو يمكن ان يسرق ! ولكن هلموا يا سادتى هلموا : أصبحت الاسماء فى القبعة ، ومنها اسمك انت يا آفاناسى ايفانوفتش ، فالجميع اذن موافقون . ابدأ يا أمير !

أغطس الأمير يده فى القبعة دون أن يقول شيئا ، وأخرج منها اول ورقة فكانت ورقة فردشينكو ، ثم سحب الثانية فكانت ورقة بتيتسين ، ثم سحب باقى الأوراق واحدة بعد واحدة ، فكانت الثالثة ورقة الجنرال ، وكانت الرابعة ورقة آفاناسى ايفانوفتش ، وكانت الخامسة ورقته هو ، وكانت السادسة ورقة جانيا ، الخ . ولم تكن السيدات قد وضعت فى القبعة أوراقا .

هتف فردشينكو يقول :

— يا لسوء حظى ! لقد كنت آمل ان يخرج اسم الأمير أول اسم ، وأن يخرج اسم الجنرال بعده . من حسن الحظ على كل حال أن اسم ايفان بتروفتش يأتى بعد اسمى ، فهذه مكافأة لى . واضح اذن يا سادة اننى انا الذى يجب أن أكون القدوة الحسنة فى هذه اللعبة ،

ولكن ما يؤسفنى أكثر من أى شىء آخر فى هذه اللحظة هو أننى امرؤ تافه كثيرا وأننى لا أتميز بشىء ، فحتى رتبتى ليس لها أى شأن . ما قيمة أن يكون فردشينكو قد ارتكب عملا سيئا فى الواقع ؟ وما هو أسوأ اعمالى ؟ حقا نرى هنا[1] embarras de richesse اللهم الا أن أقص حكاية السرقة تلك نفسها ، فأبرهن لآفاناسى ايفانوفتش أن من الممكن أن يسرق المرء دون أن يكون لصا .

— لقد استطعت أن تقنعنى أيضا يا سيد فردشينكو أن من الممكن أن يجد المرء متعة ولذة فى أن يروى قصص اعماله القذرة ، حتى دون أن يكون أحد قد طلب منه ذلك . . . على كل حال . . . معذرة يا سيد فردشينكو .

قالت ناستاسيا فيليبوفنا تحسم الموقف بلهجة فيها تململ وانزعاج :

— ابدأ يا فردشينكو ! لقد أسرفت فى التطريز والتوشية حتى لتكاد لاتفرغ من ذلك !

ولاحظ الجميع أنها بعد نوبة الضحك الاخيرة التى انتابتها ، قد ارتدت فجأة الى نوع من الحذر المتجهم ، وأنها أصبحت أسهل استثارة وأسرع اهتياجا . ولكنها ما تزال تصرّ على تنفيذ نزوتها بالحاح عنيد مستبد . كان آفاناسى ايفانوفتش فى مثل الجحيم عذابا . وقد أحنقه كذلك موقف ايفان فيدوروفتش الذى كان يحتسى كأس الشمبانيا هادئا ، ولعله كان عازما على أن يقصّ قصة متى جاء دوره .

[1] صعوبة تنجم عن سعة الاختيار . (بالفرنسية فى الاصل)

الفصل الرابع عشر

هتف فردشينكو بادئا حديثه :

— أنا انما أثرثر كثيرا لأننى تعوزنى الظرافة . لو كانت لدى ظرافة كظرافة آفاناسى ايفانوفتش أو ايفان بيتروفتش ، للبثت أنا أيضا صامتا ساكنا طوال السهرة كلها مثل آفاناسى ايفانوفتش وايفان بيتروفتش . يا أمير ، اسمح لى أن أسألك هل توافقنى على هذا الرأى : يخيَّل الىَّ أن عدد اللصوص فى العالم أكبر من عدد غير اللصوص ، حتى لقد يمكن القول انه ما من انسان ، حتى ولو كان من أكثر الناس شرفا ، لم يسرق طوال حياته شيئا ما . هذا انطباع شخصى ، لا أستنتج منه مع ذلك أن ليس فى العالم الا لصوص ، رغم أن القول بهذا الرأى كثيرا ما أغرانى ، أعترف لك بذلك . فما رأيك أنت ؟

قالت داريا ألكسيفنا :

— ما أسخف هذا الكلام ! ما أغبى هذا الهذر ! ليس ممكنا أن يكون جميع الناس قد سرقوا شيئا ما . أنا لم أسرق شيئا فى يوم من الأيام .

— أنت لم تسرقى فى يوم من الأيام يا داريا ألكسيفنا ، ولكن ما قول الأمير الذى أرى أنه احمر وجهه ؟

قال الأمير وكان قد احمر وجهه فعلا :

— يخيَّل الىَّ أنك على حق فيما تقول ، ولكنك تبالغ كثيرا .

— ولكن ألم تسرق أنت نفسك شيئا ما يا أمير ؟

تدخل الجنرال يقول :

— كلام مضحك سخيف ! هلاَّ فكرت فيما تقول يا سيد فردشينكو ؟

وقالت داريا ألكسيفنا حاسمة :

— أمرك بسيط : انك حين أُحرجت خجلت أن تروى شيئا ، لذلك تحاول أن تجر الأمير معك ، لأنه لا يملك عن نفسه دفاعا .

قالت ناستاسيا فيليبوفنا بشدة وقسوة :

— فردشينكو ! لك أن تقصَّ أو أن تسكت . ولكن لا تهتمَّ الا بنفسك . لقد أخذتَ تفقدنى صبرى .

— حالا يا ناستاسيا فيليبوفنا . ولكن ما دام الأمير قد اعترف (وانى لألح على هذه النقطة ، لأن ما قاله انما هو اعتراف حقا) ، فأنا أتساءل عما عسى أن يقوله لنا شخص آخر (لا اسمِّى أحدا) اذا هو أراد أن يقص علينا الحقيقة يوما ؟ أما أنا أيها السادة ، فالحق أن ما سأرويه لكم ليس شيئا كثيرا ، فهو بسيط غاية البساطة ، وهو عدا ذلك غبى وبشع . لكننى أؤكد لكم مع ذلك اننى لست لصا ، واننى ارتكبت فعل السرقة ذاك دون أن أدرى لماذا ! لقد حدث ذلك قبل سنتين ، فى فيلا سيمون ايفانوفتش اشينكو ، يومَ أحد . كان عنده ضيوف . فلما انتهى الغداء بقى الرجال يتجاذبون أطراف الحديث أمام كأس . وخطر ببالى أنا أن أطلب من ماريا سيمونوفنا ، ابنة صاحب الدار ، الآنسة ، أن تعزف لنا شيئا على البيانو. فلما اجتزت احدى الغرف لمحت على منضدة عمل ماريا ايفانوفنا ورقة نقدية خضراء بثلاثة روبلات لا شك أنها كانت

قد أخرجتها لحاجة من حاجات الدار . لم يكن فى الغرفة أحد . تناولت الورقة ودستها فى جيبى . لماذا ؟ لا أدرى . اننى لا أعرف السبب الذى دفعنى الى ذلك . ولكننى أسرعت أعود الى المائدة . ولبثت هنالك أنتظر ، منفعلا بعض الانفعال . كنت أثرثر بلا توقف ، وأروى فكاهات ، وأضحك . ثم جلست قرب السيدات . وبعد انقضاء قرابة نصف ساعة ، لوحظ اختفاء الورقة النقدية ، فسُئل عنها الخدم . وحامت الشبهة حول داريا ، الخادمة . أظهرتُ كثيرا من الاهتمام والاستطلاع ، حتى لأتذكر اننى ، حين ارتبكت داريا ارتباكا تاما ، أخذت أقنعها بضرورة الاعتراف ، وحلفت برأسى لأضمننَّ لها تسامح ماريا ايفانوفنا ، وذلك على مسمع ومرأى من جميع الحضور . فكان هؤلاء ينظرون اليَّ ، وكنت أشعر بلذة عظيمة من تدفقى فى الوعظ بينما الورقة النقدية فى جيبى . وفى مساء ذلك اليوم نفسه شربت بالمال خمرة فى أحد المطاعم : دخلت فأمرت لنفسى بزجاجة من خمر «لافيت» . لم يحدث قبل ذلك أن طلبت زجاجة على هذا النحو دون أن آكل شيئا . ولكننى كنت أستعجل انفاق ذلك المال . على أننى لم أشعر بأى ندم خاص ، لا فى ذلك الحين ، ولا بعده . ولا أعتقد أن فى امكانى أن ارتكب ذلك الفعل مرة أخرى . صدقوا ذلك او لا تصدقوه ، كما تشاءون : ان الأمر لا يهمنى . هذا كل شىء .

قالت داريا الكسيفنا مشمئزة :

— لكنى أعتقد أن هذا العمل ليس أسوأ عمل ارتكبته فى حياتك طبعا !

وعقّب آفاناسى ايفانوفتش :

— بل ليس هذا عملا وانما هو حالة نفسية .

وسألت ناستاسيا فيليبوفنا دون أن تحاول اخفاء تقززها :

— وماذا جرى للخادمة ؟

— طردوها منذ الغد طبعا . ذلك بيت صارم القواعد .

— وتركت لهم أن يطردوها ؟

— هه ! فهل كنتم تريدون اذن أن أذهب واعترف بفعلتى ؟

بذلك أجاب فردشينكو ، وقد دُهش ، على كل حال ، من الأثر السيئ الذى أحدثته قصته فى نفوس الحضور .

هتفت ناستاسيا فيليبوفنا تقول :

— ما أقذر هذا العمل !

— هوه ! أتطلبون من انسان أن يروى أسوأ فعل ارتكبه فى حياته ثم تريدون أن يكون هذا الفعل ناصعا ؟ ان أسوأ الأفعال قذر دائما . لسوف يثبت لنا ذلك ايفان بتروفتش بعد قليل . ثم ان كثيرا من الناس يظهرون بمظهر باهر ، ويوهمون بأنهـــم مثال الفضيلة لأنهم يملكون خيولهم وعرباتهم ! وما أكثر الذين يملكون فى هذه الأيام . . . ولكن ليتنا نعرف الوسائل التى استعملوها للوصول الى ذلك . . .

الخلاصة أن فردشينكو قد خرج عن طوره ، وأصبح سليط اللسان ناسيا نفسه متجاوزا كل حد . ان كشرة خبيثة تجعّد الآن وجهه . لعله كان يتوقع أن تحدث قصته فى نفوس سامعيه أثرا غير هذا الأثر تماما ، مهما يبدُ توقعه هذا غريبا . ان هذا النوع من «الزلات» الرديئة و«التباهى

الخاص» ، على حد تعبير توتسكى ، أمر مستمر مألوف عند فردشينكو ، وهو يناسب طبعه تماما .

ارتعدت ناستاسيا فيليبوفنا غضبا ، وحدّقت الى فردشينكو بنظرة ثابتة ، فاستولى عليه فورا رعب شديد ، فصمت وقد جمّده الخوف من أن يكون قد أسرف قليلا .

قال آفاناسى ايفانوفتش يقترح متهكما :

— ألا نحسن صنعا اذا نحن اكتفينا بهذا ؟

فقال بتيتسين بحزم :

— هذا دورى أنا ، لكننى أستعمل حقى فى الرفض ، فلا أروى شيئا .

— ترفض ؟

— لا أستطيع يا ناستاسيا فيليبوفنا . ثم اننى اعد مثل هذه اللعبة أمرا مستحيلا .

قالت ناستاسيا فيليبوفنا وهى تلتفت نحو ايبانتشين :

— يا جنرال ، أعتقد أن الدور دورك الآن . فاذا امتنعت أنت أيضا فقد انهارت لعبتنا كلها ، ولسوف يؤسفنى ذلك كثيرا ، لأننى أنوى أن أقصّ فى الختام قصة عمل مأخوذ «من حياتى أنا» . لكننى لا أريد أن أفعل ذلك قبلك وقبل آفاناسى ايفانوفتش ، اذ لا بد أن تشجعانى .

قالت ناستاسيا فيليبوفنا جملتها الأخيرة هذه ضاحكة .

فهتف الجنرال يقول بحرارة :

— أوه ! اذا كنت أنت تعدين بذلك ، فاننى مستعد أن أروى لك حتى قصة حياتى كلها . وأعترف لك باننى قد هيأت قصة أحكيها متى جاء دورى . . .

تجرأ فردشينكو فقال وهو ما يزال خجلا بعض الشىء ،

ولكنه يبتسم ابتسامة وقحة :

— يكفى أن يراك المرء يا صاحب السعادة حتى يحزر ما شعرت به من لذة أدبية فى سبك قصتك .

وألقت ناستاسيا فيليبوفنا على الجنرال ، هى أيضا ، نظرة خاطفة ، وابتسمت بينها وبين نفسها . ومع ذلك كان يستطيع المرء أن يرى أن أعصابها كانت تزداد توترا ، وأن انزعاجها كان يزداد شدة . وارتعش آفاناسى ايفانوفتش حين علم أنها ستقص ، هى أيضا ، حكاية ما .

بدأ الجنرال كلامه فقال :

— لقد اتفق لى ، أيها السادة ، كما يتفق لكل انسان ، أن ارتكبت فى حياتى أفعالا لا توصف بأنها أنيقة جدا ، ولكن أغرب ما فى الأمر أننى أعد القصة القصيرة التى سأرويها لكم الآن هى أسوأ فعل اقترفته فى حياتى . صحيح أن خمسة وثلاثين عاما على وجه التقريب قد انقضت على حدوث تلك القصة ، ولكننى لم أستطع قط أن أحرِّر ذاكرتى من ذلك الانطباع الذى يقبض صدرى . هى حكاية غبية جدا على كل حال . كنت لا أزال أيامئذ فى الجيش برتبة مرشح ؛ وانكم لتعرفون ما المرشح : دم يغلى ويفور ، وجيب خال الا من كوبيكات معدودة . وكان لى جندى مراسلة اسمه نيكيفور يهتم بالقيام بأعباء البيت اهتماما شديدا ؛ فهو يوفِّر ويقتصد ، ويرتق ، ويمسح وينظّف ، بل هو يسرق من كل مكان كلَّ ما يتاح له أن يسرقه خلسة ليزيد به رزقى . كان يمتاز بأمانة تامة وشرف لا يضارع . أما أنا فكنت فى معاملته صارما ولكن عادلا . ولقد بقينا فى الحامية مدة من الوقت بمدينة صغيرة .

كنت قد أُعطيت بطاقة سكنى فى ضاحية من الضواحى ، عند أرملة ملازم ثان . هى عجوز فى الثمانين من عمرها أو فى نحو ذلك . وكان بيتها الخشبى يشبهها بلى وتداعيا وتهدما ، وكانت تبلغ من الفقر أنها ليس عندها حتى خادمة تساعدها . غير أن الشىء الذى تتميز به خاصة هو أنها كانت لها فى الماضى أسرة كبيرة العدد وأقرباء كثيرون . وتعاقبت السنون فبعضهم ماتوا وبعضهم سافروا أو نسوها . أما زوجها فكانت قد دفنته منذ ما يقرب من خمسة وأربعين عاما . وقد احتفظت خلال عدة سنين قبل ذلك بفتاة حدباء هى بنت أختها ، وكانت الفتاة فيما يروى عنها شريرة خبيثة كساحرة ، حتى لقد عضَّت خالتها فى اصبعها ذات يوم ، لكن الفتاة ماتت آخر الآمر هى أيضا ، فأصبحت العجوز تدبر أمورها بنفسها وحيدة منذ ثلاث سنين . وكنت أشعر عندها بضجر شديد ، فليس ثمة ما يمكن أن أعقد عليه أملا . وأخيرا سرقت من دجاجى فى ذات يوم ديكا . وظل الأمر غامضا ، ولكن لا يمكن أن يكون السارق أحدا غيرها . وقد تشاجرنا تشاجرا عنيفا فى موضوع الديك ، واستطعت بعد ذلك بمدة قصيرة أن أحصل على اذن بتغيير مسكنى تلبية لطلبى ، فأُرسلت الى ضاحية أخرى عند تاجر طويل اللحية غفير الذرية . اننى أتذكر هذا كأننى أراه اليوم . انتقلنا أنا ونيكيفور فرحين ، وتركنا العجوز مستائين منها كثيرا . وبعد ذلك بثلاثة أيام ، عدت الى البيت من التدريب فبادرنى نيكيفور بقوله : «لقد أخطأت ، سيادتك ، اذ تركت للعجوز وعاء الحساء ، فاننى لم يبق عندى وعاء أصب فيه الحساء» . فتجمدت من الدهشة طبعا وقلت :

«كيف تركنا لها وعاء الحساء ؟» ، وأخذ نيكيفور يشرح لى الأمر ، فتبيَّن أن العجوز قد رفضت عند رحيلنا أن تردَّ اليه وعاءنا ، زاعمة أنها تحتفظ به بديلا عن آنية كنت قد كسرتها لها ، وأننى أنا الذى اقترحت عليها ذلك .

فلما شرح لى نيكيفور ذلك ، فار الدم فى عروقى طبعا ، بسبب سفالة هذه المرأة ، فاذا أنا أثب وأطير ؛ فما وصلت الى العجوز حتى كنت خارجا عن طورى ، ووجدتها جالسة فى المدخل وحدها ، لاطية فى ركن من الأركان كأنما لتحتمى من الشمس ، مسندة خدها الى يدها . فنزلت عليها نزول الصاعقة ، وأخرجت لها كل ذخيرتى من الشتم والسب : «يا كيت وكيت !» . . . على الطريقة الروسية . هل لاحظتم ؟ لكنها بدت لى غريبة : فهى ما تزال جالسة أمامى تحدِّق الىَّ بعينيها الجاحظتين دون أن تجيبنى بكلمة واحدة ، وما تزال نظرتها غريبة غرابة شديدة ، وكأنها كانت تترجح قليلا . وهدأت أخيرا ، ونظرت اليها ، وسألتها ، فظلت صامتة لا تجيب . فلبثت متحيرا ، فى جـــو هذه الشـــمس الغاربة وهذا الذباب المدندن ؛ ثم اضطربت فقفلت راجعا أخيرا . وقبل أن أصل الى دارى استُدعيت الى القيادة ، واضطررت أن أمرَّ بسريتى ، ثم لم أعد الى بيتى الا فى الليل . فكانت الكلمات الأولى التى بادرنى بها نيكيفور هى : «هل تعلم ، سيادتك ، أن صاحبة البيت قد ماتت ؟» فسألته : «متى ؟» «اليوم فى هذا المساء ، ربما منذ ساعة ونصف ساعة» . اذن فقد كانت ميتة لحظةَ كنت أغرقها بالشتائم ! بلغتُ من قوة الشَّده اننى لم أثب الى رشدى الا بعد وقت . أصبحت العجوز لا تفارق فكرى ، حتى لقد حلمت بها

فى الليل . صحيح اننى امرؤ لا أومن بالخرافات ، ولكننى ذهبت فى اليوم الثالث الى الكنيسة أشيع جنازتها . وصرت مع مضى الزمن أفكّر فى هذه القصة مزيدا من التفكير . لا أزعم أن هذه القصة قد احتلت فكرى كله ، ولكننى أقول انها كانت تنبثق فى ذهنى على حين فجأة ، فأشعر باضطراب . وفهمت أخيرا ما الذى كان يفجؤنى أكثر من أى شىء آخر : هذه امرأة ، أو قل بلغة هذا العصر ذى النزعة الانسانية : هذه كائن حى ، عاشت زمنا طويلا حتى نسيها الموت . ولقد كان لها فى الماضى أولاد ، وزوج ، وأسرة ، وأقرباء . وكان ذلك كله يغلى ويفور من حولها ان صح التعبير ، وكانت تحوطها ابتسامات من كل صوب ؛ وفجأة لم يبق من ذلك كله شىء ، وغاب بما يشبه أن يكون ضربة سحر ، فاذا هى تبقى وحيدة مثل . . . مثل ذبابة ما تحمل على ظهرها لعنة العصر . وقادها الله أخيرا الى نهايتها ، فطارت هى أيضا فى ذات مساء لطيف من أماسى الصيف الهادئة عند غروب الشمس . هذه فكرة زاخرة بالعبر طبعا . ولكن المرشح الشاب ، بدلا من أن يذرف عبرة الوداع الأخير ، يضع يديه على خاصرتيه ، وينفخ صدره ، ويمطر العجوز المحتضرة بوابل من الشتائم المقذعة ثأرا لنفسه ، لأنها سلبته وعاء الحساء ! لا شك فى أننى أثمت ؛ ورغم اننى أصبحت منذ زمن طويل أعدَّ ذلك الفعل غريبا عنى ، لتقادم العهد أولا ، ولتغير طبعى ثانيا ، فما زلت أشعر بأسف ، حتى اننى أدهش من ذلك ، لا سيما واننى ان كنت آثما فلست آثما كل الأثم : فما الذى حملها على أن تموت فى تلـــك اللـــحـــظة

نفسها ؟ من الواضح على كل حال أن عذر ذلك العمل السيئ أن له بواعث نفسية ، ومع ذلك لم يهدأ بالى هدوءا تاما ، الا حين قررت ، منذ نحو خمسة عشر عاما ، أن أقف مبلغا من المال على ملجأ من الملاجئ لايواء امرأتين عجوزين ، لتكون أيامها الأخيرة من حياتهما الأرضية أخف وطأة على نفسيهما بفضل ظروف معاشيـــة أفضل . حتى اننى أنوى أن استمر فى وقف هذا المال ارثا . تلكم هى القصة كلها . أعود فأقول : لعل فى حياتى آثاما كثيرة ولكن هذا الفعل يبدو لى أسوأ عمل ارتكبته فى حياتى .

فعقب فردشينكو على كلام الجنرال قائلا :

— انك ، يا صاحب السعادة ، بدلا من أن تروى لنا قصة أسوأ عمل ارتكبته فى حياتك ، رويت قصة أفضل عمل ، فخيّبت بذلك فأل فردشينكو !

وقالت ناستاسيا فيليبوفنا بهدوء واهمال :

— حقا يا جنرال ، ما كنت أتصور أن يكون لك قلب طيب . خسارة .

فسألها الجنرال وهو يضحك ضحكة تحبب وتلطف :

— خسارة ؟ لماذا ؟

وشرب جرعة من الشمبانيا ، بشىء من الاعتزاز .

جاء الآن دور آفاناسى ايفانوفتش الذى هيأ نفسه لرواية قصة هو أيضا . كان الحضور يقدّرون أنه لن يفعل ، كما فعل ايفان بتروفتش ، ولن يرفض أن يروى قصة ، وكانوا ، لأسباب معينة ، ينتظرون قصته بفضول خاص ، وهم يلقون على ناستاسيا فيليبوفنا نظرات مختلسة . وبوقار عظيم يتفق

ومهابته ، أخذ آفاناسى ايفانوفتش يسرد واحدة من «قصصه اللطيفة» بصوت هادئ عذب . (يجب أن نذكر عابرين أن آفاناسى ايفانوفتش رجل طويل القامة مهيب الطلعة ، على شىء من الصلع والشيب ؛ بدين بعض البدانة ، خداه زاهيتان رخوتان قليلا ، أسنانه صناعية . يرتدى ثيابا أنيقة فضفاضة ، ويلبس قميصا ناصع البياض . يداه البضتان البيضاوان تخطفان الانتباه . فى سبّابة يده اليمنى خاتم ثمين من ماس) . فكانت ناستاسيا فيليبوفنا طوال مدة سرده قصته لا تنفك تنعم النظر فى شريط الدانتيلا الذى يزدان به كمها والذى كانت تقرصه باصبعين من يدها اليسرى ، فلم يُتح لها أن تنظر الى القصّاص ولو مرة واحدة . بدأ آفاناسى ايفانوفتش كلامه فقال :

— ان الشىء الذى يسهّل مهمتى هو اننى مضطر اضطرارا مطلقا أن أروى أسوأ فعل ارتكبته فى حياتى . فلا مجال فى مثل هذه الحالة لأى تردد ، فالضمير وذاكرة القلب يمليان علىّ اختيار القصة ويفرضانها فرضا . يجب علىّ أن اعترف ، وأنا أشعر بغير قليل من المرارة ، أن بين الأعمال الطائشة و . . . الصبيانية التى ارتكبتها والتى قد يكون عددها لا نهاية له ، أن بين تلك الأعمال عملا اثقلت به نفسى فلا سبيل الى نسيانه . حدث ذلك منذ قرابة عشرين عاما . كنت عندئذ فى اقامة قصيرة بالريف عند بلاطون أوردنتسيف الذى انتخب منذ برهة وجيزة رئيسا للنبلاء ، وكان يقضى أعياد آخر العام فى أراضيه مع امرأته الشابة . وكان عيد ميلاد آنفيسا ألكسيفنا يقع فى تلك الفترة نفسها ، فكانت تُهيّأ لهذه المناسبة حفلتا رقص . وفى ذلك

الأوان كانت الرواية الجميلة التى ألّفها الكسندر دوما فيس[1] «La dame aux camélias»[2] رائجة رواجا عظيمـــا فى المجتمع الراقى ، وكانت قد أحدثت فى ذلك المجتمع ضجة كبيرة . وهى فى رأيـى عمل أدبـى لا يمكن أن يموت ، بل ولا يمكن أن يشيخ . كانت جميع السيدات فى الريف متحمسات له أشد التحمس ، ولا سيما اللواتى قرأنه . فجمال القصة ، وأصالة الشخصية الرئيسية ، والتصوير المرهف لبيئة ملأى بالأمور الجذابة ، وجميع تلك التفاصيل الأخّاذة المنثورة فى الكتاب (كاستعمال باقات من أزهار الكاميليا بيضاء وحمراء على التناوب) ، الخلاصة أن الكتاب ، فى جملته وتفصيله ، كان قد أحدث أثرا كبيرا هزّ نفوس الناس هزا قويا . وأصبحت أزهار الكاميليا موضة يتهافت عليها الناس تهافتا شديدا ، ويسعون اليها سعيا محموما ، ويريدون شراءها . وانى لأسألكم : هل يمكن أن يوجد كثير من أزهار الكاميليا فى مقاطعة صغيرة حين يريد جميع الناس أن يشتروها لحفلات الرقص ، ولو لم تكن حفلات الرقص هذه كثيرة ؟ وكان بطرس فورخوفسكى فى ذلك الأوان يموت حبا بآنفيسا ألكسيفنا . لست أدرى حتى هذه اللحظة هل كان بينهما شىء ، أقصد هل كان يمكن أن يساوره أمل جدى ؟ وانما المهم أن المسكين أخذ يسعى هنا وهناك كالمجنون بغية الحصول على أزهار كاميليا لحفلة الرقص التى ستقام بمناسبة عيد ميلاد آنفيسا ألكسيفنا . وكان قد

---

[1] دوما الابن . (بالفرنسية) .

[2] «غادة الكاميليا» . (بالفرنسية فى الاصل) .

عُرف أن الكونتيسة سوتسكايا (من بطرسبرج) وهى صديقة زوجة الحاكم ، وصوفيا بسبالوفا ، ستجيئان ومعهما حتما باقات من أزهار الكاميليا البيضاء . فكانت آنفيسا ألكسيفنا ترغب فى أزهار كاميليا حمراء لتبلغ تأثيرا خاصا . فكان بلاطون التعيس فى أشد الضيق وأكبر الحرج . انكم تعلمون ما واجبات الزوج : لقد تورط فوعد بباقة من أزهار الكاميليا الحمراء . ولكن ما العمل ؟ ان كاتيرينا ألكسندروفنا ميتيشيفا ، التى هى أرهب منافسة لآنفيسا ألكسيفنا فى كل شىء ، والتى يمكن أن توصف العداوة بينهما بأنها عداوة تبلغ درجة الطعان ، كانت قد نشلت من المنطقة كلّ ما فيها من أزهار الكاميليا يوم الأمس . فماذا كانت النتيجة ؟ طبعا ، نوبات بكاء واغماء . لقد هلك بلاطون . ان من الواضح أن بطرس اذا استطاع فى هذه اللحظة الحاسمة أن يحصل على الباقة المطلوبة ، فستحقق أموره تقدما كبيرا . ان امتنان المرأة لا حدود له فى مثل هذه الحالات . أخذ بطرس يسعى هنا وهناك كمن مسّه جن ، ولكن الأمر كان مستحيلا ، حتى انه لا مجال للتفكير فيه . وهأنا ذا ألقى بطرس فى الساعة الحادية عشر مساء ، عشية عيد ميلاد آنفيسا وحفلة الرقص عند ماريا بيتروفنا زوبكوفا ، جارة من جيران أسرة أودنتسيف .

سألته : «— ماذا حدث ؟» — «وجدتها ، **أوريكا**[*] » — «انك لتدهشنى حقا ! كيف وجدت ؟ وأين ؟» — «بمدينة ايكشايسك (مدينة صغيرة بالمقاطعة المجاورة تقع على مسافة لا تكاد تبلغ عشرين فرسخا) . يوجد هناك تاجر طويل اللحية واسع الثراء ، اسمه تريبالوف . يعيش مع امرأته

العجوز وحيدين ويتخذان عصافير الكنارى بمثابة أولاد ، ويهويان الأزهار هوى عظيما ، وعندهما أزهار كاميليا» . — «ولكن هذا أمر غير مضمون . ماذا لو منعها عنك ؟» — «سأركع عندئذ أمامه ، وأظل قابعا على قدميه الى أن يوافق ، ثم لا أنصرف قبل أن يعطينى الأزهار !» — «متى تسافر اليه ؟» — «غدا فى الفجر ، الساعة الخامسة» . — «طيب . أسأل الله أن يمدك بعون من عنده !» شعرت حقا بسعادة كبيرة له . وعدت الى دار أسرة أوردنتسيف . وفيما كنت أهم أن أمضى الى السرير لأنام ، خطرت ببالى على حين فجأة فكرة من أطرف الفكر ! ذهبت فورا الى المطبخ ، فأيقظت سافيلى ، الحوذى ، ووعدته بخمسة عشر روبلا اذا هو قرن الخيل بالعربة فى خلال نصف ساعة . فما انقضى نصف ساعة حتى كانت العربة تنتظرنى عند الباب طبعا . وقد أُبلغت فى أثناء ذلك أن آنفيسا ألكسيفنا قد انتابها صداع ، وألمت بها حمى ، وأنها تهذى . ركبت العربة ، وانطلقنا . وتوقفت بعد الساعة الرابعة بقليل أمام نزل ايكشايسك أنتظر طلوع الفجر ، فما ان طلع الفجر حتى استأنفت المسير ؛ وفى الساعة السابعة كنت عند تريبالوف أحدثه فى أمرى . «هل عندك أزهار كاميليا ؟ كن أبا رحيما ، ساعدنى ، أنقذنى ، فانحنى لك حتى الأرض محييا شاكرا !» ورأيت الشيخ طويل القامة ، مبيض الشعر ، قاسى الهيئة ، رهيبا . «لـ . . . لا . . . لا ! مستحيل ! اننى أرفض !» وهأناذا أسقط على قدميه ، وأنبطح . . . نعم أنبطح انبطاحا تاما ! فخاف الرجل ، وقال يناديني : «ما هذا الذى تفعله يا بنى ؟ ما هذا الذى تفعله ؟ رباه !» فصحت أقول له :

«ان حياة انسان هى المعرَّضة للخطر !» — «طيب . . طيب . . . خذ أزهار الكاميليا . . . وكان الله معك» . فأخذت أجنى أزهار كاميليا حمراء ! كانت أزهارا رائعة ، فتانة ! جنيت كل ما ضمته منها دفيئته الصغيرة . وتنهد الشيخ . فأخرجت من جيبى ورقة نقد بمائة روبل . «لا يا بنى ، لا تلحق بى هذه الاهانة» . فقلت له : «طيب ، اذا كان الأمر كذلك ، فتفضل بدفع هذه المائة روبل لمستشفى المدينة ترفيها عن المرضى . قال : «هذا شىء آخر يا عزيزى ! هذا عمل طيب نبيل ، عمل يرضى الله . سأقدم هذه الهبة نيابة عنك» . أعجبنى ذلك الشيخ الروسى ، الروسى الأصيل حقا ، كما يقال ، [1] de la vraie souche وعدت أدراجى مفتونا بالنجاح ، ولكننى سلكت طرقا ملتوية ، حتى لا ألتقى ببطرس . فما ان وصلت حتى أرسلت الباقة الى آنفيسا ألكسيفنا لتفاجأ بها متى استيقظت من نومها . وفى وسعكم أن تتصوروا ابتهاجها ، وامتنانها ، والدموع التى ذرفتها اعترافا بالجميل ! وهذا هو بلاطون الذى كان أمس مدمَّرا ميتا ، ها هو ذا يرتمى على صدرى ناشجا . وا أسفاه ! ذلك هو شأن جميع الأزواج دائما منذ ابتدع . . . الزواج الشرعى ! لا أجرؤ أن أضيف شيئا الى ما قلت ، عدا أن جميع آمال ذلك المسكين بطرس انهارت منذئذ انهيارا تاما . ولقد قدَّرت فى أول الأمر أنه سيذبحنى اذا عرف الدور الذى قمت به فى هذه القضية ، حتى لقد تأهبت للأمر ، ولكن حدث ما لم يكن فى وسعى حتى

---

[1] طبيعى الاصل . (بالفرنسية فى الاصل) .

أن اصدق بحدوثه : لقد أغمى عليه ، وفى المساء أخذ يهذى ، وفى الغد كانت قد انتابته الحمى ، فهو يجهش باكيا مع تشنجات شديدة كطفل . حتى اذا أبلَّ من مرضه بعد شهر ، طلب نقله الى القوقاز* . قصة كأنها رواية من الخيال ! وانتهى به المطاف الى ان قُتل فى القرم* ؛ وكان أخوه ستيبان فورخوفسكى قد اشتهر فى ذلك الآوان قائدا متفوقا لاحدى أفواج الجيش . لا أنكر أننى ظللت خلال سنين طويلة أعانى من عذاب الضمير : لماذا طعنته تلك الطعنة ؟ ولقد كان يمكن أن يهون الأمر فى نفسى لو أننى كنت هائما مثله بحب آنفيسا ألكسيفنا . ولكن الأمر ليس كذلك ، وانما كان «شطارة» منى أو «شيطنة» لا أكثر . ومن يدرى ؟ فلو لا أننى سلبت الفتى باقة الزهر تلك ، لجاز أن يكون الى الآن حيا ، سعيدا ، بل وموفقا ، ولما خطر بباله أن يمضى الى مقاتلة الأتراك .

أنهى آفاناسى ايفانوفتش سرد قصته وقورا رصينا كما بدأها . ولاحظ الحضور أن عينى ناستاسيا فيليبوفنا قد قدحتا شررا ، وأن شفتيها قد اختلجتا حين ختم آفاناسى ايفانوفتش كلامه . فأصبحتا محطَّ الأنظار المستطلعة .

هتف فردشينكو يقول بصوت دامع ، اذ أدرك أنه أصبح يحسن بل يجب أن يقول كلمته :

— ضحكوا على فردشينكو ! خدعوه ! غشوه ! ذلكم هو ما يسمى خداعا وغشا !

— ونحن ما ذنبنا فى انك لا تفهم اللعبة فهما أصحَّ ؟ عليك أن تتعلم من أناس أذكياء ! — قالت داريا ألكسيفنا بصوت حاد ظافر (وهى منذ مدة طويلة

الصديقة الوفية والشريكة الدائمة لتوتسكى) .

قالت ناستاسيا فيليبوفنا باهمال وفتور :

— أنت على حق يا آفاناسى ايفانوفتش . ان هذه اللعبة مضجرة ، وقد آن لنا أن ننتهى منها . سأقص عليكم الآن ما وعدتكم به ، ثم ننتقل جميعا الى اللعب بالورق .

قال الجنرال مؤيدا بحرارة :

— ولكن يجب أن نسمع القصة التى وعدتنا بها قبل كل شىء !

قالت ناستاسيا فيليبوفنا فجأة بصوت قاطع تخاطب الأمير :

— يا أمير ، ان صديقىَّ القديمين ، الجنرال وآفاناسى ايفانوفتش ، يصران كثيرا على أن أتزوج . فقل لى رأيك : أيجب أن أتزوج أم لا ؟ سوف أقرر لنفسى ما تقرره أنت لى .

صار وجه آفاناسى ايفانوفتش شاحبا ، وجمد الجنرال ، والتفتت جميع الرؤوس نحو الأمير ، وحدَّقت اليه جميع الأعين . وتجمَّد جانيا فى مكانه .

سألها الأمير بصوت ينطفئ :

— تتزوجين . . . من ؟

فأجابته ناستاسيا فيليبوفنا بذلك الصوت نفسه ، الثابت القاطع الواضح :

— جافريلا آرداليونتش ايفولجين .

ساد الصمت بضع لحظات . كان الأمير كمن يجهد أن ينطق بكلمة دون أن يستطيع ذلك ، وكأن حملا ثقيلا

كان يجثم على صدره . ثم همس يقول أخيرا وقد استردّ أنفاسه بكثير من المشقة :

— لـ . . . لا . . . لا تتزوجيه !

فقالت ناستاسيا فيليبوفنا تخاطب جافريلا آردالیونتش بصوت فيه سلطة واضحة وفيه شيء من أبهة :

— ذلك ما سيكون . هل سمعت قرار الأمير ؟ انه يتضمن جوابى أنا أيضا . فلنفرغ من هذه القضية دفعة واحدة الى الأبد !

تمتم آفاناسى ايفانوفتش يقول بصوت مرتجف :

— ناستاسيا فيليبوفنا !

وأضاف الجنرال بصوت مؤثر لكنه قلق :

— ناستاسيا فيليبوفنا !

وسرت فى الحضور همهمة ، وظهرت بينهم حركات انفعال .

فقالت ناستاسيا فيليبوفنا وهى تتفرس فى وجوه ضيوفها مدهوشة :

— ماذا أيها السادة ؟ علام هذا الانفعال ؟ وفيم استطالت وجوهكم هذه الاستطالة ؟

همهم توتسكى متلعثما متعثرا فى الكلام :

— ولكن . . . تذكرى يا ناستاسيا فيليبوفنا أنك وعدت . . . من تلقاء نفسك . . . وكان فى وسعك . . الى حد ما . . أن تدارى وتراعى . . . لا أكاد أستطيع أن . . ربما كنت مضطربا . . . لكن . . . على كل حال . . . الخلاصة : الآن . . . فى لحظة كهذه اللحظة ، وأمام هذا الحفل كله من الناس ، وبهذه الطريقة . . . نختم بهذه «اللعبة الصغيرة»

قضية هى على هذا الجانب العظيم كله من خطورة الشأن ، قضية هى قضية شرف وقلب . . . يتوقف عليها . . .

— حقا لا أفهمك يا آفاناسى ايفانوفتش . انك تتخبط فى كلامك ! أولا : ما معنى قولك هذا : «أمام هذا الحفل كله من الناس» ؟ ألسنا هنا أصحابا حميمين ؟ وما اعتراضك على هذه «اللعبة الصغيرة» ؟ لقد نويت حقا أن أروى حكاية . وهأنا ذا فعلت . أليست حكايتى جميلة ؟ ما الذى يجرّدها فى نظرك من الجد ؟ أليس هذا كله جديا ؟ ألم تسمعنى أقول للأمير : «سأقرر لنفسى ما تقرره أنت لى» ؟ فلو قد قال نعم لوافقت فورا ، أما وأنه قال لا ، فقد رفضت . فكيف تستطيع أن تصف ذلك بأنه خال من الجد ، بينما كان مصيرى كله مرهونا بكلمة واحدة . هل يمكن أن يكون هناك جد أكبر من هذا الجد ؟

دمدم الجنرال يقول وهو لا يستطيع أن يكظم غيظه من هذه السلطة المهينة التى مُنحت للأمير :

— ولكن لماذا الأمير ؟ ما شأنه فى هذا كله ؟ وأخيرا ، من هو ؟

— أنا انما استشرت الأمير ، لأنه أول شخص فى حياتى كلها آمنت بأنه مخلص لى اخلاصا تاما . لقد آمن هو بى منذ أول نظرة ، وأنا أومن به أيضا .

وأخيرا نطق جانيا فقال بصوت مرتجف وقد شحب لونه وانعقف فمه :

— لم يبق لى الا أن أشكر لناستاسيا فيليبوفنا ما عمدت اليه من رهافة قصوى . . . فى حقى . طبعا كان لا بد أن تجرى الأمور هذا المجرى . ولكن . . . الأمير . . .

فى هذه القضية . . . انما . . .

— . . . يسعى الى الحصول على الخمسة وسبعين ألف روبل ، أليس كذلك ؟

بهذا قطعت ناستاسيا فيليبوفنا كلام جانيا فجأة . وتابعت تقول :

— أ هذا ما كنت تريد أن تقوله ؟ لا تدافع عن نفسك ! هذا ما كنت تريد أن تقوله حتما ! يا آفاناسى ايفانوفتش ، لقد نسيت أن أضيف ما يلى : استردَّ الخمسة وسبعين ألف روبل ، واعلم أننى أُعتقك مجانا ! يكفى هذا ! أنت أيضا محتاج الى أن تتنفس ! تسع سنين وثلاثة أشهر ! غدا تبدأ الحياة الجديدة ! أما اليوم فنحتفل بعيد ميلادى ، وهذه أول مرة أستقل فيها بنفسى ! يا جنرال ، استردَّ أنت أيضا لآلئك ، واهدها الى زوجتك ! اليك اللآلئ خذها . وسوف أترك هذه الشقة منذ غد ، فلا سهرات بعد اليوم أيها السادة !

قالت هذا الكلام ونهضت كأنما لتخرج .

فارتفعت أصوات من كل صوب تناديها : — ناستاسيا فيليبوفنا ! ناستاسيا فيليبوفنا ! — واضطرب الجميع ، وبارحوا أماكنهم ، وأحاطوا بها ، وأخذوا يصغون فى قلق شديد الى أقوالها المتقطعة المحمومة الهاذية . كانوا يشعرون جميعا بأن فى هذا نوعا من اختلال ، دون أن يفهموه ، أو أن يستطيعوا تعليله لأنفسهم . وفى تلك اللحظة دقَّ جرس الباب على حين فجأة دقة قوية تشبه الرنة التى دوت فى بيت جانيا بعد الظهر من ذلك اليوم .

فهتفت ناستاسيا فيليبوفنا تقول :

— ها . . . جاءت الخاتمة ! أخيرا ! الساعة هى الحادية عشرة والنصف ! أرجوكم أن تجلسوا أيها السادة . لقد حان موعد الخاتمة !

قالت ذلك وعادت تجلس . وكانت تنبض على شفتيها ضحكة غريبة . وصمتت تنتظر انتظارا محموما وهى تنظر الى الباب .

دمدم بتيتسين يقول لنفسه :

— لا شك فى أنه روغوجين قد جاء بالمائة ألف روبل !

الفصل الخامس عشر

دخلت الخادمة كاتيا* مرتاعة أشد الارتياع ، وقالت :

— حدث ما لا يعلمه الا الله يا ناستاسيا فيليبوفنا ! هناك نحو عشرة أشخاص اجتاحوا حجرة المدخل سُكارى يطلبون الدخول . وقد سألونى ان أبلغ عن وصول روغوجين ، وزعموا أنك على علم بالأمر .

— صحيح يا كاتيا ، ادخليهم جميعهم فورا !

— حقا ؟ ادخلهم جميعا . . . يا ناستاسيا فيليبوفنا ؟ ان حالتهم فظيعة ، انهم مخيفون !

— جميعا ، أدخليهم جميعا يا كاتيا ، لا تخشى شيئا ، أدخليهم حتى آخرهم ، والا دخلوا دون ان تأذنى لهم بالدخول . أحدثوا الضجة ثانية .

ثم قالت ناستاسيا فيليبوفنا ملتفتة الى ضيوفها :

— أيها السادة ، ربما أزعجكم أن أستقبل عصبة كهذه العصبة بحضوركم ؟ انا آسفة . سامحونى . ولكن لا بد من ذلك . اننى أرغب كثيرا فى أن توافقوا على أن تكونوا شهودى فى هذه الخاتمة ، ولكن لكم ما تشاءون طبعا . . .

استمر الحضور فى دهشتهم يتهامسون ويتبادلون النظرات . لقد أصبح واضحا كل الوضوح أن ذلك كله كان محسوبا مرتبا سلفا ، وأنه بات من المستحيل اكراه ناستاسيا فيليبوفنا على ترك فكرتها ، رغم أنها قد جُنّت طبعا . وكان حب الاطلاع قد استبد بهم جميعا ، ولم يكن هناك من يمكن

أن يرتاع ارتياعا شديدا على كل حال . لم يكن بين الحضور الا سيدتان اثنتان : داريا ألكسيفنا ، وهى امرأة جريئة سبق أن رأت فى حياتها أمورا كثيرة ، وليس ارباكها بالامر السهل . أما السيدة الثانية فهى تلك المرأة المجهولة الصموت التى كانت على جانب عظيم من الجمال . لكن المجهولة البكماء كانت فى اغلب الظن عاجزة عن ان تفهم أى شىء . انها ألمانية كانت مارةً ببطرسبرج ، وهى تجهل الروسية ، وعدا ذلك كان يبدو ان حماقتها تعادل جمالها . كان ظهورها من باب الجدة ، فقد جرت العادة ان تُدعى الى بعض الحفلات . انها ترتدى ثيابا جميلة فاخرة ، وتصفّف شعرها كأنها متأهبة لدخول مسابقة ، فالناس يدعونها الى الحفلات صورة فتانة تزين السهرة ، تماما كما يُزيّن البيت بلوحة أو آنية خزف او تمثال أو برافان ثمين تُستعار من الاصدقاء فى المناسبات . وأما عن الرجال فان بتيتسين ، مثلا ، صديق للفتى روغوجين . وفردشينكو يشعر بأنه اشبه بسمكة فى الماء . وجانيا الذى لم يستطع بعدُ أن يثوب الى رشده ، كان يشعر شعورا لا يقاوَم ، رغم انه شعور مبهم ، بحاجة الى أن يبقى حتى النهاية مسمَّرا فى عمود عاره . ومعلم المدرسة العجوز الذى لم يفهم شيئا كثيرا مما كان يحدث ، قد أوشك أن يجهش باكيا ، وكان يرتجف من الخوف ، لشعوره بجو القلق حول ناستاسيا فيليبوفنا التى يحبها كما يحب حفيدته ؛ ولكنه يؤثر أن يموت على أن يتركها فى لحظة كهذه اللحظة . وفيما يتعلق بآفاناسى ايفانوفتش ، فانه كان لا يستطيع طبعا أن يعرّض نفسه لاحداث من هذا النوع تسىء اليه والى سمعته ، ولكنه

كان مهتما بهذه القضية اهتماما شخصيا قويا ، رغم المجرى الجنونى الذى أخذت تجرى فيه . وفوق ذلك فقد بدرت عن ناستاسيا فيليبوفنا كلمتان او ثلاث بحقه بحيث كان من المستحيل عليه ان ينصرف دون توضيح الامر نهائيا . لذلك قرر أن يبقى حتى النهاية ، صامتا مع ذلك ، مكتفيا بالمشاهدة كما يقتضى وقاره ، والجنرال ايبانتشين الذى سبق أن أهين قبل لحظات بتلك الطريقة السخيفة والمضحكة فى ردّ هديته اليه ، كان هو الشخص الوحيد الذى يحق له أن يزداد غضبه ، لما يراه من هذه الانواع الجديدة من الشذوذ او ظهور روغوجين مثلا . ان من كان فى مثل رتبته ، حسبه تساهلا وتنازلا أن يرضى المشاركة فى سهرة تضم أشخاصا مثل بتيتسين او فردشينكو . ولكن ما فعله الهوى يمكن ان يطغى عليه اخيرا الشعور بالواجب واعتبار الرتبة والمركز ، واحترام الذات عموما ؛ ولذلك اصبح وجود روغوجين وعصبته امرا لا يطاق فى حضور سعادته على كل حال . فالتفت نحو ناستاسيا فيليبوفنا يريد أن يعبر لها من ذلك ، ولكن ما ان فتح فمه وهمّ بالكلام حتى قاطعته تقول :

— آ . . . جنرال . . . لقد نسيتك . ولكن ثق اننى قد تنبأت باعتراضك . فاذا كنت متضايقا تضايقا شديدا ، فاننى لا ألح عليك ولا احتجزك ، رغم أنك أنت من أرغب أقوى رغبة فى أن يكون بقربى هذه اللحظة . مهما يكن من أمر ، فانا أشكر لك المتعة التى هيأتها لى معرفتى بك ، وأشكر لك التفاتاتك الكريمة التى أعتز بها ، ولكن اذا كنت تخشى أن . . .

فهتف الجنرال يقول وقد استولت عليه نوبة من روح الفروسية السمحة :

— عفوك يا ناستاسيا فيليبوفنا ! لمن تقولين هذا الكلام ؟ لأبقينّ بقربك ولو لمجرد الاخلاص لك ، فاذا وجد خطر من الأخطار مثلا . . . ثم اننى فى تطلع شديد ، اعترف لك بذلك . أريد أن أقول فقط انهم قد يفسدون السجاد ، او يكسرون شيئا ما . . . فالحق أظن أنه ما ينبغى أن يُسمح لهم بالدخول أبدا يا ناستاسيا فيليبوفنا !

قال فردشينكو معلنا :

— هذا روغوجين بشخصه !

وهمس الجنرال يسأل آفاناسى ايفانوفتش مسرعا :

— ما رأيك ؟ ألا تظن أنها جُنّت ؟ لا أقصد بالجنون معناه المجازى بل معناه الطبى ، الحقيقى . . .

فأجابه توتسكى قائلا بشىء من المكر :

— قلت لك منذ زمان طويل ان بها استعدادا للجنون . . .

— تضاف الى ذلك الآن حالة الحمى هذه . . .

كانت عصبة روغوجين تتألف تقريبا من اولئك الافراد انفسهم الذين كانوا بعد الظهر من ذلك اليوم ؛ وانما أضيف اليها الآن شيخ ضئيل فاسق كان فى زمانه محررا لصحيفة حقيرة من الصحف التى تقوم بالتشهير السخيف ، ويُروى عنه أنه رهن أسنانه الذهبية ليشرب بثمنها خمرا ؛ وقد أضيف الى العصبة أيضا ملازم ثان محال على التقاعد ، يشبه ذلك الذى رأيناه بعد الظهر متميزا بقبضتى يديه القويتين ؛ وهو فى الحق ند له ومنافس ، بالمهنة والوظيفة معا ! ان

جميع افراد عصبة روغوجين كانوا لا يعرفونه ، ولكنهم التقطوه فى الطريق على رصيف شارع نفسكى ، الذى تغمره اشعة الشمس ، حيث كان يستوقف المارة ليطلب منهم مساعدة ، بأسلوب يشبه اسلوب مارلنسكى* ، زاعما لهم أنه كان هو نفسه «فى الماضى يهب لكل سائل من السائلين خمسة عشر روبلا» . ولم يلبث الندّان المتنافسان أن شعرا بعدواة متبادلة ، فالسيد ذو القبضتين يرى أنه قد أهين اهانة مباشرة حين ضُمَّ هذا «السائل» الى الجماعة ، ولكنه بحكم طبعه الصموت كان لا يزيد على أن يصدر زمجرات كزمجرات دب ، ويقابل بأشد الاحتقار محاولات التودد الكثيرة ، والانحناءات اللطيفة التى كان يقوم بها «السائل» اظهارا لادبه ورقته . كان واضحا أن الملازم الثانى هو من اولئك الذين يؤثرون ، من أجل أن يشقوا لأنفسهم طريقا ، حسن التصرف وبراعة التدبير على استعمال القوة والعنف ؛ هذا الى أن قامته أقل ضخامة من قامة السيد ذى القبضتين . وقد أشار عدة مرات ، بطريقة مرهفة ، دون أن يثير نقاشا صريحا ، ولكن بتفاخر كبير ، الى افضلية الملاكمة الانجليزية ، مفصحا بذلك عن أنه رجل غربى المذهب الصرف . فكان السيد ذو القبضتين ، حين يسمع كلمة الملاكمة ، لا يزيد على ان يبتسم ابتسامة تهكم واستياء ، ولا يتنازل بمجادلة منافسه ، ويقتصر بين الفينة والفينة ، فى صمت وبما يشبه المصادفة ، على أن يُظهر أو الافضل ان نقول يمدّ الى أمام ذلك الشىء الروسى الوطنى جدا : قبضة ضخمة نامية العضلات كثيرة العقد مغطاة بشعر أحمر . فكان يتضح للجميع حينذاك أن هذا الشىء الوطنى جدا

اذا هو هوى على هدفه باحكام ، استطاع ان يهشّمه تهشيما .

وكما لوحظ بعد الظهر من ذلك اليوم ، لم يكن أحد من عصبة روغوجين سكران سكرا شديدا ، وذلك بفضل جهود روغوجين الذى ظل طوال النهار لا تغيب عن فكره زيارة ناستاسيا فيليبوفنا فى بيتها . وقد اتسع وقته هو نفسه لأن يصحو من السكر صحوا شبه كامل . ولكنه فى مقابل ذلك ، بعد جميع تلك الانطباعات التى عاناها فى ذلك اليوم الفظيع ، الذى لا يشبه فى شىء أى يوم من أيام حياته كلها ، كان مرهقا مخبولا . ان **شيئا واحدا** قد ظل ماثلا فى ذهنه وفى ذاكرته وفى قلبه خلال كل دقيقة ، كل لحظة بغير انقطاع . ومن أجل ذلك كان قد قضى وقته كله ، منذ الساعة الخامسة بعد الظهر حتى الساعة الحادية عشرة من المساء ، وهو فى حالة قلق لا حدود له ، قضى وقته كله ساعيا مع أمثال كندر وامثال بيسكوب اللذين شارفا على الجنون هما ايضا من كثرة ما تحركا فى سبيل قضاء حاجته وتدبير أمره . المهم على كل حال أن المائة ألف روبل ، عداً ونقداً ، التى ألمعت اليها ناستاسيا فيليبوفنا الماعا ساخرا ، وغامضا كل الغموض ، قد أمكن جمعها قروضا بفوائد باهظة تبلغ من الفداحة أن بيسكوب نفسه كان يستحى ان يتحدث فيها مع كندر الا همسا .

وكما حدث بعد الظهر من ذلك اليوم ، كان روغوجين يتقدم عصبته ، وكان رجاله يمشون وراءه ، مدركين لتفوقهم ، شاعرين مع ذلك بشىء من الخشية . وكانت ناستاسيا فيليبوفنا هى التى يخشونها خاصة ، لا يدرى الا الله لماذا .

حتى لقد كان بعضهم يتصور انهم «سوف يُرمون رأسا الى اسفل السلّم» . وكان زاليوجيف ، المغوى الانيق ، واحدا من هؤلاء . غير ان آخرين ، ولا سيما صاحب القبضتين ، كانوا فى قرارة انفسهم يحتقرون ناستاسيا فيليبوفنا احتقارا مطلقا ، بل وكانوا يكرهونها كرها شديدا ، وكانوا يشعرون أنهم انما ذهبوا الى بيتها ذهابهم الى مدينة محاصرة . ومع ذلك فان الترف العظيم الذى رأوه فى الحجرتين الاوليين ، وجميع هذه الأشياء التى لم يتح لهم حتى ان يحلموا بمثلها ، والأثاث النادر واللوحات الجميلة وتمثال فينوس الكبير ، كل هذا قد أحدث فى نفوسهم تأثيرا لا يقهر ، بل وأحدث فى نفوسهم ما يشبه الخوف . على أن هذا لم يمنعهم طبعا من أن يتسللوا الى الصالون وراء روغوجين قليلا قليلا ، بفضول وقح ، رغم ما شعروا به من خوف . ولكن حين رأى صاحب القبضتين و«السائل» وبضعة اشخاص آخرين ، حين رأوا الجنرال ايبانتشين بين المدعوين ، خارت قواهم حتى همّوا ان ينسحبوا الى الغرفة المجاورة ، الا واحدا منهم هو ليبيديف الذى لم يتزعزع ، حتى لقد كان يمشى مع روغوجين جنبا الى جنب تقريبا ، مدركا فى الواقع قيمة مليون واربعمائة ألف روبل ارثا ومائة ألف روبل عدا ونقداً بين يدى روغوجين . يحسن أن نلاحظ مع ذلك أن الجميع ، ومنهم ليبيديف العارف بالقانون ، كانوا لا يدركون حدود سلطتهم على وجه الدقة ، ولا يعلمون هل كل شىء مباح لهم الآن حقا ام لا ؟ ففى بعض اللحظات كان ليبيديف مستعدا لأن يحلف أن كل شىء مباح ، وفى لحظات اخرى كان ينتابه قلق ويشعر بالحاجة الى ان يتذكر بعض مواد القانون —

استعدادا للطوارئ — ولا سيما المواد التى تشجع وتطمئن .

اما الأثر الذى أحدثه صالون ناستاسيا فيليبوفنا فى نفس روغوجين فكان مختلفا عن الاثر الذى أحدثه فى نفوس أصحابه . فانه ما ان أزيحت ستارة الباب ، فأبصر ناستاسيا فيليبوفنا ، حتى أصبح كل ما عداها لا وجود له فى عالمه ، كما حدث له هذا بعد الظهر ، غير أنه حدث الآن على نحو أتم وأكمل . شحب وجهه وتوقف لحظة من الوقت . ان المرء يستطيع ان يتصور شدة خفقان قلبه . حدّق الى ناستاسيا فيليبوفنا بضع ثوان ، وجلَ الهيئة زائغ العقل ، لا يحوّل عنها بصره . ثم اقترب من المائدة فجأة كمن فقد عقله وهو يكاد يترنح ، فاصطدم اثناء خطوه بكرسيٍ بتيتسين وداس بحذاءيه الوسخين شريط الدانتيلا الذى يزين حافة الثوب الازرق المترف الباذخ الذى ترتديه الألمانية الصموت الرائعة الجمال . فلم يعتذر عن ذلك ، بل ولم يلاحظه . فلما دنا من المائدة وضع عليها شيئا غريبا كان قد دخل به ممسكا اياه بيديه كلتيهما . هو حزمة سميكة من ورق ، يبلغ علوّها اثنى عشر سنتيمترا و طولها نحو ستة عشر ؛ قد لُفّت بعدد من اعداد جريدة «انباء البورصة» ، وأحكم ربطها من جميع الجوانب بخيط مثل الخيط الذى تلف به اقماع السكر . ثم وقف ، ولبث على هذه الحال متهدل الذراعين لا ينطق بكلمة واحدة ، كالمتهم الذى ينتظر صدور حكم المحكمة . لم تتغير ثيابه التى كان يرتديها بعد الظهر ، فيما عدا منديل من حرير أخضر وأحمر معقود حول عنقه بدبوس ضخم من الماس على شكل خنفسة ، وخاتم كبير له فص ضخم من ماس تزدان به اصبع متسخة فى يده

اليمنى . وكان ليبيديف قد توقف على مسافة بضع خطوات من المائدة . أما الآخرون فكانوا ، كما سبق أن ذكرنا ذلك ، يتسللون الى الصالون قليلا قليلا . وقد هـرعت كاتيا وباشا ، خادمتا ناستاسيا فيليبوفنا ، هرعتا هما ايضا ، واخذتا تلقيان من وراء الستارة نظرات مبهـوتـة مذعورة .

قالت ناستاسيا فيليبوفنا تسأل روغوجين بعد أن تفرست فيه محدقة مستطلعة ، وهى تومئ بعينها الى «الشىء» :

— ما هذا ؟

فأجاب روغوجين يقول بما يشبه أن يكون زفرة :

— مائة الف !

— وفى بوعده مع ذلك ! هل رأيتم ؟ اجلس من فضلك ، هنا ، على هذا الكرسى . سأقول لك شيئا بعد قليل . من هؤلاء الذين جئت بهم ؟ كل الجماعة السابقة ؟ طيب ، فليدخلوا . يستطيعون ان يجلسوا على ذلك الديوان هناك ، وعلى هذا الديوان الآخر ، وعلى هذين المقعدين . . . ما بالهم لا يدخلون ؟ ألا يريدون ان يدخلوا ؟

كان بعضهم قد شعروا بالوجل فعلا ، فانسحبوا الى الغرفة المجاورة واستقروا بها ينتظرون الأحداث ، ولكن بعضا آخر بقوا فجلسوا حيث دُعوا الى الجلوس ، مؤثرين مع ذلك ان يظلوا بعيدين عن المائدة ، ولا سيما فى الاركان ، فمنهم من لا يزال يرغب فى الامحاء فعلا ، ومنهم من كان يسترد جرأته بسرعة تفوق الحد الطبيعى . وجلس روغوجين على الكرسى الذى عينته له هو ايضا ، لكنه لم يبق جالسا مدة طويلة ، فما لبث أن عاد ينهض ولم يجلس بعد

ذلك . وشيئا فشيئا أخذ يميز الضيوف ويتصفح وجوههم . فلما رأى جانيا ابتسم ابتسامة مسمومة ودمدم يقول بينه وبين نفسه «هه !» . ولاحظ وجود الجنرال ووجود آفاناسى ايفانوفتش فلم يضطرب اى اضطراب ، بل ولم يبد اى اهتمام . ولكنه حين ابصر الأمير الى جانب ناستاسيا فيليبوفنا لبث مدة طويلة لا يستطيع أن يحول عنه نظرته المدهوشة ، وكأنه عاجز عن أن يعلل لنفسه هذا اللقاء . ان من يراه يحس فى بعض اللحظات أنه يعانى نوبة هذيان حقا . فهو ، عدا الانفعالات التى كابدها طوال هذا اليوم ، كان قد قضى الليلة الماضية كلها فى القطار ، ولم يكن قد نام خلال ثمان واربعين ساعة تقريبا .

قالت ناستاسيا فيليبوفنا وهى تلتفت نحو الحضور وقد ظهر فى وجهها تحد زاخر بتململ محموم :

— يا سادة ، هذه مائة ألف روبل ! هنا ، فى هذه الحزمة القذرة . ان هذا الرجل الذى ترون قد صرخ يقول كالمجنون بعد الظهر من هذا اليوم أنه سيجيئنى فى المساء بمائة ألف روبل ، وقد انتظرته . انه قام بمساومة ليشترينى . بدأ بثمانية عشر ألف ، ثم ارتفع بوثبة واحدة الى أربعين ألفا ، ثم ارتفع أخيرا الى المائة ألف التى ترون . لقد وفى بوعده على كل حال ! هيه . . . ما أشد شحوبه ! . . حدث هذا كله فى بيت جانتشكا . ذهبت الى الأسرة التى كانت ستصير أسرتى ، أزور أمّه ، فاذا بأخته تصرخ فى وجهى قائلة : «هل يمكن ألا يكون هناك احد يُخرج هذه الوقحة ؟» ورمت وجه اخيها ببصقة فى الوقت نفسه . قوية الشكيمة !

قال الجنرال بلهجة العتب ، وقد أخذ يفهم القضية قليلا على طريقته :

— ناستاسيا فيليبوفنا !

— ماذا يا جنرال ؟ أتراك تعدّ كلامى هذا غير لائق ؟ كفانى تمثيلا ! لقد ظللت سنين ، فى شرفتى من «المسرح الفرنسى» ، أعرض نفسى مثالا للفضيلة التى لا سبيل الى الاقتراب منها ، وظللت افرُّ كالمتوحشة من جميع اولئك الذين كانوا يلاحقوننى ، وظللت اصطنع هيئة البراءة المتعالية ، فما كان ذلك كله الا سخافة وجنونا ! انظر ، لقد جاء رغم ذلك ، رغم تلك السنين الخمس التى قضيتها متمسكة بأهداب الفضيلة ، جاء يضع المائة ألف روبل على المائدة ؛ ولا شك فى أنهم أعدوا عربات الترويكا تنتظرنى . لقد قدَّر لى سعرا هو مائة ألف روبل ! يا جانيتشكا ، أرى أنك ما تزال غاضبا منى . ولكن هل صحيح أنك أردت ان تدخلنى فى أسرتك ، أنا التى أصلح لامثال روغوجين ! ألم تسمع ما قاله الأمير منذ قليل ؟

تمتم الأمير بصوت مختلج :

— أنا لم أقل أنك تصلحين لروغوجين ؛ أنت لم تُخلقى لمثل روغوجين .

انفجرت داريا الكسيفنا تقول فجأة :

— ناستاسيا فيليبوفنا ! كفى يا عزيزتى ! كفى يا يمامتى ! اذا صحَّ أنك أصبحت لا تطيقينهم ، فما الذى يحملك على مداراتهم ؟ ولكن هل من الممكن أن تقبلى الرحيل مع هذا الرجل ، ولو فى سبيل مائة ألف روبل ؟ صحيح أن مائة ألف روبل ليست شيئا يسيرا ! ولكن ما

عليك الا أن تأخذيها ، هذه المائة ألف روبل ، ثم تتخلصى من الرجل الذى قدمها اليك . ذلك ما يجب فعله مع امثال هؤلاء الناس . لو كنت فى مكانك لعرفت كيف اسيرهم جميعا . . .

كانت داريا الكسيفنا قد بلغت حدَّ الغضب . انها امرأة طيبة القلب ، سريعة التأثر .

قالت لها ناستاسيا فيليبوفنا مبتسمة :

— لا تغضبى يا داريا الكسيفنا ! لقد كلمت جانيا دون غضب . هل وجهتُ اليه اى لوم ؟ صحيح أننى لا أستطيع أن أفهم الآن كيف أمكن أن أبلغ من الغباء حدَّ الطمع فى الدخول الى اسرة شريفة . لقد رأيت أمه ، وقبلت يدها . أما عن سلوكى فى بيتك يا جانيتشكا فقد تعمدته تعمدا ، من أجل أن أدرك ، مرة اخيرة ، المدى الذى يمكن أن تمضى اليه : وأنى لأعترف لك بانك أثرت دهشتى . كنت أتوقع أشياء كثيرة . لكننى لم أتوقع هذا ! كيف أردت ان تتزوجنى وانت تعلم أنه قدَّم الىَّ لآلئ كتلك اللآلئ عشيةَ زواجك تقريبا ، وأننى قبلت أخذها ؟ وروغوجين ؟ انه فى بيتك ، أمام أمك وأختك ، انما ساوم علىَّ . ورغم ذلك جئت تطلبنى للزواج ، حتى لتكاد تصطحب اختك . أصحيح اذن ما قاله عنك روغوجين من أنك مستعد فى سبيل ثلاثة روبلات أن تزحف منبطحا على بطنك حتى جزيرة فاسيليفسكى ؟

قال روغوجين فجأة بصوت خافت ، ولكن بلهجة فيها اقتناع كامل :

— انه سيزحف !

— لو كنت تموت جوعا لعذرتك . ولكن يظهر أنك تقبض رواتب طيبة ! ثم انك ، عدا العار ، لا ترفض أن تتزوج امرأة تكرهها (ذلك انك تكرهنى ، فأنا أعرف ذلك حق المعرفة) . لا ، لا ، اننى مستعدة لأن أصدق الآن انك من أمثال هؤلاء الذين يمكن أن يقتلوا فى سبيل ان يحصلوا على مال ! انهم ظامئون الى المال ظمأ يفقدهم عقولهم ! حتى الاطفال يحلمون بأن يكونوا مرابين ! أو هم يأخذون سكينا فيلفونها بحرير ، ويتسللون بهدوء وراء رفيق لهم ليذبحوه كما يُذبح خروف . قرأت عن هذا حديثا . ما أوقحك ! وأنا أيضا امرأة بغير حياء ، ولكنك أسوأ منى . أما صاحب باقة الأزهار ، فلا أتكلم عنه . . .

هتف الجنرال يقول آسفا أشد الأسف :

— أأنت من أسمع يا ناستاسيا فيليبوفنا ؟ أتقولين مثل هذا الكلام ، انت ذات الشعور الرقيق ، والفكر المرهف ؟ ما هذه اللغة ؟ ما هذه التعابير ؟

أخذت ناستاسيا فيليبوفنا تضحك قائلة :

— أنا الآن سكرى يا جنرال ، أحب أن ألهو وأقصف ! ان هذا اليوم يومى ، هو يوم عيدى ، هو يوم فرحى الذى انتظرته طويلا ! يا داريا الكسيفنا ، انك ترينه ، صاحب الباقات ذلك ، monsieur aux camélias [1] الذى يجلس هناك ويضحك منا . . .

— أنا لا أضحك يا ناستاسيا فيليبوفنا . أنا لا أزيد على أن أصغى بأكبر انتباه .

---

[1] سيد الكاميليا . (بالفرنسية فى الاصل) .

كذلك ردَّ توتسكى على ناستاسيا فيليبوفنا بوقار ورصانة .

— لماذا عذبته طوال خمس سنين دون أن أطلق سراحه ؟ هل كان يستحق منى ذلك كله ؟ انه ما يجب أن يكون . . . وقد يحكم علىَّ بأننى أنا المذنبة فى حقه . لقد ضمن لى تربية عالية ، وعالنى كما تُعال كونتيسة ، وما أكثر ما أنفق فى سبيلى من مال ! حتى لقد عثر لى هناك على رجل شريف ليتزوجنى ، وعثر لى هنا على جانيتشكا . وفوق ذلك كله ، هل تصدقين أننى لم اعاشره خلال تلك السنين الخمس كلها ، وانما كنت آخذ ماله وأظننى صاحبة حق فيه ؟ الى هذا الحد اختلطت فى عقلى الامور ! تقولين لى أن علىَّ أن آخذ المائة ألف روبل وأن أطرد هذا الشاب اذا كنت اشمئز منه . الحق أننى أشمئز . . . لقد كان فى وسعى أن اتزوج ، منذ زمن طويل . . . وكان فى وسعى أن أتزوج رجلا خيرا من جانيا ، ولكن ذلك أيضا كان يثير اشمئزازى . لماذا قضيت اذن هذه السنين الخمس اغذى بغضبى ؟ هل تصدقين أننى بلغت حدَّ التساؤل أحيانا منذ أربع سنين : «لماذا لا أتزوج صاحبى آفاناسى ايفانوفتش ؟» كان ذلك يخطر ببالى من قبيل الحقد . اللّه يعلم ما الذى كان يجول فى فكرى حينذاك ! وكنت أستطيع طبعا أن أجبره على أن يتزوجنى ! هو نفسه كان لا يرجو خيرا من ذلك ، هل تصدقين ؟ صحيح أنه كان يكذب ولكنه كان متلهفا فلا يستطيع أن يصمد . أحمد اللّه على أننى قد أتيح لى أن أفكر فانتهيت الى أنه يستحق منى كل ذلك الكره ! فبلغت عندئذ من شدة الاشمئزاز منه أننى لو طلب أن يتزوجنى لرفضت . واستمر ذلك التمثيل خمس

سنين ! لا ، لا ، من الأفضل أن أنزل الى الشارع ، فهناك مكانى ! أو أن ألهو مع روغوجين ، أو أن اعمل غسّالة منذ الغد ! ذلك أن كل ما أحمله ليس ملكى ، فاذا انصرفت رميت له كل شىء ، حتى آخر خرقة ، ومن ذا الذى يمكن أن يريدنى بعد ذلك ؟ اسألى جانيا هل يريدنى بعد ان أفعل هذا ؟ حتى فردشينكو لن يقبل ! . .

قاطعها فردشينكو قائلا :

— جائز ألا يرغب فيك فردشينكو ! اننى رجل صريح ! ولكن فى مقابل ذلك ، يمكن أن يتزوجك الأمير ! انك الآن تشتكين ، فهلاً نظرت الى الأمير ! اننى أراقبه منذ مدة طويلة . . .

التفتت ناستاسيا فيليبوفنا الى الأمير مستطلعة . وسألته :

— هذا صحيح ؟

فقال الأمير لاهثا :

— صحيح .

— أتتزوجنى كما انا ، بدون شىء ؟

— نعم ، يا ناستاسيا فيليبوفنا . . .

دمدم الجنرال يقول :

— وهذه نكتة جديدة ! . . كان يمكن أن نتوقع ذلك !

وحدّق الأمير بنظرة أليمة نافذة الى وجه ناستاسيا فيليبوفنا التى ما تزال تتفرس فيه .

قالت وهى تلتفت نحو داريا الكسيفنا من جديد :

— هذا شخص آخر يتقدم ! وانه ليفعل ذلك من طيبة قلبه ، أنا أعرفه . لقد وجدت محسنا ، وان يكن صحيحا فى أغلب الظن ما يقال من أنه . . قليلا ! ولكن

بأى مورد تقدّر أن تعيش اذا بلغ بك الحب مبلغ اتخاذى زوجةً لك ، للأمير ، انا التى اصلح لمثل روغوجين ؟ . .

قال الأمير :

— أتزوجك امرأة صالحة شريفة يا ناستاسيا فيليبوفنا ، لا امرأة لمثل روغوجين .

— أنا ؟ أنا امرأة صالحة شريفة ؟

— انت .

— اوه ! هذا كلام روايات ! . . هذه حكايات قديمة يا امير ، يا صديقى . لقد أصبح الناس فى هذه الايام أعظم ذكاء ، وما ذلك كله الا سفاسف ! ثم . . . أى زوج عساك أنت الذى ما تزال فى حاجة الى مربية تُعنى بأمرك ؟

نهض الأمير وقال بصوت مختلج وجل ، ولكن بلهجة تعبر فى الوقت نفسه عن اقتناع عميق :

— أنا لا أعرف شيئا يا ناستاسيا فيليبوفنا ، أنا لم أر شيئا ، انك على حق ، ولكننى . . . أعتقد أنك أنت ، لا انا ، التى تسبغين علىّ شرفا اذا ارتضيتنى زوجا . أنا لست شيئا . أما أنت فقد تألمت ، وخرجت طاهرة من جحيم كهذا الجحيم . وذلك شىء كثير . لماذا تشعرين بالعار وتريدين أن ترحلى مع روغوجين ؟ انها الحمى . . . لقد رددت الى السيد توتسكى السبعين ألف روبل ، وأنت تقولين انك ستتركين له كل شىء ، كل ما هو موجود فى هذا المكان . ما من أحد هنا قادر على أن يفعل ذلك . اننى . . . يا ناستاسيا فيليبوفنا . . . اننى أحبك . أنا مستعد لان أموت فى سبيلك يا ناستاسيا فيليبوفنا . لن أسمح لاحد

أن يقول فيك كلمة سوء يا ناستاسيا فيليبوفنا . . . واذا كنا فقيرين ، فلسوف أعمل يا ناستاسيا فيليبوفنا . . .

هنا سُمع صوت فردشينكو وليبيديف يضحكان ساخرين . وحتى الجنرال تنحنح فى استياء شديد . ولم يستطع بتيتسين وتوتسكى أن يمتنعا عن التبسم ، ولكنهما لم يلبثا أن كبحا ابتسامتهما . أما سائر الحضور فكانوا فاغرى الأفواه من الدهشة .

وتابع الأمير يقول بذلك الصوت الوجل نفسه :

— ولكن من الجائز ألا نكون فقيرين البتة ، بل غنيين جدا يا ناستاسيا فيليبوفنا . على أننى لست متأكدا من شىء . يؤسفنى أننى لم أستطع حتى الآن أن أعرف شيئا طوال هذا اليوم ، ولكننى تلقيت وانا بسويسرا رسالة من موسكو بعث بها الىَّ رجل اسمه السيد سالازكين ، وفيها يبلغنى أن فى امكانى أن أنال ميراثا ضخما جدا . اليك هذه الرسالة . . .

وأخرج الأمير من جيبه رسالة بالفعل .

دمدم الجنرال يقول :

— أليس هذا هذيانا ؟ أترانا فى مستشفى مجانين ؟

وخيم الصمت لحظة .

سأل بتيتسين :

— هل قلت أن الرسالة قد بعثها اليك سالازكين يا أمير ؟ هذا رجل معروف جدا فى بيئته ، هو رجل مشهور من رجال الاعمال ، فاذا صحَّ أنه هو الذى يبلغك بذلك ، فان فى وسعك أن تثق به كل الثقة . من حسن الحظ أننى أعرف توقيعه ، فقد كان لى عمل معه فى الآونة الاخيرة . . . فاذا سمحت لى أن ألقى على الرسالة نظرة

فقد أضىء لك الأمر .

مدَّ الأمير اليه الظرف صامتا ، بيد مرتعشة .

وانتفض الجنرال قائلا وهو يلقى على الحضور نظرة مبهوتة :

— ماذا ؟ ماذا ؟ أميراث حقا ؟

وانصبت جميع الانظار على بتيتسين بينما هو يقرأ الرسالة .

لقد ألهبت الرسالة فضول الحاضرين بنار جديدة . أصبح فردشينكو لا يستطيع الاستقرار فى مكانه . وصعق روغوجين فهو يلقى نظرات حائرة مضطربة اضطرابا شديدا على الأمير تارة وعلى بتيتسين تارة اخرى . وأصبحت داريا الكسيفنا اثناء هذا الانتظار كالجالسة على ابر . وحتى ليبيديف نفد صبره . فترك ركنه ، وحنى جسمه نصفين يحاول أن يقرأ الرسالة من فوق كتف بتيتسين ، وكأنه يتوقع أن يُصفع صفعة قوية من لحظة الى أخرى معاقبةً له على فضوله .

الفصل السادس عشر

أعلن بتيتسين أخيرا وهو يطوى الرسالة ويردها الى الأمير :

— هذه قضية مؤكدة . سوف ترث ، دون القيام بأى مسعى خاص ، ثروة طائلة جدا ، آلت اليك من خالتك فى وصية لا مجال للطعن فيها على الاطلاق .

أطلق الجنرال صيحة تشبه الطلقة :

— غير معقول !

وعاد الآخرون يفغرون أفواههم .

عندئذ اخذ بتيتسين يشرح الأمر ، مخاطبا ايفان فيدوروفتش خاصة ، فقال أن للأمير خالة ماتت منذ خمسة اشهر ، هى الاخت الكبرى لأمه ، ولكن الأمير لا يعرفها معرفة شخصية ؛ وهى من أسرة بابوشين * ، وكان أبوها تاجرا من الطبقة الثالثة بموسكو ، أفلس ثم مات فقيرا معوزا ؛ وكان الأخ الاكبر لهذا الرجل ، وقد مات منذ مدة قصيرة ، يحتل مكانا عاليا فى عالم التجارة . فلما مات ابناه منذ سنة فى غضون شهر واحد ، مرض من شدة الحزن مرضا شديدا ومات . وكان أرمل ، وليس له الا وريث واحد هو ابنة اخيه ، خالة الأمير ، التى كانت امرأة فقيرة جدا تعيش فى بيت اناس غرباء . وحين آل اليها هذا الميراث كانت مصابة بداء الاستسقاء وكانت تحتضر . لكنها أسرعت تكلف سالازكين بأن يبحث عن الأمير ، حتى لقد اتسع وقتها لان تكتب وصيتها . ويبدو أنه لا الأمير ولا الطبيب الذى كان ضيفا عليه بسويسرا ارادا ان ينتظرا الابلاغ الرسمى

أو أن يعمدا الى التثبت من الأمر : وانما وضع الأمير الرسالة فى جيبه وقرر أن يجىء الى روسيا . . .

وختم بتيتسين كلامه مخاطبا الأمير فقال :

— الشىء الوحيد الذى أستطيع أن اقوله لك هو أن هذا الأمر كله لا بد أن يكون ثابتا لا جدال فيه لا من جهة الواقع ولا من جهة الحق ، وأن فى امكانك أن تعد أقوال سالازكين فى هذا الموضوع بمثابة مال فى جيبك . أهنئك يا أمير . من الجائز أن تنال أنت أيضا مليونا ونصف مليون ، ان لم يكن اكثر من ذلك . لقد كان بابوشين واسع الثراء .

جأر فردشينكو يقول :

— مرحى لآخر رجل من سلالة الأمراء ميشكين !

وأعول ليبيديف يقول بصوت مخمور أبحّ :

— مرحى !

وقال الجنرال مصعوقا من الدهشة :

— وأنا الذى أقرضته خمسة وعشرين روبلا كما يُقرض رجل بائس ! . . هاْ هاْ هاْ ! . . أمر أغرب من الخيال ! . . . طيب ! . . تهانىَّ يا عزيزى ، تهانىَّ ! . .

قال الجنرال ذلك ونهض متجها نحو الأمير ليقبّله . واقتدى به آخرون فأسرعوا يحدقون جميعا بالامير . وحتى أولئك الذين كانوا قد انسحبوا الى الغرفة المجاورة أخذوا يظهرون فى الصالون من جديد . وقامت ضوضاء مضطربة ، فمن أحاديث مبهمة ، الى صيحات تعجب ، بل والى صرخات نداء تطالب بشامبانيا . وأخذ الحضور يتزاحمون ويصدم بعضهم بعضا كأنما اصابتهم جميعا حمى . حتى

لقد كادوا ينسون ناستاسيا فيليبوفنا خلال برهة من الوقت . وكادوا ينسون أنها سيدة فى بيتها رغم كل شىء . ولكنهم تذكروا شيئا بعد شىء ، فى وقت واحد على وجه التقريب ، أن الأمير قد عرض عليها منذ هنيهة ان يتزوجها . فاذا بهذا التذكر يفاقم الحالة ويجعل الوضع أشد امعانا فى الجنون . وقد دُهش توتسكى أعمق الدهشة ، لكنه كان لا يزيد على أن يرفع كتفيه ، حتى ليكاد يكون الشخص الوحيد الذى ظل جالسا . أما الآخرون فقد كانوا جميعا يحتشدون حول المائدة فى فوضى . ولقد أكدوا فيما بعد ان ناستاسيا فيليبوفنا انما فقدت عقلها فى تلك البرهة . كانت ناستاسيا فيليبوفنا قد لبثت جالسة ، وظلت بعض الوقت تجيل على الحضور نظرة غريبة مدهوشة ، كأنها لم تفهم ما حدث ، فهى تبذل جهودا كبيرة من اجل أن تدركه . ثم التفتت الى الأمير فجأة ، فحدّقت اليه بانتباه ، عابسة مهدّدة . ولكن ذلك لم يدم الا لحظة قصيرة . فلعلها قد ظنت أن الأمر لم يكن الا مزاحا أو سخرية ، حتى اذا رأت الأمير تخلصت من ذلك الوهم بسرعة ، وعادت الى الوجوم والتفكير ؛ وها هى ذى تبتسم من جديد وكأنها لا تعرف كثيرا لماذا تبتسم . . .

ودمدمت تقول بلهجة ساخرة :

— اذن سأصبح اميرة حقا ! — وألقت نظرة على داريا الكسيفنا دون ارادة منها ، ثم انفجرت تضحك : — هذه خاتمة لم تكن فى الحسبان . . . ليس . . . ليس هذا ما كنت اتوقعه . . . هيه ايها السادة ! ما بالكم تظلون واقفين ، هلاَّ تفضلتم فجلستم وهنأتمونا أنا والأمير ! يخيَّل

الىَّ أن أحدا قد طلب شامبانيا . هلاَّ أصدرت أوامرك يا فردشينكو . يا كاتيا ، وباشا (هكذا نادت خادمتيها حين لمحتهما فجأة على الباب) تقدَّما الىَّ ! سوف أتزوج ، هل سمعتما ؟ سوف أتزوج الأمير ، انه يملك مليونا ونصف مليون ؛ هو الأمير ميشكين ، وسوف يتزوجنى !

هتفت داريا الكسيفنا تقول وقد هزتها هذه الاحداث هزا عميقا :

— وليكن الله معك ! لقد آن الآوان ، لا تضيعى الفرصة !

تابعت ناستاسيا فيليبوفنا كلامها :

— طيب يا أمير ، اجلس بقربى ، هنا ، واليك الشمبانيا . وهيَّا يا سادة ، اشربوا نخب صحتنا !

أعولت اصوات كثيرة تهتف :

— مرحى !

واحتشد عدد كبير من الحضور حول زجاجات الشمبانيا ، واحتشد حولها خاصة جميع افراد عصبة روغوجين على وجه التقريب . غير أن كثيرا من الحضور قد أحسوا ، رغم صراخهم ، ورغم استعدادهم لمزيد من الصراخ ، أن الجو قد أخذ يتغير ، على ما كان فى الأحداث من غموض وابهام ؛ واضطرب بعضهم فبدأ ينتظر التتمة مرتابا قلقا ؛ وتهامس الكثيرون منهم يقول أن الحالة عادية جدا ، وأن الامراء كثيرا ما يتزوج احدهم أية امرأة ، حتى لقد يتزوج فتاة غجرية يختطفها اختطافا . أما روغوجين فقد كان جامدا ساكنا يراقب المشهد وقد انعقف وجهه بتجعيدة حيرة .

وجاء الجنرال الى الأمير خلسة من جانب ، وهمس

يقول له مرتعبا وهو يشده من كمه :

— يا أمير ، يا عزيزى ، ثب الى رشدك !

فرأته ناستاسيا فيليبوفنا ، فاذا هى تنفجر ضاحكة وتقول :

— لا يا جنرال ، انا نفسى الآن أميرة ، سمعت ذلك بأذنيك ، ولن يسمح الأمير الآن بان أُهان ! يا آفاناسى ايفانوفتش ، أنت على الاقل هنئنى . سوف أستطيع بعد الآن ان أجلس فى كل مكان الى جانب زوجتك . ما رأيك ؟ أليس لمثل هذا الزوج نفع ؟ مليون ونصف مليون ، وهو عدا ذلك أمير ، وفوق هذا كله يقال أنه ابله ، فهل هناك ما هو خير من ذلك ؟ الآن انما ستبدأ الحياة حقا ! جئت متأخرا يا روغوجين ! خذ حزمتك . سوف أتزوج الأمير . أنا أغنى منك .

لكن روغوجين كان قد أدرك أخيرا ما يجرى . فارتسمت على وجهه علامات ألم لا سبيل الى وصفه ، وضمَّ يديه احداهما الى الاخرى متضرعا ، وأفلتت من صدره أنة توجع ، ثم هتف يقول للأمير :

— تنازل عن طلبك !

فأخذ الحضور يضحكون من حوله .

وانبرت داريا الكسيفنا تضيف منتصرةً :

— يتنازل لك أنت طبعا ، أليس كذلك ؟ انظروا الى هذا الفلاح الذى يُلقى ماله على المائدة ! ان الأمير يتخذها زوجة له ، أما أنت فتجىء لفضيحة !

— أنا أيضا أتزوجها ! فورا . فى هذه اللحظة ! وسوف أدفع كل شىء . . .

قالت داريا الكسيفنا مستاءة :

— انظروا الى هذا السكران الخارج من الخمّارة ! يجب أن يُطرد !

واشتد الضحك .

فقالت ناستاسيا فيليبوفنا وهى تلتفت نحو الأمير :

— هل تسمع يا أمير ؟ انظر كيف يساوم فلاح ليشترى خطيبتك !

قال الأمير :

— انه سكران ، وهو يحبك كثيرا .

— ألن تخجل من أن خطيبتك قد أوشكت أن ترحل مع روغوجين ؟

— كنت تعانين من حمَّى وما تزالين ، فكأنك كنت تهذين .

— ألن تخجل ايضا حين يقال لك فيما بعد أن زوجتك كان يعولها توتسكى خليلةً له ؟

— لا ، لن أخجل . . . ان ذلك لم يحدث بارادتك .

— ألن تأخذ علىَّ هذا الأمر فى يوم من الايام ؟

— ابدا .

— انتبه ! لا تورِّط نفسك على مدى الحياة !

قال الأمير برفق وهدوء ، وبعاطفة تشبه ان تكون شفقة :

— ناستاسيا فيليبوفنا ، لقد قلت لك منذ لحظة أننى أعد موافقتك شرفا لى ، وأنك أنت التى تشرفيننى ، لا العكس . وقد ابتسمت أنت لأقوالى هذه ، وسمعتُ من حولى ضحكات . جائز أن تعبيرى كان مضحكا ، وأننى كنت أنا نفسى مضحكا ، لكننى أعتقد بأننى . . . أفهم

اين هو الشرف ، وأنا على يقين من أننى قلت الحقيقة منذ قليل ، كنت تريدين أن تضيّعى نفسك تضييعا لا عودة منه ، لانك لو فعلت لما غفرت لنفسك ذلك السلوك فى يوم من الايام . وأنت مع ذلك لم تأثمى فى شىء . يستحيل أن تكون حياتك قد ضاعت ضياعا تاما . ما قيمة أن يكون روغوجين قد سعى اليك . وما قيمة أن يكون جافريلا آردالیونتش قد حاول ان يخدعك ؟ علام العودة الى هذا بغير انقطاع ؟ ان ما فعلته أنت لا يقدر عليه الا قليل من الناس ، أكرر لك هذا . أما الرحيل مع روغوجين فقد قررته وأنت فى نوبة مرض . وأنك ما تزالين فى النوبة الى الآن . وخير ما يمكن أن تفعليه فى هذه اللحظة هو أن تمضى الى فراشك . ولو قد تبعتِ روغوجين لتركته منذ الغداة ومضيت تعملين غسّالة . انك ذات كبرياء يا ناستاسيا فيليبوفنا ولكنك تعيسة الى حد انك تعتبرين نفسك آثمة حقا . ولا بد من العناية الخاصة بك ؛ ولسوف اعتنى بك . فى هذا الصباح ، حين رأيت صورتك ، أحسست أننى أرى وجها أعرفه . لقد شعرت فورا بأنك قد سبق أن ناديتنى . . . سوف . . . سوف أحترمك يا ناستاسيا فيليبوفنا طول حياتى كلها .

بهذا ختم الأمير كلامه بغتة ، واحمر وجهه حين تذكر نوع الناس الذين كان يتكلم امامهم .

وكان بتيتسين قد خفض رأسه حياء ، وأطرق الى الارض . وقال توتسكى بينه وبين نفسه : «هو أبله ، نعم ، لكنه يعرف أن لا شىء يساوى المديح . فطين !» ولاحظ الأمير أيضا ما كان من شرر فى نظرة جانيا الذى كان يحدجه

من ركنه حانقا كأنه يريد ان يحيله رمادا .

وهتفت داريا الكسيفنا تقول وقد فاضت نفسها عاطفة وحنانا :

— هذا ما يسمى قلبا طيبا !

ودمدم الجنرال يقول بصوت خافت :

— رجل مثقف ، لكنه ضائع !

وتناول توتسكى قبعته وهمَّ بالنهوض لينسلَّ خلسة . وتبادل النظرات مع الجنرال ليخرجا معا .

وقالت ناستاسيا فيليبوفنا :

— شكرا يا أمير ؛ ما من أحد قال لى مثل هذا الكلام حتى الآن . كانوا يحدِّدون لى ثمنا ، ولكن ما من رجل شريف طلبنى للزواج فى يوم من الايام . هل سمعته يا آفاناسى ايفانوفتش ؟ ما هو رأيك فى كلمات الأمير ؟ قد يكون هذا بعيدا عن اللياقة والحشمة . . . يا روغوجين ، انتظر لحظة ! على كل حال ، انك لا تنوى الانصراف ، انى أرى ذلك . ما يزال من الجائز ان أرحل معك . الى اين كنت تريد ان تأخذنى ؟

فقال ليبيديف من الركن الذى هو فيه :

— الى ايكاتيرنهوف * .

بينما لم يزد روغوجين غلى أن ارتعش ، وكان ينظر بكل عينيه وكأنه لا يصدق اذنيه . كان مصعوقا كمن ضرب على رأسه بغتة .

وهتفت داريا ألكسيفنا تقول مرَّوعة :

— ما هذا الذى تقولينه يا عزيزتى ؟ أتراك جُننت ؟

فصاحت ناستاسيا فيليبوفنا تقول وقد انفجرت ضاحكة ونهضت واثبة :

— هل أخذت كلامى مأخذ الجد اذن ؟ أأنا أرضى أن اضيِّع حياة برىء ؟ ذلك أمر خليق بأن يفعله آفاناسى ايفانوفتش . فهو امرؤ يحب ان يفسد نفوس الابرياء . هلمَّ نرحل يا روغوجين . هيئ حزمتك ! لا بأس انك تريد ان تتزوجنى . ومع ذلك فلتدفع . ومن الجائز ألا أقبل أن اتزوجك . هل تصورت أن تقدم لى الزواج وأن تحتفظ لنفسك بالحزمة ؟ خسئت ! أنا أيضا خالعة العذار ! لقد كنت خليلة توتسكى . . . يا أمير ، أنت الآن فى حاجة الى آجلايا ايبانتشينا لا الى ناستاسيا فيليبوفنا . ولو ارتكبت هذه الحماقة لأصبحت مضغةً فى الافواه ، ولأشار اليك باصبعه حتى رجل مثل فردشينكو ! أنت لا تخشى ذلك ، ولكننى أنا أخاف أن أكون سبب ضياعك ، وأخاف أن تلومنى على هذا فى المستقبل ! أما ما تقوله عن الشرف الذى أسبغه عليك اذا أنا تزوجتك ، فان توتسكى يعرف من أمر هذا الشرف ما يجب أن يعُرف ! أما أنت يا جانيتشكا فقد خسرت آجلايا ايبانتشينا . هل تعلم ذلك ؟ لولا انك ساومت معها ، لتزوجتك حتما ! هكذا انتم جميعا . وسواء كانت المرأة شريفة ام غير شريفة ، فموقفكم واحد . والا تحيرتم وارتبكتم . . . انظروا الى الجنرال كيف ما يزال فاغرا فاه . . .

قال الجنرال مردِّدا وهو يرفع منكبيه :

— هذه سدوم[1] ، هذه سدوم ! . .

[1] مدينة قديمة فى فلسطين على شاطئ البحر الميت . ذكر الكتاب المقدس ان الله امطرها مع مدينة عامورة نارا قصاصا على خطايا اهلها . **(المنجد)** .

كان قد نهض هو أيضا . وكان جميع الحضور قد وقفوا على كل حال . وكانت ناستاسيا فيليبوفنا كمن جُنَّ جنونها.

قال الأمير فى انين وهو يلوى يديه حسرة :

— أهذا ممكن ؟

فرددت ناستاسيا فيليبوفنا تقول :

— أكنت تظنه مستحيلا ؟ قد أكون أنا نفسى ذات كبرياء ، مهما أكن خالعة العذار ! لقد قلت منذ هنيهة أننى امرأة كاملة . يا لهذه المرأة الكاملة التى تلقى بنفسها فى الوحل لا لشىء الا أن تفخر بأنها ركلت بالقدمين مليونا ولقب أميرة ! أأنا أصلح لك زوجةً بعد هذا ؟ يا آفاناسى ايفانوفتش ، لقد رميت المليون من النافذة فعلا ، فكيف أمكنك ان تتصور أننى سأعد نفسى سعيدة بأن أتزوج جانيتشكا مدفوعةً الى ذلك باغراء الخمسة وسبعين ألف روبل ؟ خذها ، خذ روبلاتك الخمسة والسبعين ألفا يا آفاناسى ايفانوفتش (انك لم توصلها حتى الى مائة ألف ، فتفوق عليك روغوجين). أما جانيتشكا فسوف أتولى مواساته بنفسى . لقد خطرت ببالى فكرة . والآن أريد أن ألهو وأقصف . ألست من بنات الشوارع ؟ قضيت عشر سنين فى سجن . وقد آن لى أن أصبح سعيدة ! هلمَّ يا روغوجين ، هيئ نفسك ! لنرحل !

فزار روغوجين يقول وقد كاد يُجنُّ فرحا :

— لنرحل ! هيه ! انتم . . . نريد خمرا ! اف ! . .

— هيئ خمرا . سوف أشرب . وهل ستكون موسيقى ؟

— طبعا ، طبعا !

كذلك أجاب روغوجين ، فلما رأى داريا الكسيفنا تتقدم نحو ناستاسيا فيليبوفنا ، جأر يتابع كلامه قائلا :

— لا تقتربى ! انها لى أنا ! كل شىء لى أنا ! هى ملكتى ! انتهى الأمر !

كان يختنق فرحا . وكان يدور حول ناستاسيا فيليبوفنا صارخا يقول لكل واحد : «لا تقترب !» وقد تجمعت عصبته كلها فى الصالون . فبعضهم يشرب ، وبعضهم يصرخ ويضحك ، وجميعهم مهتاج يشعر بحرية تامة . وبدأ فردشينكو يحاول ان يجد له مكانا بينهم . وتحرك الجنرال وتوتسكى مرة اخرى يريدان أن ينسحبا . وكان جانيا قد حمل قبعته بيده هو أيضا ، لكنه ظل أخرس ، لا يتحرك ، كأنه عاجز عن انتزاع نفسه من المشهد الذى يجرى امامه .

— لا تقترب !

كذلك كان يجأر روغوجين .

فانفجرت ناستاسيا فيليبوفنا تضحك وتقول له :

— ما بالك تعول هكذا ؟ أنا ما زلت فى دارى سيدة . تكفى اشارة واحدة منى حتى تُطرد شر طردة . أنا لمّا آخذ مالك بعد . ما يزال فى مكانه ، هاته الى هنا ، أعطنى الحزمة كلها ! أهذه الحزمة تضم مائة ألف روبل ؟ فظاعة ! ولكن ماذا بك يا داريا الكسيفنا ؟ أكان يجب علىّ حقا أن افسد حياته ؟ (سألت هذا السؤال وهى تومئ الى الأمير) . كيف يمكنه أن يتزوج وهو ما يزال فى حاجة الى مربية أطفال ؟ سوف ينوب الجنرال عن المربية . انظرى كيف يحوم حوله ! انظر يا أمير : ان خطيبتك قد أخذت المال لأنها فاجرة ، وأنت كنتَ تريد أن تتزوجها ! ولكن ما بالك تبكى ؟ أتتألم كثيرا ؟ اضحك مثلى . . .

— كذلك تابعت ناستاسيا فيليبوفنا كلامها وقد تلألأت على

خديها ، هى أيضا ، دمعتان كبيرتان . — اتكل على الزمن . سوف ينقضى كل شىء ! لأن يغيِّر المرء رأيه الآن خير من أن يغيره فيما بعد . . . ولكن ما بالكم تبكون جميعا ؟ هذه كاتيا قد أخذت تذرف الدموع هى أيضا ! لماذا تبكين يا كاتيا ، يا صغيرتى ؟ سوف أترك لكما أنت وباشا أشياء كثيرة . لقد أمرت بذلك . والآن ، وداعا ! أنت الفتاة الشريفة ، كنت أجبرك على ان تخدمينى أنا العاهرة . . . هذا أفضل يا أمير ، حقا هذا أفضل ! والا فسوف تحتقرنى فى النهاية ، فلا تتحقق لنا سعادة ! لا تحلف الايمان ، فلن أصدِّقك ! ما كان أسخف أن اوافق على أن نتزوج ! . . لا يا أمير ، ان الأفضل أن نفترق على صداقة ، لأننى أنا أيضا حالمة ، فلو تزوجنا لما كان فى ذلك أى خير ! ألم أحلم بك أنا أيضا ؟ انك على حق : لقد حلمت بك زمنا طويلا ، منذ ان كنت بالريف ، عنده . قضيت هناك خمس سنين ، وحيدة تماما . فكنت انتقل من خواطر الى خواطر ، ومن احلام الى أحلام ، حتى وصلت الى تصور رجل مثلك ، طيب ، شريف ، رقيق ، غى بعض الغباء أيضا ، يأتينى على حين فجأة فيقول لى : «ما أنت بآثمة يا ناستاسيا فيليبوفنا . اننى اعبدك !» . نعم ، كنت أسترسل فى الأحلام أحيانا الى درجة الجنون . . . فاذا بهذا الرجل يصل ، ليقضى شهرا او شهرين كل عام ، ثم يتركنى مدنَّسة مهانةً ملطخة بالعار مهتاجة منحلة . أردت ألف مرة أن ألقى بنفسى فى الغدير ، لكننى كنت جبانة ، فأعوزتنى الارادة ، والآن . . . أانت مستعد يا روغوجين ؟

— كل شيء مهيأ ! لا تقترب !

ورددت عدة اصوات تقول :

— كل شيء مهيأ !

— وعربات الترويكا تنتظر تحت ، مع اجراسها !

تناولت ناستاسيا فيليبوفنا حزمة الاوراق المالية بيديها .

— يا جانيا ، خطرت ببالى فكرة . أريد أن أعوض عليك خسارتك ، لماذا ينبغى ان تفقد كل شيء ؟ يا روغوجين ، هل تعتقد انه مستعد أن يزحف منبطحا حتى فاسيلفسكى فى سبيل ثلاثة روبلات ؟

— سيزحف !

— فاسمع اذن يا جانيا . أريد أن أتأمل نفسك مرةً اخيرة . لقد عذبتنى طوال ثلاثة أشهر . وجاء الآن دورى أنا . هل ترى هذه الحزمة ؟ انها تضم مائة ألف روبل ! سوف أرميها فى الموقد ، على مرأى من جميع الحضور ، ليكونوا كلهم شهودا ! فمتى أمسكت النار بها من كل جهة ، فأسرعْ انت الى الموقد ، ولكن دون قفازين ، بل عارى اليدين ، واشمر كُمك واستلَّ الحزمة من النار ! فاذا أفلحت فى ذلك كانت المائة ألف روبل لك أنت ! لن يكون عليك الا أن تتحرق أصابعك قليلا ، ولكن هناك مائة ألف روبل ، فكِّر فى الأمر ! هل يستغرق استلالها وقتا طويلا ؟ وفى اثناء ذلك سيتاح لى أن أعجب بنبل نفسك ، بينما أنت تنشل مالى من النار . الجميع شهود على أن المال سيكون مالك أنت ! أما اذا لم تنشلها فسوف تحترق الحزمة . لن أسمح لاحد بأن ينتشلها . ابتعدوا جميعا الى وراء ، الى وراء ! المال مالى أنا ! هو

ثمن ليلتى مع روغوجين ! هل هذا المال مالى أنا يا روغوجين ؟

— لك أنت يا فرحتى . لك أنت يا ملكتى !

— فابتعدوا اذن الى وراء ، ابتعدوا كلكم ، أنا أفعل ما أشاء ، لا تضايقونى ! يا فردشينكو ، حرِّك النار لتوريها !

فأجابها فردشينكو يقول مصعوقا :

— لا تطاوعنى يداى يا ناستاسيا فيليبوفنا !

فهتفت ناستاسيا فيليبوفنا :

— طيب !

وامسكت الملقط ، فحركت الجمر ، حتى اذا ارتفعت ألسنة اللهب ، رمت الحزمة فى الموقد .

صرخ الجميع ، حتى ان كثيرين منهم رسموا على انفسهم اشارة الصليب . وارتفع من جميع الجهات صياح يهتف :

— مجنونة ، مجنونة !

وهمس الجنرال فى اذن بتيتسين قائلا :

— أليس الأفضل أن نوثقها بالحبال ؟ أو أن نستدعى . . . هى مجنونة ، أليس كذلك ؟ مجنونة حقا ؟

فأجابه بتيتسين بصوت خافت ، شاحب الوجه مرتعش الجسم عاجزا عن تحويل بصره عن الحزمة التى أخذت النار تمسك بها :

— ا . . . لا ! ليس هذا بالجنون تماما .

فاتجه الجنرال عندئذ الى توتسكى يسأله :

— مجنونة ، أليست مجنونة ؟

فدمدم آفاناسى ايفانوفتش يقول شاحب الوجه هو أيضا :

— ألم أقل لك أنها امرأة **طريفة** ؟

— مائة ألف روبل !

وسمعت من جميع الجهات صيحات تقول :

— يا لطيف يا رب !

احتشد الحضور جميعا قرب الموقد ، يحاولون جميعا أن يروا ، ويطلقون جميعا صيحات الدهشة . . . حتى لقد اعتلى بعضهم كراسى وراح ينظر من فوق رؤوس الآخرين . وكانت داريا الكسيفنا قد أسرعت الى الغرفة المجاورة مروّعة الهيئة توشوش كاتيا وباشا . وكانت الالمانية الجميلة قد ولّت هاربة .

جأر ليبيديف قائلا وهو يزحف على ركبتيه أمام ناستاسيا فيليبوفنا ، ويمد ذراعيه نحو الموقد :

— يا عزيزتى ! ايتها الملكة الجبارة ! هذه مائة ألف روبل ! مائة ألف ! رأيتها بعينى ، حُزمت أمامى ! يا عزيزتى الرحيمة ! مرينى فأرمى جسمى كله فى الموقد ، وأضع فى النار رأسى الأشيب ! . . ان عندى امرأة مريضة . . . فاقدة الساقين . . . وثلاثة عشر طفلا هم جميعا يتامى . لقد دفنت أبـي فى الاسبوع الماضى . انهم يتضورون جوعا . ناستاسيا فيليبوفنا !

كذلك زأزأ ليبيديف ، وأخذ يزحف نحو الموقد .

فصرخت ناستاسيا فيليبوفنا تقول وهى تدفعه :

— الى وراء ! ابتعدوا جميعا ! ماذا تنتظر يا جانيا ؟ لا تستح ! هلمَّ ! هذه فرصتك !

لكن جانيا كان قد تحمل كثيرا خلال ذلك النهار

وتلك الليلة ، ولم يكن قد تهيأ لهذا الامتحان الاخير المفاجئ . انشطر الحشد امامه شطرين ، فاذا جانيا يصبح قبالة ناستاسيا فيليبوفنا وجها لوجه ، على مسافة ثلاث خطوات . كانت واقفة عند الموقد تنتظر ، دون ان تحوّل عنه نظرتها الملتهبة الثابتة . ان جانيا يقف الآن برداء «الفراك» ، حاملا قبعته وقفازيه بيديه ، صامتا لا يجيب ولا يتحرك ، عاقدا ذراعيه على صدره ، يتأمل اللهب . وكأن ابتسامة تائهة تطوف بوجهه الشاحب شحوبا شديدا . صحيح أنه كان لا يستطيع أن يحول عينيه عن الحزمة التى أخذت تحترق ، غير أن شيئا جديدا كان يبدو أنه اجتاح نفسه واستولى عليها . لكأنه حلف ليحتملنَّ التعذيب حتى النهاية ، فهو لا يبدى حراكا ؛ حتى أصبح واضحا للجميع بعد بضع لحظات أنه لن ينتشل الحزمة من النار ، أنه لا يريد ذلك .

وكانت ناستاسيا فيليبوفنا تصرخ قائلة له :

— ستحترق الحزمة ، فتكون أنت الملوم ، ولتشنقنَّ نفسك بعد ذلك . لست أمزح !

ان النار التى نبعت فى اول الأمر من بين حطبتين خامدتين قد بدا عليها بعد ذلك أنها أخذت تنطفئ تحت وطأة الحزمة . غير أن لهبا رقيقا أزرق ما يزال عالقا بطرف من الحطبة . وأخيرا جاء لسان نار دقيق طويل يمس الحزمة ، ثم يجرى على طوال الورقة التى تلفها حتى زواياها ، ثم اذا بالنار تمسك الحزمة كلها فجأة ، فيخرج منها لهب ساطع . واذا بالحضور جميعا يصيحون .

عاد ليبيديف يعول قائلا وهو يتجه نحو الموقد من جديد :

— يا عزيزتى !

ولكن روغوجين أمسكه ودفعه .

ولم يكن روغوجين نفسه الا نظرة جامدة . كان لا يستطيع أن يحوّل بصره عن ناستاسيا فيليبوفنا . وكان يشعر من ذلك بنشوة وسكر . كان فى السماء السابعة .

كان يهتف قائلا وقد جُنّ جنونه ثملا ووجّه كلامه للجميع دون تفريق :

— هذه ملكة حقا ! هذه من بلدنا فعلا ! من منكم ، يا عصابة الأوغاد ، يستطيع أن يفعل ذلك ؟

وكان الأمير يراقب المشهد حزينا صامتا .

قال فردشينكو مقترحا :

— أنشلها بأسنانى اذا كوفئت بورقة واحدة قيمتها ألف روبل !

فجأر الرجل ذو القبضتين الذى كان واقفا وراء الجميع ، جأر يقول وقد اعترته نوبة كرب هائلة :

— انا مستعد ان انتشلها بأسنانى ايضا !

ثم صاح يقول وقد رأى اللهب :

— يا للشيطان ! انها تحترق ! سوف يحترق كل شىء !

وهتف الجميع بصوت واحد :

— أخذت تحترق ! أخذت تحترق !

واندفع الجميع تقريبا نحو الموقد .

— جانيا ! لا داعى الى التمنع ! أقول لك هذا آخر مرة !

أعول فردشينكو وهو يهجم على جانيا كالمسعور ويشده من كمه :

— هلمّ ايها المتبجح ! سوف يحترق المال ! اوه ! نحس !

تصدى جانيا لفردشينكو فدفعه عنه بكل قواه ، واستدار ، ومشى نحو الباب ، لكنه ما ان خطا خطوتين حتى ترنح وسقط على الأرض . فصاح الحضور يقولون :

— اغماء !

وعاد ليبيديف يزعق ضارعا :

— عزيزتى ! سوف تحترق !

وزأر الحشد من كل جهة :

— سوف تحترق !

وصرخت ناستاسيا فيليبوفنا منادية :

— يا كاتيا ، يا باشا ، جيئاه بماء ، وجيئاه بكحول !

ثم أمسكت الملقط ، وانتشلت الحزمة .

كانت الورقة التى تلف الحزمة قد احترقت كلها تقريبا ، ولكن أمكن ان يُرى فورا أن ما بداخلها لم يمسسه أذى . كانت الحزمة ملفوفة بثلاث صحائف من ورق الجرائد ، وكان المال سليما . تنفس الجميع الصعداء .

قال ليبيديف بحنان :

— لعل ورقة واحدة بألف روبل قد فسدت ، ذلك فى اكثر تقدير . اما الباقى فسليم .

هتفت ناستاسيا فيليبوفنا معلنة وهى تضع الحزمة قرب جانيا :

— هذه الاموال كلها له ! الحزمة كلها له ! هل تسمعون كلامى يا سادة ؟ لم ينتشلها مع ذلك ، لقد صمد ! هذا يعنى ان كبرياءه اكبر من جشعه . لا بأس ،

سوف يفيق من اغمائه ! ولو لا أنه قد أغمى عليه لكان من الممكن أن يذبحنى . . . هه ، ها هو ذا يفيق ! يا جنرال ، يا ايفان بتروفتش ، يا داريا الكسيفنا ، يا كاتيا ، يا باشا ، يا روغوجين ، هل سمعتمونى ؟ ان الحزمة كلها له ، لجانيا ! أهديها اليه وأملكه اياها ، تعويضا له . . . عما لا يهمنى ! قولوا له ذلك . فلتبق الحزمة بقربه . . . يا روغوجين ، هلمَّ ، سرْ ! وداعا يا أمير ؛ هذه أول مرة أرى فيها انسانا حقا ! وداعا ، آفاناسى ايفانوفتش ! [1] Merci!

وسارت عصبة روغوجين كلها نحو باب الخروج بضجة وصخب وصراخ يدوى فى البيت كله ، تتبع روغوجين وناستاسيا فيليبوفنا . وفى القاعة ألبستها كاتيا وباشا معطفها ؛ وهرعت الطباخة مارفا من المطبخ . فقبلتهنَّ ناستاسيا فيليبوفنا جميعا . سألنها وهنَّ يبكين ويقبلن يديها :

— هل يمكن يا عزيزتنا أن تتركينا حقا ؟ والى أين عساك تذهبين ؟ وفى يوم عيد ميلادك ، فى يوم كهذا اليوم ؟

— أذهب الى الشارع يا كاتيا ، سمعت ذلك . هناك مكانى . أو سوف أعمل غسَّالة ! سئمت آفاناسى ايفانوفتش ! أبلغنه سلامى ، ولا تذكرننى بسوء . . .

وهرع الأمير نحو مدخل البيت . كان الجميع قد أخذوا يستقرون فى عربات الترويكا الاربع ذات الاجراس . واستطاع الجنرال أن يدركه فى السلَّم . قال له وهو يمسك ذراعه :

[1] شكرا . (بالفرنسية فى الاصل) .

— انتظر يا أمير ، ثب الى عقلك . اتركها ! لقد رأيتَ كيف هى ! أقول لك هذا قولة أب . . .

نظر اليه الأمير ولكن دون ان يقول كلمة واحدة . ثم انتزع ذراعه منه ، وهبط السلَّم راكضا .

واستطاع الجنرال وهو واقف على درجات المدخل الذى بارحته عربات الترويكا منذ هنيهة ، أن يرى الأمير يثب الى أول مركبة ويصيح بالحوذى ليذهب الى ايكاترينهوف اثر عربات الترويكا . ثم وقفت مركبة الجنرال بحصانها الرمادى أمام درجات المدخل ، فركبها ، ومضى الى منزله بآمال جديدة وحسابات جديدة ، وبعقد اللآلئ الذى حاذر ان ينساه . وفى وسط تلك الحسابات ، تراءت له صورة ناستاسيا فيليبوفنا الفتانة مرة او مرتين فتنهد يقول :

— خسارة ، خسارة حقا ! امرأة ضائعة ! مجنونة ! . . ولكن ما أصبح الأمير يحتاج اليه الآن ليس امرأة مثل ناستاسيا فيليبوفنا . . .

وان اقوالا فيها عبر كهذه العبر تقريبا قد نطق بها شخصان آخران من ضيوف ناستاسيا فيليبوفنا قررا ان يسيرا معا بضع خطوات .

فقد قال ايفان بتروفتش بتيتسين :

— هل تعلم يا آفاناسى ايفانوفتش ؟ يظهر أن فى بلاد اليابان تقاليد من هذا النوع : يذهب الشخص المهان الى الشخص الذى أهانه فيقول له : «أنت أهنتنى فلذلك جئتك الآن أبقر بطنى أمامك» ، ثم يبقر بطنه على مرأى من الشخص الذى أهانه ، ولعله يشعر بارتياح كبير ورضى عظيم كأنه انتقم لنفسه فعلا . ما أكثر الطبائع الغريبة فى

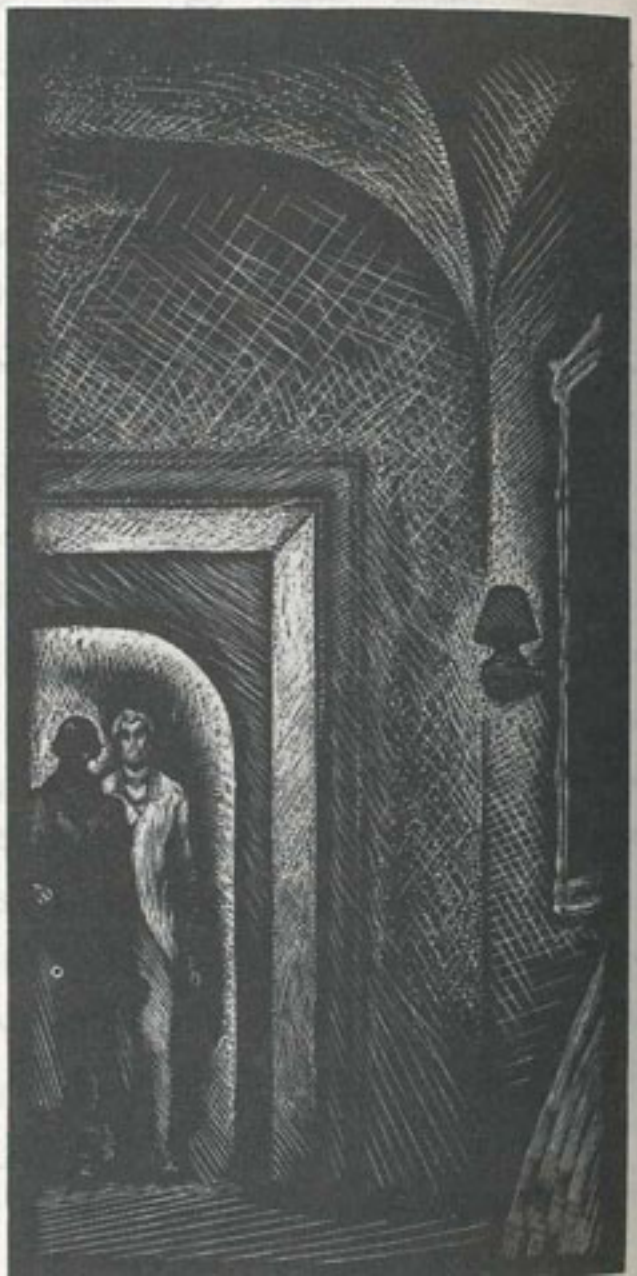
هذا العالم يا آفاناسى ايفانوفتش !

فأجابه آفاناسى ايفانوفتش مبتسما :

— فأنت ترى اذن أن شيئا من هذا القبيل هو ما حدث الآن ؟ هِمْ ! أفصحت عن فكرة ظريفة على كل حال . . . وتشبيه بديع . ولكنك رأيت بنفسك يا صديقى العزيز ايفان بتروفيتش اننى قد فعلت من جهتى كل ما كان فى وسعى أن أفعله . لا يمكننى أن أفعل المستحيل على كل حال ! يجب أن توافقنى على هذا . ولكن يجب أن توافقنى أيضا على أن هذه المرأة كانت لها فضائل رفيعة . . . ميزات ساطعة . لو استطعت ، منذ قليل ، أن أجيز لنفسى ، وسط مدينة سدوم تلك ، أن أفصح عما يدور فى خاطرى ، لوددت أن أقول لها أنها هى نفسها أكبر مبرِّر لى تجاه جميع اتهاماتها . من ذا الذى يمكنه الا تغويه هذه المرأة فى بعض الاحيان الى حد يفقد معه عقله . . . وسائر ما عدا ذلك ؟ انظر الى ذلك الجلف روغوجين الذى أتاها بمائة ألف روبل ! هَبْ كل ما حدث هناك منذ قليل طارئا ، واندفاعا رومانسيا معيبا ، لكنه فى مقابل ذلك غنى بالالوان ، طريف أعظم الطرافة ! عليك أن تعترف بهذا . آه ، حين أفكر فيما كان يمكن أن يخرج من اجتماع طبع كهذا الطبع وجمال كهذا الجمال ! لكن كل شىء ضاع ، رغم جميع الجهود ، بل ورغم كل التربية والثقافة ! هى ماسة لم يمكن صقلها . قلتُ ذلك غير مرة . . .

قال آفاناسى ايفانوفتش ذلك ، وزفر زفرة عميقة .

الجزء الثانى



الفصل الأول

بعد يومين اثنين من الاحداث الغريبة التى شهدناها فى السهرة ببيت ناستاسيا فيليبوفنا والتى ختمنا بها الجزء الأول من قصتنا ، أسرع الأمير ميشكين يسافر الى موسكو ليعنى بأمر الميراث المفاجئ الذى آل اليه على غير توقع . وقد زعم بعضهم فى ذلك الأوان ان هناك أسبابا أخرى دعت الأمير الى الاسراع فى السفر . ولكننا لا نستطيع فيما يتعلق بهذا الأمر ، وكذلك فيما يتعلق بجميع الأحداث التى وقعت للأمير بموسكو ، أو التى وقعت له طوال مدة غيابه عن بطرسبرج عامة ، لا نستطيع أن نقدم الا معلومات قليلة جدا . لقد دام غياب الأمير ستة اشهر تماما . ومع ذلك فحتى الذين كانت تحضهم أسباب معينة على أن يهتموا بمصيره ، لم يستطيعوا أن يعلموا عنه الا أشياء قليلة جدا طوال تلك المدة . صحيح أن هناك شائعات كانت تصل الى مسامع بعضهم فى احيان نادرة ، ولكن تلك الشائعات كان أكثرها غريبا ، وكانت متناقضة فى جميع الأحيان على وجه التقريب . وكان أفراد أسرة ايبانتشين التى لم يتسع وقت الأمير حتى لتوديعها قبل سفره ، أكثر الناس اهتماما به . ثم ان الجنرال قد التقى به أثناء تلك الفترة ، حتى انهما تناقشا نقاشا جادا مرتين أو ثلاث مرات . غير أن الجنرال لم يذكر لأسرته شيئا عن لقاءاته بالأمير . والواقع أن السكوت عن ذكر الأمير فى الآونة الأولى التى اعقبت سفره ، أى خلال شهر كامل تقريبا ، كان قاعدة فى منزل

الجنرال ايبانتشين . الجنرالة اليزافيتا بروكوفيفنا وحدها أعلنت في البداية «أنها قد أخطأ ظنها فيه خطأ قاسيا» . ولكنها لم تذكر اسم الأمير ، وأطلقت حكمها غامضا حين أضافت بعد يومين أو ثلاثة ايام قولها : «ان أبرز سمة في حياتها هي أنها تُخدع في أمر الناس دائما» . وأخيرا ، بعد عشرة أيام قالت هذه العبارة الواعظة بعد أن أثارت بناتها سخطها بشيء ما : «كفاني أخطاء ! لا خطأ بعد الآن !» لا نستطيع الا أن نذكر في هذه المناسبة أنه قد ساد المنزل خلال مدة طويلة نوع من اعتكار المزاج ، شيء من الثقل والتوتر ، جو ملىء بأمور غير معلنة يمكن أن يثير الشقاق . كان جميع من بالمنزل مكتئبا مظلم النفس . والجنرال مشغول بمساعيه وأعماله ليلا ونهارا : انه ما رئى في حياته كلها أكثر انهماكا بالعمل وأكثر جدا ونشاطا منه في هذه الفترة ، ولا سيما في وظيفته . ان ذويه لا يكادون يرونه — أما الآنسات ايبانتشين فكنَّ لا يعبِّرن عما يدور في أذهانهن بصوت عال . ولعلهن كنَّ لا يتحدثن فيما بينهن الا قليلا جدا . انهن فتيات فيهن كبرياء وأنفة ، بل فيهن أيضا حياء وخفر حتى حين يخلو بعضهن الى بعض ؛ ولكنهن يفهم بعضهن البعض لا من أول كلمة فحسب ، بل من أول نظرة أيضا . فلا يكون ثمة داع الى كلام كثير في بعض الأحيان .

الشيء الوحيد الذي كان يمكن أن يلاحظه ملاحظ غريب عن البيت ، لو أمكنه أن يوجد فيه ، هو أن الأمير ، كما تدل على ذلك جميع العلامات ، وهي قليلة على كل حال ، وقد أشرنا اليها من قبل ، قد استطاع أن يحدث في أسرة ايبانتشين انطباعا خاصا ، رغم أنه لم يظهر في

منزل هذه الأسرة الا مرة واحدة عارضة . قد لا يكون ذلك الانطباع الا حبَّ اطلاع ، يفسِّره ما وقع للأمير من مغامرات عجيبة . مهما يكن من الأمر فان الانطباع قد بقي في نفوس أفراد الأسرة .

وشيئا فشيئا ، غابت الشائعات التي انتشرت في المدينة أول الأمر ، غابت هي نفسها في ظلام المجهول . صحيح أن بعض الناس كانوا يتحدثون عن أمير غبي (لم يكن يستطيع أحد أن يعيِّن اسمه على وجه الدقة) قد ورث ثروة طائلة على حين فجأة ، وتزوج امرأة فرنسية كانت مارة بالبلاد مرورا عابرا ، فهي راقصة الكانكان المعروفة في «قصر الأزهار» بباريس . غير أن ناسا آخرين كانوا يؤكدون أن الذي ورث تلك الثروة الطائلة انما هو جنرال ، وأن تاجرا روسيا شابا ، ثريا ثراء لا يُحصى ، هو الذي تزوج راقصة الكانكان الفرنسية المعروفة ؛ وأن هذا التاجر الثمل قد أحرق في حفلة زفاف على لهب شمعة — لا لسبب غير التباهي — بطاقات آخر يناصيب بمبلغ ٧٠٠ ألف روبل على وجه التمام والكمال . ولكن انتشار الشائعات سرعان ما انقطع بفضل بعض الظروف . لقد سافر مثلا روغوجين على رأس أفراد عصبته الضخمة الى موسكو (ولعل بين هؤلاء كثيرون كان يمكن أن يرووا شيئا) بعد أسبوع تقريبا من حفلة ماجنة رهيبة في محطة ايكاترنهوف شاركت فيها ناستاسيا فيليبوفنا . وعلم العدد القليل من الناس المهتمين بهذا الأمر ، من شائعات أخرى ، أن ناستاسيا فيليبوفنا قد هربت واختفت في اليوم التالي بعد حفلة ايكاترنهوف ، وأمكن أن يُعرف في آخر المطاف على حد زعمه أنها سافرت الى موسكو .

فأدرك الناس أن هناك صلة بين هروبها وبين سفر روغوجين الى موسكو .

وسرت شائعات أيضا عن جافريلا آردالیونتش ايفولجين الذى كان معروفا جدا فى بيئته هو أيضا . غير أن حادثا وقع له فسرعان ما أبرد حرارة ألسنة السوء ، بل انتهى الى وقف جميع الأقاويل السيئة فى حقه وقفا تاما : لقد مرض مرضا شديدا ، وانقطع عن الظهور فى المجتمع ، وغاب حتى من وظيفته . ثم ابلَّ من مرضه بعد شهر ، غير أنه لسبب من الأسباب ترك عمله فى شركة الأسهم ، وحل محلَّه موظف آخر . ولم يظهر كذلك فى منزل أسرة ايبانتشين ، واضطر الجنرال ، هو أيضا ، أن يتخذ لنفسه سكرتيرا آخر . ولقد كان فى وسع أعداء جافريلا آردالیونتش أن يفترضوا أنه قد بلغ من الشعور بالعار مما حدث له أنه أصبح يستحى أن يظهر فى الشارع . ولكن الحقيقة هى أنه كان مريضا حقا : كانت تعتريه نوبات وسواس ، وكان كثير الوجوم ، شديد السوداوية ، سريع الاهتياج . وفى ذلك الشتاء نفسه تم زواج باربارا آردالیونوفنا وبتيتسين . فرأى جميع الذين يعرفونهما أن هناك علاقة مباشرة بين هذا الزواج وبين تصميم جانيا على ألا يعود الى عمله ، فهو الآن ليس عاجزا عن اعالة أسرته فحسب ، بل هو نفسه أصبح فى حاجة الى مساعدة ، بل يكاد يحتاج الى العناية به .

ولنذكر ، بالمناسبة ، ان اسم جافريلا آردالیونتش أصبح هو أيضا لا يُلفظ أبدا فى منزل أسرة ايبانتشين ، فكأن جافريلا آردالیونتش لم يوجد فى يوم من الأيام ،

لا فى هذا المنزل ولا فى العالم . ومع ذلك عرف جميع أفراد الأسرة (بل عرفوا ذلك بسرعة كبيرة) أمرا هاما يتعلق به : ففى تلك الليلة التى كانت ليلة حاسمة فى حياته ، بعد الحادث الأليم الذى وقع له فى بيت ناستاسيا فيليبوفنا ، لم ينم جانيا حين عاد الى بيته ، بل ظل ينتظر عودة الأمير كالمحموم من نفاد الصبر . وكان الأمير قد سافر الى ايكاترنهوف هو أيضا ، فلم يعد منها الا بعد الساعة الخامسة من الصباح . فدخل عليه جانيا عندئذ غرفته ، ووضع أمامه على المائدة حزمة الأوراق المالية التى احترقت أطرافها من نار الموقد ، والتى كانت ناستاسيا فيليبوفنا قد وهبتها له أثناء اغمائه . ورجا الأميرَ ملحا أن يتولى ردَّ هذه الهدية الى ناستاسيا فيليبوفنا فى أول مناسبة . ولقد كان جانيا ، حين دخل على الأمير ، فى حالة نفسية عدائية يائسة تقريبا . ولكن يظهر أن الرجلين قد تبادلا أقوالا مكث بعدها جانيا عند الأمير ساعتين كاملتين لم ينقطع فى أثنائهما عن البكاء ناشجا نشيجا مريرا . وافترقا أخيرا على مودة وصداقة .

هذا النبأ الذى وصل الى جميع أفراد أسرة ايبانتشين كان صحيحا كل الصحة ، كما ثبت ذلك فيما بعد . انه لعجيب طبعا أن يمكن وصول هذا النوع من الأنباء الى علم أسرة ايبانتشين بمثل تلك السرعة الشديدة . من ذلك مثلا أن كل ما حدث فى بيت ناستاسيا فيليبوفنا قد عُرف فى منزل أسرة ايبانتشين منذ الغد بتفاصيل كثيرة . وفيما يتعلق بالأنباء الخاصة بجافريلا آردالیونتش كان يمكن أن نفترض أن باربارا آردالیونوفنا هى التى نقلتها الى أفراد أسرة ايبانتشين ، لأنها جاءت الى الآنسات ايبانتشين على حين فجأة فسرعان

ما قامت بينها وبينهن صلات ودية عميقة ، وهذا أمر أثار أشد الدهشة فى اليزافيتا بروكوفيفنا . ولكن باربارا آرداليونوفنا رغم أنها وجدت أن من الضرورى — لسبب من الأسباب — أن تعقد تلك الصلات الوثيقة بأسرة ايبانتشين ، لم تحدث الآنسات عن أخيها حتما . فانها هى أيضا امرأة ذات كبرياء ، على طريقتها الخاصة ، وان تكن قد قبلت أن تربطها صداقة بأولئك اللواتى طردن أخاها طردا على وجه التقريب . فى الماضى ، رغم أنها قد عرفت الآنسات ايبانتشين ، كانت لا تراهن الا نادرا . وهى حتى الآن ، على كل حال ، لا تكاد تظهر فى الصالون قط ، وانما تأتى من مدخل الخدمة كأنها عابرة عبورا . ان اليزافيتا بروكوفيفنا لم تُظهر لها فى يوم من الأيام بشاشة أو ترحيبا ، لا فى الماضى ولا فى الحاضر ، وان تكن تحمل لأمها نينا الكسندروفنا كثيرا من الاعتبار ، وتقدرها قدرا كبيرا . فكانت تُدهش وتغضب ، وتعزو تلك العلاقات الجديدة التى قامت بينهن وبين فاريا الى النزوة وحدها ، والى استبداد بناتها اللواتى أصبحن على حد تعبيرها «لا يعرفن حقا ماذا يخترعن من أساليب لمضايقتها» . ولكن ذلك كله لم يمنع باربارا آرداليونوفنا من مواصلة زياراتها ، سواء قبل زواجها أم بعده .

بعد سفر الأمير بشهر تقريبا ، تلقت الجنرالة ايبانتشين رسالة من الأميرة العجوز بيلوكونسكايا التى سافرت قبل خمسة عشر يوما الى موسكو لزيارة ابنتها الكبرى المتزوجة هناك . فأحدثت تلك الرسالة فى نفس الجنرالة أثرا ملحوظا ؛ ورغم أنها لم تنقل من مضمون هذه الرسالة شيئا الى بناتها أو

الى زوجها ، فقد أدرك ذووها من علامات كثيرة أن فى نفسها غليانا بل واضطرابا . انها تُجرى مع بناتها أحاديث غريبة ، فى موضوعات غير مألوفة . كان واضحا انها تريد أن تفضى بما فى نفسها ، لكنها تلجم لسانها لسبب من الأسباب . انها . يومَ تلقت الرسالة ، قد أظهرت للجميع عاطفة رقيقة ، حتى انها قبّلت آجلايا وآديلائيدا ، واعترفت أمامهما بأخطائها وعيوبها فلم تعرف البنتان ماذا كانت تلك الأخطاء ولا ما هى طبيعة تلك العيوب . وقد أصبحت الجنرالة متسامحة متساهلة على حين فجأة حتى فى معاملة ايفان فيدوروفتش الذى ظلت غاضبة منه مدة شهر كامل . ولكنها عادت منذ الغد تندم على الرقة والحنان اللذين أظهرتهما بالأمس ، ووجدت السبيل الى مشاجرة الجميع حتى الظهر . ثم عاد الجو يصفو فى المساء من جديد ، فبقيت الجنرالة هادئة المزاج طوال أسبوع ، وذلك أمر لم يحدث لها منذ زمن بعيد .

ولكن الجنرالة تلقت رسالة أخرى من الأميرة بيلوكونسكايا بعد أسبوع ، فقررت فى هذه المرة أن تتكلم . فأعلنت ان «العجوز بيلوكونسكايا» (كانت الجنرالة لا تسمى الأميرة أثناء غيابها الا بهذا الاسم) قد بعثت اليها بمعلومات مطمئنة جدا عن ذلك «الشاب الغريب الاطوار . الأمير» . لقد استطاعت العجوز أن تهتدى الى الأمير بموسكو ، وحصلت على معلومات عنه ، حتى لقد اطلعت على أشياء حسنة جدا فى حقه . وقد زارها الأمير ، فأحدث فى نفسها أثرا يكاد يكون خارقا . «ذلك أمر يراه المرء من مجرد أنها دعته أن يزورها صباح كل يوم فى فترة ما بين الساعة الواحدة

والثانية ، وأنه يزورها فعلا بانتظام ، وأنها لم تضجر منه حتى الآن» . بهذا ختمت الجنرالة كلامها وأضافت اليه أن الأمير أصبح بفضل «العجوز» يُستقبل فى أسرتين أو ثلاث من أرقى الأسر . «حسن أنه لا يبقى معتكفا فى بيته كناسك ، وأنه لا يظهر خجولا كغبى» . حين اطلعت الأم بناتها على هذه الأمور ، لاحظن فى الحال أنها أخفت عنهن مع ذلك كثيرا من فقرات الرسالة . ولعلهن عرفن هذا من باربارا آردالیونوفنا التى تستطيع أن تعرف بل تعرف حتى كل ما يعرفه بتيتسين عن الأمير بموسكو ؛ وبتيتسين لا بد أن يعرف أكثر مما يمكن أن يعرف أى شخص آخر . لكنه رجل متكتم أشد التكتم فى شئون الأعمال ، وان يكن يُطلع فاريا على الأمور طبعا . هكذا سرعان ما تفاقم شعور العداوة الذى تحمله الجنرالة لباربارا آردالیونوفنا .

ومهما يكن من أمر ، فقد تكسَّر الجليد وأصبح يمكن التحدث عن الأمير جهارا على حين فجأة . وعدا ذلك تأكد تأكدا واضحا ، مرة جديدة ، أن زيارة الأمير لأسرة ايبانتشين قد أحدثت انطباعا خارقا وولَّدت اهتماما شديدا . حتى الجنرالة أدهشها الأثر الذى خلفته فى بناتها أنباء موسكو . أما البنات فقد أدهشهن أن أمهن التى سبق أن أعلنت لهن بمهابة أن «أبرز سمة فى حياتها هى أنها تخدع فى أمر الناس دائما» ، قد تعهدت فى الوقت نفسه بالأمير فى موسكو الى حسن رعاية العجوز بيلوكونسكايا «ذات السلطة الكبيرة» ، لا سيما وأنها قد اضطرت حتما أن تتوسل هذه الرعاية باسم المسيح والرب ، لأن «العجوز» امرأة ليس اقناعها أحيانا بالأمر السهل .

ولكن ما ان تكسَّر الجليد ، وما ان هبت الريح الجديدة حتى أسرع الجنرال ، هو أيضا ، يذكر ما كان يعلم . اتضح أنه هو أيضا كان يهتم اهتماما خارقا بالأمر . ولكنه اقتصر على ذكر «جانب الأعمال من الأمر» . فاتضح أنه ، فى سبيل مصلحة الأمير ، قد كلف شخصين من موسكو ، هما أهل للثقة ومن أصحاب النفوذ الكبير فى الوقت نفسه ، بأن يسهرا على الأمير ، وأن يسهرا خاصة على وكيله سالازكين . ان كل ما قيل عن الميراث أو قل عن «أن هناك ميراثا» قد اتضح أنه صحيح ، لكن مقدار الميراث أصبح فى الحساب الأخير أقل كثيرا مما ظن فى بداية الأمر . فلقد كانت التركة فى وضع على غير ما يرام ، وكانت مثقلة بالديون ، كما أن ورثة أدعياء تقدموا يطالبون بحقوقهم فى الميراث ؛ والأمير نفسه تصرَّف تصرفا بعيدا عن تصرف رجل من رجال الأعمال ، رغم جميع النصائح التى أسديت اليه . «سيكون الله فى عونه ، طبعا» . لقد أصبح الجنرال ، بعد أن انكسر «جليد الصمت» ، يسعده أن يقول هذا الكلام «باخلاص كامل» ، ذلك أن هذا الشاب «رغم أنه **ضعيف العقل قليلا**» يستحق كل خير . لكنه قد ارتكب بعض الحماقات . من ذلك مثلا أن الذين ادعوا أن لهم على التاجر المتوفى ديونا قد أبرزوا للمطالبة بحقوقهم مستندات يمكن انكارها أو اهمالها ، حتى ان بعضهم لم يبرزوا أية وثائق على الاطلاق ، لأنهم أدركوا حقيقة الأمير وحزروا طبيعته . فهل تصدقون ماذا حدث ؟ لقد أرضاهم الأمير كلهم تقريبا ، رغم ملاحظات أصدقائه الذين برهنوا له على أن هؤلاء الناس وأصحاب المستندات

ليس لهم أى حق شرعى . ولكنه فعل ذلك لأنه ظهر أن بعضهم قد أصابه ضرر بالفعل .

وقد ردّت الجنرالة على هذا بأن الأميرة بيلوكونسكايا قد كتبت اليها شيئا بهذا المعنى ، وأن ذلك «غباء ، غباء شديد ، ولكن لا سبيل الى شفاء رجل أبله» . هذا ما أضافته الجنرالة بلهجة حادة ، وان يكن وجهها قد فضح رضاها عن سلوك «الأبله» ، وارتياحها له . الخلاصة أن الجنرال لاحظ أن امرأته مهتمة بالأمير حتى لكأنه ابنها ، وأنها تبدى لابنتها آجلايا عاطفة كبيرة وحنانا عظيما . فلما رأى ذلك اتخذ مظهر الرجل العملى لفترة من الزمن .

لكن هذه الحالة النفسية الحسنة لم يطل عمرها أيضا . فما ان انقضى أسبوعان حتى حدث تغير مفاجئ آخر . فأظلم وجه الجنرالة من جديد ، أما الجنرال فانه بعد أن هزّ منكبيه عدة مرات عاد يرضخ «لجليد الصمت» . وجلية الأمر أن الجنرال كان قد تلقى قبل أسبوعين خبرا سريا مقتضبا ولذلك فهو غير واضح تماما لكنه مؤكد ، يقول ان ناستاسيا فيليبوفنا التى كانت قد اختفت فى موسكو ثم عثر عليها روغوجين ، قد اختفت مرة أخرى ثم اهتدى اليها مرة ثانية فوعدته أخيرا بأن تتزوجه من كل بد تقريبا . وها هو صاحب السعادة يعلم بعد أسبوعين أن ناستاسيا فيليبوفنا قد هربت مرة ثالثة ، قبيل مثولها مع روغوجين أمام الكاهن فى الكنيسة للزواج ، وأنها الآن مختبئة بمكان ما فى الأقاليم ؛ وأن الأمير ميشكين قد اختفى هو أيضا من موسكو ، تاركا جميع شئونه لوكيله سالازكين ، «فاما أنه سافر معها واما أنه مضى يلاحقها ، فذلك أمر مجهول ، ولكن لا بد

أن هناك شيئا» . ذلك ما استنتجه الجنرال . وقد تلقت اليزافيتا بروكوفيفنا ، هى أيضا ، انباء مزعجة . الخلاصة أن الناس بمدينة بطرسبرج أصبحوا بعد سفر الأمير بشهرين لا يجيئون على ذكره الا لماما ، أما أسرة ايبانتشين فان «جليد الصمت» لم يتكسر فيها بعد ذلك . ولكن باربارا آردالیونوفنا واصلت زياراتها للآنسات .

ولكى نفرغ من جميع تلك الشائعات وجميع تلك الأنباء ، وجب علينا أن نذكر أن كثيرا من التغيرات قد حدث فى أسرة ايبانتشين عند اقتراب فصل الربيع ، ولذلك كان من الصعب على الأسرة الا تنسى الأمير ، لا سيما وأن الأمير لم يدلّ على وجوده ، ولعله لم يشأ أن يدل على وجوده . ففى أثناء الشتاء تقرر شيئا فشيئا أن تسافر الأسرة لقضاء الصيف فى الخارج ، أعنى أن تسافر اليزافيتا بروكوفيفنا وبناتها ، لأن الجنرال لا يستطيع طبعا أن يجيز لنفسه تضييع وقته فى «تسليات لا جدوى منها» . وقد تم اتخاذ هذا القرار بعد الحاح شديد واصرار مستمر من قبل الآنسات اللواتى كن على يقين من أن أبويهنّ اذا لم يوافقا على قيامهن برحلة الى الخارج ، فانما يكون مرد ذلك الى اهتمامهما الدائم بتزويجهن والبحث لهن عن عرسان . ولعل الأبوين قد اقتنعا من جهتهما فى آخر المطاف بأن العرسان يمكن ان يتقدموا فى الخارج أيضا ، وبأن رحلة يقمن بها فى الصيف لا تعطلّ شيئا ، حتى لقد «تسهّل الأمور» . ويحسن أن نذكر هنا أن الزواج الذى كان مزمعا أن يتم بين آفاناسى ايفانوفتش توتسكى وكبرى بنات ايبانتشين قد انفسخ تماما ، وأن توتسكى لم يتقدم بأى طلب رسمى فى خطبة الفتاة .

ولقد تم ذلك من تلقاء نفسه ، دون مناقشات كثيرة ، ودون أى صراع فى داخل الأسرة ؛ كل ما هنالك أن أحدا أصبح لا يجئ على ذكر هذا الموضوع بعد سفر الأمير ، لا من هذا الطرف ولا من ذاك . ولا شك أن هذا كان أحد أسباب الجو الثقيل الذى خيَّم على منزل أسرة ايبانتشين ، وان تكن الجنرالة قد أعلنت آنذاك أنها مستعدة أن ترسم الآن اشارة الصليب بكلتا يديها حمدا لله وشكرا» . أما الجنرال فرغم أن زوجته كانت تغضب منه ورغم أنه يعترف بأنه مذنب ، قد ظل متجهم النفس مدة طويلة ، لأنه كان آسفا على آفاناسى ايفانوفتش حقا : «ثروة طائلة كهذه الثروة ، ورجل بارع هذه البراعة !» وعلم الجنرال بعد ذلك بمدة قصيرة أن آفاناسى ايفانوفتش قد أغوته امرأة فرنسية من المجتمع الراقى كانت مارَّة بالبلاد ، وهى مركيزة من أنصار الشرعية ، وأن الزواج قد حُدِّد موعده ، وأن المركيزة ستأخذ آفاناسى ايفانوفتش الى باريس أولا ، ثم الى مكان ما بمحافظة بريتان بعد ذلك . قال الجنرال فى نفسه : «سيضيع نفسه مع الفرنسية اذن !»

كان آل ايبانتشين يهيئن اذن رحلة الصيف . غير أن حدثا جديدا جاء فجأة يغير كل شىء ، فيتأجل السفر مرة أخرى ، ويفرح الجنرال وزوجته من ذلك فرحا كبيرا . ان أميرا اسمه «ش . . .» * ، وهو شخصية معروفة ، معروفة بأحسن الصفات ، قد وصل الى بطرسبرج قادما من موسكو . انه واحد من أولئك الرجال أو يمكن أن نقول انه واحد من النشطاء الذين ظهروا فى الأونة الأخيرة ، الشرفاء ، المتواضعين الذين يريدون أن يكونوا نافعين بكل صدق

واخلاص ، والذين يعملون بغير انقطاع ، ويتميزون بتلك السمة النادرة الثمينة لأن يجدوا دائما ميدانا لعملهم . انه لا يضع نفسه فى مقدمة الناس ويتحاشى ما يقوم بين الأحزاب من تناحر ولغو فارغ ؛ ولا يعد نفسه بين رجال الصف الأول ، ولكنه كان مع ذلك يدرك كثيرا مما يجرى فى الفترة الأخيرة ادراكا سليما . كان فى أول الأمر موظفا بالدولة ، ثم شارك فى نشاط الزمستفوات * . وكان الى ذلك عضوا نافعا فى عدة جمعيات علمية روسية ، وقد ساهم ، متعاونا مع مهندس من معارفه ، بجمع المعلومات واجراء البحوث فى رسم مسار سليم لواحد من أهم خطوط السكك الحديدية الذى كان يجرى تصميمه فى ذلك الحين . ان عمره نحو خمسة وثلاثين عاما . وهو ينتمى الى «أرقى طبقة فى المجتمع» ، ويملك ثروة «كبيرة ، متينة ، لا يمكن جحودها» على حد تعبير الجنرال نفسه الذى أتيح له بمناسبة عمل من الأعمال الهامة أن يلتقى بالأمير عند الكونت ، رئيسه فى سلم الوظيفة . وبدافع من بعض الفضول الخاص لم يكن الأمير يتحاشى أبدا أن تكون له اتصالات «برجال الأعمال» الروس . وقد اتفق أن تعرف أيضا الى أسرة الجنرال . فأحدثت فيه آديلائيدا ايفانوفنا ، البنت الوسطى من بنات الجنرال ، أثرا قويا . وفى مطلع الربيع طلب الأمير يدها . وقد أعجبت به آديلائيدا كثيرا ، كما رضيت عنه اليزافيتا بروكوفيفنا . وكان الجنرال سعيدا . وكان طبيعيا أن تأجلت الرحلة . وعين للزواج موعد فى الربيع .

وكان يمكن أن تتم الرحلة فى وسط الصيف أو فى نهايته ، ولو نزهة لشهر أو شهرين ، تقوم بها الأم اليزافيتا

بروكوفيفنا وابنتاها اللتان تبقيان لها لتتبدد مشاعر الحزن على آديلائدا التى تركتهم ، لولا أن شيئا جديدا آخر قد حدث . ففى نهاية الربيع (وكان زواج آديلائيدا قد تأخر وتأجل الى منتصف الصيف) أدخل الأمير «ش . . .» الى منزل أسرة ايبانتشين شابا يمت اليه بقرابة بعيدة ، لكن بينه وبينه معرفة قوية . هو شاب اسمه يفغينى بافلوفتش «ر . . .» ، فى نحو الثامنة والعشرين من العمر ، ضابط من ضباط حاشية القيصر ، يتمتع بحظ كبير من الجمال ، ينتمى الى «أسرة راقية» ، وينعم عدا ذلك بأنه مرهف الفكر ، رائع ، «عصرى» ، «مثقف ثقافة شاملة» ، ويملك ثروة طائلة . ولكن الجنرال ريّاب دائما فيما يتعلق بالنقطة الأخيرة . لذلك راح يستطلع حقيقة الأمر ، «فظهر حقا أنه يملك ثروة ما ، ولكن لا بد من مزيد من التحقق والتثبت» . وعدا ذلك فان هذا الضابط الشاب الذى يُنتظر له «مستقبل عظيم» قد كتبت العجوز بيلوكونسكايا من موسكو تكيل له مديحا كبيرا . كل ما هنالك أن سمعته كانت تشوبها شائبة واحدة فقط : علاقات غرامية و«انتصارات» على بعض القلوب البائسة ، فيما يقال . فحين رأى الشاب آجلايا أصبح يلازم منزل آل ايبانتشين ملازمة شديدة . صحيح أنه لم يقل شيئا حتى الآن ، ولو فى صورة تلميح ، ولكن الأبوين أصبحا يعتقدان أنه لا مجال للتفكير فى السفر الى الخارج هذا الصيف . أما آجلايا ، فلعلها كانت ترى رأيا آخر .

ذلك كله حدث قبيل ظهور بطل قصتنا الى المسرح مرة ثانية . كان يبدو من الظاهر أن الأمير المسكين ميشكين كان قد نسيه أهل بطرسبرج فى تلك الفترة نسيانا يكاد

يكون تاما ، فلو خطر بباله أن يعود الى الظهور بين أولئك الذين كانوا يعرفونه ، لبدا كالهابط من السماء . بقى علينا مع ذلك أن نروى واقعة من الوقائع قبل أن نفرغ من هذه المقدمة .

بعد سفر الأمير ، بقى كوليا ايفولجين يعيش كما كان يعيش فى الماضى ، فهو يذهب الى المدرسة ، يتردد على صديقه ايبوليت ، ويعتنى بأبيه ، ويساعد فاريا فى أعمال البيت أى يقوم بما تطلبه منه . غير أن المستأجرين قد تبعثروا بسرعة : فردشينكو ترك المنزل بعد أحداث سهرة ناستاسيا فيليبوفنا بثلاثة أيام ، وسرعان ما غاب عن الأعين ، فلم يسمع عنه أحد شيئا . كل ما كان يقال عنه ، ولكن بغير تأكيد ، انه كان يسكر فى مكان ما . وبرحيل الأمير رحل عن البيت آخر مستأجر . فلما تزوجت فاريا بعد ذلك مضت نينا الكسندروفنا ومضى جانيا يسكنان عندها فى منزل بتيتسين بحى اسماعيلوفسكى* . أما الجنرال ايفولجين فقد حدث له فى تلك الفترة نفسها تقريبا حادث لم يكن فى حسبانه قط : لقد أودع السجن بسبب ديون عليه . ذلك أن صديقته أرملة الكابتن طالبت بسداد سندات تصل قيمتها الى ما يقرب من ألفى روبل ، وهى سندات كان الجنرال قد وقّعها لها فى فترات مختلفة . وقد دُهش الجنرال من ذلك دهشة هائلة . فقد وقع الجنرال المسكين «ضحية ايمانه العظيم بنبل القلب الانسانى عموما» . لقد ألف تلك العادة المطمئنة ، وهى أن يوقع سندات ، فلم يخطر بباله أن فى الامكان أن تُستعمل هذه السندات فى يوم من الأيام . كان يظن أن الأمور تقتصر على توقيع مجرد سندات . ولكن

اتضح أن الواقع ليس كذلك . فكان يهتف فى مرارة قائلا وقد جلس الى مائدة مع أصدقاء جدد فى عمارة تاراسوف[1] أمام زجاجة خمر وهو يحدثهم عن حصار كارس ، وعن الجندى الذى بُعث من الموت حيا ، كان يهتف قائلا : «فكيف يمكن أن يثق المرء بالناس بعد هذا ، كيف يمحضهم ثقته النبيلة !» والحق أنه كان يعيش هناك حياة مريحة جدا . حتى لقد كان بتيتسين وفاريا يقولان انه وجد هنالك مكانه الملائم له ، وكان جانيا يشاطرهما هذا الرأى تماما . ان المسكينة نينا ألكسندروفنا وحدها كانت تبكى بكاء مرا على غير مرأى من أحد (وكان ذلك يثير دهشة أفراد أسرتها) ، وكانت رغم مرضها المستمر تجرُّ نفسها كلما أمكنها ذلك ، الى حىِّ اسماعيلوفسكى لتزور زوجها .

ولكن منذ «حادثة الجنرال» ، على حد تعبير كوليا ، ومنذ زواج فاريا على وجه العموم ، أفلت كوليا من سلطة أسرته افلاتا يكاد يكون تاما ، حتى لقد بلغ من ذلك فى الفترة الأخيرة أنه أصبح لا يعود الى البيت للمبيت الا نادرا . كان يقال انه قد عقد صلات جديدة كثيرة ، وانه عدا ذلك اكتسب شهرة كبيرة فى سجن المدينين . فكانت نينا ألكسندروفنا لا تستطيع الاستغناء عنه أثناء زياراتها لزوجها . وكفَّ أهله فى البيت عن مساءلته ولو من باب حب الاطلاع . ان فاريا التى كانت من قبل قاسية فى معاملته أشد القسوة ، أصبحت لا تلقى عليه الآن أى

---

[1] هى عمارة فى بطرسبرج كانت ملكا للمدعو تاراسوف وأصبحت مقرا للتحفظ على المدينين الذين لم يسددوا ديونهم . المراجع .

سؤال عن غيابه . أما جانيا فكان فى بعض الأحيان (وهذا ما أثار دهشة ذويه الكبيرة) ، يثرثر معه بمودة كبيرة ، رغم كآبته وسوداويته ، وذلك أمر لم يسبق أن حدث فى الماضى قط ، لأن جانيا البالغ سبعة وعشرين عاما كان لا ينتبه أى انتباه بشوش الى أخيه الذى لا تتجاوز سنه الخامسة عشرة ، بل كان يعامله معاملة خشنة ، ولا يطلب من الأسرة كلها الا أن تكون قاسية معه ، ولا يفتأ يهدد بأنه «سيشدُّ له أذنيه» ، فكان هذا يخرج كوليا عن «حدود قدرة الانسان على الصبر والاحتمال» . أما الآن ففى وسعنا أن نقول ان كوليا يكاد يكون فى بعض الأحيان حاجة ماسة لأخيه . وكان كوليا قد فاجأه من جانيا انه ردَّ المال ، وكان لذلك مستعدا لأن يغفر له أشياء كثيرة .

بعد سفر الأمير بثلاثة أشهر تقريبا ، عرفت أسرة ايفولجين أن كوليا قد تعرَّف على أسرة ايبانتشين ، بل وأن الآنسات يحسنَّ استقباله كثيرا . لقد علمت فاريا النبأ بسرعة ، وبالمناسبة نقول ان كوليا لم يعتمد على وساطتها للتعرف على أسرة ايبانتشين وانما تولى تقديم «نفسه بنفسه» . وشيئا فشيئا أحبته أسرة ايبانتشين . وكانت الجنرالة فى أول الأمر غير راضية عنه ، ولكن سرعان ما أخذت تلاطفه «لأنه صريح ولا يداهن ولا يتملق» . فأما أن كوليا كان لا يتملق أحدا فذلك أمر صحيح كل الصحة . وقد عرف كيف يضع نفسه فى موضع الند ، وفى موضع المستقل فى أسرة ايبانتشين ؛ ولئن كان يقوم أحيانا بقراءة بعض الكتب والجرائد للجنرالة ، فما ذلك الا لأنه كان فتى خدوما على الدوام . على أنه قد تشاجر مع اليزافيتا بروكوفيفنا تشاجرا قاسيا ، مرة أو

مرتين ، فنعتها بأنها مستبدة طاغية ، وأعلن لها أنه لن يضع قدمه فى منزلها بعد الآن . فأما المرة الأولى فكانت بسبب «قضية المرأة» ، وأما المرة الثانية فكانت بمناسبة هذه المشكلة : أى الفصول أنسب لاصطياد السميلى . ومهما يبد أن الأمر تجاوز حدود الصدق ، فان الجنرالة قد أرسلت اليه فى اليوم الثالث بعد الشجار خادما يحمل اليه منها رسالة ترجوه فيها أن لا يتخلف عن المجىء اليها . فلم يعاند كوليا ، وجاء اليها فى الحال . كانت آجلايا وحدها غير ميّالة له لسبب من الأسباب على الدوام وكانت تنظر اليه من عل . ومع ذلك كان مكتوبا عليها أن تحدث لها على يديه هو مفاجأة . ففى ذات يوم — وكان ذلك فى أسبوع عيد الفصح — انتهز كوليا فرصة اختلائه بها لحظة ، فمدَّ اليها رسالة وقال انه قد طُلب منه أن ينقلها اليها بيدها ذاتها . ألقت آجلايا نظرة قاسية على هذا «الفتى المتعالى» ، ولكن كوليا لم يلبث أن خرج . وفضت الفتاة الرسالة فقرأت ما يلى :

«لقد أوليتنى شرفا عظيما فى ذات يوم ، حين وثقت بى واطمأننت الىَّ . ولعلك نسيتنى الآن نسيانا تاما . لماذا أكتب اليك هذه الكلمة ؟ لا أدرى لكننى أحسست برغبة لا تقاوم فى أن اذكّرك بى ، أن اذكّرك أنت بالذات . مرارا كثيرة كنت بحاجة ماسة اليكن الثلاث ، لكنك كنت أنت الوحيدة التى أراها بخيالى منكن . اننى فى حاجة اليك . فى حاجة ماسة . ليس هناك ما أكتبه لك عن نفسى ، ولا ما أرويه لك عنى . وليس هذا ما كان يحضنى على

الكتابة اليك ، ولكن أقوى رغبة تجيش فى نفسى هى أن تكونى سعيدة ، فهل أنت سعيدة ؟ ذلك هو كل ما أردت أن أقوله لك .

أخوك الأمير **ل . ميشكين**»

بعد أن قرأت آجلايا هذه الرسالة القصيرة الخالية من الانسجام ، احمرَّت فجأة ، واستغرقت فى التفكير . يصعب علينا أن نتابع مجرى خواطرها . لكنها طرحت على نفسها هذا السؤال : «هل أطلع أحدا على هذه الرسالة ؟» وأحست بخجل . وأخيرا رمت الرسالة فى درج منضدتها ، بينما انثنت شفتاها على ابتسامة ملغزة ساخرة . وفى الغد تناولت الرسالة مرة أخرى ودسَّتها فى كتاب ضخم مجلد تجليدا سميكا . (هذا ما كان تفعله دائما بالأوراق التى تحب أن تهتدى اليها بسرعة) . وانقضى أسبوع قبل أن يتفق لها أن تنظر فى عنوان الكتاب : «دون كيشوت دولا مانش» . فانفجرت ضاحكة لسبب غير معروف .

ولا نعرف أيضا هل أطلعت أختا من أختيها على الرسالة .

ولكنها حين بدأت قراءة الرسالة ومض فى ذهنها سؤال : هل يُعقل أن يختار الأمير هذا الصبى المتعالى المتغطرس رسولا ، وربما رسولا وحيدا ؟ أخذت تسأل كوليا ، مع استمرارها على مخاطبته بتعال بالغ . ولكن «الصبى» ، على سرعة تأذيه فى العادة ، لم يلق بالا هذه المرة لتعالى آجلايا . وشرح لها باختصار ، وبشىء من الجفاف ، أنه قد أعطى الأمير عنوانه الدائم استعدادا للمصادفات ، وأنه

عرض عليه خدماته ، وذلك قبل أن يغادر الأمير بطرسبرج ، ولكن هذه المهمة هى مع ذلك المهمة الأولى التى كلفه بها الأمير ، وأن هذه الرسالة هى الرسالة الأولى التى تلقاها منه . ومن أجل أن يبرهن كوليا على صحة قوله ، أظهرها على الرسالة التى وجهها الأمير اليه شخصيا . فلم تتحرج آجلايا أى تحرج من قراءة هذه الرسالة التى كان نصها ما يلى :

«عزيزى كوليا ، اعمل معروفا وسلم آجلايا ايفانوفنا الرسالة المختومة المرفقة . وأتمنى لك صحة جيدة .

ولك الحب من الأمير

ل . ميشكين .»

قالت آجلايا بلهجة الأسف وهى ترد الرسالة الى كوليا :

— انه لشىء مضحك مع ذلك أن يمنح مثل هذا النونو كلَّ هذه الثقة .

ومرت بكوليا بهيئة احتقار .

كان ذلك أكثر مما يستطيع أن يطيق كوليا الذى استعار لهذه المناسبة من جانيا شارفه الأخضر الجديد دون أن يشرح له السبب . فأحس بالاهانة احساسا قاسيا .

الفصل الثانى

نحن فى مطلع يونيو . كان الجو فى بطرسبرج رائعا منذ أسبوع . ان أسرة ايبانتشين تملك فى بافلوفسك فيلا مترفة أنيقة . هرولت اليزافيتا بروكوفيفنا وأعربت عن رغبتها على حين فجأة فى الذهاب الى هناك . فما انقضى يومان الا وقد تم الانتقال .

وبعد هذا السفر بيوم أو يومين وصل الأمير ليف نيقولايفتش ميشكين من موسكو بقطار الصباح . لم يجئ الى المحطة أحد لاستقباله ، لكنه حين نزل من حافلة القطار خيِّل له فجأة أنه يميِّز فى الجمهور المحتشد حول المسافرين عينين ملتهبتين كانتا تتفرسان فيه تفرسا غريبا . فنظر الأمير حوله بمزيد من الاهتمام ، لكنه لم يميز بعدئذ شيئا . طبعا ذلك لم يكن الا وهما ، لكن هذا الوهم قد ترك فى نفسه أثرا مزعجا . كان الأمير علاوة على هذا حزينا مهموما . كان يبدو أن شيئا يشغل باله .

ركب عربة أقلَّته الى فندق حقير غير بعيد عن شارع ليتينايا . فاستأجر فى ذلك الفندق غرفتين صغيرتين معتمتين أثاثهما سيئ . واغتسل ، وبدل ثيابه ولم يطلب شيئا ، وخرج متعجلا كمن يخشى أن يضيع وقتا أو أن يتأخر عن زيارة .

لو أن شخصا من الأشخاص الذين عرفوه قبل ستة أشهر ، يوم وصوله لأول مرة الى بطرسبرج ، رآه فى تلك البرهة ، لربما لاحظ تحسنا ملحوظا فى هيئة الأمير . ولكن

من المشكوك فيه أن الأمر كان كذلك . ان ملابسه وحدها قد تغيرت تغيرا كاملا : لقد اعدَّها له خياط من أحسن الخياطين بموسكو . ومع ذلك كان يعيب هذه الملابس أنها مسرفة فى الانقياد للموضة (ذلك دائما شأن الخياطين الذين يملكون من الاجتهاد أكثر مما يملكون من رهافة الذوق) ، ولا سيما بالنسبة الى شخص لا يعتنى بهذه الأمور اطلاقا . فلو رآه ملاحظ ميَّال الى الضحك لاستطاع اذا هو أنعم النظر فى الأمير أن يجد فيه غالبا ما يبعث على الضحك . ولكن ما أكثر الأشياء التى يمكن أن تبعث على الضحك !

ركب الأمير عربة وأمر الحوذى بأن يقوده الى حى «الرمال» . وسرعان ما اهتدى هنالك فى أحد شوارع روجدستفنسكى الى بيت صغير من خشب . أدهشه مظهره اللطيف ونظافته والعناية الكبيرة به ، وأمامه حديقة مزروعة أزهارا ، ونوافذه المطلة على الشارع مفتوحة ، ومن خلالها يُسمع صوت حاد يكاد يكون صارخا هو صوت رجل يبدو أنه يقرأ كتابا أو يلقى خطابا . والصوت تقطّعه انفجارات ضحك رنان من حين الى حين . دخل الأمير فناء البيت ، وصعد درجات المدخل ، وسأل عن السيد ليبيديف .

فتحت له الباب طبَّاخة مشمورة الأكمام الى الكوعين ، وهى تومئ بيدها الى مدخل «الصالون» قائلة :

— هو ذا !

ان هذا الصالون ، المغطاة جدرانه بورق أزرق قاتم ، كان معتنى بنظافته ، بل كان فيه شىء من ادعاءات التأنق : يتألف أثاثه من مائدة مستديرة ، وديوان ، وساعة برونزية تحت غطاء من زجاج ، ومرآة ضيقة مثبتة فى الحائط ؛

وثريا صغيرة قديمة تتدلى فيها قطع الكريستال ، معلقة بالسقف بسلسلة من برونز . فى وسط تلك الغرفة كان يقف السيد ليبيديف بنفسه ، مديرا ظهره الى الباب الذى دخل منه الأمير ، مرتديا صديريا بغير سترة حسب العادة صيفا ، متدفقا فى حديث مسهب بلهجة مريرة وهو يلطم صدره . وكان سامعوه : فتى فى نحو الخامسة عشرة من عمره فرح الهيئة ذكيا ، قد أمسك بيده كتابا ؛ وفتاة فى نحو العشرين من عمرها ترتدى ملابس الحداد وعلى ذراعها طفل رضيع ؛ وبنية فى الثالثة عشرة ترتدى ثياب الحداد أيضا وتنفجر ضحكا فاغرة فاهها أكثر من اللازم ؛ ثم شخصية غريبة مستلقية على الديوان : انه فتى فى نحو العشرين من عمره ، وسيم الطلعة أسمر اللون طويل الشعر كثيفه ، واسع العينين أسودهما ، وعلى وجهه زغب خفيف بمثابة لحية وعارضين . وكان يبدو على هذا الفتى أنه ما ينفك يقاطع خطاب ليبيديف ليعارضه ، وعن ذلك كانت تنشأ نوبات الضحك لدى جمهور المستمعين فى أغلب الظن .

— لوكيان تيموفيتش ! لوكيان تيموفيتش ! عجيب أمرك ! هلاَّ نظرت من هنا ! . . آه . . . على كل حال ، افعل ما يحلو لك ! . .

وخرجت الطباخة محمرَّة الوجه غضبا ، وهى تحرك ذراعيها بحركة العجز .

والتفت ليبيديف ، فلما رأى الأمير ، ظل مبهوتا خلال بضع لحظات ، ثم أسرع نحوه مبتسما ابتسامة ذليلة ، لكنه توقف كما لو تجمد من جديد قائلا :

— صا . . صاحب السمو الأمير !

وفجأة ، وكأنه ما يزال عاجزا عن السيطرة على نفسه التفت نحو الفتاة التى ترتدى ملابس الحداد وتحمل على ذراعيها رضيعا وأخذ يعاتبها بصوت عال بلا مبرر ، فتقهقرت الفتاة الى وراء قليلا ، أمام هذه الهجمة التى لم تكن فى الحسبان . لكنه سرعان ما تحول عنها ، وأخذ يتهجم على البنية التى عمرها ثلاثة عشر عاما ، والتى كانت تقف على عتبة الغرفة المجاورة وما تزال تبتسم ابتسامة تبقت من ضحكها القريب ؛ فلم تملك أن تحتمل صراخه ففرّت الى المطبخ بلمح البصر . وخبط ليبيديف الأرض بقدمه ليروعّها مزيدا من الترويع ، ولكنه حين التقت نظرته بنظرة الأمير الذى كان مرتبكا ، قال شارحا :

— ذلك . . . للاحترام ! هىْ هىْ ! . .

فبدأ الأمير يقول :

— لا لزوم لكل هذا ال . . .

لكن ليبيديف قاطعه يقول :

— حالا ، حالا ، حالا . . . بسرعة الريح . . .

وغاب ليبيديف من الغرفة مسرعا . حوّل الأمير نظرته من الفتاة الى الصبى فالشخصية المضطجعة على الديوان مدهوشا . لقد كانوا جميعا يضحكون . فأخذ يضحك مثلهم .

قال الفتى :

— ذهب يرتدى سترة الفراك .

قال الأمير :

— كل هذا مؤسف جدا ، لقد تصورت . . . ولكن قولوا لى : أهو . . .

— سكران ؟ تريد أن تسأل أهو سكران ؟ لا ، ما

هو بالسكران البتة ! كل ما فى الأمر أنه شرب ثلاث كئوس ، أو أربعا ، وربما خمسا ، حتى لا يخل بالقاعدة لا أكثر !

كذلك صاح صوت انطلق من على الديوان .

وقد همَّ الأمير أن يجيب المتكلم ، ولكن سبقته الفتاة التى كان وجهها الحلو يعبّر عن أكبر الصراحة . قالت :

— انه لا يشرب كثيرا فى الصباح قط . فاذا أردت ان تكلمه فى أعمال ، فافعل . هذا هو الوقت المناسب . أما حين يعود الى البيت مساء ، فانه يكون ثملا فى بعض الأحيان . وقد أصبح يتفق له الآن ، ولا سيما فى الليل ، أن يطفق يبكى ، ثم يأخذ يقرأ لنا فى الكتاب المقدس بصوت عال ، لأن أمنا ماتت منذ خمسة أسابيع .

قال الفتى الراقد على الديوان :

— لئن هرب فلأنه يصعب عليه أن يجيبك على ما أظن . أراهن أنه الآن يحاول أن يخدعك ، وأنه الآن بسبيل اجترار الضربة التى يهيئها لك .

— منذ خمسة أسابيع فقط ، منذ خمسة أسابيع فقط . . .

كذلك صاح يقول ليبيديف وقد عاد الى الصالون مرتديا سترة الفراك ؛ وطرفت عيناه ، وأخرج من جيبه منديلا يجفف به دموعه . وأردف يقول : — يتامى ! انهم يتامى !

قالت الفتاة :

— لماذا ارتديت رداء مهترئا مثقبا ؟ ان عندك هناك ، وراء الباب ، سترة جديدة تماما . أما رأيتها اذن ؟

— اسكتى يا جرادة ! أخ منك ! — صرخ ليبيديف

ذلك وخبط الأرض بقدمه ليخيفها ، لكنها فى هذه المرة لم تزد على أن ضحكت ، وقالت :

— لماذا تحاول ان تخيفنى ؟ أنا لست تانيا ° . لن أهرب . قد توقظ ليوبوتشكا ° ، وسوف تعاودها تشنجات . علام هذا الصراخ ؟

ارتعب ليبيديف فجأة ارتعابا شديدا فقال :

— لا ، لا ، لا ! اسكتى ، اسكتى . . . — ثم أسرع نحو الرضيع الذى كان نائما على ذراعى ابنته ، فرسم عليه اشارة الصليب عدة مرات وهو خائف الهيئة . وقال :

— احفظها يا رب ! صنها واحمها يا رب !

ثم أضاف يقول متجها الى الأمير :

— هذا الرضيع هو ليوبوف ، ابنتى أنا . وُلدت لى بزواج شرعى من امرأتى ايلينا التى ماتت أثناء الوضع . وهذه القزعة هى ابنتى فيرا ، ترتدى ملابس الحداد . . أما هذا . . أما هذا . . أوه . . فهذا . .

صاح الشاب :

— لماذا تقطع كلامك ؟ اكمل ، لا تستح .

هتف ليبيديف فجأة قائلا بحماسة :

— يا صاحب السمو ، هل تابعت فى الجرائد أنباء قتل أسرة جيمارين ؟ °

فأجابه الأمير بلهجة فيها شئ من الدهشة :

— نعم .

— فهذا هو قاتل أسرة جيمارين بنفسه ! هذا هو بعينه !

قال الأمير :

— ما معنى هذا الكلام ؟

فأجاب ليبيديف :

— أريد أن أقول ، بطريقة الرمز ، أنه هو القاتل المقبل لأسرة جيمارين أخرى ، اذا وُجدت أسرة جيمارين أخرى . انه يستعد لهذه الجريمة . . .

أخذ الجميع يضحكون ، وخطر ببال الأمير أن ليبيديف ربما كان يسترسل فى هذه التهريجات لأنه كان يتنبأ بأسئلة يلقيها عليه الأمير فلا يعرف بماذا يجيب عنها ، فهو اذن يريد كسب الوقت .

صرخ ليبيديف يقول بلهجة رجل أصبح لا يسيطر على نفسه :

— ان هذا الفتى متمرد مدبر مؤامرات . هل فى وسعى أنا أن أعدَّ لسان الأفعى هذا ، أن أعدَّ هذا الزانى ، أن أعدَّ هذا الشيطان الرجيم ، ابنا وحيدا لأختى آنيسيا المرحومة ؟

— كفى ايها السكران ! هل تصدق يا أمير أنه قد وضع فى رأسه الآن أن يصبح محاميا . فأخذ يتمرن على البلاغة والفصاحة ، حتى اذا كلم أولاده فى بيته كلمهم بلهجة الخطابة ! منذ خمسة أيام ترافع فى محكمة الصلح ° . ان امرأة عجوزا كانت قد ناشدته أن يحامى عنها ضدَّ مراب نذل سلبها خمسمائة روبل هى كل ما تملك . فهل دافع عن المرأة العجوز ؟ لا . . . وانما ترافع لمصلحة المرابى نفسه ، وهو يهودى اسمه زايدلر ، لأن هذا المرابى وعده بخمسين روبلا . . .

صحَّح ليبيديف كلام ابن اخته قائلا بصوت تبدل

الآن تبدلا تاما ، فكأنه لم يصرخ منذ هنيهة :

— خمسين روبلا اذا ربحت القضية ؛ أما اذا خسرتها فخمسة روبلات فحسب .

— وقد أخفق طبعا ! ان القضاء اليوم غير ما كان بالأمس . انهم لم يزيدوا على أن ضحكوا منه . ولكنه ظل معتزا بمرافعته اعتزازا كبيرا ، قال فيها : سادتى القضاة النزيهين ، تذكروا أن شيخا مسكينا كسيحا يعيش من عمل شريف ، يفقد الآن آخر لقمة خبز . تذكروا الأقوال الحكيمة التى قالها المشرِّع : «لتسد الرحمة فى المحـــاكـــم» . فهل تتصور أنه يلقى على مسامعنا هذه المرافعة فى كل صباح كما ألقاها هناك ؟ اننا نسمعها اليوم خامسَ مرة . كان يرددها لحظةَ وصولك الى هنا . فالى هذه الدرجة هو مفتون بها . هو نفسه يعجب بنفسه . وهو يستعد الآن للدفاع عن موكل آخر . أنت الأمير ميشكين ، فيما أظن ؟ لقد قال عنك كوليا انه لم يرَ فى حياته رجلا أذكى منك .

فقال ليبيديف مؤيدا :

— نعم ، نعم ، ليس فى العالم رجل أذكى منه !

— لا ريب أن هذا يكذب . كوليا يحبك صادقا ، أما هذا فهو يمسح ظهرك لينال حظوتك . أما أنا فلا انتوى البتة أن أتملقك ، تستطيع أن تصدقنى . ولكنك لا يعوزك الحس السليم : فاحكم بينى وبينه . — واتجه الشاب المستلقى على الديوان الى خاله يسأله : — ما رأيك ، أتريد أن يفصل فى قضيتنا الأمير ؟ لقد أراحنى جدا أنك جئت فى الوقت المناسب يا أمير !

صرخ ليبيديف بلهجة قاطعة . وهو يلقى نظرة بغير

ارادة منه على الجمهور الذى عاد يتحلق حوله :

— أريد !

قال الأمير مقطبا حاجبيه :

— ما المسألة ؟

لقد كان الأمير مصابا بصداع فعلا ، ولكنه كان عدا ذلك يزداد اقتناعا ، لحظة بعد لحظة ، بأن ليبيديف يخادعه ويسره أن الأمر يرجأ .

قال الشاب :

— هأنا ذا أعرض لك المسألة . أنا ابن اخته . ففى هذه النقطة ، خلافا لعادته ، لم يكذب . وأنا لم أتمم دراستى ، لكننى أريد اتمامها ، وسوف أتمها لأننى أملك قوة الارادة . وبانتظار ذلك وجدت ، لأعيش ، وظيفة فى السكة الحديدية براتب قدره خمسة وعشرون روبلا . اننى اعترف ، على كل حال ، بأنه ساعدنى مرتين أو ثلاثا . ولقد كان معى عشرون روبلا ، فخسرتها فى القمار . تتصور ، يا أمير ، لقد بلغت من الحطة والدناءة اننى خسرتها فى القمار !

صاح ليبيديف يقول :

— خسرتَها مع رجل نذل ، رجل نذل كان ينبغى لك أن لا تدفع له شيئا .

تابع الشاب كلامه فقال :

— أما أنه نذل فهذا صحيح ، ولكن كان من واجبى أن أدفع . وأما أنه وغد حقير ، فهذا أسلِّم به ، ولكن لا لأن الرجل قد ضربك ضربا مبرحا فحسب ، بل لأسباب أخرى كثيرة أيضا . يا أمير ، الرجل ضابط مطرود من الجيش ،

ملازم محال على التقاعد ، كان أحد أفراد عصبة روغوجين السابقة ، ويعطى الآن دروسا فى الملاكمة . ان جميع أفراد تلك العصبة هائمون الآن على وجوههم منذ تخلص منهم روغوجين . على أن أنكى ما فى الأمر أننى كنت أعلم أنه وغد دنىء ، ووبش حقير ، محتال ، ومع ذلك غامرت بآخر روبلات أملكها مقامرا معه (لعبنا لعبة البالكى) * ، قلت لنفسى : اذا خسرت ذهبت الى الخال لوكيان وتضرعت اليه أن يساعدنى . فهو لن يرفض . تلك هى الدناءة وأى دناءة ! لقد كان ذلك حقارة واعية !

قال ليبيديف مكررا :

— نعم ، لقد كان ذلك حقارة واعية !

صرخ ابن الاخت بزعل :

— لا تسرع الى التباهى بالانتصار ! انه يتعجل كثيرا فى الابتهاج ! وقد جئت الى خالى ، — يا أمير ، — واعترفت له بكل شىء . تصرفت تصرفا نبيلا ، لم أرحم نفسى : اتهمت سلوكى أقسى الاتهام ، وأدنته أشد الادانة . الجميع هنا يشهدون بذلك . ومن أجل أن أدخل الوظيفة فى السكة الحديدية ، لا بد لى حتما من الارتفاع بمستوى ملابسى ، ذلك أننى ارتدى اسمالا بالية . بل انظر الى حذاءىَّ ! اننى لا أستطيع أن اتقدم الى وظيفتى الجديدة بهذه الثياب . واذا أنا لم أتقدم فى الموعد المحدد ، فسيعيَّن للوظيفة شخص آخر ، فأبقى عندئذ معلقا بين السماء والأرض ، ولا أدرى متى أجد وظيفة أخرى . أنا الآن لا أطلب منه أكثر من خمسة عشر روبلا . وله علىَّ عهد أن لا ألجأ اليه بعد اليوم قط . وأن أردَّ اليه آخر

قرش له علىَّ فى غضون ثلاثة أشهر . ولسوف أفى بوعدى . أنا أعرف ما هو العيش على الخبز و«الكفاس» * طعاما وشرابا خلال أشهر بكاملها ، لأننى قوى الارادة . فى غضون ثلاثة أشهر أكون قد كسبت خمسة وسبعين روبلا . فاذا أضفنا الى القرض الذى أطلبه منه الآن ما سبق أن أقرضنى من مبالغ أخرى يكون مجموع الدين الذى له علىَّ خمسة وثلاثين روبلا . فسأملك اذن من المال ما ابرئ ببعضه ذمتى . وله من الفوائد ما يشاء ، وليأخذه الشيطان ! أهو لا يعرفنى ؟ اسأله يا أمير : أرددتُ اليه المال الذى ساعدنى به ام لا ؟ لماذا لا يريد أن يساعدنى الآن ؟ هو غاضب علىَّ لأننى دفعت لذلك الملازم . ليس هناك سبب آخر . ذلك هو شأنه : لا شىء له ، اذن لا شىء لغيره !

صاح ليبيديف يقول :

— وهو لا ينصرف ! انه مضطجع هنا حيث تراه ، لا يريد أن يتحرك !

— سبق أن قلت لك : لن أنصرف قبل أن تعطينى ما أطلبه منك . لماذا يبدو عليك التبسم يا أمير ؟ هل ترانى غير محق فيما أظن ؟

— لست أبتسم ، ولكننى أرى أنك غير محق قليلا .

— بل قل صراحة اننى غير محق تماما . لا توارب . لماذا كلمة «قليلا» هذه ؟

— اذا شئتَ : أراك غير محق تماما .

— اذا شئتُ ! شىء مضحك حقا ! تظن اننى لا أدرك أن طريقتى هذه خالية من الكياسة وأن المال ماله ، وأنه يستطيع التصرف فيه على ما يريد له هواه ،

وأننى كمن يريد أن يسلبه اياه . ولكنك لا تعرف الحياة يا أمير ! اذا لم يلقّن المرء أمثال هؤلاء الناس درسا فلا يجب أن ينتظر منهم شيئا . فلا بد من تلقينهم درسا . ان ضميرى طاهر ، فى الحقيقة لن أخسرّه ، سأردُّ اليه ماله ، مع الفوائد أيضا . كما انه شاهد ذلتى فحصل على ارتياح معنوى فماذا يريد أكثر من ذلك ؟ لأى شىء يصلح اذا لم يقدم خدمة ؟ بل انظر كيف يتصرف هو نفسه ؟ اسأله عن سلوكه مع الآخرين وكيف يخدع الناس . بأية وسائل أصبح مالكا لهذا المنزل ؟ اننى مستعد لأن أقطع رأسى اذا ثبت أنه لم يغششك حتى الآن ، وأنه بسبيل التفكير فى أسلوب يخدعك به مزيدا من الخداع . تبتسم ، ألا تصدّق ما أقول ؟

قال الأمير :

— يخيَّل الىَّ أن هذا كله ليس له كبير صلة بقضيتك .

— أنا مضطجع هنا منذ ثلاثة أيام ، فما أكثر ما رأيت خلال هذه المدة !

بهذا هتف الشاب دون أن يصغى الى كلام الأمير ، وتابع يقول :

— تتصور أن عنده شكوكا وشبهات حول هذه الملاك ، حول هذه الفتاة التى أصبحت اليوم يتيمة ، حول ابنة خالتى التى هى بنته . انه يبحث فى كل ليلة عن عشيق لعلها خبأته فى غرفتها ، ويتسلل الى هنا خلسة ينظر تحت ديوانى الذى أرقد عليه عسى أن يجد أحدا . لقد أطاش الشك صوابه . انه يرى لصوصا فى جميع الزوايا والأركان . يثب عن سريره فى الليل كل لحظة ، ويمضى يتثبت من أن

الأبواب والنوافذ قد أُحكم اغلاقها ، حتى انه يفتش الموقد . ويتكرر ذلك فى الليلة الواحدة سبع مرات أحيانا . فى المحكمة يترافع عن أوغاد وأوباش . وهنا ينهض فى كل ليلة ثلاث مرات أيضا ليصلى وليتجه الى اللّه بدعائه . يجثو على ركبتيه فى الصالون ويظل يلطم جبهته بالأرض مدة نصف ساعة . ما أكثر هؤلاء الذين يصلّى عليهم وما أكثر ما يرتله وهو سكير . لقد صلىَّ على روح كونتيسة دى بارى . سمعته بأذنىَّ هاتين . وسمعه كوليا أيضا . لقد فقد العقل تماما !

هتف ليبيديف يقول وقد احمر وجهه احمرارا شديدا وغضب غضبا قويا :

— هل رأيت يا أمير ، هل سمعت كيف يتهكم علىَّ ويستهزئ بى ! ولكنه لا يعرف أننى ، أنا ، هذا السكير والزير والنصاب والشقى ، ربما لا أستحق تقديرا الا لشىء واحد ، هو أننى أنا الذى كنت اقمّط هذا الساخر حين كان فى المهد . وأغسّله فى الطست . كنت أقضى ليالى بكاملها ساهرا عليه وعلى أمه أختى آنيسيا التى توفى عنها زوجها وهوت الى حضيض الفقر والبؤس . رغم أننى كنت لا أقل عنهما فقرا وبؤسا ، فقد كنت أعتنى بهما وهما مريضان ، وأمضى أسرق حطبا من عند البواب ؛ وكان بطنى خاويا ، لكننى كنت أغنى وأطقطق بأصابعى لتسلية الطفل . وها قد ربيته ، ها هو ذا الآن يضحك علىَّ ويسخر منى . ثم أى ضير يلحق بك أنت ، اذا أنا رسمت ذات مرة اشارة الصليب مصليا على روح كونتيسة دى بارى ؟ يا أمير ، منذ ثلاثة أيام ، قرأت سيرة حياتها

لأول مرة فى القاموس الموسوعى . ولكن هل تعلم أنت من هى كونتيسة دى بارى ؟ تكلم : أتعلم أم لا ؟

دمدم الشاب يقول رغم ارادته ، ولكن بلهجة ساخرة :

— لكأنك الانسان الوحيد الذى يعلم ذلك !

قال ليبيديف يجيبه :

— هى كونتيسة خرجت من حمأة العار فأصبحت تحكم كملكة ، حتى ان امبراطورة كبيرة خاطبتها بقولها[1] «ma cousine» فى رسالة كتبتها بخط يدها . وأثناء ليفى دى روا[2] (هل تعرف ما هو ليفى دى روا ؟) تطوّع كاردينال هو سفير البابا ليلبّس قدميها العاريتين الجوربين الحريريين : كان يعد ذلك شرفا له ، رغم علو مقامه ، وقداسة منصبه ! هل تعلم ذلك ؟ أرى فى وجهك أنك تجهل هذا . فكيف ماتت هذه الكونتيسة ؟ أجب ان كنت تعلم !

— دعنى وشأنى ! انك تضجرنى !

— اسمع كيف ماتت . بعد جميع تلك الأمجاد ، جر الجلاد سامسون هذه الحاكمة السابقة الى المقصلة ، رغم أنها كانت بريئة ، وذلك ليدخل المسرة والبهجة الى نفوس البواسارد[3] من نساء باريس . وقد بلغت من الذعر

---

[1] ابنة عمى (بالفرنسية فى الأصل) .

[2] كتبت فى الاصل كما تُلفظ بالفرنسية ، وتعنى مراسيم تلبيس الملك فى الصباح .

[3] كتبت فى الأصل كما تلفظ بالفرنسية (بواسارد — poissarde) — باثعات سمك او باثعات فى السوق .

والرعب أنها لم تفهم شيئا مما كان يُراد أن يُفعل بها ، فلما أحست أن الجلاد يحنى رقبتها ، ليضعها تحت سكين المقصلة ، ويدفعها الى أمام ركلا بقدميه ، بينما الناس من حولها يضحكون مقهقهين ، أخذت تصرخ قائلة : «Encore un moment, monsieur le bourreau, encore un moment!» وهذا يعنى : «لحظة واحدة أخرى يا سيدى بورو[1] ، لحظة واحدة اخرى !» لعل تلك اللحظة هى التى ستشفع لها عند الله فيغفر لها ، ذلك انه لا يمكن ان يتخيل المرء ميزرا للنفس الانسانية اكبر من ذلك الميزر ! هل تعلم ماذا تعنى كلمة «ميزر»[2] ؟ اذن فهذا هو ذلك الميزر بعينه ! حين قرأت الفقرة التى تذكر صرخة الكونتيسة ضارعة ان تُمهل لحظة واحدة ، انقبض قلبى كأنما أمسك به فكا كماشة . اى ضير يصيبك انت ، ايها التافه ، اذا انا خطر ببالى أن أدعو الله لتلك الخاطئة الكبيرة اثناء صلواتى قبيل الرقاد . لئن فعلت ذلك ، فربما لان احدا لم يدر فى خلده حتى الآن ان يصلى على روحها او ان يرسم من اجلها اشارة الصليب . لسوف يبهج قلبها حتما ، فى الحياة الآخرة ، ان تحسَّ انه قد وُجد على هذه الارض خاطئٌ مثلها صلَّى على روحها ولو مرة واحدة ! ما بالك تضحك ساخرا ؟ لا تؤمن بهذا ايها الملحد . وما مدى علمك بهذه الاشياء انت ؟ ثم انك قد تنصت كلامى فنقلته محرفا : أنا لم اصلِّ على روح كونتيسة دى بارى وحدها ، وانما قلت : «اللهم هَبْ راحة

---

[1] كتبت فى الأصل كما تلفظ بالفرنسية (bourreau) — جلاد .

[2] كتبت فى الأصل كما تلفظ بالفرنسية (misere) — عذاب .

النفس للخاطئة الكبيرة الكونتيسة دى بارى ، ولجميع اولئك اللواتى يشبهنها !» . وهذا يختلف كثيرا عما نقلته انت ، ذلك ان فى العالم الآخر كثيرا من الخاطئات اللواتى عرفن تقلب الحظ ، وقاسين من ظروف الحياة ، ويتعذبن هناك الآن ويئنّ وينتظرن . ولقد دعوت ايضا لك ولامثالك ، امثالك من الوقحين والاوغاد ! هكذا صليت انا ، ما دمت تقحم نفسك فى التنصت على صلواتى .

قاطع ابن الاخت خاله قائلا فى انزعاج :

— طيب ، كفى هذا ! صلِّ على مَن تشاء ، وليأخذك الشيطان ! لا حاجة الى الصراخ . . .

ثم اضاف مبتسما ابتسامة قصيرة ساخرة :

— خالى رجل يحب قراءة الكتب ! أكنت لا تعرف ذلك ؟ انه يقضى وقته الآن عاكفا على قراءة جميع انواع الكتب والمذكرات !

قال الأمير على مضض وقد بدأ يشعر نحو الشاب بكره متزايد :

— مهما يكن من أمر ، فان خالك رجل لا يخلو . . . من قلب !

قال الشاب :

— أماديحك هذه ستصعد الى رأسه ، فتطيش عقله . انظر كيف يتلذذ بمذاقها منذ الآن ، واضعا يده على صدره ، موسعا فتحة فمه ! صحيح أنه ليس خاليا من القلب ! لكنه رجل خدَّاع ، وهذه بلية ! وهو فوق ذلك سكير ، لقد تفكك كل كيانه مثل كل سكير ادمن على السكر عدة سنوات . لذلك ترى كل ما فيه يصرّ . لا شك انه

يحب أولاده ، وأنه كان يعامل المرحومة معاملة فيها احترام . . بل انه يحبنى أنا أيضا ، وقسما بالله أنه لم ينسنى فى وصيته .

صاح ليبيديف يقول غاضبا :

— لن أورثك شيئا !

قال الأمير بصوت جازم وهو يتحول عن الشاب :

— اسمع يا ليبيديف ، اننى أعرف بالتجربة أنك رجل جد فى شئون الاعمال متى شئت . . . ولست أملك من الوقت الا قليلا جدا . . . فاذا كنت . . . معذرة . . . نسيت اسمك واسم ابيك ، فهلا ذكرتنى بهما ؟

— تيـ . . . تيـ . . . تيموفى .

— ثم ؟

— لوكيانوفتش .

فانفجر الجميع ضاحكين من جديد . وهتف ابن الاخت يقول :

— لقد كذب ! كذب حتى فى ذكر اسمه . يا أمير ، ليس اسمه تيموفى لوكيانوفتش بل لوكيان تيموفيفتش ! قل لنا لماذا كذبت ؟ لوكيان أو تيموفى ، ألا يستوى الأمران ؟ وأى فرق بالنسبة الى الأمير ان يكون اسمك لوكيان او تيموفى ؟ يميناً انه يكذب للكذب . . . لانه تعود أن يكذب !

سأل الأمير وقد نفد صبره :

— هل صحيح ما يقول ؟

— صحيح . اسمى لوكيان تيموفيفتش .

بهذا اعترف ليبيديف خجلا خافضا عينيه طائعا واضعا يده على قلبه من جديد .

— ولكن لماذا كذبت اذن ؟ يا رب السماء !

همس ليبيديف يقول وهو يخفض رأسه مزيدا من الخفض فى خنوع :

— التذلل !

— اوه ! ما شأن التذلل هنا ! ليتنى أعرف فقط أين أجد كوليا الآن .

قال الأمير هذا وقد بدا عليه أنه يهمُّ أن ينصرف .

فتدخل الشاب من جديد .

— سأقول لك اين كوليا .

فأسرع ليبيديف يقاطعه فى تهيج :

— لا ، لا !

وتابع الشاب كلامه فقال :

— بات كوليا الليلة هنا ، ومضى فى الصباح يبحث عن الجنرال الذى اخرجته أنت من سجن الديون يا أمير مسددا ديونه ، لا يعلم الا اللّه لماذا ! أمس وعد الجنرال ان يأتى الى هنا ليبيت ، ولكنه لم يظهر . ولعله ذهب يبيت على بعد خطوتين من هذا المكان فى فندق «الميزان» . فلا بد اذن أن يكون كوليا هناك . الا ان يكون قد ذهب الى بافلوفسك يزور اسرة ايبانتشين . كان يريد أن يذهب اليهم منذ امس ، اذ كان معه مال . فستجده اذن اما فى فندق «الميزان» واما فى بافلوفسك .

هتف ليبيديف يقول :

— فى بافلوفسك ، فى بافلوفسك ! أما الآن فلنذهب الى الحديقة ، من اجل ان . . نشرب هناك القهوة . . .

قال ليبيديف ذلك وأمسك الأمير من ذراعه فجرَّه

الى الخارج ، الى فناء يفضى الى الحديقة من باب صغير .

كانت الحديقة صغيرة جدا ولطيفة جدا . وبفضل حسن الجو كانت الاشجار جميعها فى تفتح كامل . اجلس ليبيديف الأمير على دكة من خشب مدهون بلون اخضر ، أمام مائدة مثبتة فى الارض ، خضراء اللون هى ايضا . وجلس امامه . وجئ بالقهوة بعد لحظة ، فلم يرفضها الأمير . وظل ليبيديف يحدّق الى عينى الأمير بشراهة وتملق .

قال الأمير وهيئته هيئة انسان يفكر فى شىء آخر لا صلة له بما يقول البتة :

— لم أكن أعرف أن لك ملكا كهذا .

بدأ ليبيديف يقول بهيئة شاكية :

— يتامى !

ولكنه سرعان ما توقف . كان الأمير ينظر الى امام ، ذاهلا ، فلا شك انه قد نسى العبارة التى قالها منذ لحظة عن مِلْك ليبيديف . وانقضت دقيقة . ان ليبيديف ما يزال يحدّق الى محدّثه وينتظر .

قال الأمير وكأنه افاق :

— طيب ، ماذا ؟ ها . . . نعم . . . انت تعلم نفسك ما هى مسألتنا يا ليبيديف . لقد جئتُ اليوم عقب الرسالة التى تلقيتها منك . فتكلم !

ارتبك ليبيديف ، وأراد أن يقول شيئا ، لكنه لم يزد على ان نطق باصوات غير مفهومة . فكان الأمير يصبر عليه ، ويبتسم ابتسامة حزينة .

— يخيَّل الىَّ اننى افهمك جيدا يا لوكيان تيموفيفتش . كنتَ لا تتوقع مجيئى طبعا . كنت تقدِّر اننى لن أترك

عزلتى عند تلقى أول رسالة لم تبعثها الىَّ الا من باب تبرئة الذمة . ولكن هأنت ذا ترى اننى جئت . كفى . . . لا تحاول ان تخدعنى . انقطع عن خدمة سيدين اثنين فى آن واحد . ان روغوجين موجود هنا منذ ثلاثة اسابيع . أنا أعرف كل شىء . هل استطعت أن تبيعه هذه المرأة كما فعلت فى المرة الماضية ؟ قل الحقيقة .

— بل اكتشفها بنفسه ، هذا الشيطان الخبيث !

— لا تشتمه . يقينا انه اساء معاملتك . . .

قال ليبيديف مهتاجا :

— أشبعنى ضربا ، نعم ، اشبعنى ضربا . وفى قلب موسكو حرَّض علىَّ كلبه الفظيع . كلبه السلوقى الرهيب ، فظل الكلب يطاردنى من أول الشارع الى آخره .

— انك تعدنى طفلا ، يا ليبيديف . قل لى : أكانت جادةَ حين تركته بموسكو منذ مدة قصيرة ؟

— جادةً ، جادةً ، قد تركته مرة اخرى قبيل الاحتفال بالزواج . . . كان يعدُّ الدقائق بانتظار ان يحين موعد الاحتفال بالزواج . هربت من موسكو الى بطرسبرج ، فجاءت الىَّ رأسا تقول : «انقذنى ، هيىء لى عندك مأوى يا لوكيان ، ولا تذكر للأمير شيئا» . انها تخشاك أكثر مما تخشاه يا أمير ، وذلك هو السر !

قال ليبيديف ذلك وحمل اصبعه الى جبينه متخابثا . سأله الأمير :

— والآن ، هل قرَّبت بينهما من جديد ؟

— يا صاحب السمو . . . هل كان يمكننى أن أعارض هذا التقارب بينهما ؟

— طيب . سأستطلع الأمر بنفسى . ولكن قل لى : اين هى الآن ؟ عنده ؟

— لا ، ابدا . انها ما تزال تعيش وحدها . وهى تقول : انا حرة . اعلمْ يا أمير انها تلح كثيرا على هذه النقطة . انها ما تنفك تكرر ما ازال املك حريتى كاملة . ما تزال تقيم فى حى بطرسبرجسكى ، عند اخت زوجتى ، كما ذكرت لك هذا فى رسالتى .

— أهى الآن هناك ؟

— نعم . اللهم الا ان تكون فى بافلوفسك ، فلعلها انتهزت فرصة جمال الجو ، فمضت لتصيف فى فيللا داريا الكسيفنا . انها تكرر دائما قولها : أنا أملك حريتى كاملة . امس تباهت كثيرا باستقلالها وحريتها أمام نيقـــــولاى آردالیونوفتش . هذه علامة سيئة .

واخذ ليبيديف يبتسم مكشرا عن اسنانه .

— هل يزورها كوليا فى احيان كثيرة ؟

— صبى طائش ، صبى لا أفهمه ، عاجز عن المحافظة على سر .

— هل كان ذهابك اليها منذ مدة طويلة ؟

— اننى أذهب اليها كل يوم !

— اذن ذهبت اليها أمس ؟

— لا . منذ ثلاثة ايام لم أرها .

— خسارة أنك سكران قليلا يا ليبيديف ! ولولا ذلك لالقيت عليك سؤالا آخر .

— لا ، لا ، لم اشرب شيئا البتة .

ونصب ليبيديف اذنه .

وقد وافقتنى على رأيى حين قلت لها اننا وصلنا الى العهد الذى يمثله الحصان الثالث ، الحصان الأسود الذى يمسك راكبه ميزانا بيده . ذلك أن كل شىء فى عصرنا هذا يُزان بميزان وينظم بعقد ، وليس لأحد من هم الا أن يبحث عن حقه ويسعى اليه . «ثمنية قمح بدينار ، وثلاث ثمنيات شعير بدينار» . وهم فوق ذلك يريدون جميعا ان يحتفظوا بحرية الفكر وطهارة القلب ، وصحة الجسم ، وجميع ما وهب الله . لكنهم لن يصلوا الى هذا بطرق الحق وحدها . لان الحصان الشاحب لونه سيظهر هو وراكبه الذى اسمه «الموت» والذى يتبعه «الجحيم» . هذه هى الموضوعات التى نعالجها حين نلتقى ، فتتأثر بها تأثرا قويا .

سأله الأمير وهو ينظر اليه نظرة غريبة :

— هل تؤمن انت نفسك الى هذه الدرجة ؟

— أؤمن وأؤول . اننى ، وانا الفقير العارى ، لست الا ذرة فى الزوبعة الانسانية . من ذا الذى يحترم ليبيديف ؟ ان كل واحد يجرِّب مكره فيه ، ويكاد يركله برجليه . ولكننى فى مجال التأويل أساوى أكبر سيد من السادة . تلك هى ميزة الذكاء . قد جعلتُ عظيما من العظماء ذات يوم يرتعش على مقعده وهو يدرك ادراكا بذكائه . حدث ذلك منذ سنتين ، قبيل اعياد الفصح . ان صاحب السعادة نيل الكسيفتش ، حين سمع عنى ايام كنت تحت امرته فى الوزارة ، استدعانى من حجرة المناوبة الى مكتبه خصيصا بواسطة بيتر زاخارتش ، وسألنى بعد ان اختلينا : «هل صحيح انك استاذ فى المسيح الدجّال ؟» ، فلم أكتمه أن هذا حق ، وأخذت أقرأ عليه وأشرح له النص

— قل لى : على أى حال تركتها ؟

— تركتها على حال امرأة تبحث .

— امرأة تبحث ؟

— كأنما هى تبحث عن شىء ما بغير انقطاع ، كأنما هى فقدت شيئا . اما زواجها المرتقب ، فان مجرد تفكيرها فيه يثير اشمئزازها ، وهى تغضب اذا حُدِّثت فيه . ولا تعبأ به نفسه اكثر مما تعبأ بقشرة برتقالة ، بل قل أنه أصبح لا يوقظ فى نفسها الا شعورا بالهول والرعب حتى انها تمنع اى انسان من أن يأتى على ذكره . . . وهما لا يلتقيان الا فى حالات الضرورة القصوى . . . وهو يدرك ذلك حق الادراك . ولكنها لن تفلت منه ! . . انها قلقة ، ساخرة ، ملتبسة ، سريعة الاهتياج !

— ملتبسة سريعة الاهتياج ؟

— نعم ، سريعة الاهتياج . من ذلك أنها أوشكت أن تشد شعرى اثناء حديث بسيط قام بينى وبينها فى زيارتى الاخيرة لها . فأخذت اعاتبها برؤيا القديس يوحنا الانجيلى .

سأله الأمير وقد قدَّر انه لم يسمع كلام ليبيديف سماعا واضحا :

— كيف ؟

— كنت اقرأ لها رؤيا القديس يوحنا . ان للسيدة خيالا مضطربا . هىْ هىْ ! وقد لاحظتُ لديها ، عدا ذلك ، ميلا بارزا الى الموضوعات الجدية وان كانت غريبة عنها . انها تؤثر هذه الموضوعات ، وترى ان محادثتها فيها دليل على احترامها . هذا هو الواقع . وانا متمكن جدا من تأويل رؤيا القديس يوحنا التى أؤولها منذ خمس عشرة سنة ،

المقدس . ولم أحاول أن الطّف ما يشتمل عليه النص من تهديد بأخطار رهيبة ، بل توسعت فى شرح الرموز وغصت الى أعماق معنى الارقام . وقد اخذ يبتسم فى اول الأمر ، ولكنه ازاء دقة الارقام ووضوح المقارنات ، لم يلبث أن أخذ يرتعش ، ثم رجانى أن أطوى الكتاب وأن أنصرف . وأمر لى فى عيد الفصح بمكافأة . ولم ينقض على عيد الفصح اسبوع حتى فاضت روحه وذهبت الى بارئها .

— ما هذا الذى تقوله يا ليبيديف ؟

— هو الحقيقة بعينها ، فقد سقط من مركبته بعد الغداء ، فاصطدم صدغه بدكة فمات على الفور مثل طفل صغير . ان سجل وظيفته يدل على ان عمره كان ثلاثة وسبعين عاما . وهو رجل يضرب لونه الى حمرة ، ابيض الشعر ، معطّر دائما ، مبتسم بغير انقطاع ، كطفل . وقد تذكّر بيتر زاخارتش عندئذ زيارتى له فقال : «تنبأت انت بما حدث له» .

نهض الأمير لينصرف . فدُهش ليبيديف ، حتى لقد أحرجه ان يراه ناهضا . فتجاسر وقال له بلهجة فيها كثير من التملق :

— أرى أنك أصبحت لا تكترث اطلاقا . هئ هئ !

فأجاب الأمير يقول عابسا :

— الحق أن صحتى ليست على ما يرام . اننى أشعر بثقل فى رأسى . قد يكون مردُ هذا الى مشقة السفر .

قال ليبيديف على وجل موجها الحديث حسبما أراد :

— تحسن صنعا اذا مضيت ترتاح فى الريف .

فظل الامير واقفا مستغرقا . وتابع ليبيديف كلامه يقول :

— انا ايضا ، سأذهب الى الريف مع جميع افراد الاسرة بعد يومين او ثلاثة ايام من اجل العناية بصحة العصفورة الوليدة ولاجراء جميع الاصلاحات اللازمة فى هذا البيت هنا . سأذهب ايضا الى بافلوفسك .

قال الأمير يسأله فجأة :

— وأنت أيضا ستذهب الى بافلوفسك ؟ اذن يذهب جميع الناس هنا الى بافلوفسك ! وتقول ان لك هنالك منزلا ريفيا ، أليس كذلك ؟

— لا يذهب جميع الناس الى بافلوفسك . ولكن ايفان بتروفتش بتيتسين قد تنازل لى عن احد البيوت الريفية التى حصل عليها هناك بثمن بخس . هناك الجمال والسمو ، والخضرة ورخص الاسعار ، والبون تون[1] والموسيقى . ذلك هو السبب فى ان بافلوفسك يرتادها الناس كثيرا . على اننى سوف اكتفى بجناح صغير ، اما البيت . .

— هل أجّرته ؟

— لا . . . لا . . . لم أؤجره تماما .

قال الأمير يقترح عليه فجأة :

— أجّرنى اياه .

من الظاهر أن ما كان ليبيديف يريد ان يقود اليه انما هو هذا الطلب . ان هذه الفكرة تدور فى ذهنه منذ ثلاث دقائق . ولم يكن مع ذلك يبحث عن مستأجر ،

---

[1] كتبت فى الأصل كما تلفظ بالفرنسية (bon ton) وتعنى التهذيب .

فان هناك شخصا زار ليبيديف وأعلن له انه «قد» يستأجر البيت الريفى . وكان ليبيديف يعلم أن كلمة «قد» هذه تعدل اليقين . لكنه خطفت فى ذهنه فجأة فكرة مثمرة حسب رأيه وهى ان يؤجر البيت الريفى للأمير على اساس ان المستأجر الآخر لم يثبّت وعده بالاستئجار . فتخيّل فجأة «اصطداما جديدا وتحولا جديدا فى الامور» . لذلك استقبل اقتراح الأمير بنوع من الحماسة ، فلما سأله الأمير بلا لف ودوران عن الايجار لوّح بيديه نفيا .

قال الأمير :

— طيب . سوف أسأل عن السعر ، فلا تخسر شيئا .

وكانا على وشك ان يخرجا من الحديقة . وتمتم ليبيديف قائلا ، وهو يهرول جنب الأمير فرحا :

— فى وسعى يا أمير ، فى وسعى ايها الأمير المحترم ، اذا انت شئت ذلك ، أن أبلغك أمرا هاما جدا عن نفس المسألة . . .

توقف الأمير . وتابع ليبيديف كلامه :

— ان داريا الكسيفنا تملك ، هى ايضا ، بيتا ريفيا فى بافلوفسك . . .

— وبعد ؟

— ان الشخصية التى يعنينا أمرها هى صديقتها ، ويظهر انها تنوى ان تتردد عليها كثيرا فى بافلوفسك . ان لها هدفا .

— وبعد ؟

— آجلايا ايفانوفنا . . .

— اوه ! كفى يا ليبيديف !

قاطع الأمير ليبيديف ممتعضا امتعاض انسان مُسَّت فيه نقطة موجعة . وأضاف :

— ليس الأمر على ما تراه . قل لى متى تنوى أن تسافر . الأفضل بالنسبة لى أن يكون هذا أسرع ما يمكن ، لأننى فى الفندق . . .

كان الرجلان قد اجتازا الحديقة وهما يتحدثان . ولم يرجعا الى المنزل ، بل عبرا الفناء متجهين نحو باب الخروج . ووجد ليبيديف حلا فى آخر المطاف :

— الأفضل ان تترك الفندق اليوم ، فتأتى تقيم هنا ، ثم نسافر معا الى بافلوفسك بعد غد .

قال الأمير شارد الذهن ، وهو يصل الى الشارع :

— سوف أرى .

تابعه ليبيديف بنظره . وقد أدهشه هذا الذهول المفاجئ فى الأمير الذى نسى أن يودّعه حين خرج ، بل غفل حتى عن احناء رأسه توديعا ، الأمر الذى لا يتفق وما عهده ليبيديف فى الأمير من حسن الآداب ولطف السلوك .

الفصل الثالث

الساعة تقارب الثانية عشرة ظهرا . كان الأمير يعرف انه لن يجد فى المدينة من آل ايبانتشين الا الجنرال الذى تمنعه اعماله من مغادرة المدينة . حتى ان هذا نفسه ليس مؤكدا . خطر ببال الأمير ان الجنرال قد يستعجل أخذه الى بافلوفسك ؛ ولكن الأمير يحرص كثيرا على زيارة يجب ان يقوم بها قبل ان يذهب الى بافلوفسك . فقرر ان يبحث عن المنزل الذى كان يرغب فى زيارته ، ولو ترتب على ذلك ان يصل الى دار آل ايبانتشين متأخرا ، وأن يؤجل رحلة بافلوفسك الى الغد .

والمسعى الذى سيقوم به الأمير يشتمل على بعض المخاطر من بعض النواحى . ومن ثم كان ارتباكه وكان تردده . وكان يعلم أن المنزل الذى يجب أن يهتدى اليه يقع فى شارع غوروخوفايا الذى لا يبعد عن شارع سادوفايا . فقرر أن يتجه اليه آملا أن يعزم أمره اثناء الطريق على قرار حاسم .

فلما اقترب من تقاطع شارعى غوروخوفايا وسادوفايا أدهشه الاضطراب الخارق الذى اجتاحه . لم يكن يتوقع أن يحس بقلبه يخفق هذا الخفقان القوى المؤلم . ولفت نظره احد المنازل من بعيد . أغلب الظن أن غرابة مظهر هذا المنزل هى التى لفتت نظره . وقد تذكر بعد ذلك انه قال عندئذ لنفسه : «لا شك ان المنزل الذى ابحث عنه هو هذا» . وتقدم مدفوعا بفضول شديد ليتحقق من صدق

تخمينه ، مع شعوره بأنه سيزعجه كثيرا لسبب من الاسباب أن يصدق ظنُّه . المنزل عمارة كبيرة مظلمة ذات ثلاثة طوابق ، ليست بذات طراز ، خضراء اللون وسخة . ان عددا قليلا جدا من المبانى التى من هذا النوع والتى يرجع عهدها الى نهاية القرن الماضى ما يزال قائما بلا تغير تقريبا فى هذه الشوارع من بطرسبرج (حيث يتغير كل شئ بسرعة) . انها مبان متينة ، سميكة الجدران نادرة النوافذ جدا ، تُحصَّن شبابيكها احيانا بقضبان حديدية فى الطابق الارضى الذى تشغله فى اكثر الاحيان دكان صرّاف . والمخصى الجالس فى الدكان يستأجر عادة غرف الطابق الذى يعلوها . وان ظاهر هذه المنازل كباطنها جاف غير مضياف : فكل شئ يبدو للمرء فيها مختفيا متربصا . وكان من الصعب على المرء ان يوضح اسباب هذا الشعور الذى يثيره مظهر هذه المنازل . لا شك ان التزاوج بين الخطوط المعمارية يشتمل على شئ يشُعر بالسرية . ويندر أن يسكن هذه المنازل الا تجار . اقترب الأمير من باب الفناء ، وقرأ على لافتة : «منزل المواطن الفخرى الوراثى روغوجين» .

وتغلب الأمير على تردده فدفع بابا ذا زجاج ، ودخل ، فانغلق الباب وراءه محدثا ضجة . وصعد الى الطابق الأول على السلم الرئيسى . ان السلّم مبنى باحجار غليظة ، غائب فى الظل بين جدران مدهونة بلون أحمر . كان الأمير يعرف ان روغوجين يحتل مع أمه وأخيه كل الطابق الاول من هذا المبنى الكئيب . فتح له الخادم الباب ، ودون ان يُخبر بوصوله ، قاده طويلا خلال سلسلة من الغرف : دخلا أولا الى قاعة استقبال ، جدارنها تحاكى المرمر .

وأرضها باركيه من خشب السنديان ، وأثاثها الثقيل الغليظ من طراز العشرينيات ؛ ثم ولجا سلسلة من حجرات صغيرة قطعاها بلف وتعرج . ثم صعدا درجتين او ثلاث درجات ، ثم هبطا درجتين أو ثلاث درجات . وفى النهاية قرع الخادم بابا . ففتح لهما بارفيون سيميونوفتش بنفسه . فلما رأى الأميرَ جمد فى مكانه ذاهلا ، واصفر لونه ، حتى صار يشبه ، خلال بضع لحظات ، تمثالا من حجر . ان نظرته المحدِّقة الثابتة تعبر عن ذعر ورعب ؛ وان فمه تقلِّصه ابتسامة مبهوتة الى اقصى درجة . كما لو بدا له حضور الأمير حادثا لا يتصوره العقل ، بل حادثا يكاد يكون معجزة . ودهش الأمير من هذا ، رغم أنه كان يتوقع أن يحدث حضوره أثرا من هذا النوع .

قال الأمير أخيرا وهو يشعر بحرج :

— ربما جئت فى وقت غير مناسب يا بارفيون . سوف انصرف اذن .

فقال بارفيون أخيرا وقد ثاب الى رشده :

— لا ، أبدا ! تفضل ادخل !

كان الرجلان يتخاطبان بصيغة المفرد . لقد اتيح لهما أن يلتقيا بموسكو كثيرا وطويلا . حتى لقد اشتملت لقاءاتهما على لحظات تركت فى نفس كل منهما اثرا لا يمحى . ولم يلتقيا بعد ذلك منذ أكثر من ثلاثة اشهر .

ما يزال وجه روغوجين شاحبا . وضرب من التشنجات الخفيفة الخاطفة يقلص هذا الوجه . ورغم انه اقترح على الأمير أن يدخل فانه ما يزال يشعر بحرج خارق . حين قاد الامير الى مقعد قرب المائدة ودعاه الى الجلوس ، التفت

الأمير نحو روغوجين مصادفة ، فتجمَّد فى مكانه تحت نظرة ثقيلة غريبة غرابة هائلة ؛ وعادت الى ذهنه ذكرى حديثة ، أليمة ، مبهمة ؛ فبدلا من ان يجلس ، لبث واقفا بلا حراك ، محدقا الى عينى روغوجين بنظرة ثابتة خلال لحظات . فسطعت عينا روغوجين فى اول لحظة بمزيد من القوة كما يبدو . وابتسم روغوجين أخيرا ، ولكن بدا عليه شىء من الارتباك والحيرة .

وتمتم يقول للأمير :

— لماذا تنظر الىَّ هذه النظرة الثابتة ؟ اجلس .

فجلس الأمير . وقال :

— بارفيون ، كلمنى بصراحة . أكنت تعلم اننى سأصل الى بطرسبرج اليوم ؟

أجاب روغوجين وهو يبتسم ابتسامة ساخرة :

— كنت أقدِّر أنك قد تجىء ، وهأنت ذا ترى أننى لم أخطئ تقديرى ، ولكن كيف كان يمكننى أن أحزر أن وصولك سيكون اليوم ؟

كان العنف والحنق الغريب فى لهجة هذا السؤال الذى ألقاه روغوجين وهو يجيب ، باعثا جديدا للأمير على الدهشة . فقال الأمير برفق شاعرا بارتباك :

— وهبْك عرفت اننى سأصل اليوم ، فلماذا تغضب هذا الغضب ؟

— وأنت ، لماذا تلقى علىَّ ذلك السؤال ؟

— لأننى فى هذا الصباح ، بينما كنت أنزل من القطار ، لاحظت فى زحمة الجمهور عينين تشبهان كل الشبه العينين اللتين كنت تحدِّق بهما الىَّ من ورائى منذ برهة .

فجمجم روغوجين يقول مرتابا :

— غريب ! ترى ، هما عينا من ؟

ولكن خيّل الى الأمير أن روغوجين قد ارتعش .

قال الأمير :

— لا أدرى . كان ذلك فى زحمة الجمهور . ومن الجائز على كل حال أن أكون قد توهمت . أصبحت تنتابنى أوهام كثيرة من هذا النوع فى الآونة الاخيرة . لقد صرت ، يا عزيزى بارفيون ، فى حالة قريبة من الحالة التى كنت عليها قبل خمس سنين ، أيامَ كانت تعترينى نوبات .

دمدم بارفيون قائلا :

— جائز أنك كنت فريسة وهم . لا أدرى !

ولم تكن الابتسامة الرقيقة المرتسمة على شفتيه فى هذه اللحظة مناسبة لوجهه كما لو ان شيئا ما تحطم فيها وكما لو ان بارفيون كان عاجزا عن جمع حطامها مهما حاول .

قال يسأل :

— أأنت مسافر الى الخارج مرة اخرى ؟

ثم أضاف فجأة :

— هل تتذكر كيف سافرنا فى الخريف الماضى فى قطار من بسكوف . كنتُ مسافرا الى هنا وانت . . . هل تتذكر معطفك ولبّادتى حذاءيك ؟

وأخذ روغوجين يضحك فجأة . كان يضحك هذه المرة بكراهية صريحة كما لو سرَّه أن يجد منفذا للتعبير عنها .

سأله الأمير وهو يلقى نظرة على المكتب :

— هل استقر بك المقام هنا تماما ؟

— نعم ، أنا هنا فى بيتى . أين تريد لى ان أذهب ؟

— نحن لم نلتق منذ مدة طويلة . وقد سمعت عنك أشياء بدا لى أنه لست انت الذى قمت بها .

أجاب روغوجين :

— ما أكثر ما يقوله الناس !

— ولكنك طردت عصبتك كلها ، ولجأت الى منزل أهلك ، وأصبحت لا تعربد . هذا شئ حسن . هل المنزل لك أنت ، أم هو مشترك بين الاسرة كلها ؟

— هو لأمى . وشقتها تقع فى الجهة الاخرى من ممر المدخل .

— وأين يسكن أخوك ؟

— أخى سيميون سيميونوفتش يسكن فى الجناح الملحق .

— أهو متزوج ؟

— هو أرمل . ما حاجتك الى معرفة هذا ؟

نظر اليه الأمير دون أن يجيب . لقد أصبح مستغرقا فجأة ، فكأنه لم يسمع السؤال . ولم يلح روغوجين ، بل سكت ينتظر . ولبث الاثنان صامتين برهة من الوقت .

قال الأمير :

— حين كنت أمشى الى هنا تعرفت منزلك من على مسافة مائة خطوة !

— كيف هذا ؟

— لا أدرى اطلاقا . ان لمنزلك هيئة هى هيئة أسرتك كلها وهيئة طراز حياة أهل روغوجين . ولكن اذا سألتنى أن أشرح لك مصدر هذا الشعور عندى ، لم أستطع

أن أفعل . هذه سخافات طبعا . حتى أننى ارتعب حين أرى مدى تأثرى بهذه الامور . لم تكن فى ذهنى اية فكرة عن المنزل الذى تسكنه ، ولكن ما ان رأيته حتى قلت لنفسى : «هذا بعينه نوع المنزل الذى لا بد أن يسكنه !» .

قال روغوجين وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة غامضة ، دون أن يفلح فى ادراك الفكرة المبهمة التى قالها الأمير :

— هكذا اذن ! وان جدى هو الذى بنى هذا المنزل . وقد سكنه دائما أناس من ملة «الخصيان» ، هم آل خلودياكوف . ولا يزالون يستأجرونه حتى اليوم .

قال الأمير وهو ينظر حواليه :

— ظلام حالك ! انك تعيش فى غرفة معتمة جدا .

كانت الحجرة غرفة واسعة ، عاليا سقفها ، لا يدخلها ضوء ، مزدحمة بأشتات من الاثاث كان اغلبها من مناضد ، مكاتب كبيرة ، خزائن ملأى بالسجلات والقراطيس . وكان هناك ديوان عريض منجَّد بجلد أحمر لا شك فى أن روغوجين يستعمله سريرا . ولاحظ الأمير على المائدة التى كان روغوجين قد أجلسه بقربها ، كتابين أو ثلاثة كان أحدها ، وهو «كتاب التاريخ» الذى ألفه سولوفيوف ، مفتوحا على صفحة محدَّدة بشريطة . وقد عُلِّقت بالجدران بضع لوحات زيتية ذات أطر مذهبة باهتة ، وقد بلغت من القتامة والتشحر أن المرء لا يكاد يميز فيها شيئا البتة . غير أن هناك صورة رجل بالحجم الطبيعى لفتت نظر الأمير . هو رجل فى نحو الخمسين من العمر ، يرتدى سترة أجنبية التفصيلة ولكنها طويلة الحواف ، ويتدلى على عنقه وسامان ، وله

لحية خفيفة قصيرة شائبة ، ووجه مجعَّد أصفر ، ونظرة مرتابة متجهمة .

سأل الأمير :

— أليس هو أباك ؟

فأجاب روغوجين يقول مبتسما ابتسامة كريهة كأنما هو يتأهب لأن يقذف فورا بمزاحة ثقيلة فى حق أبيه المرحوم :

— نعم ، هو بعينه !

— أكان من المؤمنين القدامى ؟

— لا ! كان يذهب الى الكنيسة . صحيح انه قال أن الشعائر القديمة كانت أقرب الى الحق . وكان عدا ذلك يحترم ملة الخصيان . وكانت حجرة مكتبه هى هذه الحجرة التى نحن فيها الآن . لماذا سألتنى هل كان ينتمى الى المؤمنين القدامى ؟

— هل ستحتفل بالعرس هنا ؟

— هـ . . . هنا . . .

كذلك أجاب روغوجين الذى كاد أن يرتجف عند سماع هذا السؤال غير المتوقع .

— هل سيتم الزواج فى القريب ؟

— انت تعلم هل انا الذى يتوقف عليه هذا ؟

— بارفيون ، أنا لست عدوَّك ، ولست أنوى أن اقف عقبة فى طريقك . أكرر لك هذا الآن كما سبق أن أعلنته لك ذات مرة ، فى لحظة شبيهة بهذه اللحظة . انت تعلم اننى لست الذى منع زواجك حين كان على وشك ان يتم بموسكو . ففى المرة الاولى هى التى هرعت الىَّ لحظةَ زفافكما تقريبا لترجونى ان «انقذها» منك . هذه

كلماتها هى أكررها لك بنصّها . ثم هربت منى أنا أيضا .
فاهتديت انت اليها وقدتها الى الكنيسة مرة اخرى للزواج .
والآن يُقال لى انها فرّت منك من جديد وجاءت تلوذ
ببطرسبرج . هل هذا صحيح ؟ ان ليبيديف هو الذى أبلغنى
النبأ . وبسبب ذلك انما جئت . ولقد علمت أمس ،
فى القطار لاول مرة ، من فم أحد أصدقائك السابقين — وهو
زاليوجيف ، اذا أردت أن تعرف من هو — علمت أنكما
عدتما فترابطتما . ان رجعتى الى بطرسبرج ليس لها الا
هدف واحد : هو ان أقنعها أخيرا بأن تسافر الى الخارج
لتسترد صحتها . فهى مريضة جسما وروحا . رأسها ، خاصة ،
مريض ؛ وحالتها فى رأيى تتطلب عناية كبيرة . ولا أنوى
أن أصحبها ، وانما أريد أن أرتب سفرها دون أن أشاركها
فيه . أقول لك الحقيقة خالصةً . ولكن اذا صدق انكما
رتبتما أموركما من جديد ، فلن أظهر امام عينيها قط ،
ولن أضع قدمى أبدا فى بيتك . أنت تعلم أننى لا أخدعك ،
لأننى كنت صادقا معك على الدوام . لم أكتمك رأيى
فى هذا الأمر يوما ؛ قلت لك دائما أننى أعتقد بأنها
ستضيع حتما اذا هى ارتبطت بك . ولسوف تضيع أنت
أيضا . . . بل قد يكون ضياعك محتوما أكثر من ضياعها .
اذا انفصلتما من جديد ، سرّنى ذلك كثيرا ، لكننى لا
أنوى أن أحقق هذه القطيعة بينكما . فاطمئن اذن ، ولا
يخالجنك فىَّ ريب . ثم انك تعلم حقيقة الأمر : انا
لم أكن منافسا حقيقيا لك فى يوم من الأيام ، حتى حين
لجأت الىَّ ولاذت بى . هأنت ذا تضحك : اننى أعرف
سبب ضحكك . نعم ، لقد عشنا هناك ، أنا وهى ،

منفصلين ؛ بل لقد عاش كل واحد منا فى بلدتين مختلفتين .
وأنت على علم تام بهذا . ألم أشرح لك قبل الآن اننى
أحبها «لا حبا بل شفقة» . أعتقد أن التعريف صادق .
ولقد صرّحت لى حينذاك بأنك تفهم ما أريد أن أقول .
فهل هذا صحيح ؟ هل فهمتَ حقا ؟ ما أشد هذا الكره
الذى أراه فى نظرتك ! أنا أتيت لاطمئنك ، لأنك أنت
أيضا عزيز فى نفسى . اننى أحبك كثيرا يا بارفيون .
أنا ذاهب الآن ولن أعود أبدا . وداعا !

نهض الأمير . فقال له بارفيون بهدوء ، ولم يكن
قد نهض ، وانما هو ما يزال مسندا رأسه الى يده اليمنى :

— ابق معى قليلا ، فانى ما رأيتك منذ مدة طويلة .

فعاد الأمير يجلس . وساد صمت ، ثم قال روغوجين :

— حين لا تكون أمامى يا ليف نيقولايفتش ، فاننى
سرعان ما أشعر بحقد شديد عليك . اننى فى خلال
هذه الاشهر الثلاثة التى لم أرك أثناءها كنت أبغضك فى
كل لحظة من اللحظات . قسما بالرب ! فلو استطعت
لسرّنى أن اقتلك بالسمّ حتما . هذه هى الحقيقة . ولكن
ها انت هنا منذ اقل من ربع ساعة وأشعر بحقدى يزول ،
فاذا أنت عزيز فى نفسى كما كنت عزيزا فيها من قبل .
ابق معى قليلا . . .

أجابه الأمير محاولا أن يخفى عواطفه تحت ستار
ابتسامة مودة :

— حين أكون بقربك فانك تثق بى ، حتى اذا
ابتعدت عنك بارحتك ثقتك وعدت ترتاب فىَّ من جديد .
انك تشبه أباك !

— أثق بك حين أسمع صوتك . أنا أفهم أنه لا يمكن أن يكون احدنا ندا للآخر ، لا سيما أنا وانت . . .

قال الأمير وهو ينظر الى روغوجين :

— لماذا أضفت هذه الجملة الاخيرة ؟ هأنت ذا تغضب من جديد !

فأجابه روغوجين :

— لا يُسأل رأينا فى هذه الأمور يا اخى ، فهى تقرر بدوننا . — وصمت برهة ثم أردف يقول بصوت خافت :

— كل واحد منا يحب بطريقته الخاصة ، اى اننا مختلفان فى كل شئ . فأنت مثلا تقول أنك تحبها شفقةً ، أما أنا فلا أشعر نحوها باية شفقة . ثم أنها تكرهنى أشد الكره . اننى أراها الآن فى أحلامى كل ليلة : أراها مع شخص آخر ، وأراها تسخر منى . وهذا بعينه ما يحدث فى الواقع يا اخى . انها ستتزوجنى أنا ، ولكنها لا تفكر فىَّ اكثر مما تفكر فى حذاءين بدلتهما منذ لحظة . صدقنى أننى لم أرها منذ خمسة أيام ، خوفا من أن أذهب اليها . فلو ذهبت اليها لسألتنى : «لماذا جئت ؟» . . . لشد ما غمرتنى بالخزى والعار حتى الآن .

— بالخزى والعار ؟ ماذا تقصد ؟

— كأنك لا تعرف ! هربتُ منى معك حين كنا على وشك الزفاف ! انت نفسك قلت هذا منذ برهة .

— ولكنك لا تصدق ان . . .

— ألم تجللنى بالخزى والعار حين قامت فى موسكو بمغامرة مع ضابط من الضباط اسمه زمتيوجنيكوف ؟ أنا أعرف هذه الحقيقة الآن معرفة اليقين ، وقد حدث الأمر

بعد أن حدَّدت هى نفسها يوم العرس .

هتف الأمير يقول :

— مستحيل !

فقال روغوجين باقتناع :

— أنا على يقين من هذا . هل ترى أنها ليست كذلك ؟ سخافة أن تقول يا اخى أنها ليست كذلك . قد تتصرف معك أنت تصرفا آخر ، حتى لقد يُشعرها مثل هذا الفعل عندئذ بهول رهيب . ولكنها معى لا يزعها وازع كهذا ، هذه هى الحقيقة . انها لا تعدنى شيئا مذكورا ، انها لا تقيم لى اى وزن ! اننى أعلم علم اليقين أن حكاية الضابط كيللر الذى كان يمارس الملاكمة ، قد ألفتها لا لشىء الا لتجعلنى هزأة ! انك لا تعرف مدى ما لقيت منها بموسكو من عذاب ، ولا تعرف ما أنفقت بسببها من مال ! . .

سأله الأمير مرَّوعا :

— وتفكر فى تزوجها الآن ! وماذا ستفعل فيما بعد ؟

لم يجب روغوجين بشىء فى أول الأمر ، وحدج الأمير بنظرة ثابتة رهيبة . ثم قال بعد برهة صمت :

— لم أذهب اليها مرةً واحدة منذ خمسة ايام . اننى أخشى دائما أن تطردنى . انها ما تنفك تكرر قولها : «ما زلت حرة التصرف بنفسى . فاذا شئتُ طردتك طردا تاما وسافرت الى الخارج» . (هى التى حدثتنى عن هذا السفر الى الخارج — قال روغوجين هذا كما لو بين قوسين وحدق فى عينى الأمير بشكل غريب .) صحيح أنها تتكلم أحيانا بغير قصد الا أن تخيفنى . انها تجد فىَّ دائما ما يمكن أن تتخذه موضوعا للتندر والضحك . وفى أحيان

أخرى تقطّب حاجبيها ويكتسى وجهها طابع الهمّ والغم ، وتسكت فلا تنطق بحرف : وذلك هو ما أخشاه أكثر من أى شىء آخر . قلت لنفسى فى يوم من الأيام : لن أذهب اليها فارغ اليدين . فلم أحملها بهدايای الا على الضحك بل وحتى أثارت ثائرتها فيما بعد . لقد أعطت خادمتها كاتيا شالا رائعا أهديته اليها ، شالا لعلها ما رأت مثله فى حياتها قط ، رغم الترف الذى كانت تعيش فيه . وأما أن أسألها تحديد يوم الزواج فذلك أمر لا أجازف أن أذكره . أى خطيب أنا وأنا لا أجرؤ على مجرد زيارتها ؟ لهذا ترانى أقبع فى بيتى ! حتى اذا نفد صبرى ، مضيت خلسة أمرّ ذهابا وايابا فى الشارع بمنزلها او أختبئ وراء زاوية ما . منذ أيام بقيت واقفا أمام باب منزلها كالحارس الى مطلع الصبح تقريبا . كان قد تراءى لى شئ . ولا شك أنها رأتنى من النافذة ، فسألت : «ما عساك تستطيع أن تفعل بى اذا رأيت أننى أخونك ؟» واذ لم أطق صبرا أجبتها قائلا : «أنت تعرفين» .

سأله الأمير :

— ما الذى تعرفه ؟

— أنىَّ لى أن أعلم !

قال روغوجين ذلك وهو يضحك ضحكة خبيثة . وواصل كلامه فقال :

— لم أستطع ، بموسكو ، أن أفاجئها مع أحد ، رغم أننى تجسست عليها مدة طويلة . فأخذتها مرة وقلت لها : «لقد وعدتنى بأن تتزوجينى . وستدخلين أسرة محترمة . هل تعرفين ماذا أنت الآن ؟ أنظرى ماذا انت !» .

— أقلتَ لها هذا ؟

— نعم .

— وبعد ؟

— قالت : «أنا الآن ربما كنت لا أرضاك خادما ناهيك عن أن اكون زوجتك» . فأجبتها : «وأنا لن أتحرك من هذا المكان . سيان عندى» . فقالت : «وأنا سأنادى كيللر وسأمره أن يطردك ويلقى بك خارج الباب» . فهجمت عليها ، فما زلت أضربها حتى تغطى جسمها ببقع زرقاء .

صاح الأمير يقول :

— هذا مستحيل !

فقال روغوجين مؤكدا بصوت خافت ، ولكن عينيه كانتا تلتمعان :

— اقول : هذا ما حدث . وظللت يوما ونصف يوم على وجه الدقة لا أنام ولا أشرب ولا آكل ولا أغادر الغرفة . ظللت راكعا على ركبتى أمامها أقول لها : سأموت ، لكننى لن أخرج ما لم تغفرى لى ، واذا أمرت بطردى ، فسأنتحر غرقا ، اذ ما عساى أصبح بدونك ؟» . وظلت هى طول النهار كالمجنونة ، فتارة تبكى ، وتارة تريد ان تقتلنى بسكين ، وتارة تسخر منى . واستدعت زاليوجيف وكيللر وزمتيوجنيكوف وسائر الآخرين ، لتريهم حالى ولتذلّنى أمامهم . «هلموا نذهب جميعا الى المسرح هذا المساء ايها السادة ، وليبق هو هنا اذا لم يشأ أن ينصرف ، فلا أريد أن اقبع بالبيت لأحرسه . . سُيقدَّم اليك الشاى فى غيابى يا بارفيون سميونوفتش ، لا بد أنك اليوم جائع» . ورجعتْ من المسرح وحيدة . وقالت لى : «انهم اوغاد جبناء . . انهم يخافون

منك ، ويريدون أن يخيفونى أنا أيضا منك . قالوا لى : «انه لن ينصرف هكذا . . . انه سيذبحك» ، ولكننى ، أنا ، حين سأمضى الى غرفتى للنوم بعد قليل ، لن أقفل الباب بالمفتاح ، فانظر الى أى حد أخاف منك ! أريد أن تعرف هذا وأن تراه . هل شربت شايا ؟» «لا ، ولن أشرب» . «كما تشاء ، ولكن هذا لا يناسبك كثيرا» . وفعلت ما قالت . لم تقفل الباب بالمفتاح . وحين خرجت في الصباح من غرفتها أخذت تضحك ، قالت : «أتراك جننت ؟ أتريد أن تموت من الجوع حقا ؟» قلت لها : «اغفرى لى !» «لا أريد أن أغفر لك . ولقد أنبأتك بأننى لن أتزوجك . هل لبثت على هذا المقعد حقا طوال الليل بدون أن تنام ؟» «نعم ، لم أنم لحظة واحدة» . «ما أعظم ذكاءك ! ألن تحتسى شيئا من الشاى ؟ ألن تتغدى أيضا ؟» «لا . لا أريد الا أن تغفرى لى» «ليتك تعلم الى أى حد لا يناسبك هذا الوضع ! انه لا يناسبك أكثر مما يناسب البقرة أن يوضع على ظهرها سرج . أتراك تتصور أنك بهذا تخيفنى ؟ ولكن فيم يهمنى أنا أن يكون بطنك خاويا ؟ ما أشد خوفى !» وغضبتْ . لكن غضبها لم يدم طويلا ، وعادت الى التهكم علىَّ . اندهشت : لماذا يزول غضبها علىَّ بمثل تلك السرعة ؟ هى حقودة وتغضب على الآخرين مدة طويلة . عندئذ خطر ببالى أننى فى نظرها أهون شأنا من أن تحقد علىَّ مدة طويلة . هذه هى الحقيقة . فقد سألتنى : «هل تعرف ما البابا فى روما ؟» فأجبتها : «سمعت عنه» . قالت : «لم تدرس التاريخ العام يوما يا بارفيون سيميونتش .» «لم أدرس شيئا» . «اذن سأعطيك

كتابا تقرأ فيه قصة بابا غضب من امبراطور ، فاضطره أن يظل ثلاثة ايام لا يشرب ولا يأكل ، جاثيا على ركبتيه ، حافى القدمين ، عند مدخل قصره ، الى أن تفضل فعفا عنه وغفر له . هل تتصور ما قد دار فى ذهن الامبراطور الراكع من أفكار خلال تلك الأيام الثلاثة ، وما قد حلف بينه وبين نفسه من أيمان ؟ ولكن انتظر : سأقرأ عليك هذا بنفسى» . وركضت تجىء بالكتاب . وقالت لى : «هى أشعار» . واخذت تقرأ علىَّ فقرة يدور الكلام فيها على مشاريع الانتقام التى آلى ذلك الامبراطور على نفسه لينفذنَّها ، بينما كان راكعا مذلا خلال تلك الايام الثلاثة . وأضافت تسألنى : «هل يمكن أن لا يعجبك هذا يا بارفيون سميونوفتش ؟» قلت لها : «ان كل ما قرأته صحيح» . «ها . . . انك ترى هذا صحيحا . واذن فلعلك أنت أيضا تقول لنفسك : «حين تصبح زوجتى ، فسأنتقم منها وأتهكم عليها !» «لا أدرى ! ذلك ممكن !» كيف لا تدرى ؟» «لا أدرى . ليس هذا ما أفكر فيه الآن» . «فى أى شىء تفكر اذن ؟» «اليك ما أفكر فيه : حين تنهضين ، وتمرين بقربى ، فاننى أنظر اليك ، وأتابعك بعينىَّ ، وأسمع حفيف ثوبك ، فيسقط قلبى ؛ وحين تغادرين الغرفة ، أتذكر كل كلمة من كلماتك بلهجتها ؛ وطوال الليل لم أفكِّر فى شىء ، انما كنت أصغى الى أنفاسك ، ولاحظت أنك تحركت فى سريرك مرتين . . .» قالت ضاحكة : «لعلك نسيت اللكمات التى هويت بها علىَّ ولا تفكر فيها ؟» «ربما كنت أفكر فيها ، لا أدرى . . .» «فماذا اذا لم أغفر لك ولم أتزوجك ؟» «سبق أن قلت لك : ألقى بنفسى فى الماء فأموت غرقا» .

«وقد تقتلنى قبل أن تلقى نفسك فى الماء» . . . قالت ذلك واستغرقت . ثم غضبت وخرجت . وبعد ساعة عادت فقالت لى عابسة : «سوف أتزوجك يا بارفيون سميونوفتش . لا لأننى أخشاك ، فانه ليستوى عندى أن أهلك بهذه الطريقة او بتلك . فأين أجد مخرجا أفضل ؟ اجلس . سوف تؤتى بغدائك . واذا تزوجتك فسأكون امرأة وفية ، فلا تشك فى هذا ، ولا تقلق» . وأضافت تقول بعد برهة صمت : «يعنى أنت لست خادما ، كنت أعدُّك من قبل خادما حقيقيا» . وهنا حدَّدت موعد زواجنا . غير أنها هربت منى بعد اسبوع ولجأت الى ليبيديف . ولما وصلتُ الى بطرسبرج قالت لى : «أنا لم أعدل عن زواجك اطلاقا ، لكننى أريد أن أتمهل قدر ما أشاء ، وما زلت حرة التصرف بنفسى ، فانتظر أنت أيضا ، اذا شئت أن تنتظر» . هذه هى احوالنا الآن . . . ما رأيك فى هذا كله يا ليف نيقولايفتش ؟

فأجاب الأمير وهو ينظر الى روغوجين بحزن :

— ما رأيك أنت ؟

فهتف روغوجين قائلا :

— هل لى أنا من رأى ؟!

وأراد أن يضيف شيئا ، لكنه أمسك عن الكلام ، وقد ألمَّ به كرب شديد .

نهض الأمير من جديد لينصرف . وقال بصوت خافت وفى شىء من الاستغراق كأنما هو يجيب عن سؤال خفى يطرحه هو نفسه فى باطنه :

— على كل حال ، لن أكون عقبة فى طريقك .

قال روغوجين فجأة وقد انتعش وسطعت عيناه :

— إسمع ما سأقوله لك ! لا أفهم لماذا تتنازل لى عنها هذا التنازل ؟ أتكون قد كففت عن حبها تماما ؟ كنتَ فى السابق حزينا مغموما . لاحظت أنا هذا بوضوح . ولماذا جئت الى هنا مسرعا ذلك الاسراع كله ؟ أمن باب الشفقة ؟ (وقد تقلصت شفتاه بابتسامة ساخرة) هىْ ، هىْ !

سأله الأمير :

— أتظن أننى أخدعك ؟

— لا . أننى أثق بك . لكننى لا أفهم شيئا فى موقفك . اغلب الظن أن شفقتك أعنف من حبى .

ولمع فى وجهه شىء كالكراهية يرغب فى الافصاح عن نفسه حالا ومن كل بد .

قال الأمير مبتسما :

— ان حبك لا يختلف عن الكره . وبعد ان ينقضى الحب من المحتمل أن يكون الأمر أنكى وأدهى . أنا الذى أقول لك هذا يا عزيزى بارفيون .

— تقصد أننى سأذبحها ؟

ارتعش الأمير . وقال :

— ستكرهها كرها رهيبا ، بسبب هيامك بها الآن ، وبسبب ما تتحمله اليوم من آلام . أما بالنسبة لى فاغرب شىْ هو كيف وافقت مرة اخرى ان تتزوجك ؟ حين سمعت الامس بهذا لم أكد أصدِّقه ، وشعرت منه بحزن كبير . لقد سبق أن غيَّرت رأيها مرتين فتركتك قبل الزواج تماما . معنى هذا أنها كانت توجس شيئا ! . . فما الذى يمكن أن يردَّها الآن نحوك ؟ أهو مالك ؟ سخافات ، لا سيما وأنك قد بدَّدت حتى الآن جزءا كبيرا من ثروتك . فهل

يكون السبب هو الرغبة فى الزواج لا أكثر من ذلك ؟ ولكن فى وسعها أن تجد زوجا آخر غيرك . وأى زوج آخر خير لها منك ، لأنك أنت قد تذبحها ، ولعلها توجس هى ذلك وتتنبأ به . أيكون عنف هيامك هو الذى يجذبها اليك ؟ قد يكون الأمر كذلك . . . لقد سمعت أن هناك نساء يعشقن هذا النوع من العشق . . . ولكن . . .

وأمسك الأمير عن الكلام وشرد فكره .

سأله روغوجين الذى كان يرصد أيسر حركة من حركات وجهه :

— لماذا ابتسمت أيضا حين نظرت الى صورة أبى ؟

— لماذا ابتسمت ؟ ابتسمت لفكرة خطرت ببالى ، هى أنك لولا هذا الهيام وهذا الحب ، لأصبحت مثل أبيك تماما خلال فترة وجيزة من الزمن : تحبس نفسك فى هذا المنزل مع زوجة مطيعة بكماء ، ولا يسمع منك أحد الا كلاما قليلا قاسيا ، ولا تصدّق انسانا بل ولا تشعر بالحاجة الى أن تثق بانسان ، وتكتفى بأن تجمع المال عابسا وفى صمت . وفى أكثر تقدير ، تهتم عند نهاية العمر بالكتب القديمة ، وترسم اشارة الصليب بأصبعين . .

— اسخر منى ! لقد قالت لى هذا الكلام نفسه بالضبط منذ مدة غير طويلة ، حين نظرت الى هذه الصورة . ما أغرب التقاء رأيكما الآن فى كل شىء . . .

سأله الأمير باستطلاع :

— هل جاءت الى بيتك ؟

— نعم ، وتأملت الصورة طويلا وسألتنى عن المرحوم ، وختمت كلامها مبتسمة : «ذلك ما كنتَ ستصير اليه بمضى

الزمن . ان لك اهواء عنيفة عارمة يا بارفيون سيمينوفتش ، اهواء تبلغ من العنف والعرامة أنها يمكن أن تؤدى بك الى سيبيريا ، الى الأشغال الشاقة ، لولا أنك ذكى ، ذلك أنك ذكى جدا» (تلك كانت كلماتها بنصها . هل تصدقنى ام لا ؟ وكانت هذه اول مرة تقول لى فيها ذلك !) . وأضافت تقول : «كان يمكن أن تترك جميع السخافات التى تتعلق بها اليوم بعد فترة وجيزة ؛ واذ أنك محروم من الثقافة كليا ، فانك كنت ستنصرف عن كل شىء الا جمع المال . كنت ستبقى فى بيتك ، كأبيك ، مع أصحاب ملة «الخصيان» ، حتى لقد ينتهى بك الأمر الى اعتناق ملتهم . أنك تحب مالك حبا يبلغ من القوة أنك قد تجمع لا مليونين بل ربما عشرة ملايين ، قد تموت جوعا فوق أكياس الذهب التى تملكها ، لأنك تفعل كل شىْ بولع عنيف ، ولا يقود خطاك الا الولع العنيف !» . ذلك ما قالته لى بنصه ، كلمة كلمة على وجه التقريب . لم تكن قد كلمتنى بهذه اللغة فى يوم من الأيام . انها لا تحدثنى عادة الا فى سفاسف وترّهات ، أو هى تأخذ تسخر منى وتتهكم علىّ . وفى تلك المرة بدأت بالاستهزاء ، ثم تجهم وجهها وأظلم . واستعرضت المنزل كله وبدا كأنها كانت تشعر بخوف من شىْ ما . قلت لها : «سوف أغير هذا كله ، وأعيد ترتيبه ، أو سوف أشترى منزلا آخر لزواجنا» . فأجابتنى قائلة : «لا ، لا ، ما ينبغى تغيير شىء هنا . سنعيش على هذا النسق نفسه . أريد أن أقيم بقرب امك حين أصبح زوجتك .» . وقُدتها الى أمى . فأظهرت لها احتراما كاحترام البنت أمَّها . ان أمى مريضة منذ سنتين ، وقد أصبحت لا تملك قواها

العقلية كاملة ، ولا سيما بعد أن مات أبى ، فكأنها ارتدت الى الطفولة منذ ذلك الحين . ساقاها مشلولتان . وهى لا تتكلم . ولا تزيد على أن تهز رأسها لن يقصدونها . أظن أنها قد تظل ثلاثة أيام لا تطلب شيئا اذا لم تؤت بطعامها . وقد تناولتُ يد أمى اليمنى ، فضممت أصابعها لرسم اشارة الصليب ، وقلت لها : «باركيها يا أمى ، فسوف تكون زوجتى» . وعندئذ قَبلتْ يد أمى بحرارة وقالت : «يبدو لى أن أمك تألمت كثيرا» . وحين لمحت هذا الكتاب الذى تراه سألتنى : «ما هذا ؟ أأخذت تقرأ «تاريخ روسيا» اذن ؟» (هى التى قالت لى ذات يوم بموسكو : «الأحرى بك أن تتثقف قليلا ، فتقرأ «تاريخ روسيا» لسولوفييف على الأقل لانك لا تعرف شيئا البتة !») . وأضافت تقول : «أحسنت . استمر ! سأضع لك بنفسى قائمة بالكتب التى يجب عليك ان تقرأها قبل كل شىء ، هل تريد ؟» . لم تكن قد كلمتنى بهذه اللهجة فى يوم من الأيام ، أبدا . حيث اذهلتنى دهشة شديدة . . . ولأول مرة شعرت أننى انسان حى .

قال الأمير بصدق :

— يسرنى هذا كثيرا يا بارفيون ، يسرنى كل السرور . من يدرى ؟ قد يشاء الله أن يجمع بينكما .

فصاح روغوجين يقول مندفعا :

— لن يكون هذا أبدا !

— اسمع يا بارفيون : اذا كنت تحبها هذا الحب كله ، فهل يُعقل أن لا تحرص على أن تستحق اعتبارها واحترامها ؟ واذا كنت تحرص على ذلك ، فهل يُعقل ان تيأس من الوصول اليه ؟ لقد قلت لك منذ قليل أننى اتساءل :

لماذا قبلت ان تتزوجك ؟ هنا شىء غريب لا أستطيع أن أجيب عن هذا السؤال ولكننى على يقين أن هناك ثمة سببا واعيا كافيا . انها مقتنعة بحبك ، ولكنها مقتنعة أيضا بأن لك مزايا معينة . لا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك ! وما ذكرته لى الآن يأتى مؤيدا لاعتقادى هذا . أنت نفسك تقول أنها استطاعت أن تخاطبك بطريقة مختلفة كل الاختلاف عن الطريقة التى كانت تعمد اليها من قبل فى مخاطبتك . انت كثير الشك شديد الغيرة ، وذلك هو السبب فى أن خيالك ضخَّم الشىء السيئ الذى لاحظته فى كلامها . مما لا شك فيه أن رأيها فيك ليس سيئا الى الحد الذى يعبر عنه لسانك . والا كان علينا أن نسلِّم بأنها اذا تزوجتك فكأنها تحكم على نفسها ، متعمدة ، بأن تهلك غرقى او مذبوحة . هل هذا معقول ؟ من ذا الذى يريد أن يهلك متعمدا غارقا أو مذبوحا ؟

كان بارفيون يصغى الى كلمات الأمير المضطربة ، وهو يبتسم ابتسامة مريرة ، وكان مقتنعا برأيه اقتناعا ثابتا كما يبدو .

وهتف الأمير بألم شديد :

— ما أثقل نظرتك التى تنظر بها الىَّ الآن يا بارفيون !

وقال روغوجين أخيرا :

— ان تهلك غرقى أو مذبوحة ! هيه ! تتزوجنى من اجل أن تُذبح بيدى حتما ! هل يُعقل يا أمير أن لا تكون قد فهمت حقيقة الأمر فى هذه القضية كلها بعد ؟

— لا أدرك ماذا تعنى .

— جائز أن لا يفهمنى على كل حال ! هيه ، هيه !

يزعم بعضهم أنك **ضعيف العقل** ! انها تحب رجلا آخر . عليك أن تدرك هذا . انها تحب الآن رجلا آخر كما أحبها أنا . وهذا الرجل الآخر ، هل تعلم من هو ؟ انه **انت** ! ماذا ؟ ألم تكن تعرف هذا ؟

— أنا !

— نعم ، أنت . لقد أحبتك منذ حفلة عيد شفيعها . لكنها تقدر أنه يستحيل عليها أن تتزوجك ، فبرأيها ، لو تزوجتك لجللتك بالعار ، ولأفسدت مستقبلك . هى تقول : «الناس تعلم من انا» . انها لا تزال تكرر هذا الكلام حتى الآن ، وقالت لى صراحة كل هذا . هى تخشى عليك أنت أن تضيعك وأن تلطخ شرفك بالعار . أما أنا ففى وسعها أن تتزوجنى ، فليس فى هذا ضير . تلك هى قيمتى عندها . احفظ هذا !

— ولكن كيف أمكن أن تهرب منك وأن تلجأ الىَّ ثم تهرب منى . .

— لتعود الىَّ ؟ هه . . . لا يستطيع المرء أن يعرف ماذا يدور فى رأسها ! تبدو الآن كما لو كانت فى حالة حمى ! يوما تصيح قائلة لى : «اننى اتزوجك وكأننى اغرق نفسى ، فلنعقد القران باقصى سرعة !» ، وتمضى تتعجل الاستعدادات بنفسها ، وتحدد يوم الزفاف . . . حتى اذا اقترب ذلك اليوم خافت أو راودتها أفكار أخـــرى ، الله أعلم ! لقد رأيتها بعينيك : انها تبكى ، وتضحك ، وتتخبط هنا وهناك كالمحمومة . فاى غرابة فى أنها هربت منك أنت أيضا ؟ لقد هربت منك لانها أدركت عنف الهوى الجارف الذى تحمله لك . كان بقاؤها بقربك فوق

طاقتها . زعمت منذ قليل اننى اهتديت اليها بموسكو . ليس هذا صحيحا . انها هى التى سارعت الىَّ هاربة منك ، وصرخت : «حدد يوما للزواج ، أنا مستعدة ! احضر شمبانيا ! وهلم نسمع الغجريات !» . لولاى لألقت نفسها فى الماء منذ مدة طويلة . أؤكد لك . واذا كانت لا تلقى بنفسها فى الماء حتى الآن ، فربما كان ذلك يرجع الى أنها ترانى أفظع من الموت غرقا . انها توافق على ان تتزوجنى حنقا . . . اذا تزوجتنى فأنا مقتنع أن السبب فى هذا **حنق** .

هتف الأمير يقول :

— ولكن كيف ترضى أنت أن . . . كيف . . .

ولكنه لم يكمل كلامه . وكان ينظر الى روغوجين مروّعا . فسأله روغوجين وهو يبتسم ابتسامة ساخرة :

— لماذا لا تكمل سؤالك ؟ هل تريد أن أقول لك فى أى شىء تفكر فى هذه اللحظة ؟ «كيف يمكن أن تتزوجه الآن ؟ كيف يمكن قبول مثل هذا الزواج ؟ أعرف ما يدور فى ذهنك . . .

— اعود فأكرر لك يا بارفيون أننى لم أجىء اليك لهذا الغرض ، وان الفكرة التى كانت فى ذهنى ليست هذه الفكرة .

— جائز أن لا تكون قد جئت لهذا الغرض ، وأن لا تكون الفكرة أول الأمر هى هذه الفكرة ، ولكن لا شك فى ان هذا هو ما جئت من أجله . هىْ هىْ ! كفاية اذن ! لماذا اضطربت هذا الاضطراب كله ؟ هل كنت لا تعرف شيئا من ذلك حقا ؟ انك لتدهشنى !

تمتم الأمير يقول وقد بلغ ذروة الانفعال :

ـ ذلك كله غيرة يا بارفيون ! هذا مرض . انك تبالغ الى اقصى حد . . . ماذا بك ؟

ـ دعها !

قال بارفيون هذا واسرع ينتزع من يدى الأمير سكينا صغيرة تناولها الأمير من على المائدة بقرب الكتاب ، وأعاد السكين الى مكانها .

وواصل الأمير كلامه فقال :

ـ لكأننى كنت واجس هذا كله حين وصلت الى بطرسبرج . . . لم أكن أحب أن أجئ الى هنا . . . كنت أريد أن أنسى كل ما حدث هنا ، وأن أستأصله من قلبى استئصالا ! هيًا . . . وداعا ! . . ولكن ماذا بك ؟

كان الأمير ، اثناء الكلام ، قد تناول السكين مرة اخرى ذاهلا . فانتزع روغوجين السكين من يده ، ورماها على المائدة . سكين غير مطوية ذات شكل بسيط . قبضتها من قرن وعلى ، ونصلها يبلغ طوله نحو خمسة عشر سنتمترا ، وعرضها يناسب هذا الطول .

فحين لاحظ روغوجين أن ما يلفت نظر الأمير خصوصا هو انتزاع السكين من يديه مرتين ، تناول السكين غاضبا ودسّها فى الكتاب ثم رمى الكتاب على مائدة اخرى .

سأله الأمير ذاهلا كما لو انه ما زال مستغرقا فى تفكيره :

ـ أأنت تستعملها قطّاعة ورق ؟

ـ نعم . . .

ـ لكنها سكين حديقة . أليس كذلك ؟

ـ نعم ، سكين حديقة . وهل يستحيل قطع صحائف

الورق بسكين حديقة ؟

ـ لكنها . . . جديدة تماما .

ـ أى ضير فى هذا ؟ ألا أستطيع الآن أن اشترى سكينا جديدة ؟

كذلك صاح روغوجين أخيرا وقد انتابه حنق شديد . وكان غضبه يزداد عند كل كلمة يقولها .

ارتعش الأمير وحدّق الى روغوجين . ثم ضحك فجأة وقد ثاب اليه وعيه كاملا وقال :

ـ ما دهانا ؟ اعذرنى يا أخى . حين يثقل رأسى ويعاودنى مرضى كما حدث لى الآن . . . أصبح ذاهلا ذهولا مضحكا . ليس ذلك هو السؤال الذى كنت أريد أن ألقيه عليك . . . نسيت ما الذى كنت أريد أن أسألك عنه . وداعا .

قال روغوجين :

ـ ليس هذا هو الطريق .

ـ نسيت !

ـ من هنا ! سأريك الطريق !

الفصل الرابع

اجتازا الحجرات نفسها التى سبق أن قطعها الأمير . كان روغوجين يتقدمه قليلا . ودخلا الصالون الكبير الذى كانت معلقة بجدرانه لوحات هى جميعا صور اساقفة ومناظر طبيعية لا يميِّز المرء فيها شيئا . ان فوق الباب المفضى الى الغرفة المجاورة لوحة شكلها غريب ، فطولها يبلغ زهاء مترين وعلوها لا يزيد على ثلاثين سنتمترا . انها تمثل يسوع المسيح ، المخلِّص ، نُزل للتو عن الصليب . ألقى الأمير على الصورة نظرة سريعة وكأنه تذكر شيئا ما ، لكنه لم يتوقف . وهمَّ أن يتخطى العتبة . كان يشعر بثقل فى قلبه ، ويتعجل مغادرة هذا المنزل . لكن روغوجين توقف فجأة امام اللوحة . وقال :

— جميع هذه اللوحات التى تراها هنا انما اشترى المرحوم أبى كل واحدة منها بروبل أو روبلين فى مبيعات عامة . كانت له هذه الهواية . وقد فحص اللوحات رجل خبير ، فوصفها جميعا بأنها رديئة ، الا هذه التى تراها فوق الباب والتى اشتراها أبى بروبلين أيضا . . . فقد وصفها بأنها ليست رديئة . وُجد مَنْ عرض على والدى أن يشتريها منه بثلاثمائة وخمسين روبلا ؛ حتى أن ايفان دمترش سافليف ، وهو تاجر من كبار هواة الصور ، قد عرض عليه اربعمائة روبل ثمنا لها . وفى الاسبوع الماضى عرض علىَّ أخى سيمون سيميونوفتش خمسمائة روبل ؛ ولكننى احتفظت بها لنفسى .

قال الأمير وقد اتسع وقته لانعام النظر الى اللوحة :

— ولكن . . . ولكن هذه اللوحة منسوخة عن لوحة هانس هولباين° . ويخَّيل الىَّ انها نسخة ممتازة ، رغم أننى لست على جانب كبير من الخبرة فى هذا المجال . لقد رأيت هذه اللوحة فى الخارج ، ولا أستطيع أن أنساها . ولكن ماذا . . . ماذا بك ؟

كان روغوجين قد ترك اللوحة فجأة ، واستأنف السير . صحيح أن ما كان قد اعترى روغوجين فجأة من ذهول واهتياج غريب غير عادى يمكن أن يعلل تقلبات مزاجه هذه . غير أن الانقطاع المباغت عن حديث لم يكن الأمير هو الذى بدأه وامتناع روغوجين عن الردّ على سؤاله قد بدآ للأمير شيئا غريبا .

وهذا هو روغوجين يسأل الأمير على حين فجأة بعد بضع خطوات :

— قل لى يا ليف نيقولايفتش . . . كنت أريد منذ مدة طويلة أن ألقى عليك هذا السؤال : أأنت تؤمن بالله ام لا ؟

قال الأمير على غير ارادة منه :

— ما أغرب سؤالك . . . وما أغرب نظرتك ! . .

ودمدم روغوجين بعد صمت ، كأنه قد نسى سؤاله مرة اخرى :

— اننى أحب أن أنظر الى هذه الصورة !

فهتف الأمير فجأة وقد ساورته فكرة مباغتة :

— هذه الصورة ! ان هذه الصورة يمكن أن تُفقد المرء ايمانه !

فقال روغوجين مؤيدا كلام الأمير على غير توقع :

— حقا . . . انها تفقد المرء ايمانه ! . .

وكانا قد بلغا باب الخروج . فقال الأمير وهو يتوقف فجأة :

— كيف ؟ ماذا تقول ! أنا قلت كلامى من باب المزاح تقريبا ، وأنت تأخذه مأخذ الجد ! لماذا سألتنى منذ لحظة هل أؤمن بالله ؟

— لا لشىء . . . هكذا . . . وكنت أريد أن ألقى عليك هذا السؤال من قبل . ان فى هذه الأيام اناسا كثيرين لا يؤمنون بالله . لقد عشتَ فى الخارج . فهل صحيح ما كان يقوله لى احد السكارى من أن الذين لا يؤمنون بالله هم فى بلادنا ، روسيا ، أكبر عددا منهم فى أى بلد آخر ؟ لقد قال : «هذا الأمر أسهل علينا منه على الآخرين ، لأننا سرنا شوطا أبعد . . .» .

وابتسم روغوجين ابتسامة ساخرة . انه حين ألقى سؤاله كان قد فتح الباب فجأة ، وانتظر خروج الأمير واضعا يده على قبضة الباب . ودُهش الأمير ، لكنه تخطى العتبة ، وتبعه روغوجين الى فسحة السلّم مغلقا الباب وراءه . وبقى الرجلان واقفين وجها لوجه ، وكأنهما لا يعرفان الى اين وصلا من أمرهما ولا ما الذى يجب عليهما ان يفعلاه .

قال الأمير وهو يمد الى روغوجين يده :

— طيب . . . استودعك الله !

فردّ روغوجين وهو يشد على اليد الممدودة اليه شدا قويا ، ولكن على نحو آلى تماما :

— استودعك الله .

وهبط الامير درجة ثم التفت يقول لروغوجين مبتسما

(كان واضحا أنه لا يريد أن يتركه على تلك الحال) .

وقد شحذت همته ، عدا ذلك ، ذكرى مباغتة :

— فيما يتعلق بالايمان ، قد حدثت لى فى الاسبوع الماضى أربع مقابلات فى غضون يومين . ففى ذات صباح ، أثناء سفرى على خط جديد من خطوط السكة الحديدية ، ظللت أتحدث زهاء أربع ساعات مع رجل اسمه س . . . ، كنت تعرفت اليه حينذاك فى العربة . كنت قد سمعت عن هذا الرجل كثيرا قبل ذلك ، فعرفت فيما عرفت أنه ملحد حقا . انه رجل غزير الاطلاع ، وقد سرّنى أن أتيحت لى فرصة المناقشة مع عالم حقيقى . وكان فوق ذلك انسانا جمّ التهذيب ، فكان يكلمنى كما يكلم ندا له فى سعة العلم وسداد الرأى . انه لا يؤمن بالله . غير أن هناك شيئا أدهشنى هو أنه طوال مدة حديثنا بدا كما لو لم يتحدث اطلاقا عما ينبغى له التحدث عنه وذلك أدهشنى خصوصا لأننى قبل ذلك ، كلما التقيت بزنادقة أو قرأت كتبا تذهب هذا المذهب ، كان يبدو لى دائما أن هؤلاء الناس يتكلمون ويكتبون فى كتبهم اشياء لا تتعلق اطلاقا بالأمر ، وان بدا من الظاهر انها تتعلق بالأمر . وقد عرضت على الرجل شعورى هذا ، ولكن لعلنى عرضته عليه عرضا مبهما أو لعلنى لم أحسن التعبير ، لأن الرجل لم يفهم من كلامى شيئا البتة . . . وفى المساء حللت بنُزُل للمبيت . وكانت جميع المناقشات ، عند وصولى ، تدور على جريمة قتل ارتكبت فى الليلة السابقة ، خلاصتها ان اثنين من الفلاحين ليسا شابين ولا كانا سكرانين ، وهما صديقان منذ مدة طويلة ، قد قررا بعد احتساء الشاى أن يبيتا فى غرفة واحدة .

ولكن أحدهما كان قد لاحظ منذ يومين أن رفيقه يملك ساعة من فضة معلقة بحبل مزدان بلآلىء من زجاج اصفر. من الظاهر انه لم يكن الرفيق قد رأى هذه الساعة فى حوزة رفيقه من قبل . ليس الرجل لصا ، حتى لقد كان مستقيما ؛ ولا كان فقيرا اذا قيس بغيره من الفلاحين . غير أن هذه الساعة قد أعجبته واغرته الى حد أصبح لا يستطيع معه أن يتمالك نفسه . فلما رأى رفيقه ينكفئ الى الجهة الاخرى ، استلَّ سكينه ، وتسلل اليه من وراء محاذرا ، وحسب ضربته ، ورسم اشارة الصليب رافعا عينيه الى السماء ، وتمتم يدعو اللّه بلهجة مرة : «اغفر لى يا رب ، باسم يسوع المسيح !» ، ثم ذبح رفيقه بضربة واحدة ، كما يُذبح خروف ، وأخذ منه ساعته .

انفجر روغوجين يضحك ضحكا شديدا كمن اعترته نوبة عصبية . فكان هذا الضحك يثير الدهشة بعد المزاج القاتم الذى كان يستبد به منذ قليل . وأخذ روغوجين يصرخ فى تشنج ، والضحك يخنقه او يكاد :

— هذا ما يعجبنى ! لا ، هذا أجمل من كل شىء ! الأول لا يؤمن باللّه البتة ، والثانى يؤمن به ايمانا يبلغ من القوة أنه يذبح الناس وهو يتلو دعاءه . . . لا يا أمير ، يا أخى ، هذا شىء لا يمكن اختراعه . ها ها ها ! لا ، هذا أجمل من كل شىء ! . .

وما ان هدأ روغوجين قليلا ، وان كان الضحك ما يزال يُرعش شفتيه على تشنج عصبى ، حتى استأنف الأمير كلامه فقال :

— وفى صباح الغد خرجت أتجول بالمدينة قليلا .

فرأيت جنديا سكران ، قد اختلت ثيابه تماما ، وراح يمشى على الرصيف الخشبى مترنحا . وها هو ذا يقترب منى ويقول لى : «اشتر منى هذا الصليب يا سيدى . انه من فضة . وأنا أبيعك أياه بعشرين كوبيكا لا أكثر ، وهو من فضة» . رأيت فى يده صليبا مربوطا بشريط أزرق مهترئ تماما لا بد أنه قد انتزعه من عنقه للتو . ولكن الصليب من قصدير صرف ، ذلك أمر تراه العين من أول نظرة . هو صليب كبير الابعاد ، من الطراز البيزانطى ، ذو ثمانية أفرع . أخرجت من جيبى عشرين كوبيكا ، وأعطيتها اياه ، ولم ألبث أن علقت الصليب بعنقى . ما كان أعظم فرحه بأنه استطاع أن يغش سيدا ساذجا ! لقد رأيت هذا الفرح على وجهه . وانطلق على الفور يشرب بثمن صليبه خمرا ، لا شك فى ذلك البتة ! وقتئذ كنت يا أخى تحت تأثير شديد مما انهال علىَّ فى روسيا من انطباعات . كنت فى الماضى لا أفهم من أمر بلدى شيئا ، كأننى ترعرعت مخلوقا أعجم . وفى الخارج ، اثناء السنين الخمس التى عشتها هناك ، لم أكن قد احتفظت عن روسيا الا بذكرى خيالية . تابعت سيرى وأنا أقول لنفسى : لا ، سأنتظر مدة اخرى قبل أن أدين خائن المسيح هذا . اللّه وحده يعلم ما يحدث فى قلوب هؤلاء السكارى الضعيفة ! وبعد ساعة ، بينما كنت عائدا الى النُّزُل ، صادفت امرأة تحمل رضيعا . ان المرأة ما تزال شابة ، ولعل الطفل فى الاسبوع السادس من عمره . لقد لاحظتْ أن الطفل ابتسم لها لأول مرة منذ ولادته ، فاذا هى ترسم على نفسها اشارة الصليب بكثير من التقى . سألتها (وكنت آنذاك أسائل الناس

دائما) : «ماذا بك ايتها الشابة ؟» . فأجابتنى قائلة : «كفرحة الأم التى ترى أول ابتسامة فى ثغر ابنها هى فرحة الرب كل مرة حين يرى من علياء سمائه مذنبا يدعوه دعاء صادقا من أعماق قلبه» . انها امرأة بسيطة تلك التى عبّرت لى ، بهذه الألفاظ نفسها تقريبا ، عن فكرة مرهفة وعميقة ودينية حقا الى اقصى حد ، فكرة تعبر دفعةً واحدة عن روح الديانة المسيحية كلها ، وهى أن الرب ابونا جميعا ، وأن فرحة الرب بالانسان كفرحة الأب بابنه ! هذه فكرة أساسية من أفكار المسيح ! هى امرأة بسيطة ! صحيح انها ام . . . ومن يدرى ؟ فلربما كانت زوجة ذلك الجندى . اسمع يا بارفيون ، لقد سألتنى منذ قليل ، فاليك جوابى : ان جوهر العاطفة الدينية مستقل عن جميع البراهين ، وجميع الافعال السيئة وجميع الجرائم وجميع مذاهب الالحاد . ان فى هذه العاطفة شيئا آخر سيبقى ابد الدهر وستتناوله مذاهب الالحاد ابد الدهر وستقول اشياء **لا تتعلق بالامر** ابد الدهر . غير أن أهمَّ شىء هو أن هذا يلاحظ فى النفس الروسية أسرع وأوضح مما فى شىء آخر . وتلك هى النتيجة التى أخلص اليها . هذه قناعة من أولى القناعات التى تكونت فى نفسى عن بلادنا روسيا . هناك أمور يجب أن تُعمل يا بارفيون ! هناك أمور يجب أن تُعمل فى عالمنا الروسى ، صدقنى ! تذكر لقاءاتنا واحاديثنا بموسكو . . . لم أكن أرغب أية رغبة فى أن أعود الآن الى هنا . ولم أكن أتصور أن ألتقى بك على هذه الصورة أبدا . ولكن لا بأس . . . استودعك الله . . . الى اللقاء ! أسأل الله ان يكون معك ! . .

قال الأمير ذلك ثم استدار وأخذ يهبط السلّم . فلما

وصل الى الفسحة الاولى ، صرخ بارفيون يسأله من فوق :

— ليف نيقولايفتش ! ذلك الصليب الذى اشتريته من الجندى ، هل هو معك الآن ؟

فأجابه الأمير وقد توقف من جديد :

— نعم ، هو معى .

— أرنيه .

هذه غرابة أخرى ! فكّر الأمير برهة ، ثم صعد درجات السلّم ، وأظهر لروغوجين صليبه دون أن ينزعه عن عنقه . فقال له روغوجين :

— اعطنى اياه .

— لماذا ؟ هل انت . . .

لم يرغب الأمير فى ان يفارق هذا الصليب .

— أحمله وأعطيك صليبى فتحمله . . .

— تريد أن نتبادل صليبينا" ؟ ليكن ذلك يا بارفيون اذا شئت ! سوف يسعدنى هذا . فلنكن أخوين .

انتزع الأمير صليبه القصديرى ، وانتزع بارفيون صليبه الذهبى ، وتبادلا الصليبين . كان بارفيون صامتا . فما كان آلم الدهشة التى شعر بها الأمير حين لاحظ أن الريبة والابتسامة المرة التى تكاد تكون ساخرة ما برحتا ظاهرتين فى وجه أخيه فى الصليب ، أو قل على الاقل انهما تظهران ظهورا واضحا فى بعض اللحظات . وأخيرا تناول روغوجين يد الأمير صامتا ، ولبث جامدا خلال برهة كأنما هو عاجز عن اتخاذ قرار ، ثم جرّ الأمير فى النهاية وراءه قائلا له بصوت لا يكاد يُسمع : «تعال» . فاجتازا فسحة الطابق الأول ، وقرعا جرس الباب المقابل ، فسرعان ما فتحت

الباب امرأة عجوز محدودبة الظهر ترتدى سوادا وتضع على رأسها منديلا ، فلما رأت روغوجين انحنت أمامه انحناء شديدا دون أن تتكلم . فسألها روغوجين عن أمر من الأمور مسرعا ، واقتاد الأمير دون أن ينتظر جوابها . واجتازا مرة اخرى حجرات كثيرة مظلمة ، نظيفة نظافة خارقة باردة ، اثاثها قديم بارد متقشف مكسو بأغطية بيضاء نظيفة ؛ ودون أن يطلب روغوجين بالابلاغ عن حضوره ، أدخل الاميرَ رأسا فى غرفة صغيرة لها مظهر صالون ، يقطعها حاجز من خشب الآكاجو الملّمع ، وفى طرفى الحاجز بابان صغيران ، ووراءه غرفة النوم فى اغلب الظن . فى ركن من الصالون ، على مقعد قرب المدفأة ، كانت تجلس امرأة عجوز صغيرة ، لا يبدو انها طاعنة فى السن كثيرا ، كان وجهها المدور اللطيف معافى جدا ، لكن شعرها قد ابيض تماما ، وعقلها قد ارتد الى الطفولة (يقتنع المرء بذلك منذ أول نظرة) . انها ترتدى ثوبا من صوف أسود ، وتلف عنقها بمنديل كبير أسود ، وتضع على رأسها طاقية ناصعة البياض مزدانة باشرطة سوداء . وكانت قدماها موضوعتين على دكة صغيرة . وبقربها تجلس عجوز اخرى ، أكبر منها سنا ، شديدة النظافة ، مرتدية ثياب الحداد أيضا ، وعلى رأسها طاقية بيضاء هى الأخرى . لا شك أنها قريبة فقيرة من قريبات العجوز الأولى . وكانت الثانية تحيك بالابرة جوربا . لا بد أنهما تلزمان الصمت طول الوقت . فحين رأت العجوز الاولى روغوجين والأمير ابتسمت لهما ، وحنت رأسها عدة مرات باشارة تعبر عن العاطفة والرضى .

قال لها روغوجين بعد أن قبّل يدها :

— أماه ، هذا صديقى الكبير الأمير ليف نيقولايفتش ميشكين . لقد تبادلنا صليبينا . وكان لى بمثابة الأخ فى فترة ما بموسكو ، وله علىَّ آلاء كثيرة . باركيه يا أماه ، كما لو كان ابنك . انتظرى يا أماه ، سأساعدك فى ضم أصابعك . . .

ولكن العجوز رفعت يدها اليمنى قبل أن يتسع وقت روغوجين لأن يلمسها ، فضمّت ثلاثا من أصابعها ، ورسمت اشارة الصليب فوق رأس الأمير ثلاث مرات بكثير من التقى . ثم حنت له رأسها من جديد باشارة ودود حنون .

قال بارفيون :

— تعال الآن يا ليف نيقولايفتش . فمن أجل هذا وحده انما جئت بك الى هنا . . .

وأضاف يقول للأمير حين بلغا فسحة السلّم :

— انها لا تفهم شيئا مما يقال لها ، ولم تفهم شيئا من كلامى ، ومع ذلك باركتك . معنى ذلك أنها أرادت من تلقاء نفسها . . . طيب . . . أستودعك الله . . . لقد آن الاوان لنا كلينا .

قال روغوجين ذلك وفتح الباب المفضى الى جناحه . فهتف الأمير قائلا وهو ينظر اليه نظرة فيها عتب رقيق :

— دعنى اعانقك على الاقل قبل أن أنصرف أيها الرجل الغريب !

وأراد الأمير أن يحتضنه بذراعيه . ولكن بارفيون ما كاد يهمّ أن يرفع ذراعيه حتى عاد يسبلهما . انه لم يستطع أن يعزم أمره . واشاح وجهه حتى لا يرى الأمير . ولم

يرغب فى أن يعانقه وجمجم يقول بصوت مبهم وهو يضحك ضحكة غريبة مباغتة :

— لا تخف ! لن أقتلك من أجل ساعة ، وان كنت قد أخذت صليبك !

لكن وجهه انقلب فجأة ، فاذا هو يشحب شحوبا رهيبا ، واذا شفتاه تأخذان بالارتجاف ، واذا عيناه تسطعان . ورفع ذراعيه ، وعانق الأمير عناقا قويا ، وقال بصوت لاهث :

— خذها ما دام هذا هو القدر ! هى لك ! اننى اتنازل لك عنها ! . . تذكَّر روغوجين !

ثم ترك الأمير دون أن يلقى عليه نظرة ، وعاد يدخل مسرعا ويغلق الباب وراءه بقرقعة شديدة .

الفصل الخامس

الوقت متأخر ، فالساعة قاربت الثانية والنصف . لم يجد الأمير الجنرال ايبانتشين فى بيته . فوضع بطاقته ، وقرر أن يمضى الى فندق «الميزان» عسى أن يجد فيه كوليا ، أو يترك له كلمة اذا لم يجده . فقيل له فى الفندق أن نيقولاى آردالیونتش «قد خرج فى الضحى ، وطلب ان يُذكر لمن يسأل عنه أنه قد يعود فى نحو الساعة الثالثة ، فاذا بلغت الساعةُ الثالثةَ والنصف قبل ان يعود فيكون معنى ذلك انه سافر بالقطار الى بافلوفسك ليزور الجنرالة ايبانتشينا ، وأنه سيتغدى هناك» . بقى الأمير فى الفندق ينتظر ، وانتهز الفرصة فأمر لنفسه بغداء .

ولكن كوليا لم يظهر لا فى الساعة الثالثة والنصف ، ولا حتى فى الساعة الرابعة . فخرج الأمير من الفندق وأخذ يمشى على غير هدى . ان بطرسبرج تعرف عند بداية الصيف فى بعض الاحيان أياما لذيذة مضيئة دافئة هادئة . ولقد كان ذلك اليوم واحدا من تلك الأيام النادرة ، كأنما على عمد . ظل الأمير يطوف فى المدينة زمنا دون هدف أو غاية . انه لا يعرف المدينة معرفة جيدة . وكان يتوقف أحيانا عند مفارق الطرق أمام بعض المبانى ، أو يتلبث فى الميادين والساحات ، أو يقف على بعض الجسور . ومرة دخل محل حلوى ليستريح قليلا . لقد كان ينعم النظر فى المارة باستطلاع قوى أحيانا ، ولكنه فى أكثر الأحيان لا يلاحظ المارة ، ولا يعرف أين يمشى . انه الآن فى حالة قلق عميق وتوتر

أليم ، وهو فى الوقت نفسه يشعر بحاجة قصوى الى العزلة . انه يريد أن يخلو الى نفسه وحيدا ، وأن يستسلم لألم ذلك التوتر استسلاما سلبيا ، فلا يسعى الى أى مخرج منه ؛ وهو يدفع سيل الاسئلة التى كانت تغزو قلبه ونفسه ، يدفعها عنه مشمئزا ؛ ويجمجم قائلا لنفسه دون أن يعى تقريبا ما يقول : «أأنا مسئول عن هذا كله ؟» .

وفى نحو الساعة السادسة وجد نفسه على رصيف خط السكة الحديدية تسارسكوى سيلو . فسرعان ما أصبحت العزلة ثقيلة الوطأة على نفسه فهو لا يحتملها . ان اندفاعة جديدة قد استولت على قلبه بقوة وحرارة ، وان ضياء ساطعا قد أنار لحظة الظلمات التى كانت تملأ نفسه بالغم والقلق . اشترى تذكرة سفر الى بافلوفسك ، متعجلا أن ينطلق بأقصى سرعة . غير أن هناك شيئا كان يلاحقه ولا شك ، شيئا واقعيا لا خياليا كما لعله كان يظن . فما ان همَّ ان يركب القطار ، حتى رمى تذكرة السفر التى اشتراها للتو ، على الارض ، وغادر المحطة مفكرا مضطربا . وبعد قليل ، حين صار فى الشارع ، بدا كأنه تذكر شيئا ما على حين فجأة ، كأنه أدرك شيئا غريبا جدا كان يقلقه منذ مدة طويلة . لقد باغت نفسه مشغولا بأمر ما برح يلازمه منذ زمن طويل ، لكنه لم يكن قد لاحظه حتى ذلك الحين . انه منذ عدة ساعات ، منذ كان فى فندق «الميزان» ، وربما قبل ذلك ، قد أخذ فجأة يبحث عن شىء من حوله بين الفينة والفينة . انه كان ينسى هذا الشىء أحيانا ، حتى لقد كان ينساه مدة طويلة ، مدة نصف ساعة ، لكنه ما يلبث أن يلتفت بغتة من جديد ، ليعود يبحث من حوله قلقا .

ولكنه ما ان لاحظ فى نفسه هذه الاندفاعة المرضية التى كانت حتى ذلك الحين غير شعورية والتى كانت قد استولت على نفسه منذ مدة طويلة ، حتى انبجست امامه على حين فجأة ذكرى أخرى اهتم بها اهتماما قويا . تذكر أنه حين لاحظ أنه ما انفك يبحث عن شىء ما حوله ، انما كان واقفا على الرصيف أمام الواجهة الزجاجية لاحدى الدكاكين ، وأنه كان ينعم النظر بكثير من الاستطلاع فى الاشياء المعروضة داخل الواجهة . فاستولت عليه الآن الرغبة فى أن يتحقق من انه قد وقف أمام تلك الدكان فعلا ، منذ ما لا يزيد عن خمس دقائق تقريبا . فاذا لم يكن ذلك وهما من أوهام الخيال لا أكثر ، أفلا يكون من الجائز أنه خلط بين الأمور ؟ هل لتلك الدكان وتلك الاشياء المعروضة فى واجهتها وجود حقا ؟ ذلك أنه كان يحس فعلا ، منذ مطلع النهار ، أنه فى حالة مرضية شديدة تكاد تكون نفس الحالة التى كان يحسها فى الماضى عند بداية نوبات مرضه القديم . كان يعلم أنه يصبح فى تلك الفترات ذاهلا الى أبعد حدود الذهول ، وأنه يتفق له عندئذ أن تختلط عليه الاشياء وتتشابه عليه الوجوه ، اذا هو لم ينتبه اليها انتباها خاصا مشدودا . غير أن هناك سببا خاصا كان يدفعه الى التحقق من أنه وقف امام تلك الدكان فعلا حينذاك . لقد كان بين الاشياء المرتبة فى الواجهة الزجاجية شىء نظر اليه حتى لقد قدَّر له ثمنا هو ستون كوبيكا فضيا . انه يتذكر هذا الأمر رغم ذهوله ورغم قلقه . فاذا كانت تلك الدكان موجودة ، اذا كان ذلك الشىء موجودا فى الواجهة بالفعل ، فانما يكون قد توقف هنالك بسبب ذلك الشىء .

ويترتب على هذا أن ذلك الشيء قد همه فى ذاته الى درجة بعيدة فلفت انتباهه حتى فى حالة الاضطراب الأليم تلك التى كان عليها حين خرج من المحطة . مشى الأمير وهو ينظر الى اليمين بما يشبه أن يكون اكتئابا ، وقلبه يخفق من شدة القلق وفرط نفاد الصبر . ولكن ها هى ذى الدكان . لقد وجدها أخيرا ! كان قد ابتعد عنها قرابة خمسمائة خطوة حين بدا له ان يقفل راجعا . وها هو ذا الشيء الذى قدَّر له ثمنا هو ستون كوبيكا . قال الأمير مؤكدا الآن تقديره : «بالطبع ، ستون كوبيكا ، انه لا يساوى أكثر من ذلك !» . وضحك . لكن ضحكه كان هستريا . وشعر بثقل شديد فى قلبه . هو يتذكر الآن تذكرا واضحا أنه منذ قليل ، فى هذا المكان نفسه ، أمام هذه الواجهة ذاتها ، قد التفت بقوة ، كما التفت فى الصباح حين فاجأ نظرةً يلقيها عليه روغوجين . فلما تأكد أنه لم يخطئ الظن (وذلك أمر كان موقنا به يقينا مطلقا حتى قبل أن يتحقق منه) ، ترك الدكان وابتعد مسرعا . ان عليه أن يفكر فى هذا كله باقصى سرعة . لقد وضح الآن أن ما حدث فى المحطة لم يكن وهما كذلك ، وأن شيئا واقعيا لا شك أنه ذو صلة بكل قلقه السابق قد حدث له فعلا . الا أن نوعا من نفور داخلى لا يقاوم قد تغلب عليه أيضا ، فلم يشأ أن يفكر . لقد عدل عن التفكير عدولا تاما . وها هو ذا يستغرق فى أمور أخرى .

تذكر ، فيما تذكر ، أن نوبات الصرع التى كان يعانيها ، كانت تشتمل على لحظة تسبق النوبة بزمن قصير جدا (وذلك حين توافيه النوبة اثناء اليقظة لا اثناء النوم) ،

لحظة كأنما يضطرم فيها ذهنه فجأة وسط الحزن وظلمات النفس والاضطراب ، وتستعر جميع قواه الحيوية دفعة واحدة ، فيتضاعف احساسه بالحياة ، ويشتد وعيه لذاته . كانت تلك اللحظة تشبه وميض برق . ان الفكر والقلب يشرقان عندئذ بضياء ساطع ، فاذا باضطرابه وشكوكه وقلقه كأنما تهدأ على الفور ، وتصير الى نوع من طمأنينة عليا زاخرة بوعى الغاية النهائية وبانسجام الفرح والامل الصافيين . غير أن تلك اللحظات وتلك الومضات ليست ، بعدُ ، الا استشرافا للثانية الاخيرة (ولا يزيد هذا أبدا عن ثانية واحدة) التى تبدأ بها النوبة . هى ثانية لا تطاق طبعا . ولقد كان اذا فكر فى هذه اللحظات بعد ان تعود اليه صحته ، كان يقول لنفسه كثيرا : ما هذه الومضات وهذه الاشراقات لاعلى احساس بالنفس وبوعى والذات وبالتالى «بالطمأنينة العليا» ، ما هى اذن الا مرض ، ما هى الا فساد الحالة السليمة ، فاذا كان الأمر كذلك لم يكن ثمة طمأنينة عليا ، بل حالة يجب ان تعدّ من ادنى الحالات ! ومع ذلك قاده هذا اخيرا الى استنتاج متعارض الى أبعد حدود التعارض فقال يحسم الأمر فى النهاية : «أى ضير فى أن تكون هذه الحالة حالة توتر غير طبيعى ، ما دامت النتيجة ، أى ما دامت لحظة الاحساس التى يتذكرها المرء ويتأملها حين تعود اليه صحته تبدو له أعلى درجة من درجات الانسجام والجمال ، وما دامت تحدث له عاطفة لا عهد له بها ولا خطرت بباله ، هى عاطفة التمام ، والاعتدال ، والطمأنينة ، والاندماج الفرح كما فى الصلاة بأعلى مركَّب للحياة ؟»

كانت هذه التعبيرات الضبابية تبدو له مفهومة تماما ، رغم أنها ما تزال ضعيفة . أما أن ثمة «جمالا وصلاة» و«مركبا أعلى للحياة» فى حقيقة الأمر ، فذلك ما لم يكن يراوده فيه ريب ، ولا يمكن أن يقبل فيه أى شك . أمعقول أن ما يحسه فى تلك اللحظات كان رؤى احلام مرضية باطلة ، كتلك التى تنشأ عن الحشيش أو الافيون أو الخمر ، مما ينحدر بالعقل ويفسد النفس ؟ ان فى امكانه أن يحكم فى هذا حكما سليما عند الخروج من حالته المرضية . ان تلك اللحظات انما هى جهد خارق لوعيه لذاته — اذا كان لا بد من وصف تلك الحالة باختصار — وهى فى الوقت نفسه الاحساس المباشر بالنفس الى اقصى حد . واذا كان يتفق له أن يقول لنفسه بوعى ووضوح فى تلك اللحظة الأخيرة التى تسبق الغيبوبة : «نعم ، ان المرء مستعد لأن يهب حياته كلها فى سبيل هذه اللحظة» ، فانه كان واثقا كل الثقة بأن هذه اللحظة بحد ذاتها تساوى حياةً بكاملها حقا . على أنه كان لا يحرص حرصا شديدا على الجانب الجدلى من استنتاجه ، فان خبال العقل واضطراب النفس وبلاهة الذهن كانت تبدو له نتيجة واضحة لتلك «اللحظات العليا» ، فلو أراد أحد أن يشرع فى مناقشة جادة معه حول هذا الموضوع لرفض المناقشة . لا شك أن استنتاجه ، أى تقديره لتلك الثانية ، كان يشتمل على خطأ ، ولكن واقعية الاحساس ذاته كانت تقلقه . كيف يمكنه أن لا يقيم وزنا لهذه الواقعية ؟ ذلك أن ما حدث له قد حدث له حقا ، فى الواقع ؛ ولقد قال لنفسه فعلا أثناء تلك الثانية ان هذه الثانية بما تحمله اليه من سعادة غير ذات

حدود ، ربما يمكن أن تساوى حياة بكاملها . لقد قال ذات مرة لروغوجين اثناء لقاءاتهما بموسكو : «فى تلك اللحظة يصبح ما جاء فى رؤيا يوحنا مفهوما عندى ، وهو قوله الخارق : «لا يكون زمان بعدُ» . وقد أضاف الأمير يقول حينذاك مبتسما : «لعل هذه اللحظة هى تلك اللحظة نفسها التى لم تتسع لان ينسكب خلالها على الارض ماء الجرة التى قلبها النبى محمد حين وافته غيبوبته ، لكنه استطاع خلالها أن يرى وأن يتأمل جميع السماوات» . نعم ، كان يلتقى بموسكو مع روغوجين فى أحيان كثيرة ، وكانت تجرى بينهما احاديث فى موضوعات أخرى ايضا . «لقد قال لى روغوجين منذ قليل أننى كنت له آنذاك بمثابة أخ . قال هذا اليوم لأول مرة» . هذا ما خطر ببال الأمير .

خطر هذا بباله وهو جالس على دكة تحت شجرة فى «حديقة الصيف» . كانت الساعة فى نحو السابعة من المساء . الحديقة خالية . شىء داكن حجب الشمس للحظة عند غروبها . الهواء خانق كأنما توشك أن تهب عاصفة . والأمير مرتاح الى حالة التأمل هذه . كان بذكرياته وفكره يتعلق بأى شىء يقع عليه بصره . ان هذا يسرّه ويرضيه . وكان ما ينفك يشعر برغبة فى نسيان شىء ما ، شىء راهن ، شىء موجود . ولكنه ما ان ينظر حواليه حتى تعود اليه الفكرة السوداء التى كان يود أن يتخلص منها . لقد تذكر الحديث الذى جرى بينه وبين خادم المطعم اثناء الغداء عن جريمة القتل الغريبة كل الغرابة ، التى وقعت منذ مدة قصيرة ، وأثارت كثيرا من الصخب والمناقشات . ولكنه ما كاد يتذكر هذا حتى حدث له شىء غريب أيضا

ان رغبة ذات قوة خارقة لا تغالب ، رغبة توشك أن تكون غواية ، قد سلبته ارادته . فنهض عن الدكة التى كان جالسا عليها ، وخرج من الحديقة ، ومضى قُدُما نحو حى بطرسبرج . انه منذ قليل ، حين كان على رصيف نهر نيفا ، قد سأل أحد المارة عن ذلك الحى ، الذى يقع وراء النهر ، فدلّه الرجل عليه ، لكن الأمير لم يـذهب الى ذلك الحى حينذاك . لقد عرف أنه لن يفيده أن يذهب اليه اليوم على كل حال . لقد حصل على العنوان منذ مدة طويلة ، وكان سهلا عليه أن يهتدى الى منزل قريبة ليبيديف ، لكنه كان على شبه يقين من أنه لن يجدها فى بيتها . «لا شك انها سافرت الى بافلوفسك ، والا لكان كوليا قد ترك كلمة فى فندق «الميزان» ، كما أتفق على ذلك» . فاذا كان يتجه الآن الى منزل قريبة ليبيديف ، فانه لا يفعل ذلك من اجل ان يراها . ان هنـاك شيئا آخر يغريه بالذهاب الى هناك ، شيئا هـو فضـول مظلم أليم . ان فكرة جديدة مفاجئة قد ومضت فـى ذهنه . . .

ولكن كان يكفى الآن أن يسير وأن يعرف الى اين هو يسير حتى يأخذ يمشى من جديد دون أن يلاحظ الى أين هو يسير . وأصبح ينفر أشد النفرة من الايغال فى تحليل «فكرته المباغتة» ، بل لقد أصبح يستحيل عليه ذلك . وأخذ ينعم النظر فى كل ما يقع عليه بصره ، مركزًا انتباهه تركيزا أليما . . . أخذ ينظر الى السماء والى نهر نيفا . حتى لقد حاول أن يشرع فى حديث مع طفل التقى به . لعل حالته المرضية كانت تتفاقم . ان العاصفة تقترب بالفعل ،

ولو ببطء . ان رعدا يُسمع منذ الآن فى بعيد . وأصبح الهواء خانقا جدا .

وبدون سبب من الأسباب ، استيقظت فى ذهن الأمير ذكرى ابـن اخت ليبيديف ، الذى رآه منذ ساعات ، وأخذت تفرض نفسها عليه بغير انقطاع ، كما تفرض نفسها على المرء جملة موسيقية تحاصره فيظل يرددها وقد ضاق بها أشد الضيق . شىء غريب : ان ابـن اخت ليبيديف يتراءى له الآن بملامح القاتل الذى جاء ليبيديف نفسه على ذكره حين عرّفه بابن اخته ، والذى كان الامير قد قرأ قصته منذ مدة قصيرة . كان الأمير منذ وصوله الى روسيا قد قرأ كثيرا وسمع كثيرا عن امثال هذه القصص ؛ وكان يتابع هذه المسائل باهتمام شديد واصرار عنيد . حتى أنه أثناء حديثه مع خادم المطعم قد أظهر اهتماما قويا بتلك الجريمة نفسها التى كانت أسرة جيمارين ضحيتها . وهو يتذكر الآن أن الخادم قد وافقه ، فيتذكر الخادم نفسه وهو فتى ليس بالغبـى البتة ، فيه رصانة وروية ، «ولكن الله وحده يعلم ما حقيقته . ان من الصعب على المرء أن ينفذ الى أعماق أناس جدد فى بلد جديد» . وبدأ الأمير مع ذلك يؤمن بالنفس الروسية ايمانا قويا حارا . آه ! ما اكثر ما لاحظ خلال هذه الاشهر الستة ، من اشياء جديدة عليه ، لا عهد له بها من قبل ، ولم تخطر له ببال ، ولا كان يتوقعها بحال من الاحوال ! ولكن نفس الآخر ظلمات ، والنفس الروسية ظلمات ، ظلمات فوق ظلمات ، أمام كثير من الناس . ها هو ذا قد ارتبط بروغوجين منذ مدة طويلة ، ارتباطا وثيقا ، ارتباطا «أخويا» ، ولكن هل

هو يعرف روغوجين ؟ ثم ان هذا كله يشتمل فى بعض الاحيان على كثير من الغموض والفوضى والتشوش ! وابـن اخت ليبيديف ذاك . . . يا له من فتى دعى دنىء ! ولكن ماذا بـى ؟ (واصل الأمير فى استغراقه) أهو الذى قتل اولئك الاشخاص الستة ؟ يبدو أننى اخلط . . . شىء غريب ! . . اننى أشعر بدوار . . . ولكن ما كان أطيب وألطف محيًّا ابنة ليبيديف الكبرى . . . تلك التى كانت تحمل الطفل فى ذراعيها ! . . وما كان أصفى تعبير وجهها الذى يكاد يكون وجه طفلة صغيرة ، وما كان أروع ضحكتها التى تكاد تكون ضحكة طفلة صغيرة ! غريب أن ينسى ذلك الوجه او يكاد وأن لا يتذكره الا الآن ! ان ليبيديف الذى يقرع الارض بقدميه ليروِّعهم ، لعله يعبدهم عبادة . والأمر الثابت الذى لا شك فيه ولا يقل يقينا عن أن اثنين واثنين أربعة ، هو أن ليبيديف يعبد ابن اخته كذلك عبادة .

ثم كيف أمكنه أن يتولى اصدار حكم مبرم عليهم ، هو الذى وصل اليوم منذ مدة قصيرة ؟ كيف يحق له أن يصدر احكاما من هذا النوع ؟ هذا ليبيديف نفسه : ألم يظهر اليوم أنه لغز ، أنه مشكلة ؟ هل كان يتوقع أن يجد ليبيديف هكذا ؟ هل عرفه حتى اليوم فى هذه الصورة ؟ ليبيديف وكونتيسة دى بارى . . . رباه ! اذا قتل دى بارى ، فانه لن يقتل على هذا النحو المشوش على الاقل . لن يكون هناك فوضى كهذه الفوضى . سلاح يُطلب صنعه وفقا لرسم معيّن ، وستة اشخاص يُذبحون دفعةً واحدة في نوبة هذيان وجنون ! معقول أن عند روغوجين سلاحا صُنع وفقا لرسم معيّن . . . عنده . . . ولكن هل ثابت اذن أن روغوجين سيقتل ؟!

ارتعش الأمير فجأة ، وهتف يخاطب نفسه وقد اصطبغ وجهه بحمرة شديدة من الشعور بالخجل : «أليست جريمة ، أليست حطة منى أن افترض هذا الافتراض بمثل هذه الصراحة السفيهة ؟» . وتسمَّر فى مكانه مذهولا . لقد تذكر فجأة محطة بافلوفسك التى كان فيها منذ حين ، ومحطة نيقولايفسكى ، والسؤال المباشر الذى ألقاه على روغوجين عن العينين ، وصليب روغوجين الذى يحمله هو الآن معلقـا بعنقه ، ومباركة أم روغوجين التى قاده اليها روغوجين من تلقاء نفسه ، والمعانقة التشنجية الأخيرة ، وتنازل روغوجين له عن حبيبته تنازلا نهائيا أعلنه روغوجين منذ قليل وهو على سلّم البيت . وبعد ذلك كله يفاجىء نفسه باحثا بحثا متصلا عن شىء ما حوله . . . وتلك الدكان . . وذلك الشىء المعروض فى الواجهة الزجاجية . . . يا للحطة والدناوة ! . . بعد ذلك كله يسير الآن وله «هدف خاص» تدفعه تلك «الفكرة المباغتة» . كان اليأس والألم قد استوليا على نفسه استيلاء تاما . وأراد الأمير أن يعود الى الفندق رأسا . حتى لقد استدار وأخذ يمشى فى اتجاه الفندق ، لكنه لم يلبث أن وقف بعد دقيقة واحدة ، ففكر وعاد يسير فى اتجاهه الأول .

وكان قد بلغ حى بطرسبرج وأصبح غير بعيد من المنزل . ولكنه يذهب الآن الى هناك لا لتحقيق ذلك الغرض نفسه ، ولا من اجل تلك «الفكرة الخاصة» ذاتها . كيف أمكن أن يخطر بباله هذا ؟ نعم ، لقد عاوده مرضه ، ذلك أمر لا ريب فيه : ولعله نوبة ستوافيه فى هذا اليوم نفسه . فمن اقتراب النوبة انما تنشأ هذه الظلمات جميعها ، والنوبة

هى التى حملت اليه تلك «الفكرة» . ولكن الظلمات تبددت الآن ، والشيطان ولى هاربا ، ولم يبق هنالك شكوك . . . ان قلبه يفيض الآن فرحا ! وانه منذ زمن طويل لم يرها هى وهو فى حاجة الى أن يراها ، و . . . نعم . . . انه يودّ لو يرى روغوجين الآن . فلو رآه لأمسك يده وذهبا اليها معا . ان قلبه طاهر نقى . . . أهو منافس لروغوجين ؟ ليذهبنَّ الى روغوجين منذ الغد ليقول له أنه رآها . لانه هرع الى هنا ، كما قال ذلك روغوجين منذ قليل ، لسبب واحد هو أنه يريد أن يراها ! لعله سيجدها مع ذلك فى بيتها ، فهو ليس متأكدا من أنها سافرت الى بافلوفسك .

نعم ، ينبغى الآن توضيح كل شىء ، حتى يستطيع الناس ان يقرأ بعضهم ما فى قلوب بعض بغير التباس او اشتباه . فلا يكون بعد اليوم تنازلات ظلماء محمومة كتنازل روغوجين ، بل يتم الأمر بحرية ووضوح . هل يعجز روغوجين عن تحمل الوضوح ؟ لقد ادعى أنه يحبها حبا لا يشتمل لا على عطف ولا على «شفقة» . صحيح أنه أضاف الى ذلك قوله : «لعل شفقتك أكبر من حبى» . ولكنه قد تقوَّل على نفسه . هِمْ ! . . أن يأخذ روغوجين فى قراءة كتاب ، أليس هذا وحده «شفقة» او بداية «شفقة» ؟ أليس وجود هذا الكتاب بين يديه دليلا على أنه ادرك ادراكا كاملا موقفه ازاءها ؟ ثم أليس دليلا على ما تحدث عنه منذ قليل ؟ لا ، ان فى نفسه شيئا أعمق من الهوى . وهل وجهها لا يوقظ فى النفس الا الهوى ؟ وهل يمكن أن يوقظ وجهها هوى فى هذه الآونة ؟ ان وجهها يوقظ فى النفس الألم ويأس النفس كلها ، انه . . . هنا أحس الأمير

بذكرى كاوية أليمة تلسع قلبه .

نعم ، ذكرى أليمة . تذكر العذاب الذى سبق أن عاناه حين لاحظ فيها علائم جنون لأول مرة . يشعر فى نفسه ما يشبه اليأس حينذاك . كيف أمكنه أن يتركها حين هربت منه الى روغوجين ؟ كان ينبغى له أن يندفع فى أثرها بدلا من أن ينتظر انباءها . ولكن . . . هل يمكن أن لا يكون روغوجين قد لاحظ أعراض جنونها حتى الآن ؟ هِمْ . . . ان روغوجين يرى فى كل شىء دوافع أخرى هى دوافع الهوى ! ما اشد غيرته ! ماذا أراد أن يقول بافتراضه ذاك الذى أفصح عنه منذ قليل ؟ (واحمر الأمير فجأة وأحس فى قلبه بما يشبه أن يكون ارتجافا) .

ولكن ما فائدة العودة الى هذه الذكريات ؟ ان هناك جنونا فى الطرفين كليهما . أما فيما يتعلق به هو ، فمن غير المعقول ان يحب هذه المرأة حب غرام ، بل لقد كان ذلك ما يشبه ان يكون امرا قاسيا وغير انسانى . اجل ! هكذا ! أما روغوجين فقد تقوَّل على نفسه ظالما . ان له قلبا كبيرا قادرا على أن يتألم وعلى أن يشعر بالشفقة . وحين سيعرف الحقيقة كلها ، حين سيقتنع بأن هذه المرأة مخلوقة بائسة مختلة العقل شبه مجنونة ، فهل بوسعه الا يغفر لها كل الماضى ، وكل آلامه ؟ هل بوسعه الا يصبح لها عندئذ خادما واخا وصديقا ومعينا ؟ سوف تردّه الشفقة الى الطريق القويم ، فالشفقة هى القانون الاساسى وربما القانون الوحيد الذى يحكم الوجود الانسانى . آه ! ما أشد ذنبه الذى لا يُغتفر ازاء روغوجين ! لا ، ليست «النفس الروسية هى الظلمات» ، وانما نفسه هو ظلمات ، لانه أمكن أن يتخيل

تلك الشناعة . ان روغوجين قد وصفه بأنه اخ ، لا لشيء غير بضع كلمات فيها حرارة ومودة قالها له بموسكو ، فما باله هو . . . ولكن ذلك كله لم يكن الا مرضا ، لم يكن الا هذيانا . . . سوف ينقضي كل هذا . ما كان أشد تجهم روغوجين حين قال له منذ قليل انه «بسبيل فقد ايمانه» ! لا بد ان الرجل يعاني ألما رهيبا . هو يدعي أنه «يحب أن ينظر الى هذه اللوحة» . ليست المسألة انه يحب أن ينظر اليها ، بل المسألة أنه يشعر بحاجة الى ذلك . ان روغوجين ليس ذا نفس ملتهبة فحسب ، بل هو كذلك ذو طبيعة مناضل : انه يريد استرداد الايمان الذي فقده ، بأي ثمن . انه يشعر الآن بضرورة ذلك ، وهو من هذا في ألم شديد . . . نعم ، الايمان بشيء ، الايمان بأحد ! ولكن ما أغرب تلك اللوحة ، لوحة هولباين ! . . آ . . . هذا هو الشارع ، وربما هذا هو المنزل الذي أبحث عنه . . . نعم ، هذا هو المنزل : رقم ١٦ ، «دار زوجة السكرتير الاعتباري فليسوف» . هنا اذن ! قرع الجرس ، وطلب ناستاسيا فيليبوفنا .

فأجابت صاحبة الدار بنفسها قائلة أن ناستاسيا فيليبوفنا قد سافرت منذ الصباح الى بافلوفسك ، وأنها نزلت ضيفة على داريا الكسيفنا ، «وانها قد تمكث عندها بضعة ايام» . كانت فليسوفا امرأة قصيرة في نحو الاربعين من العمر ، مدببة الوجه جادة العينين ، لها نظرة ماكرة فاحصة . سألت الزائر عن اسمه بلهجة لاح فيها شيء من السرية المتعمدة . فأراد الأمير في أول الأمر أن لا يجيب عن سؤالها ، لكنه ما لبث أن عدل عن رأيه ، فعاد ليرجوها ملحا أن تنقل

أسمه الى ناستاسيا فيليبوفنا . فاستمعت فليسوفا الى هذه التوصية الملحة بكثير من الاهتمام ، وفي هيئتها سرية خارقة فكأنها تريد أن تقول : «لا تخف ، لقد فهمت !» . يظهر أن اسم الزائر قد أحدث في نفسها أثرا قويا . ألقى الأمير عليها نظرة ذاهلة ، واستدار ، وعاد يسير في الطريق المؤدي الى فندقه . لكن حالته الآن لا تشبه الحالة التي كان عليها حين قرع جرس باب بيت فليسوفا . لقد تغير من جديد مظهره كله في طرفة عين : فهو الآن يسير شاحب الهيئة ، واهن العزم ، معذب النفس ، مضطربا ؛ ركبتاه تترنحان ، ابتسامة حائرة زائغة تلمّ بشفتيه المزرقتين : ان «فكرته المباغتة» قد جاء الآن فجأة ما يؤكدها ويبررها . وأحسّ الأمير مرة اخرى أن الشيطان استلمه .

هل جاء بالفعل ما يؤكدها ويبررها ؟ لماذا يعتريه مرة اخرى هذا الارتجاف ، وهذا العرق البارد ، وهذه الظلمة والبرودة في النفس ؟ ألانه رأى الآن «تينك **العينين**» من جديد ؟ ولكنه ترك «حديقة الصيف» لغرض واحد هو أن يراهما ! تلك كانت «فكرته المباغتة» . لقد شعر برغبة قوية عنيفة في أن يرى «تينك العينين» اللتين رآهما منذ قليل ليقتنع اقتناعا نهائيا بانه سيجدهما لا محالة **هناك** ، قرب تلك الدار . فاذا كان قد رغب في رؤيتهما تلك الرغبة العفوية المحمومة ، فلماذا أرهق هذا الارهاق وذهل ذلك الذهول حين رآهما الآن بالفعل ؟ كأنه امام حادث لم يكن في حسبانه ! نعم ، انهما **نفس تينك** العينين (لا محال الآن للشك في انهما **نفس تينك** العينين) اللتين رشقتاه بنيرانها صباحا في محطة نيقولايفسكي وسط الجمهور حين

نزل من القطار . وهما نفس تينك العينين (تماما !) اللتين شعر بثقلهما على كتفيه ، فيما بعد ، فى منزل روغوجين ، حين كان يهمّ أن يجلس . لم يعترف روغوجين بذلك . حتى لقد سأل وهو يبتسم ابتسامة متقلصة باردة : «هما عينا من ؟» . وهاتان العينان نفسهما ، رآهما الامير فجأة مرة اخرى ، مرة ثالثة فى ذلك اليوم نفسه ، قبل برهة قصيرة ، فى محطة خط تسارسكوى سيلو ، عندما همّ أن يركب القطار مسافرا لرؤية آجلايا . لقد راودته عندئذ رغبة مسعورة فى أن يقترب من روغوجين وأن يقول له : «لمن تينك العينان» . ولكنه خرج من المحطة مسرعا ، ثم لم يشب الى وعيه الا امام دكان بائع سكاكين ، فقدّر لشىء له نصاب من قرن الوعل ، قدّر له ثمنا هو ستون كوبيكا . ان شيطانا عجيبا رهيبا قد استولى عليه استيلاء نهائيا ، وأصبح لا يريد أن يتركه . فذلك الشيطان هو الذى أوحى اليه اثناء تأمله جالسا تحت شجرة زيزفون فى «حديقة الصيف» ، أن روغوجين يلاحق كل خطوة من خطواته منذ الصباح ، حتى اذا عرف أن الأمير لن يسافر الى بافلوفسك (لا شك ان هذا نبأ مهم حاسم عنده) قرر أن يذهب **الى هناك** ، الى حى بطرسبرج ، ليترقب هناك قرب الدار ذلك الأمير الذى عاهده فى الصباح نفسه «على أن لا يزورها» ، وقال له «أنه لم يجىء الى بطرسبرج لهذا الغرض» . حينئذ هرع الأمير الى تلك الدار باندفاعة لاارادية . فاية غرابة اذن فى أن يلقى هنالك روغوجين ؟ انه لم ير الا رجلا بائسا حالته النفسية مظلمة لكنها مفهومة . ثم ان ذلك الرجل البائس لم يحاول حتى ان يختبىء الآن .

نعم ، لم يعترف روغوجين لسبب من الاسباب وقد كذب فى حديثهما منذ برهة . ولكنه فى محطة تسارسكوى سيلو قد ظهر دون اختباء تقريبا . واذا كان قد اختبأ أحد فان الأمير هو الذى اختبأ لا روغوجين . أما قرب الدار فقد وقف روغوجين منتظرا على الرصيف المقابل ، على مسافة خمسين مترا ، متنحيا ، عاقدا ذراعيه فوق صدره . واضح أنه لا يحاول الاختباء ، حتى لكأنه يرغب فى ان يُرى . ان موقفه هو موقف المتهِم ، هو موقف القاضى ، لا موقف الـ . . موقف مَنْ فعلا ؟

ولكن الأمير ، بدلا من أن يقترب منه ، مضى مبتعدا كأنه لم يلمحه ، مع أن أعينهما قد التقت ، فلماذا ؟ (نعم ، لقد التقت اعينهما ، وتبادلا نظرة) . ألم يكن ينوى قبل ذلك هو نفسه أن يمسك يده وأن يذهب **الى هناك** فى صحبته ؟ ألم يكن ينوى أن يمر به فى الغد ليقول له أنه ذهب اليها ؟ ومنذ قليل ، فى منتصف طريقه الى الدار ، ألم يتحرر من شيطانه حين غمرت نفسه فرحة مفاجئة ؟ أم تُرى كان فى شخص روغوجين أو قل فى الوضع العام لهذا الرجل ، **طوال ذلك اليوم** ، أى فى مجموع أقواله وحركاته وأفعاله ونظراته ، شىء يمكن أن يبرر توجسات الأمير الرهيبة وايحاءات شيطانه المثيرة ؟ شىء يخطف البصر ، ولكن يصعب تحليله وترتيبه ، ويستحيل كذلك تبريره باسباب كافية . ومع ذلك ، رغم هذه الصعوبة ، ورغم هذه الاستحالة ، كان يحدث انطباعا اجماليا لا يمكن التخلص منه ، انطباعا يتحول من تلقاء نفسه الى اقتناع مطلق . اقتناع ، ولكن بماذا ؟ (آه ! لشدّ ما كانت فظاعة

هذا الاقتناع «وحطته» «ودناءة هذا التوجس» ، لشد ما كان هذا كله يعذب الأمير ؛ وما أعنف اللوم والتقريع اللذين كان الأمير يأخذ بهما نفسه لهذا كله !) كان الأمير يقول لنفسه مكررا بلا انقطاع بلهجة الاتهام والتحدى : «اقتناع بماذا ؟ قل ان كنت تجرؤ ! عبِّر عن فكرتك بجرأة ووضوح ، بدقة ، بغير مواربة ومداورة ! آه ! انا انسان غير مستقيم ، غير شريف ! — هذا ما كان يكرره وقد اعترته نوبة استياء تخضب وجهه بحمرة شديدة . — بأى عين سأجرؤ أن أرى هذا الرجل بعد الآن طوال حياتى ؟ آه . . . يا لهـذا اليوم ! يا رب ! ما هذا الكابوس الثقيل !

وفى ختام هذه العودة الطويلة الشاقة من حى بطرسبرج ، جاءت دقيقة استبدت بالأمير خلالها فجأة رغبة قوية لا تقاوَم فى أن يذهب الى روغوجين فورا ، وينتظر عودته ، ويعانقه ساكبا دموع الخجل ، وأن يقول له كل شىء ، فيفرغ من هذه القضية دفعة واحدة . ولكنه كان قد وصل الى الفندق . . ان الفندق ، والممرات التى فيه ، والغرفة التى نزلها الأمير ، والمبنى نفسه ، ان ذلك كله لم يعجب الأمير جدا منذ أول وهلة . وقد شعر عدة مرات خلال ذلك النهار باشمئزاز شديد حين كان يتصور أن عليه أن يعود الى ذلك الفندق . وها هو ذا الامير يقول مخاطبا نفسه : «ولكن ماذا أصابنى ؟ اننى أشبه امرأة مريضة . . . فانا أؤمن اليوم بجميع انواع التوجسات ومشاعر التنبؤ !» . قال الأمير ذلك لنفسه بلهجة فيها غضب وسخرية وهو يتوقف أمام الباب الكبير . ان نوبة جديدة لا تطاق من الشعور بالخجل ، بل ومن الشعور باليأس تقريبا ، قد سمَّرته

فى مكان امام الباب . ولبث جامدا برهة من الوقت لا يتحرك . انها لظاهرة تحدث احيانا ، ان تستيقظ فجأة فى ذهن المرء ذكرى لا تطاق ، لا سيما ذكرى تثير الخجل ، فاذا هى تشلّه عن الحركة بضع لحظات . قال الأمير يكرر لنفسه بلهجة عابسة : «نعم ، انا انسان بلا قلب ، انا رجل جبان !» ، وتحرَّك الى امام باندفاعة ليدخل ، ولكنه . . . توقف من جديد .

ان مدخل الفندق ، وهو فى العادة قليل الضوء ، كان عندئذ مظلما ظلاما حالكا ، بسبب هبوب العاصفة التى اعتمت نهاية ذلك النهار . وقد هبت العاصفة فى اللحظة التى اقترب فيها الأمير من الفندق ، وأخذت تهطل امطار غزيرة كالسيول . فلما تحرك الأمير باندفاعة بعد وقفة قصيرة ليدخل الباب الخارجية ، لمح فى الداخل على حين فجأة ، رجلا واقفا فى الظلام على اول السلّم . كان يبدو على هذا الرجل أنه ينتظر شيئا ، لكنه سرعان ما غاب فى مثل لمح البصر . واذ لم يميز الأمير قسمات وجهه ، فانه لا يستطيع أن يقول جازما من هو على وجه الدقة لا سيما وان أناسا كثيرين يمرون هناك ، ففى الفندق حركة لا تنقطع ، والناس بين داخل وخارج وسائر فى الممرات . غير ان الأمير قد اقتنع على الفور اقتناعا تاما لا يتزعزع بأنه قد تعرّف ذلك الرجل وأن ذلك الرجل لا يمكن أن يكون أحدا آخر غير روغوجين . وها هو ذا يسرع مقتفيا أثره مطاردا خطاه على السلم . وغاص قلبه . وقال لنفسه شاعرا باقتناع غريب : سيتضح الآن كل شىء !» .

ان السلّم الذى اندفع فيه الأمير يفضى الى ممرات

الطابق الاول والطابق الثانى حيث كانت غرف الفندق .
انه سلّم من حجر ، كسلالم جميع المبانى القديمة ،
وهو مظلم ضيق ، يصعد ملتفا حول عمود حجرى ضخم .
وقد جُعلت فى هذا العمود عند الفسحة الاولى فجوة تشبه
الحنية لا يزيد عرضها عن خطوة ولا يزيد عمقها عن نصف
خطوة ، فيستطيع رجل أن يقف فيها . فلما وصل الأمير
الى هذه الفسحة لاحظ على الفور ، رغم الظلام ، أن
أحدا كان مختبئا فى الفجوة ، فأراد فجأة ان يتخطى الفسحة
دون أن ينظر الى يمين . ولكنه لم يكد يتقدم خطوة واحدة
حتى أصبح لا يستطيع أن يسيطر على نفسه فالتفت .

عندئذ التقت بعينيه فجأة **العينان نفسهما** اللتان التقتا
بهما من قبل . ان الرجل الذى كان مختبئا فى الفجوة قد
تقدم خطوة ليخرج منها . وبقى الرجلان واقفين وجها الى
وجه ، متلامسين تقريبا ، خلال ثانية . ثم أمسك الأمير
الرجل من كتفيه وأداره نحو ضوء السلّم ليرى وجهه بمزيد
من الوضوح .

سطعت عينا روغوجين ، وتقلصت شفتاه بابتسامة حنق .
ورفع يده اليمنى التى لمع شىء ما فيها . لم يخطر ببال
الأمير ان يصدها . ولكنه تذكر أنه صرخ كما بدا له :

— بارفيون ! لا أصدّق !

ثم خيّل له أن شيئا ما يفغر أمامه على حين فجأة .
ان ضياء **داخليا** ذا سطوع خارق قد أنار نفسه . لعل الأمر
لم يدم الا نصف ثانية . ولكن الأمير احتفظ بذكرى واضحة
واعية عن النبرة الاولى للصرخة الفظيعة التى انطلقت من
صدره والتى تعجز جميع قواه عن كبحها . ثم انطفأ شعوره

حالا ، وغاب فى ظلام مطبق .

لقد اعترته نوبة صرع ، وذلك أمر لم يحدث له
منذ زمن طويل جدا . معلوم أن هذه النوبات تباغت المريض
مباغتة ، فيتشوه عندئذ وجهه ولا سيما نظرته تشوها لا يُصدّق .
ان تشنجات وتقبضات تقلّص جسمه كله وقسمات وجهه
جميعها . وان صرخة رهيبة لا يتصورها الخيال ولا يمكن
أن تشبّه بشىء ، تخرج عندئذ من صدره . هى صرخة
ليس فيها ما يذكّر بالانسان ؛ ويصعب بل ويستحيل أن
يتخيّل المرء حين يسمعها أن هذا الرجل نفسه هو الذى
يطلقها ، وانما يميل به الظن الى الاعتقاد بأنها صادرة
عن كائن آخر مختبىء فى داخل المريض . هذا ، على
الأقل ، ما يقوله كثير من الأشخاص حين يصفون شعورهم .
ان منظر المريض الذى اعترته نوبة الصرع يحدث فى نفوس
كثير من الناس رعبا شديدا لا سبيل الى مغالبته فيه شىء
من الغيبية . لعل هذا الرعب المفاجئ وكذلك ما يعانيه
روغوجين فى هذه اللحظة من مشاعر رهيبة هو الذى جمّده
فجأة فى مكانه فأنقذ الأمير من طعنة السكين التى كانت
على وشك ان تصيبه . لم يتسع وقت روغوجين لأن يدرك
ان النوبة اعترت الأمير فرآه يتراجع الى الوراء بحدة ويسقط
منقلبا على السلّم فجأة ، مصطدما بقذاله على احدى الدرجات
الحجرية . أسرع روغوجين يهبط الدرجات راكضا ، متحاشيا
الجسم المتمدد ، وولىّ هاربا من الفندق فاقد الوعى تقريبا .

وكان من شأن التشنجات والتقبضات والرعشات أن
دحرجت الجسم على الدرجات التى لا يزيد عددها على
خمس عشرة حتى أسفل السلّم . ولم تمض خمس دقائق

حتى اكتُشف فاحتشد الناس من حوله . وكانت بركة من الدم تحيط برأسه فأثار ذلك شكوكا وشبهات : أحادثة طارئة أم «جريمة مقترفة» ؟ غير أن عددا من الأشخاص لم يلبثوا أن أدركوا أن الأمر أمر نوبة صرع . وتعرف خادم الفندق الأمير ، فقال انه نزيل من نزلاء الفندق قدم فى هذا الصباح . ثم تبددت الشكوك والشبهات تبددا تاما بفضل مصادفة سعيدة .

ان كوليا ايفولجين الذى كان قد وعد بأن يأتى الى فندق «الميزان» فى الساعة الرابعة ثم عدل عن رأيه فسافر الى بافلوفسك ، قد رفض ، لسبب مفاجئ ، أن يتغدى عند الجنرالة ايبانتشينا ؛ وعاد الى بطرسبرج ، وأسرع الى فندق «الميزان» فوصله قبل الساعة السابعة من المساء . فلما وجد الرسالة التى تبلغه أن الأمير بالمدينة ، هرع الى العنوان المشار اليه فى الرسالة . فقيل له فى الفندق ان الأمير قد خرج . فنزل الى قاعة الطعام ينتظره وهو يحتسى الشاى ويصغى الى أنغام الهارمونيكا الالية . وشاءت المصادفة أن يسمع أناسا يتحدثون عن رجل سقط على السلّم فى نوبة صرع ، فأوجس بما يشبه النبوءة أن الرجل قد يكـــون هو الأمير ، فأسرع الى مكان الحادث فتعرَّف الأمير فعلا . وسرعان ما اتخذت الاجراءات اللازمة فأُصعد الأمير الى غرفته . وقد ثاب الى الأمير بعض شعوره ، لكنه لم يسترد وعيه كاملا الا بعد مدة طويلة . وقال الطبيب الذى استدعى لفحص جروح الرأس ان الاصابات بسيطة ليس فيها خطر ، ونصح للرضوض بكمادات . وبعد ساعة من الزمن كان الأمير قد عاد يعى كل ما يحيط به وعيا كاملا . وعندئذ

نقله كوليا بالعربة من الفندق الى دار ليبيديف . فاستقبله استقبالا فيه كثير من الاهتمام والرعاية والاحترام . حتى لقد قدَّم فى سبيله موعد السفر الى الريف ، فبعد ثلاثة أيام كان الجميع فى بافلوفسك .

الفصل السادس

ان منزل ليبيديف في الريف كان صغيرا لكنه مريح بل وجميل . والجزء المعدّ للتأجير منه قد أُولى تزيينه عناية خاصة . ففي الشرفة الواسعة المطلة على الشارع عند مدخل الدار وضعت أحواض كبيرة من خشب مدهون باللون الأخضر ، فيها شجيرات برتقال وليمون وياسمين لا بد أن يكون لها أجمل الأثر ، في تقدير ليبيديف . ان عددا من هذه الشجيرات قد اشتراه مع المنزل نفسه ؛ وبلغ من اعجابه بمنظرها على الشرفة أنه انتهز فرصة بيع بالمزاد فاشترى عددا آخر من نوعها ؛ وفي اليوم الذى نقلت فيه الشجيرات كلها أخيرا الى المنزل الريفى ووضعت فى مكانها ، أصبح ليبيديف يهبط درجات الشرفة عدة مرات ليتأمل منظرها من الشارع ، حاسبا فى كل مرة الزيادة التى سيطلبها من المستأجر المقبل . أعجب الأمير بالمنزل كثيرا ، وكان ما يزال خائر القوة ، كامد النفس ، محطَّم البدن . الواقع أنه يوم وصوله الى بافلوفسك ، أى فى اليوم الثالث الذى انقضى على نوبة الصرع ، كان قد استردَّ مظهر الصحة والعافية ، ولكنه لمَّا يشعر بأنه أبلَّ ابلالا تاما . وقد أسعده أن يرى من حوله ناسا خلال تلك الأيام الثلاثة : كوليا الذى لا يكاد يتركه ، وأسرة ليبيديف (باستثناء ابن الأخت الذى لا يعرف الأمير اين اختفى) ، وليبيديف نفسه . حتى لقد سرَّه أن زاره الجنرال ايفولجين ببطرسبرج قبل سفره . وفى ذلك المساء الذى وصل فيه الى بافلوفسك ، اجتمع حوله على الشرفة

عدد كبير من الزوار : جاء جانيا أول من جاءوا ، فلم يكد يتعرفه الأمير من شدة تغيره وفرط نحوله ؛ ثم جاءت فاريا ومعها بتيتسين ، وكانا يصطافان فى بافلوفسك أيضا . وكان الجنرال ايفولجين يلبث عند ليبيديف طول الوقت تقريبا ، وكأنه انتقل معه . وكان ليبيديف يبذل قصاراه ليبقيه بقربه وليمنعه من مقاربة الأمير . وكان يعامله معاملة الصديق للصديق ، وكان يبدو على الرجلين ان كل واحد منهما قد عرف الاخر منذ عهد بعيد . وقد رآهما الأمير عدة مرات فى أثناء تلك الأيام الثلاثة يندفعان فى محادثات طويلة ، فكانا يصيحان ويتناقشان احيانا فى مسائل علمية كما تبدو ، وذلك أمر كان واضحا أنه يعجب ليبيديف . حتى ليتصور المرء ان ليبيديف أصبح لا يستطيع الاستغناء عن الجنرال . وكان ليبيديف يتخذ ازاء اسرته نفس الاحتياطات التى كان يتخذها ازاء الأمير ، منذ اقامتهم فى المنزل الريفى . فكان بحجة عدم ازعاج الأمير لا يدع لأحد أن يدنو منه ، فعند اول شبهة ان بناته ماضيات الى الشرفة التى يجلس فيها الأمير ، كان يقرع الأرض بقدمه ويركض ليطردهن بمن فيهن فيرا ، التى تحمل الطفل بذراعيها ، رغم ان الأمير قد رجاه ان لا يبعدوا احدا عنه .

وردّ أخيرا على سؤال الأمير المباشر شارحا له :

— ان رفع التكليف هذا لا بد أن يؤدى الى عدم الاحترام ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فان ذلك يكون من جانبهن مجافاة للياقة والكياسة . . .

فكان الأمير يعترض قائلا :

— لماذا ؟ حقا أن رقابتك وحراستك لا تزيدان على

أن تحزنانى . قلت لك مرارا اننى أشعر بسأم وضجر من الوحدة ، وانك تضاعف هواجسى حين أراك ما تنفك تحرك يديك باشارات وايماءات ، وتسير على رؤوس الأصابع .

كان الأمير يُلمع بذلك الى ان ليبيديف نفسه خلال هذه الأيام الثلاثة كان يدخل عليه فى كل لحظة ، رغم انه كان يطرد بناته بحجة توفير الهدوء والسكينة للمريض . كان ليبيديف يبدأ بأن يشق الباب ، فيُدخل منه رأسه ، ويتفحص الغرفة كأنما ليتحقق من وجود الأمير فيها ، ومن أنه لم يهرب ؛ ثم يدنو من المقعد خلسةً على رؤوس الأصابع ، فيروِّع الأمير أحيانا بظهوره المفاجئ غير المتوقع ، ويسأله باستمرار أهو فى حاجة الى شىء ؟ فاذا رجاه الأمير أخيرا أن يدعه وشأنه خرج طائعا دون أن يقول كلمة واحدة ، سائرا على رؤوس الأصابع أيضا ، محركا يديه باشارات وايماءات كذلك ، كأنما ليوهم بأنه لم يدخل الا عابرا ، وأنه لم يبق ثمة ما يضيفه ، وأنه خارج ولن يعود . ولكن ذلك لا يمنعه من أن يظهر مرة أخرى بعد ربع ساعة ، ان لم يكن بعد عشر دقائق . وكان كوليا الذى يجوز له أن يلقى الأمير فى كل لحظة بغير حظر يثير أسى ليبيديف الذى كان هذا التفضيل يغيظه ويحنقه الى أبعد الحدود . وقد لاحظ كوليا أن ليبيديف كان يقف وراء الباب فى بعض الأحيان نصف ساعة يتجسس على حديثه مع الأمير ، ولم يغب عن بال كوليا طبعا أن ينبه الأمير الى ذلك .

قال الأمير يحتج على ليبيديف :

— انك تحجر علىَّ كأنك ولىُّ أمرى . وأنا اود أن يكون الأمر على غير هذه الحال ، على الأقل هنا فى الريف .

فاعلم أننى سأستقبل من أريد استقباله ، واننى سأذهب الى حيث يحلو لى أن أذهب .

فأجابه ليبيديف محركا ذراعيه :

— طبعا ، بدون أدنى شك !

فنظر اليه الأمير من الرأس الى القدمين .

— قل لى يا لوكيان تيموفئفتش : هل نقلت الى هنا الخزانة الصغيرة التى كانت عندك فى بطرسبرج ، فوق سريرك ؟

— لا ، لم أنقلها !

— كيف ؟ أتركتها هناك ؟

— لا سبيل الى نقلها . فلو أردت نقلها لوجب انتزاعها من الجدار . انها مثبتة فيه تثبيتا قويا متينا .

— قد يكون ثمة خزانة مثلها هنا ؟

— نعم ، بل ثمة خزانة أفضل منها . وهذا أحد الاسباب التى دفعتنى الى شراء هذا المنزل .

— آ . . . ومن هو ذلك الشخص الذى حجبت عنه الوصول الى غرفتى منذ ساعة ؟

— هو . . . هو الجنرال . نعم ، صحيح ، لم أسمح له أن يدخل . ليس هذا المكان مكانه . يا أمير ، اننى احترم هذا الرجل احتراما عميقا . انه . . . انه رجل عظيم ، ألا تصدقنى ؟ طيب . . . لسوف ترى ! . . . ومع ذلك فان الأفضل يا سمو الأمير أن لا تستقبله في بيتك .

— هلاَّ سمحت لى أن أسألك لماذا يجب أن لا أستقبله فى بيتى ؟ ولماذا أراك الآن ، يا ليبيديف ، تقف على رؤوس الأصابع وتظل تدنو منى دنوَّ من يريد أن يفضى الىَّ بسرٍ همسا فى الأذن ؟

أجاب ليبيديف فجأة ، وهو يلطم صدره بيده ، قائلا بلهجة مؤثرة :

— من حطتى ودناءتى ! اننى أحس ذلـــك . ولكن ألا يمكن أن يكون الجنرال مضيافا الى حد الغلو ، بالنسبة اليك ؟

— مضيافا الى حد الغلو ؟

— نعم ، مضيافا الى حد الغلو ! هو أولا ينوى ان يستقر فى منزلى ساكنا مقيما . هبنا قبلنا هذا على كل حال . ولكن المهم أنه لا يشعر بحرج ، فسرعان ما يحشر نفسه فى الأسرة . لقد سبق أن درسنا معا عدة مرات روابط القرابة التى تجمعنا ، فاتضح أننا أقرباء بالمصاهرة . وأنت أيضا تمت اليه بقربى من جهة أمك . شرح لى ذلك أمس . فاذا كنت أنت قريبه ، فانا وانت اذن قريبان ايضا يا سموَّ الأمير . على كل حال ، هذه مسألة بسيطة . . . نقطة ضعف يسيرة . . . لكنه قد أكد لى قبل لحظة أنه طوال حياته ، منذ حصل على رتبة مرشّح الى اليوم الحادى عشر من شهر حزيران من العام الماضى ، لم يقلّ عدد الضيوف على مائدته كلَّ يوم عن مائتى شخص ، ووصل به الامر انه قال اخيرا ان المائدة لا تخلو فى لحظة من اللحظات : فمن افطار الى غداء الى شاى الى عشاء خلال خمس عشرة ساعة متصلة غير منقطعة . وقد قال ان هذه الحال دامت ثلاثين عاما بلا انقطاع ، فلا يكاد يتسع الوقت أثناء ذلك لتجديد غطاء المائدة ؛ وما ان ينهض ضيف لينصرف حتى يجيء ضيف آخر فيحل محله . وفى أيام الأعياد ، ولا سيما أعياد ميلاد افراد الأسرة الامبراطورية ، كان عدد ضيوف

الجنرال يبلغ ثلاثمائة . وقد بلغ عددهم سبعمائة عند الاحتفال بالذكرى الألفية لروسيا* . شىء رهيب . ان قصته لا تبشّر بخير ، وانه لمن الخطر أن يستقبل المرء فى بيته أناسا يبلغون هذا المبلغ من كرم الضيافة . لذلك تساءلت ألا يمكن أن يكون الجنرال مضيافا الى حد الغلو ، بالنسبة اليك ، وبالنسبة الىَّ أيضا ؟

— يبدو لى ان علاقاتكما علاقات طيبة جدا ، أليس كذلك ؟

— علاقات اخ بأخ . اننى أحمل قوله على محمل المزاح . فأن نكون قريبين بالمصاهرة فهذا لا يضيرنى ، بل هو شرف لى . اننى أعدُّ الجنرال شخصا ممتازا رغم ضيوفه المائتين ورغم الحفلة الألفية . أعلن هذا صادقا كل الصدق . لقد قلت لى منذ هنيهة يا أمير اننى أدنو منك دنوَّ من يريد أن يفضى اليك بسرٍ يملكه . حقا أن لدىَّ سرا أريد أن أفضى به اليك : هناك انسانة أعلمتنى منذ برهة أنها تتمنى كثيرا أن تلقاك خفيةً .

— لماذا خفيةً ؟ كلا . سأذهب اليها بنفسى ، اليوم اذا لزم الأمر .

عاد ليبيديف يقول وهو يحرك يديه بايماءات النفي :

— لا ، لا . ليست مخاوفها هى ما تظن أنت . بالمناسبة . ان الشيطان يأتى كل يوم سائلا عن صحتك . هل تعلم هذا ؟

— أنت تصفه دائما بأنه شيطان . وأرى أن هذا يوجب الشبهة والشك !

أجاب ليبيديف مسرعا :

— لا مجال لشبهات وشكوك . وانما أردت أن أقول انه ليس هو تخشاه تلك الانسانة . ان مخاوفها ترجع الى غير هذا !

سأله الأمير بفارغ الصبر ناظرا الى اصطناعه هيئة السر :

— الى ماذا ترجع مخاوفها ؟ قل بسرعة !

فأجاب ليبيديف :

— ذلك هو السر !

وابتسم ابتسامة قصيرة .

— سرّ من ؟

— سرك . لقد منعتنى أنت نفسك يا سمو الأمير أن أتكلم أمامك . .

بهذا تمتم ليبيديف . واذ لاحظ مبتهجا أنه استطاع أن يحوّل حب الاطلاع عند محدثه الى توتر مؤلم ختم كلامه فجأة :

— هى خائفة من آجلايا ايفانوفنا .

فقطب الأمير حاجبيه ثم قال بعد دقيقة صمت :

— قسما بربى يا ليبيديف ! ساترك منزلك . أين جافريلا آردالیونتش وأسرة بتيتسين ؟ عندك ؟ استبقيتهم عندك ايضا .

— سيأتون ، سيأتون . وسيأتى الجنرال أيضا بعدهم . سأفتح أبوابى كلها ، وسأنادى بناتى جميعهن ، جميعهن فى هذه اللحظة نفسها .

بهذا همس ليبيديف مذعورا وهو يحرك يديه ويركض من باب الى باب .

وفى تلك اللحظة ظهر كوليا فى الشرفة آتيا من الشارع ،

فأعلن أن زائرات هن اليزافيتا بروكوفيفنا وبناتها الثلاث واصلات وراءه .

فقال ليبيديف يسأل مضطربا لهذا النبأ أشد الاضطراب :

— أيجب أن أدخل أسرة بتيتسين وجافريلا آردالیونتش أم لا ؟ أيجب أن أسمح للجنرال بالمجيء ؟

قال الأمير ضاحكا :

— لِمَ لا ؟ فليدخل من يشاء أن يدخل . أؤكد لك يا ليبيديف أنك فهمت علاقاتى فهما خاطئا منذ أول يوم . أنت فى ضلال متصل مستمر . ليس هناك أى سبب يدعونى الى أن اختبىء عن أحد .

فحين رآه ليبيديف ضاحكا اعتقد أن من واجبه أن يقلده ، فأخذ يضحك هو أيضا . كان واضحا أنه مسرور أشد السرور رغم اضطرابه الشديد .

كان النبأ الذى أعلنه كوليا صحيحا : لم يكن كوليا يتقدم أفراد أسرة ايبانتشين الا بضع خطوات ، ليبلغ عن قدومهن . وهكذا دخل زوار من جهتين فى آن واحد : فأفراد أسرة ايبانتشين جئن من جهة الشرفة ، بينما جاءت اسرة بتيتسين وجانيا والجنرال ايفولجين من داخل المنزل .

ان كوليا هو الذى أعلم منذ قليل أسرة ايبانتشين بمرض الأمير وبوصوله الى بافلوفسك . وكانت الجنرالة حتى ذلك الحين فى حيرة أليمة . كان زوجها قد نقل الى الأسرة ، أمس الأول ، بطاقة الأمير ، فاستنتجت اليزافيتا بروكوفيفنا بدون أى تردد أن الأمير لن يتأخر عن المجيء الى بافلوفسك لزيارتهن . وعبثا حاولت الآنسات أن يعترضن على استنتاجها بأن الأمير الذى لبث ستة أشهر لا يكتب اليهن قد لا يستعجل

زيارتهن ، فربما كانت له ببطرسبرج مشاغل كثيرة أخرى — من ذا يعرف شئونه ؟ وقد اثارت هذه الاعتراضات سخط الجنرالة ، وكانت مستعدة لأن تراهن على أن الأمير سيجيء في الغد على اقصى تقدير رغم ان ذلك «سيكون متأخرا» . وانتظرته في الغد طوال الصباح ، ثم انتظرته على الغداء ، ثم انتظرته أخيرا في السهرة . فلما هبط الليل اعتكر مزاجها ، فصارت تشاجر الجميع ، ولكن دون أن تقحم اسم الأمير في مشاجراتها طبعا . ولم تشر اليه في اليوم التالي كذلك . لاحظت آجلايا عن غير قصد أثناء الغداء ان maman غضبى لأن الأمير لم يجيء ، فأسرع الجنرال يقول : «ليس هذا ذنبه» ، أما اليزافيتا بروكوفيفنا فنهضت غاضبةً وغادرت المائدة . ووصل كوليا أخيرا في المساء ، فأبلغهن أنباء الأمير ، وحكى لهن كل ما عرفه عما وقع له . فكان هذا فرحة انتصار لاليزافيتا بروكوفيفنا ؛ ومع ذلك طفقت تؤاخذ كوليا ، فقالت معرضة به : «احيانا تقضي هنا أياما بكاملها فلا نعرف كيف نتخلص منك ، اما هذه المرة فانت غائب ، كان من الممكن أن تخبرنا بما وقع اذا لم يخطر ببالك ان تزورنا» . أوشك كوليا أن يغضب حين سمع قولها : «فلا نعرف كيف نتخلص منك» ، لكنه أرجأ حقده . ولقد كان يمكنه أن يغفر لها لولا أن التعبير يبلغ هذا المبلغ من ايذاء الكرامة ، لشدة اغتباطه بما ظهر على اليزافيتا بروكوفيفنا من انفعال واضح وقلق بين حين علمت بمرض الأمير . وألحت الجنرالة طويلا على ضرورة ايفاد رسول الى بطرسبرج بلا ابطاء ليجيء بطبيب شهير في اول قطار . فثنتها بناتها عن ذلك ، ولكنهن لم يشأن

أن يقصّرن عن أمهن التي استعدت في لمح البصر لكي تزور المريض .

قالت وهي تتحرك هنا وهناك :

— لا داع لان نتكلّف وهو على فراش الموت !

أهو صديق للأسرة أم لا ؟

قالت آجلايا :

— ولكن «لا تنزل الماء ما لم تضمن المخرج !»*

— طيب . لا تذهبي أنت . وذلك أفضل . لأن يفغيني بافلوفتش سيجيء ، فلا بد أن يكون أحد في استقباله .

وقد أسرعت آجلايا ، بعد هذا الجواب ، تنضم الى أمها وأختيها طبعا ؛ وكانت تلك نيتها منذ البداية على كل حال . ووافق الأمير «ش . . .» الذي كان يصحب آديلائيدا ، على أن يرافق السيدات تلبيةً لطلب الفتاة . وكان قد اهتم ، منذ أن صارت له علاقات بأسرة ايبانتشين ، اهتماما شديدا بالامر بعد ان سمع كلامهن عن الأمير . اتضح انه كان يعرف الأمير ، وانه تعرّف عليه نحو ثلاثة أشهر ، وقضى معه زهاء اسبوعين في مدينة صغيرة ؛ وقصّ امورا كثيرة عن الأمير وكان يحمل له أجمل المحبة وأطيب المودة . لذلك رضي ، مبتهجا ابتهاجا صادقا ، أن يشارك في زيارة صاحبه القديم . ولم يكن الجنرال ايفان فيدوروفتش بالمنزل في ذلك اليوم ، ولا كان يفغيني بافلوفتش قد وصل .

لا تزيد المسافة بين منزل أسرة ايبانتشين ومنزل ليبيديف على ثلاثمائة خطوة . وحين دخلت الجنرالة على الأمير كان أول شعور مزعج أحست به هو أنها وجدت حوله جمهرة كبيرة من الناس ، لا سيما وأن شخصين أو ثلاثة أشخاص

منهم كانوا ممن تكرههم . يضاف الى ذلك أنها دُهشت كثيرا حين تقدم اليها الأمير فرأت شابا يدل ظاهره على أن صحته جيدة ، ويرتدى ثيابا أنيقة ، ويبدو عليه المرح والبشر ، بدلا من أن ترى الفتى المحتضر على فراش الموت الذى كانت تتوقع أن تراه ؛ فوقفت مذهولة ، فما كان أشد فرح كوليا الذى كان فى وسعه أن يطلعها على حقيقة الأمر قبل أن تخرج من دارها وان يخبرها أن احدا لا يحتضر وأن ليس هناك فراش موت ، ولكنه حرص على أن لا يفعل ، لأنه تنبأ ماكرا بالغضب المضحك الذى لا بد أن تُظهره حين ترى صديقها العزيز فى صحة جيدة . حتى لقد تجاوز كوليا حدود اللياقة ، فأعلن بصوت عال ما كان يتنبأ به ، ليجعل اليزافيتا بروكوفيفنا تبلغ من الغضب أقصى ذروة . لقد كان كوليا يخز الجنرالة دائما ، وكانت وخزاته فى بعض الأحيان جارحة جدا ، رغم ما بينهما من صداقة .

ردَّت عليه الجنرالة قائلة وهى تجلس على المقعد الذى قدَّمه نحوها الأمير :

— صبرك يا عزيزى ، لا تتعجل هذا التعجل كله ! لا تفسد انتصارك !

وأسرع ليبيديف وبتيتسين والجنرال ايفولجين يقدِّمون مقاعد للآنسات . قدَّم الجنرال كرسيا لآجلايا . وقرَّب ليبيديف كرسيا آخر للأمير «ش . . .» وهو ينحنى أمامه انحناء شديدا باحترام عظيم . وحيَّت فاريا الآنسات همسا وبكثير من الحرارة والتودد على عادتها .

قالت الجنرالة :

— صحيح يا أمير أننى كنت أقدِّر أن أجدك فى

السرير ، من فرط ما ضخَّمت مخاوفى الأمور ؛ وانى لأعترف لك ، حتى لا أكذب ، بأننى تضايقت كثيرا حين رأيتك طلق المحيَّا منذ قليل ، ولكننى أحلف لك ان هذا التضايق لم يدم الا دقيقة واحدة هى المدة التى كان لا بد منها للتفكير . اننى حين أفكِّر يصبح سلوكى أسلم وكلامى أعقل وأرشد . أظن أن هذه حالتك أنت أيضا . فى الواقع لو كان لى ابن مريض لما سُررت بشفائه أكثر من سرورى بشفائك . فاذا لم تصدق كلامى كان هذا عارا عليك لا علىَّ . ولكن هذا الولد الخبيث يسمح لنفسه بأن يدبر لى مكائد أنكى كثيرا من هذه المكيدة : يظهر أنك ترعاه وتحميه . فاعلم اذن اننى فى ذات يوم سأحرم نفسى من متعة وشرف صحبته ، صدِّقنى . . .

صاح كوليا يقول :

— ولكن ما هو الذنب الذى ارتكبته ؟ لو قد أكَّدت لك أن الأمير أبلَّ من مرضه تقريبا لما ارتضيت أن تصدقينى . لقد كنت تريدين أن تتصوريه راقدا على فراش الموت . تلك صورة تشوقك أكثر . . .

قالت اليزافيتا بروكوفيفنا تسأل الأمير :

— أأنت باق هنا مدة طويلة ؟

— الصيف كله ، وقد أزيد .

— أأنت وحيد ؟ ألم تتزوج ؟

أجاب الأمير مبتسما من سذاجة وخزة الجنرالة هذه .

— لا ، لم أتزوج .

— لا حاجة الى الابتسامات . ذلك يمكن ان يحدث . لكننى أفكر فى الاصطياف : لماذا لم تنزل عندنا ؟ ان

فى دارنا جناحا بكامله لا يشغله أحد . على كل حال ، هذا شأنك أنت !

ثم أضافت تسأل بصوت خافت وهى تومىء برأسها الى ليبيديف :

— أأنت مستأجر عند هذا الشخص ؟ ما باله يتلوى طول الوقت ؟

وفى تلك اللحظة ظهرت فيرا فى الشرفة خارجة من داخل المنزل . انها على عادتها تحمل الطفل بذراعيها . وكان ليبيديف يدور حول الكراسى لا يعرف ماذا يعمل بنفسه ولكنه لا يريد ابدا أن ينصرف ، وها هو ذا يهجم فجأة على ابنته ويأخذ يحرك يديه باشارات كثيرة ليبعدها ، حتى لقد نسى نفسه فقرع الأرض بقدمه .

اضافت الجنرالة تسأل فجأة :

— أ هو مجنون ؟

— لا ، ولكنه . . .

— فلعله اذن سكران ؟ . . .

ثم قالت بلهجة حادة بعد أن ألقت نظرة على سائر الزوار :

— لا يسرّني هؤلاء الذين يحيطون بك . على كل حال ، هذه فتاة لطيفة . فمن هى ؟

— هى فيرا لوكيانوفنا ، ابنة ليبيديف هذا .

— آ . . . هى لطيفة حقا . . . أريد أن أتعرف اليها .

ولكن ليبيديف الذى سمع أقوال المديح هذه تزجيها اليزافيتا بروكوفيفنا ، كان قد أخذ يقود ابنته نحوها ليقدمها اليها .

قال فى رقة وتأثر وهو يقترب :

— يتامى ! انهم يتامى . والطفل الذى تحملـه بذراعيها يتيم أيضا . هذه أختها ليوبوف ، ابنتى التى وُلدت لى من زواجى الشرعى جدا بزوجتى ايلينا التى توفاها الله أثناء الوضع منذ ستة أسابيع . . . نعم . . . هى للطفل بمثابة أم ، رغم أنها ليست الا أخته ، ليست الا أخته ، ليست الا أخته فحسب . . .

قالت اليزافيتا بروكوفيفنا بلهجة حادة وقد اعترتها نوبة استياء مفاجئة :

— وأنت أيها الرجل لست الا غبيا فحسب . اغفر لى صراحتى . وكفى الآن هذا ! أحسب أنك تدرك ذلك بنفسك !

فأجاب ليبيديف وهو ينحنى انحناءة شديدة باحترام عميق :

— هذه هى الحقيقة بعينها !

سألته آجلايا :

— قل لى يا سيد ليبيديف : يدعى بعضهم أنك تفسر رؤيا يوحنا ، فهل هذا صحيح ؟

— هذه هى الحقيقة بعينها ! ما برحت أفسرها منذ خمسة عشر عاما .

— سمعت عنك ، بل أظن أن الجرائد جاءت على ذكرك .

قال ليبيديف وقد أخذ يشعر بفرح لا يوصف :

— لا . الجرائد تكلمت عن شارح آخر مات فحللت محلّه .

— اعمل معروفا ، وتعال الىّ ذات يوم ما دمنا جيرانا لتفسّر لى بعض فقرات من رؤيا يوحنا . اننى لا أفهم منها شيئا .

أسرع الجنرال ايفولجين يقول وهو يتحرق شوقا للتدخل فى الحديث :

— لا أستطيع أن أعفى نفسى من واجب تنبيهك يا آجلايا ايفانوفنا الى أن هذا كله ليس الا تدجيلا منه ، صدّقينى . . .

وتابع الجنرال ايفولجين كلامه يقول بعد ان جلس بجانب آجلايا :

— صحيح أن للحياة فى الريف حقوقها ، كما أن لها مسراتها . ولأن يستقبل المرء فى بيته رجلا دخيلا[1] من اجل أن يشرح له رؤيا يوحنا فهذه نزوة كغيرها من النزوات ، ولعلها نزوة بارعة الذكاء ، لكننى . . . مالك تنظرين الىّ مدهوشة ؟ اسمحى لى أن أقدم اليك نفسى : أنا الجنرال ايفولجين . لقد حملتك على ذراعىّ يا آجلايا ايفانوفنا .

دمدمت آجلايا وهى تبذل جهودا كبيرة من أجل أن لا تنفجر ضاحكة :

— سعيدة بمعرفتك . اننى أعرف باربارا آردالیونوفنا ونينا ألكسندروفنا . . .

غضبت اليزافيتا بروكوفيفنا حتى احمرت أشد الاحمرار . ان ما كظمته فى قلبها مدة طويلة كان فى حاجة الى أن

---

[1] intrus — كتبت فى الأصل كما تلفظ بالفرنسية ولكن بحروف روسية .

ينطلق . وكانت لا تطيق احتمال الجنرال ايفولجين الذى سبق أن عرفته فى الماضى منذ زمن بعيد . قالت له بلهجة غاضبة حادة :

— أنت تكذب ، يا سيدى ، على عادتك ! انك لم تحمل ابنتى على ذراعيك فى يوم من الأيام !

فأبدت آجلايا كلام الجنرال فجأة فتقول :

— أنت نسيت يا maman . لقد حملنى على ذراعيه أى والله . كان ذلك فى تفير التى كنا نقيم بها أيامئذ . كان عمرى ست سنين تقريبا ، ما زلت أتذكر هذا . وقد صنع لى قوسا وسهما وعلّمنى الرماية فاصطدت حمامة . ألا تتذكر أننا اصطدنا معا حمامة ؟

وهتفت آديلائيدا تقول :

— وأعطانى خوذة من كرتون وسيفا من خشب . أنا أيضا أتذكر . — وزادت ألكسندرا فقالت :

— أنا أيضا أتذكر . حتى لقد تشاجرتما على الحمامة الجريح ، فوُضعت كل واحدة منكما فى ركن . وكانت آديلائيدا تقف فى ركنها مع خوذتها وسيفها .

حين ذكّر الجنرال آجلايا بأنه حملها على ذراعيه ، فانه لم يكن يبغى الا أن يقول شيئا ما ليجرى معها حديثا ، كما يفعل هذا نفسه كلما أراد أن يتعرف الى شبان او شابات . ولكن شاءت المصادفة ، كما لو عمدا ، أن يكون كلامه فى هذه المرة صحيحا ، لأنه ذكّر بواقعة صادقة كان قد نسيها هو نفسه كما لو عمدا . فلما قالت آجلايا على غير توقع انهما اصطادا حمامة معا ، عادت اليه ذاكرته دفعة واحدة ، فتذكر كل شىء بأدق تفاصيله ،

كما يحدث ذلك فى أحيان كثيرة للشيوخ حين يتذكرون ماضيا بعيدا . انه ليصعب علينا أن نقول ما هو الشىء الذى أثار انفعال الجنرال المسكين السكران بعض الشىء على عادته من تلك الذكرى ولكنه قد تأثر تأثرا شديدا .

فصاح يقول :

— أتذكر ، أتذكر كل شىء ! كنت عندئذ نقيبا . وكنت أنت صغيرة جدا ، لطيفة حلوة ! . . يا نينـــا ألكسندروفنا ! . . يا جانيا ! . . كان ذلك فى الزمن الذى استُقبلت فيه عندكم . . . ايفان فيودوروفتش . . .

قالت الجنرالة :

— فانظر الى أين صرت الآن ! على أن الشراب لم يخنق فيك العواصف النبيلة ، ما دمت تتأثر هذا التأثر من تلك الذكرى . ولكنك عذَّبت امرأتك عذابا شديدا . وبدلا من أن تكون قدوةً ومثالا لأولادك وُضعت فى سجن الديون . إذهب من هنا يا صاحبى ! انسحب الى أى مكان ، الى ما وراء الباب ، الى ركن من الأركان ، لتبكى وتتذكر براءتك القديمة ، فلعل الله أن يغفر لك ويتوب عليك ! هيَّا ، اذهب ! اننى أكلمك جادة لا هازلة . لا شىء ينفع فى اصلاح المرء كما تنفعه ذكرى ماضيه نادما !

لم يكن ثمة داع الى تذكيره بان الكلام جاد . لقد كان الجنرال يملك الحساسية المفرطة التى يملكها المدمنون عادة ، وكان يؤلمه كما يؤلم سائر المدمنين الساقطين أن يتذكر أيامه السعيدة . فها هو ذا ينهض ويتجه نحو الباب طائعا صاغرا ، فسرعان ما أشفقت عليه اليزافيتا بروكوفيفنا ،

فصاحت تناديه قائلة :

— آردالیون الكسندروفتش ، عزيزى ، انتظر دقيقة ! نحن جميعا خطاة آثمون . فمتى شعرتَ بأن تأنيب ضميرك قد خف بعض الشىء ، فتعال الىَّ زائرا لنجلس ونتحدث عن الماضى . ربما ارتكبتُ من الذنوب أكثر بكثير مما ارتكبته أنت . وداعا الآن ، اذهب ، انصرف ، فليس لك هنا شأن . . .

أضافت تقول هذه العبارة الاخيرة فجأة وقد روَّعها أن رأته عائدا .

همَّ كوليا أن يلحق بأبيه ، ولكن الأمير قال له :

— الأفضل أن لا تتبعه الآن . والا اعتكر مزاجه وفسد ما ينعم به من صفاء وسعادة !

فقالت اليزافيتا بروكوفيفنا :

— صحيح ! دعه ! ستلحق به بعد نصف ساعة .

فتجاسر ليبيديف فتدخل قائلا :

— هذا تأثير قول الحقيقة للانسان مرةً فى حياته : لقد تأثر حتى الدموع .

فأسرعت اليزافيتا بروكوفيفنا ترده الى مكانه قائلة له :

— وأنت أيضا ، يا صاحبى ما أحلاك اذا صدق ما سمعته عنك !

اتضحت علاقات الزوار المجتمعين عند الأمير بعضهم ببعض شيئا فشيئا . واستطاع الأمير طبعا أن يدرك حق الادراك دلائل عاطفة المودة التى تحملها له الأميرة وبناتها . فقال لهن بلهجة صادقة انه قبل زيارتهن كان قد عقد النية على أن يذهب اليهن فى ذلك اليوم نفسه رغم سوء

حالته الصحية ، ورغم أن الوقت متأخر . فأجابته اليزافيتا بروكوفيفنا ، وهى تلقى على الزوار نظرات من حين للآخر ، أن انفاذ تلك النية ما يزال ممكنا . فلم يلبث بتيتسين ، وهو رجل مهذَّب مساير ، أن نهض وانسحب الى جناح ليبيديف . وقد أراد أن يقتاد ليبيديف ، ولكنه لم يحصل منه الا على وعدٍ بأنه سيدركه فى الحال . وكانت فاريا تتحدث مع الفتيات فلم تتحرك . وقد سُرَّت هى وجانيا من انصراف الجنرال . وانصرف جانيا بعد بتيتسين بقليل . انه خلال الدقائق القليلة التى قضاها على الشرفة بحضور اسرة ايبانتشين قد حافظ على موقف متواضع كريم رصين ، ولم يرتبك بتأثير نظرة السيطرة التى ألقتها عليه اليزافيتا بروكوفيفنا مرتين من قمة رأسه الى اخمص قدميه . ان الذين عرفوه من قبل لا بد أن يبدو لهم الآن انه تغير تغيرا كبيرا . وقد أحدث وضعه أثرا حسنا جدا فى نفس اجلايا .

— أظن أن جافريلا آرداليونوفتش هو الذى خرج الآن ، أليس كذلك ؟

هكذا سألت آجلايا فجأة بصوت عال حاد ، على عادتها فى الميل الى مقاطعة حديث الآخرين احيانا على حين بغتة ، دون أن توجه الكلام الى أحد بعينه .

فأجاب الأمير بقوله :

— نعم ، هو .

قالت آجلايا :

— كدت أنكره فما أعرفه . لقد تغير كثيرا . . . لقد تحسَّن كثيرا !

قال الأمير :

— سرَّنى حاله هذا أعظم السرور .

وأضافت فاريا تقول بلهجة تعبر عن مواساة يخالطها فرح :

— كان مريضا جدا .

وسألت اليزافيتا بروكوفيفنا بنبرة فيها غضب واستغراب ويكاد يكون فيها ذعر :

— فى اى شىء تحسَّن ؟ من أين جئت بهذا ؟ انى لا ارى فيه شيئا تحسَّن . ما الذى تجدينه فيه قد تحسَّن ؟

قال كوليا فجأة وكان ما يزال واقفا قرب كرسى اليزافيتا بروكوفيفنا :

— لا شىء أحسن من «الفارس الفقير» .

قال الأمير «ش . . .» وهو يضحك :

— هذا رأيى أيضا .

وأعلنت آديلائيدا بمهابة :

— وهو رأيى كذلك .

فسألت الجنرالة وهى تحدِّق اليهم بنظرة فيها حيرة وضيق :

— أى «فارس فقير» ؟

ثم أضافت تقول غاضبة حين رأت أن آجلايا احمر وجهها :

— لا بد أنها سخافة من السخافات ! ما «الفارس الفقير» هذا ؟

قالت آجلايا بلهجة فيها غطرسة وغضب :

— أهذه اول مرة يشوِّه فيها هذا الصبى ، الأثير عندك ، أقوالَ الآخرين ؟

ان نوبات الغضب (التى كانت تعترى آجلايا فى كثير من الاحيان) ، كان يصحبها دائما تقريبا شىء من سذاجة الطفولة وعدم صبر التلميذة وخراقة التصرف رغم كل جديتها وصرامتها حتى أن المرء لا يملك أحيانا الا أن يضحك حين يراها . وكان هذا الضحك يثير ضيقها لأنها لا تستطيع ان تجد له تفسيرا ، ولا تفهم «كيف يستطيع هؤلاء الناس وكيف يجسرون أن يضحكوا» . وهذا ما حدث الآن أيضا . فضحكت اختاها وضحك الأمير «ش . . .» . حتى ان الأمير ليف نيقولايفتش نفسه لم يستطع أن يحبس ابتسامة ، وان يكن وجهه قد احمر أيضا لسبب ما . أما كوليا فقد انتصر وطفق يضحك ملء حلقه . فغضبت آجلايا ، فزادها ذلك جمالا . ان الاضطراب الذى شعرت به والغضب الذى أثاره فيها هذا الاضطراب قد ضاعفا فتنتها الاخاذة .

وعادت تتكلم فقالت :

— ما أكثر ما شوّه هذا الصبى من أقوالك .

صاح كوليا :

— أنا لم أزد على أن كررت صيحة من صيحات الاعجاب التى تطلقينها . فمنذ شهر ، حينما كنت تقرئين «دون كيشوت» ، قلت أنه لا شىء أحسن من «الفارس الفقير» . لم أكن أعرف من ذا الذى كنت تقصدين حينذاك : أهو دون كيشوت ، ام يفغينى بافلتش ، أم شخص آخر ؟ وانما المهم أن أقوالك كانت تعنى أحدا ما . وقد جرى حول هذا حديث طويل طويل . . .

قالت اليزافيتا بروكوفيفنا بلهجة انزعاج :

— أرى يا صديقى أنك تسمح لنفسك بالاسراف

فيما تمضى اليه من افتراضات . . .

فتابع كوليا كلامه مماحكا :

— أأنا الوحيد ؟ لقد تكلم الجميع فى هذا وما زالوا يتكلمون : فمنذ لحظة واحدة قال الأمير «ش . . .» وآديلائيدا ايفانوفنا والآخرون انهم من انصار «الفارس الفقير» . فهذا الفارس موجود اذن بالفعل ، وفى رأيى أننا كان فى وسعنا جميعا أن نعرف من هو ، لولا آديلائيدا ايفانوفنا .

سألت آديلائيدا ضاحكة :

— ما ذنبى أنا ؟

— ذنبك انك لم ترسمى لنا صورة وجهه ! ان آجلايا ايفانوفنا قد رجتك أن تفعلى حتى لقد أمدَّتك بجميع تفاصيل اللوحة كما تتصورها هى ، ألا تتذكرين ؟ ولكنك لم تشائى . . .

— ولكن كيف كان فى وسعى أن أفعل ، ومن ذا الذى كان يمكننى أن أصوِّره ؟ ان «الفارس الفقير» هو كما وُصف لى رجل

لم يرفع أمام أحد
حافة خوذته الفولاذية .

فما هو الوجه الذى يجب أن أهبه له ؟ ماذا أصوِّر ؟ أأصور حافة خوذة ؟ أأصوِّر وجها ليس وجه أحد ؟

قالت الجنرالة منزعجة :

— لست أفهم شيئا . ما حافة الخوذة هذه التى تتكلمون عنها ؟

وكانت الجنرالة فى الواقع قد بدأت تحدَّد بوضوح

شخصية صاحب لقب الفارس الفقير (الذى لعله قد تم تخيله منذ مدة طويلة) ، غير أن الأمر الذى أثار استياءها خاصة ، انما هو ما رأته فى هيئة الأمير ليف نيقولايفتش من ارتباك تحوّل أخيرا الى حيرة كحيرة طفل فى العاشرة من عمره . فهتفت تقول :

— أما لهذه السخافات من آخر ؟ هلاً شرحتم لى أخيرا قصة «الفارس الفقير» هذه ؟ أهذا سر كبير فلا تجوز مقاربته ؟

ولكن الجميع لم يزيدوا على أن استمروا فى الضحك .

فتدخل الأمير «ش . . .» أخيرا فمن الواضح أنه أراد أن يحوّل الحديث عن مجراه بسرعة :

— الأمر أمر قصيدة روسية غريبة بعض الغرابة ، لا أكثر من ذلك . هى أبيات من قصيدة لا ذنب لها ولا رأس ، تصوّر «فارسا فقيرا» . فمنذ نحو شهر فى ذات مرة بعد الغداء ، كنا قد ضحكنا جميعنا كثيرا ونحن نبحث على عادتنا عن موضوع للوحة الجديدة التى سترسمها آديلائيدا ايفانوفنا . انك لا تجهلين ان هذا البحث عن موضوع للوحات آديلائيدا ايفانوفنا قد أصبح واجبا من واجبات الاسرة كلها منذ زمن طويل . وفيما نحن نبحث ، وقعنا على موضوع «الفارس الفقير» . . . ولست أذكر من ذا الذى خطرت بباله فكرته قبل الآخرين . . .

صاح كوليا يقول :

— هذه فكرة آجلايا ايفانوفنا !

وتابع الأمير «ش . . .» كلامه فقال :

— جائز جدا . موافق . ولكننى لا أذكر . فبعضهم

ضحك من الموضوع ، وبعضهم أكد أنه ليس ثمة موضوع أرفع منه ولا أسمى ، ولكن لا بد على كل حال من أن نخلع على «الفارس الفقير» وجها . فأخذنا نبحث عن وجه بين وجوه جميع الناس الذين نعرفهم ، ولكن أحدا منهم لم يقع عليه الاختيار ، ووقف الأمر عند ذلك الحد . هذا كل شىء . ولا أدرى لماذا خطر ببال نيقولاى آرداليونوفتش أن يعيد هذا الأمر الى الأذهان . فان ما كان مسليا ومناسبا فى الماضى قد أصبح اليوم غير ممتع .

قالت اليزافيتا بروكوفيفنا بلهجة قاطعة :

— لانهم يدبرون سخافة جديدة جارحة مؤذية .

قالت آجلايا :

— لا شىء من ذلك البتة . وليس ثمة الا التعبير عن احترام عميق .

نطقت آجلايا فجأة تلك الكلمات بلهجة فيها رصانة ووقار شديد غير متوقع . فهى لم تسيطر على نفسها ولم تتغلب على ارتباكها فحسب ، بل يبدو عليها أيضا من بعض القرائن أنها الآن مسرورة باتساع نطاق المزاح . وقد حدث هذا الانقلاب فى نفسها حين لوحظ بوضوح وجلاء أن حيرة الأمير قد أخذت تشتد أكثر فأكثر فوصلت الى ذروتها .

— يضحكون كالمجانين ، ثم اذا بهم يتحدثون فجأة عن احترامهم العميق ! مجانين ! لماذا الاحترام ؟ اجيبينى فورا : من أين جاءك هذا الاحترام العميق بغتة بلا سبب أو مبرر ؟

فقالت آجلايا تجيب عن السؤال الذى ألقته عليها

أمها بنبرة فيها شيء من الحنق ، قالت مستطردة بتلك اللهجة الرصينة الوقور نفسها :

— تكلمت عن احترام عميق ، لان تلك الأشعار فى القصيدة تتحدث عن رجل قادر على أن يكون له مثل أعلى ، وقادر متى حدد لنفسه ذلك المثل الأعلى على أن يؤمن به ايمانا أعمى وعلى أن ينذر له حياته كلها . وهذا أمر ليس شائعا فى زماننا الحاضر . ان القصيدة لا تعين لنا المثل الأعلى الذى يؤمن به «الفارس الفقير» ، ولكننا نرى بوضوح أن ذلك المثل الأعلى نوع من صورة مضيئة هى «آية الجمال الطاهر النقى» ؛ حتى أن الفارس العاشق يلف عنقه بمسبحة بدلا من أن يلفعه بمنديل . صحيح أن هناك أيضا شعارا غامضا مبهما تعبر عنه هذه الأحرف الثلاثة «آ . ن . ب .» التى رسمها على ترسه .

فانبرى كوليا يصحح قائلا :

— بل «آ . م . د .»

فردّت آجلايا بانزعاج :

— بل «آ . ن . ب .» ، ولا أتراجع . من الواضح على كل حال أن الفارس الفقير كان لا يقيم أى وزن لما هى عليه سيدته ، ولا لما كانت تفعله . حسبه أنه اختارها وآمن «بجمالها الطاهر النقى» حتى ينحنى امامها الى الأبد . وميزته أنه ، ولو أصبحت بعد ذلك لصة ، يظل يؤمن بها ويظل مستعدا لأن يدافع عن جمالها الطاهر النقى . يبدو أن الشاعر أراد أن يجسد فى صورة استثنائية واحدة فكرة هائلة عن حب القرون الوسطى العذرى لفارس طاهر نبيل . بالطبع ، ان هذا كله ليس الا مثلا . ولكن هذا المثل

الأعلى يصل فى «الفارس الفقير» الى أعلى درجاته ، ويبلغ حدّ التقشف والنسك . يجب أن نعترف بأن القدرة على الشعور بمثل هذه العاطفة تعنى الكثير ، وأن العاطفة نفسها هى شيء ذو تأثير عميق ، وهى شيء محمود جدا من جهة ما ، بصرف النظر عن دون كيشوت هنا . ان «الفارس الفقير» هو دون كيشوت ، هو دون كيشوت جدى لا هزلى . اننى لم افهمه فى البداية ، حتى لقد ضحكت منه ، أما الآن فاننى أحب «الفارس الفقير» ، وأحترم جسارته واقدامه خاصة .

صمتت آجلايا . انه ليصعب على المرء حين ينظر اليها أن يعرف أكانت جادة فيما قالته أم كانت هازلة .

— فاعلمى أن هذا «الفارس الفقير» رجل غبى رغم كل ما وصفته به من جسارة واقدام . وأنت يا سيدتى قد تدفقت تلقيننا درسا كاملا ، هذا لا يناسبك برأيى . وهو على كل حال غير جائز . ما هى أشعار تلك القصيدة ؟ أنشدينى أبياتها . لا بد أنك تحفظينها . اننى أحرص على سماعها أشد الحرص . أنا لم أطق الشعر فى حياتى . فلعل ذلك كان منى احساسا أشبه بالنبوءة . تجمل بالصبر يا أمير ، بالله عليك . واضح أن الصبر خير ما يمكن أن نتذرع به أنا وأنت .

أضافت الجنزالة قولها هذا تخاطب الأمير . كانت مستاءة أشد الاستياء .

أراد الأمير أن يقول شيئا ، ولكنه كان قد بلغ من الحيرة أنه لم يستطع أن ينطق بكلمة . آجلايا وحدها التى أجازت لنفسها هذه الجرأة كلها فى «تلقين درسها» ، كانت لا تُظهر

أى ارتباك ، بل وكانت تبدو راضيةً عن نفسها ، مغتبطة بما قالته . وها هى ذى تنهض على الفور بمثل ذلك الوقار نفسه وبمثل تلك المهابة نفسها ، كأنها كانت متهيئة لانشاد تلك الأشعار ، فهى لا تنتظر الا أن يدعوها أحد الى ذلك . وها هى ذى تتقدم الى وسط الشرفة ، وتقف قبالة الأمير الذى ما يزال جالسا على كرسيه . نظر الجميع اليها بشىء من الدهشة . كان الأمير «ش . . .» ، واختاها ، وأمها ، وجميع الحضور تقريبا ، يشعرون بحرج وضيق ازاء هذا التهيؤ للمشاكسة الجديدة التى تجاوزت بعض الشىء حدود الاعتدال . ولكن كان واضحا أن آجلايا مفتتنة أشد الافتتان بالتصنع والافتعال فى التمهيد لانشاد القصيدة . وهمَّت اليزافيتا بركوفيفنا أن تحملها على العودة الى الجلوس فى مكانها ؛ ولكن فى اللحظة التى أوشكت فيها الفتاة أن تنشد قصيدتها ، صعد من الشارع الى الشرفة زائران جديدان يتحدثان بصوت عال . انهما الجنرال ايفان فيدوروفتش ايبانتشين وفتى يتبعه . فأحدث ظهورهما بعض الاضطراب .

الفصل السابع

ان الشاب الذى يصحب الجنرال هو فى نحو الثامنة والعشرين من عمره ، طويل القامة ، ممشوق القد ، له وجه وسيم ذكى ، وعينان واسعتان سوداوان تفيضان لمعانا وسخرية وحدة ذكاء . أبت آجلايا حتى أن تلتفت اليه واستمرت تنشد قصيدتها بتصنع وافتعال وهى لا تنظر الا الى الأمير ، ولا تتجه الى أحد غيره . فأدرك الأمير أنها تخفى وراء ذلك نية خاصة . غير أن مجىء الزائرين الجديدين خفف ارتباكه قليلا على كل حال . فما ان رآهما حتى نهض نصف نهوض ، وحَرَّك رأسه من بعيد يحيى الجنرال تحية فيها مودة ، وأوصى باشارة من يده أن لا يُقطع انشاد القصيدة . ثم مضى يقف وراء كرسيه ، مستندا بكوعه الايسر على ظهر المقعد ، ليسمع القصيدة وهو فى وضع أكثر طلاقة وأقل «اضحاكا» من وضع رجل غاطس فى مقعد . وانبرت اليزافيتا بروكوفيفنا من جهتها تهيب بالزائرين ان يتوقفا ، وذلك بحركة آمرة من يدها قامت بها مرتين . اهتم الأمير اهتماما شديدا بالزائر الجديد الذى يصحب الجنرال . وحَدَّد فيه بوضوح يفغينى بافلوفتش رادومسكى الذى سمع عنه كثيرا ، وفكَّر فيه غير مرة . غير أن اللباس المدنى الذى كان يرتديه هذا الشاب قد حَيَّره ، ذلك أنه قد سمع أن يفغينى بافلوفتش عسكرى لا مدنى . وكانت ابتسامة ساخرة تطوف بشفتى الزائر الجديد طوال مدة انشاد القصيدة . فكأنه كان يعرف هو أيضا ، شيئا ما عن «الفارس الفقير» .

قال الأمير يخاطب نفسه : «لعله هو الذى اخترع هذا» .

أما آجلايا فكانت حالتها مختلفة كل الاختلاف . ان التصنع والافتعال اللذين بدأت بهما القاء القصيدة قد حلت محلهما عاطفة رزينة ملأى بمعنى وروح الأشعار التى كانت تلقيها . وكانت تنطق كل كلمة من الكلمات نطقا يبلغ من قوة التعبير وسمو البساطة أنها فى آخر انشادها لم تأسر انتباه السامعين فحسب ، بل برَّرت كذلك ، بابراز الروح السامية لهذه القصيدة ، برَّرت الى حد ما تلك الابهة التى افتعلتها منذ قليل حين وقفت بمهابة فى وسط الشرفة . ان فى وسع المرء أن يرى الآن فى الابهة الا علامة الاحترام غير المحدود ولربما حتى الاحترام الساذج لما أخذت على عاتقها أن تعبّر عنه . كانت عيناها تسطعان ؛ وسرت فى وجهها الجميل ، مرتين ، رعدة حماسة واعجاب خفيفة لا تكاد تدرك .

أنشدت ما يلى :

فقيرا كان الفارس
وصموتا وبسيطا ،
ومظلما كان وجهه وشاحبا ،
وكانت نفسه جسورة وصريحة .
لاحت له رؤيا
لا يدركها العقل
حفرت فى قلبه
أثرا عميقا
التهبت نفسه منذ ذلك اليوم .

حول عينيه عن النساء ،
فالى أن وُورى التراب ،
لم يخاطب امرأة بكلمة .
بمسبحة لف عنقه ،
لا بمنديل لفعها
ولم يرفع أمام أحد
حافة خوذته الفولاذية .
بحب طاهر امتلأ قلبه
ظل وفيا لحلمه العذب ،
وبدمه على ترسه
كتب : الف . ميم . دال .
وفى صحارى فلسطين
بينما الفرسان بين الصخور
يهبون الى القتال
ذاكرين أسماء سيداتهم
كان يصيح بحماسة عاتية قائلا :
Lumen coeli, sancta Rosa! [1]
وبانقضاضه كالصاعقة ،
كان يجندل الأعداء .
وحين عاد الى قلعته البعيدة
عاش فيها معتزلا ناسكا ،
وظل صامتا ، وحزينا ،
ومات كمجنون .

---

[1] يا ضياء السماء ، ايتها الوردة المقدسة ! (باللاتينية فى الأصل) .

حين تذكر الأمير تلك اللحظات فيما بعد ، عذّبت فكرَه المضطرب مسألةٌ لا يجد الى حلها سبيلا : كيف أمكنها أن تجمع بين عاطفة صادقة هذا الصدق ، وجميلة هذا الجمال ، وبين سخرية سافرة غير محجبة ، سخرية سيئة ذلك السوء كله ؟ لم يراوده شك فى أن ثمة سخرية . السخرية واضحة لها ما يؤكدها : ان آجلايا قد سمحت لنفسها اثناء الالقاء أن تبدل الأحرف «الف ، ميم ، دال» بالأحرف : «نون ، فاء ، باء» . هو واثق بأنه لم يخطئ السمع (وذلك ما جاء البرهان عليه فيما بعد) . وكيف كان الأمر فان مزحة آجلايا — ذلك ان المسألة لا تعدو أن تكون مزحة مهما تكن جارحة ومهما تتضمن من خفة وطيش — انما كانت مبيتة مقصودة . فالجميع ما برحوا منذ شهر يتكلمون عن «الفارس الفقير» ، و«يضحكون» . على ان الأمير حين رجع الى هذه الذكريات فيما بعد ، اقتنع بأن آجلايا قد نطقت هذه الأحرف «نون ، فاء ، باء» دون أن تضفى عليها لهجة مزاح أو تهكم ، ودون أن تبرزها ابرازا يظهر معناها الخبىء . بالعكس ؛ لقد نطقتها برصانة تبلغ من الهدوء ، وبساطة تبلغ من البراءة والسذاجة أن المرء يمكن أن يظن أن هذه الأحرف موجودة فعلا فى نص القصيدة المطبوع . ولكن شيئا قاسيا مزعجا بدا كما لو أنه وخز نفس الأمير . بالطبع لم تلاحظ اليزافيتا بروكوفيفنا تبديل الأحرف وما يختبىء وراء هذا التبديل من تلميح . وكل ما أدركه الجنرال ايفان فيدوروفتش هو أن هناك أشعارا تُنشَد . أما السامعون الآخرون فقد أدرك كثيرون منهم قصد آجلايا فأدهشتهم جسارتها وقصدها ولكنهم صمتوا محاولين الا يفصحوا أنهم

أدركوا . وأما يفغينى بافلوفتش فانه لم يدرك فحسب (وهذا ما كان الأمير مستعدا أن يراهن عليه) ، بل حاول أن يفصح أيضا عن أنه أدرك ، فزاد مقدار السخرية فى ابتسامته .

هتفت الجنرالة تقول فى اندفاعة اعجاب صادق ، منذ انتهى انشاد القصيدة :

— رائع ! لمن هذه الأشعار ؟

فصاحت آديلائيدا تقول :

— هى لبوشكين يا maman . لا تُشعرينا بالخزى والعار ! عيب على المرء أن يجهل هذا !

فقالت اليزافيتا بروكوفيفنا بلهجة مرة :

— ان المرء يمكن أن يصبح من معاشرتكن أشد غباوة وأكثر جهلا ! هذا معيب ! عليكن أن تأتينى بقصيدة بوشكين هذه متى رجعنا الى البيت !

— أظن أننا ليس فى بيتنا شىء من شعر بوشكين .

قالت ألكسندرا :

— بلى ! عندنا مجلدان مهترئان ملقيان فى البيت منذ عهد بعيد !

— يجب ارسال أحد الى المدينة فورا لشراء كتب بوشكين . فليذهب فيدور او ألكسى فى أول قطار . والأفضل أن يذهب ألكسى . آجلايا ، تعالى ! قبّلينى ! لقد أحسنت القاء القصيدة ايما احسان !

ثم اضافت تكاد تهمس قائلة :

— ولكن اذا كانت نبرتك فى القاء القصيدة صادقة ، فاننى أرثى لحالك . واذا كنت قد أردت أن تسخرى منه فاننى لا أؤيد شعورك . وفى الحالين كان الأفضل

أن لا تلقى هذه القصيدة . هل تفهمين عنى ؟ اذهبى الآن يا سيدتى ، سنعاود الكلام فيما بعد . لقد طال مكوثنا هنا .

فى اثناء ذلك كان الأمير قد سلَّم على الجنرال ايفان فيدوروفتش ايبانتشين الذى قدم اليه يفغينى بافلوفتش رادومسكى .

— لقد أدركته فى الطريق . وصل فى القطار منذ حين فعلم اننى جئت الى هنا التحق بسائر الاسرة . . .

قال يفغينى بافلوفتش مقاطعا :

— وقد علمت أنك هنا أيضا ؛ واذ كنت أرغب منذ مدة طويلة لا فى التعرف اليك فحسب ، بل وفى التماس صداقتك أيضا ، فاننى لم اشأ أن أضيع وقتا . . . أأنت مريض ؟ اننى لم أعرف هذا الا منذ لحظة . . .

أجاب ليف نيقولايفتش وهو يمد اليه يده :

— شُفيت شفاء تاما ، ويسعدنى أن أتعرف اليك . لقد سمعت عنك كثيرا ، حتى اننى تحدثت فى أمرك مع الأمير «ش . . .» .

تصافح الرجلان بعد تبادل هذه الأقوال المهذبة ، ثم حدَّق كل منهما الى عينى الآخر . وسرعان ما أصبح الحديث عاما . ولاحظ الأمير ، (الذى أصبح الآن يلاحظ بسرعة ويقظة ، حتى لقد يرى اشياء لا وجود لها) ، لاحظ أن الجميع قد أدهشهم أن يروا يفغينى بافلوفتش مرتديا ثيابا مدنية لا عسكرية . وقد بلغت دهشتهم من القوة أنها محت لفترة ما عداها من مشاعر . كان يمكن للمرء أن يتصور أن تغيير الثياب هذا يدل على وقوع حادث هام للغاية . أخذت آديلائيدا وألكسندرا تسألان يفغينى

بافلوفتش عن الأمر فى استغراب . بينما كان الأمير «ش . . .» ، وهو قريب الشاب يتحدث بقلق شديد . وكان الجنرال منفعلا انفعالا يكاد يخالط صوته . آجلايا وحدها كانت هادئة كل الهدوء ، فألقت على يفغينى بافلوفتش نظرة فضول وكأنها تتساءل هل تناسبه الثياب المدنية أكثر مما تناسبه البزة العسكرية ، وما هى الا لحظة حتى أشاحت وجهها عنه ثم لم تهتم به قط . وامتنعت اليزافيتا بروكوفيفنا عن سؤاله كذلك ، رغم انها لعلها شعرت ببعض القلق هى أيضا . بدا للأمير أن هناك شيئا من الفتور تشعر به الجنرالة نحو يفغينى بافلوفتش .

ردَّد ايفان فيدوروفتش يقول مجيبا عن جميع الاسئلة :

— دُهشت أشد الدهشة . . . لم أصدِّق عينىَّ حين رأيته بثياب مدنية لا عسكرية ببطرسبرج . ما هذا التغيير المفاجئ ؟ ما هذا اللغز ؟ انه هو نفسه أول المنادين بأن على المرء أن لا يحطِّم الكراسى . .

واتضح من الحديث الذى دار حول هذا الموضوع أن يفغينى بافلوفتش كان منذ زمن طويل قد أفصح عن نيته فى ترك الخدمة العسكرية . ولكنه كان ، كلما أثار هذا الموضوع ، يتكلم بلهجة تبلغ من قلة الجد أن أحدا لم يصدِّقه . ذلك عدا أنه اعتاد أن يخلع على الأمور الهامة الخطيرة صفة الهزل ، فلا يعرف أحد أيصدقه أم لا يصدقه ، ولا سيما حين يتعمد هو نفسه أن يحيِّر الناس وأن يضلِّلهم فى شعاب الظنون .

قال رادومسكى ضاحكا :

— لكننى لا أدع الخدمة العسكرية الا الى حين ،

لا أدعها الا بضعة أشهر ، أو سنة فى أكثر تقدير .

فمضى الجنرال يقول بحرارة وهمة :

— لكننى لا أرى ضرورة لهذا ، فى حدود معرفتى بشئونك وأعمالك على الأقل .

— ألا يجب علىَّ أن ازور اطيانى ؟ نصحتَنى أنت نفسك بذلك ، ثم اننى أود أن أقوم برحلة الى الخارج . . .

وسرعان ما انحرف الحديث ، ولكن القلق الشديد ظل ظاهرا ، وتجاوز ، برأى الأمير الذى ما يزال يراقب ويلاحظ ، الحدود المعتادة . لا بد أن هناك شيئا غير عادى .

قال يفغينى بافلوفتش سائلا وهو يدنو من آجلايا :

— من جديد عاد «الفارس الفقير» اذن الى بساط البحث ، أليس كذلك ؟

فما كان أشد دهشة الأمير حين ردَّت عليه آجلايا بنظرة مشدوهة مستفهمة ، كأنما لتفهمه بأن «الفارس الفقير» لم يكن موضع بحث بينهما فى يوم من الأيام حتى أنها لا تفهم سؤاله .

وكان كوليا ما يزال فى جدال مع اليزافيتا بروكوفيفنا ، فهو ما يفتأ يردد قائلا :

— الوقت متأخر الآن ، لارسال أحد الى المدينة ليجىء بكتب بوشكين . سأظل أكرر هذا ثلاثة آلاف مرة ! الوقت متأخر !

تدخل يفغينى بافلوفتش وهو يبتعد عن آجلايا مسرعا :

— اجل . . . فعلا . . . الوقت متأخر لارسال احد الى المدينة . . . أظن أن المتاجر مغلقة الآن ببطرسبرج ،

فالساعة تجاوزت الثامنة .

قال ذلك وهو يخرج ساعته .

وقالت آديلائيدا :

— انتظرت مدة طويلة لم تطلبيها فاصبرى حتى غد .

وأضاف كوليا :

— لا سيما وأنه لا يليق بابناء المجتمع الراقى أن يهتموا بالأدب كثيرا . اسألى يفغينى بافلوفتش . أن يملك المرء عربة صفراء لها عجلات حمراء ، فذلك يليق بهم أكثر .

قالت آديلائيدا :

— لقد اقتبست هذا أيضا من كتاب يا كوليا !

فقال يفغينى بافلوفتش معقبا :

— صحيح أن كل ما يقوله مستمد من قراءات ، فهو قادر على أن يقول جملا بكاملها مستمدة من مقالات نقدية ، وقد سعدت بمعرفة حديث نيقولاى آرداليونتش منذ زمن طويل ؛ ولكنه فى هذه المرة لا يردد جملة قرأها ، وانما هو يلمح بجلاء الى عربتى الصفراء ، التى تجرى على عجلات حمراء فعلا . ولكننى أحب أن أقول لك أننى أبدلت عربتى تلك ، فجاء كلامك متأخرا عن الوقت المناسب .

أصغى الأمير الى كلام رادومسكى . . . فبدا له أن الشاب يسلك سلوكا لا مأخذ عليه ، وأنه متواضع مرح . وأعجبه فيه خاصة أنه يعامل كوليا معاملة فيها مودة الند للند ، حتى حين يناكده كوليا .

— ما هذا ؟

كذلك قالت اليزافيتا بروكوفيفنا تسأل فيرا ، بنت ليبيديف ، التى وقفت أمامها ، مثقلة الذراعين بعدة كتب كبيرة الحجم أنيقة التجليد تكاد تكون جديدة .

قالت فيرا :

— هذا بوشكين . ما عندنا من كتب بوشكين . أمرنى بابا بأن أقدّمها اليك .

فقالت اليزافيتا بروكوفيفنا مدهوشة :

— كيف ؟ أهذا معقول ؟

— ما هذا بهدية ! ما هذا بهدية ! ما كان لى أن أتجرأ على ذلك !

هكذا قال ليبيديف وقد ظهر وراء ابنته على حين فجأة . وتابع كلامه يقول :

— وانما أتنازل لك عن هذه الكتب بيعا بسعر الشراء . انها ملكية أسرتنا من مؤلفات بوشكين ، طبعة آننكوف ، التى أصبح العثور عليها الآن مستحيلا . أتنازل عنها بيعا بسعر الشراء . اننى أقدمها اليك باحترام ، على نية أن أبيعها وأشبع بذلك شوق معاليك النبيل الى المباهج الادبية السامية .

— اذا كنت تبيعها فأنا أشكر لك ذلك . لن تخسر شيئا . ولكن كفاك تلويا وتعقفا يا سيدى ، أرجوك ! . . سمعت عنك أنك غزير الاطلاع ، فستتحدث معا فى يوم من الأيام . هل تحمل الكتب الىّ بنفسك ؟

قال ليبيديف وهو يظهر سروره ورضاه بحركات شتى من التلوى والتعقف :

— بكل احترام واجلال . . .

وانتزع الكتب من يدى ابنته .

— حسن . لا تضيع الكتب . احملها من غير احترام واجلال .

ثم أضافت تقول وهى تتفحصه باهتمام من رأسه حتى اخمص قدميه :

— ولكن بشرط ان لا تتخطى عتبة باب بيتى ، فانى لا أنوى أن أستقبلك هذا اليوم . غير أن فى وسعك أن ترسل الىّ ابنتك فيرا حالا اذا شئت . لقد أعجبتنى كثيرا .

قالت فيرا لأبيها بلهجة تدلّ على نفاد الصبر :

— لماذا لا تقول شيئا عن أولئك الذين ينتظرون هناك ؟ اذا لم تدخلهم فسوف يدخلون بأنفسهم بلا أذن . لقد بدأوا باحداث صخب وضجة .

ثم خاطبت الأمير الذى كان قد تناول قبعته :

— يا ليف نيقولايفتش ، ان هناك أربعة أفراد جاءوا اليك منذ مدة طويلة ، وينتظرون فى جناحنا ويحدثون جلبة لأن أبى لا يسمح لهم بأن يدخلوا عليك .

سألها الأمير :

— من هم هؤلاء الزوار ؟

— يدعون أنهم يجيئون اليك لعمل من الأعمال ، لكنهم أناس لا يتورعون أن يستوقفوك فى الشارع اذا لم يُسمح الآن لهم بالدخول . فالأفضل يا ليف نيقولايفتش أن تدخلهم وتتخلص منهم . عبثا حاول جافريلا آرداليونوفتش وبتيتسين أن يفاوضاهم ، انهم لا يريدون أن يسمعوا شيئا البتة !

قال ليبيديف وهو يلّوح بيديه :

— هذا ابن بافليشيف ! ابن بافليشيف . لا داعى الى استقباله ، لا داعى . . ان هؤلاء الناس لا يستحقون أن تسمع كلامهم ، بل انه لا يليق بك يا صاحب السمو أن تزعج نفسك من أجلهم . نعم ، لا يستحقون . . .

هتف الأمير يقول بارتباك كبير :

— ابن بافليشيف ! يا ربى ! . . انا اعلم أن . . . ولكنى عهدت الى جافريلا آرداليونوفتش أن يهتم بهذه القضية . هو نفسه قال لى منذ لحظة أن . . .

هنا ظهر جافريلا آرداليونوفتش فى الشرفة خارجا من داخل البيت . وظهر وراءه بتيتسين . كانت ثمة ضجة تُسمع من الغرفة المجاورة . وكان صوت الجنرال ايفولجين المدوى يحاول أن يطغى على أصوات عدة أشخاص آخرين . هرع كوليا حالا يستطلع بواعث هذه الجلبة .

قال يفغينى بافلوفيتش .

— شىء شائق جدا !

فحدث الأمير نفسه بقوله : «هو اذن على علم بالأمر» .

وسأل الجنرال ايفان فيدوروفتش متحيرا وهو يتفحص جميع الوجوه بفضول ، ملاحظا فى دهشة أنه الوحيد الذى يجهل هذه الحكاية الجديدة :

— ابن بافليشيف ؟ هل يمكن أن يكون هناك شخص هو ابن بافليشيف ؟

بالفعل كان الجميع ينتظرون بانفعال عميق . فما كان أشد دهشة الأمير حين رأى أن قضية شخصية لا تتعلق بأحد غيره قد أثارت هذا الاهتمام كله لدى جميع الحضور .

قالت آجلايا وهى تقترب من الأمير برصانة ووقار :

— الأفضل أن تسوّى هذه القضية فورا ، وأن تسوّيها بنفسك . اسمح لنا بأن نكون جميعا شهودا لك . انهم يريدون أن يلطخوك يا أمير . فعليك أن تبرئ نفسك تبرئة تامة . أشعر بابتهاج شديد سلفا لنجاحك .

وهتفت الجنرالة تقول :

— أنا أيضا أتمنى أن يوضع أخيرا حد لهذا الادعاء الدنىء ! لقّنهم درسا قاسيا يا أمير ، لا ترأف بهم ! لقد صدّعوا رأسى بهذه القضية ، ما اكثر ما انزعجتُ بسببك . انه لمن الشائق أن نرى . ادعهم الى المجىء . سنبقى هنا . فكرة آجلايا فكرة حسنة .

ثم قالت الجنرالة تسأل الأمير «ش . . .» :

— هل سمعت عن هذه القضية يا أمير ؟

— بالطبع ، سمعت عنها فى بيتكم انتم . اننى أحب كثيرا أن أرى هؤلاء الشبان .

— هم عدميون ، أليس كذلك ؟

قال ليبيديف وهو يتقدم خطوة ويكاد يرتجف من شدة الانفعال :

— لا ، ليسوا عدميين بمعنى الكلمة ، هم فئة أخرى ، من نوع خاص . يزعم ابن أختى أنهم أكثر غلوا من العدميين . تخطئين يا صاحبة السعادة اذا ظننت أنك بحضورك ستربكينهم . هؤلاء فتية لا يرتبكون . تجدين بين العدميين أحيانا أناسا مطلعين على الأقل ، وحتى متعلمين . أما هؤلاء فهم يفوقون العدميين لأنهم أناس عمليون قبل كل شىء . صحيح أنهم ما أسفرت عنه العدمية على نحو غير مباشر ، بطريقة موارية سطحية . انهم لا يعبّرون عن

أنفسهم بمقالات فى الجرائد ، بل يمضون الى الوقائع رأسا . لا يتحدثون مثلا عن أن بوشكين لا نفع فيه ولا جدوى منه* ، أو عن أن من الواجب تقسيم روسيا وتجزئتها . كلا . هم يرون أن من حقهم ، متى رغبوا رغبة شديدة فى شىء من الأشياء ، أن لا يصدَّهم عنه أى عائق ولو اقتضى الأمر أن يقتلوا ثمانية أشخاص . اننى أنصحك يا أمير بأن لا . . .

لكن الأمير كان قد مضى يفتح الباب للزوار . وقال وهو يبتسم :

— انك تتجنى عليهم يا ليبيديف . ان ابن أختك قد سبَّب لك متاعب كثيرة . لا تصدقيه يا اليزافيتا بروكوفيفنا . أؤكد لك أن أمثال جورسكى وأمثال دانيلوف* ليسوا الا حالات فردية استثنائية . أما هؤلاء الشبان . . . فانهم مخطئون لا أكثر ! . . على أننى أوثر أن لا أتحدث معهم هنا أمام الجميع . معذرة يا اليزافيتا بروكوفيفنا : سوف يدخلون ، فأريهم لك ، ثم أخرج معهم . ادخلوا أيها السادة ، تفضلوا . . .

والحق أن الأمير كانت تشغل باله وتعذبه فكرة أخرى . كان يتساءل أليست هذه مكيدة مدبرة سلفا لهذه الساعة بعينها ولهؤلاء الشهود أنفسهم ، لا من أجل أن تتاح له فرصة الانتصار ، بل من أجل أن تهيأ له أسباب التلطخ بالخزى والعار ؟ ومع ذلك كان يأخذ على نفسه انقياده لمثل هذا «الشك الفظيع الخبيث !» ، ويشعر من ذلك بحزن شديد ، حتى لكأنه يمكن أن يموت على الفور لو استطاع أحد أن يكتشف أن فكرة كهذه الفكرة قد خطرت

بباله . وحين ظهر الزوار الجدد كان مستعدا لأن يعد نفسه بصدق أحط الناس قاطبة من الناحية الاخلاقية بين هؤلاء الذين يحيطون به .

دخل خمسة أشخاص : أربعة قادمين جدد ، ووراءهم الجنرال ايفولجين الذى كان منفعلا أشد الانفعال والذى استولت عليه نوبة فصاحة شديدة . قال الأمير يحدث نفسه مبتسما : «لا شك فى أن هذا معى !» .وكان كوليا قد تسلل مع الجماعة ، فهو يتحدث بحرارة الى ايبوليت ، أحد أفراد العصبة ، وكان ايبوليت يصغى الى كلامه مبتسما ابتسامة قصيرة ساخرة .

أجلس الأمير القادمين . انهم شبان فى غضارة العمر ، يكادون أن يكونوا مراهقين ، حتى يمكن للمرء أن يستغرب للقضية وكل ما يرتبط بها من أحداث . وحين رأى ايفان فيدوروفتش ايبانتشين هؤلاء الصبيان الاغرار — وكان يجهل كل شىء عن هذه «القضية الجديدة» ولا يفهم منها شيئا البتة — استاء استياء شديدا ، حتى لقد كان يمكن أن يعترض ويحتج لو لا أن صدَّه عن ذلك ما لاحظه لدى امرأته من اهتمام عنيف بشئون الأمير الشخصية ، وهو اهتمام كان يبدو له غريبا عجيبا . على أنه بقى ولم ينسحب ، مدفوعا الى ذلك بحب الاطلاع عن جهة ، وبحب فعل الخير من جهة أخرى ، فلعله يمكن أن يكون نافعا ، ولعله يستطيع أن يفرض مهابته بما له من سلطة . ولكن الانحناء الذى حياه به الجنرال ايفولجين من بعيد حين دخل ، قد أضرم استياءه من جديد ، فاكفهر وجهه وقرر أن يلوذ بالصمت فما ينطق بحرف .

بين الزوار الشبان الاربعة كان واحد منهم على الأقل في نحو الثلاثين من عمره . انه «ذلك الملاكم الملازم المتقاعد الذى كان أحد أفراد عصبة روغوجين ، والذى أعطى فى الماضى صدقةً قدرها خمسة عشر روبلا» . فى وسع المرء أن يقدِّر أنه قد انضم الى الآخرين رفيقا مخلصا يثبت عزيمتهم ويهب الى مساعدتهم اذا اقتضى الأمر . وبين صحبه الثلاثة ، كانت المنزلة الأولى وكان الدور الأكبر لذلك الذى يسمى «ابن بافليشيف» ، رغم أنه كان هو نفسه يعرِّف نفسه للناس باسم آنتيب بوردوفسكى . انه فتى أشقر ؛ فى وجهه بثور ؛ ثيابه فقيرة قذرة ؛ يبلغ ردنجوته من الاتساخ أن كميه يلمعان ؛ تدل صدرته الوسخة المعقودة أزرارها حتى النحر على أنه لا يلبس تحتها قميصا ؛ يلفع عنقه منديل من حرير أسود ملطخ متلفف كحبل ؛ يداه غير مغسولتين ؛ نظرته تعبِّر عن مزيج من سذاجة ووقاحة اذا جاز هذا التعبير ؛ نحيل الجسم أميل الى الطول ؛ يبدو فى نحو الثانية والعشرين من العمر ، لا يكشف وجهه لا عن أى سخرية ولا عن أى تفكير ، لا يقرأ المرء فى هذا الوجه الا امتلاء غبيا بليدا بما يظن أنه حقه ، والا حاجة غريبة مستمرة فى الوقت نفسه الى الشعور بأنه مساء اليه مهان ؛ يتكلم بلهجة فيها انفعال ؛ وفى كلامه المتدفق السريع المتلعثم الذى يضيع جزءا من الألفاظ ما قد يوهم بأنه عيى اللسان أو بأنه أجنبى مع أنه روسى صرف .

وكان يصحبه ابن أخت ليبيديف الذى سبق أن عرفه القارئ ، وكان يصحبه كذلك ايبوليت . ان ايبوليت فتى فى السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من العمر . ينم محياه

عن ذكاء ، لكن وجهه دائم الزعل ، يحمل طابع المرض الرهيب . انه نحيل أشد النحول ، حتى لكأنه هيكل من عظم ؛ وهو شاحب اللون ، كالشمع اصفرارا ؛ له عينان ساطعتان متقدتان ، وعلى خديه بقعتان حمراوان ؛ وهو لا ينفك يسعل بغير انقطاع ؛ وكل كلمة من كلماته ، وكل نفس من أنفاسه تصحبه حشرجة تقريبا . واضح أن مرض السل يأكله اكلا ، فاذا رآه المرء قدَّر أنه لن يعيش أكثر من أسبوعين أو ثلاثة . كان يبدو مرهقا ، فما كاد يدخل حتى تهالك على كرسى قبل أن يجلس الآخرون . وقد استولى على الآخرين الاستحياء وهم يدخلون ويكادون يرتبكون ، لكنهم ينظرون بعظمة كأنهم يخشون ان يعرضوا مهابتهم للضياع . وذلك وضع يتعارض تعارضا غريبا مع ما اشتهروا به من أنهم أناس لا يعبأون بالآداب السخيفة التافهة وبكل شىء تقريبا فى الدنيا ، ولا يعرفون الا قانونا واحدا هو مصلحتهم .

قال «ابن بافليشيف» معرِّفا بنفسه بلهجة سريعة متلعثمة :

— آنتيب بوردوفسكى .

وقال ابن أخت ليبيديف معرفا بنفسه ، ناطقا اسمه بوضوح وتمييز كأنما هو يعتز به :

— فلاديمير دوكتورنكو .

وتمتم الملازم المتقاعد :

— كيللر .

نبر آخرهم بصوت صارخ مفاجئ :

— ايبوليت تيرنتيف .

جلس أخيرا هؤلاء كلهم صفا واحدا أمام الأمير .

حتى اذا فرغوا من تقديم أنفسهم وذكر أسمائهم عبسوا وقطبوا ، ونقلوا طاقياتهم من يد الى يد ، زيادة فى اظهار قوة البأس . كان كل منهم متأهبا لأن يتكلم ، لكنه يلتزم الصمت ، ويتخذ وضع الانتظار والتحدى ولسان حاله يقول : «لا يا صاحبى ، لن تخدعنا !» . ان المرء ليحس أنهم متى قيلت الكلمة الأولى التى تحطم الجليد فسوف يندفعون فى الكلام جميعا فى آن واحد يقاطع ويسبق بعضهم بعضا .

الفصل الثامن

بدأ الأمير الكلام فقال :

— لم أكن أتوقع أن أرى أحدًا منكم يا سادة . ولقد كنت أنا نفسى مريضا حتى هذا اليوم . أما قضيتك (قال الأمير ذلك متجها بالكلام الى آنتيب بوردوفسكى) ، فاننى قد عهدت بها منذ شهر الى جافريلا آرداليونوفتش ايفولجين ، كما أنبأتك بذلك فى حينه . ثم اننى لا أرفض أن أبحث معكم الأمر بنفسى . ولكن لا بد أنكم توافقوننى على أن بحث هذا الأمر الآن . . . فاذا كنتم تقدِّرون أن البحث لن يطول فاننى اقترح عليكم أن تنتقلوا معى الى غرفة أخرى . . . ان عندى فى هذه اللحظة أصدقاء ، وأرجوكم أن تصدِّقوا أن . . .

فقاطعه فجأة ابن اخت ليبيديف قائلا بلهجة فيها شدة وعظة ، دون أن يرفع صوته مع ذلك :

— أصدقاء . . . ليكن عندك ما شئت من أصدقاء . . . ولكن اسمح لنا أن نعلن أنك كان فى وسعك أن تسلك معنا سلوكا أقرب الى الأدب والتهذيب ، وأن لا تجعلنا ننتظر فى حجرة الخدم ساعتين .

اندفع آنتيب بوردوفسكى يدمدم فجأة وقد بلغ ذروة الانفعال :

— طبعا . . . وأنا أيضا . . . هذه اساليب الأمراء ! . . انك جنرال اذن ! انا لست خادمك ! وانا . . . انا . . .

كانت شفتاه تختلجان وكان صوته يرتجف من فرط

الغيظ ، وكان الزبد يخرج من فمه فقاعات تنفجر ، وكان تدفقه فى الكلام يبلغ من السرعة أنه أصبح بعد عشر كلمات لا يُفهم البتة .

وصاح ايبوليت بصوت صارخ :

— هذه أساليب الأمراء !

ودمدم الملاكم قائلا :

— لو كان هذا السلوك موجها الىَّ ، أعنى لو أن هذا الأسلوب استُعمل معى مباشرة بوصفى انسانا نبيلا لا مع بوردوفسكى ، لكنت . . .

قال الأمير يكرر :

— قسما بربى يا سادة أننى لم أعلم بوجودكم هنا الا منذ دقيقة واحدة .

وعاد ابن أخت ليبيديف يقول :

— لسنا نخشى أصدقاءك مهما يكن شأنهم يا أمير ، لأننا على حق .

واستأنف ايبوليت زعيقه فقال وقد ازدادت حرارته ازديادا شديدا :

— من ذا الذى اجاز لك — اسمح لى أن ألقى عليك هذا السؤال — من ذا الذى اجاز لك أن تعرض قضية بوردوفسكى لحكم أصدقاءك ؟ قد لا نكون راغبين فى حكم اصدقائك . واضح تماما ما عسى أن تكون قيمة هذا الحكم !

اندهش الأمير من هذا الاستهلال أشد الدهشة ، واستطاع اخيرا ان يدس فى زحمة هذا الكلام جوابا . قال :

— لكننى سبق أن قلت يا سيد بوردوفسكى ان فى

وسعنا ، اذا أنت لم تشأ أن تتحدث هنا ، فى وسعنا أن ننتقل الى غرفة أخرى على الفور . وأعود فأقول لكم انى لم أعلم بحضوركم الا فى هذه البرهة .

وعاد بوردوفسكى يغمغم وهو يلقى حوله نظرة ريب وضراوة ، ويزداد اندفاعا على قدر ازدياد شعوره بالريب والضراوة :

— ولكن لا يحق لك ، لا يحق لك ، لا يحق لك . . . ان اصدقاءك . . . هه ! لا يحق لك . . .

ثم توقف عن الكلام فجأة كأنه قطع شيئا ؛ ومال بجسمه الى أمام ، وحدَّق الى الأمير ، كما لو كان يريد أن يسأله محملقا عينيه الجاحظتين الحسيرتين اللتين تخدِّدهما أودة كبيرة حمراء . فبلغ الأمير من الدهشة فى هذه المرة أنه لم يجد كلمة يقولها ، ونظر هو أيضا الى بوردوفسكى محملقا .

وفجأة نادته اليزافيتا بروكوفيفنا قائلة له :

— اقرأ هذا فى التو واللحظة يا ليف نيقولايفتش : فان له علاقة مباشرة بقضيتك .

وأسرعت تمد اليه جريدة أسبوعية فكاهية ° ، ودلّته باصبعها على مقالة فى الجريدة . ان ليبيديف الذى كان يسعى على خطب ود اليزافيتا بروكوفيفنا اخذ يقترب منها مسرعا دون ان ينطق بكلمة لحظة دخول الزوار واستل تلك الجريدة من جيبه ، فوضعها تحت بصر الجنرالة مشيرا لها الى عمود مؤشَّر عليه بالقلم الرصاص . فاذا بالأسطر التى اتسع وقتها لأن تقرأها تدهشها وتحدث فى نفسها أعمق الاضطراب .

تمتم الأمير مرتبكا أشد الارتباك :

— لعل الأفضل أن لا تكون القراءة جهارا . سأطلع على المقالة وحدى . . . فيما بعد . . .

فانتزعت اليزافيتا بروكوفيفنا الجريدة من يدى الأمير بحركة تدل على نفاد صبرها ، قبل أن يستطيع الأمير أن يلمس الجريدة ، ثم مدّت الجريدة الى كوليا وقالت له :

— طيب . . . اقرأ أنت . . . اقرأ على الفور . . . واقرأ بصوت عال . . . اقرأ جهارا بصوت عال لكي يسمع الجميع .

ان اليزافيتا بروكوفيفنا امرأة سريعة التأثر شديدة الاندفاع ، حتى لقد ترفع فى بعض الأحيان جميع المراسى فورا دون تفكير ناضج ، وتقلع فى عرض البحر غير عابئة بالطقس . تململ ايفان فيدوروفتش بقلق . وبينما كان الحضور حائرين منتظرين بعد ان تجمدوا فى اللحظات الاولى لا اراديا ، فض كوليا الجريدة وأخذ يقرأ ، بصوت عال ، المقطع الذى دله عليه ليبيديف الذى دنا من كوليا مسرعاً .

«كادحون وأحفاد أمراء . قصة سرقة وقعت نهارا وجهارا وتقع كل يوم . تقدم ! اصلاح ! عدالة !»

«تحدث أمور غريبة فى هذه البلاد التى يسمونها روسيا المقدسة ، فى هذا الزمان ، زمان الاصلاحات ومشروعات الشركات الكبرى ، زمان الروح القومية ونزوح الملايين الى البلاد الأجنبية فى كل عام وتشجيع الصناعة وشلل الايدى العاملة ، الخ الخ . واذ أننا لن نفرغ من هذا التعداد أيها السادة فلننتقل الى الواقع . ان حدثا غريبا قد وقع لواحد من اخلاف أرستقراطيتنا الاقطاعية عليها الرحمة

(de profundis!) [1] . . . ان اجداد هذه الذرية قد خسروا كل شىء فى القمار بالروليت . ووجد آباؤهم أنفسهم مضطرين أن يخدموا فى الجيش مرشّحين أو ملازمين ، ثم ماتوا عادة تحت وطأة ملاحقات قضائية لمخالفات «بريئة» ارتكبوها فى حق أموال عُيِّنوا لها محاسبين . ويشبُّ أولادهم ، كبطل قصتنا ، يشب بلهاء ، أو يقبض عليها لجرائم يقترفونها فيبرئهم المحلّفون بغية العبرة وليتيحوا لهم فرصة اصلاح حالهم ، أو ينتهى بهم الامر اخيرا انهم يسببون فضيحة من تلك الفضائح التى تدهش الرأى العام ويجللون بعار جديد هذا العصر الذى جلله العار بما فيه الكفاية حتى الآن . لقد عاد صاحبنا ابن سلالة الأمراء ، عاد شتاء الى روسيا من سويسرا منذ ستة أشهر بعد أن اتبّع هنالك علاجا لشفائه من البلاهة [2] (sic!) ، وهو يرتجف بردا تحت معطف ليس له بطانة وفى لبادتى حذاءيه على الطريقة الاجنبية . يجب ان نعترف بان الحظ كان يحالفه . فبصرف النظر هنا عن المرض اللطيف الذى سافر الى سويسرا لمعالجته (هل يمكن ان يتعالج المرء من البلاهة ؟ تصوروا هذا ! !) ، فان أمره يأتى مصدقا للمثل الروسى القائل : «لا حظّ الا لفئة من الناس» * . وسنعرض عليكم الوقائع فاقضوا فى المسألة بأنفسكم : لقد أصبح هذا الشاب يتيما فى طفولته منذ نعومة أظفاره ، لأن أباه مات ، فيما يقال ، حين كان سيمثل أمام المحاكمة لتبديده فى

---

[1] باللاتينية فى الأصل . تبدأ بهذه الكلمة صلاة الرحمة .
[2] كذا (باللاتينية فى الأصل) .

القمار أموال سريته كضابط ملازم ، وربما أيضا لأنه جلد بكثير من السخاء واحدا من مرؤوسيه (تذكّروا الزمان القديم أيها السادة !) . وحين مات أبوه كفله وربّاه ملاك روسى محسن غنى جدا . ان ذلك الملاّك — ولنطلق عليه اسم «ب . . .» — كان يملك فى ذلك العصر الذهبى أربعة آلاف من الأقنان (الأقنان ! هل تفهمون معنى كلمة الأقنان هذه أيها السادة ؟ أما أنا فاننى لا أفهمها ولا بد لى من الرجوع الى معجم لأدرك معنى هذه الكلمة : «فالمرء لا يكاد يصدق هذا الأمر رغم أنه قريب العهد») . أغلب الظن أنه كان واحدا من أولئك الروس الكسالى الطفيليين الذين يقضون حياتهم الخالية العاطلة فى الخارج ، ففى الصيف يذهبون الى مناطق المياه المعدنية وفى الشتاء ينتقلون الى «قصر الأزهار» بباريس ، فينفقون هنالك مبالغ خرافية ! نستطيع أن نؤكد ان ثلث الجزية التى كان الفلاحون فى عهد القنانة يدفعونها لأسيادهم انما كان ينتقل الى يدى مالك «قصر الأزهار» (الرجل السعيد !) . مهما يكن من أمر ، فان ذلك الرجل الخالي البال قد نشأ اليتيم كما يُنشأ أمير ، فعين له مربين ومربيات (جميلات طبعا !) كان يأتى بهن من باريس . ولكن هذا الابن الأخير من أبناء تلك السلالة كان أبله . فلم تجد المربيات من «قصر الأزهار» ، فان تلميذنا قد بلغ العشرين من عمره دون أن يستطيع ان يتكلم أية لغة وحتى اللغة الروسية . على أن جهل اللغة الروسية أمر يغتفر ! وأخيرا نبتت فكرة خيالية فى ذهن صاحب الاقنان ب . . . ، وهى ان فى الامكان أن يكتسب الأهبل ذكاء فى سويسرا . على أن هذه الفكرة لا تخلو من منطق :

فان هذا الطفيلى ، هذا الملاّك ، كان لا بد أن يتصوّر أن من الممكن شراء حتى الذكاء بالمال فى السوق ، ولا سيما فى سويسرا . وهكذا وُقفت خمس سنين على معالجة سليل الأمراء فى تلك البلاد تحت اشراف استاذ شهير ، وأنفقت فى ذلك آلاف وآلاف . ولم يصبح الأبله رجلا ذكيا بطبيعة الحال ، ولكن يزعم بعضهم أنه أخذ يشبه الانسان شبها لا شك انه ضئيل . هنا مات ب . . . فجأة . ولم يترك أى وصية طبعا . وكانت أعماله وشؤونه المالية موضى . وورثه جمهور من الطامعين الشرهين الذين لا يكترثون اطلاقا بآخر ابناء السلالة الذين يتعالجون من باب الاحسان فى سويسرا من بلاهة وُلدوا بها . ولكن سليل أسرة الأمراء رغم بلاهته حاول أن يخدع البروفسور الذى يعالجه ، فأخفى عنه نبأ موت الرجل المحسن اليه ، واستطاع بذلك أن يحمله على أن يعالجه بالمجان سنتين أخريين . ولكن البروفسور نفسه كان دجّالا بارعا : فانه اذ أخافه أخيرا أن لا يقبض شيئا من المريض وأكثر ما اخافه هو شهية الطفيلى البالغ خمسا وعشرين سنة من العمر ، ألبس قدميه لبادتى حذاءيه القديمين ، وخلع على كتفيه معطفا مهترئا ، ورحّله من باب الاحسان على نفقته [1] nach Russland فى الدرجة الثالثة من القطار ليخلّص منه سويسرا . يمكن أن يُظن أن الحظ قد أدار ظهره لبطلنا . ولكن الحقيقة ليست هذه : ان الحظ الذى يحلو له أن يبيد بالمجاعة أقاليم بأكملها قد أغدق جميع نعمه على هذا الارستقراطى الصغير

---

[1] الى روسيا . (بالالمانية فى الأصل) .

دفعة واحدة ، مثله فى ذلك كمثل تلك السحابة * التى مرت فوق حقول يابسة من الظمأ ، ثم مضت تهطل مطرا غزيرا فوق المحيط . ففى اللحظة التى كان فيها صاحبنا سليل الأمراء عائدا من سويسرا الى بطرسبرج مات رجل من أقرباء أمه (التى كانت تاجرة طبعا) ، وهو تاجر عجوز ذو لحية لم يخلّف أولادا وكان ينتمى الى ملة «الراسكولنيك» * ، وقد ترك ميراثا لا يمارى فيه أحد ، يقدَّر ببضعة ملايين عدا ونقدا ، ترك هذا الميراث لصاحبنا سليل اسرة الأمراء (لو انه ترك هذا الميراث لنا ولك ايها القارئ !) ، لصاحبنا البارون الذى كان يُعالَج فى سويسرا من البلاهة ! عندئذ تغيَّرت الموسيقى . ان صاحبنا البارون الواضع على حذاءيه لبّادتين والذى همّ بأن يغازل حسناء محظية شهيرة ، رأى نفسه فجأة محاطا بجمهور من الأصدقاء والأصحاب . لقد اكتشف لنفسه أقرباء . أكثر من ذلك أن آنسات نبيلات كثيرات أصبحن يحترقن رغبة فى أن يتزوجنه زواجا شرعيا ، اذ لا يمكنهنّ أن يجدن عريسا أفضل من شاب ارستقراطى ، صاحب ملايين ، أبله ، عريسا اجتمعت فيه كافة المزايا فى آن واحد . ما كان لهنّ أن يعثرن على عريس مماثل ، ولو بحثن عنه فى ضوء قنديل ، أو أوصين عليه وفقا لمقاييس !»

صاح ايفان فيدوروفتش يقول وقد بلغ ذروة الاستياء :

— هذا . . . هذا ما لا أفهمه !

وصاح الأمير بلهجة فيها رجاء وتوسل :

— كفاية ، يا كوليا !

ودوّت اصوات من جميع الجهات .

قالت اليزافيتا بروكوفيفنا آمرة وكان واضحا انها تكبح نفسها بجهد جهيد :

— فليقرأ ، فليقرأ مهما يكلف الأمر . يا أمير ، اذا كفَّ عن القراءة فسوف نتشاجر .

لم يكن ثمة مفر . تابع كوليا قراءته مختلج الصوت محمرا أشد الاحمرار من فرط الانفعال :

«وبينما كان صاحبنا المليونير الحديث العهد فى السماء السابعة ان صحّ التعبير ، حدث ما لم يكن متوقعا قط . ففى ذات صباح جاء اليه زائر ذو وجه هادئ قاس ، يرتدى ثيابا بسيطة لكنها محترمة . وأخذ هذا الرجل الذى تتميز لغته بأنها مهذبة عادلة معقولة فى آن واحد ، والذى يدل تفكيره بوضوح على أنه تقدمى الاتجاه ، أخذ يشرح له الغرض من زيارته بايجاز . هو محام مشهور جاء من قبل شاب وكّله عنه فى رفع الدعوى . وليس ذلك الشاب الا ابن المرحوم ب . . . ، رغم أنه يحمل اسماً آخر . ان المرحوم ب . . . الذى كان فى شبابه رجلاً داعراً فاسقاً قد أغوى فتاة فقيرة شريفة كانت رغم انها وصيفة قد تربَّت تربية أوروبية (واضح أنه استعمل ما كانت تجيزه القنانة المولية للسادة من حقوق) . فلما لاحظ ما ستنجبه هذه العلاقة من ثمرة قريبة لا مفرَّ منها أسرع يزوج الفتاة لرجل نبيل الخلق كان يكسب عيشه بل وكانت له وظيفة رسمية ، وكان يحب الفتاة منذ عهد بعيد . وقد ساعد العروسين فى أول الأمر ، ولكن الزوج النبيل الخلق لم يلبث أن رفض مساعداته . فما انقضى بعض الوقت حتى كان «ب . . .» قد نسى شيئا فشيئا الفتاة والطفل الذى وُلد له

منها . ثم مات ، كما هو معلوم ، دون أن يكتب وصية . فهذا الابن الذى وُلد لصاحبنا «ب . . .» بعد زواج أمه الشرعى ، والذى تبناه الرجل الطيب القلب فحمل الولد اسمه ، أصبح بغير مورد بعد وفاة الرجل الطيب زوج أمه ، وأصبح مسئولا عن أمه المريضة الكسيحة . كانت أمه تعيش فى اقليم ناء من الأقاليم . وقد استقر هو فى العاصمة ، فكان يجنى رزقه شريفا باعطاء دروس خاصة فى بيوت أسر من التجار ، فاستطاع بذلك أن يعول نفسه خلال مدة دراسته فى المدرسة الثانوية ، ومدة الاستماع الى المحاضرات الضرورية له بغية التهيؤ لمركز فى المستقبل . ولكن هل هو كثير ما يمكن أن تدرَّه لك دروس خاصة تعطيها فى بيوت أسر من التجار الروس الذين يدفعون أجر الدرس عشر كوبيكات ، ولا سيما حين يكون عليك أن تساعد أما مريضة كسيحة ؟ وقد ماتت أمه فى الاقليم النائى ، فلم يكد يخرجه هذا مما هو فيه من عسر وضيق . والآن يُطرح سؤال : ما عسى يكون تفكير صاحبنا سليل الأمراء فى هذا الأمر اذا هو أراد العدل والانصاف ؟ طبيعى أنك تقدِّر أيها القارئ أنه قال لنفسه : ان «ب . . .» قد غمرنى بفضله ونعمه طول عمرى . وقد أنفق الآلاف والآلاف على تعليمى ومربياتى وعلاجى بسويسرا . وأنا اليوم مليونير ، بينما أرى ابنه النبيل ذاك ، البرئ من أخطاء أب طائش نسَّاء ، يرهق نفسه فى اعطاء دروس خاصة . ان كل ما أنفقه علىّ أبوه كان ينبغى أن ينفقه على ابنه اذا اردت العدل ! ان جميع تلك المبالغ الضخمة التى أنفقت فى سبيلى ليست ملكى فى حقيقة الأمر . فلولا خطأ ارتكبه الحظ الأعمى

لكان ينبغى أن تؤول الى ابن «ب . . .» ، وأن ينتفع هو بها لا أنا ، لأن «ب . . .» لم ينفقها علىَّ الا من باب النزوة والطيش والنسيان . فاذا كنت رجلا شريفا كل الشرف ، مرهف الشعور تماما ، عادلا كل العدل ، لوجب أن أهب لابن «ب» نصف ميراثى . ولكن لما كنت رجلا يسعى وراء مصلحته قبل كل شئ ، وكنت أعلم حق العلم أن مطالبته لا تستند الى أى أساس قانونى فسوف امتنع عن مقاسمته ملايينى . على اننى اذا لم أردَّ اليه الآن ، الالاف والالاف التى انفقها «ب» على بلاهتى ، فاننى أرتكب على الاقل عملا دنيئا كل الدناءة ، حقيرا كل الحقارة (نسى سليل الامراء ان عمله يكون عندئذ مخالفا لمصلحته) . ان المسألة لا تعدو أن تكون مسألة ضمير وعدل وانصاف ! اذ ما الذى كان يمكن أن أصير اليه لو أن «ب . . .» لم يكفلنى ولم يتولَّ تربيتى ، وانصرف باهتمامه الى ابنه لا اليّ ؟» .

ولكن لا ، أيها السادة ! ان أبناء سلالات الأمراء لا يفكرون فى الأمور هذا التفكير ! أن صاحبنا سليل أسرة الأمراء هذا الذى نشأ بسويسرا لم يستجب أى استجابة للحجج الدامغة والأدلة القوية التى ساقها له المحامى (يجب أن نذكر هنا أن المحامى حين قبل أن يتولى شئون مصالح الشاب انما فعل ذلك من باب الصداقة ، ورغم ارادة الشاب تقريبًا وبالقوة تقريبا) موضحا ما توجبه قواعد الشرف وأخلاق الكرم ومبادئ العدل ، بل ويوجبه أبسط احساس بالمصلحة ذاتها . وماذا بعد ؟

لو اقتصر الأمر على ذلك لهان وأمكن احتماله . ولكن

اليكم ما حدث مما لا يمكن غفرانه ولا يمكن أن يُلتمس له عذر بأى مرض من الأمراض اللطيفة . ان هذا المليونير الذى لم يخلع لبادتى البروفسور عن حذاءيه الا منذ برهة قصيرة ، لم يستطع حتى أن يفهم أن هذا الشاب النبيل الخلق الذى كان يرهق نفسه باعطاء الدروس لم يتجه اليه طالبا الرأفة به والتصدق عليه ، وانما هو يطالبه بدين صريح ، وأن هذا الدين اذا كانت تعوزه المؤيدات القانونية فهو التزام يوجبه الحق . ذلك عدا أن الشاب لم يطلب شيئاً بنفسه ، لأن أصدقاء له هم الذين كانوا يتدخلون فى الأمر نيابة عنه . وهذا هو صاحبنا سليل أسرة الأمراء يصطنع هيئة التعاظم ، ويستل من جيبه ورقة نقدية قدرها خمسون روبلا ، فيقدمها الى الشاب النبيل صدقة وقحة ، وهو يشعر بكل ما يشعر به من كبر وخيلاء اذ تمكنه ملايينه ان يذل الناس ويسحقهم . ألا تصدقون أيها السادة ؟ انكم مستاءون ثائرون ! انكم تطلقون صيحات استنكار ! ومع ذلك فان هذا هو ما حدث ! طبيعى أن المبلغ قد رُدَّ اليه فورا ، بل ألقى فى وجهه القاء ان صح التعبير ! ما عسى تكون نتيجة هذه القضية ؟ لما كانت هذه القضية تفتقر الى أساس قانونى ، فانه لم يبق الا أن تُعرض على الرأى العام . فنحن لذلك ننقل هذه القصة الى قرائنا مؤكدين لهم صحتها وصدقها . يقولون ان أحد شعرائنا الساخرين المشهورين قد نظم بهذه المناسبة أبياتا جميلة ، تستحق أن يكون لها مكان فى وصف أخلاقنا وعاداتنا لا بالاقاليم وحدها بل بالعاصمة أيضا :

ظل ليوفا[1] أعواما خمسة
يختال بمعطف شنايدر[2]
يقضى وقته على عادته
فى أنواع السفاسف والترهات .
حتى اذا عاد وعلى حذاءيه لبادتان ضيقتان .
ورث مليون روبل .
انه يرتل صلواته بالروسية .
لكنه يسرق الطلاب» .

حين انتهى كوليا من القراءة أسرع يناول الأمير الجريدة ، ومضى يعتصم بركن من الأركان دون أن يقول كلمة واحدة ، دافنا وجهه فى يديه . كان يشعر بخزى لا يطاق ، وكانت روحه الطفولية لماّ تألف بعدُ حقارات الحياة ودناءاتها ، فهو مضطرب الآن اضطرابا يفوق كل وصف . كان يخيّل اليه أن شيئا خارقا للعادة قد حدث ، شيئا حطّم كل شئ من حوله دفعة واحدة ، وأنه سبب هذه الكارثة كلها بمعنى من المعانى ، لأنه قرأ هذه المقالة بصوت عال جهارا .

واتفق أن جميع الحضور قد راودهم شعور من هذا النوع .

أحست الفتيات بضيق وحياء . وكبحت اليزافيتا بروكوفيفنا غضبها الذى بلغ أقصى حد . ولعلها كانت تشعر بندم مر على اقحامها نفسها فى الأمر . فهى الآن صامتة لا تتكلم . أما الأمير فكان يعانى المشاعر التى يعانيها كثيرا الأفراد الخجولون جدا فى مثل هذه الحالات : كان يحس بخجل

---

[1] اسم تصغير من ليف .
[2] اسم البروفسور السويسرى .

من هذه الأفعال التي يقوم بها هؤلاء الزوار احساساً بلغ من القوة أنه لبث لحظة من الوقت لا يجرؤ أن ينظر الى أحد منهم . وكان بتيتسين وفاريا وجانيا وحتى ليبيديف ، كانوا جميعا يشعرون بخجل شديد واضطراب قوى . وأغرب ما فى الأمر أن ايبوليت و«ابن بافليشيف» كان يبدو عليهما ، هما أيضا ، أنهما مدهوشان . وكان ابن أخت ليبيديف يشعر هو ايضاً بقلة الارتياح . واحتفظ الملاكم وحده بهدوء كامل ، فكان يعقف شاربيه بوقار ويغض عينيه لا حرجا بل تواضعا كريما ، وشعورا بانتصار صريح . كان واضحا أنه معجب بالمقالة اعجابا شديدا .

قال ايفان فيدوروفتش بصوت خفيض :

— الشيطان وحده يعلم ماذا يحدث ! لكأن خمسين خادما حقيرا اجتمعوا معا لتلفيق هذه الحكاية !

قال ايبوليت وهو يرتجف أشد الارتجاف من فرط الغضب :

— اسمح لى أن أسألك ، يا سيدى العزيز : بأى حق تفترض هذه الافتراضات الجارحة ؟

وجمجم الملاكم يقول وقد اضطرب فجأة وهو يعقف شاربيه بينما أخذت كتفاه وجسمه تهتز بارتعادات :

— هذه ، هذه ، هذه اهانة ، يا جنرال ، بالنسبة الى رجل نبيل ، فاعترف بهذا بنفسك . . .

قال ايفان فيدوروفيتش بلهجة قاسية وقد غضب أشد الغضب :

— أولا ، أنا لست «سيدك العزيز» ؛ وثانيا ليس عندى ما أوضحه لك .

ثم نهض واقترب من السلّم النازل من الشرفة دون أن يضيف كلمة واحدة ، ولكنه لبث واقفا على الدرجة العليا ، مديرا للحضور ظهره . لقد أغضبه أشد الغضب أن يرى اليزافيتا بروكوفيفنا لا يخطر ببالها ان تنصرف ، حتى فى هذه اللحظة .

هتف الأمير يقول وقد امتلأ غما وانفعالا :

— أيها السادة ، أيها السادة ، دعوا لى أن اشرح لكم أمرى . أرجوكم : دعونا نتكلم على نحو يتيح لنا أن يفهم بعضنا عن بعض . ليس لدىَّ ما أعقّب به على هذه المقالة ، أيها السادة . لا بأس . ولكن اعلموا أيها السادة أن ما حوته باطل كل البطلان . أقول لكم ذلك لأنكم تعلمونه كما أعلمه . الا ان هذا عار . لسوف يدهشنى أشد الدهشة أن أعرف أن واحدا منكم هو الذى كتب هذه المقالة .

قال ايبوليت :

— حتى هذه اللحظة لم أكن أعرف عن هذه المقالة شيئا . ولست أؤيدها .

وأضاف ابن أخت ليبيديف الى ذلك قوله :

— أما أنا فكنت أعلم بوجودها . . . لكننى لو استُشرت لما نصحت بنشرها . ان نشرها سابق لأوانه .

فتمتم «ابن بافليشيف» يقول :

— وأنا كنت على علم بأمرها ، ولكن هذا حقى . . . انى . . .

فسأله الأمير وهو يتفرس فيه مستطلعا مستغربا :

— ماذا ؟ أأنت الذى لفقت هذا كله ؟ مستحيل . . .

قال ابن أخت ليبيديف :

— من الممكن ألا يعترف المرء بحقك فى أن تلقى اسئلةً كهذه الاسئلة .

— أنا لم أزد على أن عبَّرت عن دهشتى من أن يكون السيد بوردوفسكى قد استطاع أن . . . ولكن . . . على كل حال أريد أن أقول لكم ما يلى : ما دمتم قد نشرتم هذه القضية فى الجرائد ، فلماذا غضبتم أشد الغضب منذ قليل حين أردت أن أتكلم فيها أمام أصدقائى ؟

دمدمت اليزافيتا بروكوفيفنا تقول مستاءة :

— أخيرا ! . .

ونفد صبر ليبيديف فانسل فجأة بين الكراسى وهو يكاد يكون محموما ، وقال :

— هناك شىء نسيت أن تضيفه يا أمير : هو أنك اذا كنت قد استقبلت هؤلاء الناس وأصغيت الى كلامهم ، فانما فعلت ذلك مدفوعا اليه بنبل نفسك وطيب قلبك . لم يكن من حقهم أن يطالبوا بذلك ، لا سيما وأنك عهدت بالقضية الى جافريلا آرداليونوفتش . فهذا دليل جديد على فرط طيب قلبك . وانك لتنسى أيضا يا صاحب السمو أنك الآن فى صحبة أصدقاء مختارين مصطفين لا تستطيع أن تضحى بهم فى سبيل هؤلاء السادة . فأنت تملك أن تطرد هؤلاء فى هذه اللحظة بالذات ، وتلك مهمة يسرنى أنا كثيرا ، بصفتى صاحب البيت ، أن . . .

نادى الجنرال ايفولجين يقول من آخر الغرفة بصوت قوى :

— هذا صحيح كل الصحة .

وبدأ الأمير يتكلم فقال :

— كفى يا ليبيديف ، كفى . . .

غير أن صيحات استياء واستنكار تفجرت فى كل جهة فغطت كلمات الأمير . . .

وصرخ ابن أخت ليبيديف صرخة غلب صوتها سائر الأصوات ، فقال :

— لا يا أمير ، معذرة ؛ أصبح هذا غير كاف . يجب الآن أن نشرح القضية بجلاء ووضوح ، اذ لا يبدو أن هناك رغبة فى فهمنا . ان بين الحضور هنا من يدلى بحجج قانونية فيهددنا بالطرد . ولكن هل تظن يا أمير أننا نبلغ من الحماقة حدا يجعلنا لا ندرك نحن أنفسنا أن قضيتنا خالية من أى أساس قانونى وأن القانون لا يجيز لنا أن نطالبك بروبل واحد ؟ اننا لكوننا ندرك هذه الحقيقة انما نقف على أرض الحق الانسانى ، الحق الطبيعى ، الحق الذى يمليه الحس السليم والضمير الصادق . ليس أمرا ذا بال أن لا يكون ذلك الحق مكتوبا فى نص قانونى بال ، لأن الانسان الذى يملك عواطف نبيلة ومشاعر شريفة ، أعنى الانسان الذى يملك سداد الرأى وسلامة الحكم ، من واجبه أن يبقى وفيا لتلك العواطف والمشاعر ، حتى فى الحالات التى تغفلها نصوص القانون المكتوب . واذا كنا قد جئنا الى هنا دون أن نخشى الطرد (الذى هددتنا به منذ لحظة) بسبب مطالباتنا — ذلك أننا **نطالب** ولا **نرجو** — وبسبب أن مجيئنا قد تمَّ فى ساعة متأخرة (والحق أن مجيئنا لم يتم فى ساعة متأخرة ، وانما أنت حجزتنا فى حجرة الخدم) ، فاننا لم نفعل ذلك الا لأننا قدَّرنا

أن نجد فيك انسانا سديد الرأى سليم الحكم أى انسانا ذا شرف وضمير . نعم ، هذه هى الحقيقة ، فنحن لم نأتك أذلاّء نستجدى نعمك كطفيليين ، وانما دخلنا رافعين رؤوسنا ، أحرارا لهم كرامتهم لا يقدمون رجاء بل يبلّغون طلبا (تذكر أنه طلب لا رجاء . لاحظ هذا) . اننا نلقى عليك هذا السؤال جهارا دون لف أو دوران : أتعتقد أنك على حق أم على باطل فى قضية بوردوفسكى ؟ هل تعترف بأن بافليشيف قد أحسن اليك وأنعم عليك ، وبأنك ربما كنت مدينا له بحياتك ؟ واذا كنت تعتقد بهذه الحقيقة الواضحة فهل تنتوى وهل تجد أن من الانصاف والعدل ، بعد أن أصبحت مليونيرا ، أن تكافئ ابنَ بافليشيف الذى يعيش الآن حياة بؤس ، دون أن يصدّك عن ذلك أنه يحمل الآن اسم بوردوفسكى ؟ أنعم ام لا ؟ فاذا قلت «نعم» ، أى اذا كنت تملك ما تسمونه بلغتكم شرفا وضميرا ، وما نسميه نحن سلامة الحكم — وهذه تسمية أدق — فما عليك الا أن تبادر الى ارضائنا وتنتهى القضية ؛ ما عليك الا أن تسوّى القضية دون أن تنتظر منا لا رجاء ولا شكرا ، لأن ما ستفعله لن تفعله من أجلنا بل من أجل العدل . اما اذا رفضت ارضاءنا ، أى اذا قلت «لا» ، فسنتصرف فورا ، فتقف القضية عند هذا الحد . لكننا نقول لك دون تهيب ، أمام هؤلاء الناس جميعا ، أنك انسان غليظ الفكر منحط الثقافة ، وأنك لن يحق لك بعد الآن أن تعد نفسك رجلا ذا شرف وضمير . انك تريد أن تشترى هذا الحق بثمن رخيص . لقد أكملت الكلام . وقد طرحت السؤال . والآن ، اذا تجرأت ، من الممكن

أن تطردنا من البيت . انت قادر أن تفعل ذلك . لك الحق فى هذا . ولكن تذكر أننا نطالب ولا نستجدى ! اننا نطالب ، ولا نستجدى ! . .

وتوقف ابن أخت ليبيديف عن الكلام . لقد تكلم مهتاجا أشد الاهتياج .

وتمتم بوردوفسكى يقول وقد احمر وجهه احمرارا شديدا :

— اننا نطالب ، نطالب ، نطالب ، ولكننا لا نستجدى ! . .

بعد الخطبة التى ألقاها ابن أخت ليبيديف سرت فى الجمع حركة شاملة ، وسُمعت دمدمات متصلة ، رغم أن كل واحد كان يميل ميلا واضحا الى أن يتحاشى اقحام نفسه فى هذه القضية ، الا ليبيديف الذى كان كالمحموم . (شىء غريب : ان ليبيديف ، على كونه مناصرا للأمير ، كان يبدو عليه نوع من الاعتزاز العائلى بعد كلام ابن أخته ؛ فكان يُجيل على الحضور نظرات يتجلى فيها رضى خاص .)

بدأ الأمير يتكلم فقال بصوت خافت بعض الخفوت :

— فى رأيى أن فى كلامك نصف حق يا سيد دوكتورنكو ، بل اننى لأسلّم بأن فيه أكثر من نصف حق ، وكان يمكن أن اوافقك كل الموافقة لولا أنك أغفلت فى حديثك أمرا من الأمور . وهذا الأمر لا أملك ان أحدده لك على وجه الدقة . . . ان أقوالك يعوزها بالطبع شىء ما حتى تكون صحيحة كل الصحة . ولكن فلنتكلم فى القضية نفسها أيها السادة ، فهذا أولى . قولوا لى : لماذا نشرتم تلك المقالة ؟ ان فيها من النمائم بقدر ما فيها من ألفاظ .

رأيى أيها السادة أنكم ارتكبتم عملا منحطا .

— اسمح لى . . .

— يا سيدى المحترم . . .

— هذا . . . هذا . . . هذا . . .

كذلك صاح الزائرون معا فى آن واحد وقد ظهرت عليهم علائم الاهتياج .

وأجاب ايبوليت بصوته الصارخ الحاد :

— أما عن المقالة فقد سبق أن قلت لك أننى لا أؤيدها ولا أحبذها ، لا أنا ولا غيرى . ان كاتبها هو هذا — وأومأ بيده الى الملاكم الجالس قربه — لا أرفض أنها مقالة غير لائقة ، كتبها رجل غير مثقف ، بأسلوب هو أسلوب أمثاله من العسكريين المحالين على التقاعد . انه رجل أحمق ، وانه فوق ذلك يتكسب ، أوافقك على هذا . وأنا أكرر هذا الكلام على مسامعه كل يوم . ولكنه كان على نصف الحق : ان النشر حق يملكه جميع الناس شرعا ، ويملكه اذن بوردوفسكى . واذا تضمنت المقالة سخافات فهو مسئول عنها . أما الاعتراض الذى أعلنته منذ قليل باسمنا جميعا ، وهو الاعتراض الخاص بحضور أصدقائك ، فاننى أعتقد أن من الضرورى أن أعلمكم ايها السادة المحترمون أن ذلك الاعتراض لم يكن له من هدف الا تأكيد حقنا . فالواقع أننا كنا نريد أن يكون ثمة شهود ، حتى لقد اتفقنا نحن الأربعة على هذا قبل أن ندخل الى هنا ، فنحن نقبل الشهود أيا كانوا ، ولو كانوا أصدقاءك ، اذ ما داموا لا يستطيعون أن يجحدوا حق بوردوفسكى (وهو حق بديهى كالرياضيات) فمن الأفضل

أن يكونوا أصدقاءك ، لأن ذلك يظهر الحقيقة بوضوح أكبر وجلاء أعظم .

قال ابن اخت ليبيديف مؤيدا :

— نعم ، لقد اتفق رأينا على ذلك .

فقال الأمير مدهوشا :

— اذا كانت هذه نيتكم ، فلماذا أحدثتم تلك الجلبة كلها وذلك الشغب كله منذ الكلمات الأولى من الحديث بيننا ؟

كان الملاكم يحترق رغبة فى أن يقول كلمة ، فتدخل قائلا وقد بدا عليه انتعاش مسرور (يستطيع المرء أن يخمن أن وجود السيدات قد أثّر فى نفسه تأثيرا قويا) :

— فيما يتعلق بالمقالة يا أمير ، أعترف لك بأننى كاتبها فعلا ، رغم أن صديقى الممراض قد نقدها نقدا لاذعا ، وذلك أمر أغفره له كما أغفر له ما عداه بسبب حالة الضعف التى هو فيها . ولكنى كتبتها ونشرتها على شكل رسالة صحفية فى جريدة واحد من أصدقائى الخلّص . الأشعار وحدها ليست لى ، وانما نظمها شاعر ساخر مشهور . وقد قرأت المقالة لبوردوفسكى ، حتى اننى لم أقرأها كلها ، فأسرع يأذن لى بنشرها . لاحظ أننى لم أكن فى حاجة الى موافقته لنشرها . فالنشر حق عام ، نبيل ، مفيد ؛ وانى لأرجو يا أمير أن تكون أنت نفسك أكثر تقدمية من أن تنكر هذا . . .

— لست أنكر شيئا ، ولكن لا بد لك ان تعترف بأن مقالتك تتضمن . . .

— تتضمن أشياء قاسية . . . أهذا ما تريد أن تقول ؟

ولكن هذه الاشياء تفيد المجتمع بمعنى من المعانى . عليك أن تعترف أنت نفسك بذلك . ثم هل يستطيع المرء أن يفوت فرصة كهذه الفرصة ؟ نحن لا يهمنا الجناة ، فمصلحة المجتمع فوق كل مصلحة ! أما فيما يتعلق بما ورد فى المقالة من أمور ليست صحيحة صحة تامة ، أقصد بعض المبالغات فى التعبير ، فيجب عليك أن تعترف أيضا أن المهم قبل كل شىء هو المبادرة والغاية والنية قبل كل شىء . فانما المهم أن نقدِّم مثالا مفيدا ، ثم يتسع وقتنا بعد ذلك للمناقشة فى حالات خاصة . وأما فيما يتعلق بالأسلوب أخيرا ، فهو الفكاهة الساخرة اذا صح التعبير ، وأخيرا فالناس جميعا يكتبون بهذا الاسلوب ؛ عليك أن تعترف أنت نفسك بذلك ، ها ها ها ! . .

صاح الأمير يقول :

— لكنكم ضللتم الطريق أيها السادة ، أؤكد لكم ذلك . لقد نشرتم المقالة وأنتم تتصورون أننى لا أريد أن اصنع شيئا البتة للسيد بوردوفسكى ، فحاولتم على أساس هذا الافتراض أن تخيفونى وأن تنتقموا منى . ولكن ما أدراكم ؟ لعلنى أنتوى ارضاء السيد بوردوفسكى . وهأنا ذا أعلن لكم الآن بقول قاطع على رؤوس الاشهاد أن تلك هى نيتى . . .

صاح الملاكم يقول :

— أخيرا ! هذا قول حكيم نبيل يصدر عن انسان حكيم نبيل !

قالت اليزافيتا بروكوفيفنا على غير ارادة منها :

— رباه !

ودمدم الجنرال قائلا :

— هذا لا يطاق !

وتضرع الأمير يقول :

— اسمحوا لى يا سادة ، دعونى أبسط لكم القضية ! منذ نحو خمس أسابيع ، زارنى فى «ز» مندوبك ، يا سيد بوردوفسكى ووكيلك تشيباروف . لقد رسمت له فى مقالتك صورة أخاذة جدا ، يا سيد كيللر — ضحك الأمير فجأة وهو يلتفت نحو الملاكم — غير أن هذا الشخص لم يعجبنى البتة فى الواقع . لقد أدركت منذ أول لحظة أن تشيباروف هذا هو المحرِّض فى القضية كلها ، وأنه هو الذى حرَّضك يا سيد بوردوفسكى ، مستغلا بساطتك على أن تبدأ هذه القضية . أقول لك هذا بكل صراحة .

دمدم بوردوفسكى يقول وقد بلغ انفعاله كل مبلغ :

— لا يحق لك . . . أننى . . . أنا . . . أنا لست بسيطا . . . هذا . . .

وقال ابن أخت ليبيديف بلهجة الواعظ الناصح :

— لا يحق لك أن تفترض مثل هذه الافتراضات !

وصاح ايبوليت يقول بصوته الحاد :

— هذه اهانة رهيبة ! هذا افتراض جارح كاذب ، وليس له بالقضية أية علاقة !

أسرع الأمير يعتذر قائلا :

— عفوكم ، عفوكم يا سادة ! اعذرونى ، أرجوكم . لقد قدَّرت أن الافضل أن يكلم بعضنا البعض بصراحة تامة . ولكن لكم ما تشاءون . أجبت تشيباروف بأننى لغيابى ببطرسبرج قد أسرعت أرجو صديقا لى بأن يتابع هذه القضية ،

وبأننى سأبلغك يا سيد بوردوفسكى بهذا . ولا أكتمكم ايها السادة أن تدخل تشيباروف هو الذى جعلنى أحس بأن فى الأمر غشا . آه . . . لا تزعلوا يا سادة ، ناشدتكم الله ! لا تزعلوا !

كذلك هتف الأمير مرتاعا حين رأى بوردوفسكى يعود الى الاهتياج والزعل ، وحين رأى أصحابه يهبون الى الانفعال والاحتجاج . وتابع كلامه فقال :

— حين أقول أن المطالبة بدت لى محاولة غش ونصب ، فان قولى لا يمكن أن يتناولكم أنتم . كنت لا أعرف حينئذ أى واحد منكم . حتى لقد كنت أجهل أسماءكم . اننى لم أحكم على الأمر الا من خلال تشيباروف . اننى أتكلم بصورة عامة لأنه . . . ليتكم تعلمون كم خدُعت منذ آل الىَّ هذا الميراث !

قال ابن أخت ليبيديف بلهجة السخرية :

— انت ساذج سذاجة رهيبة يا أمير !

وقال ايبوليت :

— وأنت عدا ذلك أمير ومليونير ! فرغم ما قد تملك من طيبة النفس وبساطة القلب ، لا يمكنك طبعا أن تخرج على القانون العام .

فقال الأمير يجيب بسرعة :

— جائز ، جائز جدا ، أيها السادة ، وان كنت لا أفهم عن أى قانون عام تتكلمون . ولكنى اتابع كلامى ، فأرجوكم أن لا تهتاجوا فى غير داع الى اهتياج ، لأننى — أقسم لكم — لا أنتوى أن أسىء الى شعوركم البتة ! ما هذا يا سادة ؟

ألا يستطيع المرء أن يقول كلمة صدق دون أن تثوروا ؟ لقد ذُهلت حين علمت بوجود شاب يقال أنه «أبن بافليشيف» ، وحين علمت بحالة البؤس التى ذكر لى تشيباروف أنه يعيش فيها . ان بافليشيف كان المحسن الىَّ وكان صديق أبى (آه يا سيد كيللر ، لماذا كتبت فى مقالتك عن أبى أشياء تبلغ هذا المبلغ من البعد من الحقيقة ؟ انه لم يسلب أموال سريته فى يوم من الأيام ، لا ولا أساء معاملة أحد مرؤوسيه قط . اننى مؤمن بهذا كل الايمان . كيف استطاعت يدك أن تخط نميمة كهذه النميمة ؟) . وان ما قلته عن بافليشيف لا يمكن قبوله البتة . أنت تزعم أن هذا الانسان النبيل كان داعرا فاسقا طائشا . وأنت تقول هذا الكلام بثقة كاملة كأنما أنت تذكر الحقيقة . والواقع خلاف هذا تماما . لقد كان بافليشيف أعفَّ انسان فى العالم ! وكان عدا ذلك عالما مرموقا ؛ كان يراسل عددا من الشخصيات العلمية ، وقد وهب أموالا كثيرة فى سبيل تقدم العلم . أما عن طيب قلبه وأعماله الخيِّرة ، فقد كنت على حق حين كتبت أننى كنت فى ذلك الحين شبه معتوه ، وأننى كنت لا أستطيع أن أدرك من ذلك شيئا البتة (ومع هذا كنت أتكلم الروسية وأفهمها) . ولكننى الآن قادر على أن اقضى برأى فى كل ما أتذكره . . .

صرخ ايبوليت يقول :

— اسمح لى . . . أليس كل هذا حساسا جدا ؟ ما نحن بأطفال . لقد كنت تريد أن تمضى الى جوهر القضية . والساعة الآن قد تجاوزت التاسعة . لا تنس هذا !

فأسرع الأمير يوافق قائلا :

— ليكن يا سادة . قلت لنفسى بعد شىء من الشك والارتياب : لعلنى مخطئ ، ولعل بافليشيف أن يكون له ابن . غير أن الشىء الذى كان يذهلنى هو أن يعمد ذلك الابن ، بمثل هذه الخفة كلها ، أن يفضح سرَّ ولادته وأن يلطخ — وهو الأهم — شرف أمه علانيةً ، للناس قاطبة . ذلك أن تشيباروف كان قد هدَّدنى بالنشر . . .

هتف ابن أخت ليبيديف يقول :

— يا للحماقة !

وصاح بوردوفسكى قائلا :

— لا يحق لك ، لا يحق لك ! . .

وانبرى ايبوليت يقول بصوته الحاد وقد اهتاج اهتياجا شديدا :

— ليس الابن مسئولا عن فجور أبيه ، وليست الأم مذنبة !

فقال الأمير بوجل :

— فهذا فى رأيى أدعى الى الرحمة . . .

قال ابن أخت ليبيديف وهو يبتسم ابتسامة ساخرة :

— لست ساذجا يا أمير ، فلعلك تتجاوز حدود السذاجة . .

وصرخ ايبوليت بصوت حاد لم يبق فيه شئ طبيعى :

— وأى حق كان لك أنت ؟ !

— لم يكن لى أى حق ، لم يكن لى أى حق . . .

أسرع الأمير الى مقاطعته . ثم تابع فقال :

— أنت هنا على صواب ، أعترف لك بذلك . لكننى لم أستطع أن اسيطر على نفسى . ثم سرعان ما قدَّرت أن انطباعى الشخصى يجب أن لا يكون له فى

القضية أى تأثير . فمتى كان من واجبى أن أرضى السيد بوردوفسكى عرفانا بجميل بافليشيف ، فسيَّان أن أحترم السيد بوردوفسكى وأن لا أحترمه . . . واذا كنت قد حدثتكم عن هذا أيها السادة ، فاننى لم أفعل ذلك الا لأنه كان قد بدا لى أنه من غير الطبيعى أن يكشف الابن عن سرِّ أمه للناس كافة . . . الخلاصة : أن هذا الدليل خاصة هو الذى أقنعنى بأن تشيباروف لا بد أن يكون وغدا وَّرط السيد بوردوفسكى فى هذا الغش باحتيالات محسوبة .

صاح الزوار يقولون :

— هذا كلام يتجاوز جميع الحدود !

حتى أن بعضهم اندفع ينهض .

— أيها السادة ! ان هذا الدليل نفسه هو الذى جعلنى أخمِّن أن السيد بوردوفسكى المسكين التعيس هذا لا بد أن يكون رجلا بسيطا ، فهو لا يحسن أن يدافع عن نفسه ، وسهل الانقياد لأحابيل الغشاشين ، فزادنى ذلك شعورا بواجب مساعدته ما دام «ابن بافليشيف» ، أعنى أن أدرأ عنه تأثير تشيباروف أولا ، وأن أوجهه وأرشده باخلاص ومحبة ثانيا ، وأن أدفع له عشرة آلاف روبل ثالثا ، وهو المبلغ الذى يساوى فى حسابى ما أنفقه علىَّ بافليشيف .

صاح ايبوليت يسأل :

— ماذا ؟ عشرة آلاف روبل فقط ؟

وهتف ابن أخت ليبيديف :

— هيَّا يا أمير ، لست قديرا فى علم الحساب ، أو قل انك قدير فى علم الحساب أكثر مما يجب ، رغم ما تصطنعه من بساطة .

وأعلن بوردوفسكى قائلا :

— لا أقبل هذه العشرة آلاف روبل !

فهمس الملاكم يقول له بسرعة ووضوح وهو يميل عليه من وراء كرسى ايبوليت :

— اقبلْ يا آنتيب ! اقبلْ وفيما بعد سنرى !

وزأر ايبوليت يقول :

— اسمع يا سيد ميشكين ! عليك أن تفهم أننا لسنا اغبياء . نحن لسنا اولئك الاغبياء المبتذلين الذين يتصورهم ضيوفك فيما يبدو ، والذين تتصورهم هاته السيدات اللواتى ينظرن الينا وهنَّ يبتسمن ابتسامة احتقار ، أو يتصورهم خاصة هذا السيد الذى ينتمى الى المجتمع الراقى (قال ذلك وهو يشير الى يفغينى بافلوفتش) هذا السيد الذى لم أتشرف بمعرفته طبعا ، ولكننى سمعت عنه شيئا . . .

قال الأمير بحرارة مضطرمة :

— اسمحوا لى ، اسمحوا لى أيها السادة . لقد أخطأتم فهمى مرة اخرى . يجب أن أذكر اولا أنك يا سيد كيللر قد قدَّرت ثروتى فى مقالتك تقديرا بعيدا عن الصحة كل البعد : فأنا لم أقبض ملايين ، ولعل ما أملكه لا يزيد على ثُمُن او عُشْر ما تظنون . ثم ان ما أُنفق علىَّ بسويسرا ليس عشرات ألوف الروبلات : لقد كان شنايدر يتلقى ستمائة روبل فى السنة ؛ وهذا المبلغ نفسه لم يُدفع الا فى السنين الثلاث الاولى . أما عن المربيات الجميلات ، فان بافليشيف لم يأت بمربية من باريس فى يوم من الأيام . فهذه أيضا نميمة . أعتقد أن المبالغ التى أنفقت علىَّ تقل كثيرا عن عشرة آلاف روبل ، لكننى وافقت

على ذلك الرقم . لا بد لكم من التسليم بأننى اذا كنت أرد دينا فلا أستطيع أن اقدم للسيد بوردوفسكى مبلغا أكبر من ذلك الدين ، مهما تكن عاطفة المحبة التى أحملها له . ذلك أن الشعور باللباقة يمنعنى من أن أظهر بمظهر من يتصدق عليه ، فى حين أننى أرد اليه دينا . لا أدرى أيها السادة كيف يمكن أن لا تفهموا هذا الأمر . ولكننى أردت أن افعل أكثر من ذلك ، فأهب للسيد بوردوفسكى هذا العاثر الحظ ، صداقتى ودعمى . من الواضح أنه خُدع ، فلولا ذلك لما رضى عن دناءة كدناءة نشر ذلك المقال الذى كتبه السيد كيللر مشهِّرا فيه بأمه . ولكن ما بالكم تغضبون من جديد أيها السادة ؟ لسوف ينتهى بنا الأمر الى أن لا يفهم بعضنا البعض اطلاقا . صدق ظنى اذن ! لقد اقتنعت الآن اقتناع المشاهدة والعيان بأن تخمينى كان صحيحا صادقا . . .

قال الأمير المنفعل ذلك مقنعا الحضور دون أن يلاحظ ان محاولته تهدئتهم تزيد اضطرابهم وغيظهم .

سألوه حانقين :

— ماذا ؟ بماذا اقتنعت ؟

أجاب الأمير :

— أولا استطعت أن أتفحص الآن السيد بوردوفسكى جيدا ، فعرفت حقيقته بنفسى . . . انه رجل برىء ، ولكن الجميع يخدعونه . هذا انسان لا يملك عن نفسه دفاعا ، فيجب علىَّ اذن أن احميه . ثانيا ان جافريلا آردالیونوفتش الذى كلفته بمتابعة هذه القضية ثم لم تصلنى أنباؤه منذ مدة طويلة بسبب سفرى وبسبب مرضى اثناء الأيام الثلاثة

التى قضيتها ببطرسبرج ، أقول أن جافريلا آردالیونوفتش قد أبلغنى منذ ساعة ، فى أول لقاء بيننا ، أنه كشف النقاب عن جميع مرامى تشيباروف وأهدافه و يملك البرهان القاطع على أن جميع افتراضاتى عن هذا الرجل صحيحة . أنا أعلم تماما أيها السادة أن كثيرا من الناس يعدوننى أبله . فلما سمع تشيباروف أننى انسان مبسوط الكف ، وأن انتزاع المال منى أمر يسير ، قدَّر بأن فى وسعه أن يخدعنى بسهولة ، مستغلا ما أحمله لبافليشيف من شعور الشكر والامتنان . غير أن الأمر الأساسى . . . أرجو أن تصغوا الى كلامى حتى النهاية أيها السادة ! أقول أن الشىء الأساسى هو أنه قد اتضح الآن أن السيد بوردوفسكى ليس ابن بافليشيف ! لقد أبلغنى جافريلا آردالیونوفتش هذا الاكتشاف منذ هنيهة ، مؤكدا أن ثمة أدلة ثابتة وبراهين قاطعة . فما قولكم ؟ انه ليصعب على المرء أن يصدق هذا الكلام بعد كل ما اقترفتموه ! واسمعونى جيدا : ان ثمة أدلة ثابتة وبراهين قاطعة . أنا نفسى لَما أصدقها بعد . أؤكد لكم أننى لا أستطيع تصديقها . ما زلت أشك فى صحتها ، لأن جافريلا آردالیونوفتش لم يتسع وقته لأن يذكر لى جميع التفاصيل . غير أن هناك واقعة أصبحت ثابتة لا مجال للشك فيها ، هى أن تشيباروف وغد ، فهو لم يقتصر على أنه أضلَّ السيد بوردوفسكى المسكين ، وانما أضلكم أنتم جميعا أيها السادة ، أنتم الذين جئتم الى هنا على نية نبيلة هى أن تدعموا صديقكم وأن تسندوه (ذلك أنه فى حاجة الى الدعم والسند ، فهذا أمر أفهمه حق فهمه) . لقد ورَّطكم تشيباروف ، ورَّطكم جميعا فى قضية غش واحتيال ، لأن

هذه القضية ليست الا غشا واحتيالا .

هتف الجميع يقولون من كل جهة :

ـــ كيف ؟ غش واحتيال ؟ ليس هو «ابن بافليشيف» ؟ كيف يمكن أن يكون هذا ؟

أصبحت عصبة بوردوفسكى كلها فى حالة انصعاق لا توصف .

قال الأمير :

ـــ هى قضية غش واحتيال طبعا ! اذا ثبت الآن أن السيد بوردوفسكى ليس «ابن بافليشيف» ، فان مطالبته تصبح غشا واحتيالا لا أكثر (هذا اذا كان يعرف الحقيقة طبعا) . ولكن الواقع أنه خُدع وغُرِّر به . ولذلك ألح على أنه برئ وأعتقد أن بساطته تجعله جديرا بالشفقة عاجزا عن الاستغناء عن سند يدعمه . والا كان يمكن أن يعد شريكا فى الغش والاحتيال فى هذه القضية . لكننى مقتنع منذ الآن أنه لا يفهم من الأمر شيئا ؛ ولقد كنت أنا نفسى على هذه الحال الى حين سفرى الى سويسرا . كنت أتمتم بأقوال غير مترابطة . . . كنت أريد أن اعبِّر فما توافينى الكلمات . . . اننى أدرك هذا ! وأنا أتعاطف معه ، لأننى كنت فى مثل وضعه تقريبا . فمن حقى اذن أن أتكلم عن هذا الأمر . رغم أنه لا وجود الآن لأحد هو «ابن بافليشيف» ورغم أن كل هذه القضية هى غش واحتيال ، فاننى ما زلت متمسكا بقرارى ، ما زلت مستعدا لأن أدفع للسيد بوردوفسكى مبلغ عشرة آلاف روبل ، تحية لذكرى بافليشيف . لقد كنت أنوى ، قبل السيد بوردوفسكى ، أن أقف هذا المبلغ على انشاء مدرسة ، تمجيدا لذكرى بافليشيف .

ولكن أصبح يستوى الآن عندى أن أقف هذا المبلغ على انشاء مدرسة او أن أهبه للسيد بوردوفسكى ، لانه ان لم يكن «ابن بافليشيف» فهو قريب من ذلك ، ما دام قد اعتقد صادقا بأنه ابن بافليشيف ، نتيجةً للتضليل والخداع الذى كان ضحيته . استمعوا الى جافريلا آرداليونوفتش ايها السادة . فلنفرغ من هذا الأمر دفعة واحدة . لا تغضبوا ، ولا تضطربوا ! اجلسوا ! سيشرح لنا جافريلا آرداليونوفتش القضية كلها ؛ وانى لأعترف بأننى أيضا أحترق شوقا الى معرفة التفاصيل . هو يقول انه ذهب الى بسكوف يا سيد بوردوفسكى ، وقابل أمك التى لم تمت كما أجبروك على ان تكتب فى المقالة . . . اجلسوا أيها السادة ! اجلسوا !

جلس الأمير هو نفسه ، واستطاع أن يُجلس أصدقاء السيد بوردوفسكى الذين كانوا لا يستقرون على حال . لقد ظل عشر دقائق أو عشرين دقيقة يتكلم بعاطفة حارة ، وصوت قوى ، وتدفق سريع ، واندفاع شديد ، محاولا أن يسيطر على جميع الصيحات والصرخات . وهو الآن نادم ندما مرا على أن أفلتت منه تعبيرات وأقوال كان يتمنى ان لا تفلت . فلولا أنه استثير وأخرج عن طوره بالكاد لما أجاز لنفسه أن يفصح بمثل هذا الوضوح وهذه العجلة عن بعض تخميناته وعما فى خباياه بصراحة زائدة . فما ان جلس حتى أحسَّ بندامة أليمة تقبض قلبه : انه لم يكتف بأنه «اهان» بوردوفسكى اذ وصفه على رؤوس الاشهاد بأنه مصاب بالمرض الذى ذهب هو الى سويسرا لمعاجلته ، بل زاد على ذلك فعامله معاملة فظة خالية من اللطف والذوق اذ عرض عليه العشرة آلاف روبل الموقوفة على انشاء مدرسة ،

عرضها عليه صدقة امام جميع الناس . قال الأمير يخاطب نفسه : «كان ينبغى لى أن أنتظر فأقدمها اليه غدا فى خلوة بينى وبينه . يبدو الآن أنه لا سبيل الى اصلاح ما أفسدته ! نعم ، اننى أبله ، أبله حقا !» . بهذا ختم الأمير كلامه لنفسه وهو يشعر بأشد الخجل والضيق .

بعد ذلك ، تلبيةً لدعوة الأمير ، تقدم جافريلا آرداليونوفتش الذى ظل متنحيا حتى ذلك الحين ولم ينطق بكلمة واحدة ، تقدم نحو الأمير ووقف الى جانبه وأخذ يشرح ، بصوت واضح رصين ، المهمة التى عهد به اليها ، فانقطعت الأحاديث حالا ، وأخذ جميع الحضور ، ولا سيما عصبة بوردوفسكى ، يصيخون السمع بفضول شديد .

الفصل التاسع

اتجه جافريلا آرداليونوفتش بالكلام مباشرة الى بوردوفسكى الذى كان مضطربا اضطرابا واضحا وكان يحملق اليه منتبها أشد الانتباه . قال له جافريلا آرداليونوفتش :

— لا شك فى أنك لن تنكر ولن تريد ان تجحد جادا ، أنك وُلدت بعد انقضاء عامين على الزواج الشرعى بين أمك المحترمة وأبيك السكرتير الاعتبارى السيد بوردوفسكى . انه لمن السهل جدا تحديد تاريخ ميلادك بواسطة وثائق ثابتة . أما تزوير هذا التاريخ فى مقالة السيد كيللر ، ذلك التزوير الذى يهين كرامة أمك ويهين كرامتك فى آن واحد ، فان تفسيره الوحيد هو خيال السيد كيللر الذى كان يظن أنه يخدم بذلك مصلحتك اذ يجعل حقك أوضح . لقد صرح السيد كيللر بأنه قرأ لك المقالة قبل نشرها ، ولكنه لم يقرأها كاملة . . . فمما لا شك فيه أنه لم يصل فى قراءته الى هذه الفقرة . . .

قاطع الملاكم يقول :

— فعلا ، لم أقرأ له تلك الفقرة . ولكن جميع الوقائع انما نقلها الىَّ شخص مطَّلع ، وأنا . . .

قاطعه جافريلا آرداليونوفتش :

— معذرة يا سيد كيللر ، دعنى أكمل كلامى . أعدك بأننا سنتكلم عن مقالتك فى الوقت المناسب ، فتقدم الينا عندئذ ما لديك من تفسيرات . أما الآن فالأفضل أن نتبع تسلسل العرض . لقد حصلت ، بمصادفة محض

وبمعاونة أختى باربارا آرداليونوفنا بتيتسينا ، حصلت من صديقتها الحميمة فيرا ألكسيفنا زوبكوفا ، وهى اقطاعية أرملة ، على رسالة كان المرحوم نيقولاى آندريفتش بافليشيف قد كتبها اليها منذ أربعة وعشرين عاما حين كان فى الخارج . وبعد أن اتصلت بفيرا ألكسيفنا اتجهت ، عملا باشاراتها ، الى عقيد محال على التقاعد اسمه تيموفى فيدوروفتش فيازوفكين ، وهو واحد من أقرباء السيد بافليشيف كان صديقا حميما له . فاستطعت أن أحصل منه على رسالتين أخريين من نيقولاى آندريفتش مكتوبتين من الخارج هما أيضا . ان المقابلة بين التواريخ والوقائع المذكورة فى هذه الرسائل الثلاث تثبت بدقة رياضية لا تدع مجالا لأى اعتراض أو أى شك ، أن نيقولاى آندريفتش عاش فى ذلك الأوان بالخارج خلال ثلاث سنين ، وأن سفره الى الخارج انما تمَّ قبل ولادتك بسنة ونصف سنة على وجه الدقة يا سيد بوردوفسكى . وأنت تعلم أن أمك لم تخرج من روسيا طول حياتها . . . ولن أقرأ لك الآن تلك الرسائل لأننا فى ساعة متأخرة ، ولكننى أقرر الواقعة فحسب . فاذا شئت يا سيد بوردوفسكى أن نلتقى غدا فى الصباح عندى ، بحضور شهودك (وليكن عددهم ما شئت !) وأن تجىء بخبراء فى الخطوط ، فلسوف تضطر الى التسليم بالحقيقة البديهية التى أذكرها لك . انى من هذا لعلى يقين . ومتى سلَّمت بهذه الحقيقة ، سقطت القضية كلها من تلقاء نفسها طبعا .

استولت على جميع الحضور ، من جديد ، حركة انفعال عميق . ونهض بوردوفسكى عن كرسيه فجأة . وقال :

— اذا كان الأمر كذلك فقد خُدعت اذن ، نعم

خُدعت ، ولكن ليس تشيباروف هو الذى خدعنى ، ويرجع هذا الى زمن بعيد ، بعيد جدا ! لا أريد خبراء فى الخطوط ، ولن أجيء اليك . اننى أصدِّقك . وأتنازل عن دعواى . . . وأرفض العشر آلاف روبل . . . وداعا ! . .

قال بوردوفسكى ذلك وهو يتناول قبعته ، ويدفع كرسيّه ، ويهمُّ أن يخرج .

فقال له جافريلا آرداليونوفتش بلهجة الرقة والعذوبة :

— ابق قليلا ، ولو خمس دقائق ، اذا كنت تستطيع ذلك ، ياسيد بوردوفسكى . ان هذه القضية تكشف أيضا عن أمور خطيرة الشأن جدا ، ولا سيما بالنسبة اليك ، وهى على كل حال أمور تبلغ غاية الطرافة . وفى رأيى أنك لا تستطيع أن تستغنى عن معرفة هذه الأمور ، وقد تغبط نفسك على ان المسألة كلها قد اصبحت واضحة تماما . . .

جلس بوردوفسكى دون أن يقول كلمة واحدة ، مائلا برأسه الى امام ، على وضع انسان مستغرق في التفكير أعمق الاستغراق . وجلس ايضا ابن اخت ليبيديف الذى كان قد قام ليخرج معه . لقد كان يبدو عليه التشوش الشديد ، وان لم يفقد هدوء الأعصاب وسلامة الفكر . وكان ايبوليت مظلم الوجه حزين النفس ، مندهشا اندهاشا كبيرا ، هذا الى أن نوبة من سعال قد استبدت به فى تلك اللحظة وبلغت من القوة أن منديله تلطخ كله بالدم . وبدت على الملاكم امارات الخوف ، وهتف يقول مخاطبا بوردوفسكى بلهجة فيها مرارة :

— آ . . . ألم أقل لك ياآنتيب . . . منذ مدة . . . أمس الأول . . . ان من الجائز فعلا أن لا تكون ابن

بافليشيف !

فدوت ضحكات مخنوقة ولكن اثنين او ثلاثة ضحكوا اعلى من غيرهم .

تابع جافريلا آرداليونوفتش كلامه فقال :

— ان لهذه الواقعة التى كشفت لنا عنها الآن ياسيد كيللر لقيمة كبيرة . وفى وسعى أن أؤكد مع ذلك ، بناء على أدق المعلومات ، أن السيد بوردوفسكى ، على علمه الكامل بتاريخ ميلاده ، كان يجهل كل الجهل أن بافليشيف كان مقيما فى تلك الآونة بالخارج ، حيث قضى الشطر الأكبر من حياته دون أن يعود الى روسيا الا فترات قصارا . ثم ان تلك السفرة كانت أهون شأنا فى ذاتها من أن تحفظها ، بعد انقضاء أكثر من عشرين عاما عليها ، ذاكرةُ أقرب المقرَّبين الى بافليشيف من أصدقائه ، ناهيك عن ذاكرة السيد بوردوفسكى الذى لم يكن قد وُلد في ذلك الأوان . صحيح أن تقصِّى أمر تلك الرحلة الى الخارج لا يبدو متعذرا او مستحيلا ، ولكن يجب أن أعترف أن جهود التقصى التى بذلتها أنا كان يمكن أن لا تؤدى الى نتيجة ، وان المصادفة هى التى يسَّرت لى جمع ما جمعته من معلومات ، بحيث كان يمكن أن لا تثمر مثل تلك الجهود ، وأن لا يكون لها أى حظ من النجاح ، لو قام بها السيد بوردوفسكى ، أو حتى تشيباروف ، هذا اذا خطر ببالهما أن يفعلا ذلك . ولكن من الجائز أن ذلك لم يخطر لهما ببال . . .

قاطعه ايبوليت فجأة فى غضب :

— اسمح لى ياسيد ايفولجين ، علام هذا اللغو

الطويل كله ؟ (معذرة !) . لقد أصبحت القضية واضحة ونصدق الواقعة الرئيسية . فلماذا هذا الالحاح المؤلم الجارح ؟ أم تُراك تريد الافتخار ببراعتك فيما قمت به من بحوث ، وتريد أن تُظهر الأمير وتظهرنا على ما تملك من مواهب الباحث المتقصى والمحقق المتحرى ؟ أم أنت تريد أن تعذر بوردوفسكى وأن تبرئه بالبرهنة على أن الجهل هو الذى قاده الى هذه الحالة ؟ ولكن هذه وقاحة أيها السيد الفاضل ! ان بوردوفسكى ليس فى حاجة الى ان تتفضل عليه بالتبرئة والعذر ، فاعلم ذلك ! هذه اهانة له ، ما أغناه عن هذا وهو فيما هو فيه الآن من وضع مؤلم محرج . كان عليك أن تدرك هذا ، وأن تفهمه . . .

قال جافريلا آرداليونوفتش مقاطعا :

— كفى ياسيد تيرنتييف ! كفى ! هدئ روعك ! لا تندفع كثيرا ! أعتقد أنك مريض جدا ، أليس كذلك ؟ اننى أشاطرك ألمك . لقد أنهيت كلامى ، اذا كنت تريد ذلك ! اعنى اننى مضطر أن أختصر الوقائع التى كان لا يخلو من فائدة ، فى رأيى ، أن تُعرف كاملة . . . — أضاف ذلك وقد لاحظ فى الحضور حركة تشبه أن تكون رغبة فى الاستماع اليه . وتابع كلامه فقال : — فمن أجل أن أنير الأشخاص الذين يهتمون بهذه القضية انما أحرص على أن أبين ، والبراهين فى يدى ، أن أمك ياسيد بوردوفسكى قد حظيت من بافليشيف بأنواع من الرعاية والعناية لأنها كانت أخت خادمة شابة احبها نيقولاى آندريفتش بافليشيف فى شبابه الأول وكان يمكن أن يتزوجها حتما لولا أنها ماتت فجأة . اننى أملك براهين ثابتة على هذه الواقعة العائلية

الصادقة التى لا تُعرف الا قليلا بل قل نُسيت نسيانا تاما . هذا واستطيع أن أشرح لك كيف كفل السيد بافليشيف أمك حين لم يكن عمرها الا عشر سنين كأنها قريبة له ووقف لها مهرا كبيرا . ان علامات التعلق هذه قد ولّدت المخاوف الشديدة لدى أقرباء بافليشيف ، وهم كثيرون جدا ، حتى ظن بعضهم أن الرجل سيتزوج الفتاة التى كفلها . ولكن الامر انتهى بان أمك حين بلغت العشرين من عمرها تزوجت موظفا بمصلحة المساحة اسمه بوردوفسكى ، زواجا قائما على الميل ، (وهذا أستطيع أن آتى ببراهين ثابتة عليه) . وقد جمعت كذلك معلومات دقيقة توضح أن أباك ، السيد بوردوفسكى ، الذى لم يكن يملك أى موهبة تمكنه من النجاح فى الأعمال ، قد بادر الى ترك الوظيفة بعد قبض مهر أمك ، وهو خمسة عشر ألف روبل ، واندفع فى مشروعات تجارية ، فخُدع وفقد رأس ماله ، ثم لم يستطع تحمل هذه الضربة فأخذ يشرب ، فدمّر بذلك صحته ومات قبل الأوان ، بعد زواجه بسبع سنين . وقد شهدت أمك نفسها أنها عاشت فى أعقاب موت ابيك حياة فقر مدقع وعوز شديد ، حتى لقد كان يمكن أن تضيع لولا المساعدة السخية الكريمة المتصلة التى قدّمها اليها بافليشيف اذ خصّها بايراد سنوى قد يبلغ ستمائة روبـــل . وهناك شهادات لا حصرَ لها تدل على أن بافليشيف قد محضك منذ طفولتك أشد العطف وأكبر الحنان . ويُستدل من تلك الشهادات ، وقد أيدتها أمك ، على أن سبب ذلك العطف وذلك الحنان هو فى الدرجة الأولى أن مظهرك فى الطفولة كان مظهر طفل عليل مسكين يُرثى له ، عىّ اللسان ،

(وكان بافليشيف طوال حياته — وأنا أملك البرهان القاطع على ذلك — يشعر بعطف خاص على أولئك الذين أساءت الطبيعة معاملتهم ، ولاسيما اذا كانوا أطفالا . وفى رأيى أن لهذه الخاصة شأنها الكبير في القضية التى تهمنا الآن) .

وأستطيع اخيرا أن أتباهى باننى أجريت تحريات دقيقة تؤكد الواقعة الرئيسية وهى : ان العاطفة القوية التى كان يحملها لك بافليشيف (والتى بفضلها دخلتَ المدرسة وتابعت تعليمك باشراف خاص) قد جعلت أقرباءه وافراد عائلته يتصورون شيئا فشيئا أنك قد تكون ابنه ، وأن أباك الشرعى قد لا يكون الا زوجا خانته امرأته . ولكن المهم أن هذا التصور لم يبلغ من القوة حدَّ الاقتناع الكامل الشامل الا في السنين الاخيرة من حياة بافليشيف ، حين أخذ المحيطون به يخشون أن يكتب وصيته بينما كانت الوقائع الأولى قد نُسيت وبينما كانت التحريات قد اصبحت مستحيلة . لا شك أن هذا الظن قد وصل الى مسامعك ياسيد بوردوفسكى وقد استولى على فكرك . وكانت أمك ، التى تشرفت بمعرفتها شخصيا ، على علم بهذه الشائعة ايضا ، ولكنها ماتزال تجهل أنك صدقت هذه الشائعة أنت ابنها (أخفيتُ أنا عنها ذلك) . ياسيد بوردوفسكى ، لقد وجدت أمك المحترمة ، فى بسكوف ، مريضة معوزة أشد العوز بعد وفاة بافليشيف . وقد أعلمتنى ، ودموع الاعتراف بالجميل تملأ عينيها ، أنها اذا كانت ماتزال تعيش ، فانما هى تعيش بفضلك وبفضل مساعدتك . وهى تعقد على مستقبلك آمالا كبارا ، وتؤمن ايمانا حارا بأنك ستنجح . . .

نفد صبر ابن أخت ليبيديف فصاح فجأة :

— هذا يتجاوز كل حد اخيرا ! ما فائدة هذه القصة كلها ؟

وتململ ايبوليت بقوة فقال :

— شىء مقزز ، لايليق !

ولكن بوردوفسكى لم يقل كلمة ، بل لم يتحرك .

وردَّ جافريلا آرداليونوفتش بلهجة فيها مكر ودهشة وهو يتهيأ لخاتمة قارصة ، فقال :

— ما فائدة هذا ؟ فائدته أولا أن يستطيع السيد بوردوفسكى الآن أن يقتنع بأن السيد بافليشيف قد أحبه مدفوعا لا بغريزة الأبوة بل بشعور الشهامة . فهذه الواقعة وحدها كان من الضرورى أن يعرفها السيد بوردوفسكى الذى أكد وأيد منذ قليل ، بعد قراءة المقالة ، مزاعم السيد كيللر . أقول هذا لأننى أعدك رجلا شريفا ياسيد بوردوفسكى . وفائدة ذلك ثانيا أنه قد اتضح الآن أن نية النصب والاحتيال لم يكن لها وجود حتى عند تشيباروف . اننى أحرص على الالحاح على هذه النقطة ، ذلك أن الأمير قد قال منذ لحظة ، وهو مهتاج ومضطرب ، اننى أشاطره شعوره بأن فى هذه القضية المشئومة محاولة غش واحتيال . بالعكس : ان الجميع هنا كانوا صادقين . قد يكون تشيباروف محتالا كبيرا ، ولكنه فى هذه القضية لم يكن الا رجلا بارعا يسعى وراء مصلحته . كان يأمل أن يربح مالا كثيرا من حيث هو محام ، وكان حسابه لا يتصف بالبراعة فحسب ، بل يتصف كذلك بأنه يقوم على أساس قوى : لقد كان يعتمد على ما يتميز به الأمير من أنه رجل سهل العطاء ، ومن أنه يحمل شعور الاحترام والامتنان للمرحوم بافليشيف ، ومن

أنه أخيرا (وهذا الاهم) يفهم واجبات الشرف والتزامات الضمير فهما فروسيا . أما السيد بوردوفسكى فيمكن أن نقول عنه انه بسبب بعض اقتناعاته ، قد انقاد لتأثير تشيباروف وتأثير المحيطين به انقيادا جعله يتورط في هذا الأمر بدون أية منفعة شخصية تقريبا ، وانما لخدمة قضية الحقيقة والتقدم والانسانية بمعنى من المعانى . أما وقد انجلت الآن جميع الوقائع ، فمن الواضح أن السيد بوردوفسكى رجل صادق رغم جميع المظاهر ، ففى وسع الأمير أن يعرض عليه مساعدته الودية ومعونته الفعلية التى عرضها عليه منذ قليل بمناسبة كلامه عن المدارس وعن بافليشيف ، بل فى وسعه أن يعرضها عليه الآن بمزيد من طيب الخاطر وطوع الارادة .

صاح الأمير يقول بلهجة فيها ذعر صادق :

— قف يا جافريلا آردالیونوفتش ! اسكت !

ولكن الأوان كان قد فات . فها هو ذا بوردوفسكى يصرخ قائلا فى حنق شديد :

— قلت . . . قلت ثلاث مرات اننى أرفض هذا المال . لن آخذه . . . لماذا آخذه ؟ أنا لا أريده ! اننى ذاهب . . .

قال ذلك وهمّ أن ينزل من الشرفة بسرعة ، فأدركه ابن اخت ليبيديف وأمسكه من ذراعه وهمس له ببعض الكلام . فعاد عندئذ مسرعا ، فاستل من جيبه ظرفا كبيرا غير مغلق ورماه على منضدة صغيرة كانت بقرب الأمير ، قائلا :

— اليك المال ! . . . ما كان ينبغى لك أن تجرؤ على أن تقدمه الىّ ! اليك المال ! . . .

وقال دكتورنكو شارحا :

— هى الروبلات المائتان والخمسون التي أبحت لنفسك أن ترسلها اليه صدقةً بواسطة تشيباروف .

صاح كوليا :

— المقالة لا تشير الا الى خمسين روبلا !

قال الأمير وهو يقترب من بوردوفسكى :

— أنا آثم فى حقك ، أنا آثم جدا فى حقك يابوردوفسكى . ولكننى لم أرسل اليك هذا المبلغ صدقة . صدقنى . ومازلت آثما فى حقك الآن . . . أثمت فى حقك منذ قليل (كان الأمير مشوشا مضطربا ، كان يبدو متعبا موهنا ، وكانت اقواله مفككة) . لقد تكلمت عن غش واحتيال . . . ولكن ذلك لا يتناولك أنت . اننى أخطأت . قلتُ انك مريض مثلى . . . ولكن لا ، ما أنت مثلى . أنت تعطى دروسا ، وأنت تساعد أمك . ولقد قلت انك لطخت شرف أمك ، والحقيقة أنك تحبها . هى نفسها تقول ذلك . . . لم أكن أعلم . . . لم يحدثنى جافريلا آردالیونوفتش عن هذا كله من قبل . اننى أخطأت . وقد تجرأت فعرضت عليك عشرة آلاف روبل ، فكان هذا منى اساءة . كان ينبغى لى أن أتدبر الأمر بطريقة أخرى . . . وقد أصبح هذا مستحيلا الآن ، لأنك تحتقرنى . . .

هتفت اليزافيتا بروكوفيفنا :

— هذا مستشفى مجانين !

فقالت آجلايا بحدة وقد أصبحت لا تستطيع السيطرة على نفسها :

— هو حتما مستشفى مجانين !

ولكن كلماتها ضاعت فى خضم لغط شامل وجلبة كاملة . الجميع يتكلمون الآن ويتناقشون بصوت عال . فبعضهم يتشاجرون ، وبعضهم يضحكون . وكان ايفان فيدوروفتش ايبانتشين ساخطا حانقا ، ينتظر اليزافيتا بروكوفيفنا انتظار رجل أهينت كرامته . وأراد ابن أخت ليبيديف أن يدس كلمة أخيرة ، فقال :

— طيب ياأمير ! يجب أن ننصفك فنعترف لك بأنك تحسن الاستفادة . . . من مرضك (اذا أردنا أن نستعمل كلمة مهذبة) . لقد بلغتَ من الحذق والبراعة فى عرض صداقتك ومالك أنه أصبح يستحيل على رجل شريف أن يقبلهما فى أية صورة من الصور . . . هذا افراط فى السذاجة أو افراط فى المكر . . . أنت أدرى بذلك من أى انسان على كل حال .

هتف جافريلا آرداليونوفتش يقول ، وكان فى أثناء ذلك الوقت قد أخرج المال من الظرف :

— اسمحوا لى ياسادة : ليس فى الظرف مائتان وخمسون روبلا ، بل مائة روبل فحسب . اننى أذكر هذا ياأمير تحاشيا لكل التباس وسوء تفاهم !

قال الأمير لجافريلا آرداليونوفتش وهو يحرك يده باشارة تململ :

— دع هذا ! دع هذا !

فأسرع ابن أخت ليبيديف متدخلا :

— لا ، ان قولك «دع هذا» غير لائق ، فيه اهانة لنا يا امير ! اننا لا نتخفى ، اننا نتكاشف صراحة : نعم ، ليس فى الظرف الا مائة روبل لا مائتان وخمسون . ولكن الأمرين واحد.

دس جافريلا آرداليونوفتش كلمته بلهجة اصطنع فيها دهشة ساذجة :

— لا ، ليس الأمران واحدا !

فصرخ ابن اخت ليبيديف يقول غاضبا حانقا :

— لاتقاطعنى . لسنا أغبياء الى الحد الذى تظن ياسيادة المحامى . واضح أن الأمرين ليسا واحدا وأن مائة روبل ليست مائتين وخمسين روبلا . لكن الشىء الهام هنا انما هو المبدأ والمبادأة . أما أن ينقص المبلغ مائة وخمسين روبلا فذلك أمر تفصيلى . ان الشئ الأساسى هو أن بوردوفسكى لا يقبل صدقتك وأنه يرميها فى وجهك ياسمو الأمير ! فمن هذه الناحية ، يستوى أن يردَّ مائة وأن يردَّ مائتين وخمسين . لقد رأيت بنفسك منذ قليل أنه رفض عشرة آلاف . ولولا أنه رجل شريف لما ردَّ حتى هذه المائة روبل ! ان المائة وخمسين روبلا الناقصة انما دُفعت لتشيباروف لقاء نفقات سفره حين مضى يلقى الأمير . لك أن تسخر من خراقتنا ومن جهلنا فى شئون الأعمال . وقد بذلت قصاراك لتجعل منا أضحوكة . ولكن لا تسمحنْ لنفسك بأن تقول أننا أناس غير شرفاء ! أيها السيد الفاضل ، سندفع نحن جميعا المائة وخمسين روبلا للأمير ، سوف نرد اليه المبلغ كاملا مع الفوائد ولو اضطررنا أن نرده روبلا روبلا . ان بوردوفسكى فقير . ما هو بالمليونير . وقد قدم اليه تشيباروف فاتورة الحساب بعد رحلته . وكنا نأمل أن نربح . . . من ذا الذى يمكن أن لا يفعل الذى فعل ، لو كان فى مكانه ؟

صاح الأمير «ش . . .» يقول :

— ياله من سؤال !

وهتفت اليزافيتا بروكوفيفنا :

— سأجن هنا !

وقال يفغينى بافلوفتش ضاحكا ، وكان قد ظل واقفا مدة طويلة يلاحظ المشهد :

— هذا يذكّر بالمرافعة الشهيرة التى ألقاها مؤخرا محام كان موكّله قد قتل ستة اشخاص ليسرقهم . لقد أشار المحامى الى الفقر ليبرر الجريمة ، وختم فجأة كلامه بهذه الكلمات تقريبا : «واضح أن الفقر هو الذى أنبت فى ذهن موكّلى فكرة قتل أولئك الأشخاص الستة . من ذا الذى يمكن أن لا تنبت هذه الفكرة فى ذهنه لو كان فى مكانه ؟» . لقد قال كلاما من هذا النوع . ولكنه فى منتهى الطرافة والفكاهة !

قالت اليزافيتا بروكوفيفنا فجأة وهى تكاد ترتعش من فرط الغضب :

— كفى ! آن لنا أن نضع حدا لهذا اللغو السخيف !

كانت اليزافيتا بروكوفيفنا فى حالة اهتياج رهيب . وقد ردّت رأسها الى وراء ولاحت فى وجهها علائم التهديد ، ترشق الحضور جميعهم بنظرة تحدٍ وكبرياء ونفاد صبر ، لا تميز فيهم كما يبدو بين أصدقاء وأعداء . ان حنقها الذى طال كظمه ينفجر أخيرا وينطلق عارما قويا . كانت فى حاجة الى أن تقاتل وتعارك ، كانت فى حاجة الى أن تهوى على أى مخلوق بأقصى سرعة . فسرعان ما أدرك الذين يعرفونها أن شيئا خارقا يحدث الآن فى نفسها . لقد قال ايفان فيدوروفتش فى الغد للأمير «ش . . .» ان «هذه النوبات تعتريها احيانا ، ولكنها قلّما تكون على مثل هذه

الدرجة من العنف — فلعلها لا تبلغ هذا الحد من القوة الا مرة كل ثلاث سنين !» وأضاف برزانة : «لا اكثر من هذا ! لا اكثر من هذا !»

صاحت اليزافيتا بروكوفيفنا تقول :

— كفى يا ايفان فيدوروفتش ! دعنى ! لماذا تقدم الىّ ذراعك الآن ؟ انك لم تخرجنى من هذا المكان منذ قليل ، وأنت الزوج ورب الأسرة فكان ينبغى لك أن تجرّنى من أذنىّ لو بلغتُ من الحماقة حد الامتناع عن طاعتك واتباعك . كان ينبغى لك أن تفكر فى بناتك على الأقل ! لأهتدىّ الى طريقى الآن بدونك ، بعد هذه المهانة التى سأظل خجلى منها طوال سنة بكاملها ! . . انتظر ، علىّ أن أشكر الأمير أيضا ! . . شكرا يا أمير على هذه البهجة العظيمة التى هيأتها لنا ! بقيت هنا لأصغى الى كلام هؤلاء الشبان . . . يا لها من حطة ! يا لها من حطة ! . . . فوضى ، فضيحة ، لايرى المرء مثلها حتى فى كابوس ! هل هناك أناس كثيرون من هذا النوع ؟ . . . اسكتى يا آجلايا ! اسكتى يا الكسندرا ! ليس هذا شأنكما ! . . . لا تدر حولى هذا الدوران يا يفغينى بافلوفتش ، انك تثير أعصابى ! . . .

وعادت تخاطب الأمير فتقول :

— هكذا يا عزيزى ، فانت الذى تستغفرهم «لا تؤاخذونى على اننى سمحت لنفسى بأن أهدى اليكم ثروة . . .

والتفتت الى ابن أخت ليبيديف فأهوت عليه :

— وأنت أيها الوقح المتباهى تسخر منه قائلا : «نحن نرفض الثروة . اننا نطالب ولا نستجدى !» كأنك

لا تعلم أن هذا الأبله سيمضى يعرض عليهم صداقته وماله منذ الغد ! أليس هذا ما ستفعله يا أمير ؟ ستمضى أم لا ؟

أجاب الأمير بصوت رقيق مغلوب :

— سأمضى .

فعادت تهتف قائلة لدكتورنكو :

— هل سمعته ؟ ذلك بعينه هو ما تعوّل عليه . لكأن هذا المال فى جيبك منذ الآن . فاذا كنت تتظاهر بالتباهى ، فانك لا تفعل ذلك الا لتخدعنا . . . لا يا عزيزى ، اخدع غيرى ان استطعت . أما أنا فان لى عينين تبصران . . . اننى أرى لعبتك !

هتف الأمير :

— اليزافيتا بروكوفيفنا !

فاقترح الأمير «ش . . .» قائلا باكثر ما يمكن من الهدوء وهو يبتسم :

— فلننصرف يا اليزافيتا بروكوفيفنا ! آن الأوان وأكثر ! ولنأخذ الأمير معنا .

كانت الآنسات متنحيات وفى هيئتهن شىء من الرعب . أما الجنرال فكان مرَّوعا بالفعل . وكانت الدهشة تُقرأ فى جميع الوجوه . وكان بعض الذين بقوا فى الخلف يبتسمون ساخرين خفية ويتهامسون . كان وجه ليبيديف يعبر عن اقصى الوجد والنشوة .

قال ابن أخت ليبيديف ، وهو يشعر مع ذلك بغير قليل من الحرج :

— الفوضى والفضائح يا سيدتى موجودة فى كل مكان !

فأجابت اليزافيتا بروكوفيفنا تقول بشماتة وعصبية شديدة :

— لا الى هذا الحد ، يا سيدى ، لا الى هذا الحد الذى بلغتموه الآن !

وصرخت للذين حاولوا أن يهدئوها :

— دعونى وشأنى !

واتجهت الى يفغينى بافلوفتش فقالت :

— اذا استطاع محام أن يعلن فى المحكمة ، كما ذكرت أنت نفسك منذ هنيهة يا يفغينى بافلوفتش ، أنه يرى أن من الطبيعى جدا أن يقتل امرؤ ستة اشخاص بدافع الفقر ، فهذا دليل على اقتراب الساعة . لم أسمع فى حياتى شيئا من هذا القبيل . الآن أصبح كل شىء واضحا لى . هل عيى اللسان هذا (قالت ذلك وهى تشير الى بوردوفسكى الذى كان ينظر اليها مشدوها) يتورع عن أن يقتل ؟ أراهن على أنه سيقتل . قد لا يأخذ العشرة آلاف روبل ، قد يرفضها بشرف واباء . ولكنه ما يلبث أن يعود فى الليل ، فيذبحك ويسرق المال من صندوقك بشرف واباء أيضا ! لن يعدَّ ذلك عملا اجراميا . سوف يعدّه «نوبة يأس نبيل» ، أو يعدّه «بادرة انكار ورفض» ، أو ما لا يعلم الا الشيطان وحده . اخص ! . . . العالم مقلوب ، الناس يسيرون على رؤوسهم لا على أقدامهم . ان فتاة تربت فى منزل أبيها تقفز الى العربة فى الشارع فجأة قائلة لأمها : «يا ماما ، تزوجت بالأمس فلانا ، كارلتش أو ايفانتش ، فوداعا !» . هل ترون هذا حسنا ؟ هل تعدونه أمرا لائقا ؟ هل تجدونه شيئا طبيعيا ؟ أهذه قضية المرأة ؟ لقد زعم لى حتى هذا الصبى (قالت ذلك مشيرة الى كوليا) منذ مدة أن «قضية المرأة» هى ذلك بعينه . هب أمك غبية

حمقاء ! ان هذا لا ينفى أن عليك أن تعاملها معاملة انسانية ! . . . لماذا دخلتم منذ قليل بتحدٍ وتعال كأنكم تقولون : «اننا نتقدم ، فاياكم ان تقتربوا منا ! اعطونا جميع الحقوق ولكن اياكم أن تقولوا بحضورنا كلمة واحدة . أحيطونا بجميع أنواع الرعاية والمداراة ، ما تعرفون منها وما لا تعرفون . ولكنا سنعاملكم نحن كما يعامل أحقر خادم !» . انهم يسعون الى الحقيقة ، ويستندون الى الحق ، ولكن ذلك لا يمنعهم من أن يفتروا على الأمير فى مقالتهم افتراء الكفرة . «ونحن نطالب ولا نستجدى . لن تنالوا منا أية كلمة تعبر عن الشكر ، لأن ما تفعلونه انما تفعلونه لراحة ضميركم أنتم !» يا لها من أخلاق رائعة ! كيف لا تدرك أنك حين تعفى نفسك من أى شكر فانما تتيح للأمير أن يجيبك من جهته بأنه غير مضطر أن يشعر بأى امتنان نحو بافليشيف ، لأن بافليشيف لم يفعل ما فعله من اعمال الخير ، هو أيضا ، الا لراحة ضميره . أما فى الواقع فلا تعوّل الا على شعور الأمير بالامتنان نحو بافليشيف . ان الأمير لم يقترض منك مالا ، فهو غير مدين لك بشىء . فعلى أى شىء اعتمدت اذا لم تكن قد اعتمدت على ذلك الشعور بالامتنان ؟ ولماذا ترفض اذن ذلك الشعور ؟ يا لهم من مجانين ! انهم يتهمون المجتمع بالقسوة والتجرد من الانسانية لأنه يجلل بالعار فتاة أُغويت ، وهم حين يفعلون ذلك يعترفون بأن الفتاة المسكينة تتألم من المجتمع . فكيف يجيزون لأنفسهم ، والحالة هذه ، أن يذيعوا خطيئتها بواسطة الجرائد وأن يدعوا أنها لن تتألم من هذا التشهير بها ؟ ألا ان ذلك لجنون ! ألا ان ذلك لتبجح وغرور ! انهم

لا يؤمنون بالله ولا بالمسيح . ولكن الغرور والصلف يأكلان نفوسهم أكلا ، ولينتهينَّ بهم الأمر الى أن يلتهم بعضهم بعضا . أنا أتنبأ لكم به ! أليس هذا جنونا وفوضى وجرسة ؟ وانظروا من بعد الى هذا الرجل الذى لا حياء له ، الى هذا الرجل الذى يستغفرهم ! هل يوجد أناس كثيرون من أمثالكم ؟ أتضحكون ساخرين ؟ ألأننى أذللت نفسى بالتورط فى الكلام معكم ؟ نعم ، لقد أذللت نفسى بذلك حقا ، ولا سبيل الى اصلاح الأمر . . . أما أنت ، أيها التافه (وجَّهت هذا الكلام فجأة الى ايبوليت) ، فاننى أنهاك عن الضحك منى ! انك على شفا الموت ، ولكنك تفسد الآخرين . لقد أفسدت لى هذا الصبى (قالت ذلك مشيرة الى كوليا من جديد) . فهو لا يتحدث الا عنك . انك تلقنه الالحاد . أنت لا تؤمن بالله ، مع أنك ما تزال ، أيها السيد ، فى سن يجوز فيها جلدك ! . . على كل حال ، اخص عليكم ! ! يا أمير ليف نيقولاييفتش ، هل ستذهب اليهم غدا ؟ أتذهب اليهم فعلا ؟

ألقت على الأمير هذا السؤال وهى تكاد تختنق غيظا . فأجابها الأمير بقوله :

— نعم ، سأذهب .

— فلا أريد أن أعرفك بعد اليوم !

وهمَّت بالانصراف متعجلة ، ولكنها لم تلبث أن التفتت تسأله وهى تشير الى ايبوليت :

— أتذهب الى هذا الملحد أيضا ؟

وأضافت صائحة تقول بصوت غير معهود فيها ، وقد اندفعت الى ايبوليت الذى أخرجتها ضحكته عن طورها :

— مالك تسخر منى !

فصاحت أصوات تناديها من كل جهة :

— اليزافيتا بروكوفيفنا ! اليزافينا بروكوفيفنا ! اليزافيتا بروكوفيفنا !

وهتفت آجلايا تقول بصوت قوى :

— maman ! . . . هذا عيب ! . . .

كانت اليزافيتا بروكوفيفنا قد وثبت على ايبوليت فأمسكت ذراعه تشدها شدا قويا بحركة لاارادية ، وتتفرس فى وجهه بنظرة تفيض حنقا وسخطا .

قال ايبوليت بهدوء ورصانة :

— لا تجزعى ياآجلايا ايفانوفنا . لاتجزعى ، لسوف تدرك أمك أن المرء لا يستطيع أن يهجم على مريض يحُتضر . . . وانى لمستعد على كل حال لأن أشرح لها لماذا كنت أضحك . . . سوف يريحنى كثيرا أن تسمح لى ان . . .

غير أن نوبة سعال رهيب قد اعترته فجأة ولم يستطع أن يكبحها خلال دقيقة كاملة .

هتفت اليزافيتا بروكوفيفنا تقول وهى تترك ذراع ايبوليت وتنظر اليه ، مذعورة بعض الذعر ، حين رأته يمسح الدم الذى طفر الى شفتيه :

— محتضر لا يكف عن القاء خطب ! لا داعى للكلام ! أولى بك أن تمضى الى فراشك . . .

أجابها ايبوليت قائلا بصوت ضعيف مبحوح يشبه أن يكون همسا :

— ذلك ما سأفعله . فما أن أصل الى البيت حتى

أرقد فى فراشى . سأموت بعد أسبوعين ، أنا أعرف ذلك . ان الدكتور «ب . . ن» نفسه قد أعلن لى هذا فى الاسبوع الماضى . لذلك أود أن أقول لك كلمتين عند الوداع ، اذا أذنت لى .

صاحت اليزافيتا بروكوفيفنا تقول مروَّعة :

— هل فقدت عقلك ؟ يا للحماقة ! عليك أن تعالج نفسك . ليس الوقت وقت أحاديث وخطب . امض ، امض الى سريرك ! . .

قال ايبوليت مبتسما :

— سأرقد فى سريرى رقادا لا قيام بعده . أمس أردت أن أرقد منتظرا الموت ، ثم أمهلت نفسى يومين مادامت ساقاى تستطيعان أن تحملانى . . . بغية أن أجىء معهم اليوم الى هنا . . . ولكننى تعبت حقا . . .

قالت له اليزافيتا بروكوفيفنا وهى تقدم اليه بنفسها كرسيا :

— فاجلس اذن ! اجلس ! لماذا تبقى واقفا ؟ اليك الكرسى .

قال ايبوليت بصوت منطفئ :

— شكرا . اجلسى أمامى ولنتحدث . . . يجب أن نتحدث حتما يا اليزافيتا بروكوفيفنا . . . اننى أصر على هذا الآن . . . — أضاف ذلك مبتسما من جديد — لاحظى أن هذا اليوم هو آخر يوم أقضيه فى الهواء الطلق بين الناس . وبعد أسبوعين سأكون تحت التراب حتما . فهذا اذن وداع للبشر وللطبيعة بمعنى من المعانى . لاحظى أنه يسرنى جدا ، رغم اننى لست عاطفيا كثيرا ، أن يتم هذا فى بافلوفسك ؛ فهنا أرى الاشجار المورقة على الأقل . . .

قالت اليزافيتا بروكوفيفنا وكان ارتياعها يزداد دقيقة بعد دقيقة :

— ليس الوقت الآن وقت الكلام . انك تعانى حمى شديدة . منذ قليل كنت تصيح وتصرخ . وهأنت ذا الآن تختنق ولا تكاد تستطيع أن تتنفس .

— سأستريح . لماذا لا تريدين أن تستجيبى لرغبتى الاخيرة ؟ . . . هل تعلمين أننى أحلم منذ مدة طويلة بأن ألقاك يا اليزافيتا بروكوفيفنا ؟ لقد سمعت عنك كثيرا . . . من كوليا . . . الذى هو الشخص الوحيد الذى لم يهجرنى . . . الشخص الوحيد تقريبا . . .أنت امرأة تتميز بالغرابة والتفرد . . . أدركت هذا الآن . . . هل تعلمين أننى أحببتك بعض الحب ؟ . .

— رباه ! هذا وانا أوشكت أن أضربه !

— ان آجلايا ايفانوفنا ، اذا لم يخطئ ظنى ، هى التى نهتك عن ذلك ، أليس كذلك ؟ أليست هى ابنتك آجلايا ايفانوفنا ؟ انها تبلغ من الجمال اننى ما ان أبصرتها هنا حتى عرفتها ، رغم اننى لم أكن قد رأيتها قبل اليوم قط .

وأردف ايبوليت يقول وهو يبتسم ابتسامة خرقاء معوّجة :

— دعى لى على الأقل أن أتأمل الحسناء لآخر مرة فى حياتى ! أنت هنا مع الأمير ، ومع زوجك ، ومع حفل بكامله . فلماذا ترفضين أن تلبى آخر رغبة لى ؟

صاحت اليزافيتا بروكوفيفنا تقول :

— اعطونى كرسيا !

ولكنها لم تنتظر أن يعطيها أحد كرسيا ، بل تناولت بنفسها مقعدا من المقاعد وجلست قبالة ايبوليت . ثم قالت

تأمر كوليا :

— كوليا ، اصحبه الى البيت فى الحال ؛ وغدا لن يفوتنى أنا نفسى أن . . .

— اذا أذنت لى ، طلبت من الأمير فنجان شاى . اننى أشعر بتعب شديد . كنت تريدين ، ياايزافيتا بروكوفيفنا ، أن تصطحبى الأمير الى بيتك لاحتساء الشاى . فابقوا اذن هنا ، ولنقض لحظة معا . لا شك أن الأمير سيأمر لنا جميعا بشاى . اغفرى لى مطالبى هذه . . . ولكننى أعلم أنك طيبة القلب . وكذلك الأمير . . . نحن جميعا طيبون الى درجة تبعث على الضحك . . .

تحرّك الأمير . وخرج ليبيديف من الشرفة راكضا ، وأسرعت فيرا تتبعه .

قالت الجنرالة فجأة :

— ليكن . تكلم ، ولكن فى رفق وهدوء ، ولا تدع للهيجان سبيلا الى نفسك . لقد أثرت حنانى . . . ياأمير ، ما كنتَ لتستحق أن أشرب الشاى فى بيتك ، ولكننى أبقى مع ذلك ، دون أن اعتذر لأحد . نعم ، دون أن أعتذر لأحد ! والا كان ذلك منى سخفا ! على كل حال ، اذا كنت قد وبختك يا أمير ، فاننى اعتذر اليك ، اذا أنت أردت طبعا !

ثم توجهت فجأة الى زوجها وبناتها بلهجة حانقة كل الحنق كأنها حاقدة عليهم من اساءة كبيرة ألحقوها بها :

— ولست أجبر أحدا أن يبقى معى ، فاننى أستطيع أن أرجع الى البيت وحدى . . .

ولكنهم لم يدعوها تتم كلامها ، بل أسرعوا يقتربون

منها ، ويحيطون بها ، ويسعون حولها . وما لبث الأمير أن رجا الجميع أن يبقوا لاحتساء الشاى ، واعتذر عن أنه لم يبادر الى هذا من قبل . حتى الجنرال ايبانتشين همَّش وبشَّ فقال بضع كلمات تهدئ النفوس ، وسأل اليزافيتا بروكوفيفنا «أليست تشعر فى الشرفة بشىء من البرد» ، حتى لقد همَّ أن يسأل ايبوليت «منذ متى التحق بالجامعة» ، ولكنه أمسك . وامتلأ يفغينى بافلوفتش والأمير «ش . . .» مرحا وفرحا على حين فجأة . وعبَّر وجها آديلائيدا وألكسندرا عن السرور والرضى رغم احتفاظهما بمعنى الدهشة والتعجب . الخلاصة أن الجميع قد أسعدهم اسعادا واضحا أن نوبة الغضب التى اعترت اليزافيتا بروكوفيفنا قد انقضت بسلام ، الا آجلايا وحدها ، فقد ظلت عابسة الوجه صامتة متنحية . وبقى سائر أفراد الجمع ، لم يشأ أحد منهم أن ينصرف ، حتى الجنرال ايفولجين . ولكن ليبيديف همس يقول له شيئا لابد أنه لم يرضه ، فغاب فى ركن من الأركان . واقترب الأمير من بوردوفسكى وصحبه يدعوهم الى احتساء الشاى دون أن يستثنى أحدا . فجمجموا يقولون بلهجة خالية من الود انهم سوف ينتظرون ايبوليت ، ثم أسرعوا ينسحبون الى ابعد زاوية من الشرفة حيث جلسوا جنبا الى جنب . لابد أن ليبيديف كان قد أمر باعداد الشاى لأفراد عائلته منذ مدة طويلة ، لأن الشاى قد قُدِّم فورا . ودقت الساعة الحادية عشرة .

الفصل العاشر

بلل ايبوليت شفتيه بفنجان الشاى الذى قدمته اليه فيرا ليبيديفا ، ثم وضع الفنجان على منضدة صغيرة ، ثم ألقى فجأة على ما حوله نظرة تكاد تكون محرَجة كأن الحيرة قد استولت عليه .

وقال بتدفق غريب :

— انظرى الى هذه الفناجين يا اليزافيتا بروكوفيفنا . انها من خزف ، بل هى من أجود الخزف فيما أظن . ان ليبيديف يحتفظ بها دائما فى خزانة صغيرة مغلقة وراء زجاج . . . ولا يستعملها قط . . . لا شك فى انها كانت جزءا من مهر زوجته . . . هذا من عاداتهم . . . وقد اخرجها اليوم تكريما لك من غير شك . . وقدّمها لنا . . . فالى هذا الحد وصل سروره واغتباطه . . .

أراد ايبوليت أن يضيف شيئا آخر ، ولكن الكلمات لم توافه .

فهمس يفغينى بافلوفتش فجأة يقول فى اذن الأمير :

— ها هو ذا يرتبك . . . لقد كنت أتوقع ذلك . هذا خطر ، أليس صحيحا ؟ تلك علامة ثابتة على أن خبث نفسه سيوحى اليه تصرفا يبلغ من الشذوذ أن اليزافيتا بروكوفيفنا نفسها لن تطيق احتماله .

ألقى عليه الأمير نظرة سائلة مستفهمة . فتابع يفغينى بافلوفتش كلامه فقال :

— ألا تخشى التصرفات الشاذة ؟ أنا أيضا لا

أخشاها . . . حتى اننى أتمناها ، على الأقل عقابا لصاحبتنا الطيبة اليزافيتا بروكوفيفنا . يجب أن تنال هذا العقاب فى هذا اليوم نفسه وفى هذه اللحظة نفسها . لا أريد أن أنصرف قبل ذلك . أعتقد انك مصاب بحمى .

أجاب الأمير ذاهل الهيئة بلهجة فيها شىء من نفاد الصبر :

— سأجيبك فيما بعد . لا تمنعنى من الأصغاء . انت على حق انا عليل .

كان الأمير قد سمع اسمه يُذكر . ان ايبوليت يتحدث عنه . فهو يقول ضاحكا ضحكا عصبيا :

— ألا تصدقين هذا ؟ كنت أتوقع أن لا تصدقيه . أما الأمير فسوف يصدقنى دفعة واحدة ، ولن يدهَش البتة .

قالت اليزافيتا بروكوفيفنا وهى تلتفت اليه :

— أتسمعه يا أمير ؟ أتسمعه ؟

وكان الجمع يضحكون من حولهم . وكان ليبيديف يهرول ويدور أمام الجنرالة .

— هو يدعى أن هذا المهرِّج مؤجِّرك قد راجع مقالة هذا السيد ، أعنى المقالة التى قُرئت هذا المساء والتى تتناولك .

نظر الأمير الى ليبيديف مدهوشا .

واستأنفت اليزافيتا بروكوفيفنا كلامها وهى تضرب الأرض بقدمها قائلة :

— ما بالك تصمت ؟

فدمدم الأمير يقول وهو ما يزال يحدق الى ليبيديف :

— وماذا أقول ، انى لأرى أنه قد راجع المقالة حقا .

فالتفتت اليزافيتا بروكوفيفنا نحو ليبيديف بقوة وسألته :

— أهذا صحيح ؟

فقال ليبيديف بثقة تامة وبدون أى تردد وهو يضع يده على قلبه :

— هذه هى الحقيقة بعينها يا صاحبة السعادة .

فصاحت الجنرالة تقول وقد همت أن تقفز من كرسيِّها :

— لكأنه يتباهى بهذا !

فتمتم ليبيديف قائلا وقد أخذ يلطم صدره ويحنى رأسه شيئا بعد شىء :

— أنا رجل منحط ! أنا رجل منحط !

— لا يعنينى أن تقول انك منحط ! هو يظن أنه يكفيه أن يقول «انه منحط» حتى يبرئ ذمته . يا أمير ، مرة أخرى أسألك : ألا تستحى أن تعاشر أمثال هؤلاء الناس ؟ اننى لن أغفر لك هذا أبدا .

قال ليبيديف بلهجة فيها اقتناع وعاطفة :

— سيسامحنى ألامير !

وأسرع كيللر يقترب من اليزافيتا بروكوفيفنا ، متوجها اليها قائلا بصوت عال رنان :

— من باب الكرم وحده ياسيدتى ، ومن أجل أن لا أفضح صديقا سوّدت صفحته ، انما سكت من قليل عن مراجعته لمقالتى ، رغم أنه اقترح رمينا الى أسفل السلَّم كما سمعت ذلك بأذنيك . ففى سبيل أن أقرر الحقيقة أعترف الآن بأننى استعنت به فى ذلك فعلا ونقدته ستة روبلات أجرا . لم أطلب اليه أن ينقِّح الأسلوب ، وانما طلبت اليه أن يكشف لى ، بصفته مصدرا مطلعا ، على

وقائع كنت أجهل أكثرها . فكل ما ورد ذكره فى المقالة عن لبادتى الحذاءين اللذين كان ينتعلهما الأمير ، وعن اشباع الأمير نهمه على نفقة البروفسور السويسرى ، وعن الخمسين روبلا التى ذُكرت بدلا عن المائتين وخمسين المدفوعة فعلا ، كل هذه المعلومات كان هو مصدرها . وقد نقدته ستة روبلات أجرا على هذا لا على تنقيح الأسلوب .

قاطع ليبيديف كلام كيللر فقال نافد الصبر بصوت يزحف زحفا ان صح التعبير ، بينما كانت الضحكات تتضاعف من حوله :

— يجب أن ألفت النظر الى أننى لم أراجع من المقالة الا الجزء الأول . فاننا حين وصلنا الى الجزء الثانى اختلفت آراؤنا حتى لقد تشاجرنا بصدد فكرة جئت بها . فعدلت عن تصحيح الجزء الثانى من المقالة . فلا يمكن اذن أن أعد مسئولا عما يتضمنه من اخطاء لغوية كثيرة (وفيه اخطاء كثيرة فعلا !)

— ذلك ما يشغل باله !

كذلك هتفت اليزافيتا بروكوفيفنا .

قال يفغينى بافلوفتش يسأل كيللر :

— هل تسمح لى أن أسألك متى تمت مراجعة المقالة ؟

فأجابه كيللر طائعا :

— صباح أمس . اجتمعنا اجتماعا تعاهدنا على أن يبقى بيننا سرا مكتوما لا نطلع عليه أحدا .

قالت اليزافيتا بروكوفيفنا :

— ذلك بينما كان يزحف أمامك معلنا لك ولاءه

واخلاصه . يا لهؤلاء البشر الحقراء ! لا أريد أن آخذ منك بوشكين ، ولا تظهرنْ بتلك عندى قط !

وأرادت اليزافيتا بروكوفيفنا أن تنهض ، لكنها وقد رأت ايبوليت يضحك ، حوّلت غضبها اليه قائلة :

— ماذا يا عزيزى ؟ هل آليت على نفسك أن تتخذنى هنا هزوءا ؟

فأجاب ايبوليت وهو يبتسم ابتسامة خرقاء :

— معاذ الله ! لكنك يا ليزافيتا بروكوفيفنا قد اذهلتنى بما تتصفين به خاصة من غرابة لا يصدقها العقل ! أعترف لك بأننى تعمدت أن أثير موضوع ليبيديف . كنت أتوقع الأثر القوى الذى لا بد أن يحدثه فيك هذا الموضوع ، أن يحدثه فيك أنت وحدك ، لأن الأمير سيغفر له حتما ، بل لا شك فى أنه قد غفر له منذ الآن ؛ ولعله قد وجد لفعلته عذرا . أليس هذا صحيحا يا أمير ؟

كان ايبوليت يلهث ، وكان انفعاله الغريب يقوى عند كل كلمة يقولها .

قالت اليزافيتا بروكوفيفنا غاضبة وقد فجأتها لهجة صوته :

— هبه ، وماذا ؟

فتابع ايبوليت كلامه قائلا :

— سبق أن سمعت عنك أشياء كثيرة من هذا النوع . . . بفرح شديد . . . لقد تعلمت أن أحترمك أعظم الاحترام .

كان يتكلم وفى لهجته ما يدل على أنه يريد أن يعبر عن شئ آخر يختلف كل الاختلاف عما كان يقوله . وكان حديثه المتدفق يكشف فى الوقت نفسه عن رغبة فى السخرية وعن اضطراب مشوّش . انه يلقى حواليه نظرات

شك وريب ، ويرتبك ويتيه عند كل كلمة جديدة . وكانت هيئته التى هى هيئةُ مريض بالسل ، وعيناه الملتمعتان ، ونظرته الغريبة المعبرّة عن الهياج ، كان ذلك كله يخطف انتباه الجميع بصورة لا ارادية .

وتابع كلامه يقول :

— رغم اننى لا أعرف من آداب المجتمع شيئا (وذلك ما أعترف به) ، كان يمكن أن يدهشنى أن أراك تمكثين فى جمع كجمعنا هذا الذى تعدينه غير لائق ، وكان سيدهشنى أن أراك تتركين . . . لهاته الفتيات أن يسمعن قضية شائكة فاضحة ، رغم أن قراءة الروايات قد سبق أن علمتهن كل شىء . فمن الجائز أننى لا أعلم . . . لأن أفكارى تضطرب . ولكن مما لا شك فيه على كل حال أن أحدا غيرك ما كان ليرضى أن يبقى . . . تلبيةً لطلب صبى (نعم ، صبى ، اننى أعترف بهذا أيضا) فيقضى السهرة معه ، ويشارك فى كل شىء ، وان احمر خجلا من ذلك في الغد . . . (على أننى أقر بأننى أخبط فى التعبير خبط عشواء) . ذلك كله يبدو لى خليقا بأن يُحمد ، ويبدو لِى جديرا بأن يحُترم كل الاحترام ، رغم أن وجه زوجك يعبر تعبيرا واضحا عن مدى انزعاج سيادته مما يجرى هنا . . . هىْ هىْ ! . . .

أخذ ايبوليت يقهقه ، وارتبك ارتباكا شديدا ، ثم هزته فجأة نوبة سعال قوية حالت بينه وبين الاستمرار فى الكلام مدة دقيقتين .

قالت اليزافيتا بروكوفيفنا بلهجة باردة جافة ، وهى تلقى عليه نظرة استطلاع خال من التعاطف :

— ها هو ذا يختنق ! كفى يا صغيرى ! كفى ! حسبك هذا !

وتدخل ايفان فيدوروفتش غاضبا فقال وقد نفد صبره :

— دعنى أقول لك أيها السيد الفاضل ، إن زوجتى هى هنا عند الأمير ليف نيقولايفتش ، جارنا وصديقنا المشترك . فلست أنت ، أيها الفتى ، فى أية حال من الأحوال ، من يحق له أن يحكم على أفعال اليزافيتا بروكوفيفنا ، ولا أن يعبِّر جهارا ، بحضورى ، عما تظن أنك تقرؤه فى وجهى . هكذا اذا .

ثم تابع كلامه وهو يزداد غيظا وسخطا مع كل كلمة يقولها :

— ولئن بقيت هنا ، فانما بقيت ، أيها السيد ، مدفوعة بعامل الدهشة وحب الاطلاع الذى يشعر به الجميع الآن عند مشاهدة الفتيان الغرباء . ولقد بقيت أنا أيضا كما أتوقف أحيانا فى الشارع حين أرى شيئا يمكن أن يعدَّ . . . أن يُعدَّ . . .

قال يفغينى بافلوفتش محاولا اسعاف الجنرال :

— غريبا نادرا .

فأسر الجنرال هذا الاسعاف وقد تورط فى البحث عن تشبيه :

— رائع ! بالضبط . مهما يكن من أمر فان ما يبدو لى باعثا على الدهشة ومثيرا للحزن ان صح التعبير هو أنك أيها الفتى لم تستطع حتى أن تدرك أن اليزافيتا بروكوفيفنا لم تمكث الآن معك الا لانك مريض وأنك مشارف على الموت — اذا كان هذا حقيقة بالفعل ، فكانت

الشفقة هى التى ألهمتها سلوكها اذ سمعت أقوالك التى تثير الرحمة والرأفة أيها السيد . فما من لطخة يمكن أن تنال اسمها أو مزاياها أو منزلتها . .

ثم ختم كلامه بقوله وقد احمر وجهه :

— اليزافيتا بروكوفيفنا ، اذا كنت تريدين الانصراف فلنودِّع صاحبنا الأمير الطيب ولا . . .

فقاطعه ايبوليت بلهجة فيها رصانة غير متوقعة ، وكان يحدِّق الى ايفان فيدوروفتش بنظرة متأملة .

— أشكر لك هذا الدرس يا جنرال .

قالت آجلايا وهى تنهض ، بلهجة تدل على الغضب ونفاد الصبر :

— هلِّمى ننصرف يا maman ، فان هذا الأمر يمكن أن يطول كثيرا .

قالت اليزافيتا بروكوفيفنا بوقار وهى تلتفت نحو زوجها :

— دقيقتين آخريين من فضلك يا عزيزى ايفان فيدوروفتش . أظن أنه مصاب بنوبة حمى ، وأنه يهذى لا أكثر . أرى هذا فى عينيه . لا يمكن أن نتركه وهو على هذه الحال . ياليف نيقولايفتش ، أليس فى وسعه أن يبيت عندك ، حتى لا يكون ثمة اضطرار الى نقله الى بطرسبرج ؟

ثم أضافت تقول مخاطبة الأمير «ش . . .» فجأة :

— هل ضجرت[1] cher prince ؟

ثم قالت تخاطب ألكسندرا :

---

[1] الأمير العزيز (بالفرنسية فى الأصل) .

— تعالى يا ألكسندرا ، رتِّبى شعرك قليلا يا عزيزتى .

ورتَّبت اليزافيتا بروكوفيفنا شعر ابنتها ، مع أنه لم يكن يعوزه أى ترتيب ، ثم قبلتها ، والواقع أن هذه القبلة كانت هى الغرض من مناداة الفتاة اليها .

عاد ايبوليت يقول وقد خرج من حالته المتأملة :

— كنت أظنك قادرة على التطور الفكرى . . . نعم ، ذلك ما كنت أريد أن أقوله لك — أضاف ذلك مرتاحا ارتياح انسان تذكر شيئا منسيا . — هاهو بوردوفسكى يريد صادقا أن يدافع عن أمه ، أليس كذلك ؟ ولكنه فى نهاية الأمر لطَّخ شرفها بالعار . وها هو الأمير يرغب فى أن يساعد بوردوفسكى ، وهو اذ يعرض صداقته الحميمة وثروته انما يصدر عن أحسن نية وأكرم شعور ، ولعله بينكم الانسان الوحيد الذى لا يكرهه ولا ينفر منه . وها هما مع ذلك يقفان أحدهما من الآخر موقف العدو هأ هأ هأ ! . . . انتم جميعا تكرهون بوردوفسكى لأنه يتصرف مع أمه تصرفا ليس فيه لباقة وأناقة فيما ترون ، أليس كذلك ؟ هو كذلك ؟ انكم جميعا متعلقون تعلقا مسحورا بجمال واناقة الأشكال ، ولا تحفلون الا بهذا ، أليس كذلك ؟ (كنت أقدِّر منذ زمن طويل انكم لا تحفلون الا بهذا !) ، فاعلموا أن أحدا منكم لعله لم يحب أمه كما أحب بوردوفسكى أمه . أنا أعلم أنك ايها الأمير أرسلت الى هذه المرأة مالا بواسطة جانيا دون أن يعلم بذلك أحد . ألا اننى لمستعد أن أراهن على (هئ هئ هئ — أخذ يقهقه بعصبية) أن بوردوفسكى سيتهمك الآن بقلة اللباقة وعدم الاحترام لأمه . نعم ، حقا ، هأ هأ هأ ! . . .

وهذه نوبة جديدة من الاختناق والسعال تقطع كلماته الأخيرة .

قالت اليزافيتا بروكوفيفنا نافدة الصبر وكانت لا تحوّل عنه نظرتها القلقة :

— أهذا كل شيء ؟ هل قلت كل ما كنت تريد أن تقوله ؟ فاذهب الآن اذن الى سريرك . ان بك حمى . آه . . رباه ! . . ها هو ذا يستأنف . .

اتجه ايبوليت بالكلام الى يفغيني بافلوفتش فجأة ، وقال له بلهجة قلقة حانقة :

— أتضحك ؟ لماذا تضحك دائما منى ؟ لقد لاحظت ذلك ، لماذا تضحك منى ؟

وكان يفغيني بافلوفتش يضحك فعلا .

— انما أردت أن أسألك يا سيد . . . ايبوليت . . . معذرةً . . . نسيت اسم أسرتك . . .

قال الأمير :

— السيد تيرنتيف .

— آ . . . نعم . . . شكرا يا أمير . لقد ذُكر لى اسمه منذ قليل ، لكن هذا الاسم بارح ذاكرتى . . . أردت أن أسألك يا سيد تيرنتيف هل ما قيل لى عنك صحيح : لقد قيل لى انك تعتقد أنه يكفيك أن تخطب فى الشعب ، من نافذة بيتك ، خلال ربع ساعة ، حتى يقتنع الجمهور بآرائك فورا ، فيتبعك . هل هذا صحيح ؟

أجاب ايبوليت محاولا أن يستجمع ذكرياته :

— يجوز جدا أن أكون قد قلت هذا الكلام .

ثم أضاف فجأة وقد انتعش من جديد وحدج يفغيني بافلوفتش بنظرة ثابتة :

— نعم ، قلت ذلك الكلام حتما ، فماذا تستنتج من ذلك ؟

— لا شيء البتة . فانما ألقيت هذا السؤال من باب حب الاطلاع .

وصمت يفغيني بافلوفتش . وظل ايبوليت يحدّق اليه وكأنه ينتظر التتمة بنفاد صبر .

قالت اليزافيتا بروكوفيفنا تسأل يفغيني بافلوفتش :

— هيه ؟ هل أنهيت كلامك ؟ أنهه بسرعة يا صديقى ، فقد آن له أن يمضى الى النوم . أم تُراك لا تدرى كيف تنهيه ؟

(كانت اليزافيتا بروكوفيفنا متزعجة انزعاجا شديدا) .

فأستأنف يفغيني بافلوفتش كلامه فقال مبتسما :

— لعلنى أميل الى أن أضيف ان كل ما سمعته من رفاقك يا سيد تيرنتيف ، وكل ما قلته أنت نفسك بموهبة لا مجال لنكرانها يرتد فى رأيى الى نظرية انتصار الحق قبل كل شيء وعبر كل شيء ، بل وباستبعاد كل شيء آخر ، ربما دون سعى فى أول الأمر الى معرفة ما هو الحق ؟ لعلنى كنت مخطئا ؟

— أنت مخطئ حتما . حتى اننى لا أفهم عنك . . . ثم ماذا ؟

وصعدت من زاوية بالشرفة دمدمة . كان ابن اخت ليبيديف يهمهم متكلما بصوت خافت .

واستأنف يفغيني بافلوفتش كلامه فقال :

— لم يبق عندى ما أقوله تقريبا . وانما أردت أن ألاحظ أن هذه النظرية قد تسفر رأسا عن الحق للأقوى ، أى الحق لقبضة اليد وتحكم الفرد ، وهذا ما كان يحدث فى الدنيا فى اكثر الأحيان . لقد تلبث برودون على حق الاقوى . وفى اثناء الحرب الامريكية ، رأينا كثيرا من الليبراليين المتطرفين ، ينحازون الى صف أصحاب المزارع بحجة أن الزنوج ، من حيث هم زنوج ، يجب أن يعدوا أدنى منزلة من البيض ، وان للبيض حق الأقوى . . .

— ثم . . . ؟

— أرى أنك لا تجحد حق الأقوى .

— ثم ؟

— أنت لا تتناقض على الأقل . لقد أردت أن ألاحظ أن المسافة ليست بعيدة بين حق الأقوى وحق النمور والتماسيح ، وحتى حق أمثال دانيلوف وجورسكى .

— لا أدرى . . . ثم ؟

كان ايبوليت لا يصغى الى يفغينى بافلوفتش الا بأذن واحدة . كان لا يقول : «ثم ؟» الا انسياقا مع عادته القديمة فى الحديث ، دون أن يولى هذه الكلمة أى اهتمام ، أو أن يودعها أى معنى .

— لم يبق عندى ما أضيفه . . . ذلك كل ما أردت أن اقوله .

قال ايبوليت على نحو لم يكن متوقعا :

— الواقع اننى لا أغضب منك .

وعلى غير شعور تقريبا ، مدَّ يده الى يفغينى بافلوفتش مبتسما .

دُهش يفغينى بافلوفتش ، ثم اتخذ هيئة فيها كثير من الجد ليلمس اليد التى مدَّها اليه ايبوليت ، كأنما هو يقبل صفحه وعفوه . وأضاف يقول بلهجة فيها ذلك الاحترام نفسه ، ولكن فيها التباسا كذلك :

— لا أملك الا ان أشكر لك تلطفك معى اذ تركت لى ان أتكلم ، فقد لاحظت فى أحيان كثيرة أن اصحابنا الليبراليين لا يدعون للآخرين أن يكون لهم رأى شخصى ، وأنهم يردون على معارضيهم فورا باهانات أو بشىء اسوأ من الاهانات نفسها .

قال الجنرال ايفان فيدوروفتش :

— هذا صحيح كل الصحة .

ثم انسحب الى مخرج الشرفة جاعلا يديه وراء ظهره ، وتثاءب برما ودلت كل هيئته على الملل .

قالت اليزافيتا بروكوفيفنا فجأة تخاطب يفغينى بافلوفتش :

— هيَّا . . . كفاك يا سيدى . . لقد أضجرتنى !

وقال ايبوليت وهو ينهض فجأة بحركة فيها شىء من الحيرة والرعب ، ويلقى حواليه نظرة مضطربة :

— آن الأوان . . . لقد أخّرتكم . . أردت أن أقول لكم كل شىء . . . كنت أقدِّر أن كل هذا لآخر مرة . . . كان ذلك منى نزوة خيال . . .

واضح انه كان ينتعش ويتحمس نوبات نوبات ، ويخرج فى الفينة بعد الفينة من حالة تشبه الهذيان ، حتى اذا عاد اليه وعيه كاملا ، كان يستجمع ذكرياته ويعرض فى أكثر الأحيان شذرات أفكار لعله كان منذ زمن طويل قد أنضجها وحفظها عن ظهر القلب أثناء الساعات الطويلة

المملة التى كان يقضيها فى السرير منعزلا مؤرقا .

وأضاف يقول بلهجة جافة :

— طيب . . . وداعا ! هل تظنون أن من السهل علىّ أن أقول لكم : «وداعا» ؟ هأ هأ هأ . . .

ضحك ضحكة ساخرة لأنه فكر فى خراقة سؤاله . واستولى عليه فجأة شعور يشبه الحنق اذ أنه لم يستطع التعبير عن كل ما كان يريد أن يقوله فصرخ بلهجة غاضبة :

— يا صاحب السعادة ، يشرفنى أن أدعوك الى حضور جنازتى ، هذا اذا رضيت أن تتنازل فتلبى الدعوة ، وانى . . . أدعوكم جميعا أيها السادة ، أدعوكم أن تنضموا الى الجنرال ! . . .

وأخذ يضحك ، لكن ضحكه كان ضحك انسان فقد عقله . تقدمت اليزافيتا بروكوفيفنا نحوه خائفة عليه ، وأمسكت ذراعه . فحدّق اليها بنظرة ثابتة ، وهو ما يزال يضحك ذلك الضحك نفسه وان لم يعد مستمرا بل كأنما توقف وتجمد على وجهه .

— هل تعلمون أننى جئت الى هنا لأرى الأشجار ؟ هذه هى الأشجار . . . (أشار الى أشجار الحديقة بحركة من يده) . ليس فى هذا ما يبعث على الضحك ، أليس كذلك ؟

سأل هذا مخاطبا اليزافيتا بروكوفيفنا بلهجة رصينة .

وعاد حالما على حين فجأة من جديد ، ثم رفع رأسه بعد لحظة وأخذ يتفحص الحضور باحثا عن واحد منهم . كان يبحث عن يفغينى بافلوفتش الذى كان قريبا منه كل القرب ، على يمينه ، والذى لم يتحرك من مكانه .

ولكن ايبوليت كان قد نسى ذلك فهو يستكشف ما حوله باحثا عن الرجل . فلما أبصره أخيرا هتف يقول :

— ها . . . لم تنصرف ! لقد كنت تضحك منذ قليل ، حين تصورت اننى أريد أن ألقى من نافذة بيتى خطابا يدوم ربع ساعة ! أتدرى أن عمرى ليس ثمانية عشر عاما ، كم لبثت راقدا على فراشى زمنا طويلا ، وكم نظرت من تلك النافذة وكم فكرت . . . فى جميع الأشياء . . . حيث . . . انك تعلم أن الموتى لا أعمار لهم . لقد عاودتنى هذه الفكرة فى الأسبوع الماضى حين استيقظت فى الليل . . . هل تريد أن أقول لك ما الذى تخشونه أكثر مما تخشون أى شىء آخر ؟ انكم تخشون صدقنا رغم ما تحملونه لنا من احتقار ! هذه ايضا فكرة وافتنى فى الليل بينما كان رأسى على الوسادة . . . أتظنين أننى أردت أن أتهكم عليك منذ قليل ياليزافيتا بروكوفيفنا ؟ لا لم تكن هذه نيتى . أنا لم أكن أبغى الا أن أمدحك . . . لقد قال كوليا ان الأمير نعتك بطفلة . . . . . هذا صحيح . . . ولكن ما الذى أريد أن أضيفه أيضا . . .

قال ذلك وخبأ وجهه فى يديه وفكر لحظة .

— ها . . . نعم . . . تذكرت : حين تهيأت منذ قليل للانصراف خطر ببالى فجأة ما يلى : هؤلاء أناس لن أراهم مرة أخرى بعد اليوم أبدا ، أبدا . لا ولن أرى الأشجار مرة أخرى . ولن يقع بصرى بعد الآن الا على جدار الآجر الأحمر من منزل مايرز . أمام نافذتى . . . فقلت لنفسى : اشرحْ لهم هذا كله . . . حاول أن تُفهمهم . هذه حسناء رائعة الجمال . . وأنت رجل ميت . . فقدّم نفسك بهذه الصفة

. . . قل لهم «ان فى وسع ميت أن يتكلم بغير تحفظ» . . . وان الأميرة ماريا ألكسييفنا لن تقول عن هذا شيئا" . . . هأ هأ هأ . . . ألا تضحكون ؟ — ألقى هذا السؤال وهو يجيل بصره حواليه مرتابا — . سأقول لكم أننى اثناء رقاد رأسى على الوسادة كانت توافينى خواطر كثيرة . فاقتنعت ، فيما اقتنعت به ، بأن الطبيعة ساخرة جدا . . . لقد قلتم منذ قليل اننى ملحد ، ولكن هل تعلمون أن الطبيعة . . لماذا عدتم تضحكون ؟ انكم لقساة عتاة !

قال ذلك فجأة بلهجة حزن واستياء وهو يجيل بصره حوله . ثم ختم كلامه قائلا بلهجة مختلفة كل الاختلاف ، لهجة فيها رصانة واقتناع ، كأن ذكرى أخرى قد ومضت فى ذهنه :

— أنا لم أفسد كوليا .

قالت له اليزافيتا بروكوفيفنا معذّبة :

— لا أحد يسخر منك هنا ، لا أحد . . . فأطمئن . . . لسوف نستدعى لك فى الغد طبيبا آخر . ان الطبيب الأول قد أخطأ . ولكن اجلس ! انك لا تقوى على الوقوف ! وأنت تهذى . . .

ثم قالت اليزافيتا بروكوفيفنا مضطربة أشد الاضطراب وهى تجلسه على مقعد :

— آه . . . ماذا نفعل له الآن ؟

والتمعت على خدها دمعة صغيرة .

فلبث ايبوليت مذهولا خلال لحظة من الزمن ، ثم رفع يده ، ومدّها خجلا وجلا فلمس تلك الدمعة الصغيرة ، وطافت بوجهه ابتسامة طفل .

قال فرحا :

— انك لا تعلمين مدى ما أشعر به نحوك من . . . ان كوليا يحدثنى عنك دائما بحماسة عظيمة . . . اننى أحب حماسته . أنا لم أفسده ! هو الوحيد الذى أودعه خواطرى وافكارى . لكم تمنيت أن يشارك الجميع فى هذا الميراث ، ولكن لم يكن ثمة أحد ، لم يكن ثمة أحد . . . ولقد تمنيت كذلك أن أكون رجلا فعالا . ذلك من حقى . . . آه . . . ما أكثر الاشياء التى كنت أتمناها أيضا ! أما الآن فقد أصبحت لا أرغب فى شىء ، وأصبحت لا أريد أن أرغب فى شىء . . لقد آليت على نفسى أن لا أتمنى بعد اليوم شيئا ، فليبحث الآخرون بعدى عن الحقيقة ! نعم ، ان الطبيعة ساخرة !

وأضاف يقول بحرارة :

— لماذا تخلق الطبيعة أفضل الكائنات لتسخر منهم بعد ذلك ؟ هذا ما تعمد اليه الطبيعة : حين أظهرت الانسان باعتباره المخلوق الوحيد الذى عُدَّ الكائن الكامل فى هذا العالم ، عهدت اليه برسالة أن ينطق بأقوال كانت سببا فى سفح دماء بلغت من الغزارة أنها لو سُفحت مرة واحدة لخنقت الانسانية ! آه ! ما اروع أن أموت ! ذلك أننى اذا لم أمت فقد يطلق لسانى كذبة رهيبة بدافع من الطبيعة ! . . أنا لم أفسد أحدا . . . لقد أردت أن أحيا لسعادة الناس جميعا . . . أردت أن أحيا لاكتشاف الحقيقة ونشرها . . . كنت أنظر من نافذتى الى جدار منزل ماير فأتصور أنه يكفينى أن أتكلم خلال ربع ساعة حتى أقنع جميع البشر ! وهأناذا يُتاح لى ، مرة واحدة طوال حياتى ، أن أجد نفسى على

صلة لا بجميع البشر ، بل بكم وحدكم ، فماذا كانت النتيجة ؟ لا شيء ! كانت النتيجة أنكم تحتقروننى . هذا دليل على أننى غبى أحمق ، على أننى امرؤ لا خير فيه ولا فائدة منه ، وعلى أننى قد آن لى أن أزول ! ولم أخلّف ورائى أية ذكرى : لم أترك أى صدى ، لم أترك أى أثر ، لم أترك أى عمل ! لم أنشر أى رأى ! لا تضحكوا من غبى أحمق ! انسوه ! انسوا كل شيء ! أرجوكم أن تنسوا ! لا تكونوا قساة ! هل تعلمون اننى لو لم يصبنى مرض السل لانتحرت ؟ ! . . .

كان يبدو عليه أنه يريد أن يفيض فى الكلام مزيدا من الافاضة ، ولكنه لم يستطع أن يستمر ، فتهاوى فى مقعده ، وغطى وجهه بيديه ، وأخذ يبكى كطفل صغير .

هتفت اليزافيتا بروكوفيفنا :

— ماذا نفعل له الآن ؟

وهرعت اليه فتناولت رأسه وشدته الى صدرها شدا قويا . كان ايبوليت ينتحب بتشنج . قالت تخاطبه :

— كفى كفى ! كفى ! لاتبك ، كفى بكاء ! انك لطفل طيب ! سيغفر الله لك سبب جهلك . هَيا ! كفى ! كفى ! كن رجلا ! . . . والا شعرت بعد ذلك بخزى وعار . . .

قال ايبوليت وهو يحاول أن يرفع رأسه :

— لى هناك أخ وأخوات ، صغار مساكين أبرياء . . . ستفسد هى أخلاقهم ! انك أنت قديسة . . . أنت نفسك طفلة ، فأنقذيهم ! انتزعيهم منها . . . انها . . . هى . . . عار . . . آه . . ساعديهم ، أنجديهم ! لسوف يرد الله

عليك الحسنة أضعافا مضاعفة ! أنجديهم حبا بالله ، حبا بيسوع !

صاحت تقول فى غضب :

— هلاَّ قلت لنا أخيرا ما الذى يجب علينا أن نفعله الآن يا ايفان فيدوروفتش ! هلاَّ تفضلت فخرجت عن صمتك الوقور المهيب ! اذا لم تتخذ قرارا فاعلم أننى سأقضى الليلة كلها هنا ! كفانى خضوعا لاستبدادك !

كانت تتكلم بحماسة شديدة وغضب قوى ، وتطالب بجواب على الفور . عادة فى مثل هذه الظروف يلتزم الحضور الصمت ولو كانوا كثرًا ، ولا يزيدون على الاستطلاع النائى . انهم يتحاشون اعلان رأيهم ، وان كانوا يبدون ذلك كله بعد مدة طويلة . ولقد كان بين الحضور حينذاك أناس قد يقون الى مطلع الصبح دون أن ينطقوا بكلمة واحدة . فهذه كانت حالة باربارا آرداليونوفا التى ظلت متنحية طوال السهرة ، دون أن تفتح فاها بكلمة واحدة ، ولكنها كانت فى الوقت نفسه منتبهة أشد الانتباه الى كل ما كان يقال — ولعل هناك اسبابا كانت تدعوها الى ذلك .

قال الجنرال :

— يا صديقتى العزيزة ، رأيى أن ممرضة تسهر عليه خير له من كل هذا الاضطراب الذى تضطربينه ، ومن المفيد أن يقضى الليل هنا رجل هادئ المزاج أهل للثقة . على كل حال ، يجب أن نطلب الى الأمير أن يصدر أوامره . . . ثم نترك المريض فورا ليرتاح . ويمكن أن نعود الى الاهتمام به فى الغد .

قال دوكتورنكو يسأل الأمير بلهجة حانقة مهتاجة :

— أوشك الليل أن ينتصف . ونحن منصرفون . فهل يأتى معنا أم يبقى عندك ؟

قال الأمير :

— تستطيعون أن تبقوا معه اذا شئتم . المكان كاف .

فانبرى السيد كيللر ينادى الجنرال بحماسة :

— يا صاحب السعادة ، اذا كان ينبغى أن يقضى الليل هنا رجل أهل للثقة ، فاننى سيسرنى أن أضحى فى سبيل صديقى . . . هذا انسان ذو نفس كبيرة ! لطالما عددته رجلا عظيما يا صاحب السعادة ! صحيح أننى أنا بغير ثقافة ، ولكنه هو ، حين يتكلم ، تتساقط من فمه لآلئ ، لآلئ يا صاحب السعادة !

أشاح الجنرال وجهه برما .

وقال الأمير يجيب عن الأسئلة الحانقة التى ألقتها عليه اليزافيتا بروكوفيفنا :

— سوف يسرنى أن يبقى . ان من الصعب عليه طبعا أن ينصرف .

— أظن أنك تنام ؟ اذا كنت لا تريد أن تتولى أمره فسأنقله الى بيتى . آه . . . يا رب ! . . . أرى أن الأمير نفسه لا يكاد يستطيع الوقوف على قدميه . أتراك مريضا يا أمير ؟

ان اليزافيتا بروكوفيفنا كانت قد توقعت فى البداية أن ترى الأمير راقدا على فراش الموت . فلما رأته قائما بالغت فى تقدير ابلاله من مرضه . ان نوبته الأخيرة ، والذكريات الكاوية التى ترتبط بها ، والمتاعب والانفعالات التى عاناها فى هذه السهرة بسبب موضوع «ابن بافليشيف» ، وبسبب

حالة ايبوليت بعد ذلك ، ان هذا كله أهاج ما يتصف به من حساسية مريضة وانفعالية شديدة فاذا هو يصير الى حالة تقارب الحمى . ثم أن هما جديدا ، بل قل خشية جديدة أخذت تُقرأ الآن فى عينيه : لقد كان ينظر الى ايبوليت فى قلق كأنما هو يتوقع منه انفجارا جديدا .

ونهض ايبوليت على حين فجأة شاحب الوجه شحوبا رهيبا . ان سحنته المنقلبة تعبر عن شعور فظيع بالعار ، شعور مرهق يتجلى خاصة فى النظرة المبغضة المذعورة التى كان يجيلها على الحضور ، ويتجلى فى الابتسامة التائهة الزائغة الساخرة التى كانت تقلّص شفتيه المرتعشتين . ثم خفض عينيه ، وجرَّ نفسه بخطى مترنحة نحو بوردوفسكى ودكتورنكو اللذين كانا يقفان عند مخرج الشرفة ، وهو ما يزال يبتسم تلك الابتسامة نفسها . كان يريد أن ينصرف معهما .

هتف الأمير يقول :

— ذلك بعينه ما كنت أخشاه ! كان لا بد أن يحدث هذا !

فالتفت ايبوليت نحوه بسرعة وقد اعترته نوبة حنق مسعور تُرعش جميع قسمات وجهه ، وقال يخاطبه :

— آ . . . ذلك ما كنت تخشاه ؟ تقول «كان لا بد أن يحدث هذا» ؟ ألا فاعلم اذن أنه اذا كان هنا شخص أكرهه — زأر يقول هذا الكلام بصوت أبح صافر يصاحبه رشاش لعاب — وأنا أكرهكم جميعا جميعا — فان ذلك الشخص هو أنت ، أنت ! أنت أيها اليسوعى المنافق ، المعتوه الأبله ، المليونير المحسن . اننى أكرهك أكثر مما أكره أى انسان وأى شىء فى هذا العالم . لقد أدركت حقيقتك

منذ زمن طويل فأخذت أكرهك منذ اليوم الذى سمعت فيه عنك وأبغضك من أعماق قلبى . . . أنت الذى استدرجتنى الى هذا الفخ ! أنت الذى اطلقت فى نفسى نوبة الهذيان هذه ، لقد دفعت رجلا محتضرا الى أن يجلل نفسه بالخزى والعار . أنت أنت المسئول عن ضعف ارادتى الحقير ! لو كنت سأعيش لقتلتك ! ما أنا فى حاجة الى احسانك . لا أريد أن يحسن أحد الىَّ . هل تسمعنى ؟ لا أريد احسان أحد ! لقد أصابتنى نوبة هذيان . فليس من حقك أن تستمد من هذا انتصارا ! . . . اننى ألعنكم جميعا ، ألعنكم جميعا الى الأبد . . .

ومنعه اللهاث من ان يتابع كلامه .

دمدم ليبيديف يقول لاليزافيتا بروكوفيفنا :

— لقد أخجله أنه بكى . «كان لا بد أن يحدث هذا» . ما أعجب الأمير ! لقد قرأ قرارة نفسه وأعماق ضميره !

لكن اليزافيتا بروكوفيفنا لم تتنازل أن تنظر اليه . كانت منتصبة بشموخ وكبرياء ، مرفوعة الرأس ، تتصفح وجوه هؤلاء «الناس التافهين» ، بفضول يسوده احتقار . وحين أنهى ايبوليت كلامه ، هزَّ الجنرال منكبيه ، فرمقته عندئذ بنظرة غاضبة ، شملته من قمة الرأس الى أخمص القدم ، كأنها تحاسبه على هذه الحركة ، ثم لم تلبث أن أسرعت تلتفت الى الأمير فتقول له :

— شكرا يا أمير ، يا صديق أسرتنا الغريب الأطوار ، شكرا على هذه السهرة الممتعة التى ندين بها لك . أحسب أنك الآن فرح بأنك استطعت أن تشركنا نحن أيضا فى

أعمالك الجنونية ! كفى يا صديق اسرتنا العزيز ، نشكر لك أنك أتحت لنا أن نعرفك حق معرفتك ! . . .

وبحركات غاضبة أخذت ترتب خمارها بانتظار أن ينصرف «هؤلاء الناس» . وفى هذه الأثناء وصلت عربة مستأجرة ، أتى بها ابن ليبيديف ، الطالب فى المدرسة الثانوية ، الذى كان دكتورنكو قد أوفده منذ ربع ساعة ليجىء بمركبة . وسرعان ما اعتقد الجنرال أن من واجبه أن يضيف كلمة صغيرة الى الأقوال التى نطقت بها امرأته ، فقال :

— الحق يا أمير أننى . . . لم أكن أتوقع أن . . . بعد كل شىء ، بعد كل علاقات الصداقة التى تجمعنا ! . . . وأخيرا أن اليزافيتا بروكوفيفنا . . .

صاحت آديلائيدا تقول وهى تسرع نحو الأمير وتمد اليه يدها :

— ما هذا الذى تقولون ؟ كيف يمكنكم أن تعاملوه هذه المعاملة ؟

فابتسم لها الأمير ابتسامة تائهة . الا ان وشوشة متعجلة لم تلبث أن لسعت أذنه لسع النار . ان آجلايا هى التى تقول له هامسة :

— اذا لم تطرد هؤلاء الناس الأدنياء فورا ، فلأكرهنك طوال حياتى ، طوال حياتى ، ولأكرهنَّك وحدك !

كانت تبدو خارجة عن طورها ، ولكنها أشاحت عن الأمير من قبل أن يتسع وقته لأن ينظر اليها .

على أن الشرفة كانت قد خلت من كل من يمكن طرده : كانوا قد استطاعوا أن يضعوا المريض فى العربة

كيفما اتفق ، وكانت العربة قد تحركت منصرفة .

— هل تعتقد أن هذا سيدوم مدة طويلة يا ايفان فيدوروفتش ؟ ما رأيك ؟ هل تظن أن سيكون علىَّ أن أحتمل هؤلاء الصبية الأشرار زمنا طويلا ؟

— ولكن يا صديقتى . . . أنا من جهتى مستعد طبعا . . . والأمير . .

ومدَّ ايفان فيدوروفتش يده الى الأمير مع ذلك ، ولكنه قبل أن يتسع وقته لمصافحته ، أسرع يجرى وراء اليزافيتا بروكوفيفنا التى كانت تهبط درجات الشرفة مظهرة غضبها فى صخب . أما آديلائيدا وخطيبها وألكسندرا فقد ودَّعوا الأمير بمودة صادقة . وكان يفغينى بافلوفتش معهم ، وهو الشخص الوحيد الذى كان مشرق المزاج منشرح النفس . وقد همس يقول بابتسامة فيها أكبر التلطف :

— حدث ما كنت أتوقعه ! ولكن من المؤسف يا صديقى المسكين أنك قد أصابك من ذلك ألم وعذاب .

وخرجت آجلايا دون أن تودِّع الأمير .

على أن هذه السهرة كانت تهيئ مفاجأة جديدة . لقد كان على اليزافيتا بروكوفيفنا أن تقع لها مقابلة ما كان يمكن أن تدور في خلدها .

فقبل أن تصل الى أسفل السلَّم المفضى الى الطريق (الذى يدور حول الحديقة) كانت تجرى أمام بيت الأمير مركبة باهرة هى عربة فخمة يجرها حصانان ابيضان ، وفيها سيدتان ترتديان أجمل حلة ، فما أن صارت العربة على مسافة عشرة أمتار من البيت حتى وقفت فجأة ، والتفتت احدى السيدتين بحركة سريعة كأنها لمحت فجأة شخصا

تعرفه هى فى حاجة ملحة الى أن تراه بسرعة .

وصاحت السيدة تقول بصوت واضح متناغم :

— يفغينى بافلتش ! أهذا أنت ؟

فارتعش الأمير لهذا الصوت ، ولعل أحدا آخر قد ارتعش أيضا . وتابعت السيدة كلامها تقول :

— ما أسعدنى بالعثور عليك أخيرا ! لقد أوفدت الى المدينة رسولين ظلا يبحثان عنك طوال النهار فلم يظفرا بطائل .

تسمَّر يفغينى بافلوفتش على درجات السلَّم كأن صاعقة قد نزلت عليه . وتوقفت اليزافيتا بروكوفيفنا في مكانها أيضا ، ولكن دون أن يظهر عليها ما ظهر عليه من علائم الذهول والخوف . ورمقت السيدةَ الجسورة بنظرة فيها ذلك التعالى الشديد نفسه وذلك الازدراء الكبير نفسه الذى اشتملت عليه نظرتها الى أولئك «التافهين» منذ قليل ، ثم سرعان ما حوَّلت بصرها الى يفغينى بافلوفتش متفحصة .

تابع ذلك الصوت الواضح يقول :

— لدىَّ أخبار ! لا تقلقنك سندات كوبفره . لقد لبى روغوجين طلبى فاشتراها بفائدة ثلاثين فى المائة . فنستطيع أن تطمئن خلال ثلاثة أشهر على الأقل . أما بيسكوب وسائر أولئك الأوباش فسنتفق معهم بالطبع على حل فنحن معارف . معنى ذلك أن الأمور كلها تجرى على ما يرام . فابتهج وافرح ! الى اللقاء غدا !

واستأنفت العربة جريها ولم تلبث أن غابت .

هتف يفغينى بافلوفتش يقول أخيرا وقد احمر وجهه استياء وأخذ يلقى على ما حوله نظرات دهشة وذهول :

— هذه مجنونة ! انى لأجهل كل الجهل ماذا أرادت أن تقول . ما تلك السندات التى تكلمت عنها ؟ من هى هذه المرأة ؟

حدّقت اليزافيتا بروكوفيفنا اليه ثانيتين أخريين ، ثم استدارت واتجهت مستعجلة نحو منزلها يتبعها ذووها . وعاد يفغينى بافلوفتش الى الأمير فى الشرفة بعد دقيقة فى حالة انفعال شديد واضطراب قوى .

— ألا تدرى حقا ماذا كان معنى ذلك يا أمير ؟

فأجابه الأمير متأثرا هو نفسه تأثرا شديدا مؤلما :

— لا أدرى !

— لا ؟

— لا !

قال يفغينى بافلوفتش وهو ينفجر ضاحكا فجأة :

— أنا أيضا لا أدرى ! ان قصة السندات هذه لا تخصنى ولا شأن لى بها ، أقسم لك على ذلك . ولكن ماذا بك ؟ هل يغمى عليك ؟

— لا . . . لا . . . أؤكد لك أن لا . . .

الفصل الحادى عشر

انقضت ثلاثة أيام قبل أن يهدأ حنق آل ايبانتشين هدوءا كاملا . وكان الأمير ، على عادته ، ينسب الى نفسه كثيرا من الاخطاء وينتظر صادقا ان يعاقَب . ومع ذلك كان قد اقتنع منذ البداية ، ان اليزافيتا بروكوفيفنا لا يمكن أن تكون قد غضبت منه هو ، وانها انما غضبت من نفسها . لذلك وجد نفسه فى اليوم الثالث من الخصام فى مأزق مظلم . وهناك أسباب أخرى غذّت حرجه فى اثناء ذلك . وكان أحد تلك الأسباب خاصة هو الذى أهاج مزاجه الشكاك وطبعه الرَّياب شيئا بعد شىء خلال هذه الأيام الثلاثة (كان الأمير يؤاخذ نفسه فى الآونة الاخيرة على انه يتأرجح بين حدين أقصيين ، فهو تارة «واثق ثقة سخيفة فى غير محلها» ، وهو تارة «شديد الشك والحذر الى درجة مظلمة دنيئة») . الخلاصة أنه فى نهاية اليوم الثالث كانت حادثة السيدة الغريبة الأطوار التى أطلت من عربتها الفخمة ونادت يفغينى بافلوفتش ، قد تضخمت فى نفسه واتخذت أبعادا مخيفة ملغزة . وكان اللغز يترجم عن نفسه فى ذهنه (ناهيك عن وجوهه الأخرى) بالسؤال المزعج التالى : أتقع تبعة هذا «العمل الفظيع» الجديد على عاتقه هو أم تبعته على عاتق . . ؟ لكنه لا يمضى الى حد النطق باسم . أما الأحرف الأولى من الاسم ، وهى : ن ، ف ، ب ، فلم تكن فى اعتقاده الا مزاحة بريئة من مزاحات الاطفال لا يستطيع

المرء أن يتلبث فكره عندها اذا هو لم يشأ أن يشعر بالخجل وحتى بشيء من العيب .

على أن الأمير قد سعد ، فى غداة تلك «السهرة» الفاضحة التى كان يعد نفسه «سببها» الرئيسى ، قد سعد بزيارة الأمير «ش . . .» وآديلائيدا اللذين كانا عائدين من نزهة فى الصباح ، فمرا به قائلين : «انهما يريدان خاصة أن يستطلعا أخبار صحته» . وقد لاحظت آديلائيدا اثناء نزهتها فى الحديقة شجرة قديمة رائعة كثيفة مجوَّفة الجذع كثيرة التشقق تحمل أغصانهـــا الطويلة ذات العـــقـد أوراقا فتية نضيرة ، فقررت أن ترسمها من كل بد ، ولم تكد تتكلم اثناء الزيارة التى دامت نصف ساعة الا عن هذه الشجرة . وأبدى الأمير «ش . . .» كثيرا من التحبب والتودد وكان كيِّسا لبقا على عادته . سأل الأمير عن الماضى وأيقظ ذكرى الأحداث التى يرجع عهدها الى أولى العلاقات التى قامت بينهما ، حتى أنه لم يكد يتكلم عما جرى فى الليلة البارحة . ونفد صبر آديلائيدا أخيرا فاعترفت مبتسمة بأنهما جاءا اليه [1] incognito ولم تزد على ذلك شيئا ، غير أن هذا الاعتراف كان كافيا لافهام الأمير أن أبويها ، ولا سيما اليزافيتا بركوفيفنا ليسا راضيين عنه . ومع ذلك لم ينبس الأمير «ش . . .» ، ولا نبست آديلائيدا ، اثناء زيارتهما ، بكلمة واحدة عن الجنرالة ، ولا عن آجلايا ، حتى ولا عن ايفان فيدوروفتش . وحين انصرفا لاتمام نزهتهما لم يدعوا الأمير الى اصطحابهما . أما أن يدعواه الى زيارتهما فذلك أمر لم يكن محل بحث أصلا . وقد أفلتت من

[1] خفية . (باللاتينية فى الأصل) .

آديلائيدا بهذه المناسبة عبارة ذات دلالة ، فانها اذ تكلمت عن لوحة من لوحاتها المرسومة بالألوان المائية وأظهرت رغبتها فجأة فى أن يراها الأمير ، قالت : «ما السبيل الى أن أستطيع أن أريك الصورة فى وقت أقرب ؟ اسمع ! . . سأرسلها اليك هذا اليوم نفسه مع كوليا اذا جاء الى دارنا ، أو أجيئك بها أنا نفسى غدا أثناء نزهتى مع الأمير» . وقد أسعدها أن تكون قد خرجت من وضعها المحيِّر وأن تكون قد وُفِّقت الى حل المسألة حلا مناسبا يرضى الجميع .

وفى لحظة التوديع تقريبا بدا على الأمير «ش . . .» أنه تذكر شيئا ما على حين فجأة . قال يسأل الأمير :

— بالمناسبة ، ألا تعرف أنت ، يا عزيزى ليف نيقولايفتش ، مَنْ تلك السيدة التى نادت يفغينى بافلوفتش أمس من عربتها ؟

قال الأمير :

— هى ناستاسيا فيليبوفنا . ألم تتعرفها ؟ لكننى لا أدرى مع من كانت !

قال الأمير «ش . . .» بلهجة دهشة شديدة واضحة :

— أعرفها لأننى سمعت عنها . ولكن بماذا صاحت ؟ أعترف لك بأن ما قالته كان فى نظرى لغزا . . . فى نظرى أنا وفى نظر الآخرين .

أجابه الأمير بكثير من البساطة :

— تكلمت عن سندات على يفغينى بافلوفتش لا أدرى ما هى ؛ وقالت أن هذه السندات قد انتقلت تلبية لطلبها من يدى مراب الى يدى روغوجين الذى سيمهل يفغينى بافلوفتش فترة من الوقت .

— ذلك ما سمعته يا عزيزى الأمير ، لكنه ليس معقولا ! ان يفغينى بافلوفتش لا يمكن أن يكون قد وقّع أى سند ! انه غنى جدا . . . صحيح أن هذا حدث له فى الماضى بسبب خفته وطيشه وأنا نفسى كنت أقدم له العون . . . أما أن يكون رجل له ثروة طائلة كثروته ، قد وقّع سندات لمراب من المرابين وأصبح قلقا لاقتراب موعد دفعها ، فذلك شىء مستحيل . ثم انه لشىء مستحيل أيضا أن تكون العلاقة بينه وبين ناستاسيا فيليبوفنا حميمة الى هذا الحد ، وأن تُرفع بينهما الكلفة فاذا هى تخاطبه بصيغة المفرد دون تحرج . ذلك هو اللغز الرئيسى . انه يحلف بأغلظ الأيمان أنه لا يفهم من ذلك شيئا البتة ، وانى لأصدقه كل التصديق . لذلك رغبت أن أسألك يا عزيزى الأمير هل تعرف عن هذا الأمر شيئا ؟ أقصد : هل وصلت الى مسامعك شائعة من الشائعات بطريقة ما ؟

— لا ، لا أعرف عن هذه القضية شيئا ، وأؤكد لك أننى لا شأن لى بها .

— ما أغربك اليوم يا أمير ! حقا أننى لا أعرفك اليوم ! هل يمكن أن يكون قد خطر ببالى أن لك مشاركة ما فى قضية كهذه القضية ؟ دعك . . . أنت اليوم فى غير حالتك الطبيعية .

قال له ذلك ثم عانقه وقبّله .

قال ليف نيقولايفتش :

— مشاركة ما فى «قضية كهذه القضية» ؟ ولكننى لا أرى هنا أية قضية .

أجاب الأمير «ش . . .» بلهجة جافة :

— ليس هناك أى شك فى أن هذه المرأة قد أرادت الاساءة الى يفغينى بافلوفتش ، بطريقة من الطرق ، مسندةً اليه ، أمام شهود ، أعمالا ليست أعماله ولا يمكن أن تكون أعماله .

بدا الارتباك على الأمير ليف نيقولايفتش ، لكنه ظل يحدق الى محدثه بنظرة مستفهمة . وظل محدثه صامتا لا يتكلم .

فدمدم الأمير يقول أخيرا بلهجة فيها شىء من نفاد الصبر :

— ولكن أليست المسألة سندات فحسب ؟ ألم يكن مدار الكلام أمس على سندات لا أكثر ؟

— غريب . اننى أقول لك الأمر وما عليك الا أن تحكم بنفسك : ما عسى أن يكون هنالك من شىء مشترك بين يفغينى بافلوفتش وبين تلك . . . وروغوجين أيضا ؟ أعود فأقول لك أنه يملك ثروة طائلة . أنا أعرف هذا من مصدر مطلع موثوق به . وهو عدا ذلك سيرث من عمه . كل ما فى الأمر أن ناستاسيا فيليبوفنا . . .

قطع الأمير «ش . . .» كلامه من جديد : كان واضحا أنه لا يريد أن يقول للأمير عن المرأة أكثر مما قال .

فسأله ليف نيقولايفتش فجأة بعد لحظة صمت :

— ولكنه يعرفها ، على كل حال ، أليس كذلك ؟

— جائز جدا . هو رجل طائش ! مهما يكن من أمر ، فهما اذا كانا قد تعارفا فانما تعارفا فى الماضى . لا بد أن تعارفهما يرجع عهده الى سنتين أو ثلاث سنين . كان فى ذلك الأوان ما يزال على صلة بتوتسكى . أما

الآن فلا يمكن أن يجمعهما شيء . وكيف كان الأمر فان الصلة بينهما لم تكن فى يوم من الأيام حميمة الى الحد الذى يسمح لهما بان يتخاطبا **بصيغة المفرد** . أنت نفسك تعلم أنها كانت غائبة الى هذه الآونة الأخيرة ، وأنها ظلت مختفية لا يعثر عليها أحد . وما يزال كثير من الناس يجهلون أنها عادت . لم ألاحظ عربتها الامنذ ثلاثة أيام .

قالت آديلائيدا :

— عربة فخمة !

— نعم ، فخمة !

وانصرف الزائران وهما يظهران للأمير أرق العواطف ، حتى لكأنه أخوهما .

أما بالنسبة لبطل قصتنا فكانت هذه الزيارة اشارة هامة . صحيح أنه اشتبه فى الأمر اشتباها قويا منذ الليلة البارحة (وربما قبل ذلك) ، لكنه لم يكن قد جرؤ حتى هذه الزيارة أن يرى أن مخاوفه فى محلها . أما الآن فقد اتضحت له الأمور : ان الأمير «ش . . .» ، على تأويله الحادث تأويلا خطأ ، يقارب الحقيقة مع ذلك ، ويحزر على كل حال أن ثمة **مكيدة** . (قال الأمير يحدث نفسه : ولعله يدرك الأمر ادراكا صحيحا بينه وبين نفسه ، ولكنه لا يريد اعلان ادراكه ويتعمد تأويل الحادث تأويلا خطأ) .

هناك شئ واضح كل الوضوح : هو أنهما جاءا (ولا سيما الأمير «ش . . .») آملين أن يحصلا على ايضاح ما ؛ وهذا يعنى أنهما يعدّان الأمير ضالعا فى المكيدة . ثم اذا كانت القضية هى هذه ، وكان لها هذا الخطر كله ، فذلك دليل على أن **تلك المرأة** تسعى الى هدف رهيب . ولكن ما

هو ذلك الهدف ؟ يا للفظاعة ! «وكيف يمكن **صرفها** عنه ؟ ان من المستحيل **ايقافها** عن بلوغ غاياتها ، وهى تعتقد أنها على حق . ذلك أمر يعرفه الأمير بالتجربة . «هى مجنونة ! مجنونة» . .

ولكن ما أكثر هذه الألغاز التى تتزاحم فى تلك الصبيحة فى آن واحد . انها تقتضى أن تَوَضح كلها على الفور ، وذلك ما أغرق الأمير فى حزن عميق . وجاءت فيرا ليبيديفا حاملة ليوبوتشكا بين ذراعيها ، فسرّى عنه ذلك قليلا . وظلت تثرثر مدة طويلة ضاحكة ، ثم جاءت أختها الصغرى فاغرة الفم ، ووصل بعدهما ابن ليبيديف ، الطالب فى المدرسة الثانوية ، فأكّد له أن «كوكب الافستين» الذى تذكر رؤيا يوحنا أنه سقط من السماء على الأرض عند ينبوع المياه انما هو فى رأى أبيه تنبؤ بشبكة خطوط السكة الحديدية التى تمتد اليوم على أرض أوروبا . لم يصدق الأمير هذا الزعم ، واتفق على أن يسأل ليبيديف نفسه فى هذا الأمر لدى أول مناسبة . روت فيرا ليبيديفا للأمير أن كيللر قد أقام عندهم من أمس ، وأضافت أن جميع الظواهر تدل على أنه لن يغادرهم قريبا ، لأنه وجد ههنا مجتمعا يناسبه ، وانعقدت صداقة بينه وبين الجنرال ايفولجين . وقد أعلن أنه لا يمكث عندهم الا ليكمل تعليمه ويحسّن ثقافته . أخذ الأمير ، على وجه العموم ، يزداد اعجابا بأولاد ليبيديف يوما بعد يوم . ولم يظهر كوليا فى ذلك النهار : فانه قد ذهب الى بطرسبرج فى ساعة مبكرة من الصباح . (وكان ليبيديف قد سافر منذ الفجر هو ايضا لأعمال شخصية) .

غير أن الزيارة التى كان الأمير ينتظرها نافد الصبر

انما هى زيارة جافريلا آردالیونوفتش الذى كان لا بد أن يجىء فى اثناء النهار . وقد وصل بين الساعة السادسة والساعة السابعة ، بعد الغداء فورا . فلما رآه أخيرا اعتقد أنه أمام شخص لا بد أن يعرف جميع خفايا الأمر حق معرفتها . وكيف يمكن أن لا يعرف جانيا جميع خفايا الأمر وهو الذى يملك مساعدين مثل باربارا آردالیونوفنا وزوجها ؟ غير أن العلاقات بينه وبين الأمير كانت تتسم بطابع خاص بعض الشئ . صحيح أن الأمير قد كلفه بقضية بوردوفسكى ورجاه ملحا أن يهتم بها . ولكن رغم علامة الثقة هذه ، ورغم ما جرى بينهما قبل ذلك ، تبقى هنالك موضوعات يتحاشيان التحدث فيها ويتجنبان الكلام عنها ، وذلك بنوع من اتفاق صامت . كان الأمير يحسّ فى بعض الأحيان أن جانيا يتمنى من جهته لو تنعقد بينهما صداقة وتقوم بينهما صراحة بغير حدود . وفى هذا اليوم مثلا ، حين رآه داخلا ، شعر بأن جانيا يعتقد أنه قد آن الاوان لتحطيم الجليد وتحقيق التفاهم فى جميع الأمور (كان الزائر مع ذلك متعجلا ، فلقد كانت أخته تنتظره عند ليبيديف لشأن ملح يجب أن يذهبا معا بسرعة بصدده) .

ولكن لئن توقع جانيا حقا أن يلقى عليه الأمير وابلا من اسئلة متعجلة ، وان يكشف له عن أمور كثيرة على غير ارادة منه ، وأن يفضى اليه بما يعتلج فى قرارة نفسه ، فقد أخطأ خطأ كبيرا . لقد ظل الأمير طوال مدة الزيارة التى دامت عشرين دقيقة ، ظل غارقا فى خواطره ، حتى ليكاد يكون ذاهلا . ولم يلق الاسئلة المتوقعة ، أو قل لم يلق السؤال الهام الذى كان ينتظره جانيا . لذلك ارتأى

جانيا أن من المناسب أن يتحفظ هو أيضا فلا يسترسل . صحيح أنه ضحك وظل طلق اللسان كثير الكلام ، ولكنه فى ثرثرته الخفيفة المتوددة اللطيفة ، تحاشى أن يلامس النقطة الأساسية .

روى فيما روى أن ناستاسيا فيليبوفنا لم تصل الى بافلوفسك الا منذ أربعة أيام ، وأنها قد جذبت أنظار الناس جميعا . وذكر أنها تقيم عند داريا الكسيفنا ، فى منزل صغير غير جميل بشارع «البحارة» ، ولكن مركبتها تكاد تكون أفخم مركبة فى بافلوفسك . وقد احتشد حولها منذ الآن جمهور من المولهين ، فيهم الشباب وفيهم الشيوخ ؛ وثمة فرسان يواكبون مركبتها فى بعض الأحيان . وهى على عادتها شديدة التدقيق فى اختيار معارفها ، فلا ترضى أن يكون بقربها الا صفوة منتقاة . غير أن هذا لا ينفى أنها محاطة بما يشبه أن يكون فصيلة من الحرس مستعدة للدفاع عنها أتم الاستعداد متى مست الحاجة الى ذلك . وبسببها فسخ خطوبته رجل من المصطافين فى بافلوفسك ، وكاد جنرال عجوز أن يلعن ابنه . وهى تصطحب أثناء نزهاتها بالمركبة ، وفى كثير من الأحيان ، فتاة بارعة الجمال فى السادسة عشرة من عمرها تمت بقربى بعيدة الى داريا الكسيفنا . والفتاة موهوبة فى الغناء ، فصوتها يجتذب انتباه أهل الحى الى منزلهم فى المساء . هذا وان ناستاسيا فيليبوفنا تتصرف تصرفا لائقا ، فملابسها بسيطة ، لكنها فى غاية الذوق والأناقة ، ولذا «تحسد جميع السيدات ذوقها وجمالها ومركبتها» .

وأفلت لسان جانيا فقال :

— أما حادث الأمس الغريب فلا شك فى أنه مدبَّر ، ولا يمكن أن تكون هى المسئولة عنه ، اذا تطلب الأمر التشهير بها فيجب أن يتجنى الناس عليها ويقولوا فيها سوءا ، وذلك ما سيحدث قريبا على كل حال .

كان يتوقع أن يسأله الامير لماذا يرى ان حادث الامس أمر مدبَّر ، ولماذا يعتقد أن الناس لن يلبثوا أن يقولوا فيها سوءا . ولكن الأمير لم يلق أى سؤال عن هاتين النقطتين .

وذكر جانيا بعد ذلك معلومات مفصلة عن يفغينى بافلوفتش ، دون أن يكون الأمير قد سأله عن شىء من ذلك أيضا . وان كلام جانيا عن يفغينى بافلوفتش لأمر غريب ، لا سيما وأنه كان يقحم فى الحديث اقحاما . لم يكن يفغينى بافلوفتش ، برأى جافريلا آرداليونوفتش ، يعرف ناستاسيا فيليبوفنا فى يوم من الأيام ؛ وأنه حتى فى الوقت الحاضر لا يكاد يعرفها فقد قُدم اليها منذ ثلاثة أيام أو أربعة أثناء النزهة . ومن المشكوك فيه أن يكون قد زارها فى بيتها مرة واحدة ولو بصحبة أشخاص آخرين . أما مسألة السندات فمن الجائز أن تكون صحيحة (حتى ان جانيا يعدها أكيدة) . صحيح أن يفغينى بافلوفتش يملك ثروة كبيرة ، غير أن «شيئا من القوضى يسيطر على ادارة أملاكه» . . . وانقطع جانيا فجأة عن الكلام فى هذا الموضوع المثير ، ثم لم يزد شيئا عن فعلة ناستاسيا فيليبوفنا بالأمس ، عدا الاشارة التى ساقها من قبل . وأخيرا جاءت باربارا آرداليونوفنا تبحث عن جانيا لكنها لم تمكث عند الأمير الا دقيقة واحدة استطاعت خلالها أن تبلغه (دون أن يسألها عن شىء أيضا) أن يفغينى بافلوفتش يقضى هذا اليوم ببطرسبرج وقد يقضى

بها الغد أيضا ، وأن زوجها (ايفان بتروفتش بتيتسين) هو الآن ببطرسبرج فأغلب الظن أنه ذهب الى هناك للاهتمام بشئون يفغينى بافلوفتش . واضح أن فى الأمر شيئا بالفعل . وأضافت الى هذا عند انصرافها أن اليزافيتا بروكوفيفنا معتكرة المزاج فى هذا اليوم وأن آجلايا — وذلك شىء أغرب — قد اشتجرت مع الأسرة كلها ، لا مع أبيها وأمها فحسب ، بل مع أختيها أيضا . «ليس ذلك بالأمر الحسن بتاتا» . حتى اذا فرغت من ذكر هذا النبأ ذكرا يشبه أن يكون عارضا (وهو نبأ له فى نظر الأمير شأن خطير كل الخطورة) انصرفت هى وأخوها . ولم يقل جانيا كلمة واحدة عن قضية «ابن بافليشيف» ، سواء من باب اظهار التواضع ، أو بغية «مداراة عواطف الأمير» . غير أن ذلك لم يمنع الأمير من أن يشكر له ، مرة اخرى ، ما تكلَّفه من عناء لانهاء تلك القضية .

سرَّ الأمير أعظم السرور حين صار وحيدا ، فهبط من على الشرفة ، واجتاز الطريق الى الحديقة . كان يريد أن يفكر فى قرار يجب عليه أن يتخذه ، وهو قرار من تلك القرارات التى لا يفكر المرء فيها ، وانما يعزم أمره عليها دفعة واحدة . وها هو ذا تستولى عليه رغبة مفاجئة شديدة فى أن يدع كل شىء فى مكانه ، فينصرف مسرعا حتى دون أن يودع أحدا ، ويرجع الى حيث كان فى البعد والعزلة . كان يوجس أنه اذا بقى فى بافلوفسك ولو بضعة ايام أخرى ، فسيغوص فى هذه البيئة غوصا لا مخرج له منه بعد ذلك قط . غير أنه لم يهب لنفسه عشر دقائق من التفكير ، ولم يلبث أن أيقن أن الهروب «مستحيل» ،

وأنه يكاد يكون جبنا وحقارة . ان من طبيعة المشكلات المطروحة عليه أنه لا يحق له أن لا يحلها أو على الاقل أن لا يقف جميع جهوده على ايجاد حل لها . وعلى هذه الحال النفسية انما عاد الأمير الى بيته دون أن يتنزه أكثر من ربع ساعة . وشعر فى تلك اللحظة أنه شقى أكبر الشقاء .

وكان ليبيديف غائبا فاستطاع كيللر أن يدخل على الأمير فى المساء . لم يكن كيللر سكران ، لكنه كان فى حالة نفسية تحضه على أن يكشف عما فى دخيلته . فسرعان ما أعلن للأمير أنه جاء اليه ليقصّ عليه قصة حياته كاملة ، فعلى هذه النية انما بقى فى بافلوفسك . ولو أراد الأمير أن يطرده لما استطاع الى ذلك سبيلا ، ولرفض الرجل أن ينصرف كل الرفض . ولقد أراد أن يندفع فى حديث طويل مفكك ، ولكنه ما ان قال بضع كلمات حتى انتقل الى الخاتمة فاعترف بأنه «امرؤ لم يبق له ذرة من خلق» (وما ذلك الا بسبب زوال اعتقاده بالله) حتى أنه بلغ من هذا حد الاقدام على السرقة . قال :

— هل تستطيع أن تتصور أمرا كهذا ؟

قال الأمير :

— اسمع يا كيللر ، لو كنت فى مكانك لما اعترفت بهذا ، الا فى حالة الضرورة المطلقة . ثم ان من الجائز جدا أن تكون الآن متجنيا على نفسك عن عمد . . . أليس كذلك ؟

— أنا لا أقول هذا الا لك أنت ، لك أنت وحدك ، وليس لى من ذلك الا هدف واحد هو أن أحاول الارتقاء

بأخلاقى . لن أتحدث عن هذا لأحد ، وسأحمل سرى الى قبرى . ولكن ليتك تعلم يا أمير مدى صعوبة الحصول على مال فى عصرنا هذا ! أين لى بالمال ؟ إسمح لى أن ألقى عليك ذلك السؤال . ان المرء لا يسمع الا جوابا واحدا : «هات لنا ذهبا وماسا فنقرضك على رهن» . والذهب والماس هما ما يعوزنى . هل تستطيع أن تتصور هذا ؟ ولقد غضبت آخر الأمر فقلت بعد لحظة : «وهل تقرضوننى مالا برهن أحجار زمرد ؟» ، فقالوا : «نعم ، نقرض مالا برهن أحجار زمرد» ، فقلت وأنا أتناول قبعتى لأخرج : «هذا رائع» . شيطان يأخذكم ، يا لكم من أوغاد ! أقسم لك !

— هل كنت تملك اذن أحجار زمرد ؟

— أحجار زمرد ؟ آه يا أمير ! انك ما تزال تنظر الى الحياة نظرة فيها براءة وسذاجة يمكن أن توصف بأنها ريفية !

كان شعور الأمير بالخجل من سماع مسارات كيللر أكبر من شعوره بالشفقة عليه . ووومضت فى ذهنه فكرة . تساءل : «ألا يمكن أن يُصنع من هذا الانسان شئ بأحداث تأثير حسن فيه ؟» . لكنه استبعد لأسباب شتى أن يكون هذا التأثير الحسن تأثيره هو ، لا من باب التهوين من شأن نفسه بل بسبب طريقته الخاصة فى مواجهة الأمور . وشيئا فشيئا استغرقا فى الكلام وبلغا من الاهتمام بالتحادث معا أنهما لم يخطر ببالهما أن يفترقا . وأسرع كيللر يعترف بأفعال يتراءى للمرء أن من المستحيل على أحد أن يعترف بها . وكان يؤكد عند كل اعتراف بأنه نادم ندما صادقا

وبأن «عينيه تفيضان دموعا» ، غير أن ذلك لم يمنعه من أن يعرض أخطاءه بلهجة اعتزاز ، وأن يعرضها فى بعض الأحيان عرضا فيه من قوة الهزل وشدة الاضحاك انه والأمير قد انتهيا الى الاغراق فى ضحك كضحك المجانين .

قال الأمير أخيرا :

— المهم أن فيك ثقة كثقة الأطفال وأن لك صراحة يندر مثلها . هل تعلم أن هذا كاف ليحمل المرء على أن يغفر لك أمورا كثيرة ؟

فقال كيللر مؤيدا كلام الأمير وقد رقّ قلبه من التأثر :

— نفسى نبيلة ، نبيلة وذات شهامة ! ولكن المسألة يا أمير أن هذا النبل لا يوجد الا فى الأحلام والتباهى ان صح التعبير ! انه لا يتحقق فى الواقع أبدا . ولم هذا ؟ ذلك ما لا أفهمه .

— لا تيأس . يمكن أن نقول الآن علي وجه اليقين أنك قد كشفت لى عن قرارة نفسك . يخيل الىّ على الأقل أنه يستحيل أن يضاف اى شئ الى ما كشفت لى عنه . أليس هذا صحيحا ؟

فصاح كيللر يقول بلهجة اشفاق ورحمة :

— يستحيل ؟ آه يا أمير ! انك ما تزال تحكم على الناس بأفكار هى افكار رجل سويسرى . . .

قال الأمير متحيّرا مدهوشا :

— هل يمكن أن يكون ثمة أشياء تضاف الى ما ذكرته ؟ ولكن هلا قلت لى يا كيللر ما الذى كنت تنتظره منى حين بحت لى بهذه الأمور ، ولماذا جئت الىّ ؟

— ما الذى كنت أنتظره منك ؟ اولا : ان لبساطة

نفسك سحرها وفتنتها ، وان المرء ليجد متعة فى الحديث معك برهة من الزمن . اننى أعرف على الأقل أن أمامى رجلا يمتاز بفضيلة لا سبيل الى الشك فيها ؛ وثانيا . . . ثانيا . . .

وارتبك كيللر ولم يكمل كلامه .

قال الأمير بلهجة فيها كثير من الجد وفيها صراحة يمازجها شىء من حياء :

— ألعلك كنت تريد أن تقترض منى مالا ؟

فارتعش كيللر . وحدّق الى عينىّ الأمير مشدوها ، وضرب المائدة بقبضة يده ضربة قوية وقال :

— هذه بعينها طريقتك فى ارباك الناس ! آه ، يا أمير ! ان لك براءة وسذاجة لم يعرف العصر الذهبى مثلهما ، ثم اذا بنفاذك السيكولوجى العميق يخترق المرء اختراق السهم . ولكن اسمح لى يا أمير . هذا أمر يحتاج الى تفسير . . . ذلك أننى مذهول حقا ! صحيح أن نيتى كانت هى أن أقترض منك مالا ، ولكنك ألقيت على السؤال وكأنك لا تجد فى هذا ما يستحق المؤاخذة فكأن الأمر طبيعى تماما . . .

— نعم ، هو منك طبيعى تماما .

— وهذا لا يثيرك ؟

— ولماذا يجب أن يثيرنى ؟

— اصغ الىّ يا أمير : لقد بقيت فى بافلوفسك منذ مساء أمس ، أولا بسبب اعتبارى العظيم للاسقف الفرنسى بوردالوه (لقد فتحت زجاجات عند ليبيديف حتى الساعة الثالثة من الصباح) ، وثانيا وخاصة (أقسم لك بجميع

الصلبان أننى أقول الحقيقة) لأننى أردت أن أبوح لك بحقيقة أمرى كاملة صادقة بغية الارتقاء بأخلاقى . وعلى هذه الفكرة انما نمت ممتلئ العينين بالدموع فى نحو الساعة الرابعة من الصباح . هل تصدق الآن انسانا زاخر النفس بالمشاعر السامية والعواطف النبيلة ؟ اننى حين غفوت غارقا بالدموع فى الداخل والخارج على السواء (ذلك أننى بكيت ناشجا ، فانا أتذكر هذا) قد هاجمتنى فكرة جهنمية ، فتساءلت : «ماذا لو اقترضت منه مالا بعد أن أعترف له ؟» . وعلى هذا النحو انما أعددت اعترافى طبقا صغيرا من طعام أضع فيه حشائش مشهية وأرشه بدموع سخية ، وأهيئه لاثارة عاطفتك واقتراض مائة وخمسين روبلا . ألا تجد فى هذا حطة ودناءة ؟

— لا شك عندى فى أن هذا ليس صحيحا ولا يعدو أن يكون تصادفا . فكرتان التقتا فى ذهنك عرضا . هذه حادثة شائعة جدا قد ألفتها وتعودتها أنا نفسى . وأعتقد أن هذا غير حسن . هل تعلم يا كيللر أن ذلك هو الشىء الذى آخذه على نفسى ؟ ان ما قلته الآن عن نفسك ، يمكن أن أقوله أنا عن نفسى .

وتابع الأمير كلامه يقول بلهجة انسان تهمه هذه المسألة كثيرا ، فهو يفكر فيها تفكيرا عميقا :

— حتى لقد اتفق لى أن قدّرت أن جميع الناس هم على هذه الشاكلة ، وعددت ذلك دليلا على براءتى مما أتهم به نفسى ، اذ لا شئ أصعب على المرء من مناهضة هذه الأفكار **المزدوجة** . اننى أقول هذا عن خبرة وتجربة . لا يدرى الا الله من أين تجىء هذه الأفكار المزدوجة ولا

من أين تنبجس ! ولكن هأنت ذا تصف ذلك بأنه حطة ودناءة ! سيكون علىّ اذن أن أعود الى التخوف من مثل هذه الأفكار ! على كل حال ، لست أهلا لأن أحكم عليك ، مع ذلك لا أحسب أن كلمة الحطة او الدناءة هى هنا فى محلها . ما رأيك ؟ لقد عمدت الى المكر والحيلة محاولا أن تبتز منى بدموعك مالا ، ولكنك تحلف أنت نفسك أن اعترافك كان له هدف آخر ، هدف نبيل منزه عن الغرض مبرأ من المنفعة . أما المال فقد كنت تريده لتقصف وتلهو ، أليس كذلك ؟ وهذا ، بعد اعتراف كالاعتراف الذى اقدمت عليه ، هو ضعف ارادة طبعا ، ولكن انى للمرء أن يتخلص دفعة واحدة من لهو أصبح فيه عادة راسخة ؟ ذلك مستحيل . وماذا اذن ؟ ان من الأفضل أن يعمد المرء فى مثل هذا الأمر الى حكم ضميره . ما رأيك ؟

كان الأمير يحدّق الى كيللر بنظرة فضولية الى أقصى حدود الفضول . كان واضحا أن مسألة ازدواج الفكر تشغل باله منذ زمن طويل .

صاح كيللر يقول :

— بعد أقوال كهذه الأقوال التى أسمعها منك ، أصبحت عاجزا عن أن افهم كيف أمكن أن يصفوك بأنك أبله .

فاصطبغ وجه الأمير بحمرة خفيفة .

— ان الواعظ بوردالو لم يراع صاحبه ، أما أنت فقد راعيتنى وحكمت على حكما انسانيا . فمن اجل أن أعاقب نفسى ، ومن أجل أن أبرهن لك على مدى تأثرى ،

فاننى أعدل عن المائة وخمسين روبلا ، وأكتفى بخمسة وعشرين ، فهذا هو المبلغ الذى أحتاج اليه ، مدة أسبوعين على الأقل . لن أعود لأسألك مالا قبل انقضاء أسبوعين . لقد أردت أن أسرَّ آجاشكا ، ولكنها لا تستحق ذلك كثيرا . آه يا أميرى العزيز ! فليبارك الله فيك !

هنا دخل ليبيديف ، عائدا من بطرسبرج . فلما رأى ورقة بخمسة وعشرين روبلا فى يدى كيللر قطب حاجبيه . غير أن كيللر ، وقد ملك المال ، لم يلبث أن انصرف . فسرعان ما أخذ ليبيديف يكيل له الذم .

فقال له الأمير أخيرا :

— انك تظلمه . لقد ندم ندما صادقا .

— ولكن ما قيمة ندمه ؟ هو كندمى بالأمس : «أنا منحط !» . هذه كلمات ! . .

— ماذا ؟ أكانت هذه كلمات لا أكثر ؟ لقد ظننت أنا . . .

— اسمع . لك ، لك وحدك سأقول الحقيقة ، لأنك تنفذ الى قرارة قلب الانسان : ان الأقوال والافعال ، ان الاكاذيب والحقائق ، تختلط عندى بصدق كامل . ففى الحقائق والافعال انما يتجلى ندمى وتتجلى توبتى ، صدقنى او لا تصدقنى . . . يمينا أن الأمر كذلك . اما الأقوال والاكاذيب فانها تأتينى من فكرة جهنمية (لا تبرح ذهنى) بها أحس أننى مدفوع الى خداع الناس والاستفادة حتى من دموع الندامة والتوبة ! أحلف لك بشرفى أن الأمر كذلك ! ما كان لى أن أقول هذا الكلام لشخص آخر غيرك ، والا لضحك او لبصق اشمئزازا ! أما أنت يا

أمير فسوف تحكم علىَّ حكما انسانيا .

هتف الأمير يقول :

— هذا الكلام نفسه قد قاله لى الآخر ؛ ويبدو عليكما كليكما أنكما تعتزان وتتباهيان ! انكما تدهشاننى . ولكن الآخر أصدق منك ، أنت الذى تجعل الكذب حرفة لك . هيّا ! كفى رياء وعبوسا يا ليبيديف ! لا تضع يدك على قلبك . أليس لديك ما تحب أن تقول لى ؟ انك لم تأت الىَّ بغير هدف . . .

أخذ ليبيديف يجعّد وجهه ويلوّى جسمه .

قال الأمير :

— لقد انتظرتك طوال النهار لألقى عليك سؤالا . قل لى الحقيقة من أول كلمة ، ولو مرة واحدة فى حياتك : ألم تشارك مشاركة ما فى حادثة المركبة أمس ؟

أخذ ليبيديف يتلوى من جديد ، ثم طفق يضحك ضحكات قصيرة ، ثم فَرك يديه ، ثم عطس . لكنه لم يعزم أمره على ان ينطق بكلمة .

— أرى أنك شاركت فى الأمر .

— لم أشارك الا مشاركة غير مباشرة فحسب ! أقول لك الحقيقة خالصة . كان دورى كله فى القضية هو أن أبلغ شخصا ما فى الوقت المناسب أن فى دارى ناسا ، وأن بين هؤلاء الناس فلانا وفلانا . . .

صاح الأمير يقول بلهجة تدلّ على نفاد الصبر :

— أعرف أنك أرسلت **الى هناك** ابنك . هو نفسه قال لى ذلك منذ قليل . وما شأنك فى هذه المكيدة ؟

قال ليبيديف وهو يقوم بحركات انكار :

— أنا لا شأن لى فى الأمر . ان هذه المكيدة من تدبير أشخاص آخرين ؛ بل انها لنزوة أكثر مما هى مكيدة .

— ولكن ما المسألة ؟ اشرح ما بنفسك ، بحق المسيح ! هل يمكن أن لا تدرك أن هذه القضية تمسّنى مباشرة ؟ انهم يحاولون تلطيخ سمعة يفغينى بافلوفتش .

هتف ليبيديف يقول وقد عاد ينقبض :

— أيها الأمير ، يا صاحب السمو ، انك لا تتيح لى أن أقول لك الحقيقة كلها . لقد حاولت غير مرة أن أبسطها لك ، ولكنك لم تدع لى أن أكمل كلامى . . .

صمت الأمير وفكّر ، ثم قال فى مشقة وعناء ، بلهجة تكشف عن أنه يعانى صراعا نفسيا عنيفا :

— طيب . . . قل لى الحقيقة .

فسرعان ما بدأ ليبيديف يقول :

— ان آجلايا ايفانوفنا . . .

ولكن الأمير صرخ يقول له مندفعا :

— أسكت . . .

كان الأمير محمر الوجه من الغضب وربما من الخجل . وتابع كلامه فقال :

— مستحيل . هذا كله سخف . هذا كله تلفيق منك أو من أناس مجانين مثلك . اننى أمنعك من أن تكلمنى فى هذا الأمر يوما !

فى وقت متأخر من الليل ، فى نحو الساعة الحادية عشرة ، وصل كوليا مع حصاد انباء بعضها من بطرسبرج وبعضها من بافلوفسك . فاوجز رواية الأنباء الآتية من بطرسبرج (وهى تتعلق بايبوليت وحادثة الأمس) ليعود اليها من جديد

فيما بعد ، متعجلا الانتقال الى الكلام عن أنباء بافلوفسك . كان قد رجع من بطرسبرج منذ ثلاث ساعات ، وذهب الى دار آل ايبانتشين رأسا ، دون أن يعرّج على الأمير . «رهيب ما يحدث هناك» . والسبب الأول للفضيحة هو حادثة المركبة طبعا . ولكن لا شك أن حادثا آخر قد وقع ، حادثا لا يعرفه لا هو ولا الأمير . «وقد تجنبت طبعا ان أتجسس أو أن أسأل أحدا . ثم انهم قد أحسنوا استقبالى حتى لقد أحسنوا استقبالى أكثر مما كنت أتوقع . ولكنهم لم يقولوا كلمة واحدة عنك يا أمير» . وها هو ذا النبأ المثير : لقد تشاجرت آجلايا مع ذويها بشأن جانيا . لا يعرف كوليا تفاصيل المشاجرة ، ولكن من المعروف أن جانيا هو سببها (تتصور هذا !) ، ولا شك فى أن الباعث على المشاجرة كان هاما خطيرا ، لأن المشاجرة كانت قوية عنيفة . كان الجنرال قد رجع الى البيت متأخرا ، متجهم الهيئة عابس الأسارير ، يصحبه يفغينى بافلوفتش الذى أُستقبل بكثير من الترحيب وكان باشّا مشرق المزاج كثير اللطف والتودد . وهذا نبأ ثان أهم شأنا : ان اليزافيتا بروكوفيفنا قد استدعت باربارا آرداليونوفنا التى كانت مع بناتها ، وحظرت عليها ، دون ضجيج ، أن تدوس قدماها أرض بيتها بعد الآن فى يوم من الأيام ؛ وقد أبلغتها هذا الحظر بكثير من الكياسة والتهذيب على كل حال . «عرفت هذا من فاريا نفسها» . هذا ما أضافه كوليا . وحين خرجت فاريا من عند الجنرالة وودّعت الآنسات كانت الآنسات لا يعرفن أن باب هذا المنزل قد أغلق دونها الى الأبد وأنها تتركهنّ الى غير رجعة .

قال الأمير مدهوشا :

— مع ذلك جاءت الىَّ باربارا آردالیونوفنا فی الساعة السابعة .

— وطردت ما بين الساعة السابعة والساعة الثامنة أو فی الساعة الثامنة . اننی متألم لفاريا وجانيا . . . صحيح أنهما لا ينفكّان عن تدبير المكائد ، فتلك عادة لا يملكان التخلص منها . أنا لم أستطع أن أعرف ماذا يدّبران ، ولست أحرص على أن أعرف ذلك . ولكننی أؤكد لك يا عزيزی الأمير الطيب أن جانيا له قلب نبيل . هذا رجل ضائع من نواح كثيرة ، لكن له مزايا تستحق أن تُعرف ولن أغفر لنفسی يوما أننی لم أفهمه قبل هذه المدة . لا أدری ألا يزال علىَّ أن أتردد على آل ايبانتشين بعد الذی حدث لفاريا . صحيح أننی منذ اليوم الأول قد احتفظت باستقلالی كاملا ، وجعلت بينی وبينهم مسافة . ولكن الأمر يحتاج الى تفكير مع ذلك .

قال الأمير :

— انك لتخطئ اذا أخذتك بأخيك شفقة . لئن وصلت الأمور الى ما وصلت اليه فلأن جافريلا آردالیونوفتش أصبح خطرا فی نظر اليزافيتا بروكوفيفنا . معنى ذلك أن بعض آماله قد تأكدت .

هتف كوليا يسأل مذهولا :

— أية آمال ؟ ماذا تعنی ؟ أتراك تتصور أن آجلايا . . . ذلك لا يمكن . . .

لزم الأمير الصمت .

وتابع كوليا كلامه بعد دقيقة أو دقيقتين من سكوت :

— أنت ريّاب شكّاك الى درجة رهيبة يا أمير . لقد لاحظتُ منذ بعض الوقت أنك تهوى الى ريبية فيها غلو ، حتى أخذت لا تصدّق شيئا ، وحتى صرت تفترض كل شیء . . . ولكن هل ترانی استعملت كلمة «الريبية» فی محلها ؟

— أظن ، رغم أننی لست واثقا أنا نفسی كل الثقة .

صاح كوليا يقول فجأة :

— مع ذلك أسترد هذه الكلمة . لقد اهتديت الى كلمة تفصح عن فكرتی افصاحا أصدق . أنت لست ريّابا ، وانما أنت غيور . إن جانيا يوقظ فی نفسك غيرة جهنمية بسبب آنسة متكبّرة .

قال كوليا ذلك ونهض عن مكانه واثبا ، وأخذ يضحك ضحكا لعله لم يضحك مثله فی حياته . وازداد ضحكه حين رأى الأمير يتخضب وجهه بالحمرة . لقد فتنه أن يتصور أن الأمير غيور بسبب آجلايا . ولكنه سكت منذ لاحظ أن ألم الأمير صادق . وأخذا يتكلمان منذئذ بكثير من الرصانة والجد ، فدام حديثهما ساعة أخرى ، أو ساعة ونصفا .

فی الغداة سافر الأمير الى بطرسبرج ، واضطر أن يمكث هنالك الى ما بعد الظهر لأمر ملح مستعجل . فلما عاد الى بافلوفسك فی نحو الساعة الخامسة صادف ايفان فيدوروفتش بالمحطة . فأمسكه هذا من ذراعه بسرعة ، وبعد أن ألقى نظرات ذات اليمين وذات الشمال كأنه خائف ، أصعده الى عربة فی الدرجة الأولى من القطار ليسافرا معا . لقد كان يحترق رغبة فی أن يكلّمه فی مسألة هامة .

قال ايفان فيدوروفتش للأمير :

— أرجوك أولا ، يا أميرى العزيز ، أن لا تؤاخذنى ولا تحقد علىّ . اذا كان ثمة ما تلومنى عليه فاننى آمل أن تنساه . لقد أوشكت أن أجىء اليك بالأمس ، لكننى لا أدرى ما الذى كان يمكن أن تتصوره اليزافيتا بروكوفيفنا لو أننى فعلت . . . فى منزلى جحيم حقا . لكأن مخلوقا ملغزا كأبى الهول قد سكنه . أنا لا أفهم من الأمر شيئا . أما أنت فأنت فى رأيى أقلنا ذنبا ، رغم أنك سبب كثير من التعقيدات التى حدثت . حب الخيّر للبشر شىء لطيف يا أمير . ولكن ما ينبغى للمرء أن يسرف قط . لعلك عانيت هذه الحقيقة أنت نفسك بالتجربة . صحيح أننى أحب طيب القلب ونبل النفس وأقدّر اليزافيتا بروكوفيفنا ، لكن . . .

وظل الجنرال يتكلم على هذا المنوال مدة طويلة ، ولكن كلامه كان مفككا شديدا . كان واضحا أنه مذهول مضطرب الى أبعد حدود الذهول والاضطراب ، من حادث لا سبيل الى فهمه البتة .

قال أخيرا وهو يدخل فى حديثه شيئا من وضوح :

— لا شك عندى فى أنك غريب عن الأمر ، فلا شأن لك فيه . لكننى أرجوك رجاء الصديق أن تنقطع عن زيارتنا زمنا ، الى أن تغيّر الريح اتجاهها .

ثم هتف يقول بحرارة شديدة :

— أما يفغينى بافلوفتش فان كل ما يُشاع عنه انما هو وشايات كاذبة ولا أكثر ! نحن ازاء محاولة تشهير . ثمة مكيدة يُهدف منها الى قلب كل شئ رأسا على عقب ، والى احداث الشقاق والخلاف بيننا . اسمع يا أمير ، أننى أقول لك الحقيقة سرا : ما من كلمة نطقت حتى الآن

بيننا ، نحن ويفغينى بافلوفتش ، هل تفهم ؟ لا شىء يربطنا فى الوقت الحاضر . غير أن تلك الكلمة يمكن أن تُنطق . وقد تنطق فى القريب ، بل قد تُنطق من لحظة الى أخرى . وذلك ما يُراد منعه . لماذا ؟ ما الغرض من ذلك ؟ هذا ما لا أستطيع أن أدركه . ان هذه المرأة شاذة غريبة الأطوار . اننى خائف منها أشد الخوف ؛ إن خوفى منها يؤرقنى ويحرمنى من النوم . وأنظر الى تلك المركبة الفخمة ، وتلك الخيول البيضاء . . . ذلك شيك[1] . ذلك ما يسميه الفرنسيون شيك ! من ذا الذى يهيئ لها هذا ؟ يمينا لقد راودتنى أول امس هذه الفكرة الاثمة ، وهى أن يفغينى بافلوفتش هو الذى يهيئ لها ذلك . ولكن اتضح أن هذا الرأى بعيد عن الحقيقة كل البعد . لماذا تحاول اذن إحداث الشقاق بيننا ؟ ذلك هو اللغز ! أمن أجل أن تحتفظ الى جانبها بيفغينى بافلوفتش ؟ لكننى أكرر لك وأحلف لك أنه لا يعرفها وأن موضوع السندات اختراع وتلفيق . وما أشد تلك الوقاحة فى أن تخاطبه بصيغة المفرد على ذلك النحو عبر الشارع ! تلك مكيدة مدبّرة لا أكثر ! واضح أن علينا أن ننبذ هذه المكيدة باحتقار وأن نضاعف احترامنا ليفغينى بافلوفتش . ذلك ما أعلنته لاليزافيتا بروكوفيفنا . والآن أقضى اليك بالرأى الذى أكنّه فى قرارة نفسى : اننى مقتنع اقتناعا عميقا بأنها تحاول أن تنتقم بهذا منى أنا ، بسبب ما جرى من قبل ، هل تتذكر ؟ ومع ذلك فاننى لم أخطئ فى حقها يوما ولا أسأت اليها . ان وجهى ليحمر خجلا لمجرد الذكريات . ها هى ذى

---

[1] كتبت فى الأصل كما تلفظ بالفرنسية ولكن بالحروف الروسية .

تعود الآن الى الظهور بعد أن ظننت أنها غابت الى الأبد . أرجوك أين اختفى روغوجين ؟ لقد كنت أحسب أنها أصبحت منذ مدة طويلة زوجة روغوجين .

الخلاصة أن الجنرال كان حائرا أشد الحيرة . ولقد ظل طوال ما يقرب من ساعة ، وهى المدة التى استغرقتها مسافة الطريق بالقطار ، يجرى الحديث مع نفسه ، فهو الذى يلقى الأسئلة وهو الذى يجيب عنها ، ضاغطا يدى الأمير ، مفلحا فى اقناعه على الأقل بأنه لا يساوره ظل من شك فيه . وتلك هى النقطة الهامة بالنسبة الى الأمير . وتكلم فى آخر الأمر عن عم يفغينى بافلوفتش الذى يشغل منصب رئيس لاحدى الادارات ببطرسبرج . فقال انه «رجل فى نحو السبعين من عمره ، ذو مركز مرموق ، يحب مباهج الحياة ويقبل على ملذات المائدة ، أى أنه — باختصار — شيخ ما يزال نضر الرغبات . . . هأ هأ ! وأنا أعلم أنه سمع عن ناستاسيا فيليبوفنا ، حتى أنه التمس الحظوة بنعمها . وقد زرته منذ قليل . انه لا يستقبل الآن بسبب سوء صحته ، ولكنه غنى ، غنى . وان له نفوذا وتأثيرا و . . . أطال الله عمره ! غير أن يفغينى بافلوفتش سيرث ثروته كلها . . . نعم . . . لكننى مع ذلك خائف . خائف من شىء لا أعرفه . ان فى الهواء نذير شرّ يحلّق تحليق خفاش ، فأنا خائف ، خائف . . .» .

وأخيرا وفى اليوم الثالث فقط كما سبق أن أشرنا تم التصالح الشكلى بين آل ايبانتشين والأمير ليف نيقولايفتش .

الفصل الثانى عشر

فى الساعة السابعة من المساء ، كان الأمير يتهيأ للقيام بنزهته فى الحديقة ، فاذا باليزافيتا بركوفيفنا تظهر فى الشرفة وحيدة ، وتتجه نحوه . قالت :

— **اولا** ، لا يذهبن بك الظن الى أننى جئت أطلب منك الصفح . فتلك حماقة ! أنت وحدك مقترف جميع الذنوب !

لزم الأمير الصمت .

— أأنت مذنب أم لا ؟

— لا أكثر منك ولا أقل . على أننا لم نذنب عن عمد وقصد ، لا أنا ولا أنت . أول أمس اعتقدت أننى مذنب آثم . أما الآن فقد اقتنعت بعد التفكير بأن لا شىء من ذلك !

— آه . . . هكذا أنت ! طيب ، اجلس واسمع ، لأننى لا أنتوى أن أبقى واقفة .

جلس الاثنان .

قالت :

— **ثانيا** ، لا داعى الى كلمة واحدة عن أولئك الفتيان الاشقياء ! سأمكث عشر دقائق للتحدث معك . لقد جئت أسألك عن أمر من الأمور (وهل ذهب ظنك الى شىء لا يعلمه الا الله ؟) ، فان نطقت بكلمة واحدة عن أولئك الوقحين ، فلأنهضنّ منصرفة على الفور ، وليكونن ذلك فراقا بينى وبينك .

قال الأمير :

— طيب .

— اسمح لى أن ألقى عليك سؤالا . هل بعثت برسالة الى آجلايا منذ شهرين أو شهرين ونصف شهر ، حوالى أعياد الفصح ؟

— ن . . . نعم . . .

— بأية مناسبة ؟ فى أى موضوع ؟ ماذا تضمنته تلك الرسالة ؟ ارنى الرسالة !

كانت عينا اليزافيتا بروكوفيفنا تقدحان شررا ، وكانت ترتعش أو تكاد من فرط نفاد الصبر .

أجاب الأمير مدهوشا مرتاعا :

— ليست تلك الرسالة معى ، واذا كانت ما تزال موجودة فهى مع آجلايا ايفانوفنا . . .

— لا تراوغ ! ماذا كتبت لها فى تلك الرسالة ؟

— لست أراوغ ، وليس ثمة ما أخشاه . اننى لا أرى السبب الذى كان يمكن أن يمنعنى من الكتابة اليها . . .

— اسكت . ستتكلم فيما بعد . ماذا تضمنت تلك الرسالة ؟ لماذا احمر وجهك ؟

فكر الأمير لحظة .

— لا أعرف ماذا يدور فى رأسك من خواطر يا اليزافيتا بروكوفيفنا . ولكننى أرى أن تلك الرسالة قد أورثتك كثيرا من الاستياء . لاحظى أن فى وسعى أن لا أجيب عن سؤال كهذا السؤال الذى تُلقين . لكننى من أجل أن أبرهن لك على أنه ليس ثمة ما أخشاه بصدد تلك الرسالة ، وعلى أننى لست نادما ولا خجلان من كتابتها (حين قال الأمير

هذا الكلام تضاعفت حمرة وجهه) ، فسأتلوها عليك ، لأننى أحفظ مضمونها عن ظهر قلب فيما أظن .

وأخذ الأمير يتلو نص الرسالة كلمة كلمة تقريبا .

قالت اليزافيتا بروكوفيفنا بعد أن أصغت بانتباه شديد ، قالت بلهجة فظة شرسة :

— يا له من خلط ! ما المعنى الذى تقصده من هذه السخافات ؟

أجابها الأمير :

— أنا نفسى لا أعرف حق المعرفة . ان ما أعلمه هو أن عاطفتى كانت صادقة . كانت تنتابنى هنالك لحظات حياة حافلة وآمال كبيرة .

— اية آمال ؟

— يصعب علىَّ أن أشرح هذا ، ولكن تلك الآمال ليست تلك التى يغلب على ظنى أن تفكيرك ينصرف اليها الآن . الخلاصة أن تلك الآمال . . . تتصل بالمستقبل ، وترتبط بفرحة التفكير فى أننى لعلنى لم أكن **هناك** غريبا أجنبيا . وقد غمرتنى سعادة بالعودة الى الوطن ، فتناولت القلم فى ذات صباح مشمس ، وكتبت لها تلك الرسالة . لماذا كتبت الرسالة اليها هى ؟ لا أدرى . هناك لحظات يريد فيها المرء أن يكون بقربه صديق .

وأضاف الأمير يقول بعد صمت :

— فلعل ذلك الشعور هو الذى قادنى ووجهنى .

— أتراك محبا ؟

— لا والله . لقد كتبت اليها كما يكتب أخ الى أخته . حتى لقد ذيّلت رسالتى بهذا التوقيع : «أخوك» .

— هه ! خيال بارع ! فهمت !

— يشق على نفسى جدا أن أجيب عن أسئلة كهذه يا اليزافيتا بروكوفيفنا .

— أعلم . غير أن هذا لا يعنينى البتة . اسمع ، قل لى الحقيقة كما لو كنت تتكلم أمام الله : أكاذب أنت فيما تقول أم لا ؟

— لست كاذبا .

— أأنت تقول الحقيقة حين تؤكد أنك لست محبا ؟

— يخيَّل الىَّ أن هذا صادق صدقا مطلقا .

— آ . . . «يخيل اليك» ! هل الصبى هو الذى حمل اليها الرسالة ؟

— رجوت نيقولاى آردالیونوفتش أن . . .

قاطعته اليزافيتا بروكوفيفنا فى غضب :

— الصبى ، الصبى ! أنا لا أعرف نيقولاى آردالیونوفتش . قل الصبى .

— نيقولاى آردالیونوفتش . . .

— بل الصبى ، قلت لك . . .

ردّ الأمير يقول بلهجة ثابتة ، ولكن دون أن يرفع صوته :

— لا ، ما هو بالصبى . انه نيقولاى آردالیونوفتش .

— طيب . . . طيب يا عزيزى . . . سأجازيك على هذا بمثله . . .

كظمت اليزافيتا بروكوفيفنا انفعالها دقيقة لتسترد أنفاسها ثم سألته :

— وما معنى «الفارس الفقير» ؟

— لا أدرى . حدث هذا فى غيابى . لا شك فى أنه مزاحة من المزاحات .

— ما أحلى أن يعلم المرء هذا كله دفعة واحدة ! ولكن هل يمكن أن تكون قد اهتمت بك ؟ لقد وصفتك هى نفسها بأنك «طرِح» وبأنك «أبله» .

قال الأمير بلهجة العتب ، وبصوت يكاد يكون همسا :

— كان فى وسعك أن تعفينى من نقل هذا الكلام الىَّ .

— لا تزعل . هذه فتاة مستبدة متسلطة ، طائشة اللب ؛ انها طفلة أفسدها الدلال ! . . قد تفتتن بشخص من الأشخاص فاذا هى تهينه على رؤوس الأشهاد ، وتضحك عليه أمام أنفه . أنا نفسى كنت هكذا . ولكننى أرجوك يا عزيزى أن لا تتغنى بالانتصار ، وأن لا تسكر بنشوة الظفر . هى ليست لك . اننى أرفض أن أصدق . لن يكون هذا فى يوم من الأيام ! أقول ذلك لتعزم أمرك منذ الآن . اسمع : احلف لى أنك لم تتزوج **الأخرى** .

قال الأمير وهو ينتفض دهشة :

— ما هذا الذى تقولينه يا اليزافيتا بروكوفيفنا ؟

— ولكن ألم توشك أن تتزوجها ؟

همس الأمير يقول خافضا رأسه :

— أوشكت أن أتزوجها .

— فأنت اذن تحبها **هى** ؟ وأنت انما جئت الى هنا **من أجلها هى** ، من أجل **تلك المرأة** ؟

أجاب الأمير :

— ما من أجل أن أتزوجها جئت .

— هل فى العالم شىء مقدّس عندك ؟

— نعم .

— احلف أنك لم تجىء لتتزوج **تلك المرأة** .

— احلف على ذلك بما تشائين .

— صدقتك . قبّلنى . هأناذا أتنفس أخيرا بحرية . ولكن أعلم أن آجلايا لا تحبك ، ورتب أمورك على هذا الأساس . لن تصبح آجلايا زوجتك ما بقيت أنا على قيد الحياة . هل سمعت ؟

— سمعت .

بلغ الأمير من شدة الاحمرار أنه أصبح لا يستطيع أن ينظر الى اليزافيتا بروكوفيفنا وجها لوجه .

— ضع هذا فى رأسك . لقد انتظرتك انتظار العناية الالهية (وكنـــت لا تستحق ذلك) ، وبللـــت وسادتى فى الليل بالدموع ! لا بسببك أنت يا صديقى ، أطمئن ! فان لى حزنا آخر ، حزنا لا يتغير مدى الدهر . ولكن اليك السبب الذى جعلنى أنتظرك نافدة الصبر : أننى ما زلت أعتقد بأن الله هو الذى أرسلك الىّ صديقا وأخا . ليس لى أحد أشد به أزرى ، الا العجوز بيلوكونسكايا ، التى سافرت هى نفسها ، ناهيك عن أنها كانت قد أصبحت من الشيخوخة غبية كشاة من الشياه ! والآن ليس عليك الا أن تجيبنى بكلمة **نعم** أو بكلمة **لا** على هذا السؤال : هل تعلم لماذا قذفت **تلك المرأة** بتلك الصيحة من داخل مركبتها فى ذلك اليوم ؟

— أحلف لك أن لا شأن لى بالأمر ، ولست أعرف شيئا !

— يكفينى هذا ! صدقتك . ان لى الآن رأيا جديدا فى هذا الموضوع ، ولكننى فى صباح الأمس كنت ما أزال أعد يفغينى بافلوفتش مسئولا عن كل ما حدث . لقد لازمتنى هذه الفكرة طوال أمس الأول وطوال صباح أمس . أما الآن فقد انتهيت الى الموافقة على رأيهم : واضح أنه قد سُخر منه واُستُهزئ به كمعتوه . كيف ؟ لماذا ؟ ما الغاية من ذلك ؟ (ان الحادث فى ذاته مشبوه غير شريف . على كل حال ، لن يتزوج آجلايا . أنا أقول لك هذا ! مهما يكن رجلا ممتازا ، فلن أرضى أن يتزوجها . حتى قبل ذلك الحادث كنت مترددة . أما الآن فقد اتخذت قرارى وعزمت أمرى : «ضعنى أولا فى تابوتى وادفنى فى قبرى ، ثم زوج ابنتك» ، ذلك ما قلته اليوم لايفان فيدوروفتش مقطّعة كلماتى . هأنت ذا ترى مدى ثقتى بك . هل ترى ذلك ؟

— أراه وأفهمه .

حدقت اليزافيتا بروكوفيفنا الى الأمير بنظرة نافذة . لعلها كانت تحترق شوقا الى معرفة الاثر الذى أحدثه فى نفسه كلامها عن يفغينى بافلوفتش .

— أنت لا تعرف شيئا عن جافريلا آرداليونوفتش ايفولجين ؟

— أ . . . أعرف أشياء كثيرة .

— هل تعرف أنه على صلات بآجلايا ؟

قال الأمير مدهوشا وقد ارتعش :

— أجهل هذا كل الجهل . ماذا ؟ تقولين أن جافريلا آرداليونوفتش على صلات بآجلايا ايفانوفنا ؟ مستحيل !

— الأمر حديث العهد . ان أخته هى التى شقت له الطريق طوال فصل الشتاء . عملت باجتهاد وعناد .

عاد الأمير يكرر باقتناع بعد أن ظل شارد الذهن مضطرب النفس برهة من الوقت :

— لا أصدق شيئا من هذا الكلام . لو صح ذلك لعرفته حتما .

— أتظن أنه كان سيأتى معترفا لك بسرّه باكيا فوق صدرك ؟ يا لك من ساذج غر ! . . ان جميع الناس يخدعونك ويضللونك مثل . . . مثل . . . أفلا تستحى أن تمحضه ثقتك ؟ ألست ترى أنه يخدعك ويغرر بك ؟

قال الأمير بصوت خافت ولهجة تخلو من الرغبة :

— أعرف أنه يغشّنى أحيانا . وهو لا يجهل أننى أعرف ذلك . . .

ولم يكمل الأمير فكرته .

— تعلم أنه يغشّك ثم تظل توليه ثقتك . لم يكن ينقص الا هذا . على أن ذلك هو ما ينبغى أن يُنتظر منك . فعلام الاستغراب ؟ رباه ! لا يوجد فى العالم كله رجلان من نوعك . اخص ! وهل تعلم أن جانيا هذا او فاريا هذه قد جعلاها على صلات بناستاسيا فيليبوفنا ؟

صاح الأمير يسأل :

— من ؟

— آجلايا .

— لا أصدّق . هذا مستحيل . ما الغاية من ذلك ؟

وكان قد نهض عن مكانه واثبا .

قالت اليزافيتا بروكوفيفنا :

— أنا أيضا لا أصدّق ذلك ، رغم أن هناك أدلة وبراهين . انها فتاة ذات نزوات ، فتاة جامحة الخيال طائشة العقل ! فتاة شريرة ، شريرة ، شريرة ! اننى مستعدة لأن أكرر لك ألف سنة أنها شريرة ! وبناتى كلهن أصبحن الآن على هذه الشاكلة ، حتى تلك الدجاجة المبتلة ، ألكسندرا ! ولكن آجلايا قد أفلتت من بين يدىّ وانتهى الأمر . ومع ذلك لستُ أصدّق هذا أنا أيضا .

ثم أضافت كأنها تقول لنفسها :

— ربما لأننى لا أريد أن اصدّقه .

ثم نادت الأمير فجأة تسأله :

— لماذا لم تجىء ؟ لماذا لبثت ثلاثة أيام لا تجىء ؟

هتفت تسأله نافدة الصبر .

فأخذ الأمير يعدد الأسباب التى حالت بينه وبين المجىء . لكنها قاطعته مرة أخرى وقالت له :

— جميع الناس يعدونك غبيا ويغشّونك ! لقد كنت أمس بالمدينة ، وانى لأراهن أنك مضيت تجثو أمام ذلك الوغد ضارعا اليه أن يقبل منك العشرة آلاف روبل .

— لا . لم يخطر ببالى أن أفعل . ولم أره . ثم أنه ليس وغدا . لقد تلقيت منه رسالة .

— أرنيها .

سحب الأمير من محفظة أوراقه رسالة مدّها الى اليزافيتا بروكوفيفنا . وهذه هى الرسالة :

«سيدى الفاضل ، ليس لى حتما ، فى نظر الناس ، أى حق فى أن أظهر شيئا من الشعور بالكرامة . فالناس يعدوننى أحقر قيمة من أن أفعل ذلك . ولكن نظرة الناس

الى الأمور ليست نظرتك أنت . أننى مقتنع أشد الاقتناع يا سيدى الفاضل بأنك ربما كنت أفضل من سائر الناس . لست أشاطر دكتورنكو رأيه ، بل أخالفه فى هذه النقطة . لن أقبل منك كوبيكا واحدا فى يوم من الأيام . ولكنك أنجدت أمى ، فانا محمول على أن أشكر لك صنيعك رغم أن هذا ضعف . على كل حال ، لقد رجعت عن رأيى فيك ، وأعتقدت أن من واجبى أن أبلغك ذلك . وانى أظن أنه لن تقوم بيننا أية علاقة بعد الآن . آنتيب بوردوفسكى».

«P.S.[1] : ان المال الناقص لاكمال مبلغ المائتى روبل الذى أدين لك به سُيردّ اليك مع الزمن حتما» .

قالت اليزافيتا بروكوفيفنا وهى تنهى قراءة الرسالة ثم ترميها :

— يا للسخف والحماقة ! ما كان هذا الكلام ليستحق أن يُقرأ . ممَ تبتسم ؟

— اعترفى مع ذلك بأن قراءة هذه الرسالة قد سرّتك .

— كيف ؟ تسرّنى قراءة هذا الهذر الدعى السخيف ؟ ألست ترى اذن أن جميع هؤلاء الناس قد أضلهم الزهو والغرور ؟

— صحيح ، ولكنه أعترف بأخطائه ، وقطع صلته بدكتورنكو . وعلى قدر غروره وزهوه كلّفه عمله هذا ثمنا باهظا . آ . . . يا لك من طفلة صغيرة يا اليزافيتا بروكوفيفنا !

— أتراك تودّ أن أصفعك على وجهك ؟

— لا ، لا أحرص على ذلك البتة ! كل ما هنالك أننى ألاحظ ان قراءة هذه الرسالة قد ملأت نفسك ارتياحا ،

[1] تذييل . (باللاتينية فى الأصل) .

وانك تخفين ذلك . فيمَ تخجلين من عواطفك ؟ انك هكذا فى كل أمر .

صاحت اليزافيتا بروكوفيفنا تقول واثبة عن مكانها ، شاحبة اللون من فرط الغضب :

— حذار ان تضع قدميك فى بيتى بعد اليوم ! اياك أن يظهر أنفك فى عتبة بابى بعد الآن !

— وبعد ثلاثة أيام تسعين أنت الىَّ وتستدعيننى لزيارتك ! آه ، عيب عليك ، لماذا تخجلين من أنبل عواطفك ؟ انك لا تزيدين بذلك على أن تعذبى نفسك .

— لن أستدعيك ولو رقدت على فراش الموت . سأنسى اسمك . بل لقد نسيته .

قالت ذلك وهمّت أن تنصرف بسرعة .

صرخ الأمير فى أثرها :

— على كل حال ، لقد حظر علىّ أن أزور بيتكم .

— ماذا ؟ من حظر عليك ذلك ؟ — التفتت نحوه بحدة كأن ابرة وخزتها . وتردد الأمير فى الاجابة وقد أحس أن لسانه زل من غير قصد .

صاحت اليزافيتا بروكوفيفنا بجنون :

— من حظر عليك ؟

— آجلايا ايفانوفنا هى التى تحظر علىَّ أن . . .

— متى حدث هذا ؟ تكلم ، مالك لا تتكلم ؟ . .

— فى هذا الصباح ، أرسلت تبلغنى أن علىَّ أن لا أدوس أرض داركم بعد اليوم قط . . .

شُدهت اليزافيتا بروكوفيفنا . ومع ذلك أخذت تفكر . ثم هتفت تقول فجأة :

— ماذا أرسلت ؟ من أرسلت لابلاغك ذلك ؟ الصبى ؟ بكلام ؟

— بل برسالة .

— أين الرسالة ؟ أعطنيها ! فورا !

فكّر الأمير لحظة ، ثم سلَّ من جيب صديرته مزقة ورق كان مكتوبا عليها ما يلى :

«الأمير ليف نيقولايفتش ، اذا كنت تنوى ، بعد كل الذى حدث ، أن تدهشنى فتجىء تزورنا بدارنا ، فثق أننى لن أكون من أولئك اللواتى ستسرهنّ زيارتك . آجلايا ايبانتشينا» .

استغرقت اليزافيتا بروكوفيفنا فى التفكير لحظة ، ثم أسرعت الى الأمير ، فأمسكت يده ، واقتادته صائحة وقد استولى عليها اهتياج شديد ونفاد صبر كبير :

— حالا ! تعال ! فى هذه اللحظة نفسها ! مخالفة لرغبتها !

— لكنك ستعرضيننى لـ . . .

— أعرضك لأى شىء ؟ ساذج ! غبى ! حتى لكأنك لست برجل ! هيَّا ! سأرى كل شىء بنفسى ، بعينى رأسى . . .

— اسمحى لى أن آخذ قبعتى على الأقل . . .

— هى ذى ، قبعتك القذرة . هيَّا ! انك عاجز حتى عن اختيار قبعة فيها ذوق ! . . .

ثم تمتمت اليزافيتا بروكوفيفنا تقول وهى تجرّ الأمير فى أثرها دون أن ترخيه لحظة واحدة :

— كتبتْ ذلك . . . كتبتْ ذلك بعد المشهد الذى

جرى منذ قليل . . . كتبتْه فى غمرة الاندفاع . . .

ثم أضافت تخاطب الأمير :

— لقد تحيزتُ لك منذ قليل . قلت صراحة أنك غبى لأنك لا تجىء . . . ولولا ذلك لما كتبت اليك رسالة تبلغ هذا المبلغ من الحماقة ، وتبلغ هذا المبلغ من قلة الاحتشام ! ان هذا لهو قلة احتشام من جانب فتاة نبيلة المحتد ، حسنة التربية ، ذكية ، نعم ، ذكية !

وتابعت تقول :

— هِمْ . . . ولعلها مغتاظة أيضا من تغيّبك . ذلك جائز . ولكنها لا تدرك أنه لا يكتب مثل هذا الكلام لرجل أبله يفهم الأمور فهما حرفيا كما حدث ذلك فعلا .

ولاحظت أنها أسرفت فى القول ، فصاحت تسأله :

— مالى أراك تمد أذنيك ؟ انها فى حاجة الى مهرّج من نوعك . لقد حُرمت من مثلك منذ مدة طويلة . ذلك هو السبب فى أنها تسعى اليك ! أنا مبتهجة أعظم الابتهاج ، لأنها ستجعلك أضحوكة ! . . . هذا ما تستحقه ! انها فى هذه اللعبة بارعة ! نعم ، بارعة . . .

شخصيات الرواية

آفاناسى ايفانوفتش :

هو آفاناسى ايفانوفتش توتسكى . راجع اسم توتسكى .

آجلايا :

هى آجلايا ايفانوفنا ايبانتشينا : بنت الجنرال ايفان فيدوروفتش ايبانتشين واليزافيتا بروكوفيفنا . ويرد اسمها مصغرا : جلاشا .

آديلائيدا :

هى آديلائيدا ايفانوفنا ايبانتشينا : بنت الجنرال ايفان فيدوروفتش ايبانتشين واليزافيتا بروكوفيفنا .

آردالیون ألكسندروفتش :

هو آردالیون الكسندروفتش ايفولجين . راجع اسم ايفولجين .

الكسندرا :

هى الكسندرا ايفانوفنا ايبانتشينا : بنت الجنرال ايفان فيدوروفتش ايبانتشين واليزافيتا بروكوفيفنا .

اليزافيتا بروكوفيفنا :

زوجة الجنرال ايبانتشين . تمت بقرابة بعيدة الى الأمير ليف نيقولايفتش ميشكين («الأبله») . ويرد ذكرها فى الرواية بلقب الجنرالة ، جريا على عادة القوم فى خلع رتبة الزوج على الزوجة أيضا .

يفغينى بافلوفتش :

هو يفغينى بافلوفتش — او بافلتش — رادومسكى . ضابط شاب يود خطبة آجلايا .

ايبانتشين :

هو الجنرال ايفان فيدوروفتش (او فيدورتش) ايبانتشين . موظف كبير ورجل أعمال . صديق آفاناسى ايفانوفتش توتسكى وشريكه . والجنرالة ايبانتشينا ، زوجته ، تمت الى الأمير ميشكين («الابله») بقرابة بعيدة .

ايفان فيدوروفتش :

هو ايفان فيدوروفتش ايبانتشين . راجع اسم ايبانتشين .

ايفولجين :

هو آردالیون الكسندروفتش (او الكسندرتش) ايفولجين . جنرال محال على التقاعد ، سكير . زوج نينا الكسندروفنا وأبو الشاب جافريلا آردالیونوفتش وأخته باربارا آردالیونوفنا وأخيه الصبى كوليا .

باراشكوفا :

هى ناستاسيا فيليبوفنا باراشكوفا . راجع اسم ناستاسيا فيليبوفنا .

باربارا آردالیونوفنا :

ابنة الجنرال السكير ايفولجين وزوجة ايفان بتروفتش بتيتسين . ويرد اسمها مصغرا : فاريا ، فاركا ، فارتشكا .

بارفيون سيميونوفتش :

هو بارفيون سيميونوفتش — أو سيميونتش — روغوجين . راجع اسم روغوجين .

بافليشيف :

هو نيقولاى آندريفتش بافليشيف ، المحسن الى الأمير ميشكين ، فقد أرسله الى سويسرا على نفقته لمعالجته من «البلاهة» .

بتيتسين :

هو ايفان بتروفتش بتيتسين . يعمل مرابيا . كان مستأجرا غرفة عند أسرة الجنرال ايفولجين ، وقد تزوج ابنته باربارا آردالیونوفنا .

بيلوكونسكايا :

الأميرة بيلوكونسكايا ، صديقة اليزافيتا بروكوفيفنا ومستشارتها وناصحتها .

توتسكى :

آفاناسى ايفانوفتش توتسكى . مالك أطيان ثرى . كان وصيا على ناستاسيا فيليبوفنا فأغواها واتخذها خليلة .

تيرنتيف :

هو ايبوليت تيرنتيف ، ابن مارتا بوريسوفنا خليلة الجنرال السكير ايفولجين . فتى مصدور . صديق كوليا .

جانيا :

راجع اسم جافريلا آردالیونوفتش ، فان جانيا هو مصغر جافريلا .

جافريلا آردالیونوفتش :

هو جافريلا آردالیونوفتش — او آردالیونتش — ايفولجين . ابن الجنرال السكير آردالیون الكسندروفتش ايفولجين . سكرتير الجنرال ايبانتشين . يسعى الى خطبة ناستاسيا فيليبوفنا . يهوى آجلايا ايفانوفنا ايبانتشينا . يرد اسمه مصغرا : جانيا ، جانكا ، جانتشكا .

رادومسكى :

هو يفغينى بافلوفتش رادومسكى . ضابط شاب . يود خطبة آجلايا . راجع اسم يفغينى بافلوفتش .

روغوجين :

هو بارفيون سيميونوفتش — او سيميونتش — روغوجين : ابن تاجر غنى ، ورث عن أبيه ثروة طائلة . أحب ناستاسيا فيليبوفنا باراشكوفا ، وأراد أن يتزوجها .

فاريا :

راجع اسم باربارا آردالیونوفنا . فان اسم فاريا هو تصغير باربارا .

فردشينكو :

شاب يسكن غرفة مستأجرة فى بيت أسرة ايفولجين ، ويتردد على ناستاسيا فيليبوفنا .

فيرا لوكيانوفنا :

بنت لوكيان تيموفئفتش ليبيديف ، بنته الكبرى التى تتولى أمور البيت .

كوليا :

هو نيقولاى آردالیونوفتش ايفولجين . فتى فى المدرسة الثانوية . الابن الأصغر للجنرال السكير ايفولجين . يرد اسمه مصغرا : كوليا .

كيللر :

ملاكم . ملازم محال على التقاعد . أحد أفراد بيئة بارفيون سيميونوفتش روغوجين وناستاسيا فيليبوفنا . تعلق بعد ذلك بالأمير

ليف نيقولايفتش ميشكين .

ليبيديف :

هو لوكيان تيموفئفتش — او تيموفيتش — ليبيديف . موظف يرتبط بعصبة بارفيون سيميونوفتش روغوجين ، ثم يحوم حول الأمير ليف نيقولايفتش ميشكين بالمكيدة والمكر .

لوكيان تيموفيفتش :

هو لوكيان تيموفئفتش — او تيموفيتش — ليبيديف . راجع اسم ليبيديف .

ليف نيقولايفتش :

هو الأمير ليف نيقولايفتش — او نيقولايتش — ميشكين . انه بطل الرواية الرئيسى : «الأبله» .

مارتا بوريسوفنا :

أرملة الكابتن تيرنتيف . خليلة الجنرال السكير ايفولجين . أم الفتى المسلول ايبوليت .

ميشكين :

هو الأمير ليف نيقولايفتش ميشكين ، البطل الرئيسى فى الرواية ، «الأبله» .

ناستاسيا فيليبوفنا باراشكوفا :

امرأة كان آفاناسى ايفانوفتش وصيا عليها فى طفولتها ، ثم أغواها وأصبح يعولها . رضيت الهرب مع بارفيون سيميونوفتش روغوجين ولكنها لم تقبل أن تتزوجه .

نيقولاى آردالیونوفتش — كوليا .

نيقولاى آندريفتش :

هو نيقولاى آندريفتش بافليشيف ، المحسن الى الأمير ميشكين . راجع اسم بافليشيف .

نينا ألكسندروفنا :

زوجة الجنرال السكير آردالیون الكسندروفتش ايفولجين . أم جافريلا وباربارا وكوليا . تؤجر غرفا فى بيتها لتستطيع أن تعول الأسرة .

حواش

الصفحة

ص ١٧ • «قطار وارسو» : بقطار وارسو انما كان يصل المسافرون الى بطرسبرج آتين من الخارج ، من فينا وبرلين (عن طريق آيدكونن) .

ص ١٨ • «آيدكونن» : اخر محطة بروسية على حدود روسيا .

ص ٢٤ • «فهو اسم تاريخى» : ورد ذكر هذا الاسم مرة واحدة فى كتاب «تاريخ الدولة الروسية» لكارامزين ، فى القرن التاسع عشر ؛ غير أن هذه الأسرة ما لبثت أن انطفأت . ولعل دوستويفسكى قد اختار هذا الاسم — المشتق من كلمة «ميشكا» ومعناها فأر صغير — اشارة الى ما يتصف به طبع هذه الشخصية من تواضع وامحاء .

ص ٢٤ • «كارامزين» (نيقولاى ميخائيلوفتش كارامزين) : مؤرخ روسى شهير (١٧٦٦ — ١٨٢٦) ، هو مؤلف كتاب «تاريخ الدولة الروسية» الذى يقع فى اثنى عشر جزءا .

ص ٢٦ • «المواطن الفخرى الوراثى . . .» : المقصود اللقب الذى كان يُنعم به على التجار وغيرهم من الأشخاص الذين لا ينتمون الى فئة النبلاء ، تقديرا لخدمات قاموا بها ، وكان ينتقل الى الأسلاف بالوراثة .

ص ٢٩ • «يستحق النفى الى سيبيريا» : ان كل جرم فيه خرق للمقدسات كانت القوانين تعاقب مرتكبه عقابا صارما ، وكانت سرقة الاشياء الخاصة بالعبادة تدخل فى حكم هذا الجرم .

ص ٣١ • «آرمانس ، كورالى» : لا بد انهما من النساء اللواتى كن مرموقات فى المجتمع ، وأنهما من أصل فرنسى .

ص ٣٢ • «. . . فى شرفتها بالمسرح ، «المسرح الكبير» أو «المسرح الفرنسى» : «المسرح الكبير» كان يقوم فى ميدان المسارح ،

فى مكان كونسرفتوار لينينغراد حاليا (شيد عام ١٧٨٣ وهدم خلال ١٨٨٩ — ١٨٩٢) وكانت تقدم على خشبته عروض الفرق الروسية والاجنبية ، سواء عروض الأوبرا والباليه ام الأعمال الدرامية .

ص ٣٢ • «انها أميرة» : ليست ناستاسيا فيليبوفنا أميرة ، فهذه مبالغة من زاليوجيف .

ص ٣٩ • «. . . كان الجنرال ايبانتشين فى الماضى يزاول أعمال الالتزام . . .» : هو بيع حق الالتزام لأشخاص آخرين ، أى حق تحصيل ضرائب الدولة أو دخل احتكارات الدولة . وكان بيع حق الالتزام بتحصيل ضرائب الخمور بصفة خاصة منتشرا فى روسيا ، وكان ذلك يدر على مشترى حق الالتزام أرباحا طائلة وينزل الخراب بالأهالى . وقد ألغى هذا النظام عام ١٨٦٣ .

ص ٤٠ • «خادم أمين ، وفى بغير تملق» : مبدأ كان الجنرال آراكتشييف الذى خلع عليه بافل الأول لقب كونت ، سنة ١٧٨٩ ، قد اختاره شعارا له .

ص ٤١ • «صاحب السمو» ان هذا الكونت الذى لا يسميه المؤلف والذى سيرد ذكره فيما بعد قد يكون رئيس الجنرال ايبانتشين .

ص ٤٦ • «فى دير غير ديرك . .» من الأمثال الروسية السائرة : «فى دير غير ديرك لا تحاول أن تفرض قاعدتك» .

ص ٤٩ • «آردالیونتش» : النطق المختصر لاسم النسبة الى الاب «آردالیونوفتش» . وسوف يلاحظ القارئ ان اسم هذا الشخص من شخوص الرواية يرد تارة آردالیونتش ، وتارة آرادليونوفتش .

ص ٥١ • «. . . ان الحديث هنا عن محاكم يكثر فى هذه الأيام» : نتيجة للاصلاح القضائى لعام ١٨٦٤ استبدلت بالمحاكم القنوية القديمة محاكم عامة لجميع الفئات ، وكانت جلساتها علنية بمشاركة المحلفين والمحامين . وكانت الصحف تنشر

تقارير عن جلسات المحاكم . وتقول زوجة الكاتب : «فى شتاء عام ١٨٦٧ كان فيودور ميخائيلوفتش يهتم للغاية بجلسات محاكم المحلفين . وكان احيانا يعرب عن اعجابه البالغ وتأثره بأحكامها العادلة والحكيمة . . .» ولكن فى الغالب كانت أحكام المحلفين تثير قلقه واستغرابه .

ص ٥١ • «من ذلك ان عقوبة الاعدام قد ألغيت . . .» : ألغيت عقوبة الاعدام فى روسيا بمرسوم من الامبراطورة يليزافيتا بتروفنا فى ١٧٥٣ — ١٧٥٤ ، ولكن سرعان ما أعيدت فى عهد يكاتيرينا الثانية كأعلى عقوبة على جرائم الدولة والجرائم العسكرية وبعض الجرائم الأخرى . ونظرا لنهوض الحركة التحررية فى ستينات القرن الماضى فقد كثر استخدام هذه العقوبة . وعلى هذا فالقول بأن «عقوبة الاعدام قد ألغيت» فى روسيا على لسان الأمير ميشكين ، والاستناد الى ان الأمير لم ير تنفيذ العقوبة الا فى الخارج ، قد أوردها دوستويفسكى (الذى حكم عليه هو نفسه بالاعدام عام ١٨٤٩) على الارجح ليحمى من تدخل الرقابة صفحات الرواية التى تتضمن خواطر الأمير عن عقوبة الاعدام .

ص ٥١ • «نعم . رأيت اعداما فى فرنسا بمدينة ليون.» : كانت اعدامات المجرمين الجنائيين فى فرنسا تجرى بصورة علنية حتى نهاية القرن التاسع عشر (وكانت عقوبة الاعدام فى الجرائم السياسية قد ألغيت عام ١٨٤٨) .

ص ٥٣ • «لقد قيل مع ذلك : «لا تقتل»» : من وصايا العهد القديم (سفر الخروج ، الاصحاح العشرون ، الآية ١٣) وتذكر مرارا فى أسفار العهد الجديد ايضا .

ص ٥٥ • «ربما كان يوجد فى العالم انسان حكم عليه بالموت . . .» : يتحدث دوستويفسكى هنا بالدرجة الأولى عن نفسه وعن زملائه أعضاء «جماعة بتراشيفسكى» الذين لم يبلغوا بالغاء حكم

الاعدام الا فى اللحظة الأخيرة ، بعد قراءة الحكم عليهم والشروع فى اجراءات تنفيذه .

ص ٥٥ • «المسيح نفسه قد تكلم أيضا عن هذا العذاب ، عن هذا الخوف !» : المقصود المشهد الوارد فى الانجيل فى ضيعة يقال لها جثسيمانى : «فقال لهم يسوع : نفسى حزينة حتى الموت . . . ثم تقدم قليلا وخرَّ على وجهه وكان يصلى قائلا يا أبتاه ! ان أمكن فلتعبرْ عنى هذه الكأس . ولكن ليس كما أريد أنا بل كما تريد أنت» (انجيل متى ، الاصحاح السادس والعشرون ، الآيتان ٣٨ ، ٣٩) .

ص ٥٧ • «جانيا» : تصغير اسم جافريلا .

ص ٧٤ • «ان المطران الذليل بافنوتى قد وقع هذا بخط يده» : هذا المطران هو مؤسس منسك فى مقاطعة كوستروما ، فى القرن الرابع عشر . وقد نشر توقيعه المؤرخ وعالم الآثار ميخائيل بوجودين (١٨٠٠ — ١٨٧٥) فى ألبوم من جزئين بعنوان «نماذج من الخطوط السلافية الروسية» (موسكو ، ١٨٤٠ — ١٨٤١) . ويضم الألبوم ٤٤ نموذجا من الخطوط (من القرن ٩ الى القرن ١٨) .

ص ٧٤ • «الاجتهاد يذلل جميع الصعاب» : نقشت هذه العبارة بأمر من الامبراطور نيقولاى الأول عام ١٨٣٨ على ميدالية سُكّت تكريما للكونت بيوتر كلينميخيل (١٧٩٣ — ١٨٦٩) بعد التشييدات الجديدة فى قصر الشتاء ، التى تمت تحت اشرافه .

ص ٧٨ • فرديشنكو» : ان الاسماء التى تنتهى بـ«ينكو» أكرانية الأصل

ص ٨٨ • «أوترادنويى» : كلمة مشتقة من أوترادا ، ومعناها وسط بين معنى كلمة «راحة» ومعنى كلمة «لذة» . يؤكد دوستويفسكى فى بعض رسائله على «مطابقة شخصية ناستاسيا فيليبوفنا للواقع تماما» . وقد تأكد بعد دراسة الواقع الموسكوفى لرواية «الأبله» انه «كان يوجد قبر لسيدة تدعى ناستاسيا فيليبوفنا روغوجينا» فى مقبرة

فاغانكوفو ، الوارد ذكرها فى الرواية . وثمة اعتقاد بأنه قد انعكست فى مصير ناستاسيا فيليبوفنا ، وفى علاقاتها بتوتسكى وروغوجين ، وقائع من حياة م . ب . كومانينا (التى كانت تدعى قبل الزواج فيدينيسوفا) . وقد امضت السنوات الأولى من حياتها فى ضيعة (أوترادنويسى) . وكانت فيدينيسوفا هى أيضا يتيمة ونشأت فى بيت وصيّها ف . ا . كومانين (الذى كان شقيق عم دوستويفسكى ، وربما كان هو الأصل لشخصية توتسكى) . وقد زوجها الوصى فيما بعد من ابن أخيه ك . ك . كومانين . وعاشت فيدينيسوفا معه قبل الطلاق فى بيت تجار قاتم يشبه بيت روغوجين فى الرواية . وربما كان زوج فيدينيسوفا أصلا لشخصية روغوجين الى حد ما (المصدر : غ . فيودوروف . «موسكو دوستويفسكى» . الجريدة الأدبية ، العدد ٤٣ ، ٢٠ اكتوبر ١٩٧١) .

ص ١٠٢ • «وظل يخشى أن يكون تحت الأزهار أفعى .» : استشهاد مضمن بعبارة «أفعى ، أفعى تختفى فى الأزهار !» من مسرحية «روميو وجولييت» لشكسبير (الفصل الثالث ، المشهد الثامن) .

ص ١١٧ • «وذلك شىء تكلمت عنه أساطير اليونان الأقدمين .» : الاشارة هنا الى موضوعات مؤلف الكاتب الرومانى القديم ابوليوس (حوالى ١٣٥ — حوالى ١٨٠) «التحولات أو الحمار الذهبى» ، وربما أيضا الى كوميديا شكسبير «حلم ليلة صيف» .

ص ١٢١ • «وصف الجنوب والمشرق منذ زمن طويل . . .» : استشهاد غير دقيق بقصيدة للشاعر ليرمونتوف : «الصحفى والقارئ والكاتب» .

ص ١٢٥ • «هو رجل اقتيد مع رجال آخرين محكوم عليهم بالاعدام ، وقرئ عليه قرار المحكمة باعدامه رميا بالرصاص لجريمة سياسية .» : ان آنا جريجوريفنا ، أرملة دوستويفسكى ، قد كتبت تقول : «ان ذكريات كل ما شعر به فيودور ميخائيلوفتش دوستويفسكى أثناء الشروع فى تنفيذ حكم الاعدام فى جماعة بتراشفسكى كانت تؤلمه

كثيرا ، فلا يتحدث عنها الا فى النادر . لكننى سمعته يرويها ثلاث مرات بهذه التعابير نفسها التى ترد فى رواية «الأبله» .

ص ١٢٦ • «كان سيموت وهو فى السابعة والعشرين من عمره . . .» : لقد ولد دوستويفسكى فى ٣٠ اكتوبر ١٨٢١ ، وكان عمره ثمانية وعشرين عاما حين صدر الحكم عليه بالاعدام فى سنة ١٨٤٩ .

ص ١٣٣ • «لقد رأيت فى مدينة بال ، منذ مدة غير طويلة ، لوحة مماثلة . . .» : ان دوستويفسكى قد زار متحف مدينة بال فى شهر اغسطس من سنة ١٨٦٧ ، فأثرت فيه بعض اللوحات تأثيرا كبيرا . وهو هنا يشير الى لوحة هانس فريس «قطع رأس القديس يوحنا المعمدان» (١٥١٤) التى تمثل وجه يوحنا وهو ما يزال حيا تحت السيف الذى أشهره الجلاد .

ص ١٤٠ • «فى وسع المرء أن يقول للطفل كل شىء . . .» : ذكرت آنا دوستويفسكيا ، زوجة الكاتب ان «فيودور ميخائيلوفتش كان يردد هذه الفكرة كثيرا ويطبقها فى حديثه مع أبنائه» .

ص ١٥٧ • «مادونا هولباين بمدينة درسدن» : كان دوستويفسكى سنة ١٨٦٧ قد أعجب فى معرض درسدن باللوحة التى رسمها هولباين الشاب (١٤٩٧ — ١٥٤٣) «مادونا مع أسرة جان ماير» (١٥٢٥ — ١٥٢٦) . ولقد كانت اللوحة الأصلية موجودة فى متحف دارمشتات . ولكن كان المظنون فى ذلك العهد أن لوحة درسدن هى اللوحة الأصلية التى رسمها هولباين .

ص ١٨٣ • «كوليا» : تصغير اسم نيقولاى .

ص ١٨٥ • «تدل لحيته الصغيرة . . . على أنه رجل غير مقتصر على حياة الوظيفة . . .» : كان الأمر الصادر من الامبراطور نيقولاى الأول فى ٢ أبريل ١٨٣٧ يحظر على الموظفين فى السلك المدنى اطلاق لحاهم وشواربهم .

ص ١٩٣ • «كان كل لواء من ألوية الجيش بروسيا يسمى باسم المدينة أو المقاطعة التى أنشئ فيها أول ما أنشئ ، وذلك بالاضافة الى اسمه الرسمى . فكذلك يقال لواء فاسيليفسكى أو لواء بيبلوميريسكى .

ص ١٩٦ • «مدينة تفير» (اليوم مدينة كالينين) : مدينة بشمال روسيا ، على خط موسكو بطرسبرج (لينينغراد) . و«اليزافيتجراد» (اليوم كيروفوجراد) مدينة بالجنوب فى السهوب أنشئت فى عهد الامبراطورة اليزافيتا .

ص ١٩٨ • «فوج مدفعية نوفو زمليانسكى» : الواقع أن هذا الفوج لا وجود له . وقد اخترعه الكاتب المسرحى جريبويدوف فى حوار الكولونيل سكالوزوب مع نفسه ، فى مسرحية «وذو العقل يشقى» . فهذا الاسم الوهمى يشير الى ما يتصف به كلام الجنرال ايفولجين من أنه أخيلة كاذبة .

ص ٢٢٠ • «حصار كارس» : ان حصار قلعة كارس الواقعة فى شرق تركيا الشمالى استمر ، خلال حرب القرم (١٨٥٣ — ١٨٥٦) ، منذ نهاية مايو ١٨٥٥ وانتهى باستسلام القلعة للجنرال مورافييف فى السادس من شهر نوفمبر ١٨٥٥ .

ص ٢٢٤ • «جريدة «Indépendance» : هى جريدة «الاستقلال البلجيكى» التى كانت تصدر فى بروكسل منذ سنة ١٨٣٠ حتى ١٨٣٧ . وكان دوستويفسكى يقرأ كثيرا هذه الجريدة الحسنة الاطلاع ، ولا سيما فى حياة اوروبا الغربية الاجتماعية والسياسية .

ص ٢٤٠ • مسرحية «الحفلة التنكرية» . وهى مسرحية شعرية كتبها الشاعر الروسى العظيم ميخائيل ليرمونتوف (١٨١٤ — ١٨٤١) وهو فى الحادية والعشرين من عمره . ويشير كوليا ايفولجين هنا الى الاهانة التى وجهها اربينين الى الأمير زفيزديتش . (الفصل الثانى ، المشهد الرابع) .

ص ٢٥٧ • «أرسل بيروجوف برقية الى باريس . . . ليفحصنى .» : يقدم الجنرال تفسيرا خياليا لحادث حقيقى . فالجراح الروسى العظيم نيقولاى بيروجوف (١٨١٠ — ١٨٨١) الذى كان يرأس الخدمة الطبية العسكرية أثناء حصار سيباستوبول فى حرب القرم (١٨٥٣ — ١٨٥٦) قد رحل الى بطرسبرج فى أول يونيو ١٨٥٥ احتجاجا على الاهمال المستمر من جانب القيادة العسكرية لمتطلبات خدمة الجرحى . وقد عاد الى سيباستوبول ثانية فى سبتمبر .

وأوجوست نيلاتون (١٨٠٧ — ١٨٧٣) جراح فرنسى شهير ، عضو الاكاديمية الطبية بباريس لم يزر روسيا على الاطلاق .

ص ٢٦٥ • «لينوتشكا» : تصغير اسم ايلينا .

ص ٢٦٨ • «أب بمدينة موسكو يوصى ابنه بأن لا يصده شىء فى سبيل الحصول على مال . كتبوا عن هذا فى الجرائد» . : الاشارة هنا الى قضية الطالب دانيلوف التى أثارت ضجة كبيرة فى ١٨٦٦ — ١٨٦٨ . فقد اتهم هذا الطالب بجامعة موسكو ، وعمره ١٩ سنة ، بقتل ونهب أحد المرابين وخادمته . وقد أدانه القضاء وحكم عليه بتسع سنوات أشغال شاقة . ثم سرعان ما تكشفت تفاصيل جديدة أذهلت دوستويفسكى بصفة خاصة . اذ اتضح أن دانيلوف ارتكب جريمته أثر حديث مع أبيه ، نصحه فيه الأب ، بعد أن علم بنية ابنه على الزواج «بألا تصده عقبة ، وان عليه لتحقيق سعادته أن يحصل على المال ولو ارتكب فى سبيل ذلك جريمة» . وهكذا أصبح الأب شريكا فى جريمة القتل .

ص ٢٧٧ • «كريلوف ايفان (١٧٦٩ — ١٨٤٤) ، الكاتب الروسى الشهير الذى كتب قصصا أبطالها حيوانات ، على طريقة لافونتين . والقصة المشار اليها هنا هى قصة الحمار الذى لبط أسدا دب فيه الهرم .

ص ٢٨٨ ◦ «من يخش الذئب لا يذهب الى الغابة» : من الامثال الروسية السائرة .

ص ٣٠٣ ◦ «أوريكا» : كلمة من اليونانية القديمة معناها «وجدتها» . وينسب الى أرخميدس (٢١٢ — ٢٨٧ قبل الميلاد) انه حين اكتشف أحد القوانين الفيزيائية الرئيسية وهو بالحمام ، خرج يركض صارخا من فرحته «أوريكا ، أوريكا» أى وجدتها ، وجدتها .

ص ٣٠٦ ◦ «طلب نقله الى القوقاز» : كانت بلاد القوقاز فى ذلك العهد مناطق غير آمنة ، بسبب حروب مستمرة ناشبة مع الثوار فى الجبال . فكانت لذلك تعدّ منفى رسميا للعسكريين والمدنيين .

ص ٣٠٦ ◦ «. . . قتل فى القرم . . .» : يبدو من سياق الرواية أن المقصود هنا هو حرب القرم (١٨٥٣ — ١٨٥٦) التى أشير اليها فى الرواية أكثر من مرة .

ص ٣١٢ ◦ «كاتيا» : تصغير اسم ايكاترينا .

ص ٣١٦ ◦ «مارلنسكى» : الاسم الادبى المستعار للكاتب الديسمبرى الكسندر بستوجيف (١٨٩٧ — ١٨٣٧) الذى نفى الى القوقاز جنديا بسيطا . وقد وصف الناقد الروسى العظيم فيساريون بيلينسكى أسلوبه بأنه «متوتر وعالٍ ومشبوب» . وتشير ملاحظة دوستويفسكى الساخرة الى ذيوع اسم مارلنسكى سابقا ، خاصة فى أواسط العسكريين ، الذين ينتمى اليهم كثير من شخصيات أعمال دوستويفسكى .

ص ٣١٩ ◦ «جريدة أنباء البورصة» : هى جريدة يومية اقتصادية ، سياسية ، أدبية كانت تصدر منذ ١٨٦١ حتى بداية الثمانيات ست مرات فى الاسبوع بمدينة بطرسبرج .

ص ٣٢٠ ◦ «باشا» : تصغير اسم بيلاجيا او باراسكيفا .

ص ٣٢٣ ◦ «جزيرة فاسيليفسكى» : (فاسيليفسكى اوستروف) — حى من أحياء العاصمة بطرسبرج يقع فى جزيرة .

ص ٣٢٤ ◦ «أو هم يأخذون سكينا فيلفونها بحرير . . . قرأت عن هذا حديثا .» : فى سنة ١٨٦٦ دعا تاجر شاب من موسكو اسمه مازورين ، دعا الى بيته رفيقا له هو بائع الجواهر كالميكوف وقتله . ان هذا التاجر الشاب المنحرف الذى كان قد ورث مليونين ثم أتلفهما ، قد اتخذه دوستويفسكى نموذجا نقل عنه بعض سمات شخصية روغوجين .

ص ٣٣٠ ◦ تقدم رواية «ألف نفس» للكاتب الروسى اليكسى بيسمسكى (١٨٢٠ — ١٨٨١) شخصية حية لتاجر يدعى بابوشين . ويبدو أن هذه الرواية كانت فى مجال اهتمام دوستويفسكى وهو يكتب «الأبله» .

ص ٣٣٧ ◦ «ايكاتيرنهوف» : قرية تقع فى ضواحى بطرسبرج مسماة تكريما للامبراطورة يكاتيرينا الاولى ، مع قصر بناه بطرس الاول وحدائق . وكان الناس يذهبون الى هناك ينشدون اللهو والتسلية .

ص ٣٦٤ ◦ «ان أميرا اسمه «ش . . .» : هذه هى الشخصية الوحيدة التى لا يذكر المؤلف اسمها كاملا بل يقتصر على الحرف الاول من الاسم .

ص ٣٦٥ ◦ الزيمستفو — هكذا أسميت الادارة الذاتية المحلية التى انشئت بموجب قانون اصلاح الزيمستفوات الصادر عام ١٨٦٤ . كانت صلاحيات الزيمستفوات تنحصر فى حل القضايا الاقتصادية المحلية .

ص ٣٦٧ ◦ «حى اسماعيلوفسكى» : حى فى وسط بطرسبرج سمى باسم الثكنات التابعة للواء الحرس اسماعيلوفسكى .

ص ٣٧١ • «دون كيشوت دو لامانش» : كان دوستويفسكى يقدر كتاب هذا الكاتب الاسبانى العظيم ، سرفانتس ، تقدرا كبيرا . وقد كتب يقول فى «يوميات كاتب» (آذار ١٨٧٦) : «ليس فى العالم كتاب أعمق ولا أقوى من هذا الكتاب . انه حتى الآن آخر وأكبر كلام قاله الفكر الانسانى ، وهو ألذع سخرية مرة استطاع انسان أن يعبر عنها» . حتى لقد رأى بعضهم أن ثمة شبها بين شخصية الفارس الحزين دون كيشوت وبين شخصية الأمير ميشكين .

ص ٣٧٣ • «بافلوفسك» : قرية فى ضواحى بطرسبرج ، وهى مصيف لسكان بطرسبرج كانت تقام فيها حفلات موسيقية .

ص ٣٧٤ • «حى الرمال» : حى فى ضاحية متواضعة شرق العاصمة ، تخترقه شوارع عديدة .

ص ٣٧٨ • «تانيا» : تصغير اسم تاتيانا .

ص ٣٧٨ • «ليوبوتشكا» : تصغير الاسم النسوى ليوبوف ، ومعناه الحب بالمعنى المسيحى ، وهو اسم رائج جدا كالاسمين الآخرين اللذين يعبران عن فضيلتين مستمدتين من اللاهوت وهما «فيرا» (الايمان) و«ناديجدا» (الامل) .

ص ٣٧٨ • «قاتل أسرة جيمارين» : فى ١٠ آذار (مارس) سنة ١٨٦٨ قرأ دوستويفسكى فى صحيفة «غولوس» نبأ يقول أن فيتولد جورسكى وهو طالب مدرسة ثانوية بمدينة تامبوف قام بقتل ستة أشخاص فى آن واحد هم : التاجر جيمارين وأمه وابنه واحدى قريباته وخادمين . وقد اهتم دوستويفسكى اهتماما شديدا بهذه الجريمة .

ص ٣٧٩ • ان القضايا الصغيرة ، مدنية كانت أو جزائية ، انما تنظر فيها محكمة الصلح فى كل حى من أحياء المدينة ، (قانون ١٨٦٤) ، حتى اذا استؤنفت نقلت الى مجمع قضاة الصلح الاقليمى .

ص ٣٨٠ • ان هذه العبارة قد وردت فى البيان الامبراطورى الصادر فى ١٩ آذار (مارس) ١٨٥٦ بشأن وقف الحرب بين روسيا وتركيا وعقد الصلح بينهما .

ص ٣٨٢ • المعنى الحرفى لكلمة «بالكى» هو «العصى» ، واللعبة لعبة قديمة من ألعاب الورق .

ص ٣٨٣ • «الكفاس» : شراب رخيص مستخرج من الخبز الاسود المخمر أو من الفاكهة .

ص ٣٨٥ • «كونتيسة دى بارى» : هى الكونتيسة مارى جان دى بارى (١٧٤٣ — ١٧٩٣) ، أثيرة لويس الخامس عشر ، وقد أعدمت بالمقصلة فى ٨ كانون الاول ١٧٩٣ بحكم المحكمة العسكرية الثورية .

ص ٣٩٣ • «نيقولاى آرداليونوفتش» : ان ليبيديف يقصد هنا كوليا ، وليس مألوفا أن يسمى طفل أو مراهق بهذه الطريقة المفخمة ، أى أن يذكر اسمه واسم نسبته الى أبيه

ص ٣٩٥ • «ثمنية قمح بدينار ، وثلاث ثمنيات شعير بدينار» : رؤيا القديس يوحنا (الاصحاح السادس ، ٦ ، ٨) .

ص ٣٩٧ • ان الحفلات الموسيقية التى كانت تقام فى حدائق محطة بافلوفسك كانت تتمتع بشهرة كبيرة ، وكانت ملتقى أبناء الطبقة الراقية .

ص ٤٠١ • «الخصيان» : أعضاء تلك الملة الدينية التى يخصى أفرادها أنفسهم تعصبا ، وهم يمارسون مهنة الصرافين فى أكثر الأحيان .

ص ٤٠١ • «. . . بورجوازى فخرى وراثى» : ان الاكثرية الكبرى من التجار ، فى أواسط القرن التاسع عشر ، انما كانوا فلاحين اغتنوا من

التجارة . فاذا انقطع هؤلاء عن دفع رسوم الانتساب الى طبقة التجار ، عادوا يهبطون الى طبقة القرويين . وقد أسرع المشرع الى ملاقاة الشعور الطبقى الذى أخذ ينشأ فى ميدان التجارة ، فأنشأ فئتين مستقلتين عن دفع الرسوم ، هما : «فئة البورجوازيين العاملين» و«فئة البورجوازيين الفخريين الوراثيين» .

ص ٤٠٦ • هو سرجى ميخائيلوفتش سولوفييف (١٨٢٠ — ١٨٧٩) ، المؤرخ الروسى الكبير ، أعظم مؤلفاته كتاب «تاريخ روسيا» الذى ظهر فى ٢٩ مجلدا من ١٨٥١ الى ١٨٧٩ ، مجلدا كل عام ، وأعيد طبعه فى سبعة مجلدات سنة ١٨٩٧ . وكان دوستويفسكى شديد الاعجاب بهذا الكتاب ، وقد حمل عددا من مجلداته حين سافر الى الخارج سنة ١٨٦٧ .

ص ٤١٤ • «انه لا يناسبك أكثر مما يناسب البقرة أن يوضع على ظهرها سرج» : من التعابير الروسية السائرة .

ص ٤١٥ • «قصة بابا غضب من امبراطور» : اشارة الى امبراطور المانيا هنرى الرابع الذى جاء للكفارة أمام البابا جريجوار السابع سنة ١٠٧٧ .

ص ٤١٨ • «ترسم اشارة الصليب بأصبعين» : هذه طريقة ملة «قدماء المؤمنين» فى رسم اشارة الصليب .

ص ٤٢٧ • «منسوخة عن لوحة هانس هولباين» : كان دوستويفسكى قد رأى سنة ١٨٦٧ بمدينة بال ، لوحة هولباين «المسيح فى اللحد» (١٥٢١) ، فأثرت فيه واقعيتها تأثيرا أليما رهيبا ، ومما يروى عنه أنه قال لامرأته : «ان لوحة كهذه اللوحة خليقة بأن تفقد المرء ايمانه» .

ص ٤٢٩ • «. . . رجل اسمه س . . .» : من الجائز أن يكون دوستويفسكى حين وصف هذه الشخصية الواسعة الثقافة التى لا تؤمن بالله

بل تذهب مذهب الالحاد ، قد أراد الاشارة الى نيقولاى سبيشنيف (١٨٢١ — ١٨٨٢) ، عضو حلقة بتراشفسكى .

ص ٤٣٣ • «تريد ان نتبادل صلبينا ؟» : كان كل روسى ارثوذوكسى يحمل فى عنقه صليبا منذ ولادته ، صليبا من معدن او خشب . وتبادل الصليبين بين شخصين طقس من الطقوس الدينية يعنى خلق «أخوة» روحية .

ص ٤٤٣ • «لا يكون زمانٌ بعدُ» (رؤيا القديس يوحنا ، الاصحاح العاشر ، ٦) .

ص ٤٤٦ • «سلاح يطلب صنعه وفقا لرسم معين ، وستة أشخاص يذبحون دفعة واحدة . .» : هنا يتذكر المتكلم قضية قاتل أسرة جيمارين (حاشية الصفحة ٣٧٩) . ان الطالب الثانوى فيتولد جورسكى قد تسلح بمسدس هيأه سلفا ، وكان قد أوصى حدادا بأن يصنع له سلاحا خاصا زاعما له أنه فى حاجة اليه لألعاب رياضية .

ص ٤٦٥ • «الذكرى الالفية لروسيا» : ان ذلك اليوم هو ٨ أيلول ١٨٦٢ .

ص ٤٦٩ • «لا تنزل الماء ما لم تضمن المخرج» : من الامثال الروسية السائرة .

ص ٤٧٩ • «الفارس الفقير» : قصيدة للشاعر بوشكين نظمها سنة ١٨٣٠ وفيها يتحدث عن فارس من القرون الوسطى اختار مريم العذراء «سيدة» له .

ص ٤٨٤ • «ان «الفارس الفقير» قد اختار هذه الأحرف الثلاثة شعارا له «آ . م . د .» وهى الأحرف الاولى من ثلاث كلمات لاتينية معناها «سلاما أم الرب» . ولكن آجلايا تبدل حرف «د» بحرف «ب» ، وهو الحرف الاول من اسم عائلة ناستاسيا فيليبوفنا باراشكوفا . وبعد قليل ستحل محل «آ . م . ب .» الأحرف «ن . ف . ب .» صراحة .

ص ٤٩٣ • «على المرء أن لا يحطم الكراسى» : تعبير مستمد من مسرحية الكاتب الروسى الكبير جوجول : «المفتش العام» (١٨٣٦) ، وفيها يظهر (الفصل الاول ، المشهد الاول) استاذ للتاريخ يؤخذ عليه أنه يتحمس الى حد «تحطيم الكراسى» حين يتكلم عن الاسكندر الاكبر . لذلك فان تعبير «تحطيم الكراسى» جرى على الالسن اشارة الى بذل طاقة فى غير محلها .

ص ٤٩٦ • «طبعة آننكوف» : المقصود هنا اصدار مؤلفات بوشكين تحت اشراف بافل آننكوف (الناقد الروسى الادبى (١٨١٣ — ١٨٨٧)) . وقد أصدرها بافل آننكوف بسبعة مجلدات بين سنة ١٨٥٥ و١٨٥٧ .

ص ٥٠٠ • «ان يبرهنوا على أن بوشكين لا نفع فيه» : اشارة الى مساجلات مدوية قامت فى الستينات من القرن الماضى حول ابداع بوشكين . وشن الناقد الروسى بيساريف (١٨٤٠ — ١٨٦٨) على ذكرى بوشكين هجوما عنيفا .

ص ٥٠٠ • «جورسكى ودانيلوف» : القاتلان اللذان ورد الحديث عنهما فى حاشية الصفحة ٣٧٩ .

ص ٥٠٧ • «جريدة اسبوعية فكاهية . . .» : يلمح دوستويفسكى الى الجريدة الهجائية «الشرارة» ، التى صدرت ببطرسبرج من سنة ١٨٥٩ الى سنة ١٨٧٣ باشراف الشاعر كوروتشكين والرسام الفكاهى ستيبانوف .

ص ٥٠٩ • «لا حظ الا لفئة من الناس» : ان أصل المثل هو «لاحظ الا للاغبياء» وهذا يحدد الفئة المقصودة هنا .

ص ٥١٠ • «فالمرء لا يكاد يصدق هذا الأمر رغم أنه قريب العهد» : بيت من الشعر مستمد من مسرحة الكاتب الروسى والديبلوماسى جريبويدوف (١٧٩٥ — ١٨٢٩) الهزلية الشهيرة «وذو العقل يشقى» (الفصل الثانى ، المشهد الثانى) .

ص ٥١٢ • «السحابة» (١٨١٥) : واحدة من أجمل الحكايات الخرافية التى كتبها الكاتب الروسى الكبير كريلوف .

ص ٥١٣ • ملة «الراسكولنيك» : هى ملة «قدامى المؤمنين» ، ويرجع عهدها الى الانشقاق الدينى الذى نشأ فى أعقاب اصلاح الشعائر الدينية على يد البطريرك نيكون .

ص ٥١٦ • ان دوستويفسكى يقلد هنا مقطعا من أشعار هجائية كتبه عنه الكاتب الهجائى الروسى سالتيكوف–شيدرين (١٨٢٦ — ١٨٨٩) بعنوان «فيديا المغرور» وفيه يصور دوستويفسكى بأنه يعبث بقصة جوجول «المعطف» ويضيع وقته فى سفاسف وترهات .

ص ٥٥٧ • «ب . . . ن» : يقصد دوستويفسكى الطبيب الروسى المشهور سيرغى بوتكين (١٨٣٢ — ١٨٨٩) .

ص ٥٧٢ • المقصود هنا الحرب الاهلية فى امريكا (١٨٠١ — ١٨٠٥) بين الولايات الشمالية والجنوبية .

ص ٥٧٦ • «الاميرة ماريا الكسييفنا لن تقول عن هذا شيئا» : اشارة الى حوار فاموسوف مع نفسه فى مسرحية جريبويدوف الشهيرة «وذو العقل يشقى» . ففى المشهد الاخير من المسرحية نرى الشخص يصيح قائلا : «آه . . . رباه . . . ما عسى تقول الأميرة ماريا الكسييفنا ؟» .

ص ٥٨٥ • «كويفر» ، «بيسكوب» : لا بد انهما مرابيان .

ص ٦٠٣ • «للاسقف الفرنسي بوردالو» : بوردالو واعظ فرنسى يسوعى مشهور (١٦٣٢ — ١٧٠٤) فى عهد لويس الرابع عشر . ان كيللر يتلاعب هنا بالألفاظ مشيرا الى الخمرة الفرنسية المشهورة ، خمرة «بوردو» .

فهرست

ص

من المراجع ٣
مقدمة .
رواية الافكار الاخلاقية العميقة . (بقلم الاستاذ ف .
كوليشوف) . الدكتور فى علوم الادب ٥
الجزء الاول ١٥
الجزء الثانى ٣٥١
شخصيات الرواية ٦٢٦
حواش ٦٣٠

الى القراء

ان دار «رادغا» تكون شاكرة لكم اذا تفضلتم و ابديتم لها ملاحظاتكم حول ترجمة الكتاب ، وشكل عرضه ، وطباعته ، واعربتم لها عن رغباتكم . العنوان : زوبوفسكى بولفار ، ١٧ موسكو ، الاتحاد السوفييتى